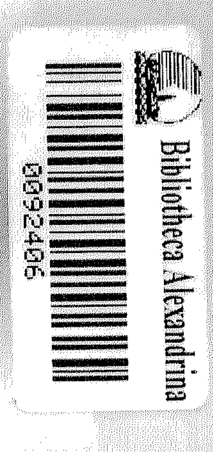


# النبي و أهل بيته

## قدوة وأسوه




آية الله السيد محمّد تقي المدرسي

يهدى ثواب هذا الكتاب الى روح المرحومة

**ام عادل العماري**

« رحمَ اللّه من قرأ على روحها الفاتحـة »

# النّبي واهل بيته

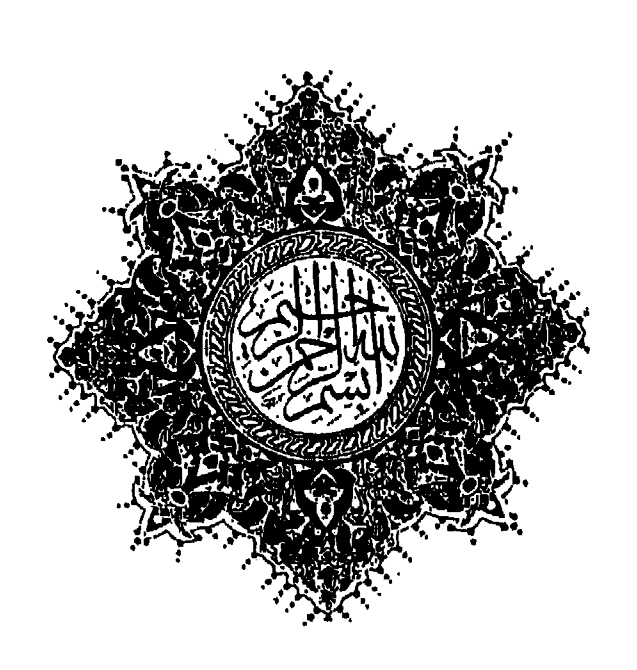
## قدوة وأسوة

آية الله السيد محمد تقي المدرّسي




دار البقيع
للطباعة والنشر

| | |
|---|---|
| اسم الكتاب : | النبي وأهل بيته قدوة وأسوة |
| المؤلف : | آية الله السيد محمد تقي المدرّسي |
| الناشر : | دار البقيع للطباعة والنشر |
| الطبعة : | الاولى ـ ١٤١٨هـ/١٩٩٧م |
| عدد النسخ : | ٣٠٠٠ نسخة |
| السعر : | ٩٠٠٠ ريال |



# المقدمة

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على قدوة المرسلين محمد المصطفى وعلى آله الهداة الميامين .

اين كانت البشرية اليوم لولم يبعث الله فيهم رسلا من انفسهم يتلون عليهم آياته ويزكونهم ويعلمونهم ، لولم يكونوا في ضلال مبين ؟

انى لهم الهدى وقد قادتهم اهواءهم الى ذلك التيه البعيد بالرغم من كل الرسل واوصياءهم والربانيين والشهداء من تابعيهم وما قدموا من عطاء وما تحملوا في الله ومن اجل انقاذ البشرية من اذى .

حقا تلك كانت نعمة كبرى منّ الله بها علينا فقال سبحانه :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران/١٦٤)

واكتملت مسيرة الرسالات الإلهية بنبوة خاتم الأنبياء وسيدهم محمد المصطفى صلى الله عليه وآله .

ولكن حاجة البشرية الى بيان الحق ، وتفسير الرسالة ، والشهادة على تطبيقها تلك الحاجة لم تزل ، لولم يختلفوا فيها ولمّا يدفنوا صاحبها الحبيب . فجاءت النعمة الثانية ، والعظيمة إذ منّ الله على الأمة بائمة الهدى الذين اصطفاهم من ذرية الرسول واختارهم لقيادة الأمة .

فكانوا اعلاماً لهدى القرآن ، ومناراً لضياء الرسالة ، وبيوتا لذكر الله اذن الله لها أن ترفع .

في طليعتهم سيد الوصيين الإمام امير المؤمنين (ع) وسيدة النساء الصديقة الزهراء (ع) ثم سبطي الرحمة وإمامي الهدى الحسن والحسين (ع) ، ثم الأئمة الهداة من ذرية السبط الشهيد (ع) .

لقد كانت حياتهم دفاعا عن مثل الرسالة وقيم الحق . وتبياناً لحقائق الدين ، وتفسيراً للقرآن الكريم وتبصرة بمعارفه وموعظة وحكمة بالغة .

لم تأخذهم في الله لومة لائم جاهدوا في الله حق الجهاد ، وسالت دمائهم الطاهرة ودماء ذريتهم وشيعتهم لترسم على الافق لوحة الخلق الرفيع وجمال التضحية في الله ومن اجل الحق والحرية .

اربعة عشر قدوة واسوة إلهية شهداء على درب الإيمان ، معالم في طريق الجنة ، وأعلاماً للهدى ، هل تجد لهم في الخلق نظيراً ؟

ولورثوا الأمة من بعدهم — الى جانب كنوز العلم — تلك السيرة النيّرة التي لاتزال تدعونا الى الفضيلة

والهدى .

مسيرة اعلام الهدى تعطينا - ابداً - عزما راسخا لاقتحام المستقبل واكتشاف المزيد من امكانات الانسان الكبيرة وبالذات الافاق الروحية التي لاتحد .

واليوم حيث استطاع الانسان بفضل نعمة المعرفة والتقنية ، ان يتقدم خطوات واسعة نحو تسخير الطبيعة . ازدادت حاجته الى الاخلاق لكبح جماح فرس العلم برسن الفضيلة لئلا يقتحم بنا وديان الدمار ..

فليس سواءً المتكبّر المجرم الذي يمسك بيده خنجرا والذي يمسك بيده زرا لعشرات الالوف من القنابل الذرية ولاريب ان التوازن بين المادة والروح قد اختل منذ زمن فياترى كم نحن بحاجة الى العطاء الروحي لاعادة التوازن ؟

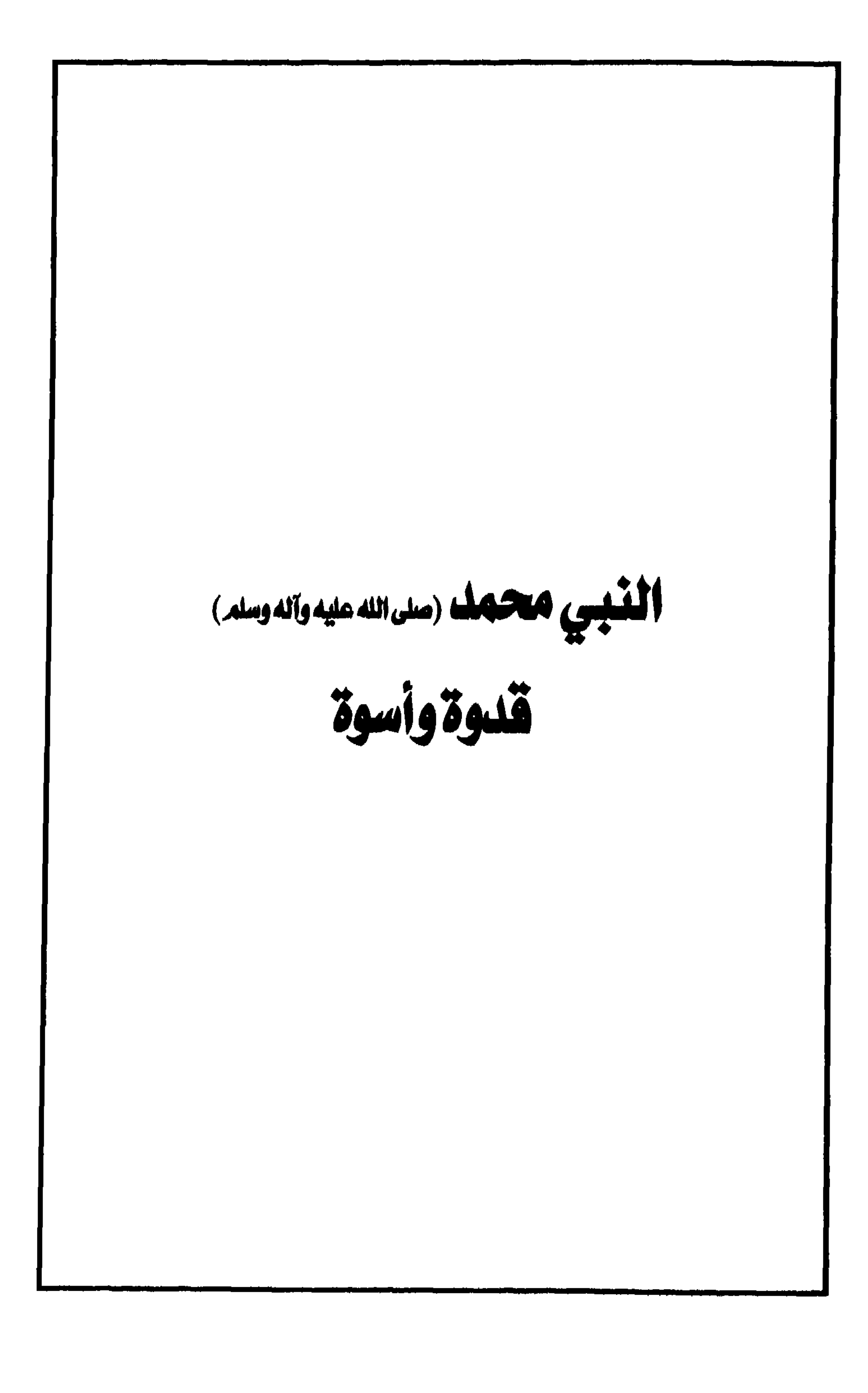
واني لا اشك ولم اشك لحظة ان اعادة التوازن وبالتالي بسط راية السلام والامن في ربوع الارض لايمكن إلاّ بالقرآن ومفسريه منْ النبي واهل بيته الطاهرين فهما امان لأهل الأرض .

وان نشر سيرتهم النيّرة ليساهم في هذا السبيل . ولذلك فقد سعيت بالتوكل على الله لرسم لوحات من تلك السيرة ولا ريب انني لم اقتطف من تلك الرياض الروحية إلاّ عدداً بسيطاً من الزهور - ولكنها - بالرغم من ذلك - تعطينا شذى - رائعاً نافعاً .

واليوم حين تبادر دار الكلمة الطيبة باعادة طباعة هذه اللوحات الاربعة عشر ارجو الله سبحانه ان ينفع بها المؤلف والناشر والقراء الكرام ما يكون زاداً لآخرتهم ورحمة جامعة لدنياهم انه ولي التوفيق .

١٣ / رمضان المبارك / ١٤١٣ هـ

محمد تقي المدرسي



# النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

# قدوة وأسوة

# تمهيـد

كل من وقف أمام الشخصية الفذة التي خلقها الله تعالى . كافخر واروع شخصية في الحياة . ثم تامل في سيرة هذه الشخصية ، انبهر بها أيّما انبهار .

فشخصية النبي محمد (ص) هي اللوحة الجميلة الجليلة التي رسم فيها كل سمو ، وكل جمال تاخذ بمجامع قلوب الناظرين إليها ، سواء كان الناظر مسلماً او غير مسلم .. وسواء كان ممن يدرك معنى الجمال والكمال ، اولا يفهم ذلك ، فإن هذه اللوحة الباهرة تبلغ من الظهور والوضوح مبلغاً لايدع فرداً نظر إليها إلاّ وجذبته نحوها جذباً .

☆ ☆ ☆

إن هـذه اللوحـة الرائعة ، التي اريد ان ابدي جانبا منها — بعرضي هـذا — هـي لوحة تاريخ رسول الإسلام . محمد بن عبد الله (ص) ، التي يصعب عليَّ — وانا احاول ان اوجزها في صفحات قليلة — ان اقحم كل ما في العالم من مظاهر الجمال والكمال في قطعة صغيرة .

ولذلك فليُعلم أن كل نقص يظهر في هذا الجانب من اللوحة ليس نقص المعبَّر عنه من واقع التاريخ النبويّ ، بل هو لنقص في الريشة التي رسمته ، لانها حاولت تركيز الدنيا في مكان صغير .. وهكذا أعتذر من كل نقص يرى في هذه القطعة من اللوحة .. واسال الله القدير ، ان يتقبل مني هذا اليسير ، وهو المستعان .

- ١ -

مكة المكرّمة .. مدينة حجازية انشئت منذ عهد إبراهيم الخليل (ع) ، الذي امره الله تعالى ان يرحل ببعض ذريّته إلى ارض الحجاز ، ليبني هناك بيتاً لله يعبد فيه ولا يشرك به ، فجاء وعمَّر البيت الذي سُمي الكعبة .

ومن نسل إبراهيم انحدرت قبائل استعربت فيما بعد .. وكانت إحدى هذه القبائل تسمّى بقريش وكانت هذه القبيلة منقسمة إلى عشرة فروع .. وكان لكل فرع سيادته واستقلاله ، كما كان لكل منها نظامه القبلي الخاص الذي يتكوّن من رئيس للقبيلة النافذ الكلمة ، المُطاع الأمر ، ومن سائر أفراد القبيلة التابعين له اتباع الفصيل لأمه .

## بنو هاشم :

وكانت إحدى هذه القبائل العشر تسمى بـ " بني هاشم " كما كانت لفظة " بني امية " قد وضعت لقبيلة أخرى .

وبنو هاشم ، هي القبيلة التي كان النبي محمد (ص) ينتسب إليها ، حيث إنه كان من احفاد عبد المطلب الذي كان بدوره من أبناء هاشم ، شيخ العشيرة .

- ٢ -

## عبد الله وآمنة :

كان عبد المطلب ، شيخ بني هاشم ، ورئيسها المطاع . وكان له عشرة أولاد ، اصغرهم وافضلهم هو عبد الله .

وكانت في مكة قبيلة قريبة تعرف ببني زهرة ، منحدرة من نسل زهرة بن كلاب بن مُرة .. وكانت امراة من هذه القبيلة تسمى بـ " آمنة " بنت احد شرفائها " وهب بن عبد مناف " .

فلمّا شبَّ عبد الله ، زوّجه والدُه بآمنة ، وتمَّ الزواج على اسعده .

- ٣ -

## الميلاد المبارك :

ولم تمض إلاّ مدة يسيرة حتى حملت آمنة بسيّد البريّة النبي محمد (ص) في حين ان عبد الله ، ولده الكريم ، كان قد سافر في رحلة تجارية إلى الشام . فلما بلغ مدينة " يثرب" التي سميت فيما بعد بمدينة الرسول ، توفاه الله تعالى ، فولد النبي يتيما .

ورافقت ميلادَه الكريم حوادث خارقة حيث انخمدت نيـران فارس المجوسية ، وغاضت بحيرة ساوة [1] وسقطت شرفات قصر كسرى ملك الفرس ، ونُكّست الأصنام .

= ٤ =

## عهد الرضاع :

واحتفلت أسرة بني هاشم بمولده المبارك احتفالاً باهراً ، وذلك لأن عبد الله كان احبّ بني هاشم إلى انفسهم . غير أن المنيّة اختطفته وهو في نُضرة شبابه .. وبقيت منيته ثلمة في قلوبهم وجرحا عميقا في نفوسهم . فكان ميلاد محمد (ص) بلسماً لذلك الجرح ، وسداً لذلك الفراغ ، وذكرى لذلك الشاب العظيم .

وحيث كان من عادة الشرفاء في مكة ان يطلبوا لأبنائهم مراضع من اهل البادية ، لتكون نشأة اولادهم سليمة عن الضعف الجسمي والنفسي ، فقد اتخذ عبد المطلب – شيخ بني هاشم ، وكفيل النبي محمد – امراة عربية من افصح القبائل العربية لساناً واكرمهم خُلقاً لتكون مرضعةً ومربيةً له . تلك كانت " حليمة " المنسوبة إلى قبيلة " بني سعد " التي كانت تسكن أطراف مدينة طائف .

ودرج الطفل المبارك في احضان القبيلة البدوية التي كانت تنظر إليه نظرة المحبة والود ، لانه كان منشأ البركة والخير فيها ، واخذ ينمو نمواً سريعاً .

ولما بلغ السادسة من عمره ، رافق امه آمنة في سفرة ودّية الى يثرب " المدينة " .. وحينما قفلوا راجعين . توفيت آمنة في منزل " الأبواء " تاركة ابنها الوحيد يتيم الأبوين .

ولما بلغ الثامنة توفّي عبد المطلب جد النبي وكفيله ، وترك كفالة محمد (ص) إلى ابي طالب ، كما خوّل إليه سيادة بني هاشم . ووفادة الحاج .

ولم يكن ابو طالب كفيل النبي فقط ، بل كان بمثابة والدٍ حنون يرى في إكرام ابن اخيه " محمد " وفاءً لحق اخيه عبد الله ، وإطاعةً لأمر ابيه عبد المطلب ، واداءً لمسؤولية سيادته على بني هاشم ، وعملا بوظيفته الإنسانية المقدسة في الحياة .

فكان النبي (ص) يذهب معه الى المرافق العامة ، حتى تلك المناطق التي كانت محرّمة على غير السادة والأشراف ، مثل دار الندوة التي كانت بمثابة رئاسة الوزراء في المملكة . وكان لايدخلها إلاّ من كان سيداً في قومه ، ذلك لأن ابا طالب كان حريصا على حياة محمد وتربيته ، حتى أنه لما اراد أبو طالب أن يواصل رحلة قريش التي كانت تتّجه إلى كل من اليمن في الشتاء ، والشام في الصيف لغرض التجارة ، اصطحب معه النبي (ص) وهو فتىً لم يبلغ مبلغاً من العمر يؤهله الى مثل هذه الرحلة المليئة بالأخطار.

---

(١) ساوة : مدينة إيرانية لاتزال بجانبها بحيرة قد غاض ماؤها وأصبحت وحلاً لايتقدم إليها أحد إلا وارتطم فيها .

وحينما سارت القافلة ، رأوا شيئا غريباً لم يكونوا عرفوه من قبل . فقد رأوا أن سحابة ترفرف على القافلة فتُظللهم من الشمس . وتُبدِّل الرحلة الخطيرة إلى رحلة سعيدة مريحة .

— ٥ —

## الراهب بُحيرا :

بالقرب من مدينة بصرى القديمة ، كانت تقوم صومعة يسكن فيها عابدٌ مسيحيٌ اشتهر في الناس انه صاحب كرامات وتنبؤات صادقة .

ولم يكن هذا الراهب يعتني بالقوافل التجارية التي كانت تمرّ بمنطقته في سيرها إلى الشام وإلى الحجاز ، لأنه كان مستغنياً عنهم ، في الوقت الذي كانوا محتاجين إليه ..

وكانت قد مرّت قافلة قريش التجارية بهذه المنطقة مرات عديدة ، ولم يرمقهم هذا الراهب بطرف ولا خطروا عنده ببال .

أما في هذه المرة فقد تبدلت الأمور .. قبل ان يصل الركب ، رأى الناس أن الراهب يتطلع إلى الصحراء .. ثم يقلب وجهه في السماء كأنه يطلب شيئاً في الأرض وشيئاً في السماء .. فلما اقترب الركب ، لاحظ الناس أن الراهب يراقب سحابة في السماء كأنها تسير على أثر خطوات الخيل والجمال سواء بسواء . وحينما وصلت قريش إلى رحاب الصومعة دعاهم الراهب إلى الإقامة فيها للعشاء تلك الليلة ، وتعجب الناس كلهم من هذه البادرة ، إلا أن الراهب أزال دهشتهم بتصريح أدلى به على مادبة العشاء حيث قال : إن إكرامه وإعظامه لقريش إنما هو لوجود هذا الفتى السعيد بينهم ، وبشّرهم بما سوف يكون من أمره من الرسالة المقدسة .

وتكررت هذه البشارة مرة أخرى في الشام ، حيث التقى بالنبيِّ راهب آخر كان يدعى بـ " ابو المويهب " وبشر الناس قائلاً : هذا نبيّ الزمان .

— ٦ —

ورجع النبي الى مكة وامتلأ رفاقه في تلك الرحلة إعجاباً به وإعظاماً له . فلما قصّوا على الناس قصصهم في السفرة ، اشتهر أمر النبيّ أيّما اشتهار .

ثم بَدرت من النبي بوادر طيبة جعلت الناس تنظر إليه نظر التوقير والإحترام . فحينما هدم السيل بنيان الكعبة ، وارادت قريش ترميمها ، اختلفت في الذي يجب ان يحظى بفخر وَضْع الحجر الأسود في مكانه من ركن الكعبة ، فقد كان لذلك الحجر شان عظيم في نظر قريش وسائر العرب . وكاد الزعماء في قريش يحارب بعضهم بعضا ، بيد أنّ حكماءها قالوا : لنحتكم إلى أول داخل من هذا الباب ، فرضي الجميع بذلك .

ووقف الناس ينتظرون أول الداخلين من ذلك الباب ، فإذا بطلعة النبيِّ محمد قد أشرقت عليهم ، وإذا صوت واحد يقول : هذا الأمين قد رضينا به . فعرف النبيُّ ماجرى بينهم ، فأمر بأن يؤتى بثوب ، ثم أمر

بان ياخذ كل زعيمٍ بطرف منه ثم وضع الحجر فيه وأمر برفعه حتى إذا تساوى مع الحائط أخذه النبيُّ ووضعه في موقعه . وهكذا حفظ النبي بهذا الحكم العادل المنصف حقوق القبائل كلها ، كما انه فاز بفخر تركيز الحجر بنفسه ، ورضيت به قريش صاحب فخر ومجد بالغين .

وكانت الرذيلة والأخلاق السيئة متفشّية بين الشباب بصورة فاحشة ، حتى انه لم يكن في العرب شاب لم يتدنس بسيئاتها إلاّ الشاذ النادر .

ومع كل ذلك فلم يسجل العرب المعاصرون للنبي والمراقبون لأيام شبابه ، أي ميل إلى الباطل أو أي مشاركة في لهو أو لغو ، بل العكس فقد لاحظ الناسُ في النبيِّ (ص) كلَّ معاني الشرف والنبل ، وكل سمات الإنسانية والصلاح .

والمعروف انه كان قد تم الإقتراح على شرفاء مكة وساداتها ، أن يكوّنوا لجنة تدافع عن حقوق الضعفاء ، وتراعي امورهم . فاستجابت النفوس الطيبة إليه ، واقسموا قسماً شرفياً بذلك ، وسُمِّيَ بـ " حلف الفضول " وسواءً كان النبي هو المقترح أو غيره ، فإنه قد حضره وقد اشاد به بعد الرسالة حيث قال : " لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما احب ان لي به حمر النعم ، ولو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت " .

-٧-

## الأمين .. الحكيم :

وحيث عرف أهل مكة فيه هذا السموّ الخُلقي والنبل المعنوي ، فقد ائتمنوه على امورهم ، وسلّموا إليه ودائعهم ، كما افشوا إليه اسرارهم ، واستشاروه في قضاياهم الخاصة .. فكان يعرف بينهم بالأمين وبالصادق الحكيم .

أما ما يخصّ أمر كفيله ابي طالب ، فقد كان النبي وفياً له ، برّاً به . فلقد كان ابو طالب فقيراً معيلاً ، حيث إنّه كان سيداً يتحمل مسؤوليات السيادة الخطيرة التي كانت تحتاج إلى المال قبل كل شيء ، وكانت موارده قليلة جداً ، فلذلك اخذ النبي يفكر منذ صباه في طريقة للعيش يخفف بها مسؤولية الكفالة عن عمه ابي طالب .

فاشتغل برعي الغنم شان صبيان العرب في مكة ، بفارق انه كان يتاهل بذلك لمسؤولية الرسالة ايضاً ، وذلك انه ما بعث الله نبيّاً إلاّ وقد كان راعياً في يوم من أيام حياته !

-٨-

ومرّت الأيام ، وشبّ النبي ، ولم تعد هذه الطريقة لائقة به في مثل سنّه ، فاخذ يمارس التجارة . ثم سعى عمه في إرساله بتجارة إلى الشام تخص السيدة خديجة بنت خويلد ، المرأة الثرية التي كان يتاجر باموالها كثيرون من سكان مكة ، على ان يكون الربح بينها وبينهم ، فتمّ له ذلك .

وحينما ذهب النبي (ص) في هذه الرحلة التجارية ، كان من أوفق التجارات التي تمت بمال خديجة

إلى ذلك الحين . وقد كان ظهر من النبي (ص) في تلك الرحلة معاجز كثيرة ، لما قصت على خديجة رغبت بالزواج بالنبيّ ، فقبل النبيّ بذلك ، ووافق عليه عمه ابو طالب . فتم الزواج السعيد في السنة الخامسة والعشرين من عمر النبيّ الشريف . وكان زواجه تحولاً في حياته الإجتماعية . حيث لم يعد الآن صاحب بيت وأولاد فقط بل وصاحب ثروة كبيرة ضخمة أيضاً .

ورزق النبيّ من خديجة خمسة أولاد هم ( زينب ) و ( ام كلثوم ) و ( فاطمة ) و ( رقيّة ) و ( القاسم ، أو الطاهر ) عليهم السلام .

— ٩ —

لقد كان هذا الزواج أوفق زواج يعرف في صدر الإسلام . اما بالنسبة إلى خديجة فإنها اصبحت به ، زوجة النبيّ ، والأم الكبرى للمسلمين . بعد أن اتّصل بها أشرف الخلائق أجمعين . وأمّا بالنسبة للنبيّ (ص) فقد كانت خديجة أول من آمن به ، ثم نصرته وبذلت ما لديها من المال والجاه والحكمة في سبيله وفي سبيل نشر دعوته المقدسة . ولم يزل النبيّ يذكر لها ذلك حتى آخر لحظة من حياته . وقد كانت وفاة خديجة تعادل عند النبيّ (ص) موت عمه أبي طالب ، فلقد تاثر بهما تاثراً بالغاً . ثم فقدهما في عام واحد حينما كان أحوج ما يكون إليهما معاً .

# وبعد الرسالة

-١-

العالم في ذلك الوقت لحوج ما يكون إلى رسالة . وإلى رسول .

فهذي عربٌ تئد البنات وتقول ، نِعْمَ الصهرُ القبر . وتُكثر الحرب ، وتحسب أنها مفخرة للإنسان . وتؤمن بالخرافات بالكهّان والعرّافين ، وتعبد الأصنام وقد شاع بها الظلمُ ، فهناك طائفة من المستغلين الذين لايعرفون للطمع حدوداً ، ولا للاستغلال قيودا . وهناك طائفة من الكادحين الذين تُستنزف جهودهم استنزافاً وتُستثمر قواهم استثماراً . وهذه سائر مناطق الأرض في مملكة الروم ، وفي امبراطورية الفرس ، شاع فيها الفساد والعدوان ، وكثرت فيها الفواحش والموبقات .

-٢-

وهؤلاء حكماء العرب الذين يطلعون على الكتب السماوية مثل ؛ ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وغيرهم ، يبشّرون بنبيٍّ يُبعث ، وينقذ الإنسانية من هذه الهاوية السحيقة .

وهؤلاء يهود يثرب يتطاولون على العرب بنبيٍّ يبعث فيهم ويأتي بكتاب عظيم ، ويخضع لدعوته العالم ، فيصبحون أعزاء في الحياة .

وهؤلاء الكهنة والعرّافون لايزالون ينتظرون النبيّ الذي يكون خاتم النبيين . وسيّدهم .

فمن هو هذا النبيٌّ ، ومتى يبعث .؟؟.

-٣-

هنا في بيت خديجة — بمكة وفي أرض الحجاز — يُعرف رجل لم يشترك في باطل قط ، ولم يعزف عن حق قط . ولم يَعرف الإثم جنابه ولا غاب الخير والصلاح عن رحابه .

إنَّ هذا الرجل تجتمع فيه جميع مؤهلات الرسالة ، وكل ما ذكر في الكتب من علائمها . فهو من أعرق العرب فخراً ومجداً ، ومن أسمى أُسَر العرب شرفاً وكَرماً .. وهو أحسن الناس خُلقاً ، وأفضلهم عملاً ، وأقربهم إلى الحق وأبعدهم عن الباطل .

وقد حدث مرات عديدة ، أن فقدته مكة فَوُجِدَ في غار حِراء يعبد الله ويطيعه ، ويمارس نُسكاً خاصة لايعرفها أهل مكة .

ففي الشمال الشرقي من مكة ، يرتفع جبل النور ، وفيه غارٌ اعتاد النبيّ (ص) أن يظلّ فيه أياماً يواصل

فيها عبادةً مجهولة عند الناس .

— ٤ —

وذات يوم يروح محمدٌ (ص) إلى حراء فيرى كلَّ شيء قد تبدّل . فإن روحانية جديدة تشمل كيانه ، وتستوعب شعوره .. وإذا به يرى السماء قد فتحت أبوابها ، والمَلَك على أرجائها ، وجبرائيل يهبط إليه ويقول له : اقرأ .. فيقول له النبي ً : ما أقرأ ؟

فقال له جبرائيل (ع) :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ، اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق/١-٥) .

وكان هذا الحادث في السابع والعشرين من شهر رجب حيث يحتفل المسلمون بعيد " المبعث النبويّ " باعتباره بَدْءَ حياة الخير والسعادة للإنسان على وجه الأرض .

— ٥ —

وهكذا بُعث النبي بالرسالة .. وابتدأت مرحلة جديدة من حياته الكريمة ، حيث لم يعد الإنسان الطيب الذي يعمل المعروف فقط ، ويؤدي الأمانة ويصدق الحديث ، ويعيل الأقرباء ، بل أصبح الآن البشير النذير الذي يحمل على كتفه مسؤولية قيادة الإنسان الى كل خير ، وصيانته من كل شر .

كما أنها ابتدأت بالبعثة مرحلة جديدة للجزيرة العربية ، بل للعالم كله . فسوف لايبقى العالم يسوده الظلم والظلام ، والشر والطغيان ، بل ستفتح فيه أبواب الخير التي تنتهي إلى سيادة العدل والنور والخير والمعروف .

— ٦ —

ورجع النبي إلى مكة فبلّغ خديجة ما جرى له ، وقص عليها القصة فآمنت به ، كما أنه حدَّث بها ابن عمه علياً — وهو فتى مراهق كان النبي قد تكفل تربيته — فآمن ثم آمن كذلك جعفر أخو علي .. ثم أعلن النبي (ص) دعوته حينما نزلت هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (المدثّر/١-٣)

وابتدأ بعشيرته حيث نزلت عليه آية أخرى تقول : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء/٢١٤) .

فجاء النبيُّ (ص) حتى وقف على الصفا فنادى : " يا صباحاه . فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك ؟

قال : أرأيتكم إن أخبرتُكم أنَّ العدوَّ مُصبحكم أو مُمسيكم ، ما كنتم تصدقوني ؟

قالوا : بلى .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " .

فقام أبو لهب — أحد أعمام النبيّ — وقال : تباً لك ، ألهذا دَعوتنا !.

وخطب فيهم مرةً أخرى وقال :

أيها الناس !. إن الرائد لايكذب أهله . ولو كنت كاذباً لَمَا كَذَبتكم . والله الذي لا إله إلاّ هو ، إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ؟ والله لَتموتون كما تنامون . ولَتُبعثون كما تستيقظون ولَتُحاسبون كما تعملون ، ولَتُجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً . وإنها الجنة أبداً ، والنار أبداً . وإنكم أول من أنذرتم " .

=٧=

ولكن لم تكن تلبية القوم إلاّ مثل تلبية أبي لهب . فقد أعرضوا عنه ، واستهزأوا به ، وسخروا بدعوته . أما هو فقد ظلّ يواصل دعوته بشتى الأساليب ، حتى اشتهر خبرها في مكة وما حولها . وبلغت دعوته بعض النفوس الخيّرة الخيّرة التي كانت تريد الحق والخير ، فآمنت بها ، واتّبعتها . بيد أن أكثرية التابعين لها كانوا من الطبقة الفقيرة التي لم تكن تملك لنفسها نفعاً ولاضراً .

أما سادة قريش وأشرافها .. أما المستغلون المرابون .. أما الذين كانت مصالحهم ترتبط بالأصنام والأزلام . أما ذوو العقول المتحجرة ، والنفوس المتصلبة .. أما هؤلاء فقد اعتبروا هذه الدعوة شراً يجب أن يقاوَم وأن يحاربّ بكل وسيلة .

ولذلك فهؤلاء لم يمتنعوا عن قبول الدعوة فقط ، بل أخذوا يسلكون معها مسلكاً معادياً ، وساروا في جبهة معاكسة تماماً .. فكل من أسلمَ قابلوه بالكبت والإضطهاد ، وحاولوا ردّه إلى دينهم الخرافي السخيف . فكم من رجل منشرح الصدر ، ومنوّر القلب اعترف بالنبي ، فتعرّض للتعذيب والتنكيل من جانب قريش ؟ وكم من عبد أو أمة آمن بالرسالة فَهُدِرَ دَمُه ومات فداء إيمانه ! فهذا عمار قد عذّبوه ونكّلوا به . وهذا ياسر أبوه ، وهذه سُميّة أمّه قد قتلوهما قتلاً !.

=٨=

ولم يكن نصيب النبي (ص) من هذا التعذيب والأذى قليلاً . فإنه كان كلما سمع أنّه عُذّب أو أوذيَ أحدٌ في سبيل دعوته تألّم وتأثر ، ولربما فاضت عيناه بالدموع .. وبالإضافة الى ذلك فقد كانت قريش تتعرض للنبي بالذات ، إذ كان أبو لهب يرمي النبيّ بالحجارة ، وكانت زوجته تُلقي في طريق الرسول الأشواك . وكان أبو جهل يحاول إثارة غضبه بإلقاء الفرث على رأسه وهو في الصلاة ، أو يرمي القذر في طعامه وهو يأكل ؟[٢]

وشجّ أحد الكفّار رأسه الشريف بالقوس حتى جرت دماؤه على وجهه الكريم !. وكان بعض آخر منهم يلطّخون داره بالأقذار ، وقد يلقون بها في فناء داره ..

أما السخرية والاستهزاء والتقريع ، فقد كانت تمتلئ بها أفواه الكفّار . ويصبُّونها على النبيَ كلّ حين !.

=٩=

وكان النبيّ (ص) يقابل كلّ ذلك بصبر حكيم ، وحلم قائد . وأناة نبيّ .. فإذا جاءت إليه طائفة من

---

(٢) الرسول في مكة : ص ٢٨ .

الكفّار استقبلهم بكل طلاقة ، ودعاهم إلى الدِّين باحسن طريق . فإذا لبّوا دعوته يكون ذلك خيرٌ ، وإلاّ فانه كان يطلب منهم ان ياتوا بمثل ما اتى به من القرآن .. ثم يتلو عليهم : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الاسراء/٨٨) .

ولطالما كانوا يسخرون منه ويستهزئون بدعوته ، فكان يعظهم ويدعو الله لهم بالهداية دون ان يغضب أو يثور .

وكان في بعض الأحيان يتجوّل في العشائر والمجامع ، ويدعو الناس إلى ربهم . بيد ان كفار قريش كانوا يعرقلون طريق دعوته بامرين :

الأول : انهم كانوا يحذرون الناس من ان يتاثروا بدعوته قائلين لهم : إنَّ الرجل منّا ، وهو ساحر ومجنون او كذّاب . حتى ان الناس كانوا يضعون القطن في آذانهم لكي لايسمعوا قول النبي (ص) .

الثاني : انه كان يسير خلفه رجل منهم ويصيح إنه كذاب فلا يُسمع قولُه ، ولا تُلبّى دعوتُه .

— ١٥ —

وعجز كفارُ قريش عن ان يمنعوا سير الدعوة الحثيث واشتهارها بهذه المعارضات . ففكّروا في انتهاج مسلك آخر في منع الناس عن الإسلام ، فجاؤوا إلى النبيِّ (ص) وقالوا له : يا محمد شتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة . فإن طلبت مالاً لأعطيناك ، او الشرف سوّدناك ، او كان بك علة داويناك .

فقال (ص) : " ليس شيء من ذلك ، بعثني الله إليكم رسولاً ، وانزل كتاباً فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه اصبر حتى يحكم الله بيننا " .

— ١٦ —

وفكروا هذه المرة بان يستاصلوا الشجرة الطيبة من اصلها وان يغتالوا النبيَّ (ص) نفسه ، بيد انّه كان يومئذ ياوي إلى ركن شديد ، وسند قويّ ، لم يقتدر الكفار ان ياتوا عليه ، وهو عمُّه وناصره ابو طالب سيد قريش وشيخ بني هاشم . فحاولوا اوّل الأمر إغراء ابي طالب فقالوا له : إننا نعطيك ولداً وسيماً من ابنائنا وناخذ محمداً ونقتله . فقال : ما انصفتموني . آخذ ولدكم فأُطعمه واسقيه ، وتاخذون ولدي فتقتلونه . فقالوا له : إنّ ابن اخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه احلامنا ، وضلل آباءنا . فإما ان تكفه عنّا ، وإمّا ان تخلّي بيننا وبينه فنكفيكه .

لكن ابا طالب الذي لم يشك في صدق مقالة ابن اخيه والرسول المبعوث إليه ، ردّهم ولم يقبل ايَّ واحد من اقتراحاتهم ، وخاطب النبيَّ (ص) قائلا : اُدع إلى ربّك . فإني لن اتخلّى عنك ابداً ..

— ١٧ —

وحينما رأت قريش ان ابا طالب لن يتخلى عن النبي ، دبّرت له خطة اخرى ، حيث اجمعت امرها على مقاطعة النبيِّ وكلّ من يؤازره من بني هاشم . وكتبوا صحيفة بشأن هذا القرار ، ومنعوا الناس من ان

يبيعوا شيئاً إلى بني هاشم . فجمع ابو طالب بني هاشم وجعلهم في شِعْبٍ كان له في أطراف مكة ، وبقوا هناك ثلاث سنين في اشدّ ما يكون من سوء العيش . وأكثر ما يكون من الخوف والقلق ، حتى أن ابا طالب كان يبدل فراش النبي في كل ليلة مرات خوفاً على حياته الكريمة .

وشاء الله بان تنقضي مدة هذا النفي فامر بالأرضة " وهي دابة صغيرة " بان تاكل الخطوط الملعونة التي رسمت على الصحيفة . فاكلتها ، وأَلْهَمَ نبيَّه بشان ذلك ، فاخبر النبيُّ ابا طالب (ع) – وهو بدوره – ذهب إلى الكفار وحدثهم بذلك . وقال إن ذلك علامة صدق ابن اخي في ادّعائه الرسالة ، وكذبكم في إنكاركم امره .. فجعلوا الاطلاع على الصحيفة حكماً بينهم فإن كانت الصحيفة كما اخبر الرسول اخرجوهم من المنفى ، وإن لم تكن فإنهم ماكثون فيه .

وحينما اطّلعوا عليها وجدوها كما اخبر الرسول . فخرج بنو هاشم من المنفى منتصرين . وتمَّ بذلك عهد كان من اشد العهود على النبيِّ وآله . واصعبها جميعاً .

وإنّ الضراء التي مست الأسرة الهاشمية في منفاها بِشِعْبِ ابي طالب كانت شديدة للغاية . ولذلك فإن خسارتها كانت بالغة وكبيرة ايضاً ، حيث نتج عن الحصار الإقتصادي والإجتماعي على بني هاشم موت خديجة زوجة النبي (ص) ، وموت ابي طالب عمه وكفيله .

= ١٣ =

لقد كانت خديجة شريكة النبيِّ (ص) في كلّ آلامه وآماله ، والمسلّية له بما اصابه من اذى ، بل كانت المعينة له على مكاره قريش ، كما كان ابو طالب حامي النبي الذي كان قد القى بينه وبين اذى قريش حجاباً ثقيلاً .

لقد كان ابو طالب سيّد قريش وشيخ بني هاشم ، وكان له حق مشروع في الدفاع عن النبيّ محمد (ص) في منطق النظام الإجتماعي السائد في تلك الأيام ، حيث إنه كان يعتبر النبيَّ ابناً له . والمرء يمكنه الدفاع عن ولده في ذلك النظام بكل اسلوب وفي جميع الأحوال حتى ولو كان ابنه خارجاً عن طريقة اهل البلاد ودينهم .

فموت ابي طالب وخديجة كان بمثابة هدم حصن حصين ذي ركنين ثابتين بالنسبة إلى النبي (ص) في تلك الظروف ، ولذلك سميت تلك السنة بعام الحزن . وحيث اشتدّ فيه حزن النبيِّ وتاثره بموت حامِيَيْهِ والمدافعين عن دعوته ورسالته . وكان ذلك بين العام السابع والثامن من البعثة .

= ١٤ =

واشتدت الأزمة بالنبي (ص) بعد وفاة ابي طالب . لأن قريشاً اجمعت امرها على سحق المسلمين ومحق الدعوة الإسلامية ، فقامت بضغط عنيف على المسلمين ، وبأذىً كثير للنبيِّ (ص) وحاولوا مراتٍ عديدةً قتله إلاّ انَّ الله منعه منهم . فاتخذ النبي (ص) يعدّ تدابير لهذه الأزمة المحيطة به وبالمسلمين .. فبالنسبة إلى المسلمين امرَهم بالهجرة إلى الحبشة .. وقد تمت هذه الخطة بترحيل طائفتين

كبيرتين منهم إليها عن طريق البحر ، فتخلصوا من شرّ الكفار وكيدهم ، وقد آواهم ملك الحبشة ، وأكرم وفادتهم .

وأما بالنسبة إليه نفسه (ص) فقد ذهب إلى الطائف -- وهي مدينة قريبة من مكة تقطنها ثقيف القبيلة الكبيرة -- لعله يستطيع ان يهدي اهلها فيمنعوه من قريش . بيد ان هذه الخطة لم تحظ بنجاح ، فقبيلة ثقيف لم تقبل الإسلام ، بل سلّطت سفهاءها وجُهّالها على النبي (ص) ، فآذوه شر اذية وارسلوا إلى مكة ينقلون إلى قريش قصة دعوته لهم إلى الإسلام ، فاستعدت قريش له من جديد ، فلم يأمن النبي (ص) يومئذ على نفسه من الرجوع إلى مكة بصورة عادية ، فاضطرّ إلى ان يراسل بعض سادات قريش ورؤسائها يطلب منهم أن يجيروه من قريش ، فأجاره واحد منهم حتى جاء إلى مكة تحت حمايته .

-١٥-

وعرف النبي (ص) اخيراً أن اهل مكة لايمكن ان يكونوا الحاملين للرسالة الإسلامية المقدسة إلى الآفاق ، لأنّ دعوته الملحّة المستمرة التي ظلت فيها زهاء عشر سنوات لم تجده نفعا ابدا ، ولم تُنتج غير اصرار من الكفار وعناد بالغين .

فصمّم على نشر الدعوة بين سائر القبائل العربية الأخرى ، فإذا استطاع ان يهدي قبيلة واحدة ذهب إليها وظلّ ينشر نور الإسلام من خلال افرادها . فاخذ يدعو الناس في المواسم التي كانت العرب تتدفق فيها على مكة لغرض العبادة او التجارة فيذهب إلى القبيلة ويقول لها :

" يا بَني فلان ، إني رسول الله إليكم ، وإنا آمُركم ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وان تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وان تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبيّن عن الله ما بعثني به " .

وكانت قريش ترسل وراءه من يعقّب على كلامه بتحذير العرب من طاعته ، وتهجّن دعواه ، وكان عمّه أبو لهب يتولى هذه المهمّة في اغلب الأحوال .

أما القبائل العربية فكانت تتعصّب لآلهتها المزعومة ، وتؤثر البقاء على تقليد الآباء . كما كانت تحذر من قريش إذ لو كانت تُسلم لكانت تتعرض لحرب قريش قطعاً . فكانت تردّ النبي ولا تقبل دعواه وتردُّه إما ردّاً جميلاً أو قبيحاً .

-١٦-

إلاّ ان قبيلة واحدة استجابت إلى دعوة النبي (ص) ، تلك كانت القبيلة العربية الساكنة في يثرب ، والتي كانت منقسمة إى طائفتين ، الأوس والخزرج ، وكانت الحرب بينهما قائمة على اشدها ، وكانوا قد ملّوها .

نعم ، استجاب اهل يثرب إلى قول النبي (ص) وقبلوا دعوته . وبذلك اخذ الإسلام ينتشر في المدينة " يثرب " انتشار الضياء بعد ليل طويل .

وتمّت بيعة مسلمي المدينة الثانية مع محمد (ص) في العقبة بمنى في السنة الثانية ، وتمت بها

الاتفاقية العسكرية بين النبي وانصاره من اهل المدينة . وكان اللازم بموجبها على المسلمين من اهل المدينة الدفاع عن النبي (ص) وعن سائر المسلمين من اتباعه بكل ما لديهم من قوى حربية .

-١٧-

وابتدأ النبي (ص) بتنظيم الهجرة الى المدينة . فاخذ يرحّل اصحابه إليها واحداً بعد آخر على حين غفلة من كفّار قريش .

وحينما سمع الكفّار بذلك قالوا في ما بينهم : إنَّ المسلمين إذا اجتمعوا في المدينة ، كوّنوا قوةً معارضة تكلفنا كثيراً من المال والدم .. ففكروا في إعاقة الهجرة بمنع المسلمين ترغيباً أو ترهيباً .. بيد أنَّ المسلمين أخذوا يفلتون من أيديهم تحت أجنحة الظلام وفي غياهب الليل .. فقال الكفّار لأنفسهم : إنَّ النبيّ لايزال بين ايدينا ، وليس له منعة عنّا . فلو هاجر إلى المدينة وجمع انصاره حوله ، فهنالك يصبح من الصعب القضاء عليه . فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في الأمر . حتى استقر رايهم على ان يأتوا من كل قبيلة برجل ، ثمَّ يهجموا على النبيّ هجمةً واحدةً فيقتلوه ويضيع دمه بين قبائل العرب ، فلا يستطيع بنو هاشم من اخذ الثار منهم .

واختاروا من كل عشيرة رجلاً ، فجاؤوا واحاطوا بدار النبيّ (ص) ، ولكن الوحي نزل وأمره بأن يتخذ الليل جملاً مهاجراً إلى المدينة ، ثم اوضح له كل شيء من تدابير قريش وخططهم .

فجعل النبي الإمام عليّاً مكانه يبيت في فراشه لكي يظن الكفار ان النبيّ (ص) موجود فيشتغلوا به ويخرج هو من طريق آخر .. فبات الإمام على فراش الموت ينتظر المصير الكائن .. بينما ذهب النبيّ يلتمس طريقه إلى غار ثور .. حيث بقي هناك وقتاً كافياً ثم سار إلى المدينة على غير الجادة ، لكي لا تلحقه قريش أو عملاؤها الذين جعلت لكل من اخذ محمداً منهم مقداراً كثيراً من المال .

-١٨-

وعندما وصل النبيّ إلى المدينة احتفلت احتفالاً رائعاً بقدومه ، وسارت فيها مواكب السرور باهازيج الفرح .

وتمت بذلك الهجرة النبويّة التي كانت بداية حياة جديدة للمسلمين ، حياة العزة والمنعة ، وحياة الدفاع عن حقوقهم ، والجهاد لأعدائهم ، وحياة التوسع والانطلاق إلى آفاق العالم .. وفي الواقع كانت الهجرة بدء تكوين الأمة الإسلامية الموحدة ولذلك اتخذ المسلمون منها بدء تاريخهم الديني ، لأنها كانت أهم الأحداث بالنسبة إليهم .

وبقيت في مكة طائفة من المسلمين تمَّ ترحيلهم ايضاً بقيادة الإمام علي بن ابي طالب (ع) ، بعد التغلب على صعوبات شديدة . وهناك فكّرت قريش في اساليب اخرى للقضاء على الإسلام والمسلمين بعد ما فات وقت الأساليب السابقة .

-١٩-

الأساليب الجديدة كانت توجز في خطتين اتبعتهما قريش الواحدة تلو الأخرى :

الخطة الأولى ، كانت بعث رسائل إلى أهل المدينة يريدون فيها منهم تسليم محمد (ص) إليهم مع شيء من الترهيب والترغيب ، بيد أن المسلمين هزئوا بهذه الفكرة ، وسخروا من أهلها ، وبعثوا بقصيدة هجائية إلى قريش بيّنوا بها جوابهم الصريح بعد أن أثبتوا حقيقة النبي (ص) وحقيقة قريش التي تناوئه .

والخطة الثانية ، وضع الحصار الإقتصادي على المدينة حيث كانت لقريش كل التجارة العربية .. وكانوا قد أمدّوا طرق تجارتهم بالتحالف مع القبائل البدوية التي كانت تسكن في طريق الشام وطريق اليمن . فاصدروا إليها بياناً حظروا فيه بيع المواد الغذائية لأهل المدينة ، أو الإجازة لمرور القوافل التجارية لأهل المدينة التي ترمي إلى استيراد المواد إليها .

☆ ☆ ☆

واما النبي (ص) الذي اخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عن المدينة والذي كان يرى أن الحصار الإقتصادي الذي ابتلي به أهل المدينة إنما هو لأجله وبسببه . فإنه دبر خطة دفاع عن هذا الحصار بما سيأتي من أمر غزوة بدر ، إلاّ أنه يجب علينا أن نلقي نظرة عاجلة على حالة أهل المدينة وإمكانيتهم المادية والمعنوية قبل الحديث عنها .

فقد جاء النبي (ص) إلى المدينة فوجد فيها عناصر ثلاثة :

١- المسلمون ، وهم يتالفون من أوس وخزرج ومهاجرين ، وكل منهم يختلف عن الآخر .. فاستطاع النبي (ص) أن يصهرهم في قالب واحد ، حتى صاروا أخوة متآلفة قلوبهم ، متراصة صفوفهم ، واصبحوا " أمة واحدة كأسنان المشط .. في التساوي والتعاون " .

٢- المنافقون ، وهم طائفة كبيرة من العرب ، اظهروا الإسلام واضمروا الكفر . وقد قدر النبي (ص) على أن يشل حركات هذه الطائفة ونشاطاتها باللُطف حيناً ، وباعطائهم بعض المناصب التي تشغلهم ، وبعض المسؤوليات التي تسدّ فراغهم حيناً آخر .. واشترك الوحي في تقويمهم بالآيات التي نزلت في المنافقين وكانت تؤكد على ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (النساء/١٤٥) .

٣- اليهود ، الذين كانوا قوة رهيبة يملكون من المال والسلاح والحيلة الشيء الكثير . ولقد وضع النبي (ص) اتفاقيات سياسية وعسكرية معهم ، تضمن للفريقين التعايش السلمي والدفاع المشترك عن البلاد وأهلها .



وكانت مسؤوليات الرسول (ص) في المدينة أكثر منها في مكة ، وإن كان الضغط هناك أكثر . حيث كان الرسول يريد أن يكوّن أمة ، قبل أن يشيد دولة . فمسؤولية التبليغ لغير المسلمين ، ومسؤولية تهذيب المسلمين ، ومسؤولية تطبيق نظم الإسلام ، ومسؤولية الدفاع عن المسلمين في الجزيرة العربية التي كان شعارها الحروب والغزوات ، ودثارها السيوف والرماح ، هذه المسؤوليات كانت بعض ما أخذ النبيُّ (ص) على عاتقه أداءها من المسؤوليات الخطيرة . ففي نفس الوقت الذي كان النبيُّ (ص) يقود

الجيش الإسلامي إلى جبهات القتال كان يوصيهم باداء الأمانة والوفاء بالعهد ولو مع العدو اللدود . وفي نفس الوقت الذي كان يلقنهم دروس التضحية والجهاد للدين ، كان يشرح لهم معاني العفو والصفح ، واشاعة السلام وإطابة الكلام . وفي نفس اللحظة التي كان يتولّى دفن الشهداء في أُحُد وقد مُثّل بهم شرَّ تمثيل فامتلأت قلوب المسلمين حقداً على الكفار وغيظاً واملاً بالثار ، كان النبي (ص) يتلوا عليهم آيات العفو وتحريم المثلة ولو بالكلب العقور ..

ومن كل هذا نكتشف مدى خطورة مسؤولية النبيٌّ (ص) التي كانت تهدف إلى تكوين الأمة الموحدة ، كافضل وامجد أمة في الحياة .

= ٢١ =

وهنا نرجع الى الحصار الإقتصادي الذي ضربه كفّار مكة على المدينة لنعرف ما كان موقف النبيٌّ (ص) وكيف فكه عنها .

فالخطة التي اتّبعها النبيٌّ (ص) في رد هذا الحصار كان شيئا مماثلاً .. فالقوافل التجارية التي كانت تريد أن تسير إلى الشام من مكة كان الواجب عليها ان تقطع المضيق البرّي بين البحر الاحمر والمدينة . فجعل النبيٌّ (ص) سرية مسلحة لمراقبة هذه المنطقة .. وكانت هذه السرية من المهاجرين حيناً ومن الأنصار حيناً آخر ، وكانت وظيفة هذه السرية منع القوافل التجارية . ولكن القوافل هذه كانت قد تعاهدت مع القبائل البدوية في الطريق على أن تمنعها من المهاجمات التي كان يقوم بها قراصنة الصحراء ، على ان تعطي القوافل التجارية لها ضرائب معلومة كل سنة . ولذلك فقد فشلت هذه الخطة مرات عديدة حيث كانت هذه السرية المسلحة تريد التعرض للقوافل ، فكانت القبائل البدوية تدافع عنها بحجة المعاهدة التي بينهما .

بيد ان النبي (ص) ذهب الى هذه القبائل البدوية العربية وعقد معها اتفاقية في شان الأمور الحربية ، وبذلك أمِنَ من دفاعها عن قوافل مكة .

= ٢٢ =

وارسل النبيّ (ص) طائفة من اصحابه إلى موضع بين مكة والطائف ليترصدوا له قافلة قريش التجارية ، فكتب رسالة مختومة واعطاها قائد هذه الطائفة المدعو بـ " عبد الله بن جحش " وقال له ، اذهب في اتّجاه مكة ، فإذا سرت يومين فافتح الكتاب واعمل بما فيه . فلما فتحه وجد فيه ما يلي ،

إذا نظرت كتابي هذا فامضِ حتى تنزلَ نخلة بين مكة والطائفة فترصد بها قريشاً وتَعلم لنا من اخبارها.

فذهب إلى نخلة وراى قافلة تجارية تمر بها في طريقها إلى مكة ، فاستولى عليها . وأتى بها إلى المدينة بعد ان اسر منها رجلَين وقتل رجلاً وهرب آخر .

والنبيٌّ (ص) وإن كان لم يرضَ بفعل هذا القائد إلاّ انه استفاد من هذا المال .. في حين كان أحوج ما يكون إليه . كما انه ربح الموقف بإلقاء الرعب في قلوب الكفار .

- ٢٣ -

وقاد النبيُّ (ص) السرية المسلحة في المرة الثانية ، واخذ يراقب بنفسه الركب التجاري لقريش وسمع غير مرة بمسيرة قريش للتجارة ، وخرج إليها ، غير ان الركب كان قد فاته ولم يلحق به .. ولقد سبق أن قلنا ، إن إعاقة مسير قريش للتجارة كان دفاعاً مشروعاً للنبيِّ ، باعتباره عملاً مماثلا لمنع القوافل التجارية عن اهل المدينة ، وفكّاً للحصار الإقتصادي ، وإدانة لقريش مقابل ما استولوا عليه من اموال المسلمين في مكة ولم يرضوا إعطائها لهم .

- ٢٤ -

وذات مرة خرج النبيُّ (ص) لهذه الغاية - حيث سمع بركب قرشي للتجارة فخرج إليه ليستولي عليه - فوصل الخبر إلى الركب ، فارسل بخبر ذلك إلى مكة واستنفرهم بان اموالهم في خطر والعرب في مكة كانوا يفدون انفسهم لأموالهم ، ويبذلون ارواحهم في سبيل حفظها ، فحينما سمعوا بالنبا ، وهو ان محمداً (ص) يتعرض لأموالهم ، خرجوا إليه مسرعين نحو المدينة .

وكان ابو سفيان يتولى رئاسة القافلة التجارية ، فتنكب بها عن الطريق حتى سيّرها على ساحل البحر الأحمر بعيداً عن النبي (ص) وعن سريته المسلحة ، وانقذها بذلك من سيطرة واستيلاء المسلمين عليها.

واما كفّار قريش فإنهم ساروا إلى جهة المدينة . ومع انهم سمعوا بنجاة القافلة التجارية ، فإنهم لم يسمحوا لانفسهم بالرجوع إلى مكة إلاّ بعد إبادة المسلمين وكسر شوكتهم .

وكان النبيّ (ص) لايزال في طريقه إلى مكة - وهو يطلب عير قريش - وقريش في طريقها إلى المدينة تريد إبادة المسلمين ، فالتقيا على ماء كان يسمى ببدر ولم يكن النبيُّ (ص) قد استعد للحرب ، بل كما سبق كان هدفه الاستيلاء على اموال التجارة القرشية . ومع ذلك فإنه راى رجوعه إلى المدينة انهزاماً ، ولم يسمح لنفسه بذلك حتى لايدبَّ الطمع في قلوب الكفّار بالقضاء على المسلمين .

☆ ☆ ☆

وكانت هذه اول حرب يخوضها المسلمون وكانت في السنة الثانية من الهجرة ، وكان عدد الكفار يتجاوز تسعمائة وخمسين رجلا ، بينما لم يكن عدد المسلمين يبلغ اكثر من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، ومع كل ذلك فقد ربحها المسلمون والحقوا خسارات فادحة باعدائهم وهزموهم بإذن الله .

لقد كان التكتيك الحربي في الجزيرة العربية لايعدو عن مقابلة الفرد بالفرد في مشهد ينظر إليه الفريقان ، حتى إذا قتل الأبطال ، هاجم الفرد ، او الجبهة - الجبهة المعادية - حتى ينهزم احد الفريقين .

بيد ان النبيَّ (ص) اتبع في حرب بدر طريقة جديدة حيث شكّل مثلثاتٍ حربيةً فريدةً من نوعها . وذلك بان آمر باصطفاف المسلمين على شكل مثلث كبير على شرط ان يكون ظهر كل فرد داخل المثلث - اي إلى سائر افراد المثلث - ووجهه إلى الخارج - اي إلى الكفار - .

ولقد نصره الله بجنودٍ من الملائكة انزلهم لِنُصرة نبيِّه (ص) فانهزم الكفّار بعدما قُتل ابطالهم على يد الإمام علي بن ابي طالب (ع) . وانجلت الحرب عن سبعين قتيلاً من الكفّار اكثرهم من رؤسائهم وابطالهم ، واربعة عشر شهيداً من المسلمين ، ثمانية منهم من الانصار ، وستة من المهاجرين .

-٢٥-

وهذه الحرب الدامية فتحت باب الحروب بوجه النبي (ص) ، الذي تصدى لها ببسالة وصمود .. فجعلت قريشا موتورة بقتلاها ، وطالبة لثاراتها ، كما جعلت المسلمين مؤمنين بنصر الله لهم وقدرتهم على صد كلّ هجومٍ مسلّح من ايّ طراز كان .

وهذه الحرب دعت قريشاً إلى حبك المؤامرات الكائدة للنبيِّ (ص) . فقد أرسلت ببعض ابطالها إلى المدينة خفية للغدر بالنبي وقتله . بيد ان الله تعالى فضحه . فلما جيء به إلى النبي (ص) وتكلم النبي معه واخبره بالمؤامرة تفصيلاً اسلم الرجل الذي كان يدعى " عمير بن وهب " وذهب إلى مكة داعياً للإسلام متحمساً نشيطاً .

وهكذا فشلت هذه المؤامرة الماكرة .

-٢٦-

ثم قامت قريش بمحاولة فاشلة اخرى ، إذ خرجوا وهم مائتا نفر يقودهم ابو سفيان ، واغاروا على المدينة ليلاً فقتلوا رجلَين . فلما لحقهم المسلمون بقيادة النبيِّ (ص) ولّوا هاربين ، وخلفوا بعض امتعتهم ليخففوا عن انفسهم في السير .. وتسمى هذه الغزوة بـ " السُّوَيق " حيث إن المسلمين غنموا من السويق ما كان زاداً للكفار .

-٢٧-

واخذ ابو سفيان قيادة قريش هذه المرة ، إذ نصب لواء الكفر وحشد تحته خمسة آلاف رجل مقاتل ، وزحف نحو المدينة . فلما بلغ جبل أُحُد على بعد كيلو مترات من المدينة ، تصدّى له الرسول (ص) بجيش لم يتجاوز عدده ستمائة محارب . ووضع النبيُّ خطة حربية باهرة ، إذ اتّخذ من الجبل ظهراً للجيش ، وجعل على ثغور الجبل الذي وراءه سريّة برئاسة " عبد الله " وامرهم بان لايغادروا موقعهم الحربي الخطير مهما كان الأمر ، غلب المسلمون او غُلبوا ، ثم امر المسلمين بالهجوم الموحد على الكفار .

والكفار الذين لم يكونوا يعرفون نظام الهجوم الموحّد لانهم لم يروه من ذي قبل انهزموا بعد ساعات من الاشتباك الدامي ، فاستولى المسلمون على امتعتهم — فرأى اهل الثغور خلف المسلمين فوق جبل أُحُد رأى هؤلاء ان اخوانهم — في تقدم باهر وفي جمع الغنائم فنزلوا عن الموقع الخطير واشتركوا في جمع الغنائم . وكلما ناشدهم قائدهم عبد الله بالبقاء لم يقبلوا منه ، وحينما رأى الكفّار ذلك داروا من خلف الجيش الإسلامي ، وهجموا على ما بقي من اصحاب عبد الله — صاحب الثغر — بقيادة خالد بن الوليد

وكان في جيش قريش ، وقتلوهم وهجموا على المسلمين من ورائهم ونادوا بالكفار المنهزمين ليرجعوا .
فاحاط جيش قريش بالجيش الإسلامي ، وهرب القسم الأكبر من المسلمين . بيد أن الذين بقوا مع النبيّ والإمام علي عليهما الصلاة والسلام وطائفة أخرى من المسلمين المخلصين ، ربحوا الموقف . وأخيراً قتل الإمام عشرة أفراد من حاملي ألوية الكفار حتى وقع لوائهم وانهزموا راجعين ..

وبعد ذلك غنم المسلمون غنائم كثيرة .. مع أنهم خسروا خسارات باهظة ، مثل قتل حمزة بن عبد المطلب الشجاع البطل والقائد الثالث للقوات الإسلامية بعد النبيّ والإمام عليّ ، والذي سمّاه النبيُّ (ص) " بسيد الشهداء " .

-٢٨-

وجمع ابو سفيان فلول جيشه وعسكر في بعض المواقع بين مكة والمدينة . فخرج الرسول (ص) إلى الروحاء مع كل ما لحقه من خسارات الحرب الباهظة ، وكل ما أضر بأصحابه من متاعبها ومصاعبها . وحينما وصل إليه هابه ابو سفيان وفرَّ هارباً إلى مكة .

وكان خروج النبي هذا كسباً للموقف بعد خسارته ، وإرجاعاً لمكانة الجيش الإسلامي في نفوس أعدائه بعد زوالها .

-٢٩-

ثم بعد مدة جمع أبو سفيان الف مقاتل وزحف بهم إلى المدينة ، فلما سمع النبيُّ (ص) بخبره خرج حتى بلغ بدراً ولكن الكفار لما سمعوا بذلك ولّوا هاربين ولم يبق من أمر كفار قريش مع النبيّ إلاّ غزوة واحدة فقط ، وهي غزوة الخندق التي اشترك فيها قريش وغيرها .

-٣٠-

وقاد هذه الغزوة ابو سفيان بوصفه قائداً للقوات العربية في مكة ، حيث جمع قريشاً والأعراب وتحالفوا مع بعض اليهود في المدينة ، وجاؤوا إلى إبادة المسلمين .

والحروب التي خاضها المسلمون في حياة النبيّ (ص) كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

الأول : الذي كان بينهم وبين قريش .

والثاني : الذي كان بينهم وبين اليهود الساكنين في حصون اليهود حول المدينة .

والثالث : الذي كان بينهم وبين سائر الأعراب الذين تصدوا لمنع تقدُّم الإسلام ، ووقفوا أمام انتشاره .

وقد اجتمعت الحروب بانواعها الثلاثة في غزوة الخندق . ولذلك سميت بـ " الأحزاب " أيضا ، حيث تحالفت قريش مع " بني سليم " و " أسد " و " فزارة " و " أشجع " و غطفان " ومع " بني قريظة " . وبعض يهود المدينة تحالفوا جميعا على محاربة النبيّ (ص) .

وحينئذٍ تمَّ رأي المسلمين على أن يبقوا في المدينة ، ويحفروا بينهم وبين الأحزاب خندقاً عميقاً وعريضاً .

وجاءت الجيوش المعادية كالسيل الهادر يملأ السهل والجبل ، فرأوا الخندق فقالوا : هذه حيلة جديدة . وجاء شجعانهم ، وهما : " عمرو بن عبد ودّ ، وعكرمة بن ابي جهل " واقتحما الخندق حتى توسّطا بينه وبين المسلمين .. فاخذا يطلبان المبارزة فتقدم الإمام علي بن ابي طالب (ع) إلى اشجع العرب في زمانه عمرو بن عبد ود فقتله . وبموته ساد الرعب في صفوف الكفار . وتبادل الفريقان المُرامات بالسهام . وبقيت الجيوش الكافرة أكثر من عشرين يوما ، ثم رجعوا على أعقابهم خائبين بعدما كلفهم الأمر خسائر معنوية ومادية كثيرة .

وشاع في الجزيرة العربية خبر صمود المسلمين أمام القوى مهما تضاعفت وتجمّعت ، فهذا جيش الإسلام لم يتجاوز عدده ثلاثة آلاف ، بينما الكفار كانوا عشرة آلاف . ومع ذلك كان النصر للإسلام .

=٣١=

وبغزوة الخندق انتهت السلسلة الكبرى من حروب النبيّ (ص) مع قريش . ولم يخض النبي بعدها أيّة معركة ، إلاّ فتح مكة التي لم تكن حرباً في الواقع بل كانت انتصاراً وغلبة نهائية للمسلمين على الكفار .

وبقيت هناك سلسلتان من الحروب الإسلامية .

الأولى : حروب المسلمين مع اليهود .

والثانية : حروبهم مع القبائل العربية الأخرى .

=٣٢=

اما حروب المسلمين مع اليهود فَتُوجَزُ بما يلي : اليهود كانوا احجاراً ناتئة ناشزة وضعت في الجزيرة العربية لترد ما لحقهم من سيوف الملوك والسلاطين . وكانت الأكثرية الساحقة منهم يسكن في المدينة ، وهم بنو قينقاع وبنو النضير ، وبنو قريظة ويهود خيبر ، ويهود فدك ، ويهود وادي قرن ، ويهود تيماء .

فاما بنو قينقاع فقد كانت قبيلة مهنية تستولي على صياغة الجزيرة .. وقد ذهبت امراة من المسلمين عند احد الصاغة منهم فراودها ليكشف عن وجهها فابت فعمد اليهودي إلى طرف ثوب المراة فعقده إلى ظهرها من حيث لم تعلم المراة بذلك . فلما قامت انكشفت سواتها فضحك اليهودي منها ، فصاحت تستصرخ المسلمين . فوثب احد المسلمين وقتل اليهودي ، فاجتمع اليهود وقتلوا ذلك المسلم .

ثم احتدم النزاع بين المسلمين واليهود . وجاء النبيُّ (ص) إلى اليهود ينصحهم بالدخول إلى الإسلام وقبول نُظمه المقدسة ، فاستهزاوا به ، وطلبوا النزال . فذهب الرسول إلى حصونهم وحاصرهم خمسة عشر يوما فانتهى إلى الصلح مع النبيّ بالخروج عن المدينة مع اموالهم وذراريهم وخلفوا تركاتهم وأمتعتهم لتكون للمسلمين ففعلوا ذلك وذهبوا إلى اطراف الشام .

=٣٣=

واما بنو النضير ، فقد كانت قبيلة ثريّة تعطي اموالها قرضاً للناس ، فذهب النبيُّ (ص) اليها يطلب منها القرض . فارادوا اغتياله ، حيث اصرُّوا عليه بالدخول إلى دورهم فابى ذلك ، واتكا على الحائط فارادوا

القاه حجر الدفن على راسه من فوقه . فتنحى عنه ، ورجع إلى المدينة قبل أن يقترض منهم ، وارسل إليهم أن اخرجوا من دياري حيث نقضتم ميثاقي . وقد اجّلتكم عشرة ايام . فاخبروا النبيَّ (ص) بانهم لن يخرجوا فليفعل ما شاء .

فخرج النبي (ص) إليهم ، وحاصرهم وهدم مساكنهم فاخذوا يتنقلون من حصن الى حصن . حتى ضاق عليهم الأمر فطلبوا من النبيّ (ص) ان يخرجوا باثقالهم عن المدينة ، فلم يقبل منهم . فخرجوا وخلّفوا اموالهم غنائم للمسلمين .

- ٣٤ -

اما بنو قريظة فإنهم كانوا حلفاء للاوس ، ثم اصبحوا معاهدين مع الرسول (ص) . ولكنهم انضموا إلى الأحزاب في غزوة الخندق .. فبعد انتهاء الغزوة بانتصار المسلمين امر الرسول (ص) الجيش بالمسير إلى بني قريظة . فجاؤوا حتى حاصروهم مدة خمسة وعشرين يوما . ثم أراد الإمام امير المؤمنين (ع) ان يقتحم حصونهم . فنزلوا على حكم رسول الله (ص).

فامر بهم فاُوثقوا . ثم جاء إليه بعض الأوس يستشفعونه في امرهم فقال لهم ، الا ترضون ان يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى . فاختاروا سيّدهم " سعد بن معاذ " فلما جاء سعد حكم فيهم بحكم التوراة ( الكتاب المقدس الذي يتبعونه ) بان يقتل رجالهم ، ويسبي نساءهم ، ففعل ذلك بهم .

- ٣٥ -

وفي السنة السابعة من الهجرة حيث تم صلح الحُديبية فكّر النبيُّ (ص) في محاربة يهود خيبر الذين كانوا يكثرون الضغط على المسلمين ويعاونون اعداءهم عليهم دائما . فلما سار إليهم الجيش كان لهم حصون سبعة كلها منيعة اشد ما تكون المنعة . فحاصروا الحصون مدةً مديدة .. حتى ضاق اليهود ذرعاً بالحصار . بيد أنهم قاوموا حتى فتح المسلمون تحت قيادة الإمام علي بن ابي طالب (ع) حصونهم واحداً تلو الآخر ، وقتل الإمامُ اشجعَ ابطالهم " مرحب " وقلع الباب الكبير الذي كان يعجز عنه اربعون فارساً ورمى به بعيدا . وانتهت المعركة بقتل مائة من اليهود ، واستشهاد سبعة عشر من المسلمين . وقد غنم المسلمون الشيء الكثير من المال والسلاح والأسرى .

وبعد هذه الغزوة لم يبق لليهود شان يذكر في الجزيرة العربية فقد اصبحوا — بعدها — عبيداً بينما كانوا قبلها اسياداً .

ولذلك فإن يهود فدك ويهود تيماء رضوا بان تكون اراضيهم للرسول (ص) ويعملوا فيها على ان تكون الغلة بينهما نصفين .

وكانت طائفة من اليهود في وادي قرن لم يستسلموا للنبيِّ (ص) فذهب الرسول إليهم ، ونازلهم وحاربهم حتى قبلوا ان يكونوا مثل إخوانهم ..

-٣٦-

اما حروبهم مع سائر العرب فهي كما يلي :

١- بنو سليم ذهب إليهم الرسول (ص) بعد تجمعهم لمحاربته في موضع كان يسمى بـ " الكدر " ولكنهم تفرّقوا خوفاً منه (ص) .

٢- " بنو ثعلبة " و " محارب " اجتمعوا تحت قيادة رجل كان يدعى بـ " دعثور " في واحة عطفان في اطراف نجد ، فرحل إليهم النبي (ص) وقبل ان يحاربهم اتّفق انه (ص) اضطجع على تلّ فعرف بذلك دعثور قائد الجبهة المعادية فجاء إليه . ووقف على راسه شاهراً سفيه وقال من يمنعك مني ؟. فقال النبي : " الله " . وفيما اراد دعثور إنزال سيفه دفعه جبرائيل فوقع بجانب التل ، فوثب النبيُّ (ص) واخذ سيفه ووقف عليه وقال : من يمنعك مني ؟. فقال : عفوك . فعفا عنه النبي (ص) واسلم ، ودعا قومه إلى الإسلام ولم تقع محاربة قط .

٣- بنو سليم ايضاً ارادوا الحرب فخرج إليهم النبي (ص) فولّوا هاربين قبل ان يلحقهم .

٤- بنو ثعلبة ومحارب ، وبنو غطفان ايضاً ، اجتمعوا للحرب في نجد ، فلحقهم الرسول (ص) ففرُّوا من وجهه قبل النزال وخلّفوا نساءهم واموالهم غنيمةً للمسلمين .

٥- البدو في دومة الجندل ، وكانت هذه المنطقة قرب الشام ، وكانت هذه القبيلة قد عاشت على السلب والنهب مما قوّض الأمن والاستقرار ، فذهب النبيُّ (ص) لتاديبهم بيد انهم فرّوا هاربين قبل بلوغ النبي (ص) إلى هناك .

٦- ومن هذه الحروب الحرب التي قامت بين المسلمين وبين الكفار في مؤتة .. وانتهت بغلبة المسلمين بعد تحملهم خسارات فادحة . ولكن هذه الحرب لم تكن تختص بالنبي مباشرة ، ولذلك فإنا نُعرض عن ذكرها كما نُعرض عن ذكر سائر الغزوات التي قام بها الجيش الإسلامي دون أن يشترك فيها النبيّ (ص) ،. ونعطف إلى ماهو المهمّ من اعماله (ص) في الحقلَين السياسي والديني .

-٣٧-

واليك موجزاً لأهم الأحداث السياسية والدينية :

صلح الحديبية : منذ ان اخرجت قريش المسلمين وعلى راسهم رسول الله (ص) عن وطنه مكة ، كان يشتاق إلى الرجوع إليها ، لأنها البلد الأمين والمقدّس عند الله .. ولأنها - مع ذلك - محطُّ انظار العرب جميعاً .

ولكن الحروب والغزوات التي اكتنفت السنوات السبع بعد الهجرة ، والضعف الذي كان يراه في اصحابه ، منعاه من المسير إلى مكة . ولذلك فإنه حين راى الوقت مناسباً عزم على الزحف إلى مكة واعلن في المسلمين ذلك . وقال : إنه يريد مكة لأداء مناسك البيت فقط ، فسار بالف واربعمائة رجل من المهاجرين والأنصار .

بيد ان كفار قريش الذين راوا ان دخول القوم مكة بعد ان أُخرِجوا منها من دون ان يلحقهم اذىً ، إنّما هو ضعف وانهزام صريح في وجه المسلمين .

ولذلك فإنهم ارادوا منعه منها ، وارسلوا بطلائع من جنودهم ليقفوا في وجه المسلمين . وحين ذاك تنكّب النبيُّ (ص) عن الطريق المالوف لئلا يصطدم بهذه الطلائع . ولما عرف الكفار تنكّبه ، وانه بلغ ثنية المرار اسفل مكة ، ارسل النبي (ص) احد المسلمين ينبئ قريشاً بانه لم ياتهم محارباً بل معتمراً .

وارسلت قريش سفراء يريدون من النبي (ص) الرجوع عن عزمه . وكانت من قبل قد ارسلت سرية لمقاومة اعمال النبي (ص) فاخذها المسلمون وحبسوا جميع افرادها ..

ولما أصرت قريش على منع النبيِّ (ص) عن البيت قال النبي لأصحابه : " لا نبرح حتى نُناجز القوم " وطلب من المسلمين البيعة فبايعوه على الفتح او الشهادة ..

وحينما بلغ قريشاً نبا البيعة الجديدة للنبيِّ (ص) هابوه فراسلوه على الصلح ، فاصطلح معهم بما يلي وكان أهم بنوده :

١- إيقاف الحرب بين الفريقين لمدة سنتين .

٢- القادم إلى المسلمين يُردّ وليس بالعكس .

٣- رجوع المسلمين هذه السنة وإتيانهم في المقبلة .

٤- يستطيع الفريقان قبول عهد من شاء .

وكانت هذه السياسة السليمة التي اتّبعها النبيُّ (ص) هي التي فتحت عليه طرق التقدم والنجاح ، حيث زحف المسلمون لمواجهة العالم الخارجي بعد ان امنوا الجانب الداخلي ، وكان بذلك الحدث التالي .

-٣٨-

٢- بعد هذا الصلح مباشرة بعث النبيُّ (ص) رسائل إلى زعماء وملوك كافة الدول المجاورة . فراسل ملك الروم ، والفرس ، والحبشة ، والقبط ، كما ارسل رسائل إلى كلٍّ من امير بصرى ، وامير دمشق ، وملك البحرين ، واميرَي عمان ، وملك اليمامة بشان الرسالة التي حمّل مسؤولية تبليغها . وقد كان لهذه الرسائل آثارها البعيدة في نشر لواء الإسلام ومحق آثار الكفر ..

اما اجوبة هؤلاء فمنهم من اسلم — وهو كلٌّ من ملك الحبشة ، وامير البحرين ، وملكَي عمان — فكان ذلك فتحا مبيناً للإسلام . ومنهم من لم يسلم ولكنه احترم الرسول فايّده ، وهو كلٌّ من ملك الروم وملك القبط وملك اليمامة .. ومنهم من اساء " إلى الرسول واستهزا به وهو كلٌّ من ملك الفرس ، وأمير بُصرى وامير دمشق " .

٣- وفي السنة التالية — السابعة للهجرة — اعتمر النبيُّ (ص) على راس اصحابه الذين كانوا في الحديبية . وفسح الكفار المجال امامهم ، وخرجوا عن مكة لئلا يقع تضارب بين الفريقين — على ما كان

يتضمنه أحد بنود الصلح الماضي – . وكانت هذه المرة أول مرة يدخل فيها النبيُّ (ص) مكة بعد هجرته عنها بسبعة أعوام .

– ٣٩ –

٤– ورجع النبي (ص) إلى المدينة بعدما بقي في مكة ثلاثة أيام . وبعد ذلك نقضت قريش بعض بنود الصلح بأن كانت قبيلة تسمى بـ خزاعة " معاهدة مع النبيّ " وكان على قريش الا تُحاربها والاّ تُعين عليها أعداءها ، لكنها فعلت ذلك .

وحلّ للنبي (ص) بذلك قتالها ، فجمع أصحابُه وجمع من القبائل المسلمة التي كانت تقطن حول المدينة عدداً كبيراً ، وزحف نحو مكة بعد أن ملأ الطريق عيوناً ورقباء على السائرين ، لكي لايصل خبر خروجه إلى قريش فيتم الأمر بالحرب التي لايريدها النبي (ص) أبداً .

ولما بلغ النبيّ بجيشه حي ظهران بقرب مكة ، أمر أصحابه بأن يُكثروا من إيقاد النار ، ففعلوا ذلك . فاسترهب ذلك قلوب الكفار أيَّ استرهاب ، وكان ابو سفيان يراقب طريق مكة إذ رأى النار فملكه الرعب ، والتقى بالعباس – عمّ النبيّ (ص) فحمله إلى النبي (ص) ودار بينهما محادثات تمت بإظهار ابي سفيان للإسلام وبإسلام بعض أبطال قريش وزعمائها قبله ، ففقدت مكة قوَّتها . ومنعتها ، ولم تملك قوة تدافع ضد دخول النبيِّ إليها . وقد انتهج النبيّ (ص) مسلكاً فريداً في هذا الهجوم العسكري ، وذلك بأن أعلن قبل الزحف إلى مكة أنَّ من ألقى السلاح أو دخل دار ابي سفيان أو دخل داره أو فناء الكعبة أو تحت لواء ابي رويحة فهو آمن . ثم أمر قواته بإحاطة البلد والزحف عليها من جميع جهاتها ، والاّ يقاتلوا إلاّ من قاتلهم .. ثم دخل مكة من دون أن يعترض أحد طريقه إلاّ من جهة أسفل مكة حيث جاء منها خالد بن الوليد ، وقَتل اثنَي عشر نفراً ممن عارضه ، وقُتل من المسلمين واحد . ثم أعلن النبيّ (ص) في البيت الحرام العفو العام عن المشركين جميعاً ، أثناء خطبة القاها عليهم ..

وبفتح مكة تمت السيطرة المطلقة للمسلمين على الجزيرة العربية التي كانت تعتبر مكة دينها ودنياها معاً .

– ٤٠ –

ثم أمر النبيّ (ص) بهدم – الأصنام – التي كانت تُعبد من دون الله فهدمت جميعاً . وبعد ذلك سمع النبيّ بأنَّ قبائل عربية اتّحدت تريد الانقضاض على مكة للقضاء على المسلمين ، ومن بين تلك القبائل هوازن وثقيف .. فلما تحقق النبيّ (ص) الخبر جند اثنّي عشر الفاً من المسلمين وتوجه إليها ، فالتقى الجمعان في وادي حُنين ، حيث كان مضيق جبليٌّ واقع بين جبلَين . وقد كان العدو قد سبق المسلمين إلى احتلال المواقع العسكرية في الجبلين . وحينما زحف المسلمون إلى العدو بين الجبلين انقض الكفار عليهم انقضاضاً ، فهزمت طائفة منهم ثم التقت بالطائفة التي بعدها فسادت الفوضى في الجيش الإسلامي ، وهُزموا هزيمة قبيحة . بيد أن النبيّ (ص) بقي صامداً . وبقي معه بعض المسلمين ثم

اجتمع فلول المسلمين حتى كوّنوا جبهة حاربوا بها الكفار وغلبوهم . وحيث إن الكفار كانوا قد أخرجوا جميع ممتلكاتهم ونسائهم إلى ساحة الحرب لعل ذلك يسبّب قوةً لمعنويات الجيش ، فإن المسلمين ربحوا غنائم كثيرة . واستعمل النبيُّ (ص) تلك الأموال في تاليف قلوب قريش ، ثم عزم الرجوع إلى المدينة .

= ٤١ =

وقبل الرجوع ارسل سرايا من المسلمين في ملاحقة المنهزمين من الكفار الذين أرادوا التجمع مرة أخرى وإيقاد نار الحرب .

ومن تلك السرايا ، قوة مسلحة إلى الطائف حيث تحصّن الكفار فيها .. بيد ان حصون الطائف كانت امنع من ان يتغلب عليها المسلمون فرجعوا وعندما بلغ النبيّ (ص) المدينة تقاطرت عليه الوفود من جميع أنحاء الجزيرة يعلنون دخولهم في الإسلام ويطلبون منه ارسال المبلّغين المرشدين لهم .

وفي السنة التالية لفتح مكة نزلت سورة البراءة التي اعلنت انتهاء الدور المظلم للجزيرة وابتداء الدور المشرق .

فارسل النبي (ص) الإمام علي بن ابي طالب إلى مكة حيث تلا هذه السورة في الحجّاج المحتشدين في منى .. واعلن بصراحة منع دخول المشركين إلى المسجد الحرام لأنهم نجس ولإن الله بريء منهم .. كما اعلن انه لا عهد ولا ذمة لمشرك ، وان دم كل مشرك حلال بعد اربعة اشهر .

وبعد هذا الإعلان لم يبق في الجزيرة من يظهر الشرك ، إلاّ فلول منهزمة مختفية على خوف من المسلمين . فاخذ الرسول يتاهب لمقاتلة الروم ، وقد كانت طلائعهم تستقي في ارض الشام التي كانت إمارة عربية تابعة للامبراطورية الرومية . فزحف بالجيش الإسلامي ، الذي كان عدده أكثر من ثلاثين الفاً . وكانت الخيل عشرة آلاف . وكان المسلمون مدججين بالسلاح الكامل .

وكان فعلُ النبيِّ (ص) ذلك بعد اشاعة راجت في المدينة بان جيش الروم قاصد لفتح الجزيرة العربية وإبادة المسلمين . ولكن حينما وصل النبيُّ بجيوشه إلى تبوك عرف كذب الإشاعة ، فصالح اهل تلك البلاد وملك الروم . ثم رجع بعدما جعل من اهل الحدود الشامية الحجازية مرابطين له ضد الأعداء ، وبعدما زرع الخوف والذعر في قلوب الرومانيين بمباغتة المسلمين لهم .

= ٤٢ =

وفي السنة العاشرة بعد الهجرة اعتزم النبيُّ (ص) ان يحج ، فاجتمع إليه المسلمون من كل مكان .. فلما اكتمل عددهم سار بهم إلى مكة حيث أراهم كيفية الحج بعدما مُنع المشركون من إجراء مراسم الحج في السنة التاسعة .

فلما اتم النبيُّ (ص) مناسكه خطب في المسلمين خطبته المشهورة التي بيّن بها تعاليمه الدينية والخلقية ورجع قاصداً المدينة .

ولعل بعض من رافق النبيَّ (ص) في هذه الرحلة المقدسة لاحظوا بوضوح مظاهر القلق والاضطراب في ملامحه كل حين ، كأنّه يريد إبداء شيء يخاف منه أو يرتقب فرصة أخرى أفسح وأولى !!

ولكنَّ هذه الحجة كانت الحجة الأخيرة للنبيِّ (ص) . ولذلك سمّيت بحجة الوداع . ومن الضروري أن يبيِّن فيها النبيُّ كل شيء يتعلق بمصالح المسلمين وشؤونهم السياسية والدينية . وإنّ أهم هذه الشؤون هي السلطة . فإذا توفي النبيّ (ص) اختلفت العرب الذين لم يتسرّب الإسلام إلى قلوبهم كما هو في واقعه ، وتنازعت أمرها وذهب الدين ضحية للإختلاف .

ولقد انباه الوحي بانَّ السلطة تكون من بعده لعليٍّ بن ابي طالب (ع) ، أوّل من آمن بالله وبرسوله (ص) ، وأشدَّ من أبلى في سبيله ، وأقضى المسلمين وأفضلهم . ولقد ذكر النبيُّ (ص) ذلك للمسلمين مراراً إلاّ أن خوف النبيّ (ص) كان شديداً لمستقبل الأمة ، حيث رأى في المسلمين بعض الذين يهدفون للسيطرة وقد التفوا حول النبيِّ لها فقط .. فلما كان النبيُّ (ص) بمنزل " كراع الغميم " من أراضي عسفان نزلت عليه الآية المباركة تقول ، ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ (هود/١٢) .

ولمّا بلغ غدير خم نزلت عليه هذه الآية ،

﴿ يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة/٦٧) .

واطمأن النبي بنصرة الله في خلافة علي (ع) فعزم على الأمر وأمر المسلمين بأن ينزلوا في ذلك المكان وبأن يجتمعوا . فلما اجتمعوا قام فيهم خطيباً وأعلن خلافة علي ( عليه السلام) قائلاً ، بعد خطبة كريمة ، " من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه . اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وأحبَّ من أحبَّه ، وأبغضْ من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعزْ من أعانه واخذلْ من خذله ، وأَدِرِ الحقَّ معه حيث دار " . ثمَّ أمر المسلمين بالبيعة له ، والسلام عليه بإمرة المؤمنين .. ولما تمَّ أخذُ البيعة جاءت الآية الأخيرة التي أعلنت إكمال الدين وتمامه ،

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣) .

= ٤٣ =

وبعد رجوعه إلى المدينة .. سيّر جيشاً كبيراً فيه أبو بكر و عمر وكثير من المهاجرين والأنصار ، وأَمَّر عليه أسامة بن زيد وهو فتىً لم يبلغ العشرين — سيّر هذا الجيش إلى الشام حيث قُتل جعفر وزيد أبو أسامة القائدان للجيش الإسلامي ..

ومع حرصِ النبيِّ (ص) على أن يخرج هذا الجيش في أقرب وقت ليبعد العناصر الفاسدة في المسلمين الذين كان يخشى منهم على مستقبل الأمة ومصيرها ، في حين كان يرى اقتراب أجله .. ومع ذلك فإن المنافقين أرجأوه ، حتى أمر النبي (ص) أسامة بكل إصرار على متابعة سيره فعسكر بالجرف على فرسخ من المدينة .

بيد أنّه اشتد خلال ذلك مرض النبي (ص) الذي كان سببه السم الذي سُقيه على ما يذهب إليه بعض الرواة ، وقد دس إليه بيد بعض اليهود . فرجع أفراد الجيش إلى المدينة مع أن النبي (ص) لعن من يتخلف عن الجيش أشد لعنة .

— ٤٤ —

وفي الثامن والعشرين من شهر صفر من السنة الحادية عشرة بعد الهجرة ، وبعد ثلاث وستين سنة قضاها في الله ، ثلاثة وعشرين عاماً منها بصورة خاصة في حمل الرسالة العالمية إلى الآفاق ، عشرة منها في مكة ، وثلاثة عشر في المدينة ، التحق النبي محمّد (ص) بالرفيق الأعلى ، وكان ذلك في ضحى يوم الاثنين من سنة " ٦٣٢ " ميلادية .

وكانت وفاة النبي (ص) نكبة فادحة في الإسلام لم يسبق لها مثيل .. كما كان فيها انحراف مباشر لخط السير السريع لتقدم الإسلام . وقام الإمام علي بن أبي طالب (ع) بمراسم الغسل والتكفين وصلّى عليه هو والمسلمون ، ثمّ دفن في بيته حيث مرقده الآن .

فعليك يا رسول الله أفضل الصلاة والسلام وعلى آلك الطيبين الطاهرين .

-٤٥-

## - تعدّد الزوجات :

لقد حسب العدو انه يستطيع أن يتخذ من تعدد زوجات النبيّ (ص) نقطة ضعف ليفتري منها عليه من يشاء .

بيد أن الدراسة الواعية لتاريخ النبيّ (ص) ، توحي بالفلسفة الواقعية لزيجات رسول الإسلام ، فإذا هي من صميم أخلاقه الطيبة ، ومن مظاهر إنسانيته ونشاطاته الدينية المقدسة ..

ونحن إذ لانستطيع أن نوجز ما يحتاج إلى سِفْرٍ في صفحة ، نامل أن نُشير إلى موجز من فلسفة زيجات النبي ، ومجملها أُبيّنه في ما يلي :

١- إن الرسول (ص) لم يتزوج في شبابه حينما تبلغ غريزة الإنسان الجنسية مشهاها . بل اكتفى بالسيدة خديجة وهي كما يعلم الجميع - كانت امراة ثَيِّباً .. ولم يتزوج بامراة بِكْرٍ إلاّ بعائشة ، وذلك حيث لم تكن له زوجة ، وكان بدء التبليغ الإسلامي وتاسيس شرائعه التي كانت تخالف الرهبانية المسيحية التي تحظر الزواج . وكان النبي يريد أن يكون عاملاً قبل أن يكون قائلاً ليكون أسوة حقة للمسلمين ؟

٢- إن الرسول (ص) تزوج بنساء " ارامل " كانت العادة العربية تنبذها نبذاً ، فتذهب إما فاجرة أو فقيرة " معدمة " . تلك الأرامل التي كانت الحروب الإسلامية تكثر منها . كما أنه تزوج بنساء لكي يستميل أهلهن إلى الإسلام .

فمن القسم الأول : أم سلمة وسودة بنت زمعة ورملة أم حبيبة وحفصة بنت عمر وميمونة وغيرهن .

ومن القسم الثاني : صفية بنت ثابت أحد زعماء اليهود ، ولعل النبي تزوج بها لتاليف قلوب اليهود الذين هُدّمت حصونهم ، وأُبيد مجدهم . وجويرة التي تزوجها بعد هزيمة إربابها في غزوة بني المصطلق ، فاعتق بسببها كل من اسر من بني المصطلق . واسلموا ببركة هذا الزواج الميمون . أضف إلى ذلك كله أن النبيَّ (ص) لم يبعث الى الرجال فقط بل الى النساء أيضاً فكان يتصل هو مباشرة بالرجال .. وبالنساء فيربيهم ويهذب نفوسهم . فإن لم يكن يتزوج هذا المقدار لم تتح له الفرصة الكافية للاتّصال بالنساء إلاّ من بعيد . وهو لايكفي في تربية المراة التي تؤهل لقيادة النساء فكرياً وتربوياً .

ومع أن الرسول (ص) تزوج بهؤلاء النساء المختلفات الجنسية ، فقد استطاع أن يكون المثل الأعلى في

تدبير الشؤون العائلية مع ما كان له من مشاكل إجتماعية بالغة التعقيد .

-٤٦-

اما في سائر الشؤون فقد استطاع النبيُّ (ص) بفكره وسعة صدره وحسن تدبيره وبما آتاه الله . من تفوّق كامل على جميع الناس في جميع العصور ، لقد استطاع ، ان يكوّن — وهو اليتيم المطارَد — من جحيم الصحراء العربية ، جنة البلاد الإسلامية ، ومهد الحضارات الإنسانية . ومن أهلها شر اهل الأرض واسواهم خُلقاً ومبدءاً وعادات ، كوّن منهم قادة العالم وسادته على طول الخط .. كما سبق تفصيل بعض احداثه آنفاً . افلا يدلّ هذا على حسن التدبير وسعة التفكير . وجميل السيرة والاكتمال في السمو النفسي والعقلي .

-٤٧-

اما إذا تكلّمنا عن رحابة الصدر وسعة النفس في مجال التدبير للشؤون الخاصة والعامة — إلى سائر مظاهر السمو النفسي والخلقي — فإنا يجب أن نعترف بالعجز عن التعبير الكامل لكل جوانب التفوق والتسامي في الأخلاق بالنسبة إلى النبي (ص) الذي جعله الله خاتم النبيين الذين كانوا قادة النّاس وسادتهم في كِلا الحقلَين المادي والروحي .

ولقد احتج الإمام امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) بعجز الإنسان عن التعبير الكامل عن اخلاق النبيّ (ص) ، احتج لذلك احتجاجاً لطيفاً بان الله يقول في كتابه ، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّـهِ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ (ابراهيم/٣٤) ، في حين يقول في آية اخرى ، ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الأَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (التوبة/٣٨) فالحياة الدنيا مع انها قليلة عند الله ، فإنها لايمكن الإحاطة بها . واحصاء ما فيها .. فكيف باخلاق النبي الذي يقول فيه الله تعالى ، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم/٤) حيث عبّر عنه بالعظيم .. فإذا لم يكن إحصاء القليل ممكناً فكيف يمكن إحصاء العظيم .

-٤٨-

ومع كل ذلك فاني اسرد لك شيئا من مظاهر الخُلق العظيم ، تاركاً الشيء الكثير منه .

كان النبي — اشجع ، واحلم ، واعدل ، واعف ، واسخى الناس جميعاً ، وكان لايبيت عنده دينار ولا درهم .

وكان ازهد الناس ، وابسطهم في العيش ، حيث كان يخصف النعل ويرقع الثوب ، ويخدم في البيت مع سائر أهل بيته .

وكان اشد الناس حياءً ، فلا يثبت بصره في وجه احد ابداً .

وكان اسمح الناس واسهلهم . وكان يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو انها جرعة لبن ، ويكافئ عليها احسن مكافاة . وكان لايستكبر عن اجابة أمَةٍ او مسكين .

وكان يغضب لله ولا يبغض لنفسه ، ويُجري حكم الله وإن تضرَّر هو او احد من اصحابه به . فقد اشار

عليه اصحابه ذات مرة بان ينتصر على اعدائه المشركين بسائر المشركين ، فابى قائلا ، انّا لا نستنصر بمشرك مع انه كان احوج ما يكون إلى ذلك .

وكان يربط الحجر على بطنه من الجوع . فإذا حضر الاكل . أكل ما وجد ولم يردّ شيئاً .. وكان متواضعاً في اكله ، فلا ياكل متوكئا ، ولا على خوان . ويؤاكل المساكين ويجالس الفقراء ، ويكرم اهل الفضل ، ولا يجفو احداً .

اما في شؤونه الإجتماعية ، فكان يعود المريض كائناً من كان وكيف كان ، ويشيّع الجنائز ، ويمشي وحده ولا يتخذ حاشية ابداً . ويركب ما حضر إن فرساً ، او بغلة ، او حماراً ، إن حافياً او ناعلاً ، مع الرداء حيناً ، وحيناً بلا رداء وبلا عمامة ولا قلنسوة . ولكنه كان يسير بمظهر القوة لا الضعف . فإذا مشى اقتلع رجليه عن الأرض اقتلاعاً حتى كانه ينحدر من عل .

وكان يحب الطِّيب حبّاً جمّاً .. وكان له عبيد وإماء ، ولكن لم يكن يترفع عليهم ابداً . وكان لا يمضي عليه وقت ليس في طاعة الله .

وكان يبدا مَن لقيه بالسلام ، ومن قام معه في حاجة سايَرَه حتى يكون هو المنصرف . وكان إذا لقي احداً من اصحابه بداه بالمصافحة ، ثم اخذ يده وشابكه ثم قبض عليها .

وكان لايجلس إليه احد وهو يصلّي إلاّ خفّف صلاته والتفت إليه قائلا ، ألك حاجة ؟. فإذا تمت حاجته قام إلى صلاته .

وكان اكثر جلوسه جلسة التواضع وهي ان يرفع ساقيه ويمسكها بيديه ، ويجلس حيث ينتهي به المجلس . وما رؤي قط مادّاً رجليه بين اصحابه وكان اكثر ما يجلس يستقبل القبلة . وكان يكرم من يدخل عليه ، حتى ربما بسط ثوبه لمن ليس بينه وبين الرسول قرابة . وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تكون تحته فإن ابى عزم عليه حتى يقبل .

وما استصغاه احد إلاّ ظن انه أكرم الناس عليه ، حتى انه كان يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه ونظره .

ولقد كان يدعو اصحابه بكناهم إكراماً لهم وتعظيماً . فإذا لم يكن لأحد كنية كنّاه من جديد حتى يكنّى بها .

والمراة إن كان لها ولد كناها به وإن لم يكن لها ابتدا بكنية لها جديدة . حتى الصبيان فإنه كان يكنيهم . وكان ابعد الناس غضباً على احد ، واسرعهم رضىً ، وارقهم لهم قلباً ، وخيرهم لهم نفعاً .

وكان إذا جلس مجلساً قال ، " سبحانك اللهم وبحمدك . اشهد ان لا إله إلاّ انت ، استغفرك واتوب اليك " .

وكان إذا جلس بين اصحابه لايُعرف ايهم محمد (ص) لاختلاطه بهم . فلما كثر الوافدون الذين كانوا يسالون عنه امام عينيه قائلين ، ايكم محمد ؟ . صنع له دكة من طين .. وكان يقول ، إنما انا عبد !.

اما صلته بربه فلقد كان نبيّ الإسلام ، اخشى الناس لربه ، واتقاهم له ، واعلمهم به ، واقواهم في طاعته ، واصبرهم على عبادته ، واكثرهم حبّاً له ، وازهدهم فيما سواه . فكان يصلّي حتى انشقت بطن قدّميه من كثرة الصلاة . فإذا وقف إلى الصلاة انهمرت دموعه . وارتجت البقعة بنشيجه وضراعته .. وكان يصوم حتى يقال : إنه لايفطر . ويفطر حتى يقال إنه لايصوم . وكان نظيف الجسم طاهر الثياب ، يرجّل جمته ، ويسرّح لحيته ، ويستاك ، ويعطّر جسده ، حتى كان يشم منه الرائحة الطيبة من بُعد ، ويعرف الشخص الذي يصاحبه لو يجالسه انه قد التقى به بما يسري منه إليه من العطر . ويطعم الجائع ويكسو العاري ، ويُركب الراجل ، ويُعين ذا الحاجة فيها ، ويقضي دين المَدين .

وكان اشجع الناس ، حتى قال الإمام علي ( عليه السلام ) لقد رايتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ (ص) وهو اقربنا إلى العدو . وكان من اشدّ الناس يومئذ باساً . وقال — ايضاً — كنا إذا حمي الوطيس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله (ص) ، فما يكون احد اقرب إلى العدوّ منه . وكان اجود الناس كفّاً ، واصدقهم لهجة ، واوفاهم ذمة ، والينهم عريكة ، واوسطهم نسباً . من راه هابه ، ومن خالطه احبه . ما سئل شيئاً إلاّ اعطاه . وإن رجلاً اتاه سائلاً فاعطاه غنماً سدّت بين جبلين ، فرجع الى قومه فقال : اسلموا فإن محمداً (صلى الله عليه وآله ) يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة .[٣]

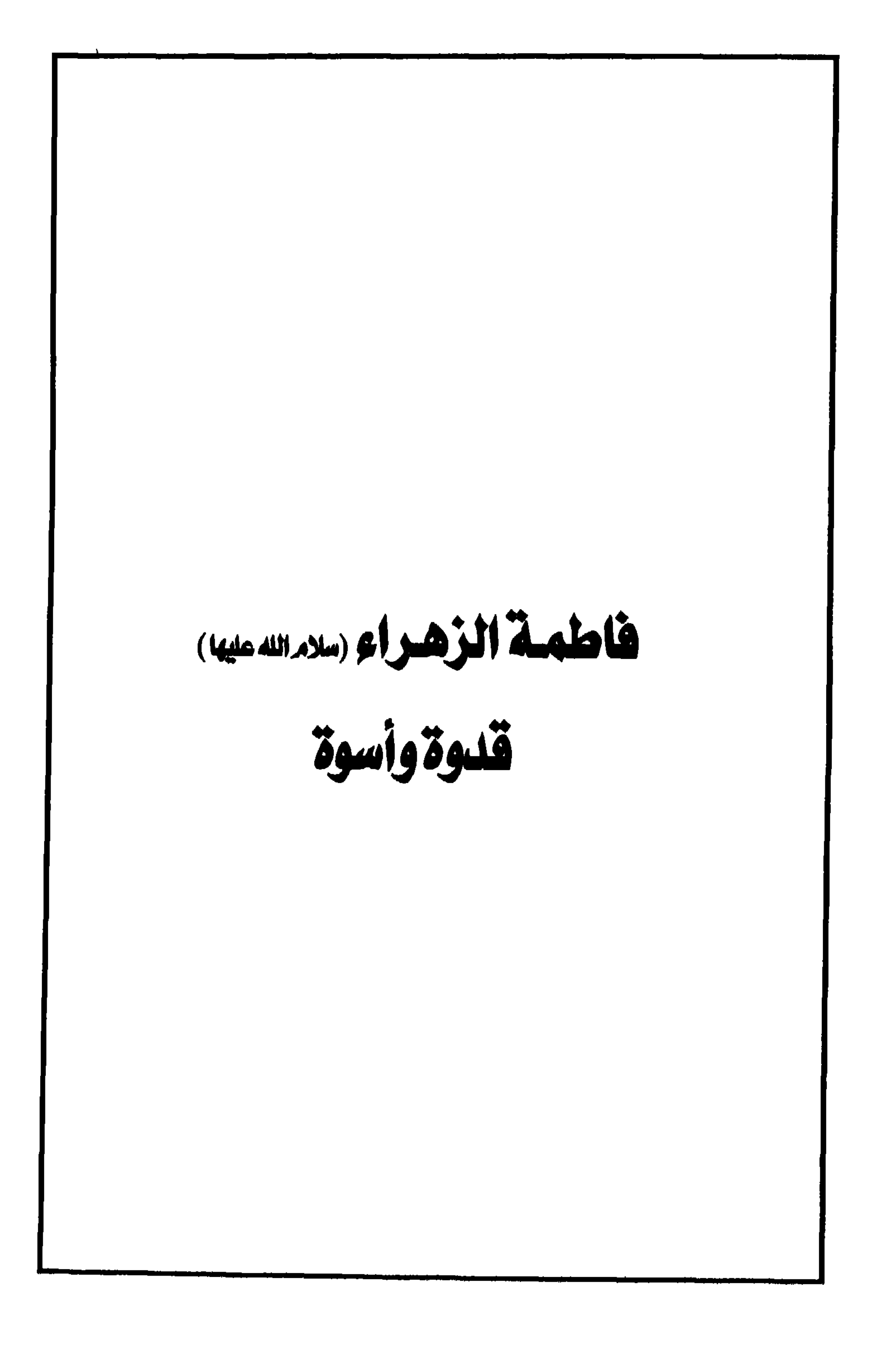
وكان يُنكر كلّ منكر ، ويامر بالمعروف .

وكان اخيراً قدوة لكل خير . واسوة في كل فضل ورائداً إلى كل ما ينفع الإنسان في العالمين .

فعليه وعلى آله افضل الصلاة والسلام .

---

(٣) اعتمدنا في نقل هذه الخصال الفاضلة على كتاب " المعارف الإسلامية " : ص ٤٨ — ٧٤ .



# فاطمة الزهراء (سلام الله عليها)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

" القدوة " هو ذلك الإنسان الذي يقود ركب البشرية إلى سبيل السلام . " والأسوة " هو ذلك المثل الأعلى لكل القيَم .

فالأسوة تعني النموذج الكامل ، لأفضل ما يفكر فيه الإنسان من خُلق وعمل ، بينما القدوة تعني الهاديَ إلى السبيل . بين سبل الحياة المتفرقة .

وإذ نكتب هذه السلسلة . باسم " القدوة والأسوة " فإنما نريد ان نشير إلى أن القادة الذين نشرح سيرة حياتهم ليسوا فقط " قدوة الأمة " بل هم " اسوة الامة " ايضا .

فكما يجب ان نستنير بهداهم الذي خلّفوه لنا في اقوالهم ، فكذلك يجب أن نتاسى بهم في اعمالهم التي عملوها وكانت سنّة للبشر .

ويعتبر من ميزات الرسالات الإلهية انها تصوغ ، جميعا ، اشخاصاً مثاليين ليكونوا النموذج الذي يجب أن يجعله الفرد نصب العين ، فيطبق جميع شؤونه وفقه ليتخرج طبقاً لأفضل حياة كريمة .

اما سائر المبادئ فإنها حينما يفشل المنتمون إليها في صياغة نماذج مثاليين ، فإنهم يعمدون إلى احجار جامدة .. واخشاب صامتة . فيجعلونها الأسوة الرمزية التي يجب عندهم اتباع ما يُنسب إليها من الأساطير . وهكذا يحاولون سد الفراغ .. ومن ذلك كانت قديما الد ماف الآلهة التي كانت الشعوب المتخلفة تزعمها نماذج للبطولات الخارقة والأمجاد العظيمة .. ومن ذلك – حديثا – الجندي المجهول ، الذي يعتبر رمزاً للفدائي الذي يجب ان يتبع من قِبَل سائر المواطنين .

اما في الإسلام ، فقد جعل الله سبحانه حامل رسالته ، اسوة للامة فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الاحزاب/٢١) حيث اعتبر الأسوة معصوماً ، وقال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم/٣-٤) . وهو يعني كونه ، لايرتكب اي خطا ولا يميل إلى اي انحراف . وإن لم يكن كذلك ، لبطل كونه اسوة ، ولم يصح ان يجعل الرسول سيداً مطاعاً في الخلق إذا امكن ان يخطئ فيجر إلى تابعيه الويل ، وامكن ان ينحرف فينكب بتابعيه الطريق ، وامكن ان ينجرف إلى الأهواء ويتبع الشهوات فيهوي بالخلق إلى المهاوي بعد ان يبدل حكم السماء ويحرّف كلماته .

ولم تقتصر نعمة الله على المسلمين بجعل النبي اسوة ، إذ جعل لهم خلفاء للنبي ، وجعل كلاً منهم أسوة تتبع ، بعد ان جعلهم معصومين عن الزلل .. بل جعل للنساء من الأمة اسوة من جنسهن ، تكون

رمز الفضائل والقيم ، وشاهدة على مدى صلاحية تعاليم السماء للتطبيق العملي بكلّ تفاصيلها ، وفي كلّ المجالات ... وتلك هي فاطمة الزهراء (ع) .

ففاطمة الزهراء التي أُضيئت هذه الأسطر بقبس من سيرتها الوهّاجة ، معصومة شأن سائر الأئمة والأنبياء عليهم صلوات الله . فهي إذاً ، لاتفعل سوى الحق ، ولا تتبع غير الحق ، وهي إذاً ، قد طبقت تعاليم السماء على نفسها تطبيقاً كاملاً . وهي – إذاً – قد اصبحت المثل المحتذى في جميع الفعال والخصال ، وهي لذلك كله " القدوة ، والأسوة " .

فإذا كيّفنا حياتَنا وفق سيرتها ، وافكارَنا وفق افكارها ، وتخلّقنا بمثلِ خُلقها ، فقد بلغنا الصواب . لانها كانت نسخة ناطقةً عن القرآن الكريم ، وشاهدة صدقٍ على واقعية تعاليمه الحياتية .

اقول ذلك في مقدمة هذه الصفحات – لكي نعرف أهمية البحث عن الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) . لأنها تتصل بحياتنا بصورة مباشرة .

## الفصل الأول

# الأصل الكريم

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ (الاعراف/٥٨)

محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وآله ) رسول الله وخاتم النبيين وسيّد المرسلين ، هو والد فاطمة (ع) ، وأعْظِمْ به رسولاً ، وأكْرِمْ به اباً .

وخديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين ، والسابقة إلى الإسلام والمحامية عن دين الله والمضحية في سبيل الرسالة ، هي أمّ فاطمة (ع) .

☆ ☆ ☆

في أجداد النبي ( صلى الله عليه وآله ) شخص يُسمى ( لؤي بن غالب ) إليه يسمو نسب خويلد ، والد خديجة . فهو ابن اسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن كعب بن غالب .

ولقد كان خويلد من سادة قريش ومن اثرياء مكة ، وكان له من الأبناء ثلاثة ، العوّام وهالة وخديجة .

العوّام هو والد زيد بن العوّام .. وصهر سيد قريش ، عبد المطلب – جدّ النبي ( صلى الله عليه وآله ) – فمن ذلك كان لزيد صلتان بفاطمة عليها السلام في النسب . فهو من جهة ابن خال ، ومن جهة ابن عمّة فاطمة (ع) .

واما هالة بنت خويلد ، اخت خديجة (ع) فإنها بقيت في الحياة إلى ما بعد الهجرة ، وكانت تتردد أحياناً على النبي ( صلى الله عليه وآله ) في المدينة ، فكان الرسول ( صلى الله عليه وآله ) يبدي لها احتراماً بالغاً نظراً إلى نسبتها إلى خديجة – الزوجة الحانية والحامية – للرسول وكان يأخذ عائشة زوجة الرسول ما يأخذ النساء من أمر ضرّاتهن . بيد ان النبي ( صلى الله عليه وآله ) كان ينهرها ، مشيداً بمواقف خديجة ومآثرها التي تقتضي تكريم النبي ( صلى الله عليه وآله ) لها في احترام اختها .

☆ ☆ ☆

كان من المنتظر ان تتزوج خديجة في شبابها بابن عمها " نوفل بن اسد " ولكنّ الزواج لم يتم ، لأن نوفل كان من الحكماء في الجزيرة فشغله البحث عن الحقيقة عن الزواج . وتقدم بعد نوفل سيد من زعماء بني تميم للزواج بخديجة وكان يسمى بـ " هند بن بناس " . ولكن هذا الزواج لم يسعد إذ توفي هند في شبابه ، وترك خديجة ارملة غنيّة .

وكان عتيق بن عابد من مشاهير كرماء العرب ، فتقدم إلى الزواج بخديجة ، ورزق منها ابنة سماها بـ

" هند " غير أنه مات هو الثاني وترك هنداً ابنته يتيمة في بيت خديجة .

وكان مولد خديجة خمسة عشر عاماً قبل الحدث التاريخي لهجوم ابرهة على مكة ، الذي كان مبدأ تاريخ العرب . واشتهرت تلك السنة بـ " عام الفيل " .

ومع ذلك فقد تزوجها النبي ( صلى الله عليه وآله ) ثالث ثلاثة ، نظراً لرغبتها في ذلك ، ولمّا عرفه الرسول في نفس خديجة من حب الخير والدفاع عن الحق ، ولمّا اتّصف به من الحكمة ، والخلق الفاضل . امّا هي فقد احبت النبيَّ ( صلى الله عليه وآله ) بعد سفرة تجارية ارتحل بها النبي ( صلى الله عليه وآله ) إلى الشام في مال خديجة ، لِما رات هي واخبرها عبدُها الذي رافق النبي ( صلى الله عليه وآله ) — في الرحلة — من مكارم الخلق ، وبشائر النبوغ ، والعظمة . ولعلها كانت قد علمت بنبوة الرسول ، فرغبت في الزواج به .

وتمّ وسعد الزواج الجديد بين محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وآله ) وبين خديجة .. وكان من اكثر الزيجات بركة في الإسلام ، وقد انجبت خديجة للنبي اولاداً صالحين ، هم :

١— القاسم : الذي ولد قبل البعثة . وتوفي قبلها ايضاً . وبه كُنّي النبي ( صلى الله عليه وآله ) بابي القاسم .

٢— عبد الله : الذي كان كاخيه ، في الميلاد والوفاة قبل البعثة . على القول المشهور .

٣— الطاهر : الذي ولد في الإسلام . وبذلك سمّي " الطاهر " ولكنه توفي ايضاً .

٤— زينب : وكانت اكبر بنات الرسول .. وتزوجت بابن خالتها ابي العاص بن الربيع ، وانجبت له بنتاً ، وولداً . وهما " امامة وعلي " . اما امامة فقد حظيت — في يوم من الأيام — بالزواج من الإمام امير المؤمنين ( عليه السلام ) بعد فاطمة الزهراء (ع) وبوصية منها . وامّا عليّ فقد وافاه الموت طفلاً .

وتوفيت زينب — اكبر بنات النبي ( صلى الله عليه وآله ) في السنة الثامنة للهجرة .

٥— رقيّة : وتزوجت بابن عمها عتبة بن ابي لهب . ولكنه كان عدواً شديد العناد للإسلام . مثل والده ابي لهب المعروف بعدائه الشديد للدّين الجديد . وحيث إنه سبّب مشاكل للنبي ( صلى الله عليه وآله ) ولسير الدعوة الإسلامية فقد دعا عليه الرسول .. واستجيبت دعوته حين مزقته اسود الحجاز ، وظلّت رقيّة ارملة .

ثم تزوجها عثمان بن عفان ، ورزق منها ولداً سماه " عبد الله " إلا انه توفي في الطفولة . ولم يرزق منها ولداً غيره . حتى لبِّت رقيّة دعوة ربها . فماتت في نفس الوقت الذي كان الرسول يجاهد كفار قريش عند آبار بدر .

٦— ام كلثوم : التي سميت " آمنة " باسم امّ النبي ( صلى الله عليه وآله ) " آمنة بنت وهب " ، وتزوجت بابن عمها ابي لهب الذي كان يدعا بـ "عُتيبة " ولكن الزواج لم يسعد . نظراً للخلاف القائم بين الزوجين حيث اصرَّ ابو لهب على عناده ، واجبر ولده على طلاق زوجته ، بنت النبي ، اذيّة له وتنكيلاً به .

وتزوجها بعد فراق عُتيبة – عثمان بن عفان – لأن رقية كانت قد توفيت في ذلك الوقت .. ولكن أمّ كلثوم ماتت هي الأخرى في السنة التاسعة للهجرة .

٧– فاطمة الزهراء (ع) :

كانت خديجة ملكة الحجاز ، في ثرائها العريض ، وتجارتها الواسعة . وكانت مشهورة بحسن الخلق ورجاحة العقل ، وحينما تزوجت بالنبي ( صلى الله عليه وآله ) كانت الزوجة المثالية في إدارة الحياة داخل البيت وخارجه وفي تربية السلالة الطيبة .

وحينما بُعث النبي ( صلى الله عليه وآله ) بالرسالة ، استجابت للدعوة ، قبل كل احد ، ورضخت لتعاليم الإسلام ، وطبّقتها على نفسها ، وابدت نشاطاً واسعاً في تبليغها ونشرها ، كما انها جعلت كلّ ثروتها في خدمة النبي ينفقها في سبيل الله حيث يشاء ، وحيث وجد الإسلام – اول الأمر – أُذناً واعية بين ابناء الطبقة الفقيرة ، وفي تحرير العبيد سواء بصورة مباشرة او عبر وسطاء كابي بكر الذي كان ثرّياً ولم يكن شراؤه للعبيد يثير شبهة عند اثرياء قريش . لأنه إنما كان يفعل ذلك من اموال خديجة وبأمر الرسول ( صلى الله عليه وآله ).

وقد حدا هذا العطاء اللامحدود من خديجة للإسلام ، حدا بالنبي ( صلى الله عليه وآله ) الذي لم يكن ينطق عن الهوى ، بكلمة واحدة إلى ان يبيّن الحقيقة التي اصبحت وساماً على كتف التاريخ الرسالي بلده ، " قام الإسلام بسيف علي ومال خديجة " . فلقد كانت ثورة خديجة المالية ، بمثابة الحجر الأساس لبناء الأمة إقتصادياً ، كما كان سيف عليّ بمثابة الدرع الحصين لبنائها السياسي .. فإذا اجتمعا إلى جانب الرسول ( صلى الله عليه وآله ) الذي كان صاحب الوحي ، ومهبط الرسالة الإلهية ، تكاملت شروط بناء الأمة الرسالية الحنفية ثقافياً واقتصادياً وسياسياً .

كما أن تكامل خديجة النفسي وتفاعلها الفكري مع الرسالة الإسلامية . في كل بنودها النازلة حتى ذلك الوقت على الرسول ( صلى الله عليه وآله ) ، حدا بالنبي الكريم ( صلى الله عليه وآله ) إلى ان يجعل خديجة في مصاف النساء الأربع الكاملات كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام إذ قال :

" كُمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلاّ اربع :

– آسية بنت مزاحم .

– مريم بنت عمران .

–خديجة بنت خويلد .

– فاطمة بنت محمد . " [١]



(١) أنوار التنزيل – في تفسير سورة التحريم .

وكان ذلك ايضاً سبباً في ان يكون لموت خديجة اثر بالغ في فؤاد النبي ( صلى الله عليه وآله ) لتاثيره في انتشار الدعوة ، تاثيراً بالغاً ، حتى سمي ذلك العام الذي توفيت خديجة فيه بـ " عام الحزن " فقد ورد على النبي ( صلى الله عليه وآله ) فيه مصيبتان كبيرتان ، وفاة ابي طالب كفيله ونصيره في كل موقف ، وموت خديجة بنت خويلد زوجته المدافعة عنه وعن دعوته .

## الفصل الثاني

# الشجرة المباركة

-١-

( عن أبي جعفر عليه السلام عن جابر بن عبد الله قال :

قيل يا رسول الله انك تلثم فاطمة وتلزمها وتدنيها منك وتفعل بها مالا تفعل باحد من بناتك ؟

فقال : إن جبرائيل أتاني بتفاحة من تفاح الجنة فاكلتها فتحولت ماءً في صلبي ثم واقعت خديجة فحملت بفاطمة فانا اشم منها رائحة الجنة ) [٢] .

☆ ☆ ☆

ولا زالت تحفها هالة من المعاجز الخارقة ، وهي في بطن أمها تكبر ساعة بعد ساعة حتى أنها كانت تحدث أُمها وهي في بطنها ، فتؤنسها بذلك ، حتى وُلدت وكان لميلادها ميزة تدل على اهتمام الخالق بها اهتماماً بالغاً .

-٢-

وقد يتملكنا العجب حين نرى مثل ذلك مخصوصاً بميلاد فاطمة ، مع أنها لم تكن بالبنت الوحيدة لنبي الإسلام ( صلى الله عليه وآله ) ، ولا بالبنت الكبرى ، كما أنها لم تكن من الذكور .

ولكن يجب أن نعرف أن الكبر والصغر لايعترف بهما الإسلام كمقياس .. كما أنه لايعترف بمقياس الأنثى والذكر بصفة عامة ، بل المقياس المعترف به في الإسلام إنما هو الحكمة البالغة التي يفعل الله بحسبها ما يشاء . كما أن هناك مقياساً آخر معترفاً به في الإسلام ، وهو مقياس العمل الصالح ، وكلاً من المقياسين له موقعه .

فالمقياس الأول : يتحكم في الشؤون الكونية . أي في مرحلة التكوين ، فخلق الشمس والقمر والأرض وو.. ، إنما هو خاضع لمقياس الحكمة .

وأما المقياس الثاني : فهو يجري في الأمور التشريعية ، أي في جانب الاختيار الذي اصبح الإنسان بسببه مختاراً مريداً .

فإذا أردنا أن نعرف الرجل الطيب الذي يحبه الله ، وجب علينا أن نقيسه وفق المقياس الثاني ، فننظر

---

(٢) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٥ .

إلى اعماله وإلى الأمور التي فعلها هذا الفرد نفسه بإرادته وبمشيئته الخاصة . أما مقياس النسب او العنصر او البلد او ما اشبه ذلك ، فليست هذه المقاييس معترف بها في الإسلام ، ابداً .

فالإسلام لايعترف بالف ابي لهب ، في مقابل سلمانٍ واحد ، مع كون ابي لهب عمّ النبي ( صلى الله عليه وآله ) وابن سيد قريش عبد المطلب ، ومن الأسرة المختارة ، بني هاشم . مَن بأيديهم رفادة البيت ، وسقاية حجاجه ، وكون سلمان عبداً أعجمياً ، لفظته البلاد ، ونقضت قواه السنين .

كما لايعترف الإسلام بالف عتبة وعتيبة . وهما صهرا النبي ( صلى الله عليه وآله ) الثريين ، في قبال بلال الرجل الأسود ، وإن كانا ابنا ابي لهب من اشد الناس بياضاً ، وكان بلال من اشدّهم سواداً .

وهكذا الإسلام لايعترف بالف أبي سفيان ، وهو قائد قوات مكة العربية ، في قبال صهيب وهو مستضعف من بلاد الروم البعيدة .

-٣-

وفاطمة الزهراء (ع) يلفتنا من حياتها جانبان كلّ منهما يرضخ لمقياس ، وهما :

الأول : ما نراه يحدث قبل ميلادها . من تكوينها عن فاكهة الجنة وحديثها لامها وهي جنين ، ومرافقة ميلادها حوادث خارقة ، مما يدل على ان لله تعالى عناية خاصة بها من جميع الجوانب ، أترى ذلك باي مقياس ؟.

إنه وفق المقياس الأول — اي الحكمة البالغة التي يفعل الله حسبها ما يشاء سبحانه وتعالى — .

فلحكمةٍ خص الله فاطمة عليها السلام بهذه المزايا دون سائر النساء جميعاً ، وبينهن بنات النبي ( صلى الله عليه وآله ) وزوجاته .. وبنات المهاجرين والانصار وزوجاتهن ، وذلك لمصلحة شاء الله ان يجعل بين الأمة الإسلامية مَن تَفوق درجةً على مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها اي جميع نساء زمانها .

ولأمر خلق الله فاطمة عليها السلام من ثمر الجنة . بينما كان للنبي ستة اولاد اخرين لم يخلقوا من ثمر الجنة .

ولسبب رافقت فاطمة سلام الله عليها حوادث خارقة لم ترافق ميلاد سائر اولاد النبي ( صلى الله عليه وآله ) .

ونحن لانعرف كل شيء عن الحكمة الإلهية البالغة ، اكان ذلك لكي تضاهي الأمة الإسلامية الأمم السابقة ، فإذا كانت مريم (ع) سيدة نساء عالمها في امة عيسى ، تكون فاطمة (ع) سيدة نساء العالَمين في امة محمد ( صلى الله عليه وآله ) .

اجل ، لانعرف اكان ذلك من اجل ذلك ، ام كان لأن العرب مثل سائر الامم ، كانوا يبالغون في النيل من المراة . والحط من شانها حتى جعلوها حيواناً خلق على صورتهم ليخدمهم وليقضي حوائجهم الجنسية ، فاراد الله ان يقتلع هذا المفهوم الخاطئ المخالف للواقع عن افكارهم وينقذ البشرية من اثاره السيئة فجعل

للنساء سيدة يفتخرن بها ويتطاولن على الذكور ؟

أم كان ذلك لأن الله تعالى اراد ان يجعل لهذه الأمة ائمة يهدون بأمره ويرشدون إلى سبيله ، فقدر كونهم من خير سلالة ، وافضل ذريّة ، من النبي خاتم الأنبياء والوصي سيد الأوصياء ، فخلق فاطمة (ع) لتكون الصلة الرابطة بين نور الجانبين ؟ نور النبي ونور الوصي ؟!

كل ذلك ممكن . ولكن الأمر الذي يطمئن إليه الباحث بعد مطالعة دقيقة لجميع جوانب حياة فاطمة الزهراء عليها السلام ، هو انَّ الله تعالى كما اراد ان يجعل للأمة قادة من الذكور ، شاء ان يخلق لها قدوة من الإناث ، لكي لايبقى للنساء مجال للعذر عن التمسك بتعاليم الإسلام ومُثله وقيمه بصورة مجتمعة ، بحجة ان الذين تمسكوا بكل ما في الإسلام إنما كانوا من الرجال وليس من النساء ، وان قوى الرجل ومواهبه وكفاءاته اكبر من المراة .

لقد تلطف الله سبحانه في دعوة عباده إلى نفسه ، حتى لم يُبق عذراً لمعتذر ، ولا حجة لمن يريد التبرير . فجعل للنساء اسوة تشاركهن في المسؤوليات العامّة ، كالشؤون المنزلية ، مثل الحملُ والوضع والتربية . والأعمال البيتية من طبخ وتنظيف ، والوظائف الشرعية ، مثل الحجاب وإطاعة الزوج ، وقلّة الحظ في الميراث والشهادة ، وما إلى ذلك ..

ان ما تختص به المراة من المسؤوليات الفطرية او غير الفطرية ، قد تصبح عند البعض داعيا إلى انسحابها من ميادين العمل الديني والتواني عن بعض التكاليف الشرعية . ولكن الله حيث جعل فاطمة (ع) مثالاً لكل الفضائل والقيم ، مع ما كانت عليها من المسؤوليات الخطيرة في تلك الظروف العصيبة ، لعله اراد — سبحانه — قطع حجة اية امراة تبرر تقاعسها عن واجباتها انها من الجنس الضعيف .

فما حكمة خلق فاطمة عليها السلام بهذه الكيفية ، إلاّ كحكمة خلق الأنبياء والأوصياء ، بما فيهم رسول الإسلام محمد ( صلى الله عليه وآله ) والائمة المعصومين عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، خلقهم بتلك الكيفية مفضلين على سائر الناس درجات ، ومخصوصين بمواهب وكفاءات .

فليست حكمة عصمة الأنبياء والأوصياء وتفضيلهم ، إلاّ انهم اسوة وقدوة للناس ، وانّ على الخلق اتّباعهم واتخاذهم مثالاً لحياتهم . وكذلك حكمة خلق فاطمة عليها السلام من بين النساء . وإذا كان النبيّون والأوصياء سادة الخلق ، فإن فاطمة (ع) سيدة نساء العالمين .

— ٤ —

الثاني ، والجانب الآخر من حياة فاطمة الزهراء عليها السلام ، يتعلق بالآيات النازلة في حقها ، والأحاديث المروية فيها عن النبي ( صلى الله عليه وآله ) . ونتسائل لماذا وردت هذه النصوص بشان فاطمة (ع) دون غيرها من النساء ؟ ولماذا جاءت هذه النصوص بحقها دون سائر أخواتها من بنات النبي ( صلى الله عليه وآله ) .

والجواب ، إنما وردت هذه النصوص وفقاً للمقياس الثاني المذكور آنفاً ، وهو ، انَّ الله جعل مقياس

الفضيلة والرفعة عنده العمل الصالح دون النظر إلى شخص العامل وجنسه . وفاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام ، حيث ادركت هذه الحقيقة ، لم تعتمد على مكانتها عند الناس بقربها إلى النبي ( صلى الله عليه وآله ) والوصي (ع) نسباً وسبباً ، كما لم تعتمد على مكانتها عند الله تبعاً للمقياس الأول الذي اشرنا إليه ، بل راحت تجتهد بنفسها لبلوغ الكمال العظيم .

ولقد كان المفروض ان توثق فاطمة عليها الصلاة والسلام صلتها القريبة برسول الله ( صلى الله عليه وآله ) فتعتمد عليها ، ولكنها اوثقت صلتها بالله الذي بعث هذا الرسول ، وجعله نبيّاً ، واعطاه ما اعطاه من الرفعة والسناء . وسوف تظهر في خلال الاسطر الآتية ، هذه الحقيقة بصورة اوضح إن شاء الله تعالى .

— ٥ —

كان ذلك اليوم ، يوم العشرين من شهر جمادي الثانية بعد المبعث النبوي بسنتين او خمس سنين — وكانت شقة الخلاف تزداد بين النبي ( صلى الله عليه وآله ) وبين قريش كل يوم ، وكانت اموال خديجة تُنفق في سبيل الدعوة ، فلا يبقى لها ، ذلك الثراء العريض ، ولا تلك التجارة الواسعة ، بل اقتربت من الفقر ، من جانب ، وتصلّب موقفها للدعوة ضد الأفكار الرجعيّة التي كانت نساء قريش قد تعودت عليها ، وتبنّت الدفاع عنها من جانب آخر ، فقد تخلت عنها نساء قريش مرة واحدة .

كانت رقعة الخلاف تتسع بين قريش والمسلمين . وكان عداء قريش وحسها بضرورة الإنتقام يتطور من سيئ إلى اسوأ ، إذ ارسلت خديجة — تماماً في العشرين من شهر جمادي الثاني — ارسلت إلى نساء قريش تطلب منهن العون في أمر الولادة . ولكنهن جابهناها بالرد المشوب باللوم ورفضن التعاون معها .

جلست خديجة كئيبة حزينة ، إذ لم تكن هناك نساء يستاجرن لهذا الغرض مثلما هو موجود الآن . كما لم تكن هنالك مستشفيات للولادة . ومن المعلوم ان المراة تحتاج في مثل هذه الحالة إلى من يلي امرها .

جلست كئيبة ، وحق لها ذلك . الم تكن بالأمس سيدة قريش ، وملكة الحجاز ، تقوم على اموالها تجارة الجزيرة شمالاً ، وجنوباً ؟ ولكنها حين انفقت اموالها في سبيل الله ، بقيت مضطرة منفردة مُعرض عنها حتى من تلك النسوة اللاتي كنّ خدمها بالأمس القريب .

وإني هنا اسال القارئ الكريم ، ماذا كان ينبغي لجلال الله ورحمته الواسعة ان يفعل بخديجة التي لولا انها تبنت الدعوة إلى الإسلام ، وصرفت اموالها في سبيلها لكان وضعها مختلفاً جداً ؟

ماذا ينبغي لكرم الله الودود الرحيم الذي خاطب مريم الصديقة عليها السلام — في حالة متشابهة — بان تهز جذع النخلة لِتُساقِطَ عليها رطباً جنياً . الله الذي فلق جدار البيت لفاطمة بنت اسد ، في حالة مماثلة لتدخل البيت ، وتلد علي بن ابي طالب (ع) ؟

ماذا ينبغي لكرم وجهه أن يفعل في هذه الساعة ؟. لقد كانت خديجة جالسة في حالتها الكئيبة ، إذ رات نساءً سمراً طوالاً وردن عليها البيت ، وقالت إحداهن ، لا تخافي ولا تحزني ، فانا معك ، جئناك لنلي

مثلك ما تلي النساء من مثلك في هذه الحالة . ثم اضافت تقول : انا سارة زوجة إبراهيم ، وهذه آسية بنت مزاحم ، وهذه مريم بنت عمران ، وهذه كلثم اخت موسى .

ثمَّ اخذن يتعاونّ في أمر المخاض ، حتى ولدت فاطمة عليها الصلاة والسلام ، قالت وهي تستهلّ الكلام في هذه الحياة :

( اشهد ان لا إله إلاّ الله ، وان ابي رسول الله ، سيد الانبياء ، وانّ بعلي سيّد الأوصياء ، وولْدي سادة الاسباط ) .

ثم اخذت تنشا نشاة مباركة .

= ٦ =

وقد ابتدات حياة فاطمة عليها الصلاة والسلام ، في الوقت الذي كانت قد ابتدات للنبي ( صلى الله عليه واله ) حياة الجهاد والمقاومة الفكرية العنيفة تماماً ، وفي تلك السنين التي كان النبي يتلقى الوحي الإلهي ، يامره بان يصرح بالرسالة دُون ان يعبا بما في طريقه من اشواك دامية ، وعقبات كأداء ، فقام النبي ( صلى الله عليه واله ) باعباء الرسالة الإسلامية ، وقامت ضده قوى الضلال تهدف إلى إحباط جهوده ( صلى الله عليه واله ) وصده عن الدعوة بكل وسيلة .

وكانت فاطمة تترعرع في تلك الظروف المتازمة التي كان النبي ( صلى الله عليه واله ) كلما بالغ في الدعوة إلى الله والحق ، بالغ اعداؤه في التنكيل به وتعذيب اصحابه .

لقد عاشت فاطمة عليها الصلاة والسلام ماساة الشّعب ( شعب ابي طالب ) حيث كانت ضمن صغار السن الذين منعت قريش عنهم الطعام .. فكانوا يتضوّرون جوعاً ، وكانت ذئاب قريش تحرس باب الشّعب لكي لا يتسرب إلى المسلمين شيء من الطعام .

ولقد شاهدت فاطمة عليها الصلاة والسلام بعدما افرج عن المسلمين من حصار شعب ابي طالب ، شاهدت اباها ذات مرة ، وقد القت قريش سَلا الجزور على راسه ، وهو ساجد يصلي لربّه ، فجاءت وطرحت السلا عن راس والدها ، وقد اخذ منها الحزن والتاثر ، ماخذاً بليغاً .

ولقد شاهدت اباها ايضاً وهو مهاجر إلى الطائف ، مبلّغ في اهلها دعوة الله ، ولم يستجب له أحد .

كما شاهدت ذلك اليوم الذي كانت امها خديجة (ع) تضطرب على فراش الموت وتلفظ انفاسها الأخيرة وهي لا تملك من مال الدنيا شيئاً . بعدما كانت تجارتها تملأ سهول الحجاز وبطاحها . حتى إذا استجابت دعوة ربها ، لم تملك حتى ما تكفّن به .

نعم لقد لاحظت فداء امها خديجة للدّين ، وتفانيها في سبيله ، ودفاعها عنه بكل ما كانت لديها من القوة والإمكانات ، فتاثرت بذلك ، وطُبعت في نفسها معانٍ حيّة .. بقيت في ضميرها تبعث الحيوية والنشاط في سبيل الدين .

فكانت كآبة وفاة امها ، تمتزج في قلبها ببطولات خديجة ، لا كامٌ لها فقط ، بل كام للمؤمنين والمؤمنات

ايضاً ، وكمدافعة عن الحق ، ومضحية في سبيله بكل شيء .

ولقد كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام تعيش في السنين الأولى من حياتها ، التجارب التي قلّما اتفقت لأحد أن يعيشها في التاريخ .

إنها سايرت الدعوة ، في معركتها العنيفة ، وهي في قلب المعركة . لأنها كانت ، بنت قائد المعركة ، وهو النبي (ص) ، فلذلك كانت تدور ايدما دارت المعركة وتعيش وفق ما عاشت .

لم يذكر التاريخ عن حوادث تتعلق مباشرة بفاطمة عليها الصلاة والسلام اثناء وجودها في مكة ، إلاّ اننا واثقون من أن حياتها فيها لم تكن خالية عن الأذى . ولقد بلغت الصلافة بقريش الكافرة مبلغاً يدل على انهم كانوا يتعرضون لأذى اهل النبي (ص) كتعرضهم لأذى النبي ( صلى الله عليه وآله ) نفسه وكتعرضهم لأذى اهل بيت سائر المسلمين .

فمن الموثوق به أن فاطمة عليها الصلاة والسلام ابتليت بأذى قريش كثيراً . كما أنَّ حياتها ، كانت محفوفة بالمخاطر . هذا كله إلى جانب ما كان يصيبها من الأسى ، بصورة غير مباشرة ، إذ أن كل صدمة كانت ترد على النبي (ص) فإنما كانت صدمة بالغة الأثر بالنسبة إلى فاطمة عليها الصلاة والسلام .

— ٧ —

وحينما أُحيط بيت محمد (ص) وقد أرادوا قتله كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام تلاحظ ذلك .. وحينما هاجر النبي (ص) إلى المدينة كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام تشعر بمرارة الفراق .. وكانت كذلك حينما كُلِّف الإمام امير المؤمنين (ع) من قِبَلِ النبيِّ (ص) بأن يهاجر مع من بقي من اهل بيت النبي . الذين كانوا يتألفون من الفواطم .

فاطمة بنت اسد . أم الإمام وزوجة سيد الأباطح ابي طالب ، فاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، فاطمة بنت محمد عليها الصلاة والسلام .[٣]

وسار الركب إلى المدينة . ولحقتها سريّة مسلحة من قِبَل قريش لكي تمنع لحوق اهل النبي (ص) به ، فاشتدت المعركة بين الإمام علي (ع) وبين تلك السريّة ، حتى هزمها الإمام ، وبعد أن كبدها خسائر .. كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام حينذاك ، في الركب المهاجَم عليه .

وكان النبي (ص) ينتظر قدوم ابنته فاطمة عليها الصلاة والسلام والإمام (ع) ، فلم يدخل المدينة حتى لحقا به .

— ٨ —

وكانت فاطمة في المدينة ، ترافق الأحداث .. وتراقبها فتنصقل شخصيتها وتكتمل يوماً بعد يوم ، ففي يوم أُحد إذ دارت الحرب على المسلمين جاءت فاطمة عليها الصلاة والسلام تضمّد جراح والدها برماد

---

(٣) بحار الأنوار : ج ١٩ ، ص ٦٥ .

حصيرة أحرقتها وأخذت سيفي النبي والوصي عليهما السلام وغسلتهما ونظفتهما .

— ٩ —

وكان لزواج فاطمة من بين أحداث حياتها قصة تُروى ، فتأخذ جانباً عظيماً من حياتها . والواقع أن زواجها تمَّ وفق القيم الإسلامية ، في كل جوانبه ، ولذلك فقد أصبح النموذج والمثل لكل زواج لابد منه لكل إنسان .

ولقد جعل الفقه الإسلامي الطريقة التي اتبعت في زواج فاطمة عليها الصلاة والسلام سنّة مندوبة ، لأنها كانت صورة مجسدة لتعاليم الإسلام . واليكم شرح هذا الحدث ، بإشارة إلى المواقع الحساسة منه .

## أوّلاً : الخطبة

كان الزواج يتحقق في بساطة ، ودون أن يُغالى فيه أو يُنقص من شانه ، وكان مفهوم الزواج الإسلامي ، مفهوماً نابعاً عن واقعه وطبيعته ،من أنّه ظاهرة فطرية ، جُعلت في الإنسان لبقاء النوع واستمرار الحياة . هكذا قرر الإسلام الزواج ، وهكذا وضع تعاليمه بالنسبة إليه .

ولذلك فلم يكن بحاجة إلى ما نعرفه في بعض المجتمعات المسلمة من مقدمات ومؤخرات لا فائدة منها .

كان يُبتدأ الزواج بخطبة الرجل للمرأة التي تعجبه من حيث الحسب والنسب ، ثم ينظر أهل المرأة في الزوج ، فإن رأوه صالحاً ، عينوا مهراً بسيطاً وأنكحوه ابنتهم بدون لف ودوران ، وبدون أن تمشي إلى بيت الطرفين طائفة من هؤلاء ، وطائفة من هؤلاء . ثم يبدأون محادثات طويلة ، بدون جدوى ، وكان الزواج تحديد للعلاقات الدولية بين الشعوب ، كما هو الموجود في بعض البلاد .

ولذلك نرى أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب عليه السلام يأتي إلى النبي (ص) فيسلم عليه . ويتّخذ موقعه .. فيسأله النبي (ص) عن سبب مجيئه ، فيعرض عليه أمر الزواج بفاطمة (ع) فيقول النبي (ص) له بكلّ بساطة ، أهلاً ومرحباً .

## ثانياً : القبول

ولا يبت النبي (ص) الأمر إلاّ بعد أن يَعرض على فاطمة عليها الصلاة والسلام ذلك ، بكل تفاصيله ، يذكر لها موجزاً من تاريخ علي عليه السلام وشيئاً من فضائله ومناقبه ، وفاطمة تسكت مشيرة إلى رضاها بذلك ، فيقول النبي (ص) في هذا المجال ، الله أكبر ، سكوتها رضاها .

إن الإسلام يعتبر المرأة إنسانة لها كرامتها ، ولها حقها في اختيار المصير . ورغم أن لوالدها أيضاً الحق في المساهمة في الإختيار ، لأن الأب أعرف بمواقع الخير لابنته . وإلاّ فإن أجحف الوالد ، وتطرف في استغلال هذا الحق ، فإن الشرع سوف يحدّد سلطته ويضع كل الحق بيد المرأة . وبهذا يتخذ المنهج الإسلامي في اختيار الزواج بلا إفراط ولا تفريط ، فلا يتفق مع الاسلوب الأوروبي الذي يفصل المرأة عن أسرتها ، ويجعل لها وحدها الحق في اختيار زوج قد يسبّب انفصالها عن سائر أفراد أسرتها . ولا يوافق

على منهج الجاهليين الذين كانوا يبتاعون ويبيعون المراة ، كما يتعاطون الأمتعة والسلع .

## ثالثا : الكفاءة

لقد بلغت فاطمة عليها السلام مبلغ النساء في الوقت الذي بلغت قوة المسلمين مبلغاً استطاعوا به ان يتحدوا اكبر قوة في الجزيرة .. وهي قريش مكة وتسابُق الرجال يريدون ان يكتسبوا شرف الزواج ببنت رسول الله (ص) فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام التي كانت قد اشتهرت مآثرها ومناقبها ، وما لها من عفة ، وحياء وحكمة ، وسداد ، وورع واجتهاد ، وعلم ومعرفة .. هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، كان المسلمون يعرفون مدى حب النبي صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها الصلاة والسلام فلذلك تعرّض الكثير من ذوي الجاه والمال والشرف ، في ذلك ، ولكن النبي (ص) كان يردهم رداً لطيفاً لما كان يعرف من عدم صلاحيتهم لزواج فاطمة عليها الصلاة والسلام ، وعدم كفاءتهم لها . مضافاً إلى ما كان يعرفه النبي (ص) عن الوحي من ان زواج فاطمة ، المراة المفضلة المعصومة في الإسلام ، والتي كان المقرر أن يكون منها نسل النبي (ص) وذريته ، وأوصياؤه وخلفاؤه ، إن زواجها يجب أن يكون بالرجل الذي يختاره الله سبحانه وتعالى .

ولذلك كان يقول لكلّ من يتعرض لهذا الأمر ، إني انتظر القضاء " اي قضاء الله تعالى " وحين جاء عليٌّ يعرض عليه ذلك ، اخبره بان جبرائيل عليه السلام قد سبقه بذلك وهو يخبر بان الله ، قد زوجها في السماء وأشهد على ذلك الملائكة .

كل ذلك لان علياً عليه السلام افضل مَن مشى على الأرض بعد محمد (ص) وقد عرفه النبي (ص) بذلك كما عرفته فاطمة ، فهو الكفء الوحيد لفاطمة ، ولا يجوز تزويج البنت بغير الكفء . وبذلك يصرح الحديث المأثور عن ابي عبد الله عليه السلام انه قال :

" لولا ان الله تبارك وتعالى خلق امير المؤمنين لفاطمة ما كان لها كفء على وجه الأرض آدم فمن دونه "[4] .

## رابعاً : المهر والتجهيز

كلما تكلف المرء في العيش كلما ازداد تعباً . بينما البساطة والزهد يعطيانه الراحة . وكما يقول الإمام علي (ع) في حديث يصف فيه المؤمنين :

( اصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم )[5] .

وتزداد أهمية هذه المعادلة عند الزعماء ، وبالذات عند الأئمة والهداة الربانيين .

ولعل بساطة مهر سيدة النساء وتجهيز بيتها كانت – بالإضافة إلى الزهد في درجات الدنيا – تهدف إلى تيسير قضية الزواج ليصبح زواج فاطمة مثالاً يحتذى لكل زواج رسالي . أوَليست فاطمة بنت محمد

---

(٤) أعيان الشيعة : ج ٢٢ ، ص ٥٦٩ .

(٥) نهج البلاغة رسائل (٢٧) .

بن عبد الله ، رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وهي صدّيقة وزوجها سيد الوصيين الإمام عليّ ؟. فلِمَ لا يصبح زواجها الرمز والنموذج .

وفعلاً إنك تجد الأئمة (ع) لايتجاوزون في زيجاتهم هذا المثل بل يحددون أنفسهم ضمن " مهر السنّة " وهي قيمة مهر علي لفاطمة (ع) .

لقد كان المهر مقدار " ٤٨٠ " اربعمائة وثمانين درهماً ، وفي بعض النصوص أنه كان خمسمائة درهم .

أما التجهيز الذي قام بإعداده النبي (ص) فهو كالآتي :

١- قميص بسبعة دراهم .

٢- خمار باربعة دراهم ( وهو بمنزلة العباءة ) .

٣- قطيفة سوداء خيبرية ( وهي دثار له خمل ) .

٤- سرير مزمّل .[٦]

٥- فراشان من خيش مصر ( وهو قماش في نسجه رقة وخيوطها غلاظ ) . حشو احدهما ليف ، وحشو الآخر صوف الغنم .

٦- اربع مرافق من ادم ( وهي بمنزلة المخدّة ) حشوهما اذخر ( وهو نبت طيب الرائحة ) .

٧- ستر رقيق من صوف .

٨- حصير هجري ( أي مصنوع في هجر وهو بلد في اليمن ) وقد يكون الحصير من العلف .

٩- رحى يدوية .

١٠- مخضب من نحاس ( أي إناء تغسل فيه الثياب مثل الطشت ) .

١١- سقاء من ادم .

١٢- قدح ( كعب ) من خشب .

١٣- قسنّ ( سقاء ) .

١٤- مطهرة .

١٥- كيزان خزف .

١٦- نطع ( وهو بساط من ادم كان يستعمل لمائدة الطعام ) .

١٧- عباءة من صنع الكوفة .

١٨- قربة ماء .

١٩- شيء من الطيب .

---

(٦) كان السرير يصنع على الظاهر من سعف النخيل ، ويقيد بليف حتى يكون بالإضافة إلى شد الأعواد بعضها إلى بعض زينة وجمالاً .

ولقد جهّز الإمام بيته بافتراش صحن داره بالرمل الناعم ونصب خشبة طويلة بين جانبي الحائط لغرض تعليق الثوب عليه ( كالعلاقة ) . وافتراش غرفته بإهاب كبش ومخدة ليف فقط .

## خامسا : الخطاب

وقال النبي (ص) للإمام تكلم لنفسك خطيباً ، فقال الإمام (ع) :

( الحمد لله الذي قرب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد الجنة لمن يتقيه ، وانذر بالنار من يعصيه . نحمده على قديم إحسانه وأياديه ، حمد مَن يعلم انه خالقه وباريه ، ومميته ومحييه ، وسائله عن مساويه . ونستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونستكفيه .

ونشهد ان لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له ، شهادة تبلغه وترضيه ، وانّ محمداً عبده ورسوله (ص) صلاةً تزلفه وتحضيه ، وترفعه وتصطفيه ، وهذا رسول الله (ص) زوجني ابنته فاطمة على خمسمائة درهم ، فاسألوه واشهدوا ) .

فقال رسول الله (ص) :

( قد زوجتك ابنتي فاطمة على ما زوّجك الرحمن ، وقد رضيت بما رضي الله فنعم الختن [7] انت ، ونعم الصاحب انت ، وكفاك برضى الله رضىً ) .

ثم امر رسول الله (ص) بطبق بسر او تمر وامر بنهبه .

وهناك حديث آخر يروي قصة الزواج عن لسان الإمام امير المؤمنين (ع) ، سوف نثبته فيما يلي لأهمية هذه الزيجة في الإسلام . ويدل على هذه الأهمية اننا نجد في كتب الحديث والتاريخ حشداً ضخماً من الأخبار التي تتناول بتفصيل او بإيجاز زواج علي من فاطمة عليهما السلام ، مما يعكس اهتمام السابقين من المسلمين بهذه الزيجة .

والحديث مروي عن الضحاك بن مزاحم قال : سمعت علي بن ابي طالب (ع) يقول :

( اتاني ابو بكر وعمر فقالا : لو اتيت رسول الله فذكرت له فاطمة .

قال : فاتيته فلما رآني رسول الله (ص) ضحك ثم قال : ما جاء بك يا ابا الحسن ، حاجتك ؟

فذكرت له قرابتي ، وقدمي في الإسلام ، ونصري له ، وجهادي ، فقال : يا علي صدقت ، فانت افضل مما تذكر .

فقلت : يا رسول الله ، فاطمة تزوجنيها ؟

فقال : يا علي ، إنه قد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها فرايت الكراهة في وجهها ، ولكن على رسلك حتى اخرج إليك .

فدخل عليها فقامت فاخذت رداءه ونزعت نعليه واتته بالوضوء فوضاته بيدها وغسلت رجليه ، ثم قعدت،

---

(٧) أي الصهر .

فقال لها : يا فاطمة ! فقالت : لبيك لبيك ، حاجتك يا رسول الله ؟

قال : إن علي بن أبي طالب مَن قد عرفت قرابته ، وفضله ، وإسلامه ، وإني قد سالت ربي أن يزوجك خير خلقه وأحبهم إليه ، وقد ذكر من أمرك شيئاً ، فما ترين ؟

فسكتت ولم تحوّل وجهها ، ولم يرَ فيه رسول الله (ص) كراهة ، فقام وهو يقول : الله أكبر ، سكوتها إقرارها .

فأتاه جبرائيل (ع) فقال : يا محمد زوجْها علي بن ابي طالب ، فإن الله قد رضيها له ورضيه لها فقال علي : فزوجني رسول الله (ص) ثم اتاني فاخذ بيدي فقال : قم بسم الله ، وقل على بركة الله ، وما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، توكلت على الله . ثم جاء بي حتى اقعدني عندها ( عليه السلام ) ، ثم قال : اللهم إنهما أحب خلقك إليّ فاحبهما ، وبارك ذريتهما ، واجعل عليهما منك حافظاً ، وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم .[8]

## سادسا : الزفاف

وركبت فاطمة على بغلة أبيها الشهباء ، وحفّت بها نساء النبي ينشدن أهازيج الفرح . وقد أخذ سلمان بلجام البغلة . وتقدم عليها النبي (ص) في وسط فتيان بني هاشم الذين كانوا قد جردوا السيوف وهم يلوحون بها ، إيماء بدفاعهم عن العرض والزمام .

نعم كانت حفلة العرس ، قد زينت باشعار نساء النبي حيث كانت سائر النسوة يرددن بعض أبياتها .

كانت أم سلمة . تنشد قائلة :

سـرن بعـون الله جاراتـي ... واذكـرنـه فـي كـل حـالات

واذكـرن مـا انعـم رب العلـى ... مـن كشـف مكـروه وآفـاة

وقـد هـدانـا بعـد كفـر وقـد ... انعشنـا ربّ السمـوات

وسـرن مـع خيـر نسـاء الـورى ... تُفـدى بعمّـات وخـالات

يـا بنـت مَن فضلّـه ذو العلـى ... بالوحـي منـه والرسـالات

وكانت عائشة تقول :

يـا نسـوة استـرن في المغابـر ... واذكـرن مـا يحسـن في المحاضـر

واذكـرن ربّ النـاس إذ خصنـا ... بدينـه مـع كـلّ عبـد شاكـر

والحمـد للـه علـى إفضالـه ... والشكـر للـه العزيـز القـادر

سـرن بهـا فاللـه أعلى ذكرهـا ... وخصهـا اللـه بطهـر طاهـر

وفضة كانت تنشد أبياتاً فتقول :

---

(٨) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٣١ .

| | |
|---|---|
| فاطمـــــة خيــر نســـاء البشــــــر | ومـــن لهـا وجـه كوجـه القمــــــر |
| فضّلـــك اللـه على ذي الـــــــورى | بفضــــل مـن خـص بـأي الزُّبـــر |
| زوجـــك اللـــه فتـــىً فاضـــــلاً | اعنـــي عليّـاً خيـر مـن في الحضـر |
| وســـرن جاراتــــي بهـــا إنهـــا | كريمـــة بنـت عظيــم الخطــــر |

وبعد ان وصلت فاطمة إلى دار علي عليه السلام تقدم النبي (ص) واخذ بيد فاطمة . ووضعها بين يدي عليّ عليهما السلام ، بعد أن بث بينهما الحب بكلماته الذهبية الدافئة ، التي مدح بها كلاً من الزوجين للآخر .

— ١٥ —

ومضت فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام تعيش حياة جديدة ، وهي حياة الزوجية ، بعدما عاشت تسع سنين تضرب المثل الأعلى للبنت الفاضلة في بيت ابيها . نعم راحت فاطمة ، تكوّن أوّل اسرة مثالية في المجتمع الإسلامي ، لكي تعرّف العالم معنى الحياة الهادفة في ظلّ تعاليم الإسلام .

وإليك صورة عن هذه الأسرة النموذجية التي كونتها فاطمة بالإشتراك مع عليّ امير المؤمنين ( عليهما السلام ) ، وبوحي من الرسول (ص) من الله تعالى .

١— الحبّ العميق كان يوثق صلة كل منهما بالآخر . وهو الحبّ الذي كان منشاه إيمان كل منهما بما للآخر من المناقب والفضائل . ففاطمة كانت تعرف عليّاً (ع) كسيّد الأوصياء ووالد الأسباط ، وافضل الناس بعد الرسول ، ومَن له عند الله الجاه العظيم والدرجة الرفيعة ، ولذلك كانت تحبه اشدَّ الحب ، وعليّ عليه السلام كان يعرف ما لفاطمة من مجد وسناء ، وانها سيدة نساء العالمين ، وانها والدة الأسباط ، والشفيعة المقبولة شفاعتها عند الله ، فكان يحبّها حبّاً شديداً .

٢— التعاون في العمل ، فلم تكن فاطمة عليها السلام تتوانى عن مسؤولياتها داخل البيت ، كما لم يكن عليّ عليه السلام يترك وظيفة مما يتعلق به . وقد كان النبي (ص) قسَّم الأعمال من اول يوم كالآتي ،

أ — على الزوج ان يمارس تنظيف الأرض ( الكنس ) واستقاء الماء بالإضافة الى ما عليه من النفقة .

ب — على الزوجة الطحن والعجن والإخباز ، بالإضافة إلى امر تربية الأولاد .. ومراعاة شؤونهم .

وجاء في حديث عن الإمام الباقر (ع) قال ،

( إن فاطمة عليها السلام ضمنت لعلي عليه السلام عمل البيت والعجين والخبز وقمّ البيت . وضمن لها علي عليه السلام ما كان خلف الباب ، نقل الحطب وان يجيء بالطعام . فقال لها يوماً ، يا فاطمة هل عندك شيء ؟ قالت ، والذي عظم حقك ما كان عندنا منذ ثلاثة ايام شيء نقريك به . قال ، افلا اخبرتني ؟ قالت كان رسول الله (ص) نهاني ان اسالك شيئاً . فقال ، لا تسالين ابن عمك شيئاً . إن جاءك بشيء ، وإلا فلا تساليه ) .

وقد كانت هذه الأعمال تكلفها تعباً ونصباً بالغين . وذات مرة دخل النبي (ص) عليهما ، فرآهما قد

اعياهما العمل . فقال : ايكما اكثر تعباً ؟ فقال علي : فاطمة فاقامها النبي عن العمل وجلس مكانها يعمل .

وجاءت فاطمة عليها السلام تسعى إلى النبي (ص) وقد اصابت المسلمين غنائم كثيرة وطلبت منه أن يجعل نصيبها من الغنائم ، خادمة تستعين بها على الأعمال والواجبات البيتية التي لم تعد تحتملها خصوصا في غياب زوجها الكريم الذي كان يتكرر بسبب الحروب المستمرة .

فعن علي (ع) انه قال لرجل من بني سعد : الا احدثك عني وعن فاطمة ؟ إنها كانت عندي وكانت من احب اهلي إليّ . وإنها استقت بالقربة حتى أثر في صدرها ، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ، وكسحت البيت حتى اغبرّت ثيابها ، واوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها . فاصابها من ذلك ضمار شديد .[9]

فلما طلبت خادمة تستعين بها . قال النبي (ص) لها :

" اني سوف اعلمكِ شيئاً يغنيك اكثر من الخادمة .

قالت وما هو يا ابتاه ؟

قال لها : إذا فرغت من الصلاة .. فقبل " ان تلتفتي يميناً او شمالاً قولي : [ الله اكبر ثلاثا وثلاثين مرة . ثم قولي الحمد لله وسبحانه مثل ذلك ] .

فإذا فعلت ذلك ، اعطاكِ الله القوة والنشاط .. ثم توجه إليها النبي (ص) يقول : هل رضيتِ بذلك :

قالت : نعم يا رسول الله ، رضيت " .

وهذه هي التسبيحة المشهورة بـ " تسبيحة الزهراء " التي يلتزم بها اكثر الشيعة ، عقيب صلواتهم المفروضة .

هذه هي السيدة الطاهرة الزهراء عليها السلام التي علّمتنا كيف يجب أن يتحمل الإنسان عناء العمل ، ويرضى بالدرجات الرفيعة التي ينالها عند الله ، دون ان يلتفت إلى ما يفوته من الدنيا الزائلة .

وحين تاتي " فضة " لتفتخر بشرف خدمة الزهراء (ع) بعد أن تنزل هذه الآية :

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ – يعني عن قرابتك وابنتك فاطمة – ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ (الاسراء/٢٨)

وينفذ الرسول فضةً إليها بمقتضى هذه الآية التي تامره بذلك حسب بعض الروايات ، فتابى فاطمة عليها السلام ان تتعامل معها ، كما كانت سيدات العرب تعامل الخادمة .. كانت تامر وتنهي وما على الخادمة إلاّ أن تطيع السيدة بكل خضوع .

كلا، إنها قسّمت الايام بينها وبين فضة ( الخادمة ) دون ان ترجّح نفسها على فضة باية ميزة .

٣– وكانت فاطمة عليها السلام تتحمل شظف العيش وجشوبة الماكل وخشونة الملبس ، محتسبة

---

(٩) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٨٢ .

ذلك عند الله ولليوم الآخر . وقد جاء في حديث شريف عن سويد بن غفلة قال : اصابت علياً عليه السلام شدّة فاتت فاطمة عليها السلام رسول الله (ص) فدقّت الباب فقال :

( اسمع حسّ حبيبتي بالباب ، يا أمّ ايمن قومي انظري ؟. ففتحت لها الباب ، فدخلت ، فقال (ص) : لقد جئتنا في وقت ما كنت تاتينا في مثله ، فقالت فاطمة : يا رسول الله ما طعام الملائكة عند ربّنا ؟ فقال : التحميد ؟ فقالت : ما طعامنا ؟ قال رسول الله (ص) :

والذي نفسي بيده ما أقتبس في آل محمد شهراً ناراً ، وأعلّمك خمس كلمات علمنيهن جبرائيل عليه السلام قالت : قلت يا رسول الله ما الخمس الكلمات ؟ قال :

[ يا رب الأولين والآخرين ، يا ذا القوّة المتين ، ويا راحم المساكين ، ويا ارحم الراحمين ] .

ورجعت فلما ابصرها عليٌّ (ع) قال : بابي انت وامي ما وراءك يا فاطمة ؟ قالت : ذهبت للدنيا وجئت للآخرة ، قال عليٌّ (ع) : خير خير امامك خير امامك .

وعن الإمام جعفر بن محمد (ع) قال :

( شكت فاطمة إلى رسول الله (ص) علياً ، فقالت : يا رسول الله لا يدع شيئاً من رزقه إلاّ وزّعه على المساكين ، فقال لها : يا فاطمة اتسخطيني في اخي وابن عمي ، إنّ سخطه سخطي وإنّ سخطي سخط الله عزّ وجلّ .[10]

وفي غضون الفترة الواقعة بين زواج الزهراء ، وبين وفاتها ، كانت البتول تقوم بمهمة الوسيط بين النبي (ص) وبين نساء المسلمين في المسائل الشرعية . فكانت النساء ترتاد بيتها وتسالن منها ما اشكل عليهن من المسائل العملية او الفكرية ، فتحلّ فاطمة لهن ذلك وتعلمهن من ثقافة الوحي ، ما يشفي صدورهنّ ويروي غليلهن .

كما كانت تسافر في بعض الرحلات الهامة ، وتقوم ببعض المهمات ، فقد اشتركت في فتح مكة ، وكانت تقوم باعمال والدها النبي (ص) وزوجها الوصي (ع) الشخصية . ليتوفر لهما الوقت المناسب للمهام التي كان عليهما إنجازها .

---

(١٠) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٥٣ .

## الفصل الثالث

# مقام الزهــــراء

-١-

روى الزمخشري في الكشاف عند ذكر قصة زكريا ومريم عليهما السلام عن النبي (ص) أنه جاع في زمن قحط ، فاهدت له فاطمة رغيفين وبضعة لحم آثرته بها ، فرجع بها إليها وقال هلمّي يا بُنية ، وكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً . فبهتت وعلمت أنها نزلت من الله . فقال لها انى لك هذا ، فقالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فقال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل . ثمَّ جمع رسول الله (ص) عليَّ بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام ، وجمع اهل بيته حتى شبعوا . وبقي الطعام كما هو ، ولوسعت فاطمة على جيرانها .

-٢-

وعن صحيح الترمذي ، عن صبيح مولى أم سلمة ، وزيد بن أرقم قالا : إنّ رسول الله (ص) قال لعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام : ( انا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم ) .

وعن ابن خالويه في كتاب الآل يرفعه عن الرضا عن آبائه عن علي عليهم السلام ، قال رسول الله (ص) : ( إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بطنان العرش يا معشر الخلائق غُضُّوا ابصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله ) .

وفي رواية اخرى : ( يا اهل الجمع ، نكّسوا رؤوسكم وغُضُّوا ابصاركم حتى تجوز فاطمة على الصراط ، فهي ومعها سبعون الف جارية من الحور العين ) .

-٣-

وروى البخاري في صحيحه بسنده ان رسول الله (ص) قال : ( فاطمة بضعة منّي فمن أغضبها فقد اغضبني ) .

وروى هذا المضمون اكثر علماء الحديث من الفريقين باسانيد صحيحة ونصوص صريحة ، حتى كان البعض يستشهد به كقضية مفروغ من صحتها . فهذا ابو الفرج الاصبهاني يحدثنا : أن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط (ع) دخل على عمر بن عبد العزيز وهو ( أي عبد الله ) حديث السن وله وقار وتمكين ، فرفع عمر مجلسه وأكرمه وقضى حوائجه ، فسئل عمر عن ذلك فقال : إنَّ الثقة حدثني ان رسول الله (ص) قال : فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ، ويغضبني ما يغضبها . فعبد

الله بضعة من بضعة رسول الله (ص) .

— ٤ —

وعن ابن سعد وابن المثنى عن علي (ع) قال ، قال رسول الله (ص) ، ( يا فاطمة إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك ) .

— ٥ —

وروى أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصفهاني بسنده عن مسروق عن عائشة قال ، كنّا عند رسول الله (ص) في مرضه الذي مات فيه إذ جاءت فاطمة ، ما تخطيء مشيتها عن مشية النبي (ص) شيئاً ، فلما رآها قال ،

( مرحباً يا بنتي ، فاقعدها عن يمينه أو عن يساره ثم سارّها بشيء فبكت ، فقلت لها انا من بين نسائه ، خصك رسول الله من بيننا بالسرار وانت تبكين؟! " ثم سارها بشيء فضحكت . فسالتها عائشة . فقالت ، ما كنت لأُفشي على رسول الله (ص) سراً " فلما توفي النبي (ص) سالتها " فقالت ، اما بكائي ، فإنّ رسول الله قال لي ، إن جبرائيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كل عام مرة فعرضه العام مرتين ، ولا اراني اجلي إلاّ قد اقترب ، فبكيت . فقال لي اتقي الله واصبري فإني انا نعم السلف لك . ثم قال ، يا فاطمة اما ترضين ان تكوني سيدة نساء العالمين ، او نساء هذه الامة ، فضحكت ) .

وقد روى علماء الحديث هذا الخبر باسانيد كثيرة ، ونصّ واحد ، او مختلف قليلاً .

— ٦ —

وفي الاستيعاب بسنده عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ص) ، سيدة نساء اهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد . ثم خديجة . ثم آسية امراة فرعون .

وروي عن الفصول المهمة . لابن الصباغ المالكي عن كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) قال ،

( كَمُل من الرجال كثير ، ولم يَكمل من النساء إلاّ مريم ابنة عمران ، وآسية ابنة مزاحم امراة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ) .

وهذان النصّان مرويّان في كتب الحديث باسانيد كثيرة مستفيضة . وهناك في الأحاديث ما يؤكد على أن فاطمة افضلهن جميعاً . بيد ان مريم سيدة نساء عالَمها ، وفاطمة سيدة نساء العالمين جميعاً . ويؤيد ذلك ما روي من قول النبي (ص) لفاطمة ، اما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة .. ولا شك في ان هذه الأمة افضل من سائر الأمم ، فسيدتها افضل من سائر السيدات ايضاً .

— ٧ —

روى الحاكم في المستدرك انه كان رسول الله (ص) إذا رجع من غزوة او سفر اتى المسجد فصلّى ركعتين ، ثم ثنى بفاطمة ، ثم ياتي ازواجه .

ولكنّ النبي كان إذا اراد سفراً أو غزوةً اختتم وداعه بفاطمة بعد كل أزواجه ، كما يرويه لنا الحاكم أيضاً عن ابن عمران أنه قال : كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة .

وهذه الواقعة مأثورة في كتب الحديث بأسانيد مستفيضة .

—٨—

وفي كتاب الاستيعاب عن عائشة أنها سئلت عن أحب الناس إلى رسول الله ؟ فقالت : فاطمة . فسئلت فمن الرجال ؟ قالت : زوجها .

وفي نفس الكتاب بسند مرفوع إلى ابن بريد عن أبيه قال : كان أحب النساء إلى رسول الله (ص) فاطمة ومن الرجال عليّ بن أبي طالب (ع) .

وتقول عائشة في الحديث الذي ذكره الحاكم في المستدرك عن جميع بن عمير ، تقول بعدما سألت عن علي : تسالينني عن رجل والله ما أعلم رجلاً أحب إلى رسول الله (ص) من عليّ ، ولا في الأرض امرأة كانت أحب إلى رسول الله (ص) من امرأته .

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن النبي (ص) قوله : ( فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ) .

## الفصل الرابع

# الصديقة فاطمة تتحدى نكسة الأمة

- ١ -

وقبض النبي (ص) في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة ، بعد ان اكتملت الرسالة الإلهية ، وبتحقيق آخر هدف من اهدافها الرئيسية ، وهو نصب القائد والمنفّذ الصالح ، وإرساء قواعد القيادة الصالحة للمسلمين إلى الأبد .

وكان ذلك القائد الذي نصّبه الله للمسلمين بعد النبي (ص) الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام ، الذي كان صورةً حية وماثلة للتعاليم والمُثل الإسلامية جميعاً .

وكانت تلك القيادة التي امر بها الله تعالى ، قيادة الفرد الذي ادرك الشريعة الإسلامية إدراكاً كاملاً ، حتى صار فقيهاً في احكامها ، بصيراً باهدافها ، ثم طبّقها على نفسه ، وامتزج فيها وتجاوبت اطرافه لها ، ثم عرف الناس ذلك منه واطمانوا على زعامته ، فجعلوه حجة بينهم وبين ربهم .

ولما اكتملت اهداف الرسالة ، اكتملت مسؤوليات الرسول واعلن الله ذلك بقوله ،

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣)

- ٢ -

ومرض النبيّ (ص) واشتدّ مرضه ، واخذ السم الذي دس إليه يؤثر فيه ، يوماً بعد يوم .. وكل يوم كان يقضيه الرسول ، كان خطوة إلى الموت .

وفاطمة (ع) تعرف اباها كافضل ما تكون المعرفة . تعرف فضله ، ومجده وتعرف خدماته في سبيل الله والإنسانية .. وهي تحبه ، لانه والدها ، وكان احب الناس إلى الله جميعاً ، والله أحب إلى فاطمة من كل شيء .

فهي تحب اباها ، لانه اقرب إليها ، ولانه رسول الله الذي يجب ان تكنّ له الحب والإحترام .

واما الآن فهي ترى والدها يجود بنفسه ، فلم تستطع ان تصبر على هذا المنظر الكئيب .. فخرجت .. وأُخرج كل من كان في الغرفة ، إلاّ عليّاً (ع) ، الذي كان يراقب احوال الرسول (ص) . ذهبت فاطمة إلى بيتها ، وقبل ان يستقر بها المجلس ، إذا بها تسمع الصياح قد ارتفع من حجرة الرسول . وكانت قريبة إلى بيت فاطمة عليها الصلاة والسلام ، فاسرعت اليها مدهوشة ، وإذا بها تنبا بوفاة والدها .

-٣-

كان لموت الرسول (ص) أثر عميق وبليغ في فؤاد فاطمة (ع) حتى انها ما رؤيت مبتسمةً بعده قط ، إلاّ حين نَعَى إليها نفسَها ، حيث علمت باقتراب اجلها وحلول ميعاد الالتحاق بابيها .

فمازالت فاطمة بعد ابيها معصبة الراس ، ناحلة الجسم ، منهّدة الركن ، يغشى عليها ساعة بعد ساعة .

وبلغ بها البكاء على ابيها انَّ اهل المدينة شكوا إلى امير المؤمنين امرها واقترحوا عليها ان تبكي إما ليلاً او نهاراً . بيد انها لما سمعت بذلك اشتد بكاؤها وابت إلاّ ان تبكي على والدها ابداً ، حتى تلتحق به ، واضافت بانه ما اقل مكثي بين اظهرهم .

وقد كان لبكاء فاطمة اثر ديني ، كما كان لمنع اهل المدينة مغزى سياسي .. كانت فاطمة تبكي فتلفت انظار العالم إلى انها هي المخصوصة بالنبي (ص) . وهي بقيّته في الأرض ، ومنها نسكه الطاهر المطهّر ، واولادها اولاده إلى ابد الأبدين . وكان لمنع اهل المدينة لها من البكاء تحدٍ لهذا البيت — بيت امير المؤمنين (ع) — الذي يحمل اعباء حفظ الرسالة بعد النبيِّ ، وتحدٍ للنبيِّ ولكل ما جاء به عن ربّه ، بداوا يظهرونه مرةً بعد مرة إلى ان انتهى باخذ فدك ، ونهبها وغصبها .

# النصوص تتحدث عن فضائل الزهراء عليها السلام

## ألف - العابدة الزاهدة :

١— روى ابن شهر اشوب عن الحسن البصري انه قال : ما كان في هذه الأمة اعبد من فاطمة ، كانت تقوم حتى تورّمت قدماها .

٢— وروي عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال : رايت امي فاطمة ليلة الجمعة وقد وقفت للعبادة .. ومازالت بين راكعة وساجدة وقائمة وقاعدة ، حتى اسفر الصبح . وهي تدعو للمؤمنين والمؤمنات ، تسميهم باسمائهم .. قال الإمام (ع) فقلت يا اماه : لماذا لم تدعي لنفسك ، وإنما دعوتِ لسائر المؤمنين ؟ قالت : يا بُنَيَّ الجار ثم الدار .

٣— وروي عن الصادق (ع) انه حدّث : بانه دخل رسول الله (ص) على فاطمة يوماً ، فرآها قد لبست ثوباً من صوف الإبل . وهي تطحن بيديها ، وترضع ابنها ، فلما راى الرسول ذلك بكى وقال : بنيّة ، ذوقي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة . فقالت فاطمة : احمد الله على نعمائه واشكره على آلائه .. فنزلت هذه الآية :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (الضحى/٥)

٤— وروى احمد بن حنبل في مسنده : ان رسول الله (ص) كان إذا سافر ، آخر عهده بإنسان، فاطمة.

وأوّل من يدخل عليه إذا قدم فاطمة . فقدم من غزاة ، فأتاها فإذا بمسح [11] على بابها ، ورأى على الحسن والحسين ، قلبين [12] من فضة فرجع ولم يدخل عليها . فظنت أنه من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيَّين ، فقطعتهما . فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا إلى رسول الله وهما يبكيان فأخذه منهما ، وقال : ( يا ثوبان – هو مولى الرسول الراوي لهذا الحديث – اذهب بهذا إلى بني فلان واشتر لفاطمة قلادة من عصب – وهو سن دابة بحرية – وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا احب ان يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ) .

وفي رواية أخرى أن النبي (ص) حين وصلت إليه هذه الأمتعة وأمرته فاطمة بإنفاقها في سبيل الله قال : ( فعلت فداها أبوها ، فعلت فداها أبوها ، فعلت فداها أبوها ، ومثل هذا الحديث ما روي عن الرضا (ع) عن آبائه ، عن علي بن الحسين (ع) أنه قال : حدّثتني أسماء بنت عميس قالت : كنت عند فاطمة (ع) إذ دخل عليها رسول الله (ص) وفي عنقها قلادة من ذهب كان اشتراها لها علي بن أبي طالب (ع) من فيء ، فقال لها رسول الله (ص) : يا فاطمة لا يقول الناس إن فاطمة بنت محمد تلبس لباس الجبابرة ، فقطعتها وباعتها واشترت بها رقبة – أي أَمَةً – فأعتقتها ، فسرَّ رسول الله (ص) ) .

٥– وروى الصدوق ( ره ) عن عليّ (ع) أنه قال :

( إنَّ فاطمة (ع) استقت بالقربة حتى أثّرت في صدرها ، وطحنت بالرحى حتى مجلت [13] يداها ، وكسحت [14] البيت حتى اغبرت ثيابها وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت [15] ثيابها ) الحديث .

٦– وكانت فاطمة عليها السلام تتحمل مع علي مشاكل الحياة في ظروف الجهاد الصعبة فقد جاء في الحديث عن أبي جعفر (ع) قال :

( إن فاطمة (ع) ضمنت لعلي (ع) عمل البيت والعجين والخبز وقمّ البيت وضمن لها علي (ع) ما كان خلف الباب : نقل الحطب وان يجيء بالطعام ، فقال لها يوماً : يا فاطمة هل عندك شيء ؟ قالت : والذي عظّم حقّك ما كان عندنا منذ ثلاثة أيام شيء نقريك به . قال : أفلا أخبرتني ؟ قالت : كان رسول الله نهاني أن أسألك شيئاً . فقال : لا تسألين ابن عمك شيئاً إن جاءك بشيء ، وإلاّ فلا تسأليه .

قال فخرج عليه السلام فلقي رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثمَّ أقبل به وقد أمسى فلَقي المقداد ابن الأسود فقال للمقداد : ما أخرجك في هذه الساعة ؟ قال : الجوع والذي عظّم حقك يا أمير المؤمنين ، قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : ورسول الله (ص) حيٌّ ، قال : ورسول الله (ص) حيٌّ ؟ قال : فهو أخرجني

---

(١١) وهو كساء .

(١٢) أي سوارين .

(١٣) كما يحدث عند كثرة ممارسة العمل .

(١٤) أي كنست .

(١٥) أي أسودت .

وقد استقرضت ديناراً وساؤثرك به فدفعه إليه فاقبل فوجد رسول الله (ص) جالساً وفاطمة تصلي وبينهما شيء مغطّى . فلمّا فرغت اجترّت ذلك الشيء فإذا جفنة من خبز ولحم قال : يا فاطمة أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال له رسول الله (ص) : الا احدّثك بمثلك ومثلها ؟ قال : بلى ، قال : مثلك مثل زكريا إذ دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقاً قال : يا مريم أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب . فاكلوا منها شهراً وهي الجفنة التي ياكل منها القائم (ع) وهي عندنا ) .

وفي حديث آخر ماثور في المراسيل ان الحسن والحسين كان عليهما ثياب خَلِقة وقد قرب العيد ، فقالا لأمهما فاطمة (ع) :

( إنّ بني فلان خيطت لهم الثياب الفاخرة ، افلا تخيطين لنا ثياباً للعيد يا اماه ؟ فقالت : يخاط لكما إن شاء الله ، فلما ان جاء العيد جاء جبرائيل بقميصين من حلل الجنّة إلى رسول الله (ص) ، فقال له رسول الله (ص) : ما هذا يا اخي جبرائيل ؟ فاخبره بقول الحسن والحسين لفاطمة وبقول فاطمة يخاط لكما إن شاء ، ثمّ قال جبرائيل : قال الله تعالى لما سمع قولها : لانستحسن أن نكذّب فاطمة بقولها ، يخاط لكما إن شاء الله .

وعن سعيد الحفّاظ الديلمي بإسناده عن انس قال : قال رسول الله (ص) :

( بينما اهل الجنّة في الجنّة يتنعمون ، واهل النار في النار يعذبون إذا لأهل الجنّة نور ساطع ، فيقول بعضهم لبعض : ما هذا النور لعلّ ربُّ العزّة اطّلع فنظر إلينا . فيقول لهم رضوان : لا ، ولكن عليّاً (ع) مازح فاطمة فتبسمت فاضاء ذلك النور من ثناياها )[١٦] .

ولم يكد الإمام علي (ع) يفرغ من دفن رسول الله (ص) حتى هبت على الأمة رياح الجاهلية واوشكت ان تقتلع شجرة الإسلام الطرية .. وكان على بيت الرسالة ان يقف كالجبل الأشم في وجه عواصف الرِّدة . ويحافظ على كيان الإسلام وفاءً بعهده مع رسول الله ، وتحقيقاً لدوره المرسوم الذي عبّر عنه صاحب الوحي (ص) حيث قال :

( إني تارك فيكم الثقلَين : كتابَ الله ، وعترتي اهلَ بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا ابداً ) .

وحين قال : ( مَثَلُ اهل بيتي كسفينة نوح ، مَن ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها هلك ) .

وحين قال : ( فاطمة بضعة مني ، من آذاها فقد آذاني ، ومن اغضبها فقد اغضبني ، ومن اغضبني فقد اغضب الله ) .

وكانت فاطمة قطب الرحى في بيت الرسالة .. فماذا فعلت وكيف نهضت باعباء الحركة التصحيحية ؟

والجواب : انه بالرغم من سيطرة الإسلام السياسية على شبه الجزيرة العربية التي ضمنت دخول الناس

---

(١٦) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٧٥ .

افواجاً في دين الله ، ابتداء من صلح الحديبية ، فإن دعائم الإيمان وشرائع الإسلام لَمَّا تَترسَّخ في النفوس ..

بل كانت النفوس الطامحة للمغانم . والتي مردت على النفاق ، تهدد سلامة المجتمع الإسلامي ، خصوصاً بعد غياب النبي (ص) الذي كان يشكّل ، الرسول ، والقائد ، والأب ، والعمد ، والثقل الأعظم في الدين والدولة والمجتمع .

وبالرغم من ان الرسول لم يترك فرصة إلاّ انتهزها لتوجيه انظار المسلمين إلى الخط الرسالي الذي يمثل الصراط المستقيم في الأمة ويؤدي دوره ، وينهض بذات المسؤوليات التي كان يقوم بها ، كل ذلك من أجل التعويض عن الفراغ الذي كان سيسببه غيابه (ص) عن الأمة .

وكان اعظم مناسبة أكّد فيها الرسول دور وصيّه ، الإمام علي (ع) واهل بيته الصدّيقين ، هي مناسبة عودته من حجة الوداع وتوقفه في منطقة صحراوية سميت باسم " غدير خُم " فاشتهرت المناسبة بغدير خم حيث رفع النبي يد الإمام علي (ع) امام اكثر من مائة الف من مرافقيه وقال :

( من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه ) .

أقول بالرغم من ذلك كله ، فإنّ تكريس عهد الوصاية بعد عهد الرسالة لم يتم من دون صعوبات ، بل تضحيات . وكانت فاطمة الزهراء اول مضحية في سبيل الله . ومن اجل هذا الهدف .

كانت صرخة محمدية دوت في حياة الأمة قائلة : إن مات محمد فإن خطه لم يمت .. وإن سكت محمد (ص) فإن بضعته الطاهرة تنطق عنه ، وتُخرس اصوات الجاهلية بكل قوة .

كانت فاطمة البدر الزاهر الذي تحدّى ظلام الأفق بعد غياب شمس الرسالة وهي تقول : إن كان الوحي قد انقطع وغاب ، فإن شعاعه لايزال منيراً ، لانه صب في ضمير فاطمة بنت محمد (ص) كل رسالاته وشرائعه وخُلقه . فهي انعكاس ذلك الضوء ، ومشكاة ذلك النور .

وكانت فاطمة الشمس الدافئة التي التمس الناس منها الدفء في عهد كاد زمهرير حب الراحة والركون إلى الدعة تقضي على حرارة الإيمان وعنفوان الجهاد والتضحية .

لم تقف فاطمة الزهراء ، ضد السلطة السياسية ، بقدر ما وقفت ضد عوامل الضعف والتواني التي كادت تتغلب على المجتمع ، وبالذات على الطليعة ، من المهاجرين والأنصار ..

وقد اتبعت فاطمة (ع) خُططاً حكيمة ، لتحقيق الهدف ، ومن ابرزها :

اولاً : تحريض النساء على رجالهن .

ثانياً : إحياء ذكرى الرسول في الأمة ، بالوله إليه والبكاء عليه .

ونحن نتحدث إليكم ببعض التفصيل عن هاتين الخطتين :

## فاطمة الزهراء تحرض نساء المدينة :

لم تعش فاطمة الزهراء (ع) بعد ابيها إلاّ تسعين يوماً حسب بعض التواريخ . واما حسب البعض الاخر

فانها عاشت اقل من ذلك بكثير وخلال الفترة كانت حزينة كئيبة منهدّة الركن ، بل كانت مريضة طريحة الفراش ، فزارتها نسوة من المهاجرين والانصار يَعُدْنَها في علتها ، فقلن : السلام عليكِ يا بنت رسول الله (ص) ، كيف اصبحتِ ؟

فقالت : اصبحت والله عائفة لدنياكنّ ، قالية لرجالكن لفظتهم بعد إذ عجمتهم [17] وسئمتهم بعد ان سبرتهم فَقُبحاً لأفون الرأي ، وخطل القول ، وخَوَر القناة [18] ، ولبئس ما قدّمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ، لاجرم والله لقد قلّدتُهم ربقتها ، وشننتُ عليهم غارها ، فجدعاً ورغماً للقوم الظالمين [19] .

ويحهم أنّى زحزحوها عن ابي الحسن ، ما نقموا والله منه إلاّ نكير سيفه [20] ونكال وقعه ، وتنمّره في ذات الله [21] ، وتالله لو تكافوا عليه من زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لاعتلقه ، ثمّ لسار بهم سيرة سجحاً [22] ، بجحاً ، فإنه قواعد الرسالة ، ورواسي النبوّة ، ومهبط الرُوح الامين ، والطّبين [23] بامر الدين والدُنيا والآخرة ، الا ذلك هو الخسران المبين .

والله لايكتلم خشاشه ، ولا يتعتع راكبه ، ولا وردهم منهلاً رويّاً فضفاضاً [24] تطفح ضفّته ، ولا صدرهم بطاناً قد خثر بهم الرّيُّ غير متحل بطائل إلاّ تغمر الناهل وردع سورة سغب [25] ، ولفتحت عليهم . بركات من السماء والأرض ، وسياخذهم الله بما كانوا يكسبون .

---

(١٧) " عائفة " كارهة . و " قالية " مبغضة و " لفظت " الشيء من فمي - رميته و " عجمت " العود - إذا عضضته .

(١٨) " شنـــأه " أبغضه و " سبرتهم " اختبرتم و " الفلول " - الثلمة والكسر و " الخور " - الضعـــف و " الخطل " الفاسد المضطرب .

(١٩) " لقد قلدتهم ربقتها " جعلت أثم الخطيئة في رقابهم و " شننت عليهم غارها " فرقت الغارة عليهم من كل صوب و " جدعاً " قطع الأنف والأذن أو الشفة .

(٢٠) " نكير سيفه " انكار سوفه وخوف شجاعته .

(٢١) " نكال وقعه " هيبة صدمته في الحرب و " تنمّره في ذات الله " - سكرته من أجل الله كما النمر لاتكفاه إلاّ غاضباً شديداً .

(٢٢) " لو تكافوا عليه من زمام " لو منعوا أنفسهم عن التصرف في مفوداً أعطاه الرسول و " لاعتلقه " أخذ المقود بحب شديد .

(٢٣) " سيراً سجحاً " سيراً ليناً سهلاً . " الطبين " الفطن الحاذق .

(٢٤) " لايكتلم " لا يجرح و " الخشاش " ما يجعل في أنف البعير وربما التعبير كناية عن قدرته الكبيرة على متابعة السير . و " يتعتع راكبه " يزعج راكبه " المنهل " المورد " و " الفضفاض " الواسع .

(٢٥) " ردع سورة سغب " مقاومة شدة الجوع .

فهلمَّ فاسمع ، فما عشت أراك الدَّهر عجباً ، وإن تعجب بعد الحادث فما بالهم ؟ بأيِّ سند استندوا ، أم بأية عروة تمسَّكوا ، لبئس المولى ولبئس العشير ، وبئس للظالمين بدلاً .

استبدلوا الذنابي بالقوادم ، والحرون بالقاحم ، والعجز بالكاهل [٢٦] ، فتعساً لقوم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً . الا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون ، أفمن يهدي إلى الحقّ أحق أن يُتبع أمَّن لا يَهدي إلا أن يُهدى ، فمالكم كيف تحكمون ؟..

لقحت فنظرت ريثما تنتج ، ثمَّ احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً ، وذعافاً ممضّاً [٢٧] هنالك يخسر المبطلون ، ويعرف التالون غبَّ ما أسكن الأولون ، ثمَّ طيبوا بعد ذلك عن أنفسكم لفتنها ، ثمَّ اطمئنوا للفتنة جاشاً ، وأبشروا بسيف صارم ، وهرج دائماً شامل ، واستبداد من الظالمين ، فزرع فيئكم زهيداً ، وجمعكم حصيداً ، فيا حسرة لهم ، وقد عميت عليهم الأنباء ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون .

## فاطمة الزهراء تندب أباها :

لم تكن علاقة فاطمة بأبيها كأيَّة بنت بوالدها ، بل إنها أضحت امتداداً لجميع أبعاد شخصية رسول الله ، أولم يقل عنها النبي (ص) وهو آخذ بيدها :

( من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني ، وهي قلبي الذي بين جنبيّ فمن آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ) [٢٨] .

أولم يحدثنا علي عليه السلام عن فاطمة عليها السلام أنها قالت :

( قال لي رسول الله : يا فاطمة من صلَّى عليك غفر الله له وألحقه بي حيث كنت من الجنة ) [٢٩] .

وحب فاطمة لأبيها كان أسمى من حب النسب . بل كان حباً إلهيّاً نابعاً من معرفتها بمقام الرسول من الله ، وعظمته عند ربه .

وحين افتقدت فاطمة رسول الله أحست بخطورة الموقف كما لم يشعر بذلك أحد ، وشعرت وكأنَّ جبال الأرض تداكَّت على رأسها الشريف .

وبالرغم من أن الحزن قد دب إلى كل قلب مؤمن بفقد الرسول ، وإلى قلب الأمة ، وضمير الحياة ، إلاّ أن شلال الحزن صب في فؤاد ابنته ووريثته الوحيدة ، وقلبه المنفصل !!

ولقد أذهل المصاب الجلل الكثير عن التفكر الجدّي في إملاء الفراغ الكبير بإحياء ذكرى الرسول .

---

(٢٦) " الذنابي بالقوادم " المتأخر بالمتقدم والذنابي آخر ريش الطائر والقوادم أول ريشه . و " الحرون " الفرس الذي لاينقاد استعير للجاهل و " القاحم " و " العجز بالكاهل " المتأخر بالمتقدم .

(٢٧) " لقحت " حملت " فريث لما تنتج " انتظروا ساعة الولادة و " ثم احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً " دعوا القدح يمتلئ من الدم العبيط ، و " ذعافاً ممضّاً " سُماً مراً .

(٢٨) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٨٠ .

(٢٩) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٥٥ .

وكان على فاطمة ان تملأ هذا الفراغ بذكر رسول الله ، وبيان عظمته ، والصلاة عليه ، وإعلان شديد الحزن عليه . و . و.

إن فاطمة كانت تتعبدلله بالكباء على فقد رسول الله ( صلى الله عليه وآله ) . لأن ذلك كان يحيي ذكر الرسول .

وقد بلغ بكاء الزهراء على والدها حداً عُدّت من البكائين الخمسة إلى جنب آدم ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، ثم علي بن الحسين (ع) [٣٠] .

وجاء في حديث مروي عن فضة التي لازمت خدمة فاطمة الزهراء ، قصة حزن فاطمة ، الحديث يقول :
ولم يكن في اهل الأرض والأصحاب ، والأقرباء والأحباب ، اشدُّ حزناً وأعظم بكاءً وانتحاباً ( على رسول الله ) من مولاتي فاطمة الزهراء (ع) ، وكان حزنها يتجدَّد ويزيد ، وبكاؤها يشتدُّ .

فجلست سبعة ايام لا يهدأ لها انين ، ولا يسكن منها الحنين ، كلُّ يوم جاء كان بكاؤها اكثر من اليوم الأوَّل ، فلما كان في اليوم الثامن ابدت ما كتمت من الحزن ، فلم تطق صبراً إذ خرجت وصرخت ، فكانها من فم رسول الله صلى الله عليه وآله تنطق ، فتبادرت النسوان ، وخرجت الولائد والولدان ، وضجَّ الناس بالبكاء والنحيب وجاء الناس من كلِّ مكان ، واطفئت المصابيح لكيلا تتبيّن صفحات النساء وخُيِّل إلى النسوان انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد قام من قبه ، وصارت الناس في دهشة وحيرة لما قد رهقهم ، وهي (ع) تنادي وتندب اباها : وا ابتاه ، وا صفيّاه ، وا محمّداه : وا ابا القاسماه ، وا ربيع الارامل واليتامى ، من للقبلة والمصلّى ، ومن لابنتك الوالهة الثكلى .

ثم اقبلت تعثر في أذيالها ، وهي لا تبصر شيئاً من عبرتها ، ومن تواتر دمعتها حتى دنت من قبر ابيها محمد صلى الله عليه وآله ، فلما نظرت إلى الحجرة وقع طرفها على المأذنة فقصرت خطاها ، ودام نحيبها وبكاها ، إلى أن اغمي عليها ، فتبادرت النسوان إليها فنضحن الماء عليها وعلى صدرها وجبينها حتى افاقت ، فلما افاقت من غشيتها قامت وهي تقول :

( رفعت قوتي ، وخانني جلدي ، وشمت بي عدوّي ، والكمد قاتلي ، يا ابتاه بقيت والهة وحيدة ، وحيرانه فريدة ، فقد انخمّد صوتي ، وانقطَع ظهري ، وتنغص عيشي ، وتكدَّر دهري ، فما أجد يا ابتاه بعدك انيساً لوحشتي ، ولا راداً لدمعتي ، ولا معيناً لضعفي ، فقد فني بعدك محكم التنزيل ، ومهبط جبرائيل ، ومحلُّ ميكائيل . انقلبت بعدك يا ابتاه الأسباب ، وتغلّقت دوني الابواب ، فانا للدُّنيا بعدك قالية ، وعليك ما تردَّدت انفاسي باكية ، لا ينفد شوقي إليك ، ولا حزني عليك ) .

ثم نادت : يا ابتاه والبّاه ، ثم قالت :

إن حزنــــي عليــــك حـــزن جديـــدٌ      وفـــؤادي و اللــه صــبٌ عنــيـــدٌ

---

(٣٠) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٥٥ .

كـــل يـــوم يزيـد فيه شجونـــي — واكتئـــابـي عليــك ليـس يبيـــدُ

جـــلَّ خطبـي فبــان عنّـي عزائـــي — فبكائـــي فـي كـلِّ وقـت جـديـــدُ

إن قلبـــاً عليـــك يالـــف صبـراً — او عـــزاءً ، فـإنـــه لجليــــدُ

ثم نادت ، يا ابتاه ، انقطعت بك الدنيـا بانوارهـا ، وزوت زهرتها وكانت ببهجتك زاهـرة ، فقد اسودَّ نهارها ، فصار يحكي حنادسها ويابسها ، يا ابتاه لازلت آسفة عليك إلى التلاق ، يا ابتاه زال غمضي منذ حقَّ الفراق ، يا ابتاه من للارامل والمساكين ، ومن للأمة إلى يوم الدين ، يا ابتاه امسينا بعدك من المستضعفيـن ، يـا ابتـاه أصبحـت النـاس عنّـا معرضيـن ، ولقـد كنـا بـك معظّميـن فـي النـاس غـير مستضعفين ، فايُّ دمعةٍ لفراقك لا تنهمل ، وايُّ حزن بعدك عليك لا يتّصل ، وايُّ جفن بعدك بالنوم يكتحل ، وانت ربيع الدِّين ، ونور النبيين ، فكيف للجبال لا تمور ، وللبحار بعدك لاتغور ، والأرض كيف لم تتزلزل .

رُميتُ يا ابتاه بالخطب الجليل ، ولم تكن الرّزية بالقليل ، وطرقت يا ابتاه بالمصاب العظيم ، وبالفادح المهول .

بكتك يا ابتاه الأملاك ، ووقفت الأفلاك ، فمنبرك بعدك مستوحش ، ومحرابك خال من مناجاتك ، وقبرك فرح بمواراتك ، والجنّة مشتاقة إليك وإلى دعائك وصلاتك .

يا ابتاه ما اعظم ظلمة مجالسك ، فوا اسفاه عليك إلى ان اقدم عاجلاً عليك ، واُثكِلَ ابي الحسن المؤتمن ابي ولديك ، الحسن والحسين ، واخيك ووليك وحبيبك ومن ربّيته صغيراً ، وواخيته كبيراً ، واحلى احبابك واصحابك إليك من كان منهم سابقاً ومهاجراً وناصراً ، والثكل شاملنا ، والبكاء قاتلنا ، والأسى لازمنا .

ثم زفرت زفرة وأنّت انّة كادت روحها ان تخرج ثمَّ قالت :

قـــلَّ صبـــري وبـــان عنـي عزائـي — بعـــد فقـــدي لخاتـم الأنبيـــاء

عيـن يا عيـــن فاسكبـي الدمـع سحـاً — ويـــك لا تبخلـــي بفيـض الدمـاء

يـــا رســـول الإلـــه يـــا خيـــرة اللــ — ـــه وكهـــف الأيتـــام والضعفـــاء

قـــد بكتـك الجبـال والوحـشُ جمعــاً — فبكـــت الأرض مـــن بكـــاء السمــاء

وبكـــاء الحجـــون والـركـــن والــ — ـمَشْعَـــر يـــا سيـدي مـع البطحـاء

وبكـــاك المحـــراب والـــدَّرس للقــ — ـرآن فـــي الصبـــح معلنـاً والمســـاء

وبكـــاك الإســـلام إذ صـــار فـي النـــا — س غريبـاً مـــن سائـــر الغربـــاء

لـو تـــرى المنبـــر الـذي كنت تعلــو — هُ عـــلاه الظـــلام بعـد الضيـــاء

يـــا إلهـــي عجّـل وفاتـــي سريعـــاً — فلقـــد نقّص الحيـــاة بكـــائـــي

قالت : ثمَّ رجعت إلى منزلها واخذت بالبكاء والعويل ليلها ونهارها ، وهي لاترقا دمعتها ، ولا تهدا زفرتها .

واجتمع شيوخ اهل المدينة واقبلوا إلى امير المؤمنين علي (ع) فقالوا له ، يا ابا الحسن إنَّ فاطمة (ع) تبكي الليل والنهار ، فلا احد منّا يتهنا بالنوم في الليل على فُرشنا ، ولا بالنهار لنا قرار على أشغالنا وطلب معايشنا ، وإنّا نخبرك ان تسالها إمّا ان تبكي ليلاً او نهاراً ، فقال (ع) ، حُبّاً وكرامةً .

فاقبل امير المؤمنين (ع) حتى دخل على فاطمة (ع) وهي لاتفيق من البكاء ، ولا ينفع فيها العزاء . فلما راته سكنت هنيئة له ، فقال لها ، يا بنت رسول الله (ص) ، إنَّ شيوخ المدينة يسالوني ان اسالك إما ان تبكين اباك ليلاً وإمّا نهاراً .

فقالت ، يا ابا الحسن ما اقلَّ مكثي بينهم ، وما اقرب مغيبي من بين أظهرهم ، فوالله لا اسكت ليلاً ولا نهاراً او الحق بابي رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال لها علي عليه السلام ، افعلي يا بنت رسول الله ما بدا لك .

ثمَّ إنه بنى لها بيتاً في البقيع نازحاً عن المدينة يسمى بيت الأحزان ، وكانت إذا اصبحت قدَّمت الحسن والحسين (ع) امامها ، وخرجت إلى البقيع باكية .[31]

وكانت فاطمة الزهراء تستغل بعض المناسبات لتعريف الناس برسول الله ، وتجديد ذكراه العطرة . فلقد روي [ أنّه ] لما قبض النبي (ص) امتنع بلال من الاذان ، قال ، لا اؤذن لأحد بعد رسول الله (ص) ، وإن فاطمة (ع) قالت ذات يوم ، إني اشتهي ان اسمع صوت مؤذّن ابي (ص) بالأذان ، فبلغ ذلك بلالاً ، فاخذ في الأذان ، فلمّا قال ، الله اكبر الله اكبر ، ذكرت اباها وايامه ، فلم تتمالك من البكاء ، فلما بلغ إلى قوله ، اشهد ان محمداً رسول الله شهقت فاطمة (ع) وسقطت لوجهها وغشي عليها ، فقال الناس لبلال ، امسك يا بلال فقد فارقت ابنة رسول الله (ص) الدُّنيا ، وظنوا انها قد ماتت ، فقطع اذانه ولم يتمه فافاقت فاطمة (ع) وسالته ان يتمَّ الأذان ، فلم يفعل ، وقال لها ، يا سيدة النسوان إنّي اخشى عليك ممّا تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتي بالأذان ، فاعفته عن ذلك .

## الصدّيقة عليها السلام تلتحق بوالدها (ص) :

كان النبي (ص) يتقلب على فراش المنيّة ، وكانت فاطمة تجلس بجانبه فيسارُها النبي فتبكي ، ثم يسارُها ثانية فيتهلل وجهها الكريم . وحين تسال عن السر الأول تقول ، إنه اسر إليها بان جبرائيل كان يعرض عليه القرآن كل عام مرة واحدة . فعرض عليه هذا العام مرتين ، وما ذلك إلاّ لاقتراب اجله ..

اما السر الثاني فإنها ستكون اول من تلتحق به ..

وهكذا ، ظلت فاطمة تعزي نفسها رغم شدة الظروف المحيطة بها ، بانها ستكون اول من يلتحق برسول الله (ص).

اما الظروف التي عاشتها فاطمة (ع) بعد وفاة الرسول ، فكانت صعبة جداً ، لأنها وقفت وحدها تتحدى

---

(31) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٧٥ ١٧٧ .

العواصف العاتية . وحتى الإمام علي بطل الإسلام الأول لم يكن من الحكمة أن يشاطرها الجهاد ، فكان عليها أن تتصدّى لذلك وحدها ، وهي امرأة لما تبلغ العشرين ربيعاً .. ولكل تلك الظروف يكفينا أن نستمع إليها وهي مفجوعة تشكو إلى علي (ع) حالها بكلمات تتقطر ألماً وتحدياً :

لما انصرفت فاطمة من عند أبي بكر أقبلت على أمير المؤمنين (ع) فقالت له :

( يابن أبي طالب شملت شيمة الجنين ، وقعدت حجرة الظنين ، فنقضت قادمة الأجدل ، فخانك ريش الأعزل . أضرعت خدّك يوم وضعت جدك ، افترست الذئاب وافترشت التراب ، ما كففت قائلا ، ولا أغنيت باطلاً هذا ابن أبي قحافة يبتزّني نحيلة أبي ، وبليغة ابنيّ ، والله لقد أجهر في خصامي ، وألفيته الدّ في كلامي ، حتى منعتني القيلة نصرها والمهاجرة وصلها ، وغضّت الجماعة دوني طرفها ، فلا دافع ولا مانع ، خرجت كاظمة ، وعدت راغمة ، ولا خيار لي ، ليتني متّ قبل هينتي ، ودون زلّتي ، عذيري الله منك عادياً ، ومنك حاميا ، ويلاي في كلّ شارق ، ويلاي مات العمد ووهنت العضد ، وشكواي إلى أبي ، وعدواي إلى ربي . اللهمّ أنت أشدّ قوّة ، فأجابها أمير المؤمنين : لا ويل لك ، الويل لشانئك ، نهنهي عن وجدك يا بُنية الصفوة ، وبقية النبوّة ، فما ونيت عن ديني ، ولا أخطأت مقدوري ، فإن كنت تريدين البلغة ، فرزقك مضمون ، وكفيلك مأمون ، وما أعدّ لك خير ممّا قطع فاحتسبي الله . فقالت حسبي الله ونعم الوكيل ) [32] .

وحان ميعاد اللقاء ، واستعدت الصديقة للقاء الله والالتحاق برسول الله ، وكان لذلك قصة تروى فلقد مرضت فاطمة (ع) مرضاً شديداً ومكثت أربعين ليلة في مرضها ، إلى أن توفيت صلوات الله عليها . فلما نعيت إليها نفسها دعت أمّ أيمن وأسماء بنت عميس ووجّهت خلف عليّ وأحضرته ، فقالت : ابن عمّ إنّه قد نعيت إليّ نفسي وإنني لا أرى ما بي إلا أنني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة وأنا أوصيك بأشياء في قلبي .

( قال لها علي (ع) : أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله : فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت ثمّ قالت : يابن عمّ ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ، ولا خالفتك مذ عاشرتني . فقال (ع) : معاذ الله أنت أعلم بالله ، وأبرّ وأتقى وأكرم وأشدّ خوفاً من الله [ من ] أن أوبّخك بمخالفتي قد عزّ عليّ مفارقتك وتفقدك ، إلاّ أنه أمر لابدّ منه ، والله جدّدت عليّ مصيبة رسول الله (ص) ، وقد عظمت وفاتك وفقدك ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأمضها وأحزنها . هذه والله مصيبة لا عزاء لها ، ورزيّة لا خلف لها .

ثم بكيا جميعاً ساعة ، وأخذ عليّ رأسها وضمّه إلى صدره ثمّ قال :

أوصيني بما شئت ، فإنّك تجديني فيها أمضي كما أمرتني به ، وأختار أمرك على أمري .

ثمّ قالت : جزاك الله عنّي خير الجزاء يابن عمّ رسول الله ، أوصيك أوّلاً أن تتزوّج بعدي بابنة [ أختي ]

---

(٣٢) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٤٨ .

امامة ، فإنها تكون لولدي مثلي ، فإنَّ الرِّجال لابدَّ لهم من النساء .

ثمَّ قالت : اوصيك يابن عمَّ أن تتخذ لي نعشاً ، فقد رايت الملائكة صوّروا صورته ، فقال لها : صفيه لي فوصفته فاتّخذه لها . فأوّل نعش عُمل على وجه الأرض ذاك .

ثمَّ قالت : اوصيك ان لا يشهد احد جنازتي من هؤلاء الذين ظلموني واخذوا حقّي فإنّهم عدوّي وعدوُّ رسول الله (ص) ، ولا تترك ان يصلّي عليَّ احد منهم ، ولا من اتباعهم ، وادفنّي في الليل إذا هدات العيون ونامت الأبصار ، ثمَّ توفّيت صلوات الله عليها وعلى ابيها وبعلها وبنيها .

فصاح اهل المدينة صيحة واحدة واجتمعت نساء بني هاشم في دارها ، فصرخوا صرخة واحدة كادت المدينة أن تتزعزع من صراخهنَّ وهنَّ يقلن : يا سيدتاه !. يا بنت رسول الله !. واقبل الناس مثل عُرف الفرس إلى عليٍّ (ع) ، وهو جالس والحسن والحسين (ع) بين يديه يبكيان ، فبكى الناس لبكائهما .

وخرجت امُّ كلثوم وعليها برقعة وتجرُّ ذيلها متجلّلة برداء عليها وقد علا نشيجها وهي تقول : يا ابتاه ، يا رسول الله ، الآن حقّاً فقدناك ، فقداً لا لقاء بعده ابداً .

واجتمع الناس فجلسوا وهم يضجون ، وينتظرون ان تخرج الجنازة فيصلون عليها ، وخرج ابو ذرّ وقال : انصرفوا فإنَّ ابنة رسول الله (ص) قد اخّر إخراجها في هذه العشية فقام الناس وانصرفوا .

فلمّا ان هدات العيون ومضى شطر من الليل اخرجها عليٌّ والحسن والحسين (ع) ، وعمّار والمقداد وعقيل والزبير وابو ذرّ وسلمان وبريدة ونفر من بني هاشم وخواصهم ، صلّوا عليها ودفنوها في جوف الليل ، وسوّى عليٌّ (ع) حواليها قبوراً مزوّرة مقدار سبعة حتى لايعرف قبرها . وقال بعضهم من الخواصِّ : قبرها سُوِّي مع الأرض مستوياً فَمُسِحَ مسحاً سواء مع الأرض حتى لايُعرف موضعه [٣٣] .

ثم إن علياً (ع) حوّل وجهه إلى قبر رسول الله ثم قال :

( السلام عليك يا رسول الله عنّي ! . والسلام عليك عن ابنتك ، وزائرتك والبائتة في الثرى ببقعتك ، والمختار الله لها سرعة اللّحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري ، وعفا عن سيدة نساء العالمين تجلّدي ، إلاّ انَّ في التاسّي لي بسنّتك في فرقتك ، موضع تعزٍّ ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك ، وفاضت نفسك بين نحري وصدري .

بلى !. وفي كتاب الله لي انعم القبول ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون . قد استرجعت الوديعة ، واخذت الرّهينة ، اخلست الزّهراء ، فما اقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله !.

امّا حزني فسرمد ، وامّا ليلي فمسهّد ، وهمٌّ لايبرح من قلبي ، او يختار الله لي دارك التي انت فيها مقيم ، كمد مقيّح ، وهمٌّ مهيّج ، سرعان ما فُرّق بيننا . وإلى الله اشكو .

وستنبئك ابنتك بتضافر اُمّتك على هضمها ، فأحفها السؤال ، واستخبرها الحال ، فكم من غليل معتلج

---

(٣٣) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٩١ - ١٩٣ .

بصدرها ، لم تجد إلى بثه سبيلاً ، وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين ) [٣٤] .

وظلت فاطمة الزهراء شعلة الحب التي لاتخبو في صدور المؤمنين ، وراية الكفاح التي لاتسقط عن يد الرساليين ، وقبسة الخلق الرفيع ، وظُلامة الحق التي تصبغ صفحات الشفق بلون الدم الموتور ، والحق المغدور ، فتتحول نبضة ثورية في عروق فتيان المروة ، يتزودون بها عبر مسيرتهم الجهادية ضد المتسلطين والانتهازيين والقشريين ..

وما احوج امتنا اليوم إلى تجديد ذكرى فاطمة ، ليقتدي بها النساء ، بل الرجال اولاً ..

ولنصلي عليها . وعلى ابيها ، وعلى بعلها وبنيها ، كما صلّى الله عليها ، وملائكته ، والمؤمنون ..

ولقد بلغ من التزامها بتطبيق الإسلام على نفسها تطبيقاً حرفيّاً ، ما روي من انه لما نزلت الآية المباركة :

﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ (النور/٦٣)

صار اللازم على المسلمين أن يغيروا خطابهم مع الرسول ، من قولهم : يا محمد !! إلى قولهم يا رسول الله . الكلمة التي شاعت بعد نزول هذه الآية باعتبار ذكر الرسول في الآية ، تعبيراً عن النبي — محمد — .

وكان هذا الدستور مختصاً بالذين كانوا يستخفون باسم النبي ويدعونه باسمه المدعى به ، دون اي احترام .

ولكنَّ فاطمة ، لما سمعت نزول هذه الآية ، غيّرت ايضاً طريقة خطابها مع النبي (ص) فبينما كانت تقول لوالدها ، يا ابتاه !! اضحت تناديه بقولها : يا رسول الله . فلما سمع النبي منها ذلك ، تساءل عن وجه ذلك . فقالت : إطاعة لحكم الله . فقال النبي : إني احبّ من فمك كلمة " يا ابتاه " .

## ب - أصدق الناس لهجة :

كانت عائشة ترباً لفاطمة في العمر تقريباً . وكانت الزوجة الأولى للرسول (ص) بعد خديجة .. وكانت تغار من خديجة كثيراً ، وكان يزيد غيرتها شدة انَّ النبي (ص) كان يحب فاطمة كثيراً ويشيد بها ويقبل يدها ويذكر انها سيدة نساء العالمين وما إلى ذلك ، مع انه لايذكر شيئا من ذلك لعائشة .

و مع ذلك فانها اعترفت ذات مرة بهذا الإعتراف العجيب فقالت : ما رايت احداً اصدق لهجةً من فاطمة ، إلاّ ان يكون الذي ولدها ( اي رسول الله صلّى الله عليه وآله ) .

## ج - بطلة الإيثار :

كانت فاطمة (ع) حينذاك ربَّة البيت .. وكانت الظروف الإقتصادية متازمة جدّاً . وكانت فاطمة ، وسائر افراد اسرتها يريدون الصوم وفاء بالنذر ، واي نذر ؟. لقد كان الحسنان (ع) قد اصابهما مرض منذ وقت

---

(٣٤) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٩٣ .

سابق ، وكان الإمام علي (ع) قد نذرلله ان يصوم لو شوفيا . وكانت فاطمة والحسنان وفضة ( الخادمة ) قد تبعوا علياً في هذا النذر ، فالآن قد عوفيا . فجاء دور الوفاء بالنذر .

المرسوم في بلادنا ، اليوم ، انَّ الأسرة المسلمة إذا شاءت ان تصوم صوماً واجباً او مندوباً ، هيأت مقداراً من الطعام ، اطيب واكثر من سائر الأيام التي لا تريد صومها .

امّا اسرة عليٍّ (ع) ، فقد كانت فقيرة في تلك الأيام ، حتى عن المقدار اللازم للطعام .

نعم لم يكن في بيت العلم والشرف والتقوى ، عين من المال لا قليلاً ولا كثيراً ، ليفطروا . فذهب امير المؤمنين واخذ مقداراً من الصوف واعطاه لفاطمة عليها السلام لكي تغزله . واخذ مكانه ثلاثة أَصْوُعٍ من الشعير اجراً على ذلك . لكي يفطروا عليها .

و جاء بالشعير إلى البيت ، وصامت الاسرة ، وصنعت الزهراء منه خمسة أقراص من الخبز .. وانتهى النهار ، وجلسوا لياكلوا .. وتماماً في الوقت الذي ارادوا الأكل سمعوا صوتاً من وراء الباب يقول :

السلام عليكم يا اهل بيت النبوّة . إني مسكين من مساكين المدينة وجائع .. فاعطوني .. بارك الله فيكم .

فاخذ الإمام امير المؤمنين رغيفه وتبعته فاطمة ثم الحسن والحسين (ع) وحتى فضة ، لخذوا ارغفتهم الخمسة واعطوها للمسكين .. ثم افطروا بالماء القراح وشكروا الله .

وفي اليوم الثاني ، كان الوقت عند الإفطار ، وكانت فاطمة قد صنعت خمسة ارغفة ايضاً .. وكانوا قد ارادوا الإفطار فجاء يتيم وطلب منهم طعاماً ، فقدم كل منهم رغيفه وافطروا بالماء وحمدوا الله .

وجاءت الليلة الثالثة .. وجاء دور الأسير .. ففي نفس الوقت – اي عند الإفطار – طلب منهم الأسير ، واعطوه الأرغفة وباتوا جياعاً لثلاثة ايام وليال كاملة .

والمفروض انَّ ثروة هذه الأسرة ، كانت لا تتجاوز ثلاثة أَصْوُعٍ من الشعير . وها هي قد تمت .. وقد صاموا ثلاثة ايام بلياليها ، غير شربة من ماء افطروا عليها فقط .

ولما جاء الرسول لزيارتهم ، وشاهد الحسنين يرتجفان جوعاً ، وفاطمة عليها السلام قد اشتد بها الضعف ، والإمام وفضة ، كلاً منهما قد اثر فيه الجوع اثراً بليغاً ، قال الرسول حينذاك :

واغوثاه بالله اهل بيت محمد (ص) يموتون من الجوع .. وها هنا نزلت عليه سورة ﴿ هَلْ أَتَى ﴾ (الإنسان/١ ) في حق اهل البيت .

وجاءت فيها الآيات التالية :

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ (الإنسان/٧-١١) .

وهكذا ضربت فاطمة الزهراء عليها السلام وبعلها وابناها وحتى خادمتها ، مثلاً رائعاً للايثار ، واخذت

أسرتها مدالاً عظيماً من ربهم على ذلك .

وفي حديث شريف رواه علماء المسلمين عن ابن عباس . نقرا فصولاً من فضائل الزهراء ، التي تجعلها سيدة نساء العالمين ، وقدوة الصديقات ، وأسوة المؤمنات الفاضلات ..

وإلى القارئ هذا الحديث الذي نختم به هذا الفصل :

عن ابن عباس قال :

خرج أعرابيٌّ من بني سليم يتبدَّى في البريَّة ، فإذا هو بضبٍّ قد نفر من بين يديه ، فسعى وراءه حتى اصطاده ، ثمَّ جعله في كمّة واقبل يزدلف نحو النبي (ص) . فلما ان وقف بإزائه ناداه : يا محمد يا محمد ، وكان من اخلاق رسول الله (ص) إذا قيل له : يا محمد ، قال : يا محمد ، وإذا قيل له : يا احمد ، قال : يا احمد ، وإذا قيل له : يا ابا القاسم ، قال : يا ابا القاسم ، وإذا قيل [ له ] : يا رسول الله ، قال : لبيك وسعديك وتهلّل وجهه .

فلمّا ان ناداه الأعرابي : يا محمد يا محمد قال له النبيُّ : يا محمد يا محمد ، قال له : انت الساحر الكذّاب الذي ما أظلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة هو اكذب منك ، انت الذي تزعم ان لك في هذه الخضراء إلهاً بعث بك إلى الأسود والأبيض ؟ واللاّت والعزّى ، لولا اني اخاف انَّ قومي يسمونني العجول لضربتك بسيفي هذا ضربة اقتلك بها ، فأسُودُ بك الأوَّلين والآخرين .

فوثب إليه عمر بن الخطاب ليبطش به فقال النبيُّ (ص) : اجلس يا ابا حفص فقد كاد الحليم ان يكون نبيّاً .

ثمَّ التفت النبيُّ (ص) إلى الأعرابيِّ فقال له :

( يا اخا بني سليم ، هكذا تفعل العرب ؟ يتهجمون علينا في مجالسنا يجابهوننا بالكلام الغليظ ؟. يا اعرابيُّ والذي بعثني بالحقِّ نبيّاً انَّ ضرّبين في دار الدنيا هو غداً في النار يتلظى ، يا اعرابيُّ والذي بعثني بالحق نبيّاً ان اهل السماء السابعة يسمونني احمد الصادق ، يا اعرابيُّ اسلم تسلم من النار يكون لك مالنا وعليك ما علينا وتكون اخانا في الإسلام ) .

قال : فغضب الأعرابيُّ وقال : واللاّت والعزّى لا اؤمن بك يا محمد او يؤمن هذا الضبُّ ثمَّ رمى بالضبِّ من كمّه ، فلمّا ان وقع الضبُّ على الأرض ولّى هارباً ، فناداه النبيُّ (ص) ايُّها الضب اقْبلْ إليَّ ، فاقبل الضبُّ ينظر إلى النبيِّ (ص) ، قال : فقال له النبي (ص) :

( ايُّها الضبُّ من انا ؟ . فإذا هو ينطق بلسان فصيح ذرب غير مقطّع فقال : " انت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف " . فقال له النبيُّ (ص) : من تعبد ؟ قال : اعبد الله عزَّ وجلَّ الذي فلق الحبّة وبرا النسمة واتخذ إبراهيم خليلاً واصطفاك يا محمد حبيباً ثمَّ انشا يقول :

| | |
|---|---|
| ألا يــا رســـول الله إنــك صــادق | فبـــوركت مهديّـــاً وبــوركت هاديـا |
| شـرعـت لنــا ديـن الحنيفـة بعــد مـا | عبدنـا كامثـــال الحميـــر الطواغيـا |

فيا خير مدعو ويا خير مرسل إلى الجنّ بعد الإنس لبيك داعيا
ونحن أناس من سليم وإننا أتيناك نرجو أن ننال العواليا
أتيت ببرهان من الله واضح فأصبحت فينا صادق القول زاكياً
فبوركت في الأحوال حيّاً وميتاً وبوركت مولوداً وبوركت ناشياً

قال : ثمّ أطبق على فم الضبّ فلم يحر جواباً . فلمّا أن نظر الأعرابي إلى ذلك قال : واعجباً ، ضبٌّ اصطدته من البرية ثمّ أتيت به في كمّي لا يفقه ولا ينقه ولا يعقل ، يكلّم محمداً (ص) بهذا الكلام ويشهد له بهذه الشهادة ، وأنا لا أطلب أثراً بعد عين ، مدّ يمينك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، فأسلم الأعرابيُّ وحسن إسلامه .

ثمّ التفت النبيُّ (ص) إلى أصحابه فقال لهم : " علّموا الأعرابيَّ سوراً من القرآن " ، قال : فلما علّم الأعرابيُّ سوراً من القرآن قال له النبي (ص) : " هل لك شيء من المال " ؟ قال : والذي بعثك بالحقّ نبيّاً ، إنّا أربعة آلاف رجل من بني سليم ما فيهم أفقر منّي ولا أقلُّ مالاً .

ثمّ التفت النبيُّ (ص) إلى أصحابه فقال لهم : " من يحمل الأعرابيَّ على ناقة أضمن له على الله ناقة من نوق الجنّة " ؟ قال : فوثب إليه سعد بن عبادة فقال : فداك أبي وأمّي عندي ناقة حمراء عشراء وهي للأعرابيِّ .

فقال له النبيُّ (ص) : " يا سعد تفخر علينا بناقتك ؟ . ألا أصف لك الناقة التي نعطيكها بدلاً من ناقة الأعرابيِّ ؟ فقال : بلى فداك أبي وأمّي .

فقال : " يا سعد ناقة من ذهب أحمر وقوائمها من العنبر ، ووبرها من الزّعفران وعيناها من ياقوتة حمراء ، وعنقها من الزّبرجد الأخضر ، وسنامها من الكافور الأشهب ، وذقنها من الدُّرّ ، وخطامها من اللؤلؤ الرطب ، عليها قبة من درّة بيضاء يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها تطير بك في الجنة " .

ثم التفت النبي (ص) إلى أصحابه فقال لهم : " من يتوّج الأعرابيَّ أضمن له على الله تاج التقى " ، قال : فوثب إليه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب (ع) وقال : ( فداك أبي وأمّي وما تاج التقى ؟ فذكر من صفته ) ، قال : فنزع عليٌّ (ع) عمامته فعمّم بها الأعرابيَّ .

ثمّ التفت النبيُّ (ص) فقال : من يزوّد الأعرابيَّ وأضمن له على الله عزَّ وجلَّ زاد التقوى " ، قال : فوثب إليه سلمان الفارسي فقال : ( فداك أبي وأمي وما زاد التقوى ) قال : " يا سلمان إذا كان آخر يوم من الدنيا لقّنك الله عزَّ وجلَّ قول شهادة أن لاإله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسول الله ، فإن أنت قلتها لقيتني ولقيته ، وإن أنت لم تقلها لم تلقني ولم ألقك أبداً " .

قال : فمضى سلمان حتى طاف تسعة أبيات من بيوت رسول الله (ص) فلم يجد عندهن شيئاً ، فلمّا أن ولّى راجعاً نظر إلى حجرة فاطمة (ع) فقال : إن يكن خير فمن منزل فاطمة بنت محمد (ص)، فقرع

الباب فاجابته من وراء الباب ، من بالباب ؟ . فقال لها ، انا سلمان الفارسي . فقالت له ، يا سلمان وما تشاء ؟. فشرح قصّة الأعرابيّ والضبّ مع النبيّ (ص) . قالت له ، يا سلمان والذي بعث محمداً (ص) بالحقّ نبيّاً إنّ لنا ثلاثاً ما طعمنا ، وإنّ الحسن والحسين قد اضطربا عليّ من شدة الجوع ، ثمّ رقدا كانهما فرخان منتوفان ، ولكن لا أردّ الخير إذا نزل الخير ببابي .

يا سلمان خذ درعي هذا ثمّ امضِ به إلى شمعون اليهوديّ وقل له ،

تقول لك فاطمة بنت محمد ، أقرضني عليه صاعاً من تمر وصاعاً من شعير اردّه عليك إن شاء الله تعالى .

قال ، فاخذ سلمان الدرع ثمّ اتى به إلى شمعون اليهوديّ فقال له ، يا شمعون هذا درع فاطمة بنت محمد (ص) ، تقول لك ، اقرضني عليه صاعاً من تمر وصاعاً من شعير اردّه عليك إن شاء الله .

قال ، فاخذ شمعون الدّرع ثمّ جعل يقلّبه في كفّه وعيناه تذرفان بالدّموع وهو يقول ، يا سلمان هذا هو الزهد في الدنيا ، هذا الذي اخبرنا به موسى بن عمران في التوراة . انا اشهد ان لا إله إلاّ الله واشهد انّ محمداً عبده ورسوله ، فاسلم وحسن إسلامه .

ثمّ دفع إلى سلمان صاعاً من تمر وصاعاً من شعير فاتى به سلمان إلى فاطمة فطحنته بيدها واختبزته خبزاً ، ثمّ اتت به إلى سلمان فقالت له ، خذه وامض به إلى النبي (ص) ، قال ، فقال لها سلمان ، يا فاطمة خذي منه قرصاً تعلّلين به الحسن والحسين ، فقالت ، يا سلمان ، هذا شيء امضيناه لله عزّ وجلّ لسنا ناخذ منه شيئاً .

قال ، فاخذه سلمان فاتى به النبيّ (ص) ، فلمّا نظر النبي (ص) إلى سلمان قال له ، يا سلمان من اين لك هذا ؟. قال ، من منزل ابنتك فاطمة ، قال ، وكان النبيُّ (ص) لم يطعم طعاماً مذ ثلاث .

قال ، فوثب النبيُّ (ص) حتى ورد حجرة فاطمة ، فقرع الباب وكان إذا قرع النبيُّ (ص) الباب لا يفتح الباب إلاّ فاطمة فلمّا ان فتحت له الباب نظر النبيُّ (ص) إلى صفار وجهها وتغيّر حدقتيها ، فقال لها ، يا بنية ما الذي اراه من صفار وجهك وتغيّر حدقتيك ؟ فقالت ، يا ابه إنّ لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً وانّ الحسن والحسين قد اضطربا عليّ من شدّة الجوع ثمّ رقدا كانّهما فرخان منتوفان .

قال ، فانبههما النبيُّ (ص) فاخذ واحداً على فخذه الأيمن والآخر على فخذه الأيسر واجلس فاطمة بين يديه واعتنقها النبيُّ (ص) ودخل عليّ بن ابي طالب (ع) فاعتنق النبي (ص) من ورائه ، ثم رفع النبيُّ (ص) طرفه نحو السماء فقال ، " إلهي وسيّدي ومولاي ، هؤلاء اهل بيتي ، اللهم اذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً " .

قال ، ثمّ وثبت فاطمة بنت محمد (ص) حتى دخلت إلى مخدع لها فصفّت قدميها فصلّت ركعتين ثمّ رفعت باطن كفّيها إلى السماء وقالت ، ( إلهي وسيدي هذا محمد نبيك ، وهذا عليُّ ابن عمّ نبيك ، وهذان الحسن والحسين سبطا نبيك ، إلهي انزل علينا مائدة من السماء كما انزلتها على بني إسرائيل ، اكلوا

منها وكفروا بها ، اللهمَّ انزلها علينا فإنّا بها مؤمنون ) .

قال ابن عباس ، والله ما استتمّت الدعوة فإذا هي بصحفة من ورائها يفور قتارها وإذا قتارها ازكى من المسك الأذفر ، فاحتضنتها ثمَّ اتت بها إلى النبيُّ (ص) وعلي والحسن والحسين ، فلما ان نظر إليها عليُّ بن ابي طالب (ع) قال لها ، ( يا فاطمة من اين لك هذا ؟. ولم يكن عهد عندها شيئاً ) فقال له النبي (ص) ، " كل يا ابا الحسن ولا تسال ، الحمد لله الذي لم يمتني حتى رزقني ولداً مثلها مثل مريم بنت عمران " .

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران/٣٧)

قال ، فاكل النبيُّ (ص) وعليٌّ وفاطمة والحسن والحسين وخرج النبيُّ (ص) ، وتزود الأعرابيُّ واستوى على راحلته واتى بني سليم وهم يومئذ اربعة الاف رجل . فلمّا ان وقف في وسطهم ناداهم بعلوّ صوته قولوا ، " لا إله إلاّ الله محمد رسول الله " ، قال ، فلما سمعوا منه هذه المقالة اسرعوا إلى سيوفهم فجرّدوها ، ثمَّ قالوا له ، لقد صبوت إلى دين محمد السّاحر الكذّاب ، فقال لهم ، ماهو بساحر ولا كذّاب .

ثم قال ، يا معشر بني سليم ، إنَّ إله محمد (ص) خير إله ، وإنَّ محمداً (ص) خير نبيّ اتيته جائعاً فاطعمني ، وعارياً فكساني ، وراجلاً فحملني ، ثمَّ شرح لهم قصّة الضبُّ مع النبي (ص) وانشدهم الشعر الذي انشد في النبيُّ (ص) .

ثمَّ قال ، يا معاشر بني سليم اسلموا تسلموا من النّار ، فاسلم في ذلك اليوم اربعة الاف رجل ، وهم اصحاب الرايات الخضر ، وهم حول رسول الله (ص) .[٣٥]

---

(٣٥) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٦٩ ٧٤ .

# الامـام علـي (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

الحمد لله ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

حين يقف المرء على محيط بعيد الشواطئ ، عالي الموج يتردد كثيراً قبل ان يخوض غماره ؟

كذلك ترددت ، قبل ان اقرر الكتابة حول امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) ، بل بيّضت بعض الأوراق قبل عشرين عاماً بحياة إمام المتقين ، ولمّا اكملها حتى اليوم . ولولا اني فرضت على نفسي ذلك ، بالنذر لمَا اقتحمت هذه العقبة .

ولكن ، إذا كانت حياته بحراً زخاراً واسع الأطراف ، افلا يخسر من لا يبل غليله منه ولو بقطرة ؟..

فهذه السحب الخيرة لاتزال تروي الأراضي الموات ، اكثر من الف عام فيُحييها الربُّ بها ، افلا اعرض قلبي لها ، فلعل الله يُحييه فيما يُحيي ؟

حياته الفذة التي تكاد لا تنتهي عِبَرُها ، افلا اجعلها نبراساً في ظلمات دهري ؟ بلى .

والتزاماً مني باسلوب هذه السلسلة ( قدوة واسوة ) اجتهدت في لملمة اطراف الموضوع قدر المستطاع ، واسأل الله ان يوفقني بفضله لإتمام المشروع ، إنه ولي التوفيق .

## الفصل الأول

# الأصل الكريم والميلاد المبارك

### وليداً عظيماً :

كانت مكة تحتفل بالوافدين إلى زيارة بيت الله الحرام .. في الشهر الحرام ، رجب الأصب . وكانت الوفود الكريمة تؤدي مناسك البيت ، والناس يطوفون حوله ، وينادون ربهم حيناً ، والأصنام احياناً .

وكانت هنالك امرأة كريمة ، تطوف لا كما يطوفون ، إذ كانت تتجه إلى الله وحده لا شريك له ، فتغمر نفسَها ضراعةُ المتبتّل ، وخشوع المحتاج ، ووقار المطمئن إلى فضل الله ، تدعو الله وحده ، وتساله ان يخفف عنها وطاة ما تخافه وتحذره .

لقد كانت أُماً لثلاثة ابناء وبنت واحدة ، ولكن لم يشتد بها المخاض ولا عصر اعصابها كهذه المرة .

ودعت ، فالحت في الدعاء لعل الله يخفف عنها آلام الطلق ، وتضرعت فابلغت في التضرع ، وفي الجانب الغربي من البيت ، إذ اجتمع طائفة من الحجاج ، حدث أمر عجيب :

لقد كانت في أُخريات أشواطها ، عند مقترب الركن اليماني ، إذ انشق لها جانب البيت ، وكان نداءً خفياً يدعوها ان ادخلي بيت ربك !

دخلت البيت ، والناس يشهدون في ذهول ويصيحون صيحة العجب !. فيتقاطر عليهم سائر الطائفين ، يسالون عن الحدث ؟ ومن هذه السيدة التي كانت الساعة تطوف ؟. إنها حفيدة هاشم بنت أسد ، زوجة ابي طالب والدة ام هاني وطالب وعقيل وجعفر . إنها فاطمة !.

ويجتمع الناس وبينهم الزعماء والأشراف .. وبعد مدة ، ينشق الجانب ذاته ، فتتهلّل وجوه الحاضرين كما يتهلل وجه الوليد العظيم ، وهو يتقلب على اذرع الوالدة الكريمة .

إنه حادث فريد من نوعه ، أن ينشق طرف البيت ، فتدخل الحامل وتلد في مركز الإشعاع الروحي والبركة الإلهية ، بيت الله الحرام الذي يعتبر اقدس محل " يحترمه العرب " ..

وإنها لكرامة لبني هاشم على قريش ، ولقريش على العرب ان يوليّهم ربُّ البيت بهذه العناية ، فيسمح لامرأة منهم أن تضع حملها ببطن بيته ، مكرّماً ومعظّماً .

وسرت البشرى في بيوت الهاشميين !. وانطلقت نساؤها تزف تهانيها إلى فاطمة معجبة مغرمة .. وجاء الزعماء يبشرون أبا طالب بالوليد العظيم ، ومن بين هؤلاء فتى يهمه أمر الوليد أكثر من غيره ، ينظر إليه لا كما ينظر الرجال الآخرون .. إنه محمد بن عبد الله (ص) الذي لم يزل يحسب من عائلة ابي طالب ،

فإذا تناول الوليد تلا آيات الله فاعجب به وبارك بولادته .

وقالوا ، إن الوليد لم يفتح عينيه إلاّ على محيًّا ابن عمه النبي العظيم وسُمِّيَ عليّاً ، واختارت امه له اسم ( حيدر ) وإذا كان هذا الاسم يوحي باكتمال الجسم الذي يبشر بالبطولة ، فإن الاسم الآخر كان يوحي ببشائر السموّ المعنوي .

## الولادة المعجزة :

كانت لولادته – كما لمقتله – (ع) ، شهادة حق على صدق رسالات الله .. إنه آية الله العظمى في كل جوانب حياته ، من ولادته إلى شهادته .

فلماذا تحاط ولادة الرسل والأئمة بالآيات ؟ فموسى (ع) يقذف في التابوت ليلقيه اليم بالساحل .. وليُصنع على عين الله .

وعيسى (ع) يولد من غير اب ، ويكلّم الناس في المهد صبياً .

وسيدنا محمد (ص) ترافق ولادته حوادث عظيمة ، تسقط شرفات قصر فارس ، وتخمد نيرانهم ، وتغيض بحيرة ساوة ، وتفيض الأخرى في سماوة و. و.

والإمام علي يولد في الكعبة بعد ان ينشق لامه فاطمة بنت اسد ، جانب المستجار ، لماذا ؟.

هل لانهم قد اصطفاهم الله لرسالاته قبل الولادة ، حيث بادروا بالتلبية في عالم الذر قبل غيرهم من الصالحين ، فاجتباهم على علم ، وابان فضلهم بالولادة المعجزة (1) .

ام لأن الله سبحانه اطلّع على مستقبل حياتهم ، فاكرم مواقفهم المسؤولة التي يعلم انهم سوف يختارونها بكل حرية فاكرم مثواهم ، وجزاهم بطيب الولادة ، وإعجازها ؟..

ام لأن الرب سبحانه اراد بذلك ان يكرم الأصلاب الشامخة والأرحام الطاهرة ممن ولدوهم ، كما فعل بمريم الصدّيقة ، لمكانها عند ربها ، او بزكريا وزوجته عليهم السلام جميعاً ؟.

ام لأسباب اخرى ؟

ولكن الولادة المعجزة بلاغ مبين للناس ، بشان الوليد العظيم بدون ادنى شك .

بعد ان خرجت ام علي (ع) تحمله ، استقبله النبي محمد (ص) وهو يعلم انه سيكون وصيّه وخليفته ، فعمّ السرور قلبه الكبير .

ولم يتفارقا منذ تلك اللحظة حتى ارتحل عنه النبيُ (ص) إلى ربه ، فلزم الوصي سنّته حتى الشهادة .

وحين يصف الإمام بفخر عظيم تلك العلاقة الحميمة بينه وبين النبي (ص) لايدع لنا إشكالاً في انها كانت من تقدير الله عزّ وجلّ وان لها اثارها في بلاغ رسالاته إلى الناس .. يقول ،

" انا وضعت في الصغر بكلاكل العرب ، وكسوت نواجم قرون ربيعة ومضر ، وقد علمتم موضعي من

---

(1) هكذا جاء في بعض النصوص المأثورة .

رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وانا ولد يضمّني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويمسُّني جسده ، ويشمّني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قوله ، ولا غلطة في فعل ، ولقد قرن الله به (ص) من لدن ان كان فطيماً اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن اخلاق العالم ، ليله ونهاره ، ولقد كنت اتبعه اتّباع الفصيل اثر أُمه ، يرفع لي كل يوم من اخلاقه علَماً ويامرني بالاقتداء به . ولقد كان يجاور كل سنة بحراء فاراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وانا ثالثهما ، ارى نور الوحي والرسالة . واشم ريح النبوّة "[٢] .

## الفتى المبارك :

ولم يزل يدرج ويترعرع متميزاً بين اترابه ، في أعماله ، واقواله ، ففي ذات يوم ، وكان له آنذاك سنوات قلائل .. وكان يلعب مع اترابه ، إذ ينزلق احد الأطفال بجانب بئر كانت هناك .. وقبل ان يسقط فيها يلحقه علي (ع) فياخذ منه عضواً ، فيعلق رأس الطفل إلى الأسفل وتمسك عضوه الأعلى يد عليّ ، ويصيح الأطفال ، وياتي اهل الطفل .. ويتعجبون للمنظر .. وكان يسمّى عليٌّ — مباركاً — فقالت والدة الطفل ، ايها الناس اترون مباركاً ، كيف انقذ ولدي من الهلاك .

وكانت الظروف صعبةً في مكة ، وقد اصاب البلد الحرام قحط شديد ، عمَّ بيت ابي طالب . فجاء النبي (ص) إلى بعض اعمامه الأثرياء ، يفاوضهم في الأمر . واقترح ان يتكفلوا ابناء عمه . فلما عرضوا عليه قال : ابقوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم . فاخذ كل من العباس وحمزة عمّا النبيّ وهاله بنت عبد المطلب عمته ، واحداً من ابناء ابي طالب ، وبقي علي (ع) فإذا بالنبي يستدعيه ليكون له صاحباً ، فيغمره البشر ، وياوي إليه كما ياوي الفصيل إلى أُمه .

ان علياً الذي فتح عينيه — اول ما فتحهما — على ملامح النبي (ص) ، وظل مغموراً ببركاته ايام صغره . إن علياً الذي راى في محمد (ص) الحب والحنان ، وكل خصال الخير والجمال ، لابد ان ياوي إليه ويسارع إلى قبول كفالته له ، ويفيض فرحاً بذلك وابتهاجاً .

اخذ علي ، يتبع كفيله وحبيبه النبيُّ محمداً (ص) ويطمئن إليه بكل قلبه ، ويقلده في كل عمل !

وذهب النبي (ص) يغدق على ابن عمه كل ما افاضت إليه رحمة الله ، من اداب حسان وخُلق كريم !

.. ولم يزل عليٌّ يرى النبي (ص) دائم التفكير يقلّب وجهه في السماء يلتمس من ربه نوراً .

في تلك الأيام التي كان يتعبد النبي في غار حراء ، كان علي يتدبر في عبادته ، ويفكر فيها فيفهم معنى العبادة ومغزاها ، ويؤمن بمن يعبده ويهتدي إليه بفطرته النقية التي لم يتسرب إليها الشك ابداً !

إن علياً (ع) اوتي من النبوغ والذكاء ما يؤهله لكل ما كان النبي (ص) مؤهلاً له . ومن الخطا ان نحدد

---

(٢) نهج البلاغة الخطبة ( ١٩٢ ) .

اول وقت آمن فيه ، فلقد كان مؤمناً بفطرته ولا يصح لنا ان نقرن إيمانه بزمان دون زمان — هكذا عبر النبي — ذات مرة إذ ساله رجل من المسلمين عن اول وقت آمن فيه الإمام علي فقال ، إنه لم يكن كافراً حتى يؤمن ، كما انه نفسه بيّن ذلك حين اكد أنه لم يكن مسبوقاً بالشرك .

وعندما هبط الوحي على قلب محمد (ص) وجاء النبيُّ إلى الإمام يخبره ، ينفتح قلبه على امر موعود ، وحقيقة منتظرة ، ذلك اليوم كان عمر الإمام عشر سنوات ، ولم يكن يعرف إنسانٌ طيب يمتاز عليه من الآخرين ، بل كانت فيه كل معاني الفضيلة والسمو ، صدقه ، امانته ، بره بالخلق ، إحسانه ، صلته للرحم وغير ذلك .. اجل لم يكن هناك من يمتاز عليه غير محمد بن عبد الله (ص) البر الكريم ، فيكف لايصدقه وكيف لا يتبعه .

وذات يوم دعاه النبي إلى الصلاة ، فقام عليه السلام يتعلم قواعدها ويتوجّه إلى المسجد الأقصى حيث القبلة الأولى للمسلمين .. فيصلي بصلاة النبي ، وتصلي وراءهما خديجة زوجة الرسول . فهؤلاء ثلاثة ليس لهم الآن نظير على الأرض ، يبتهلون إلى الله بركعات ، يرتلون من آي الذكر الحكيم ، ما يزيدهم هدى ، ويملأ شعورهم إيماناً واطمئناناً .

لقد تشكلت الآن اول خلية حيّة ، بين ملايين الخلايا الميتة في المجتمع البشري . وإنها تسعى لكي تزيد نفسها حجما وقوة ، وتبعث الحياة — بإذن الله — إلى سائر الخلايا .

ومن هذا العقد من حياة علي (ع) يبتدئ عهده مع الجهاد والتضحية ، لقد انتقل من بيت كفيله إلى بيت والده من سنتين ، بيد انه لايزال يقضي غالب اوقاته في بيت خديجة قريباً من الرسول (ص) ليرفع له كل يوم علماً في المعارف والآداب ، فيتّبعه .

وظل الإسلام يتخذ من هذه الأنفس المباركة — انفس محمد وعلي وخديجة — اولى قواعده وازكاها .. حتى اجتمع إليه رجال ونساء يتحدون بالإسلام الوضع الفاسد .

وظل دعاة الإسلام يبذلون في سبيل الدعوة طاقاتهم ودماءهم ، حتى نمت شجرة الإسلام ، وجاء الوحي يامر النبي بأن يصدع بما يؤمر وينذر عشيرته الأقربين وإظهارها للناس اجمعين .

فامر النبي عليّاً (ع) ان يهيئ طعاماً ويدعو بني هاشم إلى بيته . واجتمعوا إليه يقودهم ابو طالب سيدهم ووالي امورهم .

فلما طعموا وراوا ان قصعة الثريد ، التي اكلوا منها لم ينقص منها شيء وعجبوا ، وجاء النبي يكلمهم بشأن الدعوة راح عمه ابو لهب ، يبعث كلماته الساخرة !!

إن ابا لهب كان من الد اعداء الإسلام ، مع انه كان من اقرب الناس رحماً بالنبي (ص) ولم ينزل في القرآن آية يذكر فرداً من معاصري النبي بالسوء غير ما نزل في حق ابي لهب ، وفي سورة كاملة تبتدأ بقول شديد ،

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد/١)

وقد كان أول المستهزئين بالرسول ، ذلك النهار ، حيث قال بين فتيان بني هاشم الذين كانوا زهاء اربعين رجلاً ، قال : لشد ما سحركم صاحبكم ، اي ما اعجبه رجلاً قد سحركم . فتفرق القوم ولم يكلمهم الرسول (ص) .

فلما كان من غد استضافهم علي (ع) مرة اخرى فجاؤوا واكلوا وشربوا ، وقبل ان يتكلم ابو لهب ، ابتداهم الرسول قائلاً :

" يا بني عبد المطلب ! إني – والله – ما اعلم شاباً في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به . إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد امرني الله تبارك وتعالى ان ادعوكم ، فايكم يؤازرني على امري ، على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ " .

فاحجم القوم جميعاً ، إلاّ علياً ، وكان ذلك اليوم – كما يصف نفسه – احدثهم سناً ، وارمضهم [3] عيناً واعظمهم بطناً ، واحمشهم [4] ساقاً فقال :

" انا يا نبي الله اكون وزيرك عليه " .

فاخذ برقبته ثم قال : " فاسمعوا له واطيعوا "

فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب ، قد امرك ان تسمع لعليٍّ وتطيع .

وظلت هذه الدعوة تتراوح بين علي (ع) وخديجة (ع) ثلاث سنوات ، وكان النبي يصلي بهم في خفاء ، ويؤدي بهم مناسك الحج على سنّة الإسلام ، حنيفاً بها عما كان ياتيه اهل الجاهلية .

فلقد أُثر عن عبد الله بن مسعود قوله : إن اول شيء علمته من امر رسول الله (ص) قدمت مكة في عمومة لي ، فارشدونا إلى العباس بن عبد المطلب ، فانتهينا إليه وهو جالس إلى مَن ثَمَّ [5] فجلسنا إليه فبينما نحن عنده ، إذ اقبل رجل من باب الصفا تعلوه حمرة ، وله وفرة جعدة إلى انصاف اذنيه ، اقنى الأنف ، برّاق الثنايا ، ادعج العينين [6] كث اللحية [7] رقيق المسربة [8] شثن الكفين [9] حسن الوجه ، معه مراهق او محتلم تقفوه امراة قد سترت محاسنها ، حتى قصدوا نحو الحجر ، فاستلمه ثم استلمه الغلام ، ثم استلمته المراة ، ثم طاف بالبيت سبعاً ، والغلام والمراة يطوفان معه . فقلنا : يا ابا الفضل ! إن هذا الدّين لم نكن نعرفه فيكم . اوَ شيءٌ حدث ؟ قال : هذا ابن اخي محمد بن عبد الله والغلام علي بن ابي

---

(٣) رمضت عينيه : حميت حتى كادت تحترق .

(٤) حمشت الساق : دقت .

(٥) لعل مراده انه كان جالساً عند جماعة هناك .

(٦) أي شديد السواد مع سعتها .

(٧) مجتمع الشعر : غير طويل .

(٨) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن .

(٩) غليظ الكفين .

طالب ، والمراة امراته خديجة بنت خويلد ، ما على وجه الأرض احد يعبد الله تعالى بهذا الدِّين إلاّ هؤلاء الثلاثة .

وقال عفيف الكندي ، كنت امرءاً تاجراً ، فقدمت الحج فاتيت العباس بن عبد المطلب ، لابتاع منه بعض التجارة ، — وكان امرءاً تاجراً — فوالله إني لعنده بمنى إذ خرج من خباء قريب منه فنظر إلى الشمس ، فلما راها قد مالت ، قام يصلّي ( قال ) ثم خرجت امراة من الخباء الذي خرج ذلك الرجل منه فقامت خلفه فصلّت ، ثم خرج غلام هيِّن راهق الحُلم من ذلك الخباء فقام معه فصلّى ( قال ) فقلت للعباس مَن هذا يا عباس ؟ قال ، هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن اخي ( قال ) ، فقلت ، مَن هذه المراة ؟. قال ، امراته خديجة بنت خويلد ( قال ) فقلت ، من هذا الفتى ؟. قال ، علي ابن ابي طالب ابن عمه (قال ) فقلت له ، ما هذا الذي يصنع ؟ قال ، يصلّي ، وهو يزعم انه نبي ولم يتبعه على امره إلاّ امراته وابن عمه هذا الفتى ، وهو يزعم انه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر .

ومضت على الدعوة مدة ، وعليٌ يستقيم على الصراط السوي ، ويقاوم الضغوط ، ويصوغ الوحي شخصيته الفذة . ثم التف حول الدعوة رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر ربهم . فلما امرهم النبي بالهجرة إلى الحبشة وأمَّر عليهم جعفراً اخا عليٍ عليهما السلام ، قامت قيامة قريش الذين راوا من مناوئهم — العظيم — القوة وحسن التدبير ، فاخذوا يدرسون خطة اخرى اشد واقسى مما سبق ، وذلك بفرض حصار إجتماعي على بني هاشم زاعمين انهم شذُوا عن النظام الإجتماعي السائد .

فدبروا امر الصحيفة الملعونة ، حيث أجمعوا على ان لايخالط النبيُّ (ص) ومن دار في افقه من الهاشميين ، وعلى راسهم سيدهم ابو طالب ، ولا يعاملهم احدٌ ابداً .. فجمع ابو طالب اهله في شِعْبٍ له ، وذبَّ عنهم بما كان لديه من طاقة وسلطان .

وتلك كانت فرصة سانحة للإمام عليٍّ (ع) ان ينهل من نبع النبي الفيّاض ، كل مكرمة وفضيلة ومعرفة ، كما استطاع ايضاً ان يمارس جهاده الشاق طيلة ثلاث سنوات . ولعل هذا كان اول ميادين الجهاد التي خاضها ابن ابي طالب (ع) ولكن كان له من قبله جهاد اخر ، إلاّ انه ليس في هذا المستوى ، وذلك ان النبي (ص) كان يمر بطرقات مكة فيرشقه ابناء مكة بالحجارة والحصى ، بامرٍ من اوليائهم ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام يعبا بذلك ، بيد ان علياً (ع) كان يصاحبه ، فإذا اساء احدهم الى النبي (ص) اخذه وجدع اذنه ، وكان عليّ (ع) قوياً منذ صباه وشجاعاً ، وكان كذلك مهيباً في اعين اترابه ، فإذا راوه يمشي مع النبي ، قالوا لبعضهم مهلاً فإن معه القضم ، اي الذي يقضم انافهم واذانهم .

## الفصل الثاني

# حياته في عهد الرسول (ص)

### الهجـرة :

وبعد ما نُقضت الصحيفة الملعونة ولم تفتّ في عضد الدعوة ، واضطرت قريش ان تسمح لبني هاشم بالدخول في رباع مكة ، والإختلاط مع الناس ، اصاب المرض عمّه وكفيله ابا طالب ، كما اصاب زوجته الوفية خديجة عليهما السلام ، لما كانا قد لاقياه في الشعب من العنت ، فماتا في السنة التالية التي سميت بعام الحزن ، وفقد النبي (ص) أكبر معين واشد ركن يعتمد عليه في الملمّات .

وعزم النبي (ص) على الهجرة إلى المدينة المنورة ، وعزم الكفار ان يقتلوه غيلة قبل ان يهاجر إليها ، وانتخبوا من بينهم ثلاثين مقاتلاً مغامراً ، يهجمون على دار النبي (ص) ليلاً فيقتلونه ، وينتمي كل منهم إلى بطن من قريش فيضيع دمه بين قريش جميعاً . وجاء نبأ ذلك إلى النبي (ص) فرسم خطة مسيره إلى المدينة ، وذلك بان يتجه تحت جنح الظلام إلى غار ثور ، ثم يتخذ طريقاً منحرفاً عن الجادة إلى المدينة ، بيد أن الخطة كان يحوزها شيء واحد ، وهو ان هؤلاء الفتية من قريش إذا عرفوا خروج الرسول اول الليل ، فإنهم سوف ينتشرون حول مكة بحثاً عنه ، ولا محالة سوف يجدونه ، وإن وجدوه قتلوه ، فقرر الرسول (ص) ان يموّه عليهم بان ينام مكانه شخص ، ليخيّل إليهم انه النبي ، وسوف لايكتشفون الحقيقة إلاّ بعد أن يكون النبي مبتعداً عن مكة اميالاً او يستقر في غار ثور فعلاً .

ولكن من هو ذلك الذي يُقدم على الموت على الفراش ؟. وليس في ساحة الحرب ، حيث الثورة والهياج وحيث يُقاتِل فيَقتل ويُقتل ، بل الموت على الفراش لايدافع عن نفسه ، ولا تثور اعصابه ، ولا يقوم بحركة !

إن لهذه المهمة رجلاً واحداً فقط ، هو ابن ابي طالب !! إنه لا يتهيّب ابداً وَقَع الموت عليه ، او وقع هو على الموت .

وجاء إليه النبيُّ (ص) يعرض عليه امر الهجرة ، ويامره بالمهمة ، فإذا بعليٍّ (ع) وكانه قد بُشر بملك الدنيا ، يرحب بها بعد أن يطمئن إلى سلامة الرسول (ص) . وينجو الرسول من ايدي المتآمرين ، ويتقلب الإمام على فراشه ، وتلمع حول البيت سيوف تنتظر الفجر لتهجم على المستلقي على الفراش فتقطعه إرباً إرباً ، وعندما اقترب الصبح ، رمّوا حجراً إليه ، فلم يتحرك ، ثم رمّوا الثاني . وعندما رمّوا الثالث قام من مكانه ، فقال قائلهم من هذا ؟. إنه ابن ابي طالب ، يا عليّ ، اين محمد ؟ فاجال عليٌّ طرفه بينهم وقال ، وهل اودعتموني محمداً ؟.. فاراد بعضهم ان يفتك به ، ولكن منعه الآخرون ، وانجاه

الله من شرّهم .

وكان على الإمام (ع) مهمة كبيرة اخرى ، تلك مسؤولية حمل اهل بيت النبي (ص) وضعفاء المسلمين المتخلفين في مكة إلى المدينة . وكانت مهمة شاقة حيث إن أهل مكة حينما عرفوا بغياب النبي تميَّزوا غيضاً ، لما علموا بان تخلص النبي عن ايديهم سوف يكلّفهم كثيراً . فعزموا على ان يمنعوا بقية اصحابه عن الالتحاق به بكل وسيلة ، وراحوا يراقبونهم ، مراقبة شديدة ، الاّ يفلتوا من ايديهم ، وعلى راس هؤلاء اهل النبي (ص) وعياله .

وبعد مدة جمع علي (ع) امره ، وخرج – خفية – بالفواطم ، فاطمة بنت ( رسول الله ) ، وفاطمة بنت اسد ( والدة الإمام ) وفاطمة بنت الزبير ( عمته ) وبعض الضعفاء من المسلمين يريدون المدينة ، وكانوا قد ابتعدوا عن مكة اميالاً ، عندما علم اهل مكة بالامر ، فجهزوا سرية سريعة إلى الركب لإعادته قسراً إلى مكة ، وكانت السرية بقيادة جناح ، مولى حارث بن امية .

فجاءت حتى إذا بلغت الركب ، التفت إليهم علي (ع) فحمل عليه جناح بسيفه فاسرع علي (ع) واخذ السيف من يده ، وضربه ضربة فارداه قتيلاً ، واستسلم سائر الافراد لما راوا من شجاعة علي (ع) وقوة باسه ، فتركهم الإمام ، وحث راحلته إلى المدينة .

## غزوة بدر :

وحشدت قريش قواها ، لتحارب النبي (ص) الذي اخذ يكوِّن في مهجره مجتمعاً إسلاميًا يهدد الظالمين ، فإذا بها ترسل إلى المدينة الف مسلح شجاع ، وجنَّد النبي (ص) لها ما كان يملك من قوة عسكرية فالتقى الجمعان في منطقة ( بدر ) .

وفي يوم السابع عشر من شهر رمضان في السنة الاولى من الهجرة ، ابتدا الفريقان بالمبارزة . وكان من بينهم ثلاثة من الشجعان يدعون شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن ربيعة ، فبرزوا للحرب وطالبوا باقرانهم من قريش، فانهضَ رسول الله عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . وعليّاً (ع) فراح الإمام حتى قتل الوليد وشيبة ، وشارك في قتل الآخر .. وبذلك فقدت قريش اشجع ابطالها ، وبعد مبارزة اخرى قتل فيها علي (ع) حنظلة بن ابي سفيان ، والعاص بن سعيد بن العاص ورجالاً آخرين من شجعان مكة ، فانهزموا وانتصر المسلمون بإذن الله تعالى .

## غزوة أحد :

ورجع جيش مكة منهزماً وقد قتل شجعانه وابطاله . فاخذت سلطة الاشراف تستعد لشن حملة اخرى ، تغسل بها ما اصابها في بدر من عار وذلٍ ، وتبيد بها دعوة النبي (ص) ورسالته .

ويصف علي (ع) هذه الغزوة ، فيقول ، واقبل إلينا اهل مكة على بكرة ابيهم – قد استحاشوا ( اي حرضوا وجمعوا ) من يليهم من قبائل قريش ، طالبين بثار مشركي قريش في يوم بدر ، فهبط جبرائيل على النبي (ص) فانباه بذلك ، فذهب النبي (ص) وعسكر باصحابه في سد أُحد ، واقبل المشركون إلينا

فحملوا علينا حملة رجل واحد ، واستشهد من المسلمين من استشهد ، وكان ممن بقي ما كان من الهزيمة وبقيتُ مع رسول الله (ص) . ومضى المهاجرون والانصار إلى منازلهم من المدينة كلٌّ يقول قُتل النبي (ص) وقُتل اصحابه – ثم ضرب الله عزّ وجلّ وجوه المشركين ، وقد جرحت بين يدي رسول الله (ص) نيفاً وسبعين جرحة ، منها هذه وهذه ، ثم القى عليٌّ (ع) رداءه وامرّ بيده على جراحاته .

## غزوة الأحزاب :

ثم كانت الأحزاب ، حيث تجمعت قريش والأعراب لمحاربة الإسلام من جديد ويصف ذلك الإمام ويقول ، وعقدت بينها عقداً وميثاقاً ، لايرجع من وجهها حتى تقتل رسول الله ، وتقتلنا معه – معاشر بني عبد المطلب – ثم أقبلت بحدّها وحديدها ، حتى اناخت علينا بالمدينة ، واثقة بانفسها ، حينما توجهت له فهبط جبرائيل على النبي (ص) ، فانباه بذلك فخندّق على نفسه ومن معه من المهاجرين والأنصار ، فقدمت قريش فاقامت على الخندق محاصرةً لنا ، ترى في انفسها القوة وفينا الضعف ، ترعد وتبرق ، ورسول الله (ص) يدعوها إلى الله عزَّ وجلَّ ، ويناشدها بالقرابة والرحم ، فتابى ولا يزيدها ذلك إلاّ عتواً . وفارسها وفارس العرب يومئذ عمرو بن عبد ود يهدر كالبعير المغتلم ، يدعو إلى البراز ويرتجز ، ويخطر برمحه مرة وبسيفه مرة ، ولا يقدم عليه مُقدم ، ولا يطمع فيه طامع ، ولا حمية تهيجه ، ولا بصيرة تُشجعه ، فانهضني إليه رسول الله (ص) وعمّمني بيده ، واعطاني سيفه هذا ( وضرب بيده إلى ذي الفقار ) فخرجت إليه ، ونساء اهل المدينة بواكٍ إشفاقاً عليٍّ من ابن عبد ود ، فقتله الله عزَّ وجلَّ بيدي ، والعرب لاتعد لها فارساً غيره ، وضربني هذه الضربة – واوما بيده إلى هامته – فهزم الله قريشاً والعرب بذلك ، وبما كان مني من النكاية .

بل كانت تلك هي الضربة التي عدلها النبي (ص) بعبادة الثقلين ، فرجعت وقال ،

" ضربة عليٍّ يوم الخندق تَعْدِلُ عبادة الثقلين " [١٠]

ومضى أصحاب الرسول (ص) يمجّدون تلك الضربة التي انقذت المسلمين من اخطر هجوم عسكري قام به كلُّ مستكبري قريش والقبائل المشركة ، بالتعاون مع اليهود والمنافقين .

يروي الشيخ المفيد في إرشاده ، عن قيس بن الربيع عن أبي هارون السعدي ، انه قال ، اتيت حذيفة اليمان فقلت له ، يا ابا عبد الله ، إنا نتحدث عن عليٍّ ومناقبه ، فيقول لنا اهل البصرة ، إنكم تفرطون في علي ، فهل انت محدثي بحديث فيه ؟

فقال حذيفة يا ابا هارون ، وما تسالني عن علي ؟ فوالذي نفسي بيده لو وُضعت جميع اعمال اصحاب محمد في كفة الميزان ، منذ بعث محمد (ص) الى يوم القيامة ، و وُضع عمل علي في الكفة الأخرى ، لَرجح عمل علي على جميع أعمالهم . فقال ، هذا الذي لايقام له ولا يُقعد ولا يُحمل ، فقال حذيفة ، يا

(١٠) حديث مجمع عليه بين المسلمين .

لكع !. وكيف لا يُحمل ، واين كان فلان وفلان ، وجميع أصحاب محمد (ص) يوم عمرو بن عبد ود العامري ، وقد دعا إلى البراز ، فاحجم الناس كلهم ما خلا علياً فإنه برز إليه وقتله الله على يده ؟ والذي نفسي بيده ، لَعَمَلُه ذاك اعظم اجراً من اعمال اصحاب محمد إلى يوم القيامة[11] .

وبعد وقعة الخندق ، سار النبي إلى مكة ، وكان يحب ان يدخل مكة معتمراً ، ومعه عدد كبير من المسلمين .

فاعطى اللواء لعلي عليه السلام ، فلما وصل مشارف مكة منعته قريش منها ، واجتمع اصحاب الرسول تحت شجرة هناك وبايعوه على الموت بما سمي بعدئذ ببيعة الرضوان ، وقال بعض المفسرين : نزلت الآية الكريمة فيها :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ( الفتح / ١٨ )

فلما رات قريش مدى استعداد المسلمين للقتال طلبوا الصلح ، والهدنة ، وكان من بين بنود الصلح التي اصرت قريش عليه ورفضه النبي صلى الله عليه وآله انهم قالوا :

يا محمد !. خرج إليك ناس من ابنائنا وإخواننا وارقّائنا ، وليس لهم فقه في الدين ، وإنما خرجوا فراراً من اموالنا وضياعنا فردُوهم إلينا .

فقال : " إذا لم يكن لهم فقه في الدين — كما يزعمون — سنفقّههم فيه " .

ثم أضاف : " يا معشر قريش لَتنتهنّ أو لَيبعثنّ الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف قد امتحن الله قلبه بالإيمان " .

فقالوا : من هو ذلك الرجل يا رسول الله ؟

فقال : " هو خاصف النعل " .

وكان قد أعطى نعله لعليّ يخصفها له[12] .

هكذا نعرف مدى خشية قريش ، وسائر المشركين من باس الإمام (ع) ، وانه كان سيف الله الذي لاينبو ، وسهم الإسلام الذي لا يُخطئ ، يبعثه النبي (ص) متى احس بالخطر على الدِّين ، ويُنذر به الأعداء متى ما تمادوا في الغي .

## كيف اقتحم الإمام (ع) حصون خيبر ؟

كان اليهود يشكّلون خطراً كبيراً في الجزيرة العربية ، وكانوا يتحصنون بمواقع جيدة ، ربما تشبه مستعمراتهم اليوم في ارض فلسطين . وكانوا قد نقضوا عهدهم مع الرسول ، وشاركوا في حرب

---

(١١) سيرة الأئمة : ص ٢٢٩ .

(١٢) سيرة الأئمة الاثنى عشر ص ٢٣٦ عن مجموعة النسائي في خصائصه . والحاكم في مستدركه وطائفة من العلماء .

المشركين في الأحزاب ضد المسلمين ، فلما استراح المسلمون من شر قريش ، بسبب صلح الحديبية السابق ، انعطف النبي (ص) باصحابه على اعظم قلاعهم في خيبر وحاصرها . وكان النبي (ص) يبعث كل يوم قائداً من المسلمين لاقتحامها فيعود خائباً . ويروي ابن إسحاق ان النبي (ص) بعث ابا بكر ثم عمر ، فما فتح الله على ايديهما شيئاً . وبعث غيرهما فعادوا جميعاً خائبين ، فقال كلمته المعروفة :

" والله لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله " .

فتمنى كلٌّ أن يكون هو ؛. لعلمهم بان علياً ارمد العينين ، ولكنه حين اصبح نادى اين علي ؟ فلما جيء به معصَّب العين من شدة الألم ، مسح عليها فازال الله مرضها واندفع الإمام يحمل راية النصر ، واشتبك مع طلائع اليهود ، وقتل بطلهم المعروف ( مرحباً ) بضربة صاعقة قدَّت مغفرته ، ووصلت إلى اضراسه ، فولّى اليهود منهزمين إلى حصونهم التي اقتحمها الإمام (ع) وقلع باب خيبر العظيم وتترَّس به ، وكانت تلك من آيات النصر الإلهي التي تجلت على يد امير المؤمنين علي (ع) .

وبعد عودة المسلمين إلى المدينة ، ونقض قريش لمعاهداتهم في صلح الحديبية الذي كتب الإمام بُنودَه ، استعدَّ الرسول (ص) لفتح مكة . وكان يريدها مفاجاة ، إلاّ ان بعض ضعفاء النفوس تجسس لقريش مجاناً ، فكتب رسالة إليهم ينبأهم بخبر التعبئة ، وسلّمها لزوجته وسارت بها إلى مكة ، وانبأ جبرائيل النبي (ص) بذلك فسيَّر إليها علياً والزبير .

فلما اوقفاها ، انكرت وعاد الزبير ادراجه ، إلاّ ان الإمام امتشط سيفه ، وانكر على الزبير رقته لها ، وقال : إن رسول الله يخبرنا بانها تحمل كتاباً إلى اهل مكة ، وتقول انت بانها لاتحمل شيئا ؟. ثم قال للمراة : والله إن لم تخرجي الكتاب لاكشفنك . فاخرجت له الكتاب من عقيصتها .

وهكذا حافظ الإمام – بامر من الرسول – على سرِّية الحركة ، وسار الجيش البالغ اثنا عشر الف مقاتل ، واعطى الرسول الراية لعلي (ع) الذي دخل مكة وهو يقول : اليوم يوم المرحمة ، إيذاناً بالعفو العام الذي اصدره النبي (ص) بعدئذ ، وقال لهم اذهبوا فانتم الطلقاء .

وحطم الأصنام التي على الكعبة ، حيث حمل النبي (ص) الإمام وامره بان يحطم اصنام قريش ، ففعل (ع) .

## ويوم حنين :

لقد تم فتح مكة بيسر لم يحلم به المسلمون ، ودب إلى قلوبهم الغرور ، ولكنهم لم يهنئوا به طويلاً إذ استقبلهم خطر عظيم فها هي هوازن وثقيف وحلفاؤهم المشركون ، يُعَبِّئُون كل طاقاتهم للهجوم على المسلمين ، فيجهزون جيشاً يبلغ ثلاثة اضعاف جيش الإسلام . وحين بادرهم الرسول (ص) بالخروج إليهم استفادوا من خبرتهم بارضهم ، فكمنوا له في مضيق جبلي لابدَّ من مرور جيش الإسلام به في وادي حنين ، وهي من اودية منطقة تهامة ، ويصف المعركة بعض مشاهديها قائلا :

فما راعنا – ونحن نسير إلى القوم لناخذهم على غرة قبل ان ياخذوا حذرهم – ، إلاّ وكتائب هوازن ومن

معهم من العرب قد شدّوا على المسلمين شدّة رجل واحد من كل جانب ، فامعنو فينا ضرباً وطعناً ، واختلط الناس بعضهم ، فاستولى الخوف على المسلمين ودب فيهم الذعر ، فانهزموا عن النبيٍّ (ص) لا يلوون على شيء ، وثبت رسول الله (ص) في مكانه ، ومعه علي والعباس بن عبد المطلب وابو سفيان بن الحارث ، واسامة بن زيد [١٣] .

وثبت الرسول وحوله الفتية من بني هاشم يتقدمهم علي بن ابي طالب (ع) الذي اخذ يكشف الكرب عن وجه رسول الله ، ويضرب بالسيف يمنةً ويسرةً ، فلم يقترب إلى الرسول احد إلاّ وضربه بسيفه . ونادى العباس عم النبي برفيع صوته وبامر الرسول ، يا اهل بيعة الشجرة ، يا اهل بيعة الرضوان ، إلى اين تفرّون عن الله ورسوله ، فعادت طائفة منهم بلغت زهاء مائة فبرز " جرول " حامل راية هوازن فتحاماه الناس لصولاته الشديدة ، فبرز إليه علي (ع) وقتله فدب الذعر في نفوس القوم ، وقتل الإمام منهم اربعين بطلاً وعاد المسلمون إلى المعركة ، والتحم الجيشان ، واخذ النبي (ص) حفنة من التراب واعطاها للإمام فالقاها في وجه المشركين وهو يقول ، شاهت الوجوه ، وخلال ساعات دارت المعركة على الكفار وتركوا ارض المعركة ، وفيها نساؤهم واطفالهم واموالهم ، وحمل الإمام علي (ع) وسام النصر كعادته في كل الحروب .

## وحين استخلفه الرسول على المدينة :

وعاد الرسول إلى المدينة ، فانتهى إليه ، في العام التاسع من الهجرة ، خبر مفاده ان الروم يُعِدُّون جيشاً لغزو البلاد الإسلامية . فعبا قواته لمواجهتهم ، وكان ذلك اول مواجهة — لو تمت — بين المسلمين والكفار خارج الجزيرة ، وبالذات مع الامبراطورية الرومانية العظيمة ، وكان من الحكمة ان يرتب الرسول امور بلاد العرب بصورة تامة حتى إذا لم تقدّر له العودة ، تكون البلاد الإسلامية بايد امينة ، تامن شر الإعتداءات الخارجية والمؤامرات الداخلية التي كانت قد اضحت في تلك الفترة متنامية بسبب دخول مجاميع من الناس في الإسلام ليحفظوا دماءهم ويحصلوا على مغانم ومكاسب .

وهكذا استخلف النبي علياً مكانه ، إلاّ ان المنافقين الذين كانوا ينتظرون فرصة كهذه ، ليقفزوا إلى السلطة او ليعيثوا فساداً في ارض الجزيرة ، راحوا يبثون شائعات بان النبيٍّ (ص) إنما استخلف علياً لانه لم يحب ان يكون معه ، فحمل الإمام سيفه وسلاحه ولحق بالرسول في منطقة " الجرف " فاخبره بمقالة المنافقين ، فقال له النبي (ص) ،

" إنما خلفتك لما ورائي ، إن المدينة لاتصلح إلاّ بي او بك . فانت خليفتي في اهل بيتي ، ودار هجرتي وقومي ، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبيٍّ بعدي " .

ولعل وراء استخلاف النبي (ص) للإمام (ع) وتسليمه شؤون البلاد الإسلامية اثناء غيابه عنها ، حكمة

---

(١٣) المصدر : ص ٢٥٣ .

بالغة ، إذ ان علياً وصيُّه الذي اختاره الله له واعلن ذلك للناس منذ " يوم الدار " حين انذر عشيرته الأقربين ، فلابد إذن من تمهيد الظروف لذلك . ويوحي بهذه الحكمة ما نجده في مسند أحمد من قوله (ص) بعدئذ حسب هذا المصدر .

" لا ينبغي أن اذهب إلاّ وانت خليفتي " [14] .

ويا ليت شعري ، كيف لايترك الرسول المدينة إلاّ وعلي خليفته ، ثم يترك الدنيا دون أن يستخلف علياً (ع) ؟.

## الغارة التي خلدها الكتاب :

ادعنت الجزيرة العربية لحكم الله ، بعد فتح مكة ومعركة حنين ، إلاّ ان الأعراب الذين كان دابهم الغزو ، تجمّعوا في منطقة قريبة من المدينة وارادوا الإغارة عليها على حين غفلة من اهلها . فلما انتهى خبرهم إلى الرسول ، ندب لهم ابا بكر ثم عمراً ثم عمرو بن العاص ، ولكنهم كانوا يؤثرون الإنسحاب بسبب تحصن الأعراب بواد هناك يسمى وادي الرمل ، كان صعب المسالك كثير الأحجار ، وكان موقع المدافعين الحصين سبباً لكثرة إصابات المسلمين .

وكعادة الرسول في الإستعانة بعلي (ع) عند الشدائد ، ارسله وضم إليه القيادات السابقة ، فمضى إليهم الإمام يكمن بالنهار ويسير بالليل ، فلما اقترب منهم وحاصر مواقعهم في الليل ، انقض عليهم اول الفجر ، وامعن فيهم قتلاً واسراً حتى استسلموا .

وذات صباح صلّى الرسول بالمسلمين صلاة الغداة وقرا عليهم فيها سورة لم يسمعوها من قبل ،

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ (العاديات/١-٥)

فلما سالوه عنها قال ،

" إن علياً ظفر باعداء الله ، وبشرني جبرائيل في هذه الليلة " [15] .

وحين عاد الإمام (ع) استقبله النبيّ (ص) والمسلمون معه ، فترجّل الإمام عن فرسه احتراماً للرسول فقال له النبي اركب فإن الله ورسوله عنك راضيان . واضاف ،

" لولا اني اشفق أن تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في المسيح ، لقلت فيك مقالة لا تمر على ملأ من الناس إلاّ اخذوا التراب من تحت قدميك " [16] .

وهكذا كان الإمام (ع) سيف الإسلام الذي لا ينبو ، يوجهه الرسول (ص) حيث يُحدق الخطر بالرسالة ، وقد بعثه مرتين إلى اليمن — حسب الأخبار — حيث اسلمت على يديه قبائلها ، وبالذات قبائل همدان .

---

(١٤) المصدر : ص ٢٥٩ نقلا عن فضائل الخمسة : ص ٢٢٩ .

(١٥) المصدر : ص ٢٦٣ - ٢٦٤ نقلاً عن مجمع البيان عن الإمام الصادق (ع) .

(١٦) المصدر : ص ٢٦٢ .

## بيعة غدير خم :

وفي السنة العاشرة بعد الهجرة – حين عزم النبي (ص) على المسير إلى مكة واداء الحج الأخير الذي سمي " بحجة الوداع " – كان الإمام (ع) في اليمن او نجران . فكتب إليه الرسول (ص) بان يوافيه مكة حاجاً ، وقد أوحي إلى النبي (ص) انه راحل عن امته .

فلما قفلوا عن مكة راجعين ، اوقف الرسول الركب بمنطقة تسمى " بغدير خم " حيث نزلت عليه الآية الكريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة/٦٧) .

فقام في الناس خطيباً وقال في مستهل حديثه : " أيها الناس يوشك أن أُدعى فأُجيب " .

واضاف : " إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي اهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فإنهما لن يفترقا حتى يَردا عليَّ الحوض " .

ثم قال بعد أن اخذ بيد علي ورفعها :

" الست اولى بالمؤمنين من انفسهم " ؟

قالوا : بلى يا رسول الله ، فقال :

" من كنت مولاه فعليٌّ مولاه . اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه " .

ثم افرد النبي لعلي خيمة وامر المسلمين ان يدخلوا عليه فوجاً فوجاً ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين ، ففعل ذلك كلهم حتى من كان معه من ازواجه ونساء المسلمين .

فانزل الله تعالى على رسوله ما يعتبر إعلاناً عن خاتمة الوحي :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣) .

وانتشرت في الآفاق انباء استخلاف النبي لوصيه الإمام علي ، ولكن النبي (ص) الذي كان اخبر قائد بالناس من حوله ، كان يعلم ان الكثير من التمهيد يحتاج إليه المسلمون ، خصوصاً وقد تكاثر عدد الوصوليين بينهم بعد فتح مكة ، وان الكثيرين منهم يطالبون علياً باوتار الجاهلية ، فلا يقبلون بولاية الإمام (ع) بسهولة .

كما احيط علماً بالمؤامرات التي كانت تجري في البلاد للسيطرة على الحكم من بعده ، وكانت "قريش" التي دخلت – الآن – في الإسلام تتخذ منه اداة جديدة لسلطتهم على الجزيرة العربية ، كانت مركز هذه المؤامرة . ومن هنا لم يدع الرسول (ص) مناسبة إلاّ واعلن فيها عن ان وصيه الذي اختاره الله للولاية من بعده إنما هو الإمام علي (ع) ، لتبقى الأقلية المؤمنة وفية بعدها مع الله والرسول ، وملتفّة حول قيادة الإمام (ع) وتحافظ على الخط السليم للامة ، وتكون ميزاناً للحق والباطل ، ومقياساً سليماً لمتغيرات الحوادث .

من هنا نجد النبي (ص) يسعى حتى آخر لحظة من حياته في هذا السبيل ، فقد جاء في رواية البخاري – من كتاب المرض والطب – أنه اجتمع عند رسول الله رجال فيهم ، عمر بن الخطاب ، فقال لهم النبي (ص) هلموا اكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده ابداً . فقال عمر بن الخطاب : " إن النبي غلبه الوجع ، وعندنا القرآن ، حسبنا كتاب الله " فاختلف الحاضرون واختصموا فامرهم النبي بالإنصراف [17] .

وفي بعض روايات البخاري قال بعضهم ما شانه اهجَرَ ؟! استفهموه فذهبوا يرددون عليه فقال : دعوني ، فالذي انا فيه خير مما تدعوني إليه ، واوصاهم بثلاث : إخراج المشركين من جزيرة العرب ، وأن يجيزوا الوفود بمثل ما كان يجيزهم ، وسكت الراوي عن الثالثة أو قال : إني نسيتها [18] .

وواضح ان المسلمين لم يكونوا ليسوا وصية نبيِّهم الأخيرة ، إلاّ انها كانت متعلقة بالوضع السياسي بعد النبي مما يستدعي تناسيه رغباً او رَهَباً .

والواقع أن الخليفة الثاني برَّر ذات مرة اتهامه للنبي ( بانه قد غلبه الوجع ) بانه لم يكن يرى مصلحة في استخلاف النبي للإمام علي .. فقد جاء في شرح ابن ابي الحديد : روى احمد بن ابي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد مسنداً عن ابن عباس قال : دخلت على عمر في اول خلافته وقد أُلقي له صاع من تمر على خصفة ، فدعاني إلى الأكل فاكلت تمرة واحدة ، واقبل ياكل حتى اتى عليه ، ثم شرب من جرٍّ كان عنده واستلقى على مرفقة له وطفق يحمد الله يكرر ذلك ، ثم قال : من اين جئت يا عبد الله ؟ قلت : من المسجد . قال : كيف خلفت ابن عمك – فظننته يعني عبد الله بن جعفر – قلت : خلفته يلعب مع اترابه . قال : لم اعْنِ ذلك ، إنما عنيت عظيمكم اهل البيت ، قلت : خلفته يمتح بالغُرُب على نخيلات من فلان وهو يقرا القرآن . قال : يا عبد الله عليَّ دماء البدن إنْ كتمتنيها ، هل بقي في نفسه شيء من امر الخلافة ؟. قلت : نعم . قال : أيزعم أن رسول الله نص عليه ؟. قلت : نعم ، وازيدك اني سالت ابي عمَّا يدَّعيه فقال : صدق . فقال عمر : لقد كان من رسول الله في امره ذروٌ من قول لا يُثبت به حجة ولا يقطع عذراً ، ولقد كان يرجع في امره وقتاً ما ، ولقد اراد في مرضه ان يصرح باسمه فمنعتُ من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام . لا ورب هذه البنيَّة لاتجتمع عليه قريش ابداً ، ولو وَلِيَها لانتقضتْ عليه العرب من اقطارها . فعلم رسول الله اني علمت ما في نفسه فامسك وابى الله إلاّ إمضاء ما حتم [19] .

---

(17) المصدر : ص ٢٧٦ .

(18 )المصدر : ص ٢٧٧ .

(19) راجع كتاب " قضاء أمير المؤمنين " : ص ٣٢٠ .

## الفصل الثالث

# الإمـام علـي (ع) يواجه المحنـة

لوصى النبيُّ (ص) الإمام (ع) بانه سيعاني من امته الكثير ، وبانهم لا يمتثلون أوامره فيه وفي سائر اهل بيته ، فعليه أن يتسلح بالصبر . ثم التَحق النبيُّ (ص) بالرفيق الأعلى ، وفاضت نفسه وراسه الشريف على صدر الإمام (ع) .

واشتغل الإمام بمراسم الغسل والتكفين والدفن ، كما يقول (ع) :

" ولقد قبض سول الله (ص) ، وإن راسه لَعَلَى صدري ، ولقد سالَتْ نفسُه في كفي ، فامررتهُا على وجهي ، ولقد وَليتُ غسله (ص) والملائكة اعواني ، فضجَّت الدار والأفنية ، ملأٌ يهبط وملأٌ يعرج ، وما فارقت سمعي هينمةٌ منهم ، يصلُّون عليه حتى واريناه في ضريحه ، فمن ذا احق به مني حيّاً وميتاً "[20] .

إلاّ أن هناك مَن كان يفكر في كيفية الإنقلاب . ويبدو أن ثلاثة خطوط ارتسمت على الخارطة السياسية بعد وفاة النبي (ص) مباشرة هي :

اولا : خط الإمام علي (ع) ومعه جمهور الأنصار وثلة من المهاجرين .

ثانياً : جناح سائر المهاجرين ، وثلة من الأنصار خصوصاً من قبيلة الخزرج .

ثالثاً : حزب الأمويين بقيادة ابي سفيان .

وبالرغم من أن الخط الثالث ، كان منبوذا ، ولاتزال ذكريات بدر وأُحد حيةً في نفوس المسلمين ، وبالتالي لم يكن لرموز هذا الخط الجراة بان تطرح نفسها كسلطة سياسية ، إلاّ أن انتشار شبكتها في الجزيرة وتراكم التجربة القيادية لديها ، وامتلاكها لكثير من الرجال الأشداء ، والأموال الطائلة ، كل ذلك كان يجعلها الغائب الشاهد في كل قرار سياسي للأمة ، حيث كانت أكبر قوة ضاغطة من وراء الأحداث ..

ويبدو للباحث في التاريخ أن اية قوة سياسية كانت تتحالف مع خط ابي سفيان ، كان بامكانها اخذ ازمَّة الأمور بيديها . وإن ابا سفيان حاول في البدء التحالف مع الإمام علي (ع) فرفضه ، فتحالف مع بعض عناصر الخط الثاني الذي كان يعتبر معتدلاً تجاهه ، إذا قيس بتصلب الإمام علي (ع) ومدى شدته في ذات الله .

فلقد جاء في بعض النصوص التاريخية ، أن ابا سفيان مشى إلى الإمام (ع) بعد وفاة الرسول ، فحثّه

---

(٢٠) نهج البلاغة - شرح د . صبحي الصالح : ص ٣١١ .

على المطالبة بحقه ، ووَعَده بان يملاها خيلاً ورجالاً . فابى (ع) ذلك بقوة ، والقى خطاباً هامّاً رغّب الناس في الآخرة وزهّدهم في الدنيا ، جاء في اوله :

" أيها الناس : شُقّوا أمواج الفتن بسُفن النجاة ، وعرِّجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة . افلح من نهض بجناح ، أو استسلم فاراح . هذا ( الدنيا او الملك ) ماء آجن ، ولقمة يغصُّ بها آكلها ، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها ، كالزارع بغير ارض ، فإن اقل يقولوا حرص على الملك ، وإن اسكت يقولوا جزع من الموت " [٢١] .

وهكذا غلب الخط الثاني والذي اتّفقت قياداته على بيعة الخليفة الأول على السلطة ، وكانت قيادات الجيش متفقة مع هذا الخط في الأغلب . وباستطاعتنا ان نفسر سيطرة هذا الخط بانه سيطرة للخط العسكري . فبالرغم من أن الإمام عليّاً كان ابرز القيادات العسكرية في ذلك اليوم ، حيث حمل راية الإسلام في أكثر المعارك ، إلاّ ان اغلب انصاره كانوا من المحرومين والمستضعفين كالأنصار .

وهكذا يمكننا ان نفسر تسيير النبي (ص) لجيش اسامة إلى خارج العاصمة — بل خارج الجزيرة العربية — وقد ضم إليه كبار الأصحاب فيما بينهم انصار وقيادات الخط الثاني ، إلاّ انهم لم ينفّذوا جيش اسامة ، وتخلفوا عنه ، سواء عن سابق إصرار ومعرفة بالهدف من بعثهم فيه ، او لاشفاقهم على حالة الرسول كما زعموا .

وقد قال الرسول (ص) :

" نفّذوا جيش اسامة ، لعن الله مَن تخلّف عن جيش اسامة " .

وقد جاء تفاصيل ذلك في نص صريح ماثور عن الإمام امير المؤمنين (ع) جاء فيه :

" ثم امر رسول الله بتوجيهه الجيش الذي وجّهه مع اسامة بن زيد عندما احدث الله به المرض الذي توفاه فيه . فلم يَدع النبيُّ (ص) احداً من ابناء العرب ولا من الأوس والخزرج وغيرهم من سائر الناس ممن يخاف على نقضه ومنازعته ، ولا احداً ممن يراني بعين البغضاء ممن قد وترته بقتل ابيه او اخيه او حميمه إلاّ وجّهه في ذلك الجيش ، ولا من المهاجرين والانصار والمسلمين وغيرهم والمؤلفة قلوبهم والمنافقين ، لتصفو قلوب من يبقى معي بحضرته ، ولئلا يقول قائل شيئاً مما اكرهه ، ولا يدفعني دافع عن الولاية والقيام بامر رعيته من بعده . ثم كان آخر ما تكلم به في شيء من امر امته ان يمضي جيش اسامة ولا يتخلف عنه أحد ممن انهض معه ، وتقدم في ذلك اشد التقدم ، واوعز فيه ابلغ الإيعاز ، واكد فيه اكثر التاكيد .

فلم اشعر بعد ان قبض النبي (ص) إلا برجالٍ من بَعْثِ اسامة بن زيد واهل عسكره قد تركوا مراكزهم ، واخلّوا بمواضعهم ، وخالفوا امر رسول الله (ص) فيما انهضهم له وامرهم به ، وتقدم اليهم من ملازمة

---

(٢١) نهج البلاغة الخطبة (٥) .

أميرهم ، والسير معه تحت لوائه حتى ينفذ لوجهه الذي انفذه إليه ، فخلفوا أميرهم مقيماً في عسكره ، وأقبلوا يتبادرون على الخيل ركضاً إلى حل عقدة عقدها الله عزَّ وجلَّ ورسوله لي في اعناقهم ، فحلّوها ، وعهد عاهدوا الله ورسوله فنكثوه ، وعقدوا لأنفسهم عقداً ضجَّت به اصواتهم ، واختصت به آراؤهم ، من غير مناظرة لأحد من بني عبد المطلب ، او مشاركة في رأي ، أو استقالة لما في اعناقهم من بيعتي .

فعلوا ذلك ، وانا برسول الله مشغول ، وبتجهيزه عن سائر الأشياء مصدود ، فإنه كان اهمها وأحق ما بدئ به منها ، فكان هذا يا اخا اليهود اقرح ما ورد على قلبي مع الذي انا فيه من عظيم الرزية ، وفاجع المصيبة ، وفقدِ من لا خلف منه إلاّ الله تبارك وتعالى ، فصبرت عليها إذ أتت بعد اختها على تقاربُها ، وسرعة اتّصالها .

ثم التفت (ع) إلى اصحابه فقال : أليس كذلك ؟. قالوا : بلى يا امير المؤمنين عليك السلام [22] .

## كيف طالب الإمام (ع) بحقه :

ولم يشأ الإمام علي (ع) أن يحمل السيف ، ويأخذ حقه بقوة السلاح لأمرين — كما يبدو للباحث في تاريخه — وهما :

اولاً : لأنه لم يجد تجاوباً كافياً لدى المؤيدين له ، مما كان يجعل مطالبته نوعا من المغامرة .

ثانيا : خشيته على الإسلام ان يرتد عنه اولئك الذين لمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم .

ولقد اشار (ع) إلى هذين الأمرين في اكثر من مناسبة ، نذكر منها قوله — في حديث مفصل يأتي إن شاء الله — : فقلت يا رسول الله فما تعهد إليَّ إذا كان ( ذلك ) ؟ فقال :

" إن وجدت اعواناً فبادر إليهم وجاهدهم ، وإن لم تجد أعواناً كُفَّ يدك ، واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً " [23] .

وقال — وهو يوضح موقفه من السلطة عموماً بعد بيعة عثمان — :

" لقد علمتم : اني احق الناس بها من غيري ، ووالله لأسَلِّمَنَّ ما سلمتْ امورُ المسلمين ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصة ، التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه " [24] .

ولقد طالب الإمام (ع) بحقه ومشى إلى المهاجرين والانصار ، وحرّضهم على الدفاع عنه ، وانهض كبار شيعته وأهل بيته لإعلان حقه ، مما جعل الناس يعرفون بخطأ مبادرتهم للبيعة ، بل جعل الخليفة الثاني يقول : إن بيعة ابي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرَّها ، فمن عاد إليها فاضربوا عنقه .

إن البعض يحاول ان يوهمنا ان انتقال السلطة إلى الخليفة الأول تَمَّ بهدوء ، من اجل ان يضفي على عهده صبغة القداسة والعصمة عن الخطأ . ولعل منشأ هذا الرأي الحمية للإسلام ، بما يخالف واقعيات

---

(٢٢) موسوعة بحار الأنوار : ج ٢٨ ، ص ٢٠٧ .

(٢٣) موسوعة بحار الانوار : ج ٢٨ ، ص ١٩١ .

(٢٤) المصدر : ص ١٠٢ .

التاريخ .

والواقع أن خلط الدين بالتراث ، ومحاولة تقديس الماضي بإيجابياته وسلبياته هو المسؤول عن مثل هذه النظرة الساذجة .

إن عشرات النصوص الدينية والتاريخية ، التي لايرقى إليها أدنى شك ، تؤكد أن مَن كان حول الرسول لم يكونوا إلاّ بشراً ، فيهم الصالحون ، وفيهم الكثير من المنافقين والفاسقين ، وكان فيهم من قال عنه الإمام (ع) :

" لقد رأيت أصحاب محمد (ص) فما أرى أحداً يشبههم منكم !. لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، وقد باتوا سُجَّداً وقياماً ، يراوحون بين جباههم وخدودهم ، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم " [٢٥] .

كما كان فيهم من عشق السلطة ، وسعى إليها على تلال من جثث القتلى دون أي وازع من دين أو ضمير ، وكان فيهم مَنْ أكثر من الكذب حتى حذّر الرسول (ص) من ذلك قائلاً :

" ستكثر من بعدي القالة ، فمن كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار " .

وكان فيهم من قال عنه الله سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران/١٤٤)

وقال عز من قائل أيضاً :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة/١٠١)

وقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ ﴾ (التوبة/٢٥)

وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة/٥٤)

وقد نقل المحدِّثون جميعاً عن الرسول (ص) كثيراً من النصوص التي تؤكد أن بعض أصحابه ينحرفون من بعده .. إذن كيف يمكن تصور القداسة فيهم ، وأنهم سلَّموا السُّلطة إلى أهلها من دون صراع ، علماً بأن الروايات التاريخية الصحيحة شهدتْ بوجود هذا الصراع على أشده ، منذ يوم السقيفة ،

---

(٢٥) نهج البلاغة : ص ١٤٣ .

ثم ولم يلبث ان اصطبغ الصراع بلون الدم في حادثة مالك بن نويرة ، الذي ابى إعطاء الزكاة للخليفة الأول ، فبعث إليه قائداً عربياً عريقاً في الجاهلية ممن انضمَّ إلى الرسالة بعد الفتح ، واضحى سيفاً مسلولاً بيد الدولة ، وهو خالد بن الوليد ، الذي فتك بمالك وانتهك عرضه وافتعل بزوجته ليلة قتله وجعله عبرة لكل القبائل التي ربما فكرت بالتمرد على السلطة الجديدة .. ثم باركت عملَه هذه السلطة الجديدة ؟..

واستمرت سلسلة الصراعات حتى انتهت بالحروب الداخلية التي جرت في عهد الإمام امير المؤمنين (ع) ، فلولا وجود خلفيات لهذه الصراعات لم تكن لتظهر بتلك الصورة الدموية .

بيد ان الباحث يقتنع من خلال عشرات الشواهد التاريخية ان الإمام علياً (ع) لم يكن يرغب في تحويل الصراع إلى تنافس سياسي على السلطة ، ولا يرضى بتصعيده إلى حرب دامية ، ولا حتى باعتزال الساحة السياسية ، بل كان يشارك الخلفاء في كافة الشؤون ، ويلي امورهم ويحل معضلاتهم .

و من جهة ثانية ، كان الخلفاء يذعنون لفضل الإمام (ع) ، ويعملون بنصائحه وقضائه ويشيدون به في اكثر من مناسبة .. فلقد شاع قول الخليفة الأول .. اقيلوني فلست بخيركم وعليٌّ فيكم .

وتواتر الحديث عن الخليفة الثاني ، " لولا عليٌّ لَهلك عُمَر " .

حيث قالها في أكثر من مائة مناسبة . وقال ايضاً ، " معضلة ليس لها ابو الحسن " .

وإنما قالها عمر لمزيد من المشاكل التي حلها الإمام (ع) واراح منها المسلمين .

وقد ثبت تاريخياً ، ان اصحاب الإمام (ع) قد تولوا كثيراً من المناصب الإدارية والعسكرية للدولة ، فسلمان تولى ولاية فارس في المدائن ، وهو من اقرب انصار الإمام (ع) واشدهم إخلاصاً له . والإمام الحسن المجتبى (ع) شارك في جيش الإسلام الذي فتح الله على يديه بلاد الفرس ، كما ان الإمام نفسه استخلفه الخليفة الثاني عند ذهابه إلى فلسطين .

ونستوحي من حديث مأثور عن الإمام الصادق (ع) أن الحكم في عهد الخليفة الأول والثاني كان يشبه حكماً ائتلافياً بين الأجنحة المختلفة ، بينما استبد جناح بني امية بالحكم في عهد الخليفة الثالث ، وخلص الحكم — بعد الإنتفاضة وقتل الخليفة — للجناح الأول الذي كان يقوده الإمام علي ، وأولي البصائر من المهاجرين والأنصار ، ولذلك ثارت ثائرة اصحاب عُثمان وتمرد الأمويون ومَن اتّبعهم على حكم الإمام علي (ع) .

## سيدة النساء النصيرة الأولى للإمام عليه السلام :

هكذا أُفرزت الأجنحة السياسية بوفاة الرسول (ص) ، وحُددت ملامح المعارضة الرسالية التي طالبت بعودة الإمام عليٍّ إلى الحكم لانه الأفضل ، ولان الرسول الذي لاينطق عن الهوى قد امر بذلك وشدد امره باخذ العهود والمواثيق .

وكانت بنت رسول الله — فاطمة الزهراء عليها السلام — اشد المدافعين عن الإمام (ع) واقواهم ، وبالرغم من انها لم تعش بعد والدها طويلاً ، لانها صُفّيت ، وكانت اول من يلتحق بابيها ، إلا ان

معارضتهـا الشجاعة فتحت أبواب المعارضة امام انصار الإمام (ع) واعطتهم المنهج وشحنت إرادتهم بالعزم ، خصوصاً بعد استشهادها ووصيتها بان يُخْفَى محلُّ دفنها ، ولا يحضر جنازتها مَنْ ظَلَمها ..

ولقد اصبحت شهادة فاطمة (ع) راية ظلامة حارب تحت ظلها كل المحرومين عبر التاريخ ..

وإن غيابها المبكر وبتلك الصورة الفجيعة ، جدد أحزان المسلمين بفقد الحبيب محمد (ص) ، واثار في القلوب المجروحة بمصيبة الرسول زوبعة من العواطف الصادقة التي تحولت مع الزمن إلى قوة تحد لاتقهر ..

لقد حفرت كلماتها المضيئة في افئدة الناس انهراً من الحماس والتحدي الرسالي . فقد قالت لنساء الأنصار حين زرنها في مرض موتها وقلن لها : كيف اصبحت يا بنت رسول الله ؟ قالت لهنَّ فيما قالت : لقد زحزحوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة ، ومهبط الروح الأمين ، والطبين بامر الدنيا والدين ، ألاَ ذلك هو الخسران المبين ، ومضت قائلة :

" وما الذي نقموا من ابي الحسن ، نقموا منه – والله – نكير سيفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمُّره في ذات الله " .

ثم قالت : " استبدلوا والله الذُنابي بالقوادم ، والعجز بالكاهل ، فرغماً لِمَعاطس قوم يحسبون انهم يحسنون صُنعاً ، الاَ إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون .

ويحهم ، افمن يَهدي إلى الحق احقُّ أن يُتَّبع امَّن لايَهِدِّي إلا ان يُهْدَى فمالكم كيف تحكمون " [٢٦] .

## أصحاب النبي (ص) يدافعون عن الإمام (ع) :

ولكن .. كيف دافع أصحاب النبي عن حق الإمام في الخلافة ؟.

الكتب التاريخية حفظت لنا عشرات الحوادث في ذلك . بيد ان القصة التالية تبدو جامعة حيث احتج كبار الأصحاب على تغيير السلطة بادلة قوية . كما انها تروي ايضاً جانباً هاماً من تاريخ الإمام علي (ع) .. والإمام الصادق يروي تفاصيل هذه الحادثة التاريخية في حديث مفصل نثبته هنا ليعكس لنا حالة الأمة آنذاك .

وحيث اجتمع فريق من اصحاب رسول الله ، فيهم سلمان الفارسي ، وابوذر ، والمقداد بن الاسود ، وبريرة الأسلمي ، وعمار بن ياسر ، وآخرون إلى الإمام (ع) فقالوا :

يا امير المؤمنين تركتَ حقاً انت احق به واولى منه ، لانا سمعنا رسول الله (ص) يقول : " عليٌّ مع الحق ، والحق مع علي ، يميل مع الحق كيف مال " .

ولقد هممنا أن نصير إليه فننزله عن منبر رسول الله (ص) فجئناك نستشيرك ونستطلع رايك فيما تامرنا . فقال امير المؤمنين (ع) :

---

(٢٦) سيرة الأئمة الاثنى عشر : ج ١ ، ص ١٢٤ .

" وايم الله لو فعلتم ذلك لَمَا كنتم لهم إلاّ حرباً ، ولكنكم كالملح في الزاد ، وكالكحل في العين ، وايم الله لو فعلتم ذلك لاتيتموني شاهرين اسيافكم مستعدين للحرب والقتال ، إذاً لاتوني فقالوا لي بايع ، وإلاّ قتلناك ، فلابدّ من ان ادفع القوم عن نفسي . وذلك ان رسول الله (ص) اوعز إليّ قبل وفاته وقال لي : يا ابا الحسن إن الأمة ستغدر بك بعدي ، وتنقض فيك عهدي . وإنك مني بمنزلة هارون من موسى ، وإن الأمة من بعدي بمنزلة هارون ومن اتّبعه ، والسامري ومن اتّبعه " .

فقلت يا رسول الله فما تعهد إليّ إذا كان ذلك ؟. فقال :

" إن وجدت اعواناً فبادر إليهم وجاهدهم ، وإن لم تجد اعواناً كُفَّ يدك واحقنْ دمك حتى تلحق بي مظلوماً " .

ولما توفي رسول الله (ص) اشتغلتُ بغسله وتكفينه والفراغ من شانه ، ثم آليتُ يميناً ان لا ارتدي إلاّ للصلاة حتى اجمع القرآن ، ففعلت . ثم اخذت بيد فاطمة وابْنَيَّ الحسن والحسين فدرت على اهل بدر واهل السابقة فناشدتهم حقي ودعوتهم إلى نُصرتي ، فما اجابني منهم إلاّ اربعة رهط منهم سلمان وعمار والمقداد وابوذر [٢٧] . ولقد راودت في ذلك تقييد بيّنتي ، فاتقوا الله على السكوت لِمَا علمتم من وَغْر صدور القوم ، وبُغضهم لله ولرسوله ولاهل بيت نبيه (ص) . فانطلقوا باجمعكم إلى الرجل فعرِّفوه ما سمعتم من قول رسولكم (ص) ليكون ذلك اوكد للحجة ، وابلغ للعذر ، وابعد لهم من رسول الله (ص) إذا وردوا عليه .

فسار القوم حتى احدقوا بمنبر رسول الله (ص) وكان يوم الجمعة ، فلما صعد ابو بكر المنبر قال المهاجرون للأنصار تقدموا فتكلّموا ، وقال الانصار للمهاجرين ، بل تكلموا انتم ، فإن الله عزَّ وجلَّ ادناكم في كتابه إذ قال الله :

﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (التوبة/١١٧)

قال ابان : فقلت له : يابن رسول الله ، إن العامّة لاتقرا كما عندك ، فقال : وكيف تقرا يا ابان ؟ قال : إنها تقرا .

﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (التوبة/١١٧)

فقال : " ويلهم واي ذنب كان لرسول الله (ص) حتى تاب الله عليه منه ، إنما تاب الله به على امته ".

فاول من تكلم به خالد بن سعيد بن العاص ، ثم باقي المهاجرين ، ثم من بعدهم الانصار . وروي انهم كانوا غُيَّباً عن وفاة رسول الله (ص) فقدموا وقد تولى ابو بكر وهم يومئذ اعلام مسجد رسول الله (ص)

---

(٢٧) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج : ج ١ ص ١٣١ : ومن كتاب معاوية المشهور إلى علي (ع) : وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلاً على حمار ويدك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق ، فلم تدع أحداً من اهل بدر والسوابق إلاّ دعوتهم إلى نفسك ومشيت إليهم بأمرانك ، وأدليت إليهم بابنيك ، واستنصرتهم على صاحب رسول الله ، فلم يجبك منهم إلاّ أربعة أو خمسة .

فقام خالد بن سعيد بن العاص [٢٨] وقال :

إتقِ الله يا ابا بكر ، فقد علمتَ أن رسول الله (ص) قال ونحن محتوشوه يوم قريظة حين فتح الله له وقد قتَلَ عليٌّ يومئذ عدة من صناديد رجالهم ، وأولي الباس والنجدة منهم :

" يا معاشر المهاجرين والأنصار ، إني موصيكم بوصية فاحفظوها ومودعكم امراً فاحفظوه ، الاّ إن علي بن ابي طالب (ع) اميركم بعدي ، وخليفتي فيكم ، بذلك اوصاني ربي ، الاّ وإنكم إن لم تحفظوا فيه وصيتي وتوازروه وتنصروه اختلفتم في احكامكم ، واضطرب عليكم امرُ دينكم ، وَ وَليكُمْ شراركُم . الاّ إن أهل بيتي هم الوارثون لأمري ، والعالمون بامر امتي من بعدي . اللهم مَن اطاعهم من امتي ، وحفظ فيهم وصيتي ، فاحشرهم في زُمرتي ، واجعل لهم نصيباً من مرافقتي ، يدركون به نور الآخرة . اللهم ومَن أساء خلافتي في اهل بيتي فاحرمه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض " .

فقال له عمر بن الخطاب : اسكت يا خالد فلست من اهل المشورة ، ولا ممن يقتدى برأيه . فقال خالد : اسكت يا ابن الخطاب فإنك تنطق عن لسان غيرك . وأيم الله لقد علمتْ قريش انك من ألأَمها حسباً ، وادناها منصباً ، واخسّها قدراً ، واخملها ذِكْراً ، واقلهم غَناء عن الله ورسلوه . وانك لَجبان في الحروب ، بخيل بالمال ، لئيم العنصر ، مالك في قريش من فخر ، ولا في الحروب من ذِكر ، وإنك في هذا الأمر بمنزلة الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك ، إني اخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما انهما في النار خالدَين فيها ، وذلك جزاء الظالمين ، فابلس عمر ، وجلس خالد بن سعيد .

٢– ثم قام سلمان الفارسي [٢٩] وقال : كرديد ونكرديد ( وندانيد چه كرديد ) اي فعلتم ولم تفعلوا ( وما علمتم ما فعلتم ) وامتنع من البيعة قبل ذلك حتى وُجِيءَ عنقه ، فقال : يا ابا بكر إلى من تسند امرك إذا نـزل مالا تعرفه ، وإلى من تفزع إذا سئلت عما لا تعلمه ، وما عذرك في تقدم من هو اعلم منك واقرب إلى

---

(٢٨) قال ابن الأثير في أسد الغابة : خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي ، يكنى أبا سعيد ، كان من السابقين إلى الإسلام ثالثاً أو رابعاً بعثه رسول الله عاملاً على صدقات اليمن وقيل على صدقات مذحج وعلى صنعاء فتوفي النبيُّ (ص) وهو عليها ولم يزل خالد وأخَوَاه عمرو وأبان على أعمالهم التي استعملهم عليها رسول الله (ص) حتى توفي رسول الله فرجعوا عن أعمالهم فقال لهم أبو بكر : مالكم رجعتم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله . ارجعوا إلى أعمالكم . فقالوا : نحن بنو أبي أحيحة لانعمل لأحد بعد رسول الله أبداً . وكان خالد على اليمن ، وأبان على البحرين، وعمرو على تيماء ، وتأخر خالد وأخوه أبانٌ عن بيعة أبي بكر فقال لبني هاشم : إنكم لطوال الشجر طيِّبوا الثمر ، ونحن لكم تبع ، فلما بايع بنو هاشم أبا بكر بايعه خالد وأبان وسيجيء تمام الكلام فيه.

(٢٩) روى ابن أبي الحديد في شرح النهج : ج ٢ ص ١٧ عن أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري بإسناده عن المغيرة أن سلمان والزبير وبعض الأنصار كان هواهم أن يبايعوا عليّاً بعد النبي فلما بويع أبو بكر

رسول الله (ص) واعلم بتاويل كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنّة نبيه ، ومَن قدَّمه النبي (ص) في حياته ، وأوصاكم به عند وفاته ، فنبذتم قوله ، وتناسيتم وصيته ، وأخلفتم الوعد ، ونقضتم العهد ، وحللتم العقد الذي كان عقده عليكم من النفوذ تحت راية أسامة بن زيد حذراً من مثل ما أتيتموه ، وتنبيهاً للأمة على عظيم ما اجترحتموه من مخالفة أمره ، فعن قليل يصفو لك الأمر وقد أثقلك الوزر ونقلت إلى قبرك ، وحملت معك ما اكتسبت يداك ، فلو راجعت الحق من قُرب وتلافيت نفسك ، وتبت إلى الله من عظيم ما اجترمت ، كان ذلك أقرب إلى نجاتك يوم تفرد في حفرتك ويسلمك ذوو نصرتك ، فقد سمعت كما سمعنا، ورأيت كما رأينا ، فلم يردعك ذلك عما أنت متشبث به من هذا الأمر الذي لا عذر لك في تقلّده ولا حظّ

---

قال سلمان للصحابة : أصبتم الخير ولكن أخطأتم المعدن قال : وفي رواية أخرى : أصبتم ذا السن منكم ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم . أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رَغَداً .

قال ابن أبي الحديد : قلت هذا الخبر هو الذي رواه المتكلمون في باب الإمامة عن سلمان أنه قال : (كرديد ونكرديد ) تفسره الشيعة فتقول : أراد اسلمتم ، ويفسره اصحابنا فيقولون معناه أخطأتم واصبتم .

وقال السيد المرتضى في الشافي : ( ٤٠١ ) : فإن قيل : المروي عن سلمان أنه قال : ( كرديد ونكرديد ) وليس بمقطوع به قلنا : إن كان خبر السقيفة وشرح ما جرى فيها من الأقوال مقطوعاً به ، فقول سلمان مقطوع به ، لأن كل من روى السقيفة رواه ، وليس هذا مما يختص الشيعة بنقله فيتهم فيه ..

وليس لهم أن يقولوا كيف خاطبهم بالفارسية وهم عرب ، وذاك أن سلمان وإن تكلم بالفارسية فقد فسره بقوله : أصبتم وأخطأتم : أصبتم سنّة الأولين وأخطأتم أهل بيت نبيكم إلى آخر ما سيجيء في آخر هذا الباب ( تتميم ) نقلاً عن تلخيص الشافي .

أقول : ولفظ سلمان على ما في أنساب الأشراف (٥٩١/١) العثمانية : ( ص ١٧٢ و ١٧٩ و ١٨٧ و ٢٣٧ ) ( كرداد ونا كرداد ) ، فالظاهر من قوله : ( كرداد ونا كرداد ) أن صنيعهم هذا صنيع وليس بصنيع (قال في البرهان : كرداد – وزان بغداد بالفتح البناء والأساس وقال : كردار بكسر الأول القاعدة والسيرة : (آئين – روش ) فنفي الفعل ثانياً بعد إثباته أولا يفيد أن ما صنعوه لم يكن على وفق الحق ومقتضاه حيث إن الناس وإن كان لابد لهم من أمير يطاوعون له ، يصدرون عن نهيه ويردون بأمره ، ولكن الذي يجب أن يُطاوَع ويُبايَع ليس هو أبو بكر الذي لايمكنه أن يتخطّى خطى النبي (ص) ويحذو حذوه ، ولا له عصمة كعصمة النبي ، فلا يؤثر في أشعارهم وأبشارهم ولا ... وألف ولا .

وأما الاعتراف بأنه كيف خاطبهم بالفارسية أولاً ثم خاطبهم بالعربية – وقد أكثر في ذلك الجاحظ في العثمانية : ( ص ١٨٦ ) فعندي أن ذلك معهود من طبيعة الإنسان إذا أن في نفسه نفثة لايمكنه أن يصدرها كما هي ، أخرجها مُهَمْهِماً كخواطر النفوس . وإذا كان عارفاً بلسانين كسلمان الفارسي أصدر النفثة بلسان غير لسان المخاطبين ، ثم مضى في كلامه بلسانهم ، فروي تلك الكلمة من سمعها من سلمان وترجمها من كان يعرف اللغة الفارسية بعد ذلك .

للدين والمسلمين في قيامك به ، فالله الله في نفسك ، فقد أعذر من انذر ، ولا تكن كمن ادبر واستكبر .

٣- ثم قام ابو ذر فقال ، يا معاشر قريش اصبتم قباحةً وتركتم قرابــة ، واللـه لـترتدنّ جماعـة مـن العـرب [٣٠] ولتشكن في هذا الدين ، ولو جعلتم الأمر في اهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم سيفان . والله لقد صارت لمن غلب ولتطمحنّ إليها عين من ليس من اهلها ، وليسفكن في طلبها دماء كثيرة ، فكان كما قال أبو ذر رضوان الله عليه .

ثم قال لقد علمتم وعلم خياركم ان رسول الله (ص) قال ،

" الأمر بعدي لعليٍّ ثم ، لابنَيَّ الحسن والحسين ، ثم للطاهرين من ذُرّيتي " .

فاطرحتم قول نبيكم وتناسيتم ما عهد به إليكم ، فاطعتم الدنيا الفانية ، وبعتم الآخرة الباقية التي لايهرم شبابها ، ولا يزول نعيمها ، ولا يحزن اهلها ، ولا يموت سكانها ، بالحقير التافه الفاني الزائل ، وكذلك الأمم من قبلكم كفرت بعد أنبيائها ، ونكصت على أعقابها ، وغيرت وبدّلت ، واختلفت ، فساوَيْتُموهم حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة وعما قليل تذوقون وبال أمركم ، وتجزون بما قدمت ايديكم ، وما الله بظلام للعبيد .

٤- ثم قام المقداد بن الأسود وقال ، ارجع يا ابا بكر عن ظلمك ، وتب إلى ربك ، والزم بيتك ، وابكِ على خطيئتك ، وسلم الأمر لصاحبه الذي هو اولى به منك ، فقد علمت ما عقده رسول الله (ص) في عنقك من بيعته ، وألزَمك من النفوذ تحت راية اسامة بن زيد وهو مولاه ، ونبّه على بطلان وجوب هذا الأمر لك ولمن عضدك عليه بضمه لكما إلى علَم النفاق ومعدن الشنآن والشقاق عمرو بن العاص الذي انزل الله تعالى فيه على نبيه (ص) ،

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر/٣)

فلا اختلاف بين أهل العلم انها نزلت في عمرو — وهو كان اميراً عليكما وعلى سائر المنافقين في الوقت الذي انفذه رسول الله (ص) في غزاة ذات السلاسل [٣١] وان عمراً قلدكما حرس عسكره فمن الحرس إلى

---

(٣٠) وقد صدق التاريخ كلام أبي ذر هذا حيث أرتدت العرب بعدما سمعت من أن أصحاب النبي (ص) ابتزوا سلطانه من مقره ، فطمعوا أن يكون لهم في ذلك نصيب ، فطغوا على الخليفة أبي بكر واشتهر طغيانهم هذا بعنوان الردة ، نعم كانت الرِّدة ولكن على من ؟ على الله ورسوله ؟ أو على الخليفة من بعده ؟ سيجيء تمام الكلام في أبواب المطاعن عند خلاف بني تميم وقتل مالك بن نويرة إن شاء الله تعالى .

(٣١) البلاذري : ( ١ / ٣٨٠ ) وفي السير أن رسول الله بعث عمرو بن العاص أولاً ثم بعث أبا عبيدة مدداً له وفيهم أبو بكر وعمر فاجتمعوا تحت قيادة عمرو ، راجع سيرة ابن هشام : ( ج ٢ ، ص ٦٣٢ ) ، أسد الغابة : ( ج ٤ ، ص ١١٦ ) ترجمة عمرو بن العاص منتخب كنز العمال : ( ج ٤ ص ١٧٨ ) ، تاريخ الطبري : ( ج ٣ ص ٣٢ ) ، ولعمروا بن العاص ترجمة اضافية من شتى نواحي البحث تراها في كتاب الغدير : ( ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٧٦ ) .

الخلافة ؟ إتّقِ الله وبادر الاستقالة قبل فوتها ، فإن ذلك اسلم في حياتك وبعد وفاتك ، ولا تركن إلى دنياك ، ولا تغررك قريش وغيرها ، فعن قليل تضمحل عنك دنياك ، ثم تصير إلى ربك فيجزيك بعملك . وقد علمت وتيقّنت ان عليّاً بن ابي طالب (ع) صاحب هذا الأمر بعد رسول الله (ص) فسلّمه إليه بما جعله الله له فإنه اتم لسترك واخفُّ لوزرك ، فقد والله نصحت لك إن قبلت نُصحي ، وإلى الله ترجع الأمور .

٥– ثم قام بريدة الأسلمي [٣٢] فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماذا لقي الحق من الباطل يا أبا بكر ؟ انسيت أم تناسيت أم خدعتك نفسك وسوّلت لك الأباطيل ؟ أولم تذكر ما امرنا به رسول الله (ص) من

---

(٣٢) بريدة بن الحصيب الأسلمي ابو ساسان أو أبو عبد الله كان ذا بيت كبير في قومه مر به رسول الله مهاجراً فأسلم هو ومن معه وكانوا ثمانين بيتاً فصلوا خلف رسول الله (ص) العشاء الآخرة ثم قدم عليه (ص) بعد غزوة أحد وشهد معه المشاهد كلها وولاه رسول الله صدقات قومه . روي أنه لما سمع بموت النبي (ص) وكان في قبيلته ، أخذ رايته فنصبها على باب بيت أمير المؤمنين فقال له عمر : الناس اتفقوا على بيعة أبي بكر ، مالك تخالفهم ؟ فقال : لا أبايع غير صاحب هذا البيت .

وأما حديث التسليم على علي بامرة المؤمنين فقد أخرجه العلاّمة المرعشي ( قدس سره ) في ذيل الإحقاق عن معاجم كثيرة من كتب أهل السنّة راجع : ( ج ٤ ، ص ٢٧٥ ) وما بعده .

وأما حديث خلافه فقد روى علم الهدى في الشافي ( ٣٩٨ ) عن الثقفي بإسناده عن سفيان بن فروة عن أبيه قال : جاء بريدة حتى ركز رايته في وسط أسلم ثم قال : لا أبايع حتى يبايع علي بن أبي طالب . فقال علي : يا بريدة ادخل فيما دخل فيه الناس ، فإن اجتماعهم احبُّ إليَّ من اختلافهم اليوم . وبإسناده عن موسى بن عبد الله بن الحسن قال : أبت أسلم أن تبايع ، فقالوا : ما كنا نبايع حتى يبايع بريدة لقول النبي (ص) لبريدة ( علي وليكم من بعدي ) قال : فقال علي : إن هؤلاء خيروني أن يظلموني حقي وأبايعهم ، وارتد الناس حتى بلغت الردة أحداً فاخترت أن أظلم حقي وان فعلوا ما فعلوا .

اقول : وحديث بريدة ( يا بريدة لاتبغض عليّاً ) ( لا تقع في علي ) إن عليّاً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي ) من المتواترات وقد أخرجه أصحاب الصحاح . راجع مسند الإمام ابن حنبل : ( ج ٥ ، ص ٣٥٦ ) ، خصائص النسائي : (٣٣) شرح النهج الحديدي : ( ج ٢ ، ص ٤٣٠ ) مجمع الزوائد : ( ج ٩ ، ص ١٢٧ ) وهكذا حديث عمران بن الحصين ويقال إنه أخا بريدة لأمه أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده : ( ١١١ ) تحت الرقم ( ٨٢٩ ) ، الترمذي في صحيحه : ( ج ٥ ، ص ٢٩٦ ) ، تحت الرقم (٣٧٩٦ ) و ( ٣٨٠٩ ) وأخرجه عنه في مشكاة المصابيح ( ٥٦٤ ) جامع الأصول ( ٩ / ٤٧٠ ) ، ورواه النسائي في الخصائص : ( ٣٣ و ٢٦ ) مستدرك الصحيحين : ( ج ٣ ، ص ١١٠ ) ، إلى غير ذلك من المعاجم الحديثية راجع بسط ذلك في ذيل الإحقاق : ( ج ٥ ، ص ٢٧٤ – ٣١٧ ) .

تسمية علي (ع) بإمره المؤمنين ، والنبي بين اظهرنا ، وقوله في عدة اوقات : هذا امير المؤمنين ، وقاتل القاسطين ؟ فاتّقِ الله وتَدارَكْ نفسك قبل أن لا تُدركها وانقذها مما يهلكها ، واردد الأمر إلى من هو أحق به منك ، ولا تتمادَ في اغتصابه . وراجع وأنت تستطيع أن تراجع ، فقد محضتُك النصح ، ودللتك على طريق النجاة ، فلا تكونن ظهيراً للمجرمين .

٦- ثم قام عمار بن ياسر فقال : يا معاشر قريش يا معاشر المسلمين ، إن كنتم علمتم وإلاّ فاعلموا أن أهـل بيت نبيكم أولى به وأحق بارثه ، واقوَمُ بأمور الدين وآمن على المؤمنين ، وأحفظ لملته ، وانصح لأمته ، فمروا صاحبكم فليردّ الحق إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم ، ويضعف أمركم ، ويظفر عدوكم ، ويظهر شتاتكم وتعظم الفتنة بكم ، وتختلفون فيما بينكم ، ويطمع فيكم عدوكم ، فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم ، وعلي من بينهم وليكم بعهد الله وبعهد رسوله ، وفرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد حال عندما سدّ النبي (ص) أبوابكم التي كانت إلى المسجد فسدها كلها غير بابه [٣٣] وإيثاره إياه بكريمته فاطمة دون سائر من خطبها إليه منكم ، وقوله (ص) : " أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ، فمـن أراد

---

(٣٣) حديث سد الأبواب إلا باب علي (ع) قد مر في ( ج ٣٩ ، ص ١٩ - ٣٤ ) من بحـار الأنـوار تـاريخ مولانا أمير المؤمنين (ع) وأخرج المؤلف العلامة المجلسي من روايات الفريقين في ذلك ما فيه غناء وكفاية، وإن شئت راجع ذيل الإحقـاق : ( ج ٥ ، ص ٥٤٠ - ٥٨٦ ) فقـد أخرجـه عـن الترمذي : ( ج ١٣ ، ص ١٧٣ ) ط الصاوي بمصـر ، وهـو فـي ط الإعتمـاد : ( ج ٥ ، ص ٣٠٥ ) تحـت الرقـم ( ٣٨١٥ ) ، وعـن النسائي في الخصائص ( ١٣ و ١٤ ) والحافظ أبي نعيم في الحلية ( ٤ / ١٥٣ ) ، ابـن كثـير الدمشـقي فـي البداية والنهاية ( ٧ / ٣٣٨ ) ، ابن حنبل في مسنده : (ج ٤ ، ص ٣٦٩) ، الحاكم في مستدركه (١٢٥/٣) وللعلامة الأميني قدس سره في كتابه التدبر بحث ضـاف ونظـرة ثاقبـة فـي حديـث سـد الأبـواب مـن شـاءها فليراجع : ( ج ٣ ، ص ٢٠٢ ) وما بعده .

ومما يناسب ذكره هنا أن الترمذي : ( ج ٥ ، ص ٢٧٨ ) روى بإسناده عن عروة عـن عائشـة ( ان النبـي (ص) أمر بسد الأبواب إلاّ باب أبي بكر ) ولفـظ البخـاري ( ٥/٥ ) ( لايبقيـن فـي المسـجدباب إلاّ سـد ، إلاباب أبي بكر ) ولم يتفطنوا أن النبي لم يـأمر بسـد الأبـواب إلاّ بابـه للخلـة ولا للقرابـة ، وإنمـا أمـر بسـد الأبواب لحكم شرعي اقتضى ذلك ، وهو أنه لايحل لأحـد أن يستطرق جنبـاً مسـجد الرسـول (ص) إلاّ مـن كان طاهراً طيباً بنص آية التطهير ، ولذلك قال (ص) : ( يا علي لايحل لأحـد أن يجنـب فـي هـذا المسـجد غيري وغيرك ) رواه الترمذي في ( ج ٥ ، ص ٣٠٣ ) تحت الرقم ( ٣٨١١ ) البيهقي في سننه (٧ / ٦٥) ، الخطيب التبريزي في مشكاة المصابي ( ٥٦٤ ) ، العسقلاني فـي تهذيبـه ( ٩ / ٣٨٧ ) إلـى غـير ذلـك ممـا تجده في ذيل الاحقاق .

وأما حديث ( أنا مدينة العلم وعلي بابها ) فقد مضـى البحـث عنـه فـي ( ج ٤٠ ص ٢٠٠ - ٢٠٧ ) مـن تاريخ أمير المؤمنين (ع) وإن شئت راجع ذيل الإحقاق ( ج ٥ ، ص ٤٦٩ - ٥١٥ ) أخرج الحديث بألفاظه

الحكمة فليأتها من بابها " .

وانتم جميعاً مصطرخون فيما اشكل عليكم من امور دينكم إليه ، وهو مستغنٍ عن كل احد منكم ، إلى ما له من السوابق التي ليست لافضلكم عند نفسه ، فما بالكم تحيدون عنه ، وتغيرون على حقه ، وتؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، بئس للظالمين بدلاً . اعطوه ما جعله الله له :

﴿ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (المائدة/٢١) .

٧- ثم قام ابي بن كعب [٣٤] فقال : يا ابا بكر لا تجحد حقاً جعله الله لغيرك ، ولا تكن اول من عصى رسول الله (ص) في وصيّه وصفيّه ، وصدف عن امره . اردد الحق إلى أهله تسلم ، ولا تتمادَ في غيك فتندم ، وبادر الإنابة يخفّ وزرك ولا تخصص بهذا الامر الذي لم يجعله الله لك نفساً ، فتلقى وبال عملك ، فعن قليل تفارق ما انت فيه ، وتصير إلى ربك ، فيسالك عما جنيت ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصّلت/٤٦) .

٨- ثم قام خزيمة بن ثابت فقال : أيها الناس الستم تعلمون ان رسول الله (ص) قبل شهادتي وحدي ، ولم يُرد معي غيري ؟. قالوا بلى قال : فأشهد اني سمعت رسول الله (ص) يقول : " اهل بيتي يُفرّقون بين الحق والباطل ، وهم الائمة الذين يُقتدى بهم " .

وقد قلت ما علمت ، وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين .

٩- ثم قام ابو الهيثم بن التيهان فقال : وانا اشهد على نبيّنا (ص) انه اقام عليّاً (ع) - يعني في يوم غدير خم - . فقالت الانصار ما اقامه إلاّ للخلافة . وقال بعضهم ما اقامه إلاّ ليعلم الناس انه مولى من كان رسول الله (ص) مولاه . واكثروا الخوض في ذلك ، فبعثنا رجالاً منّا إلى رسول الله (ص) فسالوه عن ذلك ، فقال : قولوا لهم :

" علي (ع) ولي المؤمنين بعدي ، وانصح الناس لامتي ، وقد شهدت بما حضرني . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إن يوم الفصل كان ميقاتاً " .

١٠- ثم قام سهل بن حنيف فحمد الله واثنى عليه ، وصلى على النبيّ محمد (ص) ثم قال : يا معاشر

---

عن معاجم كثيرة منها المستدرك ( ٣ / ١٢٦ و ١٢٧ ) تاريخ بغداد ( ٢ / ٣٧٧ ) أنساب السمعاني (١١٨٢) تاريخ الخلفاء : ( ٦٦ ) .

(٣٤) استعرض أبو الفداء في كتابه المختصر في إخبار البشر حديث السقيفة قائلا : بادروا سقيفة بني ساعدة فبايع عمر أبا بكر وانثال الناس يبايعونه خلا جماعة من بني هاشم والزبير وعتبة بن أبي لهب وخالد بن سعيد بن العاص والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبي ذر وعمار بن ياسر ووراء بن عازب ، وأبي بن كعب ، وأبي سفيان من بني أمية ومالوا مع علي رضي الله عنهم .

وقال اليعقوبي في تاريخه ( ٢ / ١١٤ ) أنه تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي .. ثم ذكر هؤلاء الجماعة المنكرين لبيعته .

قريش اشهدوا على أني اشهد على رسول الله (ص) وقد رايته في هذا المكان يعني الروضة ، وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب (ع) وهو يقول :

" ايها الناس هذا علي إمامكم من بعدي ، ووصيي في حياتي وبعد وفاتي ، وقاضي ديني ، ومنجز وعدي ، وأول من يصافحني على الحوض ، فطوبى لمن تبعه ونصره ، والويل لمن تخلّف عنه وخذله " .

١١- وقام معه اخوه عثمان بن حنيف فقال : سمعنا رسول الله (ص) يقول :

" اهل بيتي نجوم الأرض ، فلا تتقدموهم وقدّموهم ، فهم الولاة بعدي " .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله وأي أهل بيتك ؟

فقال (ص) : " علي والطاهرون من وُلده " .

وقد بيّن (ص) فلا تكن يا ابا بكر أول كافر به ولا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون .

١٢- ثم قام ابو ايوب الانصاري فقال : اتقوا الله عباد الله في اهل بيت نبيكم ، ورُدُّوا اليهم حقهم الذي جعله الله لهم ، فقد سمعتم مثل ما سمع إخواننا في مقام بعد مقام لنبيِّنا (ص) ومجلس بعد مجلس يقول : اهل بيتي ائمتكم بعدي ، ويُومئ الى علي (ع) ويقول : هذا امير البررة ، وقاتل الكفرة ، مخذول مَن خذله ، منصور مَن نصره . فتوبوا إلى الله من ظُلمكم ، إن الله توّاب رحيم ، ولا تتولوا عنه مدبرين ، ولا تتولوا عنه معرضين .

قال الصادق (ع) : فأُفحِمَ ابو بكر على المنبر حتى لم يُحْرِ جواباً ثم قال : ( وَلِيتُكم ولستُ بخيركم ، اقيلوني ، اقيلوني ) [٣٥] فقال عمر بن الخطاب : انزل عنها يا لكع .

## كيف قيّم الإمام (ع) الشيخين :

امّا كيف عاش الإمام في عهد الشيخين ؟ وكيف قيّم هذا العهد ؟. فلقد عاش صابراً يسعى لإصلاح الوضع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ثم اخذ يربّي جيلاً من الرساليين ، ويشكل قوة ضغط ضد الإنحرافات الإجتماعية ، وضد جناح بني امية الذين كانوا يسعون للتسلل إلى اجهزة الحكم .

ويصف الإمام هذا العهد وصفاً دقيقاً في خطبته المعروفة بالشقشقية . ونستغني نحن بدورنا ، عن المزيد من التفاصيل بشرح فقرات هذه الخطبة التي اوجزت في كلماته ما يمكن ان تتسع لها موسوعة تاريخية .

---

(٣٥) روي حديث إقالته هذا في الصواعق المحرقة : ( ٣٠ ) ولفظه ( اقيلوني أقيلوني لست بخيركم ) الإمامة والسياسة ( ٢٠ ) ولفظة بعد ما قالت السيدة فاطمة (ع) في محاجةٍ لها معه : ( والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أُصلّيها ) ( فخرج أبو بكر باكياً فاجتمع إليه الناس فقال لهم : يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته مسروراً بأهله وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني من بيعتي ) .

ورواه في مجمع الزوائد : ( ج ٥ ص ١٨٣ ) نقلاً عن الطبراني في الأوسط ولفظه ( قام أبو بكر الصديق من الغد حين بويع فخطب الناس فقال : أيها الناس إني قد أقلتكم رأيي ، إني لست بخيركم فبايعوا خيركم ) ونقله في شرح النهج : ( ج ١ ، ص ٥٦ ) وقال : اختلف الرواة في هذه .

يذكر الإمام في هذه الخطبة التي انحدرت عنه كالشقشقة تنحدر من الإبل ، ويذكر ان ابا بكر لبس الخلافة كالقميص في الوقت الذي كان يعلم اني أحق بها ، حيث إني كقطب رحى الخلافة ومثل القمة التي ينحدر عنها السيل ، ولا يبلغها الطير لشموخ محلها . اما إني قد ارخيت عليها ستارا ، لأن بدأت أفكر بين أمرين ، هل اقدم ولا يدٌ لي ، ام احجم واصبر على ظلام أعمى يطول حتى يجعل الكبير هرماً ، والصغير أشيب ، والمؤمن كادحاً حتى يلقى ربه ؟

وقد قال بالنص [٣٦] ،

" اما والله لقد تقمصها [٣٧] فلان ( ابن ابي قحافة ) وإنه ليعلم ان محلّي منها محلُّ القُطب من الرحى ، ينحدر عني السيل ، ولا يرقى اليّ الطير ، فسدلتُ دونها ثوباً [٣٨] ، وطويت عنها كشحاً ، وطفقت ارتئي بين اصول بيد جذّاء [٣٩] ، أو اصبر على طخية عمياء [٤٠] ، يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكن فيها مؤمن حتى يلقى ربّه " .

ثم يبيّن الإمام (ع) انه رأى الصبر أقرب إلى الرشد والعقل ، فصبر صبر من اصاب عينه قذىً أو اعترضت حلقه عَظْمَةٌ لأنه يرى ما أورثه النبي (ص) من الخلافة ينتهب منه نهباً ، وظل على هذه الحال ، حتى مضى الخليفة الأول لسبيله ( وتوفاه الله ) فاوصى بالخلافة ( للخليفة ) الثاني .

ويتساءل الإمام (ع) ، كيف كان ابو بكر يستقيل من الخلافة في حياته ثم يتشبث بها حتى بعد مماته ، إذ كانت معاهدة بينهما ان يقتسماها معاً ، ويقول بالنص ،

" فرأيت ان الصبر على هاتا احجى ، فصبرت ، وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا [٤١] ارى تراثي نهباً [٤٢] حتى إذا مضى الأول لسبيله ، فادلى بها إلى فلان بعده " .

ثم تمثل بقول الأعشى ،

شتان ما يومي على كورها [٤٣] ويوم حيّان اخي جابر

" فيا عجباً ! ، بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لَشدَّ ما تشطّر ضرعيها " [٤٤] .

---

(٣٦) ننقل النص والتعليقات من نهج البلاغة تحقيق د . صبحي صالح .

(٣٧) تقمصها : لبسها كالقميص .

(٣٨) سدل الثوب : أرخاه .

(٣٩) الجذاء بالجيم والذال المعجمة : المقطوعة .

(٤٠) الطخية : الظلمة .

(٤١) الشجا : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .

(٤٢) التراث : الميراث .

(٤٣) الكور : الرحل أو هو مع أداته .

(٤٤) تشطّرا ضرعيها : اقتسماها ، فأخذ كل منها شطراً : والضرع : ثدي الناقة .

ثم يصف شخصية الخليفة الثاني ، فيقول :

لقد وضع الأول الخلافة في محل خشن إذا جرح أحدث جرحاً غليظاً ، وإذا اقتربت منه يصعب عليك مسّه ، و ( بذلك ) تكثر عنده الكبوات والاعتذار منها ، وقد أصبحت السلطة كالإبل الصعبة ، إذا أوقفها صاحبها أضرَّ بها حيث يخرم أذنها . وإذا تركها اقتحمت المهالك ، وهكذا أضحت السلطة ، لا تنفع الشدة فيها لأنها تضر بالناس ، ولا يصح الإهمال لأنه يفسدها .

ويبدو أن الإمام (ع) يشير بذلك إلى أن حزمه ولينه لم يكونا بقدر مناسب ولا كانا في الموقع المناسب ، بل كان شديداً في مقام يتناسب اللين . وليناً عندما يستوجب الشدة .

ثم يصف حال الناس الذين أصيبوا بخبط فلم يعرفوا الهدى عن الضلال ، كما ابتلوا بحالة التمرد انتهى بهم إلى حالة النفاق ، والسير على غير هدى ، ولكن مع طول المدة وشدة المحنة آثرت الصبر . ويقول الإمام (ع) :

" فصيَّرها في حوزة خشناء يغلظُ كلْمها [٤٥] ويخشنَ مسُّها ويكثر العِثار [٤٦] فيها والإعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصعبة [٤٧] ، إن أشنق [٤٨] لها خرَمَ [٤٩] وإن أسلس [٥٠] لها تقحَّم [٥١] فمُنِيَ الناس [٥٢] — لَعَمْرُ الله — بخَبْطٍ [٥٣] وشِماس [٥٤] وتلوُّنٍ واعتراض [٥٥] فصبرت على طول المدة وشدة المحنة " .

ثم يصف الشورى التي أمر بها الخليفة الثاني حيث جعلها في ستة ..

من كان يشك في أنه أفضل من الأول !، فكيف يوضع عند أمثال الأقران المتشابهين مع بعضهم وليس معه .

وقد قَبِلَ الإمام (ع) لِمَا رآه من مصلحة الدين بالوضع ، كأنه واحد من سرب الطيور ، إذا هبطوا هبط معهم ، وإن حلقوا طار معهم .

---

(٤٥) كلمها : جرحها : كأنه يقول : خشونتها تجرح جرحاً غليظاً .

(٤٦) العثار : السقوط والكبوة .

(٤٧) الصعبة : من الإبل : ما ليست بذلول .

(٤٨) اشنق البعيروشنقه : كفه بزمام حتى ألصق ذفراه ( العظم الناتئ خلف الأذن ) بقادمة الرحل .

(٤٩) خرم : قطع .

(٥٠) أسلس : أرخى .

(٥١) تقحم : رمى نفسه في القحمة أي الهلكة .

(٥٢) مني الناس : ابتلوا .

(٥٣) خبط : سير على غير هدى .

(٥٤) الشماس : بالكسر — إباء ظهر الفرس عن الركوب .

(٥٥) الاعتراض : السير على غير خط مستقيم ، كأنه يسير عرضاً في حال سيره طولاً .

يقول الإمام (ع) :

" حتى إذا مضى لسبيله ، جعلها في جماعة زعم اني احدهم ، فيالله وللشورى ، متى اعرض الريب فيَّ مع الأول منهم ، حتى صرت اقرن إلى هذه النظائر [٥٦] ، لكنني اسففت [٥٧] إذ اسَفّوا ، وطرت إذ طاروا " .

ويمضي الإمام (ع) في حديثه يصف عهد الخليفة الثالث ومن بعده مما نتحدث عنه تباعاً .

## كيف قتل الخليفة الثاني ؟

يرى بعض الباحثين أن الحزب الأموي كان وراء مقتل الخليفة الثاني ، خصوصاً وقد ضيق عليهم في اواخر عهده . فهذا عمرو بن العاص يتافف ويقول : لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر بن الخطاب ، والمغيرة يحقد عليه لانه عزله عن البصرة بعد اتّهامه بالزنا ، وفي اكثر من مناسبة ، كان يخاطبه قائلا : والله لا اظن ابا بكرة قد كذب عليك .

ويرى عبد الرحمن بن ابي بكر ان جفينة غلام سعد بن ابي وقاص كان مشتركاً في الجريمة ، وسعد كان تربطه بالبيت الأموي قرابة حميمة ، حيث إن امّه كانت اخت ابي سفيان .

والواقع : ان الأسباب التي يرى المؤرخون انها كانت وراء إقدام ابي لؤلؤة على اغتيال الخليفة الثاني ، تافهة ، ولا يمكن ان تصمد امام النقد ، حيث إن مجرد رفع المغيرة مولاه الضريبة عليه لا تدعو لاغتيال الخليفة ، بل لاغتيال مولاه ، والذي تذهب إليه الضريبة مباشرة ، فلما اشرف الخليفة على الوفاة جعلها شورى بين ستة . وجعل الإمام علياً (ع) واحداً منهم ، اما الباقون فهم : عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن ابي وقاص .

وكان واضحاً من طبيعة الشورى ، ومن وصية عمر بان يؤخذ براي الثلاثة ، الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، الذي كان يفضل صهره عثمان . وهكذا فإن الخليفة الثاني اختار خليفته بلباقة ، ولعله فعل ذلك بوحي مخاوفه السابقة من انتقال الخلافة إلى الإمام (ع) باعتباره النجم اللامع الذي إذا سطع في سماء الخلافة ، ولم يبق لغيره بريق ، اولم يقل – وهويستعرض صفات الست ، وينعت كل واحد منهم بابشع الصفات ، إلاّ علياً . فيقول فيه : لله انت لولا دعابة فيك . اما والله لو وليتهم لتحملنّهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

وهذا يعني ان خلافة علي (ع) كانت تنسف الأسس التي بناها الخليفتان من قبله ، ولعله لذلك رفض الإمام شرطاً من عبد الرحمن بن عوف عليه بان يعمل بسيرة الشيخين . إلاّ ان الإمام (ع) حين خرج من بيت الشورى وقد تمت البيعة ، لعثمان بن عفان قال :

" نحن اهل بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، امان لاهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، إن لنا حقّاً إن نُعطه

---

(٥٦) النظائر : جمع نظير أي المشابه بعضهم بعضاً دونه .

(٥٧) أسف الطائر دنا من الأرض .

اخذناه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل " .

( اي نكون تبعاً لغيرنا ) . ثم التفت إلى ابن عوف وقال ،" ليس هذا باول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . والله ما ولّيته الأمر إلاّ ليردّه عليك " [58] .

وقال ايضاً ، " ايها الناس ! لقد علمتم اني احق الناس بهذا الامر من غيري . أمّا وقد انتهى الأمر إلى ما ترون فوالله لأُسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلاّ عليَّ خاصة ، التماسا لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه " [59] .

## بنو أمية تتسلل إلى السلطة :

إذا كانت معادلة السلطة مالت في آخريات أيام الخليفة الثاني إلى جانب الخط الرسالي ، فإنها فسدت في عهد الخليفة الثالث ، لمصلحة الخط الأموي بعد نجاح هذا الخط في دعم خلافة واحد منهم ، وإخفاء آثار اغتيال الخليفة ، بقتل المشاركين فيها من غير حزبهم !

وهكذا لم يكن تسلل بني امية إلى السلطة في عهد الخليفة الثالث خارجاً عن منطق الأحداث . فإنما صعد نجم الخليفة بهم ، ولعل الشرط الثالث الذي اقترحه عبد الرحمن على الإمام علي فرفضه وقبله عثمان كان محتواه إبقاء امتيازات بني امية ، ومنها ولاية الشام لمعاوية . ولقد قال الخليفة الثاني عند وفاته لعثمان : هبها إليك كاني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك ، فحملت بني أمية وبني معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء ، فسارت إليك عصابة من ذوبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً . والله لئن فعلَتْ لَتفعلنّ ولئن فعلتَ ليُفعلن بك ، ثم اخذ ناصيته وقال ، فإذا كان ذلك فاذكر قولي [60] .

هكذا أوجز بعض المؤرخين الوضع في عهد الخليفة الثالث فقال :

لقد أوطا بني امية رقاب الناس ، وولاهم الولايات ، وأقطعهم القطائع وافتتحت ارمينية في زمانه فاخذ الخمس كله ووهبه لمروان .

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد خلة ، فاعطاه أربعمائة الف درهم ، وافتتح خلافته بإرجاع الحكَم بن ابي العاص وبنيه واسرته إلى المدينة بعد ان طردهم رسول الله (ص) منها ، ولم يقبل ( رسول الله (ص) ) بهم شفاعة احد ابداً . كما رفض الشيخان ابو بكر وعمر إرجاعهم إليها وشفاعة المتشفعين بهم .

وقد انكر المسلمون ذلك اشد الإنكار . ولكن عثمان لم يلبث ان ولاه صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة الف درهم فوهبها له .

ثم إن رسول الله (ص) كان قد تصدق بموضع سوق في المدينة يُسمّى ( بهزون ) على المسلمين فاقطعه ابن عفان إلى الحرث بن الحكَم شقيق مروان — كما يذكر ذلك ابن ابي الحديد — ويضيف ،

---

(٥٨) راجع : سيرة الأئمة الاثنى عشر ( ج١ / ص ٣٩٤ ) .

(٥٩) المصدر : ص ( ٣٩٧ ) .

(٦٠) المصدر : ( ص ٣٨٠ ) .

اقطع مروان خدعاً وكانت لفاطمة الزهراء (ع) ، وحمي المراعي حول المدينة كلها ، منع عنها مواشي المسلمين ، وأباحها لمواشي بني امية . واعطى عبد الله بن ابي سرح – وهو اخوه من الرضاعة – جميع ما افاء الله عليه من فتح افريقيا .

واعطى ابا سفيان بن حرب مائتي الف من بيت المال في اليوم الذي امر فيه لمروان بمائة الف ، وكان قد زوجه ابنته ام ابان ، فجاءه زيد بن ارقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى – فقال له : لتبكي أن وصلت رحمي ؟ فقال : لا ولكن ابكي لانني ظننت انك اخذت هذا المال عوضاً عما كنت تنفقه في حياة رسول الله ، والله لو اعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً عليه ، فقال له : أُلقِ المفاتيح يابن ارقم فإنا سنجد غيرك .

## الثورة التي لم ترحم :

انشبت بنو امية ، اظفارها في السلطة ، وبدات تنهب اموال المسلمين نهباً ، وتبني بها حزبها السياسي ، وقوتها العسكرية . ولأنها كانت ذات نفوذ سياسي قبل الإسلام ، ولها علاقات مع القوى السياسية والعسكرية في الجزيرة ، وتجارب سياسية ، ولأن سماحة الإسلام ، وضعف بعض القيادات هيات لهم فرصة النمو في الظل ، فقد حافظوا على افكارهم وتقاليدهم وعلاقاتهم ، بل وهيكلية قيادتهم طوال الفترة التي كانوا بعيدين فيها عن السلطة ظاهراً ، بالرغم من تداخلهم فيها ..

بل ، إن ابا سفيان ، وهو قائدهم في الجاهلية وموجههم في الإسلام ، يزور الخليفة الثالث ، فيجد عنده حاشيته من بني امية ، فيسأل جليسه هل في الحضور غريب ؟. وكان قد كُفَّ بصرهُ آنئذٍ ، فلما اجابه بالنفي واطمان ابدى ما يجول في خاطره فخاطب قومه ، تلقفوها يا بني عبد الدار تلقف الصبيان للكرة . فوَ الذي يحلف به ابو سفيان لا جنّة ولا نار !. فقام إليه الإمام علي (ع) الذي كان حاضراً في طرف المجلس فنهره .. فقال ابو سفيان العتب ليس علي وإنما على الذي غرّني وقال لا غريب بين الحضور .. فتصوّر هذا العذر السخيف من ذلك الشيخ الذي ما دخل الإيمان إلى قلبه .

وعندما تصاعدت امواج الثورة ضد تصرفات بني امية ، في عهد الخليفة الثالث ، مرّ معاوية وكان يومذاك قائد قوات بني امية واقعاً ، ووالي الشام – في الظاهر – ، مرّ بقوم من كبار المهاجرين ، فيهم علي (ع) وطلحة والزبير فقال :

إنكم تعلمون ان هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه ، حتى بعث الله نبيّه فتفاضلوا بالسابقة والقدمة والجهاد . فإن اخذوا بذلك فالأمر امرهم والناس لهم تبع . وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ، ورده الله إلى غيرهم . وإن الله على البدل لقادر ، وإني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكاتفوه تكونوا اسعد منه بذلك .[61]

---

(٦١) في رحاب أئمة أهل البيت : ج ١ ، ص ٣٤٣ .

وعرف الحاضرون مغزى كلامه ، فلقد هددهم بانه وحزبه سوف ينقلبون على أصحاب النبي (ص) لولم ينتصروا لعثمان .. وهكذا يقول ابن ابي الحديد المعتزلي : من هذا اليوم انشب معاوية اظفاره في الخلافة لانه غلب على ظنه قتل عثمان الا ترى إلى قوله ، وإن طلبوا الدنيا بالتخالب سلبوا ذلك ورده إلى غيرهم وهو على البدل لقادر . وإنما يعني نفسه ولذا تربص بنصرة عثمان لما استنصره[٦٢] .

لقد اتم الحزب الأموي استعداده للإنقلاب على النظام الإسلامي ، وإقامة نظام جاهلي جديد ، يتخذ من الدين وسيلة جديدة للسيطرة .

وثار الناس من كل مكان ، ولا سيما من الكوفة والبصرة ، ومصر .. ومشى من كل منها الف مسلح إلى المدينة في محاولة للضغط على الخليفة ، وكان هوى أهل الكوفة في الزبير ، بينما كان اهل البصرة يميلون إلى طلحة ، اما اهل مصر فكانوا شيعة الإمام (ع) .

ولم يكن الإمام (ع) راضياً لفعال الخليفة ، ولكنه حاول جهده تجنب الفتنة . وكم كان يسعى لإصلاح ما افسده بنو امية في الحكم ، إلاّ ان الخرق كان قد اتّسع على راقعه .

ولعل الحديث التالي يكفينا شاهداً على موقف الإمام الإصلاحي ، وكيف كان يجابَهُ بضغوط بني امية الغالبين على أمر الخليفة . ولعلهم كانوا ينتظرون امراً آخر . او كانت قيادتهم المتمثلة في معاوية تخطط فعلاً لقتل الخليفة عسى ان يتخذوه شعاراً لحركتهم نحو السلطة .

الحديث يقول :

إن الثوار كتبوا إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ، واقسموا له بالله انهم لايرجعون عنه ابداً ، وغير تاركيه حتى يعطيهم ما يلزمهم من حق الله ، واحس عثمان ان القوم جادُّون في طلباتهم ، فارسل إلى علي (ع) فلما جاءه قال له : يا ابا الحسن قد كان من الناس ما رايت ، وكان مني ما قد علمت ، ولست آمَنُهُم على قتلي ، فارددهم عنّي ، فإن لهم والله ان اعفيهم من كل ما يكرهون ، وإن اعطيهم من نفسي ومن غيري ما يريدون وإن في ذلك سفك دمي .

فقال له امير المؤمنين (ع) :

" إن الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ، وإني لأرى القوم لا يرضون إلاّ بالرضا . وقد كنت أعطيتهم في المرة الأولى عهد الله ان ترجع عن جميع ما نقموا ، فرددتُهم عنك ، ولم تفِ لهم بشيء من ذلك ، فلا تغرَّنني – هذه المرة – من شيء فإني معطيهم عليك الحق " .

قال : نعم ، فاعطهم والله الآن ، فوالله لأفِيَنَّ لهم بكل ما تريد .

فخرج علي إلى الناس ، وقال :

" أيها الناس : إنكم إنما طلبتم الحق وقد أعطيتموه ، إن عثمان زعم انه منصفكم من نفسه ومن غيره ،

---

(٦٢) المصدر : ج ١ ، ص ٣٤٣ .

وراجع عن كل ما تكرهون " .

فاقبلوا منه ، ووكدوا عليه .

فقال الناس : قد قبلنا ، فاستوثق لنا منه ، فإنا والله لانرضى بقول دون فعل .

فقال لهم : ذلك لكم .

وتمضي الرواية تحدثنا عن ان رسالة خرجت – بعد هذه المعاهدة – من بيت الخليفة الثالث إلى عُمّاله وعليها خاتم الخليفة ، يدعوهم فيها إلى نصرته ، وقتل رؤساء المعارضين ، وأنه أخذ يتاهب للقتال ويعدّ جيشاً عظيماً من رقيق الخمس .. مما اثار شكوك المعارضين ، فعادوا إليه ، وطالبوه بعزل الولاة فوراً ، او خلع نفسه فلم يفعل . ثم انكر الرسالة وادّعى انها تزوير عليه .. ولعل اصابع بني امية داخل البيت كانت قد زورت الرسالة وغيّمت سحب الشكوك ، ووقعت الفتنة [٦٣] .

وهكذا جرت الرياح في اتجاه العنف ، وقتل عثمان ، وغلب الثوار على المدينة ، ولخص الإمام علي (ع) الواقعة بعدئذ في كلمتين ، حين قال عن مقتله :

" لو امرت به لكنت قاتلاً ، او نهيت عنه لكنت ناصراً " .

واضاف : " وانا جامع لكم امره ، استاثر فاساء الاثرة ، وجزعتم فاساتم الجزع ، ولله حكم واقع في المستاثر والجازع " [٦٤] .

ولعل حكم الله الواقع في المستاثر ان يكبوَ به فرس السلطة ويقتل على فراشه ، وحكمه في الجازع أن يكون كمن يجتني الثمرة في غير اوانها فلا يهنا بها . وهكذا استطاع الحزب الأموي ان يستفيد من مقتل الخليفة اكثر من الثوار . حتى تبرأ من مقتل الخليفة مَن كان من اشد المحرّضين عليه ، فهذه أم المؤمنين عائشة كانت تهتف : اقتلوا نعثلاً فقد كفر . وهذا طلحة والزبير ، كانا يواصلان التحريض عليه ويجرّدان الجيوش ضدّه . وهذا عمرو بن العاص يؤلّب عليه حتى الرعاة . ولكنهم جميعاً انحازوا إلى صف المطالبين بدمه .

ولو سمعوا نصيحة الإمام عليه السلام لكانت الخلافة تعود إلى مراسيها دون إراقة دماء ، وإثارة الفتن .

---

(٦٣) سيرة الأئمة الاثني عشر : ج ١ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥ نقلاً عن الطبري : ص (١١٢) المجلد الخامس .

(٦٤) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص ٣٤٨ ) . ويقول ابن ابي الحديد في شرح النهج ج١ / ص ٢٣١ : " سئل ابو سعيد الخدري : هل شهد مقتل عثمان احد من الصحابة ؟ قال نعم : شهده ثمانمائة " .

## الفصل الرابع

# عهد امامته عليه السلام

### هكذا سعت الخلافة نحو الإمام (ع) :

وحملت امواج الإضطراب سفينة الأمة بعيداً عن شواطئ الأمان ، واجتمع المهاجرون والأنصار وفيهم طلحة والزبير ، وأجمعوا على بيعة الإمام (ع) فجاؤوا إليه مسرعين وقالوا : لابد للناس من إمام .

قال : لا حاجة لي في أمركم ، فمَن اخترتم رضيت به .

قالوا : ما نختار غيرك ، واضافوا : إنا لا نجد اليوم احدا احق بهذا الأمر منك .

قال : لاتفعلوا ، فإني أكون وزيراً خيراً من ان اكون اميراً .

فقالوا : لا والله ، ما نحن بفاعلين حتى نبايعك .

قال : ففي المسجد ، فإن بيعتي لاتكون خفيّةً ولا تكون إلاّ عن رضا المسلمين .

فخشي الناس عليّاً ، فقالوا نبايعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام .

فقال : " دعوني والتمسوا غيري ، فإنا مستقبلون امراً له وجوه والوان . لاتقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول " .

فقالوا ننشدك الله ، الاَ ترى ما نحن فيه ؟ الاَ ترى الإسلام ؟ الاَ ترى الفتنة ؟

فقال : " قد اجبتكم واني إن اجبتكم ركبت بكم ما اعلم " [٦٥] .

أجل ، إن الإمام (ع) يرفض الخلافة لأن امواج الفتنة قد بلغت اعلى مد ، ويود لو يكون وزيراً يساهم من موقع حُرٍ في إخماد نيران الفتنة ، ولكن لا احد رشح نفسه للخلافة ، ولا احد كان يقبل بغير الإمام (ع) .

والإمام يرفض بيعة أهل الحل والعقد من دون رضا الناس ، ويرى ذلك حق عامة الناس ، فيجعلها في المسجد على الملأ العام .

ويشترط عليهم بان يقودهم على علمه ، لا بجهلهم ، ووفق سنّة الرسول ، لا مصالح اصحابه وضغوط القوى السياسية .

واستقبل الإمام عهده ، بالثورة ضد الوضع الفاسد ، وقد عقد عزمات قلبه جميعاً على مواجهة كل تلك العقبات التي خضع لها او توقف عندها من كان قبله ، واعظمها القوة السياسية المتنامية عند بني امية ،

---

(٦٥) المصدر : ج ٢ ، ص ٤ ، عن الطبري وابن الأثير .

ومن تحالف معهم من بقايا العهد الجاهلي .

والواقع ان تصفية هذه القوة ، كانت من اعظم المهام الرسالية التي بداها الرسول ، وتابع أصحابه من بعده نهجه بفتور ، حتى إذا جاء الإمام (ع) وكانت الظروف مؤاتية ، نهض بها بحزم راسخ .

او ليسوا هم الشجرة الملعونة في القرآن ، اوليس الرسول (ص) قد حذّر منهم ، وقال : " إذا رايتم معاوية هذا على منبري فاقتلوه ، ولن تفعلوا " .

إنهم كانوا اكبر قوة سياسية في الجزيرة ، وكان الرسول قد احتواهم ، لعلهم يؤوبون إلى رشدهم ، ويكيّفون انفسهم مع الواقع الجديد ، او تقوى شوكة الإسلام فتقضي عليهم في الوقت المناسب . وها قد حان ذلك الوقت ، فإنهم ليس فقط لم يذوّبوا انفسهم في بوتقة المجتمع الإسلامي . بل ما فتئوا يدبّرون المؤامرات ضد القوى الرسالية ، ويتحيّنون الفرص للانقضاض على السلطة .

ومن هنا نجد الإمام علياً (ع) يبدا عهده بالهجوم على بني امية وامتيازاتهم التي ابتزّوها من الخليفة السابق .

يروي ابن ابي الحديد ، عن ابن عباس ان علياً خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال :

" إن كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوّج به النساء وفُرّق في البلدان لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور اضيق " [٦٦] .

وعزل الإمام عمال الخليفة السابق وهم حكام الولايات الإسلامية ، واصرّ على عزل معاوية ، قائد الحزب الأموي السياسي والعسكري ، والذي كان يرضى من الإمام إبقاءه على الشام كما فعل السابقون ، لعله يجد فرصة أخرى لتحقيق هدف حزبه في السلطة .

لقد كانت تلك اعظم مسؤوليات الإمام (ع) إذ عهد إليه رسول الله (ص) تكميل ما بداه من تصفية القوى الجاهلية وبقاياها ، وقال له مرة :

" تقاتلهم على تاويله ، كما قاتلناهم على تنزيله " .

وإن اهل البصائر من اصحاب رسول الله (ص) واعون تماماً لهذه الرسالة الإلهية التي يجب عليهم تنفيذها ، وإن الإمام إنما قبل بالإمارة لتحقيق هذا الهدف . وبذل قصارى جهده لتحقيق واحد من هدفين متدرجين :

١- فإما سحق بقايا النظام الجاهلي وإقامة نظام العدل الإسلامي .

٢- وإما تعرية هذه القوة الجاهلية وفضحها وإيجاد حركة رسالية تهدف إلى القضاء عليها وتمنعها من تحقيق كل اهدافها .

---

(٦٦) المصدر : ج ٢ ، ص ١١ .

ولأن الظروف لم تسمح لتحقيق الهدف الأول ، فلقد حقق الهدف الثاني ، ولنشا في الأمة طليعة رسالية ناضلت ضد بني أمية حتى تمت تصفيتهم كاملاً دون أن يحققوا هدفهم الرئيسي ، وهو إعادة الناس إلى الجاهلية . والقصة التالية تكشف جانبا من أهداف معاوية .

كان معاوية – بعد ان تم له الأمر ظاهرا – يستمع إلى الأذان ، وإلى جانبه بعض خواصه ، وإذا به يتميز من الغيظ عندما يسمع المنادي يهتف " أشهد ان محمداً رسول الله " فيسأله صاحبه عن ذلك فيقول :

إن أخا تيم حكم وذهب ، فقال الناس رحم الله أبا بكر .

وكذلك لخو عدي ، لم يزد الناس بعد حكمه أن قالوا : رحم الله عمر .

ولكن هذا ابن أبي كبشة ( أي رسول (ص) لم يَرْضَ حتى قُرن اسمه باسم الله ، لا والله إلاّ دفناً دفناً .

امّا يزيد ابنه الماجن فقد أنشد قائلاً :

لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

من هنا وضع امير المؤمنين (ع) استراتيجيته على أساس محاربة الباطل وتصفية الحزب الأموي مهما كلفه الأمر .

## الإمام (ع) يجاهد أعداء الدين :

وكأية ثورة أصيلة ، واجهت ثورةُ أنصار الحق ، ثلاثة محاور معادية :

١– بقايا العهد البائد .

٢– الإنتهازيين .

٣– المتطرفين .

امّا الإنتهازيون فهم الذين يسايرون الثورة أيام تصاعد مدها يبغون ركوبها لتحقيق مطامعهم السياسية باسم المساهمة فيها . فإذا رأوا قيادة الثورة واعية ، قلبوا ظهر المجنّ وحاربوها وهم عادة ما ينهزمون أمامها . إن قوة هذا الفريق كامنة في مكرهم وتلوُّنهم ، فإذا افتضحوا فشلوا وانهزموا .

وكان طلحة والزبير واقرانهما من هذا الفريق حيث عارضوا الخليفة الثالث ، وكانوا يمنّون انفسهم بالسلطة أو بنصيب منها على الأقل . فلما رأوا ميل الناس إلى أمير المؤمنين ، انحنوا للعاصفة مؤقتاً ، وبايعوه ، بل كانوا أول من بادر إلى بيعته طمعاً في تقاسم السلطة معه . ولكنهم وجدوا الإمام لايطلب الحق بالجور ، ولم يحقق طلب طلحة والزبير بإمارة الكوفة والبصرة ، وكان لهما فيهما شيعة وهواة ، فتمردوا عليه ونكثوا بيعته ، وطالبوه بدم من قتلوهم ، وادّعوا بانهم أولياء الخليفة الثالث ، وتحملوا وزراً عظيماً ، لأنهم بادروا إلى إشعال نار الفتنة بين المسلمين ، وكانت الحرب التي أعلنوها أول حرب دامية بين المسلمين .

## حرب الجمل :

كان ابو بردة عوف الأزدي ممن تخلف عن نصرة الإمام في الكوفة ، فلما عاد الإمام فاتحاً من البصرة ، عاتب المتخلّفين ، وقال :

" ألاَ إنه قد قعد عن نصرتي منكم رجال ، فانا علَيهم عاتبٌ زارٍ ، فاهجروهم واسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ، ليُعرفَ حزبُ الله عند الفرقة " .

فقام إليه ابو بردة ، وقال : يا امير المؤمنين ارايت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بمَا قُتلوا ؟

قال (ع) : قَتلوا شيعتي وعمالي وقَتلوا اخا ربيعة العبدي رحمة الله عليه في عصابة من المسلمين ، قالوا : لا ننكث كما نكثتم ، ولا نغرر كما غررتم ، فوثبوا عليهم فقتلوهم ، فسألتهم أن يدفعوا اليَّ قتلة إخواني اقتلهم بهم ، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم ، فأَبوا عَليَّ ذلك وقاتلوني ، وفي أعناقهم بيعتي ودماء قريب من الف رجل من شيعتي فقتلتهم بهم .

ثم خاطبه قائلاً : افي شك انت من ذلك ؟

قال : " قد كنت في شك ، فاما الآن فقد عرفت واستبان لي خطا القوم ، وإنك انت المهديّ المصيب " [67] . هكذا اختصر الإمام جرائم الناكثين .

ومرة أخرى حينما تواجه الفريقان بالبصرة ، دعا الإمام طلحة والزبير وحاججهما فقال :

" لعمري لقد اعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، إن كنتما اعددتما عند الله عذراً فاتقّيا الله سبحانه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً . الم اكن اخاكم في دينكما ، تحرمان دمي واحرم دماءكما ؟ فهل من حدث ما احل لكما دمي " .

قال طلحة : ألّبت الناس على عثمان .

فقال علي : " يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين . يا طلحة تطلب بدم عثمان ؟ فلعن الله قتلة عثمان ، يا طلحة جئت بعرس رسول الله (ص) تقاتل بها ، وخبأت عرسك ، اما بايعتني ؟ " [68] .

ثم ذكّر الإمام (ع) الزبير ببعض المواقف مع رسول الله (ص) ، فاعتزل المعركة ، ولما اعتزل الزبير الحرب وتوجه تلقاء المدينة ، تبعه ابن جرموز فغدر به ، وعاد بسيفه ولامة حربه إلى الإمام (ع) فاخذ الإمام يقلّب السيف ويقول :

" سيف طالما كشف به الكرب عن وجه رسول الله (ص) " ! .

فقال ابن جرموز : الجائزة يا امير المؤمنين ، فقال : إني سمعت رسول الله (ص) يقول : " بشر قاتل ابن صفيه ( الزبير ) بالنار " ! .

---

(٦٧) المصدر : ( ص ٥٤ ) .

(٦٨) المصدر : ( ص ٣٨ ) .

ثم خرج ابن جرموز على عليٍّ مع أهل النهروان فقتله معهم فيمن قتل [69] .

ومن خلال أسطر التاريخ نكتشف ان الزبير وطلحة وعائشة كانوا جميعاً ، مترددين في مسيرهم ، وكم قرر الواحد منهم العودة . إلاّ ان هناك يداً خفية كانت تثبط عزمهم وتعيدهم إلى قلب الفتنة من جديد .

فهذا طلحة ياتي إلى البصرة فيخطب الناس ، ويدعوهم إلى خلع الإمام (ع) فيقولون له : يا ابا محمد قد كانت كتبك تاتينا بغير هذا ، فسكت ولا يجد جواباً ، ويقدم الزبير للخطاب .

وهـذه عائشة تمر في مسيرها إلى البصرة بماء يسمّى ( الحواب ) فتنبح بها كلابه . قالت : اي ماء هذا ؟ قيل هذا ماء حواب . فإذا بها تصرخ باعلى صوتها ثم تضرب عضد بعيرها فتنيخه ثم تقول :

انا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً رُدُّوني ، رُدُّوني ، رُدُّوني ..

هكذا ظلت هناك ومعها قومها يوماً وليلة ، فخدعها عبد الله بن الزبير ، وجاؤوا لها باربعين رجلاً وقيل بخمسين من الأعراب رشَوهم فشهدوا ان هذا ليس بماء الحواب [70] .

ويظهر عبد الله بن الزبير ، في الصورة مرة اخرى حينما اراد والده الاعتزال ، فانحاه ، وغرَّر به .. مثله مثل محمد بن طلحة .

كماان مروان بن الحكم ، يظهر في الصورة في بعض الأحيان وهو يحرض على الإستمرار في القتال ..

هكذا نكتشف الأصابع التي كانت وراء الشخصيات الظاهرة في حرب الجمل ، وهم تحالف بني امية مع بعض الطامعين في السلطة ، من غيرهم ، تستّروا بهم ، وقالوا لانفسهم ، لو ظفروا كان لنا معهم مثلما كان ايام الخليفة الثالث . اما إذا فشلوا ، فقد ضربنا عصفورين بحجر واحد ، فمن جهة تخلصنا من المهاجرين والانصار الطامعين في الخلافة ، حيث يصفي بعضهم بعضاً . ومن جهة ثانية سقطت هيبتهم بين المسلمين وظهروا في اعين الناس بمظهر الباحث عن مصالح شخصية .

وهكذا نستطيع ان نفسر وقوف الحزب الأموي إلى جانب طلحة والزبير وعائشة وهم من اشد المحرضين ضد عثمان ، وضد استئثار بني امية بالسلطة والثروة في عهده .

وكان الناس يتساءلون انهم يريدون البصرة يطالبون اهلها بدم عثمان وقاتلوا عثمان معهم . فقد روى الطبري بسنده عن المغيرة بن الأخنس قال ، لقي سعيد بن العاص ، مروان بن الحكم واصحابه بذات عرق فقال ، اين تذهبون وثاركم على اعجاز الإبل ؟ ( قال ابن الاثير يعني عائشة وطلحة والزبير ) . اُقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم ، لا تقتلوا انفسكم . قالوا ، بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً [71] .

ولعلهم اشاروا في نهاية حديثهم إلى ان هدفهم ضرب الناس ببعضهم للتخلص منهم جميعاً ، وهذا يفسر ايضاً ما ذكره ابن الاثير من ان مروان بن الحكم هو الذي رمى سهماً نحو طلحة فاصابه في رجله

---

(٦٩) المصدر : ( ص ٣٩) عن أبن أبي الحديد .

(٧٠) المصدر : ( ص ٢٥ ) .

(٧١) المصدر : ( ص ٢٢ ) .

وقتله [٧٢] . لقد ابلغ امير المؤمنين (ع) حينما بيّن في اكثر من خطاب طبيعة هذه الحرب وأن وراءها قريش التي حاربها لأجل الرسالة وهم كافرون ، ويحاربها اليوم لذات الهدف ، وهم مفتونون .

يقول الشيخ المفيد ، لما نزل امير المؤمنين (ع) الربذة لقي بها آخر الحاج فاجتمعوا إليه ليسمعوا من كلامه — وهو في خبائه — قال ابن عباس فاتيته فوجدته يخصف نعلاً ، فقلت له ، نحن إلى أن تصلح امرنا احوج منا إلى ما تصلح . فلم يكلمني حتى فرغ من نعله ، ثم ضمها إلى صاحبها وقال لي : قوّمها . فقلت ، ليس لهما قيمة ، قال ، على ذاك ، قلت ، كسر درهم قال ،

" والله لَهُمَا احَبُّ إليَّ من امركم هذا ، إلاّ ان اُقيم حقّاً او ادفع باطلاً " .

قلت إن الحاجَّ قد اجتمعوا ليسمعوا من كلامك ، فتاذن لي ان اتكلم ، فإن كان حسناً كان منك ، وإن كان غير ذلك كان مني ؟ قال ، لا ، انا اتكلم . ثم وضع يده على صدري ، وكان شثن الكفين فآلمني ثم قام ، فاخذت بثوبه ، وقلت نشدتك الله والرحم ( وكانه خاف ان يتكلم بما ينفرّ الحاجّ ) قال ، لا تنشدني ، ثم خرج ، فاجتمعوا عليه ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال ،

" اما بعد فإن الله بعث محمداً وليس في العرب احد يقرا كتاباً ولا يدَّعي نبُّوة ، فساق حتى بوأهم محلتهم ، وبلغهم الناس الى منجاتهم . اما والله ما زلت في ساقتها . ما غيّرت ولا بدّلت ولا خُنت حتى قولت بحذافيرها ، مالي ولقريش ؟، اما والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلنهم مفتونين ، وإن مسيري هذا عن عهدٍ إليّ فيه . والله لابقرن بالباطل حتى يخرج الحق من خاصرته . ما تنقم منّا قريش إلاّ ان الله اختارنا عليهم ، فادخلناهم في حَيِّزنا " .

وانشد ،

أدَمْتَ — لَعمري — شُربك المحضَ خالصاً | واكلك بالزُّبد المقشرة البُجُرَا
ونحن وهبناك العلاء ولم تكن | عليّاً وحُطنا دونك الْجُرد والسُمْرا [٧٣]

وهكذا نجد قريشاً — التي لاتزال احلام السلطة على العرب تراودها — تتظاهر بالدين ، وتقود حرباً ضده وقد استعادت قواها المنهارة ، مستغلة ضعف الخليفة الثالث ، وغررت ببعض اصحاب الرسالة ، وطمعتها في الخلافة وذلك لعدم وضوح الرؤية عندهم . فهذا طلحة الذي كان يطمع في الخلافة بعد الخليفة الثاني فيؤلب اهل البصرة ضد الخليفة الثالث ، ويحرضهم على قتله ، ياتي بنفسه إلى البصرة وينادي مناديه ، من كان فيهم احد ممن غزا المدينة فلياتنا به فجيء بهم فقتلوا ولم ينجِ منهم إلاّ قليل [٧٤] بالأمس كان يقودهم ، واليوم ينقلب عليهم ويقتلهم . اوليس هذا غريباً ؟ بلى ، ولكن طلحة كان بالأمس قائداً ، واصبح اليوم رقماً في حسابات بني امية ، واضحى يصفّي حزبه بنفسه . ولم يكن يشك امير

---

(٧٢) المصدر : ( ص ٤٢ ) .

(٧٣) المصدر : ( ص ٢٤ ) .

(٧٤) المصدر : ( ص ٣١ ) .

المومنين في وجوب قتالهم لانه كان يعرف طبيعتهم واهدافهم الخبيثة ولان رسول الله (ص) كان قد اخبره بمسيره إليهم ، وانه سوف يقتل الناكثين .. نعم ، إنه لاقى صعوبة حقيقية في توعية الناس ، ولولا اهل البصائر من المهاجرين والانصار الذين نهضوا معه ضد الفئة الناكثة ، وأزروه ونصروه بذات القوة التي آزروا بها رسول الله (ص) لكانت قريش بمكائدها وقوتها وعصبياتها تشكّل خطراً حقيقياً ضد بقاء الإسلام .

ولقد استنهض الإمام (ع) جيش الكوفة الذين فتحوا بلاد فارس ، ثم استقروا هناك يحمون ثغور الإسلام ويبعثون بالسرايا لفتح المزيد من البلاد ، وإنما اختارهم لعلمه بوجود اهل البصائر من اصحاب النبي (ص) والفقهاء والقرّاء بينهم . ولقد قال لهم حين التقى بهم في منطقة ذي قار : " يا اهل الكوفة ، إنكم من اكرم المسلمين واقصدهم تقويماً ، واعدلهم سنّة وافضلهم سهماً في الإسلام ، واجودهم في العرب مركباً ونصاباً ، انتم اشد العرب وُدّاً للنبي (ص) واهل بيته ، وإنما جئتكم ثقة — بعد الله — بكم للذي بذلتم من انفسكم عند نقض طلحة والزبير ، وخلعهما طاعتي واقبالهما بعائشة للفتنة "[75] .

ولقد استمرت عرب الكوفة ، في ولائها لآل البيت ومحاربتها للخط الأموي حتى ازال الله دولة بني أمية في عهد العباسيين .

وحينما عبّأ الإمام (ع) جيشه ، سار بهم إلى البصرة حتى وردها ، والقى خطاباً هامّاً بيّن فيه مشروعية قتاله للناكثين ، كما اوضح استراتيجية حربه هذه ، فقال فيما قال :

" عباد الله : . انهدوا إلى هؤلاء القوم ، منشرحةً صدوركم بقتالهم ، فإنهم نكثوا بيعتي ، واخرجوا " ابن حنيف " عاملي ، بعد الضرب المبرّح والعقوبة الشديدة ، وقتلوا السبابجة ، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي ، وقتلوا رجالاً صالحين ، ثم تتبّعوا منهم من يحبني يأخذونهم في كل حائط ، وتحت كل رابية ، ثم ياتون بهم يضربون رقابهم صبراً . مالهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !، انهدوا إليهم وكونوا أشداء عليهم والقَوهم صابرين محتسبين ، تعلمون انكم منازلوهم ومقاتلوهم وقد وطنتم انفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران .

وايُّ امرئ منكم احسَّ من نفسه رباطة جاش عند اللقاء ، ورأى من إخوانه فشلاً ، فليذبُّ عن اخيه الذي فضل عليه ، كما يذب عن نفسه ، فلو شاء الله لجعله مثله "[76] .

وكان الإمام (ع) يرفض معاملة الناكثين كما لو كانوا كفاراً ، بل منع اصحابه من المبادرة بالقتال ، ولم يأذن لهم به إلاّ بعد ان رمى اصحاب الجمل عسكره بالنبل رمياً شديداً متتابعاً ، فضج إليه اصحابه وقالوا : عقرتنا سهامهم يا امير المؤمنين ، فلم يأذن لهم حتى بعث إلى عسكر البصرة رجلاً يحمل مصحفاً ويدعوهم إلى التحاكم إليه فقتلوه فاصدر امره بقتالهم .

---

(٧٥) المصدر : ( ص ٣٥ ) .

(٧٦) المصدر : ( ص ٣٧ ) .

وظل القتال ثلاثة ايام وابدى اصحاب النبي (ص) من المهاجرين والأنصار البطولات التي اشتهروا بها ايام رسول الله (ص) ، وقد اجتمعوا في كتيبة واحدة سميت بالكتيبة الخضراء ، يقودهم سيدهم واميرهم الإمام علي (ع) وقد هجمت في اليوم الأخير على الجمل الذي كان يعتبر راية الناكثين ، فعقروه . فلما سقط انهزم جميعهم ، وانتهت المعركة بانتصار الإمام (ع) الذي نادى مناديه : الاّ تتبعوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تدخلوا الدور ، ولا ترزاوا سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً . ومن القى سلاحه فهو آمن ، ومن اغلق بابه فهو آمن .

ثم مشى الإمام (ع) إلى عائشة وهي الباقية من قيادات المعارضة فاستقبلته صفية بنت الحارث وقد ثكلت بابنها فقالت له :

يا علي ! يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجمع ، أيتم الله منك بنيك كما ايتمت ولد عبد الله منه . فمشى عنها ولم يرد عليها . ثم دخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها ، فاخذت تعتذر إليه وتقول : إني لم افعل . فلما خرج الإمام اعادت صفية قولها المنكر للإمام فكفَّ عنها ولكنه قال : وهو يشير إلى بعض غرف الدار : أما لَهممتُ ان افتح هذا الباب واقتل مَن فيه . ثم هذا فاقتل مَن فيه ، ثم هذا فاقتل من فيه . وكان اناس من مجرمي الحرب قد لجاوا إلى عائشة ، منهم مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير ، فتغافل الإمام (ع) عنهم . فقال رجل من الأزد وهو يشير إلى صفية ، والله لاتغلبنا هذه المراة فغضب الإمام ، وقال :

" صه ، لا تهتكنّ ستراً ، ولا تدخلنّ داراً ، ولا تهيجنّ امراة باذى وإن شتمن اعراضكم ، وسفهن امراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن ، وإنهن لَمُشركات " [77] .

وهكذا ادب الإمام اصحابه كيف يتعاملون مع اعدائهم بالرفق ، بالرغم من ان انهراً من الدم قد جرت بينهم . ثم مضى الإمام إلى بيت المال وقسم ما فيه على الجند بالسوية ، فاعطى كل واحد خمسمائة ، واخذ ايضاً خمسمائة ، وجهّز عائشة بما تحتاج من مركب وزاد ، وارسلها إلى المدينة واختار لها اربعين امراة من نساء اهل البصرة المعروفات ، وارسل معها اخاها محمداً ، وكان من اقرب اصحاب الإمام إليه . واستخلف على البصرة ابن عباس وكتب إليه عهداً قال فيه .. فارغب راغبهم بالعدل عليه والانصاف له والاحسان إليه ، وحل عقدة الخوف عن قلوبهم .

وكتب إلى امراء الجيش وهو يحدد معالم حكمه :

" لكم عندي الاّ احتجز دونكم سراً إلاّ في حرب ، ولا اطوي عنكم امراً إلاّ في حكم ، ولا اؤخر حقاً لكم عن محله ، ولا ارزأكم شيئاً وإن تكونوا عندي في الحق سواء " .

وعاد ادراجه إلى الكوفة ورايات النصر ترفرف عليه ، وابى ان يدخل قصر الإمارة بل اختار بيت جعدة بن

---

(٧٧) المصدر : ( ص ٥٥ ) .

ابي هبيرة المخزومي ، وكان ابن اخته أم هاني ، وقال عن قصر الإمارة ؛ إنه قصر خبال لا تُنزلونيه .

## صفين : المنعطف الخطير :

وكانت لاتزال أمام الإمام عقبة كأداء لابد من تجاوزها حتى يقيم العدالة ويجري احكام الله ، فهذا معاوية ابن أبي سفيان قائد الردة الجاهلية يحبئ إليه كل الحاقدين على الإسلام ، والموتورين وبقايا العهد البائد ، ويجمع إليهم الطامعين والأثرياء المترفين . وقد اركز نفسه في الشام منذ ان ولاه عليها الخليفة الثاني بعد وفاة أخيه يزيد بن ابي سفيان ، قائد جيوش الشام . وقد حاول الخليفة الثاني جلب رضا بني أمية — القوة السياسية والعسكرية الأكثر تماسكاً والأبعد عن الدين — وقد زعم الحزب الأموي ان الشام قد أضحت إقطاعة خالصة لهم وإلى الأبد ، فركز قواه العسكرية هناك ولم يتصور انَّ حاكماً في البلاد يجرؤ على مطالبتهم بها ، مادام الخليفة الثاني الأقوى بين الخلفاء غض طرفه عما يجري في الشام من تدعيم وجود الحزب المنافس للإسلام ، وكان يستثني الشام من قوانينه المشددة ، كقانون من اين لك هذا الذي اخترعه لمقاومة الترف الذي هبط إليه الحكام الجدد ، حتى أبو هريرة الراوية المعروف ، لم ينج من هذا القانون الصارم ، ففقد الكثير مما جمعه في البحرين تبعاً له ، بينما معاوية وحزبه الأموي ، الذي كان يرسي قواعد ملكه العضوض في الشام ، ويجمع الثروات الطائلة ، ويغدق الهبات السخية على المنتفعين ، كان يُستثنى منهم . وحينما قيل له في ذلك برر سكوته عنه بانه يمثل عز الإسلام ، ولا تظن أنه كان قادراً على ضبط معاوية دون ان يدفع ثمناً باهضاً . وفعلاً قد دفع حياته ثمناً لبعض الضغط على الحزب الأموي في العاصمة وليس في الشام .

هكذا زعم معاوية ان بإمكانه ان يبقى حاكماً على الشام في عهد الإمام (ع) وما راعه إلاّ حكم علي (ع) بفصله وتولية غيره !!

وكان الإمام (ع) اعلم من غيره بواقع معاوية ، وان مسيره إليه لايعني النصر عليه بالتاكيد ، إذ ان جيش معاوية المتماسك ذي الولاء الجاهلي ، يختلف عن جيشه الذي تتضارب اهواؤهم ولم يخلص ولاؤهم ، بالرغم من وجود قلة مؤمنة فيهم .

وقد صرح بذلك في أكثر من مناسبة فقال لجيشه مرة ؛

" يا ليت معاوية يبادلني جيشه صَرْفَ الدينار بالدرهم ، يعطي واحداً ويأخذ عشرة ! " .

وقبل المسير إلى الشام قال احد قادة جيش الإمام للثاني وهو يسمعهما ، إن يومنا ويومهم ليوم عصيب لا يصبر عليه إلاّ كل مشبع القلب ، صادق النية . رابط الجاش . واضاف القائل وهو زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن بديل قال ؛ وايم الله ما اظن ذلك اليوم يبقي منا ومنهم إلاّ الأرذال . فقال له صاحبه ؛ وانا والله اظن ذلك . فنظر إليهما الإمام (ع) وكانه يؤيدهما ، ولكنه يطالبهما بمراعاة ظروف الحرب ، وقال ؛

" ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما لاتظهراه ولا يسمعه منكما سامع . إن الله كتب القتل على قوم

والموت على آخرين ، وكل آتيه منيته كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين في سبيل الله . والمقتولين في طاعته "[78] .

هكذا كان يجري الحوار بين قيادات الجيش وهكذا كان الإمام (ع) يحدد الهدف من القتال وهو ابتغاء رضوان الله . ومقاومة المفسدين مهما كانت العواقب .

## معاوية يعترف ويعاند :

ومعاوية – بدوره – كان يعترف بفضائل الإمام (ع) وانه الأفضل بعد رسول الله (ص) إلاّ انه كان يتمسك بقميص عثمان ، ويرى انه احق الناس به . وإذا كانت حجة معاوية واهية فإن دهاءه ومكره وأسباب القوة التي اجتمعت عنده كان يغنيه عن قوة الحجة . وكان يعترف بذلك مما يكشف عن طبيعة الصراع بينه وبين الإمام (ع) .

وقد حفظ التاريخ سجلاً كبيراً من اعترافات معاوية بفضل الإمام (ع) وبالذات في الرسائل الخاصة المتبادلة بينه وبين كبار الأصحاب ، ولكن الرسالة الأبلغ كانت التي بعثها إلى محمد بن ابي بكر ، وكان محمد من اشد المدافعين عن نهج الإمام علي (ع) . لقد بعث معاوية إلى محمد ابن ابي بكر كتاباً جاء فيه من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على ابيه محمد بن ابي بكر ، سلام على اهل طاعة الله .

أما بعد ، فقد اتاني كتابك ، لرايك فيه تضعيف ، ولابيك فيه تعنيف . ذكرت حق ابن ابي طالب ، وقديم سوابقه وقرابته واحتجاجك بفضل غيرك لا بفضلك . فاحمد إلهاً صرّف الفضل عنك وجعله لغيرك . وقد كنا – وابوك معنا – في حياة نبيِّنا نرى حق ابن ابي طالب لازماً لنا ، وفضله مبرزاً علينا ، فلما اختار الله لنبيِّه ( صلى الله عليه وآله ) ما عنده كان ابوك وفاروقه اول من ابتزّه وخالفه ، ثم قام عثمان يهتدي بهديهما ويسير بسيرتهما إلخ[79] .

وهكذا يعترف معاوية بفضل الإمام عليه وعلى كل أصحاب الرسول محاولاً إثارة عصبية محمد بن أبي بكر .

وفي حوار جرى بين معاوية وعمر بن العاص الذي كان من قادة العرب في الجاهلية ، وكان حليفاً تاريخياً لبني أمية ، قال له معاوية ، يا ابا عبد الله ، إني ادعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربه ، وقتل الخليفة واظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم .

قال عمرو ، إلى من ؟

قال ، إلى جهاد علي .

فقال له عمرو ، ما انت وعلي بِعِكمَي[80] بعير ، مالك هُجرتُه ، ولا سابقتُه ، ولا صحبته ، ولا جهاده ،

---

(٧٨) المصدر : ( ص ٩١ ) .

(٧٩) المصدر : ( ص ٩٣ ) .

(٨٠) العكم بالكسر : العدل والعكمان : العدلان .

ولا فقهه ، ولا علمه . والله إن له — مع ذلك — حدّاً وحدوداً ، وحظاً وحظوة وبلاء من الله حسناً .

فما تجعل لي إن شايعتك على حربه ، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟

قال : حكمك .

قال : مصرَ طُعمة .

فتلكأ عليه معاوية .

قال له : إني اكره لك أن يتحدث العرب عنك انك إنما دخلت في هذا الأمر لعرض الدنيا . قال : دعني عنك .

هكذا تم التحالف بين معاوية وبين قائد جاهلي جمع خبرة العرب في الحرب .

وبعد إجراء هذه الصفقة التي تعكس طبيعة التجمع الأموي غضب مروان — وهو أحد القيادات الأموية — وقال : ما لي لا أُشْتَرَى كما اشْتُري عمرو ؟. فقال له معاوية : إنما تُباع الرجال لك [81] .

وكان يشير معاوية بذلك إلى أن مروان جزء من الحزب الأموي وأنه إنما يسعى لإعادة أمجاده الجاهلية .

ومرة أخرى اعترف معاوية لقراء الشام ، وهم الطائفة المؤمنة فيهم ، اعترف بفضل الإمام (ع) فحين قالوا له : علام تقاتل علياً وليس لك مثل صحبته ولا قرابته ولا سابقته ؟. قال لهم : ما أقاتل علياً ، وأنا ادعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته .

ولكنه تشبث عندهم بقميص عثمان فقال لهم : ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ؟

قالوا : بلى .

قال : فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به ، ولا قتال بيننا وبينه [82] .

ولكن الإمام (ع) أجاب عن هذا الطلب الماكر ، فقال ، في رسالته إلى معاوية نقلها المبرد في الكامل هذا نصها :

من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إلى معاوية بن صخر بن حرب .

أما بعد :

" فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده . دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الضلال فاتّبعه . زعمتَ أنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنتُ إلاّ رجلاً من المهاجرين ، أوردتُ كما وردوا ، وأصدرتُ كما صدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ولا يضربهم بالعمى .

وبعد : فما أنت وعثمان ؟. إنما أنت رجل من بني أمية ، وبنو عثمان أولى بذلك منك .

فإن زعمت أنك أقوى من دم أبيهم منهم ، فادخل في طاعتي ثم حاكِمِ القومَ إليّ أحملك وإياهم على

---

(٨١) المصدر : ( ص ٧٤ ) .

(٨٢) المصدر : ( ص ٨٤ ) .

المحجة " [83] .

هكذا أتم الإمام (ع) الحجة على معاوية بما يلي :

أولاً : بأن شرعية عمله منبثقة من أنه إجماع المهاجرين الذين لايجمعهم الله على الضلال .

ثانياً : بأن بني عثمان هم أولياء الدم ، وليس معاوية .

ثالثاً : بأن طريقة المطالبة بالدم ، هي التحاكم إلى السلطة الشرعية وليست التمرد عليها باسم المطالبة بالدم .

إلاّ أن معاوية لم يكن يأبه بهذه الحجج ، لأنه كان يسعى لإعادة أمجاد بني أمية الجاهلية . وقد اجتمع إليه الموتورون الحاقدون على الإسلام ، من بقايا العهد البائد . وقد أقام لهم نظام مصالح ، وحوّل السلطة الى شركة مساهمة ، بين الطلقاء والأدعياء والمترفين .

وهكذا جرى تبادل رسائل بين الإمام (ع) ومعاوية ردحاً من الزمن ، وقد قام أهل الإصلاح بمحاولات شتى لردع معاوية عن سفك دماء المسلمين ، فلم يفلحوا . وفي آخر رسالة بعثها الإمام (ع) قبل قراره بالمواجهة العسكرية كتب يقول ( بعد حديث طويل ) :

" وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ، وحقن دماء هذه الأمة . فإن قبلتم أصبتم رشدكم ، وإن أبيتم إلاّ الفرقة وشق عصا هذه الأمة ، لن تزدادوا من الله إلاّ بُعْداً ، والسلام " .

فكتب إليه معاوية :

ليس بيني و بين قيس عتابٌ        غير طعن الكلى وضرب الرقاب [84]

وكان الجواب بمثابة إعلان حالة الحرب . فكتب الإمام (ع) إلى عماله في الآفاق يحرضهم للقتال ، كما عبأ قدرات جيش الكوفة العسكرية ، بخطب حماسية لاهبة . وقد ساهم نجلاه الإمامان الحسن والحسين (ع) وأصحاب رسول الله ، وبالذات البدريون وأصحاب بيعة الرضوان منهم ساهموا – بما كان لديهم من مكانة مرموقة بين المسلمين – في تعبئة الطاقات الإيمانية في الأمة .

ولقد كان مع الإمام (ع) من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً ، منهم سبعة عشر من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار . وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة ( بيعة الرضوان ) تسعمائة ، وكان مجمل عدد أصحاب رسول الله ، في ركب الإمام (ع) ألفين وثمانمائة رجل [85] .

وكان الإمام (ع) يعطيهم مكانتهم المناسبة لهم ، وهم – بدورهم – كانوا متفانين في الدفاع عن حق الإمام في الخلافة ، لمعرفتهم بفضله ، وعلمهم بواقع بني أمية ، أعدائه وأعداء الإسلام .

وهكذا نجد الإمام (ع) لا يبت في أمر ، إلاّ بعد أن يستشيرهم ، ولم يعقد العزم على الحرب إلاّ بعد أن

---

(83) المصدر : ( ص ٧٩ ) .

(84) المصدر : ( ص ٩٠ ) .

(85) المصدر : ( ص ٨٦ ) نقلا عن المسعودي .

سالهم وقال وهو يخاطبهم :

" أما بعد :. فإنكم ميامين الراي ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحق ، مباركو الفعل والأمر . وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم ، فاشيروا علينا برايكم "[٨٦] .

فبادروا بالتاييد ، واستشهد كل منهم بحجة بالغة في شرعية قتال بني امية .

فقال عمار بن ياسر : يا امير المؤمنين ، إن استطعت أن لاتقيم يوماً واحداً فاشخص بنا قبل استعار نار الفجرة ، واجتماع رايهم على الصدود والفرقة ، وادعهم إلى رشدهم وحظهم . فإن قبلوا سعدوا ، وإن ابوا إلاّ حربنا ، فوالله إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم ، لقربة عند الله ، وهو كرامة منه[٨٧] .

أما عدي بني حاتم ، فقد أوضح خلفية بني امية في القتال ضد الإمام (ع) وقال :

إن القوم لو كانوا لله يريدون ، أو لله يعملون ما خالفونا . ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الاسوة وحبّاً للأثرة ، وضناً بسلطانهم ، وكرهاً لفراق دنياهم التي في ايديهم ، وعلى إحنٍ في انفسهم ، وعداوة يجدونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها — يا امير المؤمنين — بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم .

ثم التفت إلى الناس فقال :

كيف يبايع معاوية عليّاً ، وقد قتل اخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة في موقف واحد[٨٨] .

لقد لخص هذا الصحابي الجليل طبيعة الموقف في كلمات . فإن الحزب الأموي يطلب الدنيا ويحاول الحفاظ على مكاسبه في السلطة ، ويريد الإنتقام من الإمام (ع) والتابعين له ، لما انزلوا به هزائم نكراء في صدر الإسلام . وإنها بالتالي الردة الجاهلية بكل معنى الكلمة .

هكذا نجد أصحاب النبي محمد (ص) يجتهدون في الدفاع عن الخلافة الراشدة ، وقد استشهد الإمام (ع) في أكثر من مناسبة بموقف الأصحاب منه ومن بني امية .

وفي المعركة شكل الإمام كتيبة خاصة بهم يقودها شخصيّاً ، سميت بالكتيبة الخضراء .

وقد أبلت هذه الكتيبة في الدفاع عن الإسلام وحرماته بلاءً حسناً .

والواقع أن حضور هذه الكتيبة في معركة صفّين كان دليلاً على عافية الأمة ويقظة ضميرها ، فبعد وفاة الرسول (ص) بربع قرن حفل بالأحداث السياسية العظيمة ، ولاتزال الفئة التي نصرت الرسالة وتعرضت للآلام وقدمت التضحيات ، لاتزال تخوض غمار معركة الحق ضد الباطل ، دون أن تميل مع رياح الشهوات وعواصف السياسة .

ومن المعروف ان كثيراً من هؤلاء الصحابة الكرام كان قد تقدم بهم العمر ، حتى بلغوا من الكبر عتيّاً ، ولكنهم لايزالون في مقدمة المجاهدين ، وفيهم عمار بن ياسر ، الذي فقد والديه شهيدين في صدر

---

(٨٦) المصدر .

(٨٧) المصدر : ( ص ٨٦ ) .

(٨٨) المصدر : ( ص ٨٨ ) .

الإسلام ، وتعرض للضرب والإهانة منذ الأيام الأولى للبعثة ، وهو اليوم يناهز التسعين من عمره ويشد على وسطه حزاماً تنتصب قامته به ، ثم يدخل المعركة ، وهو ينادي الرواح الرواح إلى الجنة !. هكذا يصنع الإيمان بالقلوب الطاهرة والنفوس الزكية .

## هكذا وقعت الواقعة :

في البلاد الإسلامية جيشان جيش الشام وجيش الكوفة ، وها هما يلتقيان لا ليحاربا عدواً مشتركاً ، وانما ليتحاربا . فكم كانت الصدمة عنيفة في نفوس المسلمين ، وكم مشى رجال طيبون ، وكم سعى الإمام (ع) لردع معاوية عن هذا الغي والفساد العريض .

فمنذ أن التقى الجيشان بعث الامام كبار قادته ، إلى معاوية وقال لهم : ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى الطاعة والجماعة .

ولكنه يرفض إلاّ المطالبة بدم عثمان — كما يزعم — ويحاول ان يستخدم الوسائل الحربية التي كانت شائعة في الجاهلية . فلقد كتب في سهم ان معاوية يريد ان يفجر عليكم الفرات ، فيغرقكم فخذوا حذركم ، ويرمي به إلى معسكر الإسلام فيقع السهم بيد رجل فينقل الخبر إلى الآخرين ، وكالعادة تنتشر الشائعة في المعسكرات سريعاً ، ويرتحل الجيش عن الشريعة ويهجم معاوية عليها . ولكن اصحاب الإمام لايلبثون أن يزحزحوه عنها .

وعندما منع معاوية الماء — بعد سيطرته على الشريعة — عن اصحاب الإمام ، وامر الإمام بكسر الحصار عنها ، وقال كلمته المشهورة :

" الحياة في موتكم مقهورين ، والموت في حياتكم قاهرين " .

وزحف اصحاب الإمام (ع) نحو الماء وهزموا اعداءَهم ، واستولوا عليه . وزعم البعض ان الإمام سوف يقابل أعداءه بالمثل لأن الحرمات قصاص .

ولكنه رفض ذلك بقوة ، وارسل إلى معاوية رسولاً واخبره بان السبيل إلى الشريعة سالك وبإمكان جيشه الورود اليها متى ما شاؤوا .

## صور من معارك صفين :

وبدأت المعارك وكانت في صورة مناوشات على الأطراف ، وكانت القوى متكافئة في الأغلب . بيد ان دوافع الحرب كانت مختلفة ، فبينما نجد العصبية الجاهلية توقد نار الحرب عند جيش الشام ، نجد الروح الايمانية في أصحاب علي (ع) تحثهم على الجهاد والشهادة . فهذا قائد اموي كان يعدُّه معاويةُ وَلَدَهُ ، واسمه عبد الرحمن بن خالد ، يبارز قيادة جيش الإمام المتمثلة في تلك المعركة بعدي بن حاتم ويرتجز قائلاً :

قل لعدي ذهب الوعيدُ      انا ابن سيف الله لا مزيدُ

وخالد يزينه الوليدُ      فما لنا ولا لهم مَحيدُ

عن يومنا ويومكم فعودوا

إنك تراه كيف يفتخر بنسبه حتى تعود إلى اذهاننا ذكريات الجاهلية حيث كان الشخص يفتخر بآبائه وعشيرته .

و لكن عدي بن حاتم – بالرغم من مفاخره العظيمة – يذكر في رجزه الحربي دافعه الإيماني ويقول :

| | |
|---|---|
| ارجــو إلهـــي وأخـــاف ذنبـــي | وليـس شـيءٌ مثـل عفـو ربِّـي |

وقد افصح عبيد الله بن عمر ، وكان في صف معاوية عن خلفيات الحرب ، وذلك حينما التقى بالإمام الحسن المجتبى في أرض المعركة فقال :

إن اباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً ، وقد شناوه . فهل لك أن تخلعه ونوليك هذا الأمر ؟

وهكذا كشف عن الأحقاد الجاهلية التي طفحت بها قلوب قريش وهم قيادات ذلك الجيش .

ولكن الإمام الحسن (ع) رده بقوة وقال : كلا ، واضاف :

" لكاني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك . اما إن الشيطان قد زين لك وخدعك حتى اخرجك خلقاً بالخلوق ، ترى نساء أهل الشام موقفك ، وسيصرعك الله ، ويبطحك لوجهك قتيلاً " .

## هكذا قاتل عمار بن ياسر :

قام عمار بن ياسر فخطب في القوم يحرضهم على معاوية ويكشف حقيقة المعركة ، وخلفياتها فقال :

امضوا عباد الله ، إلى قوم يطلبون – فيما يزعمون – بدم عثمان ، والله ما اظنهم يطلبون دمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبُّوها واستمراوها ، وعلموا لو أن الحق لزمهم لحَالَ بينهم وبين ما يرغبون فيه منها . ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون لها الطاعة والولاية ، فخدعوا اتباعهم بان قالوا : قُتل إمامنا مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً ، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون . ولولا هي ، ما بايعهم من الناس رجلان .

ثم التقى بعمرو بن العاص فقال له : يا عمرو بعت دينك بمصر ؟، تبًّا لك ، وطالما بغيت الإسلام عوجاً .

ثم حمل على القوم ، وهو يرتجز بابيات تفيض إيماناً ويقيناً ، وتعكس شخصية عمار الجهادية وهو يومئذ يناهز التسعين من عمره :

| | |
|---|---|
| صـدق اللـه وهـو للصـدق اهـلٌ | وتعـالـى ربِّـي وكـان جـليـلا |
| ربِّ عجِّلْ شهـادة لـي بقتـل | فـي الـذي قـد احُب قتـلاً جميـلا |
| مقبـلاً غيـر مدبـرٍ ، إن للـقتـ | ـل علـى كـل ميتـة تفضيـلا |
| إنهـم عنـد ربهـم فـي جنـان | يشـربـون الرحيـق والسـلسبيـلا |
| مـن شـراب الأبـرار ، خالطـه المسـ | ـك وكاسـاً مزاجهـا زنجبيـلا |

ثم قال : اللهم إنك تعلم اني لو أعلم ان رضاك ان اقذف بنفسي في هذا البحر لَفعلت . اللهم إنك تعلم اني لو اعلم ان أضع ظُبة سيفي في بطني ثم انحني عليها حتى يخرج من ظهري لَفعلت ، ولو اعلم اليوم

عملاً هو أرضَى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين لَفعلته [89] .

وبهذه الروح الإيمانية المتسامية ، حارب الصفوة من أصحاب الرسول (ص) معاوية والمنافقين معه .

لقد كانت الشهادة غاية مناهم ، وكانوا على يقين أنهم على حق . وان عدوهم طالب ملك وباغي دنيا ..

وهكذا تقدم عمار بين الصفين ونادى : أيها الناس ، الرواحَ إلى الجنة ، فلما بصر راية عمرو بن العاص ، قال : والله إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاث مرات ، وما هذه بارشدهم . ثم قال :

نحن ضربناكم على تنزيله       فاليوم نضربكم على تأويله

ثم استسقى — وقد اشتد ظماه — فاتته امرأة بضياح من اللبن ، فقال حين شرب الأجنة تحت الأسنة :

اليوم القى الأحبّة       محمداً وحزبه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا انا على الحق وهم على باطل [90] .

هكذا تقدم الشيخ العظيم الذي التحق بمسيرة الرسالة منذ شبابه ، ولم يتخلف عن اية مهمة اوكلت إليه ، ودفعه النبي (ص) إلى مستوى الصديقين ، ولم تأخذه في الله لومة لائم . تقدم إلى الشهادة ببصيرة نافذة ، وخطى ثابتة ، وهو يحمل معه صحيفته المضيئة ، ذات التسعين صفحة مشرقة ، فلما توسط المعركة حمل عليه اثنان من المجرمين ( ابو العادية الفزاري ، وابن جون ) فقتلاه ، فالزم الله بقتله الحجة على أهل الشام ، إذ قال الرسول الأكرم (ص) يوماً :

" آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن ، وتقتلك الفئة الباغية " .

فلما انتشر خبر مقتله في معسكر أهل الشام ، وكاد يؤثّر على معنوياتهم ، قال معاوية إن علياً هو الذي قتله ، لانه هو الذي أخرجه لقتالنا . ولقد كان معاوية قد استخف قومه فاطاعوه ، وهكذا كان يتعامل مع سائر النصوص الدينية .

## الدفاع بكل وسيلة :

لقد كانت معارك صفّين غريبة ، فمعاوية كان قد اعد جيشه إعداداً جيداً ، وكانت إلى جانبه القيادات العربية العريقة ، والقبائل التي دخلت الإسلام بعد الفتح حاملة معها رواسبها وتقاليدها وطاعتها لشيوخها . وقد استفاد من خبرة الروم بحكم احتكاكه بحضارتهم في الشام ، وجهّز جنوده بافضل الأسلحة ، ومنّاهم بالأموال التي تكدست عند الحزب الأموي ، منذ أيام الجاهلية وتضاعفت على عهد عثمان .

وفي الجانب الآخر كانت التعبئة الروحية عند انصار الإمام (ع) في القمة ، فها هم اصحاب رسول الله (ص) وعددهم الف وسبعمائة ، بينهم كبار المهاجرين وبقية البدريين ، والمشتركين في بيعة الرضوان ، يتبعهم جيش من قراء القرآن والعُبّاد واصحاب البرانس ، وما نمى وتبارك من الجيل القرآني ، ومن ورائهم

---

(٨٩) المصدر : ( ص ١٥٣ ) .

(٩٠) المصدر : ( ص ١٥٧ ) .

القبائل العربية التي اتبعت هذا الخط بدافع أو بآخر .

وحين التقى الفريقان ، كانت الكفة متعادلة تقريباً ، ولذلك قلما كانت المعارك حاسمة ، وأنقل إليكم صورة معبرة واحدة من هذا التعادل :

يقول زياد بن نصر الذي كان في مقدمة جيش الإمام (ع) :

شهدت مع علي بصفّين ، فاقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ، حتى تكسرت الرماح ، ونفدت السهام ، ثم صارت إلى المسايفة ، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل ، حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضاً . وقد قاتلت يومئذ بجميع السلاح فلم يبق شيء من السلاح إلاّ قاتلت به ، حتى تحاثينا بالتراب وتكادمنا ، حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا الى بعض ما يستطيع واحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه ولا يقاتل .

فلما كان نصف الليل ، من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف ، وغلب علي على القتلى ، واقبل على أصحاب محمد وأصحابه فدفنهم ، وقد قتل كثير منهم ، وقتل من أصحاب معاوية أكثر [91] .

## الإمام (ع) يقود المعارك :

في صفّين تجلّى علي بشجاعته وبطولاته وصدق مواقفه ، لقد ذرّف الآن على الستين ، ولقد تواردت عليه مصائب لو نزل بعضها على الجبال لانهدّت ، ولكنه سيد المتقين الذي يتعالى على قمم الجبال .

مواقفه في صفّين تعكس جانباً من تلك الروح العظيمة ، وذلك الإيمان الصادق .

لقد أرسل الإمام (ع) إلى معاوية أنِ ابْرُزْ إليَّ واعفُ الفريقين من القتال ، فأيُّنا قتلَ صاحبه كان الأمر لـه .

فانظروا إلى هذه البطولة .. إنه يستعد لافتداء المسلمين بنفسه . ولكن معاوية قال في الجواب بالحرف الواحد : إني أكره أن أبارز الأهوج الشجاع ، ثم نظر إلى عمرو بن العاص الذي شجعه على قبول تحدي الإمام (ع) قائلاً : لقد انصفك الرجل ، نظر إليه وقال : لعلك طمعت فيها يا عمرو !

أما عمرو بن العاص الذي كان يعتبر من دهاة العرب ، ومن القيادات العربية العريقة في الجاهلية ، فقد أراد أن يأخذ الإمام (ع) على غرة ، فحمل عليه الإمام ، فلما كاد يخالطه رمى بنفسه عن فرسه ورفع ثوبه وشغر برجله فبدت عورته ، فصرف عليٌّ (ع) وجهه عنه ، وقام معفراً بالتراب هارباً على رجليه معتصماً بصفوفه فقال القوم : أفلت الرجل يا أمير المؤمنين .. قال : وهل تدرون من هو ؟. قالوا : لا ، قال : إنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه [92] .

وفي موقعة أخرى برز عروة بن داود الدمشقي إلى الإمام (ع) فضربه ضربة علوية فقدّه نصفين وقع نصفه يمنة ونصفه يسرة ، فارتج العسكر ، وخاطبه الإمام (ع) بعد مقتله قائلا :

---

(٩١) المصدر : ( ص ١٥٩ ) .

(٩٢) المصدر : ( ص ١٦٨ ) .

" يـا عـروة اذهـب فـاخبر قومـك ، أمَـا والـذي بعـث محمـداً بـالحق لقـد عـاينتَ النـار واصبحـتَ مـن النادميـــن "[93] .

فبرز إليه ابن عمه فالحقه الإمام (ع) بصاحبه . ومعاوية واقف على تل يبصر ويشاهد فقال ، تبّاً لهذه الرجال وقبحاً . أمَا فيهم من يقتل هذا مبارزة او غيلة او في اختلاط الفيلق وثوران النقع .

فقال الوليد بن عقبة ، ابرز إليه انت ، فإنك اولى الناس بمبارزته . فقال ، والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش . والله إني لا ابرز إليه[94] .

وذات مرة قال معاوية لجلسائه وهو يذكر نكوله عن مبارزة علي وكشف صاحبه عمرو عن سوأته للفرار عنه ،

" إن الجبن والفرار من عليٍّ لا عار على احد فيهما "[95] .

هكذا تجلى الإمام ببطولاته — التي صنعها في حروب الإسلام الأولى ضد قريش وبني امية بالذات — تجلى في الوقت الذي كان اميراً للمؤمنين ، والقائد العام للجيش الإسلامي ..

وإننا لو اطّلعنا على ساحة المعركة في صفّين ، ورأينا اصحاب محمد (ص) يلتفون حول قائدهم الإمام علي (ع) ، وقد تراوحت اعمارهم بين الخمسين والتسعين عاماً ، وهم الرواد الأوائل ، وطلائع الرسالة ، وحملة راية التوحيد في الأرض ، وهم قادة الأمة بلا منازع ، لاستبدَّ بنا العجب !. سبحان الله ، ما اروع هذا المشهد !. ماالذي جعل هؤلاء الشيوخ يشكلون كتيبة خاصة بهم باسم الكتيبة الخضراء ؟ وماالذي جعلهم يرخصون انفسهم ؟ وما الذي اخرجهم إلى الحرب وهم كرام سواء خاضوا حرباً أم استقروا في بيوتهم ؟!.

إنه الإسلام ، وهم الجيل القرآني ، والقرآن يصوغ شخصية الإنسان بحيث تتحدى حاجز السنين ، وتتعالى على الماديات . لقد احس القوم بالردة الجاهلية التي يقودها بنو امية ، فلم يالوا جهداً في مقاومتها ، واقروا عين حبيبهم ومربيهم وقائدهم ، النبي محمد (ص) بفعلهم .

## ما فاته بالشجاعة أخذه بالمكر :

كانت التعبئة الروحية ، اعظم قوة اعتمد عليها جيش الرسالة ، وبالرغم من انها صنعت بطولات نادرة ، إلاّ أن حجمها كان دون مستوى النصر النهائي . فلما استمرت الحرب طويلاً بدا المتخاذلون يتنامون في صفوف الجيش الرسالي . امّا معاوية الذي لم يتورع عن التوسل باية طريقة مهينة لنيل النصر ، فقد عرف كيف يستفيد من الصعوبات التي ازدادت في صفوف جيش الإمام . لم تكن اكثرية الجيش عند الإمام في مستوى فهم الصراع الرسالي — الجاهلي . وإن الذي يطلع على تاريخ صفّين يتمزق الماً ، كيف

---

(٩٣) المصدر : ( ص ١٧٠ ) .

(٩٤) المصدر .

(٩٥) المصدر : ( ص ١٧٣ ) .

كانت حيل معاوية تنطلي عليهم ، وكيف كان الإمام يستخدم براعته وبلاغته ، وقوة شخصيته ، وحضوره الدائم عند كل حادثة ، بل وجولاته الحربية المباشرة ، لكي يُفشل خطط معاوية الماكرة ..

لقد ساله — ذات مرة — بعض اصحابه كيف لم ننتصر حتى الآن على معاوية ؟. فامره أن يدنو منه ثم ناجاه :

" إن قوم معاوية يطيعونه ، ولا يطيعني قومي " .

وكم كان يؤلم ذلك القلب الكريم الذي غمره حب الرسالة ، جهل المسلمين بها ، وتفرقهم عن الحق .

وكان معاوية يعرف ذلك ولا يكف عن محاولاته للتاثير على معنويات جيش الإمام ، وبث الفرقة فيهم . وحتى لو فشلت سائر حيله فإن نجاح واحدة منها كفيلة بإنقاذه من ورطته وإعطائه فرصة العودة إلى مؤامراته الخبيثة !

وهكذا خطط هذه المرة بطلب الصلح ، والتحاكم إلى القرآن الكريم .

في بداية الحرب ندب الإمام (ع) واحداً من فتيان الأنصار ليحمل القرآن إلى معسكر معاوية ، ويطالبهم بالتحاكم إليه ، وقد بشره بالشهادة في هذا السبيل ، وضمن له الجنة ، فاسرع الفتى إلى القوم ، وهو يحمل كتاب الله على يديه ، ويطالبهم بالنزول على حكمه ولكنهم امطروه بوابل من السهام فسقط شهيداً ، وسقط إلى جنبه كتاب الله العزيز .

ولكن معاوية يجد نفسه مهزوماً لا محالة ، وقد بدا جيشه يولي الدبر امام صولات جيش الإمام وبالذات أمام هجمات القائد المغوار مالك الأشتر ، الذي اخذ يزيد من ضغطه على جيش الشام .

واستشار معاوية عمراً ( ذلك الداهية المعروف ) فاشار عليه بحمل المصاحف ، فإذا بهم يحملون على رماحهم ما يشبه المصاحف ويطالبون بحكم القرآن .

ولعل جواسيس معاوية في جيش الإمام كانوا وزعوا الأماني على اصحاب القلوب المريضة فوعدوا قيادات الجيش الكوفي ، الذين عصرهم الإمام بعدالته ومساواته عصراً ، المزيد من الأموال والمناصب .

فإذا بالحيلة تنطلي على الغوغاء ، ولا تقف دونها القيادات العميلة ، ولم تنفع شيئاً محاولات الإمام (ع) والقيادات الرسالية الراشدة في توعية الغوغاء او ردع العملاء .

فلنستمع إلى التاريخ وهو يروي قصة المؤامرة الكبرى ، لعلنا ننتفع بها عبرة لما يشبهها اليوم .

روى نصر بن مزاحم ان علياً (ع) غلس بالناس في صلاة الغداة يوم الثلاثاء عاشر ربيع الأول سنة (٣٧) — وقيل عاشر صفر — ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر القرآن ، والناس على راياتهم ، وزحف إليهم اهل الشام ، وقد كانت الحرب اكلت الفريقين ، ولكنها في اهل الشام اشد نكاية واعظم وقعاً .

ثم تمضي الرواية تنقل كيف التقى الجمعان في واقعة عظيمة كادت تُفني الطرفين ، مما سمي ليلة الهرير ، حيث استمر القتال من صلاة الغداة إلى نصف الليل ، ومرت مواقيت اربع صلوات لم يسجدوا لله فيهن سجدة ، ولم يصلوا لله صلاة إلاّ التكبير ، ثم استمر القتال من نصف الليل إلى ارتفاع الضحى ،

وافترقوا على سبعين الف قتيل ، في ذلك اليوم وتلك الليلة [96] .

والإمام علي (ع) في القلب ، بينما ابن عباس في الميسرة ، والأشتر في الميمنة .

والإمام يحرض القوم ، ويدعو الرب ، ويجالد بالسيف حتى يقول الراوي ؛

لا والله الذي بعث محمداً بالحق نبياً ، ما سمعنا برئيس قوم مذ خلق الله السماوات والأرض ، اصاب بيده في يوم واحد ما اصاب ( اي الإمام عليه السلام ) يخرج بسيفه منحنياً فيقول ، معذرة إلى الله وإليكم من هذا ، لقد ان افلقه ، ولكن حجزني عنه اني سمعت رسول الله (ص) يقول كثيراً ؛

لا سيف إلاّ ذو الفقار ، ولا فتى إلاّ علي

وانا اقاتل به دونه (ص) .

قال ( الراوي ) فكنا ناخذه فنقوّمه ، ثم يتناوله من ايدينا فيقتحم به في عرض الصف ، فلا والله ما ليث باشد نكاية منه في عدوه .

وخطب الإمام في الناس وقال ؛

" ايها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رايتم ، ولم يبق منهم إلاّ آخر نفس . وان الأمور إذا اقبلت اعتبر آخرها باولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا . وانا غاد عليهم بالغداة ، احاكمهم إلى الله عزّ وجلّ " [97] .

فبلغ ذلك معاوية فاستشار عمرو بن العاص ، فقال له فيما قال ؛ الق إليهم امراً إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا . ادعهم إلى كتاب الله .

فاصبح اهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح .

وبالرغم من ان القيادات الرسالية قد حذروا من مكر معاوية ، وقال عدي بن حاتم للإمام ؛ ( وقد جزع القوم ، وليس بعد الجزع إلاّ ما تحب فناجز القوم ) ، وهكذا قال مالك الأشتر وعمرو بن الحمق وآخرون .

إلاّ ان اكثرية الناس كانوا قد ملّوا الحرب فقالوا ؛ اكلتنا الحرب وقتلت الرجال ، فقال الإمام (ع) ؛

" إنه لم يزل امري معكم على ما احب إلى ان اخذت منكم الحرب ، وقد والله اخذت منكم الحرب وتركت ، واخذت من عدوكم فلم تترك . وإنها فيهم انكى وانهك ، إلاّ اني كنت بالأمس امير المؤمنين ، فاصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فاصبحت منهياً ، وقد احببتم البقاء وليس لي ان احملكم على ما تكرهون " [98] .

وبعد ان رضينا بالتحاكم ، وتقرر ان يختار كل فريق شخصاً يتفاوضان في شؤون الخلافة ، واختار معاوية عمرو بن العاص . ذلك الداهية المعروف والطامع في ولاية مصر بعدئذ وقع الإختلاف — مرة اخرى — في اصحاب الإمام . فبينما اختار لهم الإمام عبد الله بن العباس ، وقال ؛

---

(٩٦) المصدر : ( ص ١٩٢ - ١٩٣ ) .

(٩٧) المصدر : ( ص ١٩٤ ) .

(٩٨) المصدر : ( ص ١٩٥ ) .

" إن عمراً لا يعقد عقدة إلاّ حلها عبد الله ، ولا يحلُّ عقدة إلاّ عقدها " .

فقال الأشعث : لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة .

فاختار لهم مالك الأشتر ، فرفضوا ، وقالوا له سعَّر الارض علينا ، غير الأشتر .

فاصروا على اختيار ابي موسى الأشعري ، والذي اعتزل الإمام وخذّل الناس عنه .

وفي الواقع إن أصحاب الإمام (ع) كانوا طوائف شتى ، المخلصون ، والمنافقون ، والمتطرفون ، الذين اشتركوا في القيام ضد عثمان ، وكانوا يظنون انهم أحق بالأمر من علي واصحابه !! وهم الذين انتهى بهم المطاف إلى التمرد على الإمام وسُمُّوا بالخوارج .

## قصة الخوارج :

بعد ان كتب الطرفان وثيقة الصلح ، ووقّع عليها كل من الإمام ومعاوية ، دار بها ابو موسى الأشعري على عسكر الإمام ، فلما مرّ برايات بني راسب قالوا : لا نرضى ، لا حكم إلاّ لله ، فلما اخبر الإمام قال له : هل هي غير راية او رايتين ونبذ من الناس ؟ قال : لا .

صحيح أن اهل الكوفة كانوا قد تعبوا من الحرب ، إلاّ ان اوارها كان لايزال يتقد في افئدة الكثيرين . فلما بادر المتطرفون بإعلان التمرد ، انتشرت دعوتهم كالنار في الهشيم . فما راع الإمام إلاّ نداء الناس من كل جانب : لا حُكم إلاّ لله ، لا الحكم إلاّ لله ، لا الحكم إلاّ لله ، يا علي لا حُكم لك ، لا نرضى بان يحكم الرجال في دين الله ، إن الله قد أمضى حكمه في معاوية واصحابه ان يقتلوا او يدخلوا في حكمنا عليهم .

وكلما نصحهم الإمام وذكّرهم بان العهد لاينقض وقد جعلوا الله عليه وكيلاً ، أبوا إلا الحرب وقالوا للإمام بالحرف الواحد : تب إلى الله كما تبنا ، وإلاّ برئنا منك .

وعزز موقف الخوارج نتائج الحكمين حيث غرّر عمرو بن العاص بصاحبه ابي موسى الأشعري ، فاتفق معه على ان يخلعا كلاً من الإمام ومعاوية ، وقدم عمرو صاحبه فلما فعل ابو موسى قام عمرو وقال : إن هذا خلع صاحبه ، وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية . وهكذا دعمت عاقبة التحكيم جانب المتطرفين فاجتمعوا في منطقة " الحروراء " وبعث إليهم الإمام ابن عباس فناقشهم بالقران فلم يستجيبوا له ، فذهب إليهم بنفسه وسال عن الرجل المقدّم فيهم فقيل : يزيد بن قيس الأرحبي ، فذهب إلى خبائه وصلّى ركعتين ، ثم قام وقال : هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة .

ثم التفت إلى الناس وقال :

انشدكم الله ، اعلمتم احداً كان اكره للحكومة مني .؟ . قالوا : اللهم لا ، قال : اتعلمون بانكم اكرهتموني حتى قبلتها ؟. قالوا : اللهم نعم .

قال : فعلام خالفتموني ونابذتموني ؟. قالوا : إنا اتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى الله ، فتب إلى الله منه واستغفره نَعُدْ إليك .

فقـــال الإمام (ع) : إني استغفر الله من كل ذنب ، فاستجابوا إليه ورجعوا معه إلى الكوفة ، وكانوا اكثر

من ستة الاف مقاتل .

ولكن يبدو أنهم – عند عودتهم إلى الكوفة – التقوا بالمدافعين عن التحكيم ، وهم أكثرية الجند ممن اتبع الأشعث ، فأثارهم هذا الأخير الذي كانت مواقفه الخيانية مشهودة في كل مكان ، وهو الذي أكره الإمام على التحكيم اول مرة – فخرج القوم إلى منطقة تسمى بالنهروان فمر بهم مسلم ونصراني ، فقتلوا المسلم بعد ان عرفوا رأيه حول الإمام ، وتركوا الثاني قائلين لابد ان نحفظ ذمة نبيّنا ، وكانّ الإسلام لم يحقن دماء المسلمين !

والواقع ، ان تنامي التطرف وانحسار الوعي ، وتهافت اسس التفكير عند القوم ، كان السبب في جرائمهم ، كما كان سبب انقراضهم ..

لقد كان عبد الله بن خباب من أصحاب رسول الله (ص) وكذلك والده خباب بن الأرت كان من أعظم أصحاب الرسول ، فمرّ بهم عبد الله وفي عنقه قرآن ، ومعه زوجته الحامل ، وكانت في شهرها الأخير ، فاخذوه وقالوا له ، إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك ، فقال لهم احيوا ما احياه القرآن ، واميتوا ما أماته.

وفيما هم يحاورونه كانت تسقط تمرة من نخلة فيتناولها احدهم ، فيصيحون به حتى يلفظها . ويمر بهم خنزير فيقتله احدهم ، فينهرونه ويقولون هذا فساد في الأرض .

وعادوا إلى عبد الله بن خباب وقالوا له ، ما تقول في ابي بكر وعمر وعلي قبل التحكيم ، وعثمان في الست السنين الأخيرة من خلافته ؟. فأثنى عليهم خيراً . فقالوا ، ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة ؟. فقال ، إن علياً اعلم بالله ، واشد توقياً على دينه ، وانفذ بصيرة .

فقالوا ، إنك لا تتبع الهدى ، بل تتبع الهوى ، والرجال على اسمائهم ، ثم جروه إلى شاطئ النهر وذبحوه وجاؤوا بزوجته فبقروا بطنها ، وذبحوها مع ولدها إلى جانبه ! [99] .

وهكذا عاث الخوارج فساداً في الأرض وكادت روح القتال المتمردة على القيم تنتشر فيهم وهم ابناء الجزيرة العربية التي لاتزال ارضها تغلي بالدم والثار والعصبيات الدفينة .

ولولا ان الإمام (ع) بادر وسار إليهم لكان يُخشى ان تشمل الفتنة كل اطراف بلاده .. فقد قصدهم للتوّ ، ولمّا بلغ مكاناً قريباً ارسل إليهم من يأمرهم بدفع قتلة الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وزوجته وسائر من قتل من المسلمين على ايديهم . فقالوا له ، كلّنا قتلة عبد الله . واضافوا ، ولو قدرنا على علي بن ابي طالب ومن معه لقتلناهم .

فمشى إليهم الإمام بنفسه ، وقال ،

" أيها العصابة ، إنّي نذير لكم ان تصبحوا لعنة هذه الأمة غداً وانتم صرعى في مكانكم هذا بغير برهان ولا سنّة " .

---

(٩٩) سيرة الأئمة الأثني عشر : ( ص ٤٩٠ ) .

وحاجّهم – مرة اخرى – ونصحهم بان ينظمّوا إليه لقتال معاوية ، وهو هدفهم المعلن ، فقالوا : كلا لابد ان تعترف اولاً بالكفر ، ثم تتوب إلى الله كما تبنا حتى نطيع لك ، وإلاّ فنحن منابذوك على سواء .

فقال لهم : " ويحكم ، بم استحللتم قتالنا والخروج عن جماعتنا " .

فلم يجيبوه وتنادوا من كل جانب : الرواحَ إلى الجنة !. وشهروا السلاح على اصحابه واثخنوهم بالجراح ، فاستقبلهم الرماة بالنبال والسهام ، وشد عليهم امير المؤمنين واصحابه ، فما هي إلاّ ساعات قلائل حتى صرعوا [100] .

وفتش الإمــام بين قتلاهم عن شخص اسمه مخرج وكان معروفاً بذي الثديّة ، فلما وجده بعد بحث كثير ، كبَّر وكبَّر اصحابه لان النبي (ص) كان قد اخبر عن هذه الفئة المارقة ، وانبا عن علامتهم بوجود هذا الشخص بينهم .

فالرواية تقول : لما عاد الرسول (ص) من حنين ، وبدا تقسيم الغنائم قام إليه رجل من بني تميم ، يقال له الخويصة فقال له : إعدل يا محمد ! فقال (ص) : لقد عدلت . واعاد إليه التميمي قوله ثانية فقال (ص) له : ويلك ، إن لم اعدل انا فمن يعدل ؟. وفي الثالثة رد عليه النبي (ص) بقوله :

" سيخرج من ضضيء هذا قوم يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرمية ، يخرجون على حين فرقة من الناس ، تحقرون صلاتكم في جنب صلاتهم ، يقراون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم بينهم رجل اسود مخرج اليدين إحدى يديه كانها ثدي امراة ، وفي رواية عائشة : يقتله خير امتي من بعدي " [101] .

لقد اشار النبي (ص) بكلمته الرشيدة تلك إلى وجود طوائف قشرية جاهلة في الأمة ، وانها ستظهر عند اول فرصة تسنح لهم ، وذلك حين تقع الفتنة . فهذا الرجل الذي يامر رسول العدالة بالعدل ، ويرى نفسه احرص على القيم من ذلك الذي اختاره الله تعالى لرسالاته لا يشبه إلاّ الرجل الذي يامر عليّاً (ع) بالتوبة والإيمان ، وهو ابن الإيمان ، وعلى اكتافه قامت قواعده وترسخت اسسه .

ولعل حرص الإمام (ع) على التفتيش عن جثمان ذي الثدية ، حيث بعث رجالا من اصحابه ليبحثوا عنه فلم يجدوه فاضطر للبحث عنه شخصياً .. اقول : لعل ذلك ، كان لإتمام الحجة على الناس ، وليعلموا ان هؤلاء مارقون عن الدّين بشهادة رسول الله (ص) ، فلا يزايدون على الناس بدينهم الاجوف . ولمعرفة أن هذه الفئة المارقة الملعونة ، لم تنته بتصفية افرادها جميعاً ، إذ انها حالة اجتماعية مستمرة سوف تبرز بين الفينة والأخرى هنا او هنالك ، تحت راية هذا او ذاك ، حيث لم يخلُ عصرٌ منهم او من امثالهم ذوي الثفنات الغليظة ، والمظاهر الدينية والتطرف للقشور . وتكفير الناس بغير حجة من الله ، ولا دليل من العقل ..

والخوارج من هنا ، واصحاب الأشعث المتخاذلون من هناك ، شكّلوا اكبر خطر على النظام الإسلامي ،

---

(١٠٠) المصدر : ( ص ٤٩١ ) .

(١٠١) المصدر : ( ص ٤٩٢ ) .

في عهد الإمام (ع) وهم يشكّلون ذات الخطر على كل رسالة إصلاحية ..

وفعلاً برزت بُذور عفنة من تابعي نهج الخوارج بعدئذ في أطراف دولة الإسلام ، وشغلوا جانباً من اهتمام الإمام (ع) بما اتاح فرصة لمعاوية بتثبيت حكمه :

## الأيام الأخيرة لعهد الإمام (ع) :

حين يمر شريط حياته سلام الله عليه امام اعيننا تبدو نهاياتها اشد قتاماً حتى يكاد يتفطر القلب اسى . فهذا معاوية يقود رايات الجاهلية ضد رسالة الله !. وهذا الاشعث واهل الدنيا من قيادات الجيش الكوفي ، يميلون إلى باطل معاوية ، وتستهويهم وعوده الكاذبة اكثر من نصائح الإمام (ع) .. وهؤلاء اصحابه الكرام يلقون مناياهم ويُصرعون بالحرب حيناً ، وبالغيلة احياناً .. ولا يمر عليه يوم إلاّ وتتوارد عليه انباء مؤسفة ..

فالمتطرفون يخرجون عليه ، ويزعجون جيشه ، والجيش قد تعب من الحرب ، ومعاوية يزداد قوة كل يوم ، ويبعث بسرايا خفيفة تغير على اطراف البلاد . يحيي بذلك سنن الجاهلية التي ينتمي إليها ، ويشجع القبائل العربية والقيادات الجاهلية على العودة إلى عاداتهم السابقة من سلب ونهب .. ثم يهاجم اليمن والحجاز بجيش يقوده بسر بن ارطاة ، ويامره بإثارة الفوضى وإرهاب الموالين للإمام (ع) .. ويجهز جيشاً لمهاجمة مصر ، بقيادة عمرو بن العاص الذي اتّبعه طمعاً في ولاية مصر ، فيعيث فساداً في مصر ، ويقتل والي الإمام عليها ( محمد بن ابي بكر ) ويمثل به ويحرقه ..

وحينما ندب الإمام لمصر السيف الصارم ( مالك الاشتر ) ، دبّر معاوية خطة لاغتياله بالسم في بعض الطريق .. وكان نبا شهادته على الإمام عظيماً ، إذ فقد بطلاً راسخ الإيمان شديد الوطاة على اعداء الله .

كل ذلك ، واهل الكوفة لايزالون مختلفين ، إذ كانوا متاخرين قروناً عديدة عن افق الإمام (ع) ، حيث كان يستحثهم بكل ما أُوتي من بلاغة القول وحكمة الراي وقوة الطرح ، على الجهاد في سبيل الله وعلى المحافظة على كرامتهم ومكاسب ثورتهم ، فلم يكن يستجيب له إلاّ طليعة القوم .

ولعل الهدف الاسمى للإمام (ع) كان ترسيخ اسس الإيمان عند هؤلاء الطليعة الذين هم شيعته المخلصون ، ليمتد الخط الرسالي حاملاً مشعل التوحيد ، عبر الاجيال .

وكان يؤلمه حقّاً تفرقُ اهل الكوفة عن حقهم ، واجتماع اهل الشام على باطلهم ، وكان يتمنى ان لَو بادَلَه معاويةُ باصحابه على ان يدفع منهم عشرة وياخذ واحداً من اصحاب معاوية ، واخيراً رمى بآخر سهم من كنانته فقال :

" أمّا إني قد سئمت من عتابكم وخطابكم ، فبيّنوا لي ما انتم فاعلون ، فإن كنتم شاخصين معي إلى عدوي فهو ما اطلب وما احب ، وان كنتم غير فاعلين فاكشفوا لي عن امركم . فوالله لئن لم تخرجوا معي باجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوه حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين . لادعون الله عليكم ولاسيرن إلى عدوكم . ولو لم يكن معي إلاّ عشرة .

واضاف قائلاً :

" اجلاف اهل الشام اصبرُ على نُصرة الضلال ، واشدُّ إجماعاً على الباطل منكم على هداكم وحقكم . ما بالكم وما دواؤكم ؟. إن القوم امثالكم لايُنشرون إن قتلوا إلى يوم القيامة "[١٠٢] .

فلما راى اهل الكوفة منه العزم على أن يزحف بمن بقي معه من اصحابه المخلصين استجابوا له ، وتداعوا للجهاد وخرج المقاتلون إلى النخيلة حيث كان يعسكر فيه جيش الكوفة . ولبث الإمام (ع) ، هناك ، ووجَّه واحداً من قادة جيشه ( زياد بن حفصة ) باتجاه الشام ، يقود طلائع الجيش ، بينما انتظر انسلاخ شهر رمضان ليزحف ببقية الجيش إلى الشام ، لولا ان القدر كان في انتظاره في ليلة التاسع عشر من شهر الله المبارك ..

## تهدمت أركان الهدى :

ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ، تُعتبر من الليالي التي يُرجى فيها ان تكون ليلة القدر . وكان حديث الناس في تلك الليلة في كل مكان حول الحرب ، بعد ان بث الإمام (ع) فيهم روح الجهاد ، ودبّ إليهم النشاط والعزيمة .

وفي طرف مسجد الكوفة كان يصلي جماعة من المصريين ، كعادتهم في كل ليلة ، قريباً منهم عند السرة كان يصلي جماعة باجتهاد . وهناك في بيت متواضع على طرف تستضيف الإمام (ع) ابنته فتحمل إليه عند الإفطار ، رغيفاً من الخبز ولبناً وشيئاً من الملح ، فيامرها برفع اللبن . ولما تداول لقمات نهض لصلواته ، وبين الفينة والأخرى كان يتطلع إلى السماء فيقول : هي هي الليلة التي وُعدت بها . لا كَذبت ولا كُذّبت .. ثم يخرج إلى المسجد ، ويدخله من ذات الباب الذي اجتمع خلفه أولئك الرجال .

يقول الراوي : خرج عليهم علي بن ابي طالب (ع) عند الفجر ، فاقبل ينادي .. الصلاة الصلاة ، وبعدها رايت بريق السيف ، وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله لا لك يا علي ، ثم رايت بريق سيف آخر ، وسمعت عليّاً يقول : لا يفوتنّكم الرجل . وكان الأشعث قال لابن ملجم النجاة لحاجتك قبل أن يفضحك الفجر[١٠٣] .

فمن هو الذي اشترك في المؤامرة ضد حياة قائد المسلمين ؟

إنهم ثلاثة اجتمعوا في الحج وقرر كل واحد منهم اغتيال واحد من الثلاثة ، معاوية ، وعمرو بن العاص ، والإمام (ع) فلم ينجح صاحب عمرو بن العاص ، إذ كان قد استناب عنه آخر ، للصلاة فقُتل ، بينما وقع سيف صاحب معاوية على فخذه وجرحه جرحاً بسيطاً ..

اما ابن ملجم الذي كان قد اشترى سيفه بالف وسمَّمه بالف فقد التقى -- فيما يبدو -- بالمعارضة التي تنامت في الكوفة ، وكان يقودها إبن الأشعث الذي بدا يتباكى على مصرع الخوارج ، وكان قد دخل

---

(١٠٢) المصدر : ( ص ٤٩٩ ) .

(١٠٣) المصدر : ( ص ٥٠٥ ) .

الإمـــام (ع) قبل فترة فاغلظ عليه لمؤامرتـه المستمرة ضد الإسـلام ، فتوعده وهـدده بـالفتك ، فقـال لـه الإمـام :

" أبِالموت تخوِّفني وتهدِّدني ؟. فوالله ما اُبالي وقعتُ على الموت أو وقع الموتُ عَلَيَّ " [104] .

وهكذا تعاون معه في جريمته سبيب بن بجران ، ووردان بن مجالد ، ولعل رجالاً آخرين من جماعة ابن الأشعث كانوا مساهمين معهم .

ومن خلال الأشعث التقت مصلحة الخوارج ( الذين كانوا من أشد المعارضين لمعاوية ) بمصالح معاوية الذي كان يخشى هجوماً صاعقاً لجند الإسلام ضده .وكان لا يني من توزيع الوعود على الطامعين في الكوفة ، للفتك بالإمام (ع) . ومن هذا خاطب ابو الأسود الدؤلي معاوية بعد تنفيذ الجريمة قائلاً :

| | |
|---|---|
| ألاَ أبـلغْ معـاويـة لبـنَ حـرب | فـلا قـرت عيـون الشـامتينا |
| أفـي شهـر الصيـام فجعتمـونـا | بخيـر النـاس طـرّاً أجمعينا |
| قتلتـم خيـر مـن ركـب المطايـا | وذلّلهـا ومَـن ركـب السفينـا |
| ومَـن لبـس النعـال ومـن حـذاهـا | ومـن قـرا المثـانـي والمبينـا [105] |

وبعد تنفيذ الجريمة ، حُمل الإمام (ع) إلى البيت ، وأُحضر عنده ابن ملجم فقال الإمام :

" النفس بالنفس ، إن أنا متُّ فاقتلوه كما قتلني ، وإن سلمتُ رأيت فيه رأيي . وأضاف : يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين . ألاَ لا يُقتلنَّ إلاّ قاتلي " .

ودخل على الإمام (ع) أكبر أطباء الكوفة واسمه : أثير بن عمر بن هاني ، فلما فحصه ملياً قال : يا أمير المؤمنين اعهد عهدَك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربتُه إلى أم رأسك [106] .

ويقول الأصبغ بن نباتة : دخلتُ على أمير المؤمنين (ع) ، فإذا هو مستند معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمُه واصفرَّ وجهه . فما أدري وجهه أشد صفرة أم العمامة ، فاكببتُ عليه فقبلته وبكيت . فقال لي : لا تبكِ يا أصبغ فإنها — والله — الجنة .

فقلت له : جُعلتُ فداك ، إني أعلم — والله — أنك تصير إلى الجنة ، وإنما أبكي لفقداني إياك يا أمير المؤمنين [107] .

وبكت عنده أم كلثوم بعد أن نعى إليها نفسه ، فقال لها :

" لا تـؤذيني يـا أم كلثوم ، فإنك لو ترين مـا أرى ، إن الملائكة من السماوات السبع بعضهم خلـف

---

(١٠٤) المصدر : ( ص ٥٠١ ) .

(١٠٥) في المصدر ( والمبينا ) والظاهر ما ذكرناه انظر : ( ٥٠٢ ) .

(١٠٦) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ص ٢٥٥ ، ج ٢ ) .

(١٠٧) المصدر .

بعض ، والنبيون يقولون : انطلق يا علي فما أمامك خير لك مما أنت فيه " [108] .

وبقي الإمام (ع) ثلاثاً تشتد حالته ، حتى كان ليلة الواحد والعشرين من شهر رمضان ، في الثلث الأول منها ، وعهد عهده إلى الإمام الحسن وأوصاه وأخاه الإمام الحسين عليهما السلام ، بآخر وصاياه ، ثم ودع أهل بيته ، واستقبل ملائكة ربه بالسلام وفارقت روحه الزكية الحياة ، وصرخت بناته ونساؤه ، وارتفعت الصيحة في بيته ، فعلم أهل الكوفة أن أمير المؤمنين قد قُبض ، فاقبل الرجال والنساء أفواجاً ، وصاحوا صيحة عظيمة ، وارتجّت الكوفة بأهلها ؛ وكان ذلك اليوم كيوم مات فيه رسول الله (ص) .

ثم غسله الإمام الحسن والإمام الحسين معاً سلام الله عليهم أجمعين ، بينما كان محمد بن الحنفية يصب الماء . وحُنّط ببقية حنوط رسول الله ، ووضعوه على سريره ، وصلّى عليه الإمام الحسن (ع) ، وحُمل في جوف الليل من تلك الليلة إلى ظهر الكوفة فدفن بالثوية عند قائم الغريّين حيث مرقده الشريف الآن .

وكانت الحكمة في كتمان موضع قبره الذي ظل سرياً عن العامة حتى عهد الإمام الرضا (ع) ، اتقاء شرّ الخوارج وبني أمية .

ثم قتل ابن ملجم وأحرق بالنار .

وطويت صفحة ناصعة من حياة الإمام (ع) بشهادته ، لتنشر على مدى الدهر صفحات مجده وعزه ، وفضائله ، وتابعيه على الهدى والإستقامة . فسلام الله عليه حين ولد في الكعبة ، وحين وقع صريعاً في محراب الكوفة ، وحين مضى شهيداً وشاهداً على الظالمين ، وحين أضحى راية العدالة وعلم الهدى ، ومنار التقوى . وسلام الله عليه حين يبعث حياً ، ليجعله الله ميزاناً يفصل به بين عباده ، وقسيماً للجنة والنار .. وسلام على الصدّيقين الذين اتّبعوا خطاه ، وعلى شيعته الذين تحملوا في ولائه ما تعجز عنه الجبال الراسيات .

---

(١٠٨) المصدر .

الفصل الخامس

# فضائلـه ومناقبـه

## فضائله ومناقبه سلام الله عليه

وكاشعَّة الشمس ملات فضائل الإمام (ع) الافاق ، واعطتنا ضياءً ودفئاً روحياً . ولقد تنافس كبار علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم في سرد فضائله ، حتى ليكاد السذّج من القراء يقولون : فعلي – اذاً – افضل الناس جميعاً جاهلين بانه آيةُ صدقٍ لرسالة محمد (ص) ومرآة صافية تتجلى فيها صورة مربيه وسيده محمد (ص) حتى قال سلام الله عليه :

" انا عبد من عبيد محمد (ص) " .

بلى ، إن إصرار اصحاب الرسول (ص) واولي البصائر من التابعين والصدّيقين من المسلمين على نشر فضائل الإمام (ع) كان تحدياً لخط الضلال الذي تسلط على المسلمين ، واجتهد لمحو معالم الحق .. وهكذا خرجت فضائله عن إطار الاحصاء .

بيد ان علينا ألاّ ننظر إلى فضائله بصورة منفصلة عن بعضها .. ارايت كيف لو مزقت زهرة وبدأت تنظر إلى كل ورقة فيها وحدها ؟.

إنّنا حين نتحدث عن الزهد يخيَّل إلينا انطواء المرتاضين ورهبنة الهاربين عن الحياة ..

وإذا تحدثنا عن العلم قفزت إلى اذهاننا صورة اولئك المنكبين على اوراقهم في المكتبات ، او على ادواتهم في المختبرات ، دون ان يتحملوا المسؤولية او يخوضوا صراعاً .

وإذا ذكرنا الجود تذكرنا الملوك حين يوزعون الهدايا على الملأ من قومهم ، ليستدرجوهم إلى مؤازرتهم وليضمنوا ولاءهم .

وإذا بيّنا الشجاعة ، ارتسمت امامنا صورة ابطال الحروب ، الذين دابهم القتل ومهمتهم إراقة الدماء ، وهكذا ..

بيد ان علياً (ع) غير كل اولئك . لانّ صفاته تجليات لروحه الإيمانية ، كالنور الواحد ينعكس على الأشياء فيتجلى عليها الواناً مختلفة ، وهكذا نور التوحيد في ضمير الإمام (ع) ينبعث في واقعه صفةً مُثلى وآيةً عُظمى للحق .

فحين يتجلى الرب سبحانه للقلب السليم فيثبّته بالقول الثابت ، ويُفيض عليه من نور عزه ، يصبح صاحبه الجواد العدل ، والشجاع الحنون ، والعالم المسؤول ، والزاهد المتصدي ، والبكّاء في ظـلام

الليل ، والقتّال حين يرتفع النهار ..

ويقول قائلهم :

جمعت في صفاتك الأضدادُ ولهذا عزت لك الأندادُ

ونقول إنها الصفات الحسنى يتبع بعضها بعضاً .. إنها الحب والصدق والأمانة ، تجمعها معرفة الله ، وتنساب منها سائر فضائل الخير ..

لقد عاش لله سبحانه ، لأنه عرف الله وتنمّر في ذات الله ، لأنه اوتي اليقين بعظمة ربّه . أو لم يقل (ع) عن المؤمنين وهو أميرهم :

" عَظُمَ الخالقُ في أنفسهم ، فَصَغُرَ ما دونَهُ في أعينهم " .

واستهان بالموت لأنه أحب لقاء ربه ..

وعدل في الرعية لأنه تجاوز حواجز المادة إلى حقائق الجوهر ، فاسقط كل المميزات الظاهرية ، وتحدّى الضغط الذي يدعو إليها .

وزهد في الدنيا ، لأنه أبصر حقيقتها فصامت نفسه عنها قبل أن تصوم جوارحه ، وطلّقها ثلاثاً وقال لها :

" يا دنيا يا دنيا !! إليك عنّي ، قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها " [109] .

وانهكته العبادة لأنه يلتقي هناك بحبيبه الكريم . فلم يزل ذاكراً ربه ، يعيش قلبه بمناجاته . وهكذا كانت سائر فضائله روافد من نبع الإيمان والمعرفة واليقين .

وها نحن نروي لك شيئاً قليلاً منها لعلنا نزداد معرفة بإمامنا سلام الله عليه ، ونزداد قرباً إلى ربنا بمعرفته .

فقد روى أبو الدرداء في جمع من أصحاب النبي قصته مع الإمام علي (ع) ، وكيف شاهد جانباً من عبادته الليلية :

عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال : كنا جلوساً في مجلس ، في مسجد رسول الله (ص) فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان ، فقال أبو الدرداء : يا قوم ألا أُخبركم بأقل القوم مالاً ، وأكثرهم ورعاً ، وأشدهم اجتهاداً في العبادة ؟. قالوا : مَن ؟ قال : أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) . قال : فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلاّ مُعرض عنه بوجهه . ثم انتدَب له رجل من الأنصار فقال له : يا عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها ، فقال أبو الدرداء : يا قوم إني قائل ما رأيت وليقل كل قوم منكم ما رأوا شهدت علي بن أبي طالب (ع) بشويحطات النجار ، وقد اعتزل عن مواليه ، واختفى ممن يليه ، واستتر بمغيلات النخل ، فافتقدته وبَعُدَ عَلَيَّ مكانه ، فقلت : لحق بمنزله . فإذا أنا

---

(١٠٩) قصار الحكم للإمام / نهج البلاغة .

بصوت حزين ونغمة شجيً وهو يقول :

" إلهي كم من موبقة حلمتَ عن مقابلتها بنقمتك ، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك ! إلهي إن طال في عصيانك عمري ، وعظم في الصحف ذنبي ، فما أنا مؤمل غير غفرانك ، ولا أنا بِراجٍ غير رضوانك " .

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر ، فإذا هو علي بن أبي طالب (ع) بعينه ، فاستترت له واخملت الحركة ، فركع ركعات في جوف الليل الغابر ، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى ، فكان مما ناجى الله به أن قال :

" إلهي أُفكّر في عفوك فتهون عَلَيَّ خطيئتي ، ثم أَذكر العظيم من أخذك فتعظم عَلَيَّ بليَّتي " .

ثم قال : " آه ، إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها ، فتقول : خذوه !. فيا له من مأخوذ لا تُنجيه عشيرته ، ولا تَنفعه قبيلته ، ولا يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنداء " .

ثم قال : " آه من نار تنضج الأكباد والكلى ، آه من نار نزاعة للشوى ، آه من غمرة من ملهبات لظى ! ".

قال : ثم أنعم في البكاء ، فلم أسمع له حساً ولا حركة ، فقلت : غلب عليه النوم لطول السهر ، أُوقظه لصلاة الفجر . قال أبو الدرداء : فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة ، فحرّكته فلم يتحرك وزويته فلم ينزوِ ، فقلت : " إنا لله وإنا إليه راجعون " مات والله علي بن أبي طالب (ع) قال : فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم ، فقالت فاطمة (ع) : يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته ؟. فأخبرتها الخبر ، فقالت :

" هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله " .

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ، ونظر إليَّ وأنا أبكي ، فقال : مما بكاؤك يا أبا الدرداء ؟. فقلت : مما أراه تُنزله بنفسك . فقال :

" يا أبا الدرداء فكيف ولو رأتني ودُعِيَ بي إلى الحساب ، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب ، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ ، فوقفت بين يدي الملك الجبار ، قد أسلمني الأحبّاء ، ورحمني أهل الدنيا ، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية " .

فقال أبو الدرداء : فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله (ص) [١١٠] .

ولأن إمامنا (ع) كان أشد حباً لربِّه وأكثر أنساً به وشوقاً إليه ، كان يحب لقاء ربه ، ولا يبالي بالموت . فقد جاء في حديث أنه كان يطوف بين الصفين بصفّين في غلالة ، [١١١] فقال الحسن (ع) : ما هذا زي الحرب ، فقال : يا بني إن أباك لا يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

وحينما علاه أشقى الآخرين بالسيف هتف عالياً : فُزْتُ وربِّ الكعبة .

وقد كان (ع) يتمنى الشهادة ، ويكرر هذه الكلمة باستمرار .

---

(١١٠) موسوعة بحار الأنوار : ( ج ٤١ ، ص ١٣ ) .

(١١١) الغلالة : ثوب رقيق يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع .

ما ينتظر اشقاها ان يخضبها من فوقه بدم !. لقد كان يعتبر الشهادة اسمى الطرق إلى الله ولقائه . فإذا وفق الله لها عبداً فتلك نعمة كبرى لابدّ أن يشكره عليها . يقول الإمام (ع) :

لما انزل الله سبحانه قوله :

﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ (العكبوت/١-٢) .

علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله (ص) بين اظهرنا ، فقلت : يا رسول الله ما هذه الفتنة التي اخبرك الله تعالى بها ؟ . فقال :

" يا علي ، إن أمتي سيفتنون من بعدي " .

فقلت : يا رسول الله اوليس قد قلت لي يوم أحد حين استشهد مَن استشهد من المسلمين واخرت عني الشهادة فشق ذلك عليَّ فقلت لي : " ابشر فان الشهادة من ورائك ؟ " .

فقال لي : " إن ذلك لكذلك ، فكيف صبرك إذاً ؟ ".

فقلت : " يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشرى والشكر " [١١٢] .

## حُبُ الله تعالى فوق كل وشيجة :

وكان حبه الشديد لربه سبحانه يجعله فوق كل وشيجة مادية ، وكل ضغط اجتماعي ، وكل مصلحة دنيوية زائلة .

فقد حدثنا (ع) بنفسه عن أسباب نصر الله للمسلمين . وجعل اعظمها التعالي عن علاقاتهم النسبية والتمسك بقيم الحق ، فقال :

" فلقد كنا مع رسول الله (ص) وإنّ القتل ليدور على الآباء والأبناء والأخوان والقرابات ، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلاّ إيماناً ومضياً على الحق " [١١٣] .

ويروي التاريخ أن الإمام علي (ع) رأى يوم بدر عقيلاً أخاه وكان في معسكر الأعداء يومئذ ، رآه مقيداً فصدَّ عنه ، وصاح به عقيل : يا علي ، اما والله لقد رأيت مكاني ، ولكن عمداً تصدُّ عني .

فاتى علي (ع) إلى النبي (ص) وقال :

" يا رسول الله هل لك في ابي يزيد ، مشدودة يده في عنقه بنسعه [١١٤] فقال انطلق بنا إليه " [١١٥] .

وهكذا كان موقفه من اخته أم هاني يوم فتح مكة حيث أوت رجالاً من قريش كما يروي التاريخ فلم يجرهم حتى أجارهم النبي (ص) [١١٦] .

---

(١١٢) المصدر : ( ص ٧ ) .

(١١٣) نهج البلاغة الخطبة ( ١٢٢ ) .

(١١٤) وهي عريض طويل يشد به الرحال .

(١١٥) المصدر : ( ج ٤١ ، ص ١٠ ) .

(١١٦) المصدر .

ومن هنا كان الإمام (ع) يعيش أبداً فوق الضغوط وكان الناس يعرفون منه ذلك ، ولذلك تعاونت ضده أصحاب المصالح ، وقوى الضغط الإجتماعية ، كما تخبرنا عن ذلك زوجته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع) :

" وما الذي نقموا من أبي الحسن ، نقموا منه والله نكير سيفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمُّره في ذات الله " [117] .

لقد عرفوا أنه لايبالي ، ولا يداهن فيما يرتبط بربه . وهكذا شهدت حوادث التاريخ . فحينما مد إليه عبد الرحمن ليبايعه على كتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الشيخين رفض الإستجابة إلاّ لكتاب الله وسنّة رسوله ، ولم يبال أن الخلافة بكل ما فيها من عظمة وجلال تزوى عنه .

بل إن نظراته إلى الحكم كانت أبداً من خلال ما يمكن أن ينفع دينه . فهو الذي قال مرة لابن عباس وقد استعجله لاستقبال الوفود وكان مشغولاً باصلاح نعله ، قال له : يابن عباس ، كم تسوى هذه النعل عندكم ؟ قال : درهماً أو بعض درهم .

قال : " لأمْرَتُكم هذه أزهدُ عندي منها ، إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً " .

أولم يرفض إبقاء معاوية على إمارة الشام مدة من الزمن يستقر فيها الأمر له ثم يعزله كما أشار عليه البعض ، لأنه كان يرفض الغدر ؟.

وقد قال مرة :

" وما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس " [118] .

ويروي التاريخ أن كل الملتحقين بمعاوية ممن كان مع الإمام علي (ع) هربوا من عدالته ، واستراحوا إلى محاباة معاوية ومداراته . وكذلك فقل والذين اثروا على عهد الخليفة الثالث ومثلهم ثراء فاحشاً على حساب المحرومين ، وخشوا من محاسبة الإمام علي لهم . الذين كانت بأيديهم ثروات المسلمين ، من بيت المال ، وارادوا الاستئثار بها . وكذلك الذين كانوا يتصورون المجتمع الإسلامي كالجاهلية يأكل القويُّ العزيزُ فيه الضعيفَ الذليلَ ، ولم يُعجبهم شعار الإمام (ع) :

" الذليلُ عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقويُّ عندي ضعيفٌ حتى آخذ الحق منه " [119] .

وكذلك هرب من عدله الذين كانوا يرتكبون جرائم يستحقون عليها الحد . والذين كانوا يبحثون عن جو التسامح في دين الله ، يسمح لهم ارتكاب بعض الجرائم كإقامة الحفلات الماجنة ومعاقرة الخمور .

كل أولئك كانوا يتسللون إلى معاوية ويشفق عليهم الإمام (ع) ، لأنهم يهربون من النور إلى الظلام ، ومن العدالة الشاملة إلى مجتمع الظلم الزائل .

---

(١١٧) سيرة الأئمة : ( ج ١ ، ص ١٢٤ ) .

(١١٨) الخطبة ( ٢٠٠ ) من نهج البلاغة .

(١١٩) نهج البلاغة الخطبة ( ٣٧ ) .

ولكنه لم يغير سياسته من اجل استمالتهم . والتاريخ يحفل بمئات الحوادث التي تروي لنا قصة ذلك الركن الشديد ، الذي تتراجع عنه عواصف الضغط الإجتماعية ، قصة ذلك الصلد الأصم الذي تتكسر عنده كل أمواج الإغراء والإرهاب .. فليجتمعوا حول معاوية ، ثم يزيد ثم من ياتي من سلاطين بني أمية ، وليرفعوا عقيرتهم الف شهر ، بسب عليٍّ وذريته عليهم السلام ، ويتفاخرون بقتل أولاده وشيعته .. وليفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا .. فالحق لغلى .. والله اكبر ، وأمير المؤمنين (ع) يصبر محتسباً ثواب ربّه عزَّ وجلَّ .

ولقد قال مرة : " كنت احسب الأمراء يظلمون الناس ، فإذا الناس يظلمون الأمراء "[120] .

أجل ، إن انعدام الوعي عند الناس وكثرة القوى المصلحية كانت وراء ظلمهم لأمير المؤمنين (ع) .

فقد كان يريد إقامة مجتمع القانون ، والناس يرغبون في الفوضى والمحاباة ، وأن ينفّذ القانونُ أبداً على غيرهم . أما هم فالأفضل أن تمشي لهم الوساطات .

لقد اخذ الإمام علي (ع) رجلاً من بني اسد في حدٍّ ، فاجتمع قومه ليكلّموا فيه ، وطلبوا إلى الحسن (ع) أن يصحبهم ، فقال : ائتوه فهو اعلى بكم عيناً ، فدخلوا عليه وسالوه ، فقال : لا تسالوني شيئاً أَملكه إلاّ أُعطيتم ، فخرجوا يرون انهم قد نجحوا ، فسالهم الحسن (ع) فقالوا : اتينا خير ماتيٍّ ، وحكوا له قوله ، فقال : ما كنتم فاعلين إذا جلد صاحبكم فافعلوه .. فاخرجه علي (ع) فحدّه ، ثم قال :

" هذا والله لستُ أَملكه "[121] .

وقد بيّن فلسفة ذلك في قصة أخرى حيث بلغ معاوية أن شاعراً من أصحاب الإمام (ع) كان اسمه النجاشي قد هجاه . ولعل معاوية كان يعرف أنه يشرب الخمر ، فدسَّ قوماً شهدوا عليه عند الإمام أنه شرب الخمر ، فاخذه وحدّه .

فغضب جماعة على الإمام (ع) في ذلك – وكان بينهم طارق بن عبد الله النهدي – فقال : يا أمير المؤمنين مالنا نرى أن اهل المعصية والطاعة واهل الفرقة والجماعة عند ولاة العقل ومعادن الفضل سيّانٍ في الجزاء ، حتى ما كان من صنيعك بأخي الحارث – يعني النجاشي – فاوغرت صدورنا ، وشتت أمورنا ، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار ( أي اتّباع معاوية ) .

فقال علي (ع) : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة/٤٥) .

يا أخا بني فهد !. هل هو إلاّ رجل من المسلمين انتهك حُرمة من حُرم الله ، فاقمنا عليه حدها زكاة له وتطهيراً ؟.

يا أخا ابن فهد ، إنه من أتى حدّاً فاليم[122] كان كفارته .

يا أخا ابن فهد ، إن الله عزَّ وجلَّ يقول في كتابه العظيم :

---

(١٢٠) المصدر .

(١٢١) المصدر .

(١٢٢) أي ارتكب ما يوجب عليه الحد فلامه الناس أو آلمه إقامة الحد عليه .

﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (المائدة/٨) [١٢٣] .

لقد كانت نظرة الإمام (ع) إلى العدل والمساواة مستوحاة من لب الوحي وروح الرسالة ، وقد انعكست على مواقفه ، وفي تاديبه لوُلاته ، فهنا يوصي عامله على مصر مالك الأشتر فيقول له :

" أَنصف الله ، وأَنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك . فإنك إلاَّ تفعل تَظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أَرخص حُجته ، وكان لله حرباً حتى يفزع ويتوب . وليس بشيء أدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم ، فإن الله سميع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد " .

ثم يحذره من محاباة الخاصة ( وهم الأشراف واولوا الوجاهات والوساطات ) فيقول :

" وليكن احب الأمور إليك اوسطها في الحق ، واعمّها في العدل ، واجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة ، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضى العامة " [١٢٤] .

## مكرمات الإمام (ع) على لسان النبيِّ (ص) :

عشرات المجلدات لاتكفي وصف حياة الإمام (ع) الذي تجلّى الوحي في حياته ، وكان آية صدقٍ لرسالات الله ، وشاهد حقٍ لنبوّة خاتم المرسلين محمد (ص) .

وإذا كان هذا الكتاب لايسع من فيض مكرماته سوى قطرات ، فإن تلك القطرات تكفينا ، لأنها بالنسبة إلينا رافد عظيم .

ولعل البعض تصيبه الدهشة إذا سمع فضائل الإمام (ع) على لسان النبي (ص) لأنه لم يستوعب حكمة الخلق ، ولا يفكر في إطار البصائر القرآنية .

اما إذا نظر إلى السموات والأرض وما فيها بصفتها مخلوقات لله ، وعلم ان الله سخرها للإنسان ، وفضّل البشر على كثير مما خلق تفضيلاً ، وانه إنما اكرم ابناء آدم لعبادتهم له ، وان اكرمهم عنده اتقاهم ، استوعب آنئذ ما يذكر من كرامات اولياء الله .

اما إذا نظر إلى الانسان نظرة مادية ، فإنه لايمكنه ان يصدق بشيء ، حتى بالوحي الذي يعتبر عنوان كرامة الله للانسان ، ورمز تفضيله على سائر خلقه ، ومفتاح تسخير الأشياء له .

وها نحن نستعرض معاً بعض مكرمات الإمام (ع) على لسان النبيِّ (ص) ونتذكر ان الصعاب التي مرَّ بها في حياته كانت معراجاً إلى ربه سبحانه ، ووسيلةً وزلفى إلى رضوانه .

---

(١٢٣) المصدر : ( ج ٤١ ، ص ١٠ ) .

(١٢٤) نهج البلاغة ( المعجم المفهرس ) : ص ( ٩٨ ) .

## الفصل السادس

# في فضائله (ع) على لسان النبي (ص)

روى سلمة بن قيس قال ، قال رسول الله (ص) :

" عليٌّ في السماء السابعة كالشمس بالنهار في الأرض ، وفي السماء الدنيا كالقمر بالليل في الأرض . اعطى الله علياً من الفضل جزاءً لو قُسِّم على اهل الأرض لَوَسعهم . واعطاه الله من الفهم لو قُسِّم على اهل الأرض لَوَسعهم . شبهت لينه بلين لوط ، وخلقه بِخُلق يحيى ، وزُهده بزهد أيوب ، وسخاءه بسخاء إبراهيم ، وبهجته ببهجة سليمان بن داود ، وقوَّته بقوة داود (و) له اسم مكتوب على كل حجاب في الجنة ، بَشرني به ربِّي وكانت له البشارة عندي . عليٌّ محمودٌ عند الحق ، مزكّىً عند الملائكة ، وخاصتي وخالصتي وظاهرتي ومصباحي وجُنّتي ورفيقي ، آنسني به ربي ، فسالت ربي ان لا يقبضه قبلي ، وسالته ان يقبضه شهيداً [125]. ادخلت الجنة فرايتُ حُورَ علي اكثر من ورق الشجر ، وقُصور علي كعدد البشر . عليٌّ منّي وانا من عليٌ ، مَن تولّى علياً فقد تولاّني ، حُبُّ عليٍّ نعمةٌ ، واتّباعُه فضيلة . دان به الملائكة وحفت به الجن الصالحون . لم يمش على الأرض ماشٍ بعدي إلاّ كان هو اكرم منه عزّاً وفخراً ومنهاجاً . لم يك فظّاً عجولاً ، ولا مسترسلاً لفساد ولا متعنّداً ، حملته الأرضُ فاكرَمته . لم يخرج من بطن انثى بعدي احدٌ كان اكرم خروجاً منه ، ولم ينزل منزلاً إلاّ كان ميموناً . انزل الله عليه الحكمة ، وردّاه [126] بالفهم . تُجالِسه الملائكة ولا يراها ، ولو أُوحِيَ إلى احد بعدي لأُوحِيَ إليه ، فزين الله به المحافل واكرم به العساكر ، واخصب به البلاد ، واعزَّ به الأجناد . مَثَلُه كمَثَل بيت الله الحرام ، يُزار ولا يَزور ، ومَثَلُه كمَثَل القمر إذا طلع اضاء الظلمة ، ومَثَلُه كمَثَل الشمس إذا طلعت انارت ( الدنيا ) . وصفه الله في كتابه ومدحه بآياته ، ووصف فيه آثاره ، واجرى منازله ، فهو الكريم حيّاً والشهيد ميتاً " [127].

وروى ابو ذر الغفاري قال : بينما كنّا ذات يوم من الأيام بين يدي رسول الله (ص) ، إذ قام وركع وسجد شكراً لله تعالى ، ثم قال :

" يا جندب ، مَن اراد ان ينظر الى آدم في علمه ، والى نوح في فهمه ، والى إبراهيم في خلّته ، والى

---

(١٢٥) في المصدر : شهيداً بعدي .

(١٢٦) رداه : ألبسه الرداء .

(١٢٧) أمالي الصدوق : ( ص ٦ – ٧ ) .

موسى في مناجاته ، وإلى عيسى في سياحته [128] وإلى أيوب في صبره وبلائه [129] ، فلينظر إلى هذا الرجل المقابل [130] الذي هو كالشمس والقمر الساري والكوكب الدُّري . أشجع الناس قلباً . وأسخى الناس كفاً [131] ، فعلى مبغضه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " .

قال ، فالتفت الناس ينظرون مَن هذا المقبل ، فإذا هو عليٌّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام [132] .

وجاء في كتابَي الخطيب الخوارزمي وأبي عبد الله النطنزي ، قال أبو عبيد صاحب سليمان بن عبد الملك ، بلغ عمر بن عبد العزيز أن قوماً تنقصوا بعلي بن أبي طالب (ع) ، فصعد المنبر وقال ، حدثني غزال بن مالك الغفاري عن أم سلمة ، قال ، بينا رسول الله (ص) عندي ، إذ أتاه جبرائيل فناداه ، فتبسم رسول الله (ص) ضاحكاً ، فلما سُرِّيَ عنه قلت ، ما أضحكك ؟ قال ،

" أخبرني جبرائيل أنه مر بعلي وهو يرعى ذوداً له [133] وهو نائم قد أُبدِيَ بعضُ جسده . قال ، فرددت عليه ثُوَيْبَه فوجدت برد إيمانه وقد وصل [134] إلى قلبي " .

وفي رواية الأصبغ أن علياً (ع) مضى من المدينة وحده ، فأتى عليه سبعة أيام فَرَئيَ النبيُّ (ص) يبكي ويقول ، " اللهم ردّ إليَّ علياً قرة عيني ، وقوة ركني ، وابن عمي ، ومفرج الكرب عن وجهي " .

ثم ضمن الجنة لمن أتى بخبر عليّ (ع) . فركب الناس في كل طريق ، فوجده الفضل بن العباس ، فبشر النبيُّ (ص) بقدومه ، فاستقبله فمازال يفتش عن يمين عليٍّ وعن يساره وعن رأسه وعن بدنه [135] فقلت ، تفتش علياً كأنه كان في الحرب ؟ فأخبرني عن جبرائيل (ع) أن أقواماً من المشركين يقصدونك من الشام فأَخرجْ إليهم علياً وحده ، فخرج معه جبرائيل (ع) في ألف ملك وميكائيل (ع) في ألف ملك ، ورأيت ملك الموت يقاتل دون علي .

وجاء في أربعين الخطيب ، وشرح ابن الفياض ، وأخبار أبي رافع ، في خبر طويل عن حذيفة ابن اليمان أنه دخل أمير المؤمنين (ع) على رسول الله (ص) وهو مريض ، فإذا رأسه في حجر رجل أحسن الخلق والنبيّ (ص) نائم ، فقال الرجل ، أُدن إلى ابن عمك ، فأنت أحق به مني ، فوضع رأسه في حجره ، فلما استيقظ النبيُّ (ص) سأله عن الرجل ، قال علي (ع) ، كان كذا وكذا . فقال النبيُّ ، (ص) ، ذاك

---

(١٢٨) ساح سياحة : رسب في الأرض للعبادة والترهب .

(١٢٩) في المصدر : في بلائه وصبره .

(١٣٠) في المصدر : المقبل .

(١٣١) في المصدر : الذي أشجع الناس قلباً وأسخاهم كفاً .

(١٣٢) الروضة : ( ٣ - ٤ ) .

(١٣٣) قال في القاموس (١) : (٢٩٣) : الذود ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين .

(١٣٤) في المصدر : قد وصل .

(١٣٥) في المصدر : وعن بدنه وعن رأسه .

جبرائيل (ع) كان يحدثني حتى خف عني وجعي . وفي خبر ان النبيّ (ص) كان يملي عليه جبرائيل ، فقام [136] (ص) وأمره بكتابة الوحي .

وروى محمد بن عمرو بإسناده عن جابر بن عبد الله انه قال ، قال رسول الله ( صلىالله عليه وآله ) ،

" ما عصاني قوم من المشركين إلاّ رميتهم بسهم الله " .

قيل ، وما سهم الله يا رسول الله ؟ قال ،

" علي بن ابي طالب (ع) ما بعثته في سريّة ولا ابرزته لمبارزة إلاّ رايت جبرائيل (ع) عن يمينه وميكائيل عن يساره وملك الموت (ع) امامه ، وسحابة تظله حتى يعطيه الله خير النصر والظفر " .

وروي مشاهدته لجبرائيل (ع) على صورة دحية الكلبي حين سماه بتلك الأسامي ، وحين وضع راس رسول الله (ص) في حجره ، وقال ، " انت احق به مني " وحين كان يملي الوحي ونعس النبيُّ (ص) ، وحين اشترى الناقة من الأعرابي بمائة درهم وباعها من آخر بمائة وستين ، وحين غسل النبيّ (ص) ، وغير ذلك ، وروى نحواً منه احمد في الفضائل .

وقد خدمه جبرائيل (ع) في عدة مواضع . روى عليُّ بن الجعد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن ابن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى ،

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر/٤-٥)

قال ، لقد صام رسول الله (ص) سبع رمضانات ، وصام علي بن ابي طالب معه ، فكان كل ليلة القدر ينزل فيها جبرائيل (ع) على علي فيسلم عليه من ربه .

وقال احمد القصري عن أبي محمد العسكري ، عن آبائه ، عن الحسين بن علي (ع) قال ، سمعت جدي رسول الله (ص) يقول ،

" ليلة اسرى بي ربِّي عزَّ وجلَّ رايتُ في بطنان العرش ملكاً بيده سيف من نور يلعب به كما يلعب علي بن ابي طالب (ع) بذي الفقار . وإن الملائكة إذا اشتاقوا إلى علي بن ابي طالب (ع) [137] نظروا الى وجه ذلك الملك ، فقلت ، يا رب هذا اخي علي بن ابي طالب وابن عمي ؟. فقال ، يا محمد هذا ملك خلقته على صورة علي (ع) يعبدني في بطنان عرشي ، تكتب حسناته وتسبيحه وتقديسه لعلي بن ابي طالب الى يوم القيامة " [138] .

وجاء في كفاية الطالب عن انس قال ، قال رسول الله (ص) ،

" مررتُ ليلة أُسـري بي إلى السماء ، فإذا انا بملك جالس على منبر من نور والملائكة تحدق به . فقلت ، يا جبرائيل من هذا الملك ؟. قال ، ادنُ منه وسلِّم عليه ، فدنوت منه وسلَّمت عليه ، فإذا انا باخي

---

(١٣٦) في المصدر : فنام صلى الله عليه وآله .

(١٣٧) في المصدر : إلى وجه علي بن أبي طالب .

(١٣٨) عيون الأخبار : ( ص ٢٧٢ ) .

وابن عمي علي بن ابي طالب (ع) فقلت : يا جبرائيل سبقني علي إلى السماء الرابعة ؟. فقال لي : يا محمد لا ، ولكن شكت الملائكة حبها لعلي (ع) فخلق الله هذا الملك من نورٍ على صورة عليٍ ، فالملائكة تزوره في كل ليلة جمعة ويوم جمعة سبعين الف مرة ، ويسبحون الله ويقدسونه ويهدون ثوابه لمحبي علي (ع) " [١٣٩] .

وجاء في مناقب الخوارزمي ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله (ص) :

" أول من اتّخذ عليٌ بن ابي طالب (ع) اخاً من اهل السماء إسرافيل ، ثم ميكائيل [١٤٠] ، ثم جبرائيل . ولول مَن احبه من اهل السماء حملة العرش ، ثم رضوان خازن الجنان ، ثم ملك الموت . وإن ملك الموت يترحم على محبي علي بن ابي طالب (ع) كما يترحم على الأنبياء (ع) " [١٤١] .

ومن كتاب كفاية الطالب عن وهب بن منبّه ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله (ص) :

" ما بعثت علياً في سريّة إلاّ رايت جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره والسحابة تظله حتى يرزقه الله الظفر " [١٤٢] .

وروى محمد بن علي بن عبد الصمد ، عن ابيه ، عن جده ، عن أصباهان بن أسبوزن الديلمي ، عن محمد بن عيسى الكابي ، عن القعنبي [١٤٣] ، عن موسى بن وردان عن ثابت ، عن أنس أن النبيٌ (ص) قال :

" ليلة أُسري به إلى السماء الرابع " [١٤٤] .

وروى الطبري والخركوشي في كتابيهما بالإسناد عن سلمان قال النبيُ (ص) :

" إذا كان يوم القيامة ضربت لي قبة من ياقوتة حمراء على يمين العرش ، وضرب لإبراهيم قبة خضراء على يسار العرش ، وضرب فيما بينهما لعلي بن ابي طالب (ع) قبة من لؤلؤة بيضاء ، فما ظنكم بحبيب بين خليلين ؟ " .

ونقل أبو الحسن الدارقطني وابو نعيم الاصفهاني في الصحيح والحلية بالإسناد عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن أنس قال : قال رسول الله (ص) :

" إذا كان يوم القيامة نصب لي منبر طوله ثلاثون ميلاً ، ثم ينادي منادٍ من بطنان العرش : أين محمـــــد ؟. فلجيب . فيقال لي : ارقَ ، فلكون في أعلاه ، ثم ينادي الثانية : اين علي بن أبي طالب ؟.

---

(١٣٩) كشف الغمة : ( ص ٤٠ ) .

(١٤٠) المصدر : وميكائيل .

(١٤١) كشف الغمة : ( ص ٣٠ ) .

(١٤٢) كشف الغمة : ( ص ١١٣ ) .

(١٤٣) في المصدر : عن محمد بن عيسى البكاي : عن العقيني .

(١٤٤) في المصدر : إلى السماء الرابعة .

فيكون دوني بمرقاة . فيعلم جميع الخلائق بان محمداً سيد المرسلين ، وان علياً سيد الوصيين " .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ، فمن يبغض علياً بعد هذا ؟. فقال :

" يا اخا الانصار ، لا يبغضه من قريش إلاّ سَفَحيّ [145] ولا من الأنصار إلاّ يهودي ، ولا من العرب إلاّ دعيّ [146] ولا من سائر الناس إلاّ شقيّ " .

— وفي رواية ابن مسعود — :

" ومن النساء إلاّ سلقلقية " [147] .

اما قوله تعالى :

﴿ فَــأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللــه عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّيــنَ وَالصِّدِّيقِيــنَ وَالشُّهَــدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِــكَ رَفِيقــاً ﴾ (النساء/٦٩)

عبد الله بن حكيم بن جبير عن علي (ع) انه قال للنبي (ص) :

" هل نقدر على رؤيتك في الجنة كلما اردنا ؟ " .

فقال رسول الله (ص) : " إن لكل نبي رفيقاً وهو اول من يؤمن به من امته " . فنزلت هذه الآية .

وروى عباد بن صهيب ، عن جعفر بن محمد ، عن ابيه ، عن جده ، عن النبيٍّ (ص) — في خبر — قيل : يا رسول الله ، فكم بينك وبين علي في الفردوس الأعلى ؟ فِترٌ او اقل من فِترٍ [148] قال :

" أنا على سرير من نور عرش ربّنا ، وعليٌ على كرسي من نور الكرسي " .

وعن عبد الصمد ، عن جعفر بن محمد ، عن ابيه ، عن عليٍّ بن الحسن ، عن ابيه (ع) قال : سئل النبي (ص) عن قوله تعالى :

﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (الرعد/٢٩)

قال : " نزلت في امير المؤمنين علي بن ابي طالب . وطوبى شجرة في دار امير المؤمنين علي بن أبي طالب في الجنة ، ليس في الجنة شيء إلاّ وهو فيها " [149] .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله (ص) يقول :

" ليلة أُسري بي إلى السمـاء أُدخلت الجنة فرايت نوراً اضرب به وجهي ، فقلت لجبرائيـل : ما هذا النور الذي رأيتـه ؟. قال : يا محمد ليس هذا نور الشمس ولا نور القمر ، ولكن جارية من جواري علي بن ابـي

---

(١٤٥) أي من ولد من الزنا .

(١٤٦) الدعي : المتهم في نسبه .

(١٤٧) أي المرأة التي تحيض من دبرها .

(١٤٨) الفتر – بالكسر فالسكون – : ما بين طرف الابهام وطرف السبابة إذا فتحتهما .

(١٤٩) اليقين في امرة أمير المؤمنين : ( ص ٦٢ ) .

طالب (ع) طلعت من قصورها [150] فنظرتْ إليك وضحكتْ ، فهذا النور خرج من فيها وهي تدور في الجنة إلى أن يدخلها أمير المؤمنين (ع) " [151] .

ونقل الحاكم الحافظ في أماليه ، وابو سعيد الواعظ في شرف المصطفى ، وابو عبد الله النطنزي في الخصائص ، بإسانيدهم أنه حدث زيد بن علي وهو آخذ بشعره [152] ، قال حدثني الحسين بن علي وهو آخذ بشعره ، قال : حدثني علي بن ابي طالب وهو آخذ بشعره ، قال : حدثني رسول الله (ص) وهو آخذ بشعره فقال : " من آذى أبا حسن فقد آذاني حقّاً . ومَن آذاني فقد اذى الله ، ومَن آذى الله فعليه لعنة الله " .

وفي رواية : " ومَن آذى الله لعنه الله ملء السماوات وملء الأرض " .

واورد الترمذي في الجامع ، وابو نعيم في الحلية ، والبخاري في الصحيح ، والموصلي في المسند ، واحمد في الفضائل ، والخطيب في الاربعين عن عمران بن الحصين وابن عباس وبريدة أنه رغب علي (ع) من الغنائم في جارية ، فزايده حاطب بن ابي بلتعة وبريدة الأسلمي فلما بلغ قيمتها قيمة عدل في يومها اخذها بذلك ، فلما رجعوا وقف بريدة قدام الرسول (ص) وشكى من عليٍ ، فاعرض عنه النبيّ (ص) ، ثم جاء عن يمينه وعن شماله ومن خلفه يشكو ، فاعرض عنه ، ثم قام إلى بين يَديه فقالها ، فغضب النبي (ص) وتغير لونه وتربّد وجهه [153] وانتفخت اوداجه وقال : مالك يا بريدة ما آذيت رسول الله منذ اليوم ؟. اما سمعت الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ (الاحزاب/٥٧)

" اَما علمت ان علياً مني وانا منه ، وان مَن آذى علياً فقد آذاني ، ومَن آذاني فقد آذى الله ، ومَن آذى الله فحق على الله أن يؤذيه باليم عذابه في نار جهنم ؟. يا بريدة انت أعلم أم الله أعلم ؟. أم قرّاء اللّوح المحفوظ أعلم ؟ انت أعلم أم ملك الأرحام أعلم ؟. انت اعلم يا بريدة أم حفظة عليٍّ بن ابي طالب ؟ " .

قال : بل حفظته ، قال : " وهذا جبرائيل أخبرني عن حفظة علي أنهم ما كتبوا قط عليه خطيئة منذ ولد . ثم حكى عن ملك الأرحام وقرّاء اللوح المحفوظ [154] – وفيها – ما تريدون من عليٍ ؟. ثلاث مرات " .

---

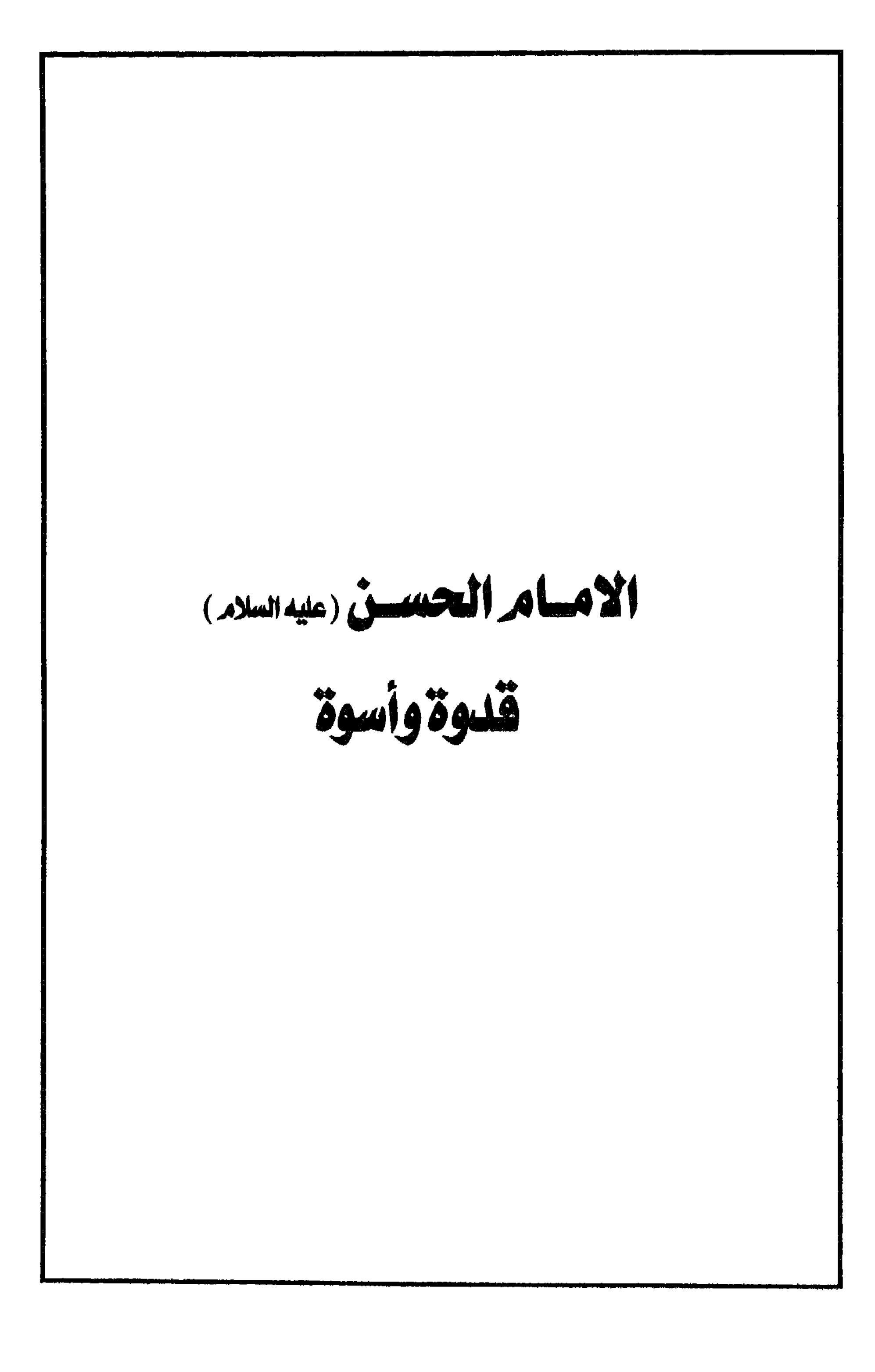
(١٥٠) في المصدر : من قصرها .

(١٥١) اليقين في امرة أمير المؤمنين : ( ص ٢٠ أو ٢١ ) .

(١٥٢) في المصدر بعد ذلك : قال حدثني علي بن الحسين وهو آخذ بشعره .

(١٥٣) تربد الرجل : تعبس ، تربد اللون تغير .

(١٥٤) أي حكى رسول الله (ص) عن ملك الأرحام وقرّاء اللوح المحفوظ أن علياً لم يعص الله قط منذ خلق . ويمكن أن يكون فاعل ( حكى ) جبرائيل (ع) .



# الامام الحسن (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

## الفصل الأول

# الأصل الكريم

### ولادته ونشأته :

### ١- النبي في رحلة :

في ليلة النصف من رمضان . كان بيت الرسالة يستقبل وليده الحبيب ، وقد كان ينتظره طويلا .. واستقبله كما تستقبل الزهرة النضرة قطرة شفافة من الندى بعد العطش الطويل .

والوليد يتشابه كثيراً وجدّه الرسول العظيم ، ولكنّ جدّه لم يكن شاهَد ميلاده حتى تُحمل إليه البشرى . فقد كان في رحلة سوف يرجع منها قريباً .

وكان أفراد الأسرة ينتظرون باشتياق ، ولا يتحفون الوليد بسنن الولادة ، حتى إذا جاء الرسول (ص) اسرع إلى بيت فاطمة (ع) على عادته في كل مرة عندما كان يدخل المدينة بعد رحلة . وعندما أتاه نبأ الوليد غَمَره البُشر ، ثم استدعاه . حتى إذا تناوله أخذ يشمّه ويقبّله ويؤذّن له ويُقيم ، ويأمر بخرقة بيضاء يلف بها الوليد ، بعدما ينهى عن الثوب الأصفر .

ثم ينتظر السماء هل فيها للوليد شيء جديد ، فينزل الوحي ، يقول ، إن اسم ابن هارون — خليفة موسى (ع) كان شبّراً .. وعلي منك بمنزلة هارون من موسى فسمّه حَسَناً ، ذلك ان شُبَّراً يرادف الحسن في العربية .

وسار في المدينة اسم الحسن ، كما يسير عبق الورد . وجاء المبشرون يزفون أحر آيات التهاني إلى النبي (ص) ، ذلك ان الحسن (ع) كان الولد البكر لبيت الرسالة ، يتعلق به أمل الرسول وأصحابه الكرام . فهو مجدد أمر النبي الذي سوف يكون القدوة والأسوة للصالحين من المسلمين .. إنه امتداد رسالة النبي من بعده . وفي الغد يأمر الرسول (ص) بكبش ، يعق عنه ، فلما يأتون به يجيء بنفسه ليقرأ الدعاء بالمناسبة فيقول ،

بسم الله الرحمن الرحيم

عقيقة عن الحسن ،

اللهم عظمُها بعظمه ، ولحمُها بلحمه ، ودمُها بدمه ، وشعرُها بشعره ، اللهمَّ اجعلها وقاءً لمحمد وآله .

ثم يامر بان يوزع اللحم على الفقراء والمساكين ، لتكون سنّة جارية من بعده ، تذبح كلّ اسرة ثريّة كبشاً بكل مناسبة متاحة ، لتكون الثروة موزعة بين الناس ، لا دَولة بين الأغنياء منهم .

ثم ياخذه الرسول ذات يوم وقد حضرت عنده لبابة – ام الفضل – زوجة العباس بن عبد المطلب عمّ النبيِّ (ص) فيقول لها : رايتِ رؤيا ، في أمري ..

فتقول : نعم يا رسول الله ..

فيقول (ص) : قُصِّيها .

فتقول : رايت كان قطعة من جسمك وقع في حضني .

فناولها الرسول (ص) الرضيع الكريم ، وهو يبتسم ويقول : نعم هذا تاويل رؤياك . إنه بضعة مني . وهكذا اصبحت ام الفضل مرضعة الحسن (ع) .

.. ويشب الوليد في كنف الرسول الأعظم (ص) ، وتحت ظلال الوصي (ع) ، وفي رعاية الزهراء (ع) ، لياخذ من نبع الرسالة كلّ معانيها ، ومن ظلال الولاية كلّ قيَمِها ومن رعاية العصمة كلّ فضائلها ومكارمها . ولايزال النبي والوصي والزهراء عليهم جميعاً صلوا ت الله يُوْلُون العناية البالغة التي تنمي مؤهلاته .

## الوراثة :

وليس هناك من شك بان للوراثة اثرها الكبير في صياغة الفرد صياغة مكيّفة بالبيئة التي انبعث منها وخلق فيها . وبيتُ ابناء ابي طالب ، كان خير البيوت لإنشاء الإنسان الكامل ، فكيف وقد وُلد الحسن (ع) من عبد المطلب مرتين ، مرة من علي بن ابي طالب واخرى من فاطمة بنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ( صلى الله عليهم وآلهم ) ؟. كما كان علي (ع) مولوداً عن هاشم مرتين . ولا نريد ان نشرح مآثر بيت هاشم ، وبالخصوص اسرة عبد المطلب فيهم ، فإنها ملأت السهل والجبل ، بل اقول : ناهيك عن بيت بزغ منه الرسول الأكرم ، محمد (ص) ، والوصي العظيم علي (ع) ، وحسب علم حساب الوراثة أن التاثير قد يكون من جهة الأب فيستصحب كلّ سماته وصفاته . وقد يكون من جانب الأم ، وقد تحقق في الحسن (ع) هذا الأخير . فقد برزت فيه سمات امه الطاهرة لتعكس صفات والدها العظيم محمد النبي (ص) ، فكان اشبه ما يكون بالنبي منه بالإمام ، وطالما كان يطلق النبي قوله الكريم :

" الحسن مني والحسين من علي " .

وقد يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الكلمة في الأحداث التي جرت بعد الرسول (ص) وطبيعة الظروف التي قضت عند الحسن (ع) ان يتخذ منهج الرسول أُسوةً له دقيقة التطبيق شاملة التوفيق ، فيعطي الناس من عفوه وصفحه ، ويعطي اعداءه من صُلحه ورِفقه ، مثلما كان يعطي الرسول تماماً .. كما اقتضت عند الحسين (ع) ان يبالغ في شدّته في الدِّين ، وغيرته عليه ، ويبدي من منعته ورفعته في اموره ، ما جعل تشابهاً كبيراً بينه وبين عهد علي (ع) مع المشركين والكافرين والضالين .

## التربية :

ولقد أولاه النبيُّ والوصيُّ والزهراءُ عليهم الصلاة والسلام من التربية الإسلامية الصالحة ما أهَّله للقيادة الكبرى . فإن بيت الرسالة كان يربي الحسن وهو يعلم ما سوف يكون له من المنزلة في المجتمع الإسلامي ، كما يوضح للمؤمنين منزلته وكرامته .

فكان النبيُّ (ص) يرفعه على صدره ، ثم يقيمه لكي يكون منتصباً ويأخذ بيديه يجره إلى طرف وجهه الكريم جراً خفيفاً وهو ينشد قائلاً :

" حزقّةٌ حزقّة [1] تَرَقَّ عينَ بَقَّة " .

ويلاطفه ويداعبه .. ثم يروح يدعو : اللهم إني أُحبه فأَحبَّ من يحبه ويقصد أن يسمع الناس من أتباعه لكي تمضي سيرته فيه أُسوة للمؤمنين ، بكرامة الحسن (ع) واحترامه .

ومرة يصلي النبي بالمسلمين في المسجد ، فيسجد ويسجدون ، يرددون في خضوع : " سبحان ربي الأعلى وبحمده " مرة بعد مرة ، ثم ينتظرون الرسول أن يرفع رأسه ولكن النبيَّ يطيل سجوده ، وهم يتعجبون : ماذا حدث ؟. ولولا أنهم يسمعون صوت النبي لايزال يَبعث الهيبة والضراعة في المسجد لظنوا شيئاً .

ولا يزالون كذلك حتى يرفع النبي رأسه ، وتتم الصلاة ، وهم في أحر الشوق إلى معرفة سبب إبطائه في السجود فيقول لهم : جاء الحسن فركب عنقي ، فأشفقت عليه من أن أُنزله قسراً ، فصبرت حتى نزل اختياراً .

وحيناً : يصعد النبي (ص) المنبر ويعظ الناس ويرشدهم ، فيأتي الحسنان من جانب المسجد فيتعثَّران بثَوْبَيهما فإذا به يهبط من المنبر مسرعاً إليهما حتى يأخذهما إلى المنبر ، يجعل أحدهما على وركه اليمنى ، والآخر على اليسرى ، ويستمر قائلاً : صدق الله ورسوله ، ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (الأنفال/٢٨) نظرت إلى هذين الصبيَّين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما " .

وكان يصطحبهما في بعض أسفاره القريبة ، ويُردفهما على بغلته من قُدَّامه ومن خَلْفه لئلا يشتاق إليهما فلا يجدهما ، أو لئلا يشتاقا إليه فلا يجدانه . وكان يشيد بذكرهما في كلّ مناسبة ، ويظهر كرامتهما إعلاناً أو تنويهاً . فقد أخذهما معه يوم المباهلة وأخذ أباهما وأمهما فظهر من ساطع برهانهم جميعاً ما أذهل الأساقفة " [2] .

ودخل رسول الله دار فاطمة (ع) ، وسلم ثلاثاً على عادته في كلّ دار ، فلم يجبه أحد . فانصرف إلى فناء ، فقعد في جماعة من أصحابه ثم جاء الحسن ووثب في حبوة جدّه فالتزمه جدّه ، ثم قبله في فيه ثم

---

(١) الحزقة : القصير الذي يقارب الخطو .

(٢) الحسن بن علي : ( ص ٢١ ) .

راح يقول : الحسن مني والحسين من علي .

وكثيراً ما كان الناس يتعجبون من صنع الرسول هذا ، كيف يعلنها لإبْنَيهِ إعلاناً ، فذات مرة شاهده أحد أصحابه وهو يقبل الحسن ويشمه فقال – وقد كره هذا العمل – : إن لي عشرة ما قبَّلت واحداً منهم ، فقال رسول الله : من لايرحم لايُرحم . وفي رواية حفص قال : فغضب رسول الله (ص) حتى التمع لونه وقال للرجل : ان كان الله نزع الرحمة من قلبك ما أصنع بك ؟ ثم لما رأى مناسبة سانحة أردف قائلاً :

" الحسن والحسين ابناي ، مَن أَحبَّهما احبني ومن احبني أحبه الله ، ومن أحبه الله أدخله الجنة . ومن أبغضهما أبغضني ، ومن أبغضني أبغضه الله ، ومن أبغضه الله أدخله النار " .

ثم أخذهما هذا عن اليمين وذاك عن الشمال ، مبالغة في الحب .

ولطالما كان يسمع الصحابة قولته الكريمة :

" هذان ابناي وابنا بنتي ، اللهم إني أُحبهما ، وأُحب من يحبهما " .

أو كلمته العظيمة يقولها وهو يشير إلى الحسن (ع) : " وأُحب من يحبه " .

ويرى أبو هريرة الإمام الحسن (ع) بعد وفاة جده الرسول فيقول له : أرني أقبل منك حيث رأيت رسول الله يقبّل ، ثمّ قبّل سرّته . ومن ذلك يظهر أن رسول الله (ص) كان يعلن ذلك إعلاناً ، حتى يراه الناس جميعاً .

وقد بالغ النبيُّ (ص) في مدح الحسنين ، حتى لكان يُظن أنهما أفضل من والدهما علي (ع) ، مما حدا به إلى أن يستدرك ذلك فيقول : هما فاضلان في الدنيا والآخرة وأبوهما خير منهما .

.. وطالما كان يرفعهما على كتفيه – يذرع معهما طرقات المدينة والناس يشهدون ، وقد يقول لهما :

" نعم الْجَمل جَمَلُكما ، ونعم الراكبان أنتما " .

وطالما كان ينادي الناس فيقول :

" الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة " .

أو :

" الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا " .

أو :

" الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا " .

ولقد قال – مرة – :

" إذا كان يوم القيامة زين عرش رب العالمين بكلّ زينة ، ثم يؤتى بمنبرين من نور طولهما مائة ميل ، فيوضع أحدهما عن يَمين العرش ، والآخر عن يسار العرش ، ثم يؤتى بالحسن والحسين فيقوم الحسن على أحدهما والحسين على الآخر ، يزيّن الرب تبارك وتعالى بهما عرشه كما يُزيّنُ المرأة قرطاها "[٣] .

---

(٣) المصدر : ( ج ٤٣ ، ص ٢٦٢ ) .

وعن الرضا عن آبائه عليه وعليهم السلام ، قال ، قال رسول الله ،

" الولد ريحانة وريحانتاي الحسن والحسين " [٤] .

وعن رسول الله (ص) ، " من أحبّ الحسن والحسين فقد احبني ومن ابغضهما فقد ابغضني " [٥] .

وعنه (ص) ،" الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة " [٦] .

وروى عمران بن حصين عن رسول الله (ص) انه قال له ، " يا عمران بن حصين ! إن لكلّ شيء موقعاً من القلب ، وما وقع موقع هذين من قلبي شيء قط ..

فقلت ، كل هذا يا رسول الله !

قال ، يا عمران وما خفي عليك اكثر ، إن الله امرني بحبّهما " [٧] .

وروى ابو ذر الغفاري قال ، رايت رسول الله يقبّل الحسن بن عليّ وهو يقول ،

" من احب الحسن والحسين وذريتهما مخلصاً لم تلفح النار وجهه ، ولو كانت ذنوبه بعدد رمل عالج ، إلاّ ان يكون ذنباً يخرجه من الإيمان " [٨] .

وروى سلمان فقال ، سمعت رسول الله يقول في الحسن والحسين ،

" اللهم إنّي اُحبُّهما فَاحبُّهما واَحبب من احبَّهما .. " .

وقال ، " من احبّ الحسن والحسين احببته ، ومن احببته احبه الله ، ومن احبه الله ادخله الجنة ومن ابغضهما ابغضته ، ومن ابغضته ابغضه الله ، ومن ابغضه الله ادخله النار " [٩] .

وما إلى ذلك من اقوال مضيئة نعلم – علم اليقين – انها لم تكن صادرة عن نفسه ، بل عن الوحي الذي لم يكن ينطق إلاّ به .

ولازالت عناية الرسول تشمل الوليد حتى شبّ ، وقد اخذ من منبع الخير ومآثره ، فكان اهلاً لقيادة المسلمين . وهكذا راه الرسول ومن قبله إله الرسول ، إذ اوحى إليه ان يستخلف عليّاً ، ثم حسناً وحسيناً ، فطفق يامر الناس بمودّتهم واتّباعهم واتخاذ سبيلهم . ولئن شككنا في شيء فلن نشك في أن من رباه الرسول ، كان اولى الناس بخلافته .

## بعد فقد الرسول :

وكان للحسن (ع) من العمر زهاء ثمانية اعوام حينما لحق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى ( في السنة

---

(٤) المصدر : ( ص ٢٦٤ )

(٥) المصدر .

(٦) المصدر : ( ص ٢٦٥ ) .

(٧) المصدر . ( ص ٢٦٩ )

(٨) المصدر . ( ص ٢٧٠ )

(٩) المصدر . ( ص ٢٧٥ )

الحادية عشرة من الهجرة ) فاثّر في قلبه الم الفاجعة ، واضرم فيه نيران الكآبة والحزن .

ولانصراف دفة الحكم عن امير المؤمنين (ع) ، الذي كان له الحق الشرعي فيها ، احسّ الحسن (ع) بمزيد من الحزن والغيظ ، لا لأن والده حُرم حقاً هو له ، او منصباً هو اهله ، او زوي عنه من الدنيا ما كان لهم .. كلا ، لأنّه كان يرى أن انحراف المسلمين عن الجادة ، يعني انحدارهم إلى هوة الضلال بعد انتشالهم عنها ، ورجوعهم إلى مفاسد الجاهلية ، بعد تخلصهم منها ، لذلك حزن واشتد حزنه .

وذات يوم دخل المسجد فراى الخليفة الأول يخطب في الناس على منبر جده ، بل ابيه ، فثارت في فؤاده لوعة وكآبة ، فانقلبت إلى غيظ وسخط ، فاخترق الجميع حتى بلغ المنبر قائلاً ، انزلْ ، انزلْ عن منبر ابي ..؟

فسكت الخليفة الأول ،

وكرر الحسن (ع) يقول ، وقد تقدم إلى المنبر شيئاً ، انزل ، إياك أعني . فقام صحابي ، وضمّ الحسن (ع) إلى نفسه يُسكت عنه الروع ، وساد الصمت حيناً ، ثم اخترقه الخليفة الأول وهو يقول ، صدقتَ فمنبر ابيك ، ولم يزد شيئاً . ولكنه عاتب علياً (ع) بعد ذلك وقد ظن انه اثار الحسن عليه ، بيد ان الإمام (ع) حلف له انه لم يفعل .

ونلتقي بالحسن (ع) بعد هذا الحادث بثلاث وعشرين سنة حينما اندلعت الثورة الجامحة من المسلمين تطالب الخليفة الثالث بخلع نفسه من الخلافة .. والثورة كانت تضطرم شيئاً فشيئاً ، وينضم إليها المسلمون افواجاً وافواجاً .. وقد اشتد بهم الحنق على سياسة الخليفة وسلوك تابعيه ، وكانت الثورة تنقاد بامر العظماء من اصحاب الرسول (ص) وزعماء المسلمين ، امثال عمار بن ياسر ، ومالك بن الحارث ( الأشتر ) ، ومحمد بن ابي بكر ، غير انه انضوى تحت الويتهم عدة غير قليلة من سواد الشعب من العراق ، ومصر وطائفة من الأعراب ، ولم يكن هؤلاء — طبعاً — ذوي سداد في الراي ، وحنكة في التجربة بل أولي نخوة ومصالح .. واشتد امر الثورة ، حتى حاصروا دار عثمان يطالبونه ، إما ان يخلع نفسه وإما ان يلبي دعوتهم . وابى عثمان إلاّ الإعتماد على جيش معاوية . الذي استنجده وذلك الجيش كان قد امره معاوية بالوقوف خارج المدينة حتى ياذن له بدخولها .

وذات يوم اراد الإمام امير المؤمنين علي (ع) ان يخبر عثمان بعزمه على الدفاع عنه ، والمشورة له والنصح للعالم الإسلامي ، إن اراد ذلك .. ولكن من يبلّغ هذه الرسالة إلى عثمان ، وحول بيته عشرات الألوف يهزون الرماح ويسلّون السيوف . فقام الحسن (ع) قائلا ، انا لذلك . ثم اخذ يخترق الجميع في عزيمة الشجاع العظيم ، حتى اتى دار عثمان ، فدخلها بكلّ طمانينة وبلّغ رسالة والده ، وجلس ينصحه ويشير عليه بالخير غير مبالٍ بما يثيره الثوار خارج البيت من صلصلة سيوف ، ودمدمة سروج ، ودغدغة رماح . فإنهم كانوا في حالة صَرَع ، لا يؤمن ان يخترقوا الدار ، فيقتلوا من فيها ، وفيها الحسن . غير انه جلس رابط الجاش ثابت العزيمة ، شجاع الفؤاد ، لأنه علم انه إن اصيب بشيء ففي سبيل النصح في

سبيل الله ودفع غائلة الفتنة عن المسلمين .

وهكذا جلس حتى أتمّ واجبه وبلّغ رسالته ، ورجع يخترق جموع الثوار مرة أخرى ..

وحيناً آخر نجد الإمام الحسن (ع) ، وقد قتل عثمان وازدحمت الحوادث من بعده ، يرى من هنا معاوية يدعو إلى نفسه ، ومن هنا الناكثون يحشدون الجيوش تحت قميص عثمان ، وقد أُخرجت زوجة الرسول (ص) في الموكب لتنتقم .

والإمام الحسن (ع) كان يومئذ فتىً له كلّ مؤهلات القيادة والوصاية ، وقد كان له الحظ الأوفر بعد أبيه في تسيير القضايا وتدبير الأمور ، والعالم الإسلامي آنئاك أحوج ما يكون إلى تدبيره وسياسته ، لأن خطأة واحدة كانت كفيلة بإبادتها راساً .. والإمام أمير المؤمنين كان يتردد بين أمرين ما أصعب الإختيار بينهما . وهما أن يقعد ويتقاعس عن الحرب وقد أرادها له خصومه ليستولي على الأمور أولو المطامع والشهوات . أو أن يحارب — وقد فعل — وفي الحرب مذبحة المسلمين ..

ولا يهمنا من ذلك إلاّ أن الإمام الحسن (ع) عاش تجارب والده الذي كانت تجاريه بنفسه . حيث إن والده العظيم كان يشاطره أمور الخلافة كلها لسببين :

أولاً : لمّا كان فيه من الكفاءة والمقدرة .

ثانياً : لكي يهدي الناس إلى الإمام من بعده ، وليروا في نجله العظيم القائدَ المحنّكَ الحازمَ ، والحاكمَ العادل الرؤوف . ففي اليوم الذي بويع والده بالخلافة كان عليه أن يرقى المنبر على عادة الخلفاء من قبله ليبين سياسته ، لكي يكون الناس على خبرة وعلم . هكذا روت الأحاديث أنه (ع) استدعى الحسن (ع) ليصعد المنبر لئلا تقول قريش من بعده إنه لا يحسن شيئاً ، " هكذا " كما صرح بذلك أمير المؤمنين ذاته . فصعد المنبر ، ووعظ الناس وأبلغ ، ثم راح الإمام يردد فضائل السبطين على الملأ العام .

وظلّ الحسن (ع) الساعد المتين لوالده العظيم ، في تلك الفتنة الكبرى ، التي رافقت خلافة علي (ع)، نعم ففي فتنة البصرة بعث الإمام نجله على رأس وفد فيه عبد الله بن العباس ، وعمار بن ياسر وقيس بن سعد ، يستنفر أهل الكوفة لحرب الغدرة من أصحاب الجمل ، وقد حمل معه كتاباً عن أمير المؤمنين فيه عرض خاطف عن قصة مقتل عثمان ، وبيان الحقيقة في ذلك .. فجاء الإمام ، يريد استنهاض الناس الذين كانت ، ولازالت ، ولاتها تثبطهم عن الخروج مع الإمام فعاتب أولاً أبا موسى الأشعري المراوغ ، على تثبيطه الناس ، وكان يومئذ والياً على الكوفة ، ثم تلا عليهم الكتاب بنصه :

" إني خرجت مخرجي هذا ، إمّا ظالماً وإمّا مظلوماً ، وإمّا باغياً وإمّا مبغياً عَلَيّ ، فأُنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلاّ نفر إليّ ، فإن كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت ظالماً استعتبني " .

ثم أخذ يحثهم على الجهاد وهو يقول على ما في بعض الروايات :

" أيها الناس إنّا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنّة رسوله ، وإلى أفقه من نفقه من المسلمين ، وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهله السنّة ،

ولم تقعد به السابقة . إلى من قرَّبه الله تعالى ورسولُه ، قرابتين ، قرابة الدين ، وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كلِّ مأثرة . إلى من كفى الله به ورسوله ، والناسُ متخاذلون . تقرَّب منه والناس متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم مُحجمون ، وصدَّقه وهم يكذبون ، إلى من لا ترد له راية ولا تكافأ له سابقة .

وهو يسالكم النصر ويدعوكم إلى الحقّ ويامركم بالمسير إليه ، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا راية بيعته ، وقتلوا اهل الصلاح من اصحابه ، ومثَّلوا بعمُاله ، وانتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا إليه رحمكم الله، فامروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون .. " .

هكذا اتم المقطوعة الأولى من خطبته .. فبيَّن لهم أولاً دستور صاحب الدولة ، بنص الكتاب الذي ارسله الخليفة ، ثم راح يبيِّن شخصية الداعي لهم حتى ياتمنوه على دينهم ودنياهم . ثم لخذ ببيان جانب الفتنة ليبعث فيهم الروح الإنسانية التي تحثهم على الدفاع عن المقدَّسات ، واخيراً تكلم معهم عن الناحية الدينية ، فابلغ بذلك كمال مراده .

ثم اَتبع هذه الخطبة ، باخرى ، الهب فيها حماساً ، ودعا إلى الجهاد ، ولازال بهم حتى إحتشد منهم جمع كثير ، وكان هناك تدابير لخرى تتبع هذه الخطب ، وتنفذها .

وسار الجيش إلى البصرة ، والتقى الفريقان والتحم الجيشان ، وراى الإمام ، ان الراية المعادية هي المركز الذي يجب ان يقصد ، فإن وقعت فالعدو منهزم ، وإن بقيت فإن في ذلك مقتلاً كبيراً من الفريقين ولا يريد ذلك الإمام (ع) .

فتوجه إلى محمد بن الحنفية – نجله الشجاع الصنديد الذي كان مضرب المثل في الناس بالقوة والشجاعة – يامره بالإقدام ، ومحاولة اسقاط العلم ، وقد كانت تلك المحاولة صعبة جداً ، حيث ان الجيوش كانت تعتبر العلم كلّ شيء في نصرها او هزيمتها ، فكانت تدافع عنه بما اوتيت من قوة وباس .

فاقدم محمد في عزيمة ثابتة ، بيد انه لم يَخْطُ خُطوات حتى عرف الخصم مناوءه ، فجعل الجيش كله يُمطر عليه السهام ، فإذا به يجد نفسه تحت وابل من النبال ، فرجع إلى مركز القيادة عند امير المؤمنين .. فزجره الإمام فاجاب ، إنه إنما صبر حتى يخف النبل وثم يتابع زحفه وهنا يكتب بعض الرواة، ان الإمام عزم على إنجاز المهمة بنفسه ، بيد ان الإمام الحسن قام يكفيه ذلك ، فقال له والده ، بعد تردد ربما كان ناشئاً عن محافظته الكبيرة على حياة السبطين لانه كان ينحدر منهما نسل النبي (ص) ، فإذا استشهد فمن الذي يحفظ نسب النبي (ص) ؟. ومن الذي يكون إمتداداً له ؟

قال له بعد أن تردد بعض الوقت ، سر على اسم الله .

واقتحم الإمام خضم الجيش .. فتقاطرت عليه النبال ، وعلي (ع) ينظر إليه عن كثب ، ومحمد على جنبه يرق .. ولم يزل الحسن (ع) يغيب في لجج الرجال ويطفو عليها حيناً لخر ، حتى بلغ مركز الراية فاسقطها ، وهزم الجيش وتمّ النصر على يده (ع) .

.. ولو ظللنا نتابع الأحداث التي جرت على خلافة أمير المؤمنين .. نتحسس عن شخصية الإمام الحسن (ع) ، لطال ذلك بنا كثيراً ، لأنها كانت الشخصية الثانية في تلك الأحداث الرهيبة ، ولها من اللمعان والوضاءة ما يبهر الأبصار ويُدهش العقول .

### الفصل الثاني

# عهد امامته

وتمت المؤامرة الكائدة باغتيال الإمام امير المؤمنين (ع) في التاسع عشر من شهر رمضان .. سنة أربعين هجرية .. والعالم الإسلامي يومئذٍ في أشد ما يكون من الإضطراب والتوتر .

فها هنا الخوارج ظلّ بقايا منهم هنا وهناك يدعون الناس إلى حكم الله الذي لا يتعلق باي من القيادتين الشامية والكوفية — في زعمهم — بل يعيش بغير قيادة !! وانضوى تحت لوائهم الكثيرون من القشريين والمفسدين ، ممن لم يكن يعجبه الحقّ المتمثل في معسكر الإمام علي ولا نوع الباطل في معسكر الشام . وكان هؤلاء يستسهلون في سبيل إبادة الحكم ، كلّ صعب ، ويبرّرون كلّ فساد .

وهناك في الشام ، يحشر معاوية جيشه لتجريد حملة عسكرية أخرى على الكوفة يكون فيها الفصل ، ويكتب إلى عماله يقول ما هذا نصه بالحرف :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ، ومَن قِبَلَه من المسلمين ، سلام عليكم .. فإني احمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو . اما بعد فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم فترك اصحابه محرَّفين مختلفين ، وقد جاءنا كتب اشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم . فأقبِلُوا إليَّ حين ياتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم ، وحشد عدتكم . فقد أصبتم بحمد الله الثار وبلغتم الأمل ، واهلّ الله أهل البغي والعدوان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . [10] – [11]

أما الخوارج فإنهم وإن كانوا سوف يؤيونه ضد معاوية ، إلاّ انهم سوف لايزيدونه غير تخسير ، لأنهم لايعتقدون به كما أنهم لا يعتقدون بمعاوية سواءً بسواء .

ولنلق نظرةً إلى بيت الإمام علي (ع) ، لنرى كيف يخبت فيه نور الإمام وسناؤه ، ليدفن مع جثمانه الطاهر في ظهر الغريّ في خفاء ، وعلى اشد الحذر من الخوارج ان يعرفوا مرقده ، فيفكروا في الإنتقام لصاحبهم ( ابن ملجم ) الذي احرق جثمانه ، ولخوفهم ومن غيرهم كجواسيس بني امية الذين لايفترون

---

(١٠) شرح ابن أبي الحديد : ( ج ٤ ، ص ١٣ ) .

(١١) لابد أن ننبه القارئ إلى ما احتوت عليه رسالته من الدجل .

الرسالة هي : أن معاوية ذكر كتاب أشراف العراق إليه فإن كان ذلك كما ذكر فلم هذه الحرب ولم حشد الجيش ولمحاربة مَن ؟ إذا كان أهل العراق يريدون حكومته فَلِمَ يجمع ستين ألفاً ، يخرج بهم إليه ، وقد كان يمكنه أن يدخله مع شرذمة من أصحابه .

عن نقل الأخبار إلى الحزب الأموي [١٢] .

ثم يرجع المشيعون من ابناء علي (ع) واقربائه ، ولا يزالون يقيمون العزاء إذ يدخل عليهم عبيد الله بن العباس ، الذي كان والياً على البصرة من قِبَلِ علي (ع) .. فيخرج الحسن إلى المسجد والمسلمون ينتظرون مقدمه على أحرّ انتظار .. ذلك لأنه قبل أن يدخل على الإمام ، وقف في الراس خطيباً ، وقال : إن أمير المؤمنين تُوُفّي وقد ترك لكم خَلَفاً فان أجبتم خرج إليكم وإن كرهتم فلا لأحد على احد .

فضج الناس بالبكاء والعويل ، وكان قول ابن العباس فجَّر ينابيع الكآبة والحزن في القلوب ، ثم نادوا باعلى أصواتهم : بل يخرج إلينا ، فخرج إليهم الإمام الحسن (ع) ، وحمد الله واثنى عليه ، ثم ابّن فقيد العالم الإسلامي ، وقال :

" لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولم يدركه الآخرون بعمل ، لقد كان يجاهد مع رسول الله (ص) فيقيه بنفسه ، وكان رسول الله (ص) يوجهه برايته فيكتفه جبرئيل (ع) عن يمينه وميكائيل عن شماله ، ولا يرجع حتى يفتح الله على يديه . ولقد تُوفي في هذه الليلة التي عرج فيها عيسى ابن مريم ، وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسى (ع) . وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلاّ سبعمائة درهم ، فضلت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله .. " .

ثم خنقته العبرة ، فبعث بانفاسه زفرات يهز الصخر لها لوعةً واسىً ، وارتفع من الناس حسرات تبعتها آهات وأهات ، ثم قال :

" أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فانا " الحسن بن علي " وانا ابن النبي ، وانا ابن الوصي ، وانا ابن البشير النذير ، وانا ابن الداعي إلى الله بإذنه ، وانا ابن السراج المنير ، وانا من اهل البيت الذي كان جبرئيل ينزل إلينا ويصعد من عندنا ، وانا من أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وانا من اهل بيت افترض الله مودَّتهم عى كلّ مسلم ، فقال تبارك وتعالى لنبيِّه (ص) : قل لا اسالكم عليه اجراً ومن يقترف حسنة نزد له منا حسناً . فاقتراف الحسنة مَوَدّتُنا اهل البيت " .

وهكذا انهالت الجماهير إلى بيعة الإمام الحسن (ع) ، عن رضاً وطيب نفس ، لانهم رأوا فيه المثال الفاضل لمؤهلات الخليفة الحق ، ( وعلى كلِّ حالٍ يجب ان يكون إمام المسلمين مختاراً من قبل الله تعالى منصوصاً عن لسان النبي (ص) قمة في المكرمات والفضائل ، أكفا الناس وأورعهم واعلمهم والحسن (ع) كذلك ، قد توفرت فيه شروط والي أمر المسلمين باكمل وجه واحسنه . وهو صاحب النص المأثور عن الرسول العظيم : الحسن والحسين إمامان قاما او قعدا .. وهو الذي شهد والده في حقه فقال :

" هم " يعني آل الرسول " عيش العلم ، وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه . هم دعائم الإسلام ، وولائج

---

(١٢) وفي التاريخ مظالم يقشعر منها الجلد ، فلقد نبش بنو أمية آلافاً من المقابر علهم يعثرون على جثمان علي (ع) .. فيستشفوا باهانته وأبى الله عليهم ذلك وآنافهم مرغومة .

الاعتصام ، بهم عاد الحق في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته . عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ؛ فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل " .

.. وبايعه الناس بعد أن حضّهم عليها خيار الصحابة والأنصار ، فقد قال في ذلك عبيد الله بن العباس : " معاشر الناس هذا ابن نبيِّكم ، ووصي إمامكم فبايعوه " .

.. وكان للإمام الحسن (ع) حُبٌّ في القلوب نابعٌ عن صميم قلوب المسلمين .. وقد اتّخذ اصله عن حُبِّ النبيِّ (ص) له ، وحُبِّ الله تعالى لمن أَحَبه النبي .

اضف إلى ذلك ، ما كانت تقتضيه الظروف ، من رجل يقابل معاوية ومن التفَّ حوله من الحزب الأموي الماكر .. وله من كفاءة القيادة ، وسداد الراي ، والمودة في قلوب المسلمين .

لذلك اسرع المسلمون إلى بيعته قائلين : " ما أَحبه إلينا ، وأوجب حقّه علينا ، وأحقه بالخلافة " .

وجاء في مقدمة الزعماء المجاهدين الأنصاري الثائر ، قيس بن سعد فبايعه وهو يقول :

( ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيه .. وقتال المحلين ! ) .

فقال له الإمام : " على كتاب الله وسنّة نبيه ، فإنهما ياتيان على كلّ شرط " .

.. وتمت البيعة ، في العقد الثالث من شهر رمضان المبارك بعد أربعين عاماً من الهجرة النبوية .. وكلما دخل فوج يبايعونه قال لهم :

" تبايعون لي على السمع والطاعة ، وتحاربون من حاربت ، وتسالمون من سالمت .. " .

.. فلما استوى الإمام (ع) على الحكم ، فُرضت عليه مسؤولية حسم الخلاف بين المعسكرين ، الذي كان في طريقه إلى هدِّ ركن الإسلام هدّاً ، حيث إن الكفار في أطراف البلاد الإسلامية كانوا يتربصون بها الدوائر حتى إذا راوا ضعفاً أو ثغرة سدّدوا ضربة مؤلمةً عليها .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر كانت انباء جيش الشام تذاع في الكوفة والبصرة وسائر البلاد مع شيء من المبالغة . وكان الجميع يعلم أن حرباً وشيكة تنتظرهم .

وعندما حشد معاوية جيشه الجرار الذي انتهى عدده إلى ستين الفاً ، وقاده هو بنفسه بعد ما استخلف مكانه الضحاك ، فكان على الإمام (ع) ان يحشد قوة الحق ايضاً لتقابل جولة الباطل ، بيد انه راى ان يراسله قبل ذلك ، إتماماً للحجة وقطعاً للعذر .

فارسل إليه كتاباً ، هذا بعضه :

" فلما تُوفي ( أيّ رسول الله (ص) ) تنازعت سلطانه العربُ ، فقالت قريش نحن قبيلته واسرته وأولياؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه ، فرات ان القول ما قالت قريش وان الحجة في ذلك لهم على مَن نازعهم امر محمد فانعمت [١٣] لهم وسلّمت إليهم ، ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت

---

(١٣) أيّ صدقتهم بقوله : نعم .

به العرب فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها . إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والإحتجاج ، فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجتهم وطلب النصف منهم ، باعدونا واستولوا بالإجتماع على ظُلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا ، فالموعد الله وهو الولي النصير .

ثم قال : " فاليوم فليتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه ، والله خصيمك فَستَرِدُ وتَعلم لمن عقبى الدار . وبالله لَتَلقينَّ عن قليل ربك ثم ليجزينَّك بما قدَّمت يداك وما الله بظلاّم للعبيد ..

.. وقال : " وإنما حملني إلى الكتابة إليك ، الإعذار فيما بيني وبين الله عزَّ وجلَّ في أمرك ، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمادي في الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي ، فإنك تعلم اني أحق بهذا الأمر منك عند الله ، وعند كلّ أواب حفيظ ، ومن له قلب منيب . واتق الله ودع البغي ، واحقن دماء المسلمين . فوالله مالك خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل في السلم والطاعة ، ولا تُنازع الأمرَ أهلَه ومَن هو أحق به منك ، ليطفئ الله الثائرة بذلك ، ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين ، وإن أنت أبيت إلاّ التمادي في غيك ، سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .. " .

.. وبعد ما تُبودلت الرسائل بين القيادتين .. ومنها رسائل الحسن (ع) تقوم بالحجة الدامغة التي ملاكها النقد والتجربة ، ورسائل معاوية التي تقوم على المراوغة وإعطاء العهود والمواثيق على تقسيم بيت المال على حساب الوجاهات والمراتب القبلية الزائفة بعد ذلك وردت الأنباء بخبر احتشاد الجيش الأموي وابتدائه بالمسير إلى الكوفة ، وكان على الإمام (ع) أن يتصدى لمقابلته ، ولكنّ طريقة تعبئة الجند عند الإمام كانت تختلف كثيراً عن طريقة معاوية في ذلك . فمعاوية كان ينتقي ذوي الضمائر الميتة ، والقلوب السود ، فيشتريها بأموال المسلمين ، وكان يستدعي بعض النصارى فيغريهم بالأموال الطائلة لمحاربة الإمام ، وهم آنذاك لايرون فصيلاً من ذلك لأنهم كانوا يرون في شخص الإمام (ع) المثال الكامل للإسلام، ذلك الدين الذي يبغضونه ويعادونه .

أما الإمام (ع) ، فإنه كان يلاحظ في الجند أشياء كثيرة . فلم يكن يطعم أصحاب الوجاهة ويترك السواد يتضورون جوعاً . ولم يكن يعد الناس بالوعود الفارغة ثم يخلفها بعد أن يستتب له الأمر . ولم يكن يهب ولاية البلاد المختلفة بغير حساب لهذا أو ذاك ، ولا كان يحمل الناس على الحرب حملاً قاسياً وهم لها منكرون .. ولم يكن يبيح للجند الفتك ، وهتك الحرمات وابتياع الأسرى ، وهو (ع) يعتبر عدوه فئة باغية من المسلمين يجب أن تُردع بأحسن طريقة ممكنة ، ولكن معاوية وحزبه كانوا يرون مقابليهم عدواً سياسياً يجب أن يُمزق بأي أسلوب .

ولذلك فقد كان جمع الجيش ميسراً عند معاوية ، وعلى عكس الأمر عند الإمام (ع) حيث كان ذلك من

الصعوبة بمكان .

ولطالما اشار عليه بعض اصحابه بان يتّبع منهج معاوية في ذلك فابى وانكر عليهم الميل إلى الباطل والإنحراف عن الحق .

وقد كتب إليه عبيد الله بن العباس واليه على البصرة يقول :

اما بعد ، فإن المسلمين ولّوك أمرهم بعد علي (ع) فشمر للحرب وجاهد عدوك ، وقارب اصحابك واشترِ من الظنين دينَه بما لا يلثم لك دنياه ، وولِّ أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم ، حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما يكره الناس مالم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تؤدّي إلى ظهور العدل وعزّ الدين ، خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور ، وذل المؤمنين وعزّ الفاجرين ، واقتدِ بما جاء عن أئمة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لايصلح الكذب إلاّ في حرب او إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خُدعة ، ولك في ذلك سعة إذا كنت محارباً مالم تبطل حقّاً .

واعلم ان علياً اباك ، إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم في الفيء ، وسوّى بينهم في العطاء فثقل عليهم . واعلم انك تحارب مَن حارب الله وَرسوله في ابتداء الإسلام ، حتى ظهر امر الله . فلما وُحِّدَ الرب ومُحق الشرك وعَزَّ الدين ، اظهروا الإيمان وقراوا القرآن ، مستهزئين بآياته ، وقاموا الى الصلاة وهم كسالى ، وآتوا الفرائض وهم لها كارهون " .

ثم راح ابن العباس يستعرض الوضع الإجتماعي والمساوئ التي فيه ، وبيّن طبيعة البيت الأموي وماضيه وحاضره هذا .. ولكن الإمام (ع) ابى إلاّ أن يلزم الحقَّ شرعةً ومنهاجاً ، ويتّبع السبيل القويم ، ابداً ودائماً .

ومع ذلك فقد حشّد من اهل الكوفة عدداً كبيراً ، ولم يهمنا تحديده وضبطه ، ولكن الذي يهمنا تحليل نفوس المنتسبين إليه ، ومَن كانوا ، ولِمَ جاؤوا وماذا كانت النتيجة ؟

لقد قسّم المؤرخون جيشه إلى اقسام :

١– الشيعة المخلصون الذين اتّبعوه لأداء واجبهم الديني ، وإنجاز مهمتهم الإنسانية ، وهم قلة .

٢– الخوارج الذين كانوا يريدون محاربة معاوية والحسن ، فالآن وقد سنحت الظروف فليحاربوا معاوية حتى ياتي دور الحسن (ع) .

٣– أصحاب الفتن والمطامع الذين يبتغون من الحرب مغنماً لدنياهم .

٤– شكّاكون لم يعرفوا حقيقة الأمر من هذه الحرب ، فجاؤوا يلتمسون الحجة لأيٍّ تكون ، يكونون معه .

٥– أصحاب العصبية الذين اتبعوا رؤساء القبائل على استفزازهم لهم على حساب القبيلة والنوازع الشخصية .

هذه هي العناصر الأصيلة للجيش ، وهي طبعاً لا تفي لإنجاز المهمة التي تكون من اجلها ، حيث إن الحرب تريد الإيمان ، والوحدة ، والطاعة .

ثم بعث بأول سريّة لتشكّل مقدمة الجيش تحت إمرة عبيد الله بن العباس ، الذي فُضل لهذه المهمة من جهات شتى :

أولاً : لأنه كان الداعية الأول للحرب .

وثانياً : لأنه كان ذا سمعة طيبة في الأوساط .

وثالثاً : لأنـه كـان موتوراً بولديه العزيزين الذين قتلهما جنود معاوية . ثم إنه كان يشده إلى الإمام القرابة . وزحف ابن العباس بالجيش إلى ( مسكن [14] على نهر دجلة ) التقى بمعسكر معاوية ، ينتظر تلاحق السريّات الأخرى من الكوفة .

وفي الكوفة ، خليط من الناس مختلفون ، فهناك من أنصار معاوية الذين أفسدتهم هدايا الحزب الأموي ومواعيده ، وهناك بعض الخوارج القشريين ، وهناك من يثبط الناس عن الجهاد ، وهناك أهل البصائر يُلهبون حماس الشعب ، ويحرضونهم لقتال أهل البغي بشتى أساليب الاستنهاض . والإمام الحسن (ع) لايزال يبعث الخطباء المفوّهين ، والوجهاء البارزين إلى الأطراف ، يدعوهم إلى نصرته ، ولا يزال أيضاً يُلهب أفئدة الكوفيين بالخطبة إثر الأخرى .

ولكن أهل الكوفة كانوا باردين كالثلج أمام هذه الدعوة ، لأن الحروب الطاحنة التي سبقت عهد الإمام ( من الجمل إلى صِفّين والنهروان ) قد أنهكتهم ، وقد أعرب الإمام الحسن نفسه في مناسبة عن هذه العلة التي تثبط عزيمة أهل الكوفة عن الخروج معه فقال :

" وكنتم في مسيركم إلى صِفّين ودينكم أَمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أَمام دينكم . وأنتم بين قتيلَين ، قتيلٍ بصِفّين تبكون عليه ، وقتيلٍ بالنهروان تطلبون بثاره . فأما الباقي فخاذل ، وأما الباكي فثائر " .

وبالرغم من معاكسة كلّ الظروف ، فإن أصحاب الحق قرروا اقتحام غمار الجهاد المقدس ، علّهم يكونون الفاتحين .

ولكنها فعلتْ مكائدُ معاوية فعلَها ، حيث كان قد سخّر طائفةً غير قليلة من ذوي الأطماع ، يدبرون له مؤامراته ، فيبثون الشائعات عن قوة جيش الشام ، وقلة جند الكوفة ، وضعفه ، وعدم القدرة على مقاومته ، وعملت الدنانير والدراهم عملها الخبيث الأرعن ، فإذا بالعدة المعتمد عليها من قواد جيش الإمام الحسن (ع) ينهارون أمام قوة إعلام معاوية ، أو قوة إغرائه .

ورغم أن قيادة السرية من جيش الإمام ، كانت حكيمة ، تحت لواء عبد الله بن العباس فقد ذهبت ضحية مكر معاوية ، وتغرير القائد ، وإليك القصة :

أرسل الإمام ابن عمه لملاقاة معاوية وكتب إليه هذه الوصية :

---

(١٤) موضع قريب من ( أوانا ) على نهر دجلة .

" يا ابن العم ، إني باعث إليك اثنَي عشر الفاً ، من فرسان العرب ، وقرّاء مصر ، الرجل منهم يزيد الكتيبة . فسِرْ بهم وأَلِنْ لهم جانبك ، وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأدْنِهم من مجالسك ، فإنهم بقية ثقاة أمير المؤمنين . وَسِرْ بهم على شط الفرات ، ثم امضِ حتى تستقبل معاوية . فإن أنت لقيته فاحتبسه حتى آتيك ، فاني على أثرك وشيكاً . وليكن خبرك عندي كلّ يوم ، وشاور هذين — يعني قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس — فإذا لقيت معاوية فلا تقاتله ، حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أُصبتَ فقيس بن سعد على الناس ، فإن أُصيب فسعيد بن قيس على الناس " [١٥] .

ثم سار بنفسه — بعد أيام — في عدد هائل من الجيش ، لعله كان ثلاثين ألفاً أو يزيدون ، حتى بلغ مظلم ساباط ، التي كانت قريبة من المدائن ، فعملت دسائس معاوية في مقدمة جيش الإمام ، فأذيع بين الناس نبأ كان له أثر عميق في صفوف الجيش . وكان النبأ يقول : ( إن الحسن يكاتب معاوية على الصلح فَلِمَ تقتلون أنفسكم ؟ ) ثم أخذ يستميل قادة الجيش بالمال والوعود ، فإذا هم يتسللون إليه في خفاء ، ويكتب عبيد الله نبأ ذلك إلى الإمام . ولكن مؤامرته تلك لم تكن بذات أهمية ، حتى اشترى ضمير القائد الأعلى فكتب إليه يقول :

إن الحسن قد راسلني في الصلح ، وهو مسلّم الأمر إليّ ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً ، وإلاّ دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتني الآن أعطيك ألف ألف درهم أعجّل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

إن معاوية مكر بعبيد الله بثلاثة أساليب ، فإنه قال له :

أولاً : إن الحسن يراسله في الصلح ، وهذه أول ما هدت أركان عبيد الله فقال في نفسه ، إذن فلم أُسيء سمعتي في التاريخ ، وأحمل خطيئة الدماء التي تهراق تحت لوائي . ثم قال له :

ثانياً : كن متبوعاً ، فغره بالرئاسة . وأخيراً وعده بمليون درهم وهذا الأخير كان أهم الثلاثة ، في شخص ألزمه إمامه بالعدل ، والمساواة مع أقل الناس .

فانسلّ عبيد الله القائد العام دون أن يخبر أحداً ، فأصبح الجيش يبحث عن القائد ليقيم بهم صلاة الصبح فلا يجده ، فقام قيس الثاني للجيش يصلي بالناس الصبح ، ثم لما انتهى خطب فيهم يهدئ روع الناس ، ويُطمْئن قلوبهم ويقول :

إن هذا وأباه لم يأتوا بيوم خيراً قط ، إن أباه عمُّ رسول الله ، خرج يقاتله ببدر ، فأسره كعب بن عمرو الأنصاري ، فأتي به رسول الله (ص) فأخذ فداءه ، فقسّمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاه عليٌّ على البصرة فسرق ماله ، ومال المسلمين ، فاشترى به الجواري ، وزعم أن ذلك له حلال . وإنّ هذا ولاّه عليٌّ على اليمن ، فهرب من بسر بن أرطاة وترك ولده ، حتى قتلوا وصنع الآن هذا الذي صنع .

---

(١٥) بحار الأنوار : ( ج ٤٤ ، ص ٥١ ) .

فإذا بالجيش يصبح مؤيداً .

الحمد لله الذي اخرجه من بيننا . إلاّ انّ هذا الجيش الذي هرب قائده إلى معسكر العدو ، لم يكن في وضع يقاوم جيش معاوية لذلك تفرق اكثره ولم يبقَ منه إلاّ ربع عدده اربعة الاف فقط .

وان هذا العدد الهائل الذي انتقص من اثني عشر بعث الخيبة في نفوس الجند في المقدمة ، كما بعث الخيبة في نفوس سائر الجيش الثاوي في مظلم ساباط ، حيث كان الإمام وحيث كان الجيش الذي انتشرت فيه دعايات معاوية ، التي لازالت تبث فيه عبر جواسيسه . وبدأ بعضهم يتسللون إلى معاوية وكتب بعضهم إليه ان لو شئت جئنا بالحسن إليك اسيراً ، ولو شئت قتلناه . وجاءت عطايا معاوية التي زادت على مئة الف غالباً ، ووعوده بتزويج بناته لهذا القائد او ذاك .

وهكذا نستطيع ان نعرف مدى ضغط الظروف التي اجبرت الإمام (ع) على الصلح ، من هذه الخطبة اللاهبة ، التي القاها على مسامع المساومين بالضمائر ، الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من جيشه (ع) . ويظهر من هذه الخطبة انهم كانوا متاثرين بدعايات معاوية إلى حد بعيد ، حيث كانوا يلحُّون على الإمام بالتنازل عن حقه ومبايعة معاوية والإمام يابى عليهم ذلك ، كما يظهر انه كان من الوجهاء مَنْ فَكَّرَ في اغتيال الإمام ، كما اغتال صاحبُه اباه (ع) .

وبعد كلّ ذلك كانت الظروف تُكره الإمام على الصلح مع معاوية إلى اجل هم بالغوه ، فكتب إلى معاوية او كتب إليه معاوية ، على اختلاف بين المؤرخين في شان الصلح ، ورضي الطرفان بذلك بعد ان اتفقا على بنوده التي لم تكن ترجع إلى الإمام إلاّ بالخير ، وعلى الأمة إلاّ بالصلاح .

ومن راجع كلمات الإمام الحسن (ع) التي قالها بعد الصلح لأصحابه بعد ان انكروا عليه ذلك يعرف مدى تاثر قضيته بالظروف المعاكسة التي لم تزل ترفع إليهم بالفتنة إثر الفتنة .

لقد قال لأحدهم إذ ذاك[١٦] :

" لستُ مُذِلاًّ للمؤمنين ، ولكني مُعِزُّهم ، ما اردت بمصالحتي إلاّ ان ادفع عنكم القتل ، عندما رايت تَباطُؤَ اصحابي ونُكولَهم عن القتال " .

وقال للاخر في هذا الشان -- وقد كان من الخوارج الذين لم يكن بغضهم للحسن (ع) وشيعته باقل عن بغضهم لمعاوية واصحابه -- قال له :

" ويحك ايها الخارجي !! لا تقض ، فإن الذي احوجني إلى ما فعلت قتلكم ابي ، وطعنكم إيّايّ ، وانتهابكم متاعي . وإنّكم لمّا سرتم إلى صفين ، كان دينكم امام دنياكم ، وقد اصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم ، ويحك ايها الخارجي ! إني رايت اهل الكوفة قوماً لا يوثق بهم ، وما اغتر بهم إلاّ من ذل ، وليس احد منهم يوافق راي الآخر . ولقد لقي ابي منهم اموراً صعبة ، وشدائد مرّة ، وهي اسرع البلاد خراباً

---

(١٦) قال ذلك .

واهلها هم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً "[17] .

ولذلك ولغيره من الأسباب صالح الإمام معاوية وكتب إليه هذه الوثيقة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

" هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب ، معاوية بن أبي سفيان ، صالحه على أن يسلّم إليه ولاية الأمر على :

١- أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين .

٢- وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً ، بل يكون الأمر بعده للحسن ثم لأخيه الحسين .

٣- وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم .

٤- وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم ونسائهم وأولادهم . وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء وبما أعطى الله من نفسه .

٥- وعلى أن لايبغي للحسن بن علي ، ولا لأخيه الحسين ، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله ، غائلة سراً ولا جهراً ، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق .

تعهد عليه فلان بن فلان ، بذلك وكفى بالله تعهيداً "[18]

والموثوق أن محل الصلح كان مسكن ساباط ، قريباً من موقع مدينة بغداد اليوم ، حيث كان معسكر الإمام الحسن (ع) . فلما أن تمّ ذلك رجع الإمام بمن معه إلى الكوفة .

## إستراتيجية الصلح عند الإمام الحسن (ع) :

ما أكرم أبا محمّد الحسن المجتبى (ع) ، وأسخى تضحيته حين أقدم على " الصلح " الذي اعتبره بعض حواريّه ذُلّاً وزعَمَهُ أعداؤه جبناً واستسلاماً ، ولم يكن إلّا أروع صور النصر على الذات ، ومقاومة نزوة الهوى والمحافظة على دماء المسلمين ، وتحقيقاً لكلمة الرسول الصادق المصدّق (ص) حين قال :

" إنّ ابني هذا سيّد ، ولعلّ الله عزّ وجلّ يصلح به بين فئتين من المسلمين "[19] .

فلولا أنّ الحسن كان قدوة الصلاح ، وأسوة التضحيات ، وجماع المكرمات ، وكان بالتالي الإمام المؤيّد بالغيب . لتمزقت نفسه الشريفة بصعود معاوية أريكة الحكم ، وهو الذي قال فيه الرسول (ص) :

" إذا رأيتم معاوية هذا على منبري فاقتلوه ، ولن تفعلوا " .

---

(١٧) تذكرة الخواص : ( ص ٢٠٧ ) .

(١٨) ذكر هذه الوثيقة العلاّمة باقر شريف القرشي عن الفصول المهمة : ( ص ١٤٥ ) وكشف الغمة : ( ص ١٧٠ ) والبحار : ( ج ١٠ ، ص ١١٥ ) . وغيرها ثم علق عليها هذه الصورة أفضل صورة وردت مبينة لكيفية الصلح .

(١٩) بحار الأنوار : ( ج ٤٣ ، ص ٢٩٨ ) .

ولولا اتصال قلبه الكبير بروح الرب إذاً لمات كمداً . حيث كان يرى تقهقر المسلمين وصعود نجم الجاهلية الجديدة .

ولولا حلمه العظيم النابع من قوة إيمانه بالله وتسليمه لقضائه ، إذاً ما صبر على معاوية . وهو يرقى منبر جده ، ويمزق منشور الرسالة ، ويسب اعظم الناس بعد الرسول .

بلى ، ولكنّ الحسن (ع) آثر الآخرة على الدنيا . وقبل الصلح للاسباب التالية :

١- إن نظرة أهل البيت (ع) إلى الحكم كانت تنبع من انه وسيلة لتحقيق قيم الرسالة . فإذا مال الناس عن الدين الحق ، وغلبت المجتمع الطبقات الفاسدة ، وارادت تحويل الدين إلى مطية لمصالحهم اللامشروعة .

فليذهب الحكم إلى الجحيم .. لتبقى شعلة الرسالة متقدة ، ولتصب كلّ الجهود في سبيل إصلاح المجتمع اولاً ، وبشتى الوسائل المتاحة .

لقد قال الإمام علي (ع) عن اسلوب الحكم :

" والله ما معاوية بادهى منّي ، ولكنه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من ادهى الناس . ولكن كلّ غُدرة فُجرة وكلّ فُجرة كُفرة ، ولكلّ غادرٍ لواءٌ يُعرف به يوم القيامة . والله ما أُستغفل بالمكيدة ولا أُستغمز بالشديدة "[٢٠] .

اما عن نظرته إلى الحكم ذاته فقد رُوي عن عبد الله بن العباس انه قال :

" دخلت على امير المؤمنين (ع) وهو يخصف نعله . فقال لي : ما قيمة هذا النعل ؟.

فقلت : لا قيمة لها .

فقال (ع) : والله لَهِيَ احبُّ إليّ من إمرتكم ، إلاّ أن أُقيم حقّاً أو ادفع باطلاً "[٢١] .

٢- ولقد عاش الإمام الحسن (ع) مرحلة هبوط الروح الإيمانية عند الناس ، وبالذات في القبائل العربية التي خرجت من جو الحجاز . وانتشرت في اراضي الخير والبركات ، فنسيت رسالتها أو كادت .

فهذه كوفة الجند التي تاسست في عهد الخليفة الثاني لتكون حامية الجيش ، ومنطلقاً لفتوحات المسلمين الشرقية ، اصبحت اليوم مركزاً لصراع القبائل ، وتسييس العسكر . وأخذ يتبع من يعطي أكثر . فبالرغم من وجود قبائل عربية حافظت على ولائها للإسلام والحق ، ولخط اهل البيت الرسالي . إلاّ أن معظم القبائل التي استوطنت ارض السواد حيث الخصب والرفاه بدات تبحث عن العطاء ، حتى انهم تفرقوا عن القيادة الشرعية ، وبدأوا يراسلون المتمردين في الشام حينما عرفوا انّ معاوية يبذل اموال المسلمين بلا حساب ، بل إنك تجد ابن عمِّ الإمام الحسن وقائد قوات الطليعة في جيشه . عبيد الله بن العباس . يلتحق بمعاوية طمعاً في دراهمه البالغة مليون درهمٍ .

---

(٢٠) نهج البلاغة : ( ص ٣١٨ ) . كلمة ( ٢٠٠ ) اعداد صبحي الصالح - .

(٢١) المصدر : ( ص ٧٦ )

ونجد الكوفة تخون مرة أخرى إمام الحق الحسين (ع) ، حينما يبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل . فيأتيهم ابن زياد ويمنّيهم بأن يزيد في عطائهم عشرة . فإذا بهم يميلون إليه ويُقاتلون سبط رسول الله وأهل بيته بأبشع صورة ، ودون أن يسألوا ابن زياد عمّا يعنيه بكلمة عشرة . فإذا به يزيد في عطائهم عشرة تُميرات فقط .. ولعلّهم كانوا يمنون أنفسهم بعشرة دنانير !!

لقد تعبت الكوفة من الحروب ، وبدأت تفكر في العيش الرغيد . وغاب عنهم أهل البصائر الذين كانوا يحومون حول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ويذكّرون الناس باليوم الآخر . ويبيّنون للناس فضائل إمامهم الحق . لقد غاب عنهم اليوم عمار بن ياسر الذي كان ينادي بين الصفيْن في معركة صفّين ، الرواحَ إلى الجنة !. ومالك الأشتر الذي كان لعليٍ (ع) مثلما كان عليٌّ لرسول الله (ص) بطلاً مقداماً . وقائداً ميدانياً محنكاً .

وغاب ابن التيهان الذي يعتبره الإمام علي (ع) أخاً له ، ويتأوه لغيابه ، بلى لقد غاب أهل البصائر من أصحاب الرسول وأنصار علي (ع) الذين كان أمير المؤمنين (ع) يعتمد عليهم في إدارته للحروب ..

وغاب القائد المقدام ، البطل الهمام ، الإمام علي (ع) أيضاً ، بعد أن أنهى سيف الغدر حياته الحافلة بالأسى ، فإنه كان قد صعد المنبر قبيل استشهاده ، وقد نشر المصحف فوق رأسه وهو يدعو ربه ويقول:

" مـا يحبس أشقاكم أن يجيء فيقتلني ، اللهمّ إني قد سئمتهم وسئموني ، فأَرِحْهم منّي وأَرِحْني منهم "[٢٢] .

وبالرغم من أن الإمام علياً كان قد جهّز جيشاً لمقارعة معاوية قبيل استشهاده . وهو ذلك الجيش الذي قاده من بعده الإمام الحسن (ع) إلاّ أنّ خور عزائم الجيش . واختلاف مذاهبه وخيانة قواده ، كان كفيلاً بهزيمته حتى ولو كان الإمام علي (ع) هو الذي يقوده بنفسه ..

إلاّ أن التقدير كان في استشهاد البطل ، وأن يتم الصلح على يد نجله العظيم الذي أخبر الرسول (ص) أن الله سوف يُصلح به بين طائفتين من أمته .

ويشهد على ذلك ما جاء في حديث مأثور عن الحارث الهمداني قال :

لمّا مات عليّ (ع) جاء الناس الى الحسن وقالوا : أنت خليفة أبيك ووصيّه ، ونحن السامعون المطيعون لك ، فمرنا بأمرك فقال :

" كذبتم ، والله ما وفيتم لمن كان خيراً منّي ، فكيف تفون لي ؟. وكيف أطمئن إليكم ولا أثق بكم ؟. إن كنتم صادقين فموعد ما بيني وبينكم معسكر المدائن فوافوا هناك "[٢٣] .

وماذا كان يمكن للإمام الحسن أن يصنعه في مثل هذه الظروف المعاكسة ؟. هل يسير في جيشه بسيرة معاوية ، ويوزع عليهم أموال المسلمين ، فمن رغب عنه عالجه بالعسل المسموم ؟. أم يسير

---

(٢٢) بحار الأنوار : ( ج ٤٢ ، ص ١٩٦ ) .

(٢٣) بحار الأنوار : ( ج ٤٤ ، ص ٤٣ ) .

بسيرة أبيه حتى ولو كلّفه ذلك سلطته .

لقد ترك السلطة حين علم بأنها لم تعد الوسيلة النظيفة لأداء الرسالة ، وأن هناك وسيلة أفضل وهي الإنسحاب إلى صفوف المعارضة وبث الروح الرسالية في الأمة من جديد ، عبر تربية القيادات ، ونشر الأفكار ، وقيادة المؤمنين الصادقين المعارضين للسلطة وتوسيع نطاق المعارضة . وهكذا فعل (ع) .

٣- وشروط الصلح التي أملاها الإمام على معاوية . وجعلها بذلك مقياساً لسلامة الحكم ، تشهد على انه (ع) كان يخطط لمقاومة الوضع الفاسد ، ولكن عبر وسائل اخرى . لقد جاء في بعض بنود الصلح ما يلي :

١- ان يعمل ( معاوية ) بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين .

٢- وليس لمعاوية بن أبي سفيان ان يعهد إلى احد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين .

٣- وعلى ان الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم ، وعراقهم ، وحجازهم ، ويمنهم .

٤- وعلى انّ اصحاب عليّ وشيعته آمنون على انفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ..

٥- وعلى ان لايبغي للحسن بن عليّ ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من اهل بيت رسول الله غائلة سراً ولا جهراً ، ولا يخيف احداً منهم في افق من الآفاق [٢٤] .

إن نظرة خاطفة لهذه الشروط تهدينا إلى انها اشتملت على اهم قواعد النظام الإسلامي من دستورية الحكم ( على هدى الكتاب والسنّة ) وشوريّة الحكم . وإنه مسؤول عن توفير الأمن للجميع وبالذات لقيادة المعارضة ، وهم اهل بيت الرسول . وقد قبل معاوية بهذه الشروط ، مما جعلها اساساً للنظام عند الناس . وقد وجد الإمام بذلك افضل طريقة لتبصير الناس بحقيقته ، وتأليب اصحاب الضمائر والدين عليه ، حين كان يخالف بعض تلك الشروط .

قد تحمّل الإمام الحسن عناءً كبيراً في إقناع المسلمين بالصلح مع معاوية ، حيث إنّ النفوس التي كانت تلتهب حماساً ، والتي كانت معبأة نفسيّاً ضد معاوية ، كانت تأبى البيعة معه . على أنّ القشريين من طائفة الخوارج كانت ترى كفر من اسلم الأمر إلى معاوية ، وقد قالوا للإمام الحسن (ع) : ( كفر والله الرجل ) [٢٥] .

وقد خطب الإمام بعد صلحه مع معاوية في الناس وقال :

" أيها الناس إنكم لو طلبتم ما بين جابلقا وجابرسا رجلاً جدّه رسول الله (ص) ما وجدتم غيري وغير اخي . وإن معاوية نازعني حقّاً هو لي فتركته لصلاح الأمة ، وحقن دمائها . وقد بايعتموني على أن تسالموا من سالمت ، وقد رأيت ان أسالمه ، وان يكون ما صنعت حجةً على من كان يتمنّى هذا الأمر ،

---

(٢٤) المصدر . ( ص ٦٥ )

(٢٥) المصدر . ( ص ٤٧ )

وإنْ أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين "[٢٦] .

ومع ذلك فقد عارضه بعض أفضل أصحابه في ذلك . فقال حجر بن عدي رضوان الله عليه له : " أما والله لَوَددتُ أنك مت في ذلك اليوم ، ومتنا معك ولم نَرَ هذا اليوم ، فإنا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبّوا " .

ويبدو أن الإمام كره أن يجيبه في الملأ إلاّ أنه حينما خلا به قال :

" يا حجر قد سمعتُ كلامك في مجلس معاوية . وليس كلُّ إنسان يُحب ما تُحب ، ولا رأيه كرأيك ، وإنّي لم أفعل ما فعلت إلاّ إبقاءً عليكم ، والله تعالى كلَّ يوم هو في شأن "[٢٧] .

وكان سفيان من شيعة أمير المؤمنين والحسن (ع) ، ولكنه دخل على الإمام وعنده رهط من الناس فقال له : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين .

فقال له : وعليك السلام يا سفيان .

يقول سفيان : فنزلت فعقلت راحلتي ثم أتيته فجلست إليه فقال : كيف قلت يا سفيان ؟

قال : قلت : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين . والله بأبي أنت وأمّي أذللت رقابنا حين أعطيت هذا الطاغية البيعة ، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مئة ألف كلّهم يموت دونك ، وقد جمع الله عليك أمر النّاس .

فقال :

" يا سفيان إنّا أهل بيت إذا علمنا الحقَّ تمسكنا به ، وإنّي سمعت عليّاً (ع) يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول : لا تذهب الأيّام والليّالي حتّى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم ، ضخم البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لايكون له في السماء عاذر ، ولا في الأرض ناصر ، وإنّه لمعاوية . وإنّي عرفتُ أنّ الله بالغ أمره " .

ثم أذّن المؤذّن فقمنا إلى حالب يحلب ناقته فتناول الإناء فشرب قائماً ثمّ سقاني وخرجنا نمشي إلى المسجد فقال لي :

" ما جاء بك يا سفيان ؟

قلت : حُبُّكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق .

قال : فابشر يا سفيان فإنّي سمعت عليّاً (ع) يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول : يرد عليَّ الحوض أهل بيتي ومَن أحبّهم من أُمّتي كهاتين — يعني السبّابتين — أو كهاتين — يعني السبابة والوسطى — إحداهما تفضل على الأخرى ، أبشر يا سفيان ، فإنّ الدنيا تسع البرّ والفاجر ، حتّى يبعث الله إمام الحقّ من آل محمّد (ص) " .

---

(٢٦) المصدر : ( ص ٥٦ ) .

(٢٧) المصدر : ( ص ٥٧ ) .

وفي بعض الأحيان كان الإمام الحسن (ع) يصد على أصحابه ببيعة معاوية . فحين دخل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري صاحب شرطة الخميس الذي أسسه الإمام علي (ع) ، دخل على معاوية فقال له معاوية : بايع . فنظر قيس إلى الحسن (ع) ، فقال : يا أبا محمّد بايعت ؟. فقال له معاوية أما تنتهي ؟. أما والله إنّي ...[28] .

فقال له قيس : ما شئت . أمَا والله لئن شئت لتناقضت به[29] .

قال : فقام إليه الحسن وقال له : بايع يا قيس ، فبايع[30] .

(٢٨) يبدو أنّ معاوية أراد أن يُهدِّد قيساً . ولكنه سكت .

(٢٩) يبدو أنّ قيساً ردّ تهديدات معاوية ، وقال : إن شئت فإني قادر على نقض العهد .

(٣٠) المصدر : ( ص ٦٢ ) .

## الفصل الثالث

# مواقف مشرقة

### الإمام الحسن (ع) يجني ثمار الصلح :

وكان هدف الإمام الحسن (ع) من الصلح فضح معاوية ، وهدم اسس سلطته القائمة على القيم الجاهلية ، وتنظيم صفوف المعارضة من جديد ، واستغلال كل فرصة لبث روح الإيمان والتقوى في ضمائر الناس .

وفيما يلي نذكر بعضاً من مواقف الإمام مع سلطة معاوية التي كانت تهز عرشه ، وتُلهم معارضيه اسلوب مقاومته :

ا – بُعَيْدَ المصالحة صعد معاوية المنبر ، وجمع الناس فخطبهم وقال : إن الحسن بن علي رآني للخلافة اهلاً ، ولم يَر نفسه لها اهلاً ، وكان الحسن (ع) اسفل منه بمرقاة .

فلمّا فرغ من كلامه قام الحسن (ع) فحمد الله تعالى بما هو اهله ، ثمّ ذكر المباهلة ، فقال :

" فجاء رسول الله (ص) من الأنفس بابي ، ومن الأبناء بي وباخي ، ومن النساء بامّي . وكنّا اهله ونحن آله ، وهو منّا ونحن منه .

ولمّا نزلت آية التطهير جمعنا رسول الله (ص) في كساء لأُمّ سلمة رضي الله عنها خيبري ثم قال : اللهمّ هؤلاء اهل بيتي وعترتي ، فَاذهِبْ عنهم الرِّجسَ وطهّرهم تطهيراً . فلم يكن احد في الكساء غيري واخي وابي واُمّي ولم يكن لاحد تصيبه جنابة في المسجد ويولد فيه إلاّ النبي (ص) وابي تكرمة من الله لنا وتفضيلاً منه لنا ، وقد رايتم مكان منزلتنا من رسول الله (ص) .

وامر بسدّ الأبواب فسدّها وترك بابنا ، فقيل له في ذلك فقال : اَمّا إنّي لم اسدّها وافتح بابه ، ولكنّ الله عزّ وجلّ امرني ان اسدّها وافتح بابه .

وإنّ معاوية زعم لكم انّي رايته للخلافة اهلاً ، ولم ارَ نفسي لها اهلاً فكذب معاوية ، نحن اولى بالناس في كتاب الله عزّ وجلّ وعلى لسان نبيه (ص) ، ولم نزل اهل البيت مظلومين ، منذ قبض الله نبيه (ص) ، فالله بيننا وبين من ظلمنا حقّنا ، وتوثّب على رقابنا ، وحمل الناس علينا ، ومنعنا سهمنا من الفيء ومنع اُمّنا ما جعل لها رسول الله (ص) .

واُقسم بالله لو انّ الناس بايعوا ابي حين فارقهم رسول الله (ص) لاعطتهم السماء قطرها ، والأرض بركتها ، وما طمِعتَ فيها يا معاوية . فلمّا خرجتْ من معدنها تنازعتها قريش بينها ، فطمعتْ فيها

الطلّقاء ، وأبناء الطلّقاء – أنت وأصحابك – وقد قال رسول الله (ص) : ما ولّت أُمّة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلاّ لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتّى يرجعوا إلى ما تركوا ، فقد تركت بنو إسرائيل هارون وهم يعلمون أنّه خليفة موسى فيهم واتّبعوا السامريَّ ، وقد تركت هذه الأُمّة أبي وبايعوا غيره ، وقد سمعوا رسول الله (ص) يقول : " أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ النبوّة " ، وقد رأوا رسول الله (ص) نصب أبي يوم غدير خم وأمرهم أن يبلّغ الشاهد منهم الغائب .

وقد هرب رسول الله (ص) من قومه ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى حتّى دخل الغار ، ولو وجد أعواناً ما هرب ، وقد كفَّ أبي يده حين ناشدهم ، واستغاث فلم يُغَثْ فجعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه ، وجعل الله النبيَّ (ص) في سعة حين دخل الغار ولم يجد أعواناً . وكذلك أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأمة ، وبايعوك يا معاوية . وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً .

أيها الناس ، إنكم لو التمستم فيما بين المشرق والمغرب ، أن تجدوا رجلاً ولده نبيّ غيري وأخي لم تجدوا ، وإنّي قد بايعت هذا وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين " [٣١] .

ب – ومرة أخرى صعد معاوية المنبر ونال من أمير المؤمنين فتحداه الإمام الحسن (ع) بما فضحه أمام الملأ . تقول الرواية :

" بعد أن تمت المصالحة سار معاوية حتّى دخل الكوفة فأقام بها أيّاماً فلمّا استتمّت البيعة له من أهلها صعد المنبر ، فخطب الناس وذكر أمير المؤمنين (ع) ونال منه ، ونال من الحسن (ع) ما نال ، وكان الحسن والحسين (ع) حاضرَين ، فقام الحسين (ع) ليردَّ عليه ، فأخذ بيده الحسن (ع) فأجلسه ، ثمَّ قام فقال :

أيّها الذاكر عليّاً ، أنا الحسن وأبي عليٌّ ، وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأُمي فاطمة وأُمّك هند ، وجدّي رسول الله (ص) وجدُك حرب ، وجدّتي خديجة وجدَّتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حَسَباً ، وشرّنا قَدماً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً . فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين آمين " [٣٢] .

ج – وفي الشام حيث ركّز معاوية سلطته خلال عشرات السنين . ولفقَ أكاذيب على الإسلام حتى كاد يخلق للناس ديناً جديداً . وقف الإمام الحسن المجتبى (ع) يعارض نظامه الفاسد ، ويبيِّن أنه وخطه الأولى بالقيادة . يقصّ علينا التاريخ الحادثة التالية :

رُوي أنَّ عمرو بن العاص قال لمعاوية : إنَّ الحسن بن علي رجل عَيِيٌّ ، وإنه إذا صعد المنبر ورمقوه بأبصارهم خجل وانقطع ، لو أذنت له . فقال معاوية : يا أبا محمّد لو صعدت المنبر ووعظتنا !. فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال :

---

(٣١) المصدر : ( ص ٦٢ - ٦٤ ) .

(٣٢) المصدر : ( ص ٤٩ ) .

" مَن عرفني فقد عرفني ، ومَن لم يعرفني فانا الحسن بن عليّ ، وابن سيدّة النّساء فاطمة بنت رسول الله (ص) . انا ابن رسول الله ، انا ابن نبيٍّ الله ، انا ابن السراج المنير ، انا ابن البشير النّذير ، انا ابن من بُعث رحمة للعالمين ، انا ابن من بُعث إلى الجنّ والإنس ، انا ابن خير خلق الله بعد رسول الله ، انا ابن صاحب الفضائل ، انا ابن صاحب المعجزات والدّلائل ، انا ابن امير المؤمنين ، انا المدفوع عن حقّي، انا واحدُ سَيّدَي شباب اهل الجنّة ، انا ابن الرُّكن والمقام ، انا ابن مكّة ومنى ، انا ابن المشعر وعرفات " .

فاغتاظ معاوية وقال : خذ في نعت الرُّطب ودعْ ذا ، فقال : الرِّيح تنفخه والحرُّ ينضجه ، وبرد اللّيل يطيّبه ، ثمَّ عاد فقال :

" انا ابن الشفيع المطاع ، انا ابن من قاتل معه الملائكة ، انا ابن من خضعت له قريش ، انا ابن إمام الخلق وابن محمّد رسول الله (ص) " .

فخشي معاوية أن يفتتن به النّاس ، فقال : يا ابا محمّد انزل فقد كفى ما جرى . فنزل فقال له معاوية : ظننتَ ان ستكون خليفة ، وما انت وذاك ، فقال الحسن (ع) :

" إنّما الخليفة ممن سار بكتاب الله ، وسنّة رسول الله ، ليس الخليفة من سار بالجور وعطّل السنّة ، واتّخذ الدُّنيا اباً واُمّاً ، ملك ملكاً مُتّع به قليلاً ، ثمَّ تنقطع لذّته ، وتبقى تَبِعَتُه " .

وحضر المحفل رجل من بني اُمية وكان شاباً فاغلظ للحسن كلامه ، وتجاوز الحدَّ في السبِّ والشتم له ولأبيه . فقال الحسن (ع) : اللهمَّ غيّر ما به من النّعمة واجعله اُنثى ليُعتبر به ، فنظر الأمويُّ في نفسه وقد صار امراة قد بدّل الله له فرجه بفرج النّساء وسقطت لحيته ، فقال الحسن (ع) : اُعْزُبي ! مالكِ ومحفل الرِّجال ؟ فإنّكِ امرأة .

ثمَّ إنَّ الحسن (ع) سكت ساعة ، ثمَّ نفض ثوبه ونهض ليخرج ، فقال ابن العاص : اجلس فانّي اسالك مسائل . قال (ع) : سل عمّا بدا لك ، قال عمرو : اخبرني عن الكرم والنجدة والمروءة ، فقال (ع) :

" امّا الكرم فالتبرُّع بالمعروف والإعطاء قبل السؤال . واما النجدة فالذبُّ عن المحارم ، والصّبر في المواطن عند المكاره . واما المروءة فحفظ الرجل دينه ، وإحرازه نفسه من الدنس ، وقيامه باداء الحقوق وإفشاء السلام " .

فخرج ( الإمام الحسن عليه السلام ) فعذل معاوية عمراً . فقال : افسدت اهل الشام . فقال عمرو : إليك عنّي . إن اهل الشام لم يحبوك محبة إيمان ودين . إنّما احبوك للدنيا ينالونها منك ، والسيف والمال بيدك ، فما يغني عن الحسن كلامه .

ثم شاع امر الشاب الأموي ، واتت زوجته إلى الحسن فجعلت تبكي . وتتضرع فرقَّ لها ودعا فجعله الله كما كان[٣٣] .

(٣٣) المصدر : ( ص ٨٨ - ٩٠ ) .

## إلى المدينة :

وهكذا ظل الإمام في الكوفة شهوراً ، ثم ارتحل عنها وارتحل معه كلّ الخير . ففي نفس الأيام التي خرج الإمام عنها ، حلّ بها طاعون فمات الكثير من اهلها ، حتى ان واليها ( المغيرة بن شعبة ) أُصيب به فمات .

فلما بلغ المدينة ، خف اهلها يستقبلونه احرّ الإستقبال . وظل هناك يقود حرباً باردة ضد معاوية بمؤامراته على المسلمين ، حتى كانت السنة حيث وفد إلى الشام عاصمة الخلافة الإسلامية ، فراح يبلّغ عن دعوته التي خُلق لها وخرج بها ، وعاش معها ، تلك دعوة الحق ، ومحق الباطل . ولقد اظهر الإمام في تلك الرحلة الرسالية ، لأهل الشام ، ان معاوية ليس بالذي يصلح للقيادة ، على ما موّه عليهم بدعاياته المضللة ، فهو يرجع بهم إلى الجاهلية حيث كان ابوه يستعبد الناس ويستنزف جهودَهم وطاقاتهم ، ولا يهمه بعد ذلك أسَعِدُوا أم شقوا .

وليس من العجب ان نرى كلّ من التفّ حول معاوية ودافع عن افكاره ونصب نفسه لدعوته ، كان من قبل قد التف هو أو أسرته حول ابي سفيان ودافع عن افكاره . فلا زال معاوية يقود الحزب الأموي الذي قاده من قبل والده ابو سفيان ، بذات المفاهيم والعادات والسلوكيات . كما انه لا يثير العجب إذا راينا في صف الإمام الحسن (ع) ثلة صالحة ممن كان قبل ايام يناضل ابا سفيان وحزبه دفاعاً عن قيم الرسالة .

والواقع أن حركة معاوية كانت ردّ فعل جاهلي ضد انتشار رسالة الإسلام وكانت على صلة تامة بالروم .

وكان يعتمد معاوية على أشخاص مثل عمرو بن العاص ، وزياد بن ابيه ، وعتبة بن ابي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، ونظائرهم ممن لاتزال صورهم او صور أسرهم تتراءى لنا ، في ميادين بدر والخندق، كما كان يعتمد على النصارى الذين اصبحت لهم قوة لا يُستهان بها داخل الدولة الأموية . وإن معاوية كان يجتمع كلّ مساء بمن يقرا عليه اخبار الحروب السابقة وخصوصاً تجارب الروم في الحروب السياسية فيستفيد منها .

من هنا نعرف ان الحرب بين امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) ، او نجله الإمام الحسن (ع) وبين معاوية ، لم تكن صراعاً مجرداً على السلطة ولا صراعاً بين حزبين داخل الإطار الإسلامي ، بل كان صراعاً بين الكفر المبطن والإسلام الحق . ولذلك اتبع الإمام الحسن (ع) نهجاً خاصاً في مواجهة الصراع ، وهو نهج الدعوة الصريحة ، حيث سافر إلى الشام ، عاصمة الخلافة ، كي يُقر حقّاً نذر له نفسه ، ومن الطبيعي ان اهل الشام سوف يلتفتون إليه بعد ان كان رئيس الحركة المناوئة لدولتهم ، وقائد الحرب المعارض لسياستهم . ولابد ان يفد منهم خلق كثير ، فهنالك يستطيع أن يبلّغ دعوته وينشر من علومه ما يدكّ صرح معاوية السياسي وينسف احلامه الجاهلية .

وإن صفحات التاريخ تطالعنا بكثير من خطبه التي القاها على اهل الشام ، فاثر في نفوسهم ابلغ تاثير ، ولم يزل كذلك حتى اشتكاه انصار معاوية قائلين له إن الحسن قد احيا اباه وذكره ، وقال فصُدِّق ، وامر

فأطيع ، وخفقت له النعال ، وإن ذلك لرافعة إلى ما هو أعظم منه ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوؤنا .

## سياسته في عهد معاوية :

وهكذا قاد الإما الحسن المجتبى (ع) معارضة سياسية قوية ، ولكن من دون الحرب . وكان يوجه شيعته هنا وهناك ، وينظم صفوفهم ، وينمي كفاءاتهم ، ويدافع عنهم أمام بطش معاوية وكيده . وفي ذات الوقت كان (ع) يقوم بنشر الثقافة الإسلامية في كافة البلاد ، إما عن طريق الرسائل والموفودين من تلامذته البارعين الذين كان يتكفل أمورهم المادية والمعنوية ثم يبعثهم إلى الآفاق ، أو عبر الخطب التي كان يلقيها في مواسم الحج وغيرها ، فيملك ناحية الأمة ويستأثر بقيادتها الثقافية . ومن ذلك أيضاً ، نستطيع ان ندرك سر اختياره المدينة المنورة كوطن دائم له ، حيث كان فيها من الأنصار وغيرهم ممن يقدر على إرشادهم وتوجيههم ، وبذلك يستطع ان يشقّ طريقه إلى إرشاد الأمة وتوجيهها ، حيث كان الأنصار وأولادهم هم القدوة الفكرية للأمة ، فمَن ملك قيادة الأنصار ملك قيادة الأمة فعلاً .

## الشهادة : العاقبة الحسنى

لقد دعت سياسة الإمام الرشيدة ومكانته المتنامية في الأمة معاوية إلى ان يشك في قدرته على مناوأته، واستئثاره — من ثم — بقيادة الأمة ، حيث إنه ما خطى خطوة تُالف قيَمَ الحق او مصالح الأمة ، إلاّ وعارضه الإمام واتبعته الأمة في ذلك ، ففشلت مساعي معاوية وخابت آماله ، فدبَّر حيلة كانت ناجحة إلى ابعد الحدود ، تلك هي الفتك بحياة الإمام (ع) عن طريق سمٍ بعثه إلى زوجته . وقد سبق القول ، في أن منطق معاوية كان يبرّر له كلّ جريمة ، وكان له جنود من عسل على حدّ تعبيره ، فإذا كره من فرد شيئاً بعث إليه عسلاً ممزوجاً بالسمّ فيقتله بذلك .

وقد جعل مثل ذلك بالإمام الحسن (ع) مرات عديدة ، فلم يؤثر فيه ، وباءت مساعيه بالفشل . إلا انه ذات مرة بعث إلى عاهل الروم يطلب منه سماً فتّاكاً ، فقال ملك الروم ، إنه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا ، فراسله معاوية يقول ، إن هذا الرجل هو ابن الذي خرج بأرض تهامة — يعني رسول الله (ص) — خرج يطلب ملك ابيك ، وأنا أُريد ان ادس إليه السمّ ، فاريح منه العباد والبلاد .

فبعث ملك الروم إلى معاوية بالسمّ الفتاك الذي دسه إلى الإمام (ع) عن طريق جعدة الزوجة الخائنة التي كانت تنتمي إلى اسرة فاجرة ، حيث اشترك ابوها في قتل أمير المؤمنين واخوها في قتل الإمام الحسين ( عليهما السلام ) فيما بعد .

وفي ذلك النهار حيث كان قد مضى اربعون يوماً او ستون على سقبه السمّ ، وقد اتمَّ وصاياه التي أوصى بها إلى اخيه الإمام الحسين (ع) ، وعلم باقتراب اجله ، فكان يبتهل إلى الله تعالى قائلاً ،

" اللهمّ إني احتسب عندك نفسي ، فإنها اعز الأنفس عليّ لم أُصَب بمثلها . اللهمَّ انس صرعتي ، وانس في القبر وحدتي ، ولقد حاقت شربته ( أيّ معاوية ) . والله ما وفى بما وعد ، ولا صدق فيما قال " .

وكان يتلو آياتٍ من الذِّكرِ الحكيم حين التحق بالرفيق الأعلى سلام الله عليه .

## التشييع :

وقامت المدينة المنورة لتشيع جثمان ابن بنت رسول الله (ص) الذي لم يزل ساهراً على مصالحهم قائماً بها أبداً . وجاء موكب التشييع يحمل جثمانه الطاهر إلى الحرم النبويّ ليدفنوه عند الرسول ، او ليجددوا العهد معه على ما كان قد وصّى به الإمام ، فركبت عائشة بغلة شهباء واستنفرت بني امية وجاؤوا إلى الموكب الحافل بالمهاجرين والأنصار وبني هاشم وسائر الجماهير المؤمنة الثاوية في المدينة ، فقالت عائشة تصيح ، يا رُبَّ هيجاء هي خير من دعة !. أيُدفن عثمان باقصى المدينة ويدفن الحسن عند جدِّه .

ثم صرخت في الهاشميين ، نحّوا ابنكم واذهبوا به فإنكم قوم خصمون ..

ولولا وصية من الحسن (ع) بالغة على الحسين (ع) ، ألّا يُراق في تشييعه ملء محجمةٍ دم ، لَمَا ترك بنو هاشم لبني امية في ذلك اليوم كياناً . ولولا ان الحسين نادى فيهم ، الله الله يا بني هاشم ، لا تضيّعوا وصية اخي ، واعدلوا به إلى البقيع ، فإنه اقسم عليّ ان انا مُنعت من دفنه عند جدِّه إذاً لا أُخاصم فيه احداً ، وأن ادفنه في البقيع مع اُمّه . هذا ، وقبل ان يعدلوا بالجثمان ، كانت سهام بني امية قد تواترت على جثمان السبط واخذت سبعين سهماً ماخذها منه .

فراحوا إلى البقيع وقد اكتظ بالناس فدفنوه حيث الآن يُزار مرقده الشريف .

وهكذا عاش السبط الأكبر لرسول الله (ص) ، نقياً طاهراً مقهوراً مهتضماً ، ومضى شهيداً مظلوماً محتسباً ، فسلام الله عليه ما بقي الليل والنهار .

## الفصل الرابع

# مكارم الأخلاق

### أ - العابد الزاهد :

١- حجَّ الإمام الحسن (ع) خمساً وعشرين مرةً ماشياً ، والنجائب تقاد من بين يديه . وكلما مرَّت به طائفة صعقت وخفت بالنزول إجلالاً لسموِّه وكبير مكانته . فلم يزل حتى يعدل بطريقه عن الشارع العام ، ليبلغ في تذلله للخالق كلّ مبلغ .

٢- وكان إذا ذكر الله عزَّ وجلَّ بكى ، وإذا سُمِّي لديه القبر بكى ، وإذا قيل في البعث شيء بكى ، وإذا ذُكِّر بالصراط في المعاد بكى . وأما إذا ذُكر لديه العَرض الأكبر إذ الخلائق بين يدَي الله القدير ، كلّ ينظر في شانه ، ولهم شؤون تغنيهم عن الآخرين ، فهناك شهق شهقة وغشي عليه خوفاً وذعراً .

أما إذا حدَّث بالجنة والنار اضطرب اضطراب السليم ، وسال الله الجنة واستعاذ به من النار .

وإذا توضا فإنه كان يصفرُّ لونُه وترتعدُ فرائصُه ، فإذا قام إلى الصلاة اشتد اصفرار لونه وارتعاد فرائصه .

٣- وأما أمواله فقد قاسَمَ الله فيها ثلاثَ مرات ، نصفاً بذل ونصفاً أبقى . وقد خرج من ماله كله مرتين في سبيل الله ، فلم يبقَ له شيء إلا أعطاه في سبيل الله .

٤- ولا تمر عليه حال من الأحوال إلاّ ذكر الله عزّ وجلّ رغَباً ورهَباً .

٥- أما ما قال فيه معاصروه ، فقد قالوا : وكان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم بالدنيا .

ولقد أفرد بعض الكتّاب الأولين ، موضوع زهد الإمام الحسن (ع) في مجلد خاص ، مثل محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المتوفي سنة ٣٨١ في كتابه ( كتاب زهد الحسن عليه السلام ) .

### ب - المهيب الحبيب :

١- قال واصفوه : ما راه أحد إلاّ هابه ، وما خالطه إنسان إلاّ احبّه ، ولا سمعه عدوٌ له أو صديقٌ خاطباً فاجترأ عليه بالتكلم واللغو . وقالوا في شمائله أيضاً : لم يكن أحد أشبه برسول الله (ص) من الحسن بن علي (ع) ، خلقاً وخُلقاً وهيئة وهدياً وسؤدداً .

وقالوا كذلك : كان أبيض اللون مُشْرَباً بحمرة ، أدعج العينين [٣٤] سهل الخدَّين [٣٥] كَثّ

---

(٣٤) أدعج العينين : أسود العينين مع سعتها .

(٣٥) سهل الخدَّين : قليل لحمه .

اللحية [36] جَعْد الشعر [37] كأنَّ عنقه إبريق فضة ، حسن البدن ، بعيد ما بين المنكبَين ، عظيم الكراديس [38] رقيق المرية [39] ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، مليحاً من احسن الناس وجهاً .

٢– كان الإمام (ع) ، محبوباً لدى الجميع ، يكرمه البعيد والقريب سواء ، ومن مظاهر محبوبيته العامة ، انه كان يفرش له بباب داره في المدينة ، يجلس يقضي حوائج الناس ويحل مشاكلهم ، فكلّ من يمرّ به يقف هنيئة يسمع حديثه ، ويرى شمائله ويتزود بها من شمائل الرسول الأكرم وملامحه (ص) ، فلا يزال حتى ينسد الطريق دون المّارة . فإذا عرف الإمام ذلك قام ودخل لكي لا يسبب قطع الطريق .

٣– وقال فيه محمد بن إسحاق ، ما بلغ احد من الشرف بعد رسول الله (ص) ، ما بلغ الحسن بن علي .

٤– وقال فيه الزبير ، والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي .

٥– وكان ابن عباس يأخذ بركاب الحسن والحسين على عادة من يريد ان يبالغ في تواضعه إلى احد ، ويعرف الناس مدى خضوعه لسموّه ، فإنه كان يقود له الراحلة كالذي يُستاجر لذلك بالمال . فكان ابن عباس يصنع ذلك للحسين ، فرآه ذات مرة مدرك بن زياد ، فاندهش إذ رأى شيخ المفسرين يصنع هذا الإكرام بالحسين ، فقال انت اسنّ منهما تُمسك لهما بالركاب . فصاح ابن عباس في وجهه ، يالكع !! وما تدري من هذان ؟. هذان ابنا رسول الله . اوليس مما انعم الله عليّ به ان أُمسك لهما واسوّي عليهما ؟.

٦– وقد سبق انّه إذا امتطى الصحراء إلى مكة ماشياً ، ورآه ملأ من المسلمين نزلوا يمشون إلى جنبه ولا يركبون حتى يعدل عنهم .

## ج – الجواد الكريم :

١– اتاه رجل يطلب حاجة وهو يستحيي من الحاضرين ان يفصح عنها ، فقال له الإمام ، اكتب حاجتك في رقعة وارفعها إلينا . فكتب الرجل حاجته ورفعها . فضاعفها له الإمام مرتين ، واعطاه في تواضع كبير .

فقال له بعض الشاهدين ما كان اعظم بركة الرقعة عليه ، يابن رسول الله !. فقال ، بركتها الينا اعظم حين جعلنا للمعروف اهلاً ، اما علمت ، إن المعروف ما كان ابتداءً من غير مسالة . فامّا مَن اعطيته بعد مسالة فإنما اعطيته بما بذل لك من وجهه . وعسى ان يكون بات ليلته متململاً ارقا ، يميل بين الياس والرجاء ليعلم بما يرجع من حاجته ابكآبة ردّ ، أم بسرور النجح ، فياتيك وفرائصه ترعد ، وقلبه خائف يخفق ، فإن قضيت له حاجته فيما بذل من وجهه فإن ذلك اعظم مما ناله من معروفك .

٢– وجاءه رجل يسال معروفاً، فاعطاه خمسين الف درهم وخمسمائة دينار، وقال له ، إئت بحمّال لك،

---

(٣٦) كث اللحية . كثيف اللحية .

(٣٧) جعد الشعر : جعّد الشيء : تقبّض ، وجعّد الشعر . صيره جعداً ، وهو ضد سُبِط واسترسل .

(٣٨) عظيم الكراديس : كراديس : كل عظم تكردس اللحم عليه .

(٣٩) رقيق المرية : المرية : العدل .

فاتى بحمال فاعطاه طيلسانه وقال هذا كرى الحمّال .

٣- وجاءه اعرابي يريد أن يساله حاجة ، فقال الإمام لمن حوله ، اعطوه ما في الخزينة . فوجد فيها عشرون الف درهم ، فدفعت إليه قبل ان يسال . فاندهش الأعرابي وقال ، يا مولاي الاّ تركتني ابوح بحاجتي وأنشر مدحتي ، فانشا الإمام يقول :

| | |
|---|---|
| نحــنُ انـــاسٌ نـــوالـنـــا خضــــلٌ | يـرتــعُ فـيـــه الرجـــاءُ والأمــــلُ |
| تجـــودُ قبــلَ السّـــؤالِ انــفسُنـــا | خوفـاً علـــى مـاء وجْــو مَـن يَســـلُ |

٤- وحجّ ذات سنة هو وأخوه الإمام الحسين (ع) ، وعبد الله بن جعفر ، ففاتتهم اثقالهم فجاعوا وعطشوا ، فرأوا عجوزاً في خباء فاستسقوها فقالت هذه الشويهة ، احلبوها واستطعموها ، فذبحت لهم شاتها وشوتها ، فلما طعموا قالوا لها : نحن نفر من قريش ، نريد هذا الوجه ، فإذا عدنا فَمُرّي بنا ، فإنا صانعون بك خيراً . ثم مضت بها الأيام وأضرت بها الحال ، فرحلت حتى وصلت المدينة المنورة . فرآها الحسن (ع) ، فعرفها فقال لها ، أتعرفينني ؟. قالت ، لا . قال ، أنا ضيفك يوم كذا وكذا . فامر لها بالف شاة والف دينار ، وبعث بها إلى الحسين (ع) ، فاعطاها مثل ذلك ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر ، فاعطاها مثل ذلك .

٥- وتنازع رجلان ، هذا أموي يقول ، قومي أسمح ، وهذا هاشمي يقول ، بل قومي اسمح .

فقال احدهما ، فاسالْ أنت عشرة من قومك ، وانا اسال عشرة من قومي ، يريد أن يسال كلٌّ عطاء عشرة من قومه ، فينظروا ايّ القومين اسخى واسمح يداً . ثم إذا عرفوا ذلك ارجع كلّ منهما الأموال إلى اهلها ، كلّ ذلك شريطة أن لا يخبرا من يسالاه بالأمر .

فانطلق صاحب بني أمية فسال عشرة من قومه فاعطاه كلّ واحد منهم الف درهم . وانطلق صاحب بني هاشم إلى الحسن بن علي فامر له بمائة وخمسين الف درهم ، ثم اتى الحسين فقال ، هل بدات باحد قبلي ؟ قال ، بدات بالحسن ، قال ، ما كنت استطيع أن أزيد على سيدي شيئاً ، فاعطاه مائة وخمسين الفاً من الدراهم ، فجاء صاحب بني أمية يحمل عشرة آلاف درهم من عشرة انفس وجاء صاحب بني هاشم يحمل ثلاثمائة الف درهم من نفسَين ، فغضب صاحب بني امية ، حيث رأى فشله في مبادراته القبلية .

فردّ الأول حسب الشرط ما كان قد اخذه من بني امية فقبلوه فَرحين ، وجاء صاحب بني هاشم الحسن والحسين يردّ عليهما اموالهما فابيا ان يقبلاهما قائلين ، ما نبالي اخذتها ام القيتها في الطريق .

## د - المتواضع الحليم :

١- مرّ بطائفة من الفقراء جلوساً على كسيرات من الرغيف ياكلونها ، فلما رأوا موكب الإمام قاموا إليه ، ودعوه إلى طعامهم قائلين هلّم يابن رسول الله إلى الغداء ، فنزل وهو يقول ، " إن الله لايحب المتكبرين " وجعل ياكل معهم ثم دعاهم إلى ضيافته فاطعمهم وكساهم .

٢– وعصفت به ظروف عصيبة ان لو مرت على الجبال لتدكدكت ، وازدحمت فوق كتفيه مسؤوليات عظيمة فاضطلع بها وتغلب على صعابها في حلم واناة ، مما دفع اشدّ الناس عداوة له – وهو مروان – الى ان يقول ، كان من حلمه ما يوازن به الجبال . وكانت صفة الحلم ابرز سماته (ع) ، حيث كان يشبّه فيها بالنبي (ص) .

الفصل الخامس

# من بلاغة الإمام

## ١- لا جبر ولا تفويض :

من لا يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، من حمل ذنبه على ربه فقد فجر . إن الله لايُطاع استكراهاً ، ولا يعطي لغلَبه ، لانه المليك لما ملَّكهم ، والقادر على ما اقدرهم . فإن عملوا بالطاعة لم يَحُلْ بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي يجبرهم على ذلك . فلو اجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ، ولو اجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب . ولو انه اهملهم لكان عجزاً في القدرة . ولكنْ له فيهم المشيئة التي غيَّبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنّة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم .

## ٢- الموت يطلبك :

يا جنادة ، استعدَّ لسفرك ، وحصِّل زادك قبل حلول اجلك ، واعلم انك تطلب الدنيا والموت يطلبك . ولا تحمل همّ يومك الذي لم ياتِ على يومك الذي انت فيه ، واعلم انك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلاّ كنت فيه خازناً لغيرك . واعلم ان الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، وفي الشبهات عتاب ، فأنزلِ الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك ، فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيه ، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر ، فاخذت منه كما اخذت من الميتة ، وإن كان العقاب فالعقاب يسير . واعمل لدنياك كانك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كانك تموت غداً . وإذا اردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله ، إلى عزّ طاعة الله عزَّ وجلَّ . وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب مَن إذا صحبته زانك ، وإذا اخذت منه صانك ، وإذا اردت منه معونة اعانك ، وإن قلت صدَّقك ، وإن صلت شدّ صولتك ، وإن مددت يدك بفضل مدّها ، وإن بدت منك ثلمة سدّها ، وإن راى منك حسنة عدّها ، وإن سالته اعطاك ن وإن سكتّ عنه ابتداك ، وإن نزلتْ بك إحدى الملمات واساك ، مَن لا تاتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإن تنازعتما منقسماً آثرك .

## من حكمته البالغة :

١- المزاح ياكل الهيبة . وقد أكثر من الهيبة الصامت .

٢- المسؤول حرّ حتى يَعِدَ ومسترق بالوعد حتى ينجز .

٣- اليقين معاذ السلامة .

٤– راس العقل معاشرة الناس بالجميل .

٥– القريب من قرّبته المودة وإن بعد نسبه ، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه . فلا شيء اقرب من يد إلى جسد ، وإن اليد تفل فتقطع وتحسم .

٦– الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود .

٧– لئن ساءني الدنيا عزمتُ تَصَبُّراً | و كلُّ بلاءٍ لا يدوم يسيرُ
و إن سرّني لم ابتهج بسروره | و كلّ سرورٍ لا يدوم حقيرُ

٨– يا اهلَ لذاتِ دنياً لا بقاء لها | إنَّ المقامَ بظلٍّ زائلٍ حَمَقُ

٩– لكسرة من خسيس الخبز تُشبعني | وشربة من قراح الماء تكفيني
وطرة من دقيق الثوب تسترني | حيّاً وإن مت تكفيني لتكفيني

١٠– إذا ما لتاني سائل قلت مرحباً | بمَن فضلهُ فرضٌ عليّ معجلُ
ومن فضله فضلٌ على كلِّ فاضلٍ | و افضلُ ايامِ الفتى حين يُسالُ

تاريخ الانتهاء من التاليف ٣ / ١٠ / ١٣٨٦ هـ
وانا اشكر الله الكريم على ذلك ..



# الامام الحسين (عليه السلام)
# قدوة وأسوة

# تمهيد

انبعث من ضمير الإنسانية رجال ، كانوا المعجزة في أقرب مفاهيمها ، وأصدق معاييرها ، وفي أسنى تألقها ، وأبهى تجليها .

لا شك في أنها كانت آية ظاهرة ، تهدي إلى قوة قاهرة وراء الغيب لتدير الكون ، وتدفعه إلى سُبله المستقيمة ، تدعو إلى التصديق الواعي ، بحقيقة أخرى غير هذه المادة ، وغير ملابساتها الظاهرية ، تلك هي حقيقة الخالق العليم .

" بِنا عُرف الله "[1] .

وليس من شك في أن للمسلمين أحظى نصيب من هذا النمط البالغ في سنائه وبهائه حدّ المعجزة الخارقة ، من الأبطال البارعين .

فالنبي محمد (ص) وأهل بيته (ع) ، قممٌ لاشك في مجدها وسموقها – لسلسلة شاهقة من جبال لا يرقى إليها الطير ، وسامقات متاصلات كانت تحمل هم وشرف الحقيقة وأوتاد صعيد الفكر . ولولاهم لتزلزل وماد ، إذ أنهم سفن محيط الشك الذي لولاهم لغمر كل حي ونزل القعر البعيد ..

ومن قمم هذه السلسلة المباركة الإمام علي (ع) الذي هو – بلا ريب – ثاني الرسول العظيم .

ومنها الإمام الحسن (ع) الذي حفظ الله به الدّين حين أصلح الله به بين فئتين متنازعتين من المسلمين ..

ومنها الإمام الحسين (ع) ، الذي استقر في أشمخ وأروع قمة بعد النبي (ص) ، وبعد الوصي (ع) .

ولا أُحب أن أفاتحك الحديث قبل أوانه فهذا الكتاب بين يديك سوف نفتح فيه أسرار المعجزة في هذه القمة المجيدة ، وسوف يعالج كل موضوع ، ولو كانت معالجة بتراء ، إلاّ أني آملها معالجة واعية إن شاء الله .

غير أني أريد أن أقدم شيئاً مما يجب أن أصبر عليه إلى أوانه القريب . لندخل فصول الكتاب في تفتح ذكري بالغ .. وها هو بين يديك ،

---

(١) حديث عن الأئمة مأثور .

اصبح المسلمون اليوم أحوج إلى النور من اي يوم آخر ، لأنهم اصبحوا وسط زوابع هادرة تلفهم من كل جانب ، في ليل مظلم ، وفي قفر لا يملكون هادياً او رائداً . قد ظلّت بهم السبل ، واختلفت في وجههم التيارات ، وهم لا يدرون ما يعملون ؟

أقول ، إنهم اليوم أحوج ما يكونون إلى النور ، في حين انهم ابعد ما كانوا عنه ، لأنهم – كما نراهم – مجردون عن الوعي الكافي الذي يجب ان يكفل غذاءهم الفكري المستمر – في خضم هذه الأفكار الواردة – فلا يعرفون تعاليم دينهم ، ولا يميزون معالمه الوضيئة التي دلّت تجارب السنين العديدة على انها الوحيدة من نوعها التي تستطيع أن تنتشل الأمة من قعرها العميق إلى قمتها المامولة .

وإن هذا نموذج حي أريد ان أقدمه إليك – أيها القارئ – هنا ومن خلال السطور التي نمر عليها .

وسوف لا اوقفك طويلاً لأمهّد لك ، فلنقطع الحديث للنظر في سطور الكتاب ، لنرى أحفل حياة بالمكرمات الرائعة .

## الفصل الأول

# الوليد السعيد

-١-

كان ذلك الفجر ألف وأبهى فجر ، من السنة الثالثة للهجرة ، حيث استقبل باصابع من نور ، وليداً ما اسعده ، وما اعظمه .

في الثالث من شعبان غمر بيت الرسالة نور ، سنيٌّ متالقٌ ، إذ جاء ذلك الوليد المبارك واصطفاه الله ليكون امتداداً للرسالة ، وقدوة للأمة ، ومنقذاً للإنسان من اغلال الجهل والعبودية .

ولا ريب أننا سوف ننبهر إذا لاحظنا بيت الرسالة وهو يستقبل الوليد الجديد ، فهذا البيت البسيط الذي يستقر على مرفوعته الأولى الرسول ، الجد الرؤوم ، والوالد الحنون .

-٢-

واتاه الخبر ، انه وُلِدَ لفاطمة (ع) وليد ، فإذا به (ص) يغمره مزيج من السرور والحزن ، ويطلب الوليد بكل رغبة ولهفة !.

فماذا دهاك يا رسول الله !. بابي انت وامي ، هل تخشى على الوليد نقصاً او عيباً ؟!

كلا .. إن تفكير صاحب الرسالة يبلغ به مسافات أوسع وابعد مما يفكّر فيه اي رجل آخر ، ومسؤوليته اعظم من مسؤولية اب او واجبات جد ، او وظائف قائد .. إنه مكوِّن امة ، وصانع تاريخ ، ونذير الخالق تعالى إلى العالمين .

إنه يذهب بعيداً في تفكيره الصائب فيقول ، لابد للمنية ان توافيه في يوم من الأيام ، ولابد لجهوده أن تفسح أمامها مجالات أوسع مما بلغتها اليوم ، فسوف تكون هناك امة تدعى ( بالأمة الإسلامية ) تتخذ من شخص الرسول أسوة وقدوة صالحتين .

ولابد لهذه الأمة من هداة طاهرين ، وقادة معصومين يهدون الأمة إلى الصراط المستقيم .. إلى الله العزيز الحكيم ..

وسوف لايكونون — كما اخبرته الرسالة مراراً — إلاّ ذريته هؤلاء ، علي ابن عمه ، وولداه (ع) ، ثم ذُرِّيتهم الطيبة من بعدهم !.

ولكن هل تجري الأُمور كما يريدها الرسول في المستقبل ؟. إن وجود العناصر المنحرفة بين المسلمين نذيرٌ لا يرتاح له الرسول (ص) على مستقبل الأمة .

وإن الوحي قد نزل عليه غير مرة يخبره بأن المصير الذي رآه الحق المتمثل في شخص الرسول (ص) هو نفس المصير الذي يترقبه الحق المتمثل في آله (ع) ، وأن العناصر التي قاومت الرسالة في عهده سوف تكون نفس العناصر التي تقاوم – بنفس العنف والإصرار – امتداد الرسالة في عهد أبنائه الطيبين صلوات الله عليه وعليهم .

فقد علم أنه سوف تبلغ الموجة مركزها الجائش ، وسوف يقف أنصار الحق والباطل موقفهم الفاصل في عهد الإمام الحسين (ع) ، هذا الوليد الرضيع الذي يُقلّب وجهه فيظهر مستقبلُه على ملامح الرسول وهو يضطرب على ساعديه المباركتين .

والنبي (ص) يلقي نظرةٍ على المستقبل البعيد ، ويعرج فيه فيلقي نظرة أخرى على هذا الرضيع الميمون فيهزه البُشر حيناً ، ويهيج به الحزن أحياناً ، ولا يزال كذلك حتى تنهمر من عينيه الوضيئتين دموع ، ودموع ...

يبكي رسول الله (ص) .. وما أشجعه ، وهو الذي يلوذ بعريشه أشجع قريش وأبسلها ، علي بن أبي طالب (ع) حينما يشتد به الروع ، فيكون أقرب المحاربين إلى العدو ، ثم لايفل ذلك من عزمه ومضائه قدر أنملة ، لكنه الآن يبكي وحوله نسوة في حفلة ميلاد .. فما أعجبه من حادث !..

تقول أسماء فقلت : فداك أبي وأمي ممَّ بكاؤك ؟! قال : على ابني هذا ؟

فقلت : إنه ولد الساعة يا رسول الله ؟!

فقال : " تقتله الأمة الباغية من بعدي . لا أنالهم الله شفاعتي " [٢] .

إن القضية التي تختلج في صدر رسول الله (ص) ليست عاطفة إنسانية أو شهوة بشرية حتى تغريه عاطفة إعلاء ذكره وبقاء أثره في آله .

كلا .. بل هي قضية رسول . اصطفاه الله واختاره على علم منه ، بعزمه ومضائه ، وصدقه وإيمانه .

قضية مَن تحمَّل مسؤولية أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال الرواسي .. إنها مسؤولية الرسالة العامة إلى العالمين جميعاً .

والحسين (ع) ليس ابنه فقط ، بل هو قدوة وأسوة لمن ينذر من بعده ، فنبأ مصرعه – هو بالذات – نبأ مصرع الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، والعدالة بالظلم ... وهكذا .

فيبكي النبيُّ (ص) لذلك ، ويحق له البكاء ..

-٣-

أنها ظاهرة ميلاد غريبة نجدها الساعة في بيت الرسالة تمتزج المسرة بالدموع ، والإبتسامة بالكآبة .. فهي حفلة الصالحين تدوم في رحلة مستمرة بين الخوف والرجاء ، والضحك والبكاء .

---

(٢) بحار الأنوار ، المجلد العاشر .

لنصغ قليلاً لنسمع السماء هل تشارك المحتفلين في هذا البيت الهادئ البسيط .

نعم . نسمع حفيفاً يقترب ، ونظنه حفيف الملائك ، فإذا بهم ملأوا رحاب البيت .

يتقدم جبرئيل (ع) فيقول :

" يا محمد : العلي الأعلى يقرؤك السلام ويقول : علي منك بمنزلة هارون من موسى ، ولا نبي بعدك . سمِّ ابنك هذا باسم ابن هارون ؟

فيقول النبي (ص) : وما اسم ابن هارون ؟

فيجيب : شُبَير .

فيقول النبي (ص) : لساني عربي ؟!

فيجيب جبرائيل : سَمِّه الحسين . فيسميه الحسين [٣] .

- ٤ -

ويتقدّم فطرس .

ومن هو هذا الملك المهيضة جناحاه يحمله رفاقه ؟. إنه مطرود من باب الله ، لم يزل في السجن يعذب ، حتى واتته افواج من الملائكة ، فقال لهم : مالي أراكم تعرجون وتهبطون ، أقامت الساعة ؟. فقال جبرائيل : كلا ، وإنما ولد للنبي الخاتم وليد ، فنحن ذاهبون إلى تهنئته الساعة . فقال : أفلا يمكن أن تحملوني إليه عله يشفع لي فيُشفّع ؟. فجاء به جبرائيل (ع) .

فها هو ذا يتقدم إلى الرسول (ص) يتوسل به إلى الله .. فلوما (ص) إلى مهد الحسين وهو يهتز في وداعة ، فراح الملك يلمس جوانب المهد بجناحيه المكسورتين ، فإذا هو وقد ردّهما الله عليه إكراماً منه لوجه الحسين (ع) عنده .

وتنتهي الحفلة ، ويأخذ النبي (ص) الرضيع الميمون بيديه ، ويحتضنه ويؤذن في إحدى أُذنَيه ، ويُقيم في الأخرى . ثم يجعل لسانه في فم الوليد فيغذيه من رضابه الشريف ما شاء .

ثم يعقُّ عنه بعد اسبوع بكبشين أملحين ، ويتصدَّق بزنة شعر راسه بعد أن حلقه دراهم ، ثم يعطّره ويومئ إلى أسماء فيقول : " الدم من الجاهلية " .

وهكذا ينقلب الجد الحنون إلى اسوة حسنة للمسلمين ، فلا يكتفي بإجراء الآداب الإسلامية ، وهي في روعتها ونضارتها — عملاً — وإنما ينسخ بالقول أيضاً لعنة الجاهلية ، حيث كانوا يضمخون رؤوس ولدانهم بالدم إعلاناً لتوحشهم ، وإيذاناً لطلب تراتهم .

- ٥ -

ولم يزل ذلك الوليد المبارك يترعرع في أحضان الرسالة ، ويعتني به صاحبها محمد (ص) وربيبها

---

(٣) انظر كتاب قاموس اللغة - في مادة شبر - وكتاب بحار الأنوار : ( ج ١٠٤ ، ص ١١١ ) .

علي (ع) حتى بلغ من العمر زهاء سنتين ، ولكن لم يتفتح لسانه عن اداء الكلام أبداً .

عجباً . إن ملامح الوليد تدل على ذكاء مفرط ، ومضاء جديد ، ومع ذلك فلم لم يتكلم بعد ، أيمكن أن يكون ذلك لثقل في لسانه ؟!

وذات يوم إذ اصطف المسلمون لإقامة صلاة الجماعة ، يؤمُّهم الرسول الأعظم ، وإلى جانبه حفيده الحبيب الحسين (ع) ولمّا تهيأ القوم للتحريم ، كان الخشوع مستولياً على القلوب . والهدوء سائداً على الجو ، والكل ينتظرون أن يُكبِّر الرسول فيُكَبِّروا معه ، فإذا هم بصوته الخاشع الوديع يكسر سلطان السكوت ويقول : الله اكبر ...

وإذا بصوت ناعم خافت يشبه تماماً صوت النبي (ص) بكل نغماته ونبراته وما فيه من خشوع ووداعة يقول : الله أكبر ...

إنه صوت الحسين (ع) .

فكرر الرسول : الله اكبر ... فارجع الحسين الله اكبر ، والمسلمون يستمعون ويكبِّرون ، ويتعجبون !! فردد الرسول (ص) ذلك سبعاً ، ورجَّعه الحسين (ع) سبعاً ، ثم استمر النبي (ص) في صلاته والحسين (ع) يسترجع منه .

فقد كانت اول كلمة لفظها فم الحسين (ع) كلمة التوحيد : الله اكبر .

وفيما نخطوا مع التاريخ بعض الخطوات الفاصلة ننظر إلى هذا الوليد بالذات – ذلك الذي لم يفتح فمه إلاّ على كلمة الله اكبر – ننظر إليه بعد خمس وخمسين سنة وهو يمارس آخر خطوات الجهاد المقدس ، ويعالج آخر لحظات الألم وقد طرح على الرمضاء ، تلفحه حرارة الشمس ، ويمزق كبده الشريف حر العطش ، ويلفه حر السلاح المصلصل .

فنستمع إليه وهو يحرِّك شفتَين طالما لمستهما شَفَتا رسول الله (ص) يتضرع إلى بارئه ، يقول : " إلهي ... رضاً برضاك ، لا معبود سواك " .

ولايزال يتمتع حتى يُعرج بروحه الطاهرة المقدَّسة إلى السماء ، عليه افضل الصلاة والسلام .

– ٦ –

وإذا ثبت بالتجارب الحديثة أن للوراثة آثارها البالغة ، وأن للتربية حظها الكبير في إنماء خُلق الطفل وتكييف صفاته ، فلا نشك في ان ابوي الحسين ( عليه وعليهما السلام ) كانا من ارفع الآباء خُلقاً ، واكرمهم نسباً . وإن تربيتهما كانت أحسن تربية وأشرفها وأقدرها على إنماء الأخلاق الفاضلة ، والسجايا الحميدة في نفس الإنسان .

وهل نشك في ربيب الرسول ذاته ، وربيب مَن ربّاهما الرسول فاطمة وعلي عليهم جميعاً صلوات الله وتحياته ؟.

أفلا نرضى من الله العزيز كلمته العظيمة في القرآن حيث يقول :

﴿ مَـرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَـانِ * يَخْـرُجُ مِنْهُمَـا اللُّؤْلُـؤُ وَالْمَرْجَـانُ ﴾ (الرَّحْمَن/١٩-٢٢)

فالبحران هما بحر النبوة ومنبعه فاطمة (ع) عن الرسول (ص) ، وبحر الوصاية من قبَلِ عليٍّ (ع) .

فلابد لهذين البحرين — إذا التقيا — ان يخرج منهما اللؤلؤ الحسن ، والمرجان الحسين (ع) .

=٧=

هذه هي الوراثة .. إنها اقدس وارفع مما يُتصور .. ولا تسال عن التربية ، فلقد كانت انصع واروع من كل تربية ، كان شخص الرسول (ص) يهتم بالحسين (ع) وتربيته بصورة مباشرة .

وبين يديك حديثان تعرف منهما مدى رعاية الرسول (ص) لشان الحسين (ع) ، مما يؤكد لك ان الحسين لم يكن ربيب علي وفاطمة (ع) فقط ، بل تربى على يد جدّه النبيِّ (ص) ذاته .

عن يعلى العامري انه خرج من عند رسول الله (ص) إلى طعام دعي له . فإذا هو بالحسين (ع) يلعب مع الصبيان فاستقبل النبي (ص) امام القوم ...

ثم بسط يديه فطفر الصبيُّ ههنا مرّة وههنا مرّة ، وجعل رسول الله يضاحكه حتى اخذه فجعل احدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه ، ووضع فاه إلى فيه وقبله [4] .

واستسقى الحسن (ع) فقام رسول الله (ص) فجدع له في غمر كان لهم [5] ثم اتاه به .

فقام الحسين (ع) فقال ، " اسقنيه يا ابه " فاعطاه الحسن ثم جرَّع للحسين (ع) فسقاه .

فقالت فاطمة (ع) ، " كان الحسن أَحبهُّما إليك " ؟.

قال ، " إنه استسقى قبله ، وإني وإياك وهما وهذا الراقد — واوما إلى علي امير المؤمنين (ع) — في مكان من الجنة " [6] .

=٨=

وظل الوليد النبيه يشبّ في كنف الرسول ، وظلِّ الوالدين الطاهرين ، والرسول يوليه من العناية والرعاية ما يبهر الباب الصحابة ويحيِّرهم . ولطالما بعث الرسول بكلماته النيِّرة على سمع المئات المحتشدة من المسلمين يقول ، " الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة " . و " الحسن والحسين إمامان قاما او قعدا " ويقول ، " حسين مني وانا من حسين " .

ويرفعه بين الناس — وهم ينظرون — فينادي ، " ايها الناس هذا الحسين بن علي فاعرفوه " .

ثم يردف قائلاً ، " والذي نفسي بيده إنه في الجنة ومعه أحبَّاؤه " .

و قد يتبوا له مقعداً في حضنه المبارك ويشير إليه فيقول ، " اللهم إني أُحبه فأَحبه " .

---

(٤) مستدرك : ( ج ٢ ، ص ٦٢٦ ) .

(٥) أي غرف لهم من قدح ماء .

(٦) معالم الزلفى : ( ص ٢٥٩ ) .

ولطالما يحمله هو وأخاه على كاهله الكريم وينقلهما من هنا إلى هناك ، والملأ من المسلمين يشهدون .

وهكذا ترعرع الوليد الحبيب في ظل الرسالة وفي كنف الرسول ، وأخذ منهما حظاً وافراً من المجد والسناء .

## الفصل الثاني

# بعد الرسول

= ١ =

وبعد الرسول — حيث ازدحمت الحوادث واختلفت النعرات — نراه يقف جنباً إلى جنب مع والده العظيم في قضية الحق ويعلنها في أوضح برهان .

والمسلمون هناك ، يهتدون على من يهتدون .

= ٢ =

ومرة أخرى نلتقي بالحسين (ع) وهو شاب يمثل شمائل أبيه المهيبة ، ويقود الجيوش المزمجرة ضد طاغية الشام معاوية بن أبي سفيان .

وتتم على مضاء عزمه ، ومضاء سيفه ، وسداد فكره ، وسداد خططه انتصارات باهرة ضد الطغيان الأموي الذي أراد أن يرجع بالأمة الإسلامية إلى جاهليتها الأولى ، وقد فعل .

.. ثم تُدَبَّرُ مؤامرة لئيمة لاغتيال الإمام علي (ع) وينتهي الأمر بمصرعه الفاجع ، وتلقي الأمة بأبهض مسؤولياتها وأخطرها على كاهل الإمام الحسن (ع) فيمارس الإمام الحسين جهاده المقدس في أداء أمانة الحق ، ومسؤولية الأمة ، ويحرض الشعب الإسلامي ضدَّ الباطل المحتشدة كل قواه في عرصات الشام، ويحذره من كل ما يُرتقب من مآسي وويلات على يد الطاغية إن تمَّ له الأمر .

= ٣ =

وينتهي دور الإمام الحسن فيُقتل بسمٍّ يدسه إليه طاغية الشام .

فتقع دفة الخلافة الإلهية بيد الحسين (ع) ويتابعه المسلمون الواقعيون الذين لم يشاهدوا في بني أمية إلاّ مُلكاً عضوضاً كلُّ همّه القضاء على مقدسات الأمة ومشاعرها في آن واحد .

نعم ، انتقلت الإمامة إلى رحاب الحسين (ع) في أوائل السنة الخمسين من الهجرة النبوية، ولنلقي نظرة خاطفة على الوضع السائد في البلاد الإسلامية آنذاك .

= ٤ =

في السنة الواحد والخمسين ، حج معاوية إلى بيت الله الحرام ليرى من قريب الوضع السياسي في مركز الحركة المناوئة لخلافته ، حيث إن الحرمين كانا مقرا الصحابة والمهاجرين ، وهم أبغض خلق الله لمعاوية لأنهم أشدهم خلافاً عليه .

فلما طاف بالبلاد المقدسة عرف أن الأنصار – بصورة خاصة – يبغضونه ويكرهون خلافته على أشد ما تكون الكراهية والبغض .

وذات يوم سأل الملأ حوله : ما بال الأنصار لم يستقبلوني ؟

فأجابه طائفة من زبانيته : إنهم لايملكون من الإبل ما يستطيعون استقبالك عليها .

وكان معاوية يعرف الحقيقة من برودة تلقي الأنصار مجيئه ، فحينما سمع هذا الجواب الروتيني لمز وغمز وقال : ما فعلت النواضح – أراد الاستهزاء بساحة الأنصار ، بأنهم كانوا ذات يوم من عمال اليهود في المدينة ، أصحاب إبل تنضح الماء لبساتين اليهود ، وكان في الحاضرين بعض زعماء الأنصار فأجابه – وهو قيس بن سعد بن عبادة – قائلاً :

أفنوها يوم بدر وأُحد وما بعدهما من مشاهد رسول الله حيث ضربوك وأباك على الإسلام حتى ظهر أمر الله وأنتم كارهون . أما إن رسول الله عهد إلينا أنّا سنلقي بعده أثرة .

ثم جاش صدر قيس فاندلعت منه شرارة فيها ذكريات الماضي الزاهر ، وعواصف هذا اليوم الأسود ، فقال وأمعن في إيضاح سوابق بني أمية ولواحقهم ، وشرح ما كان من وقوفهم ضد الدعوة النبوية – أول يوم – وما كان من إنكارهم حق عليٍّ (ع) بعد ذلك ، وما كان من أمر معاوية – بالذات – مع إمام زمانه، وما جاء عن لسان النبي (ص) من الأحاديث بشأن علي ، الذي افترضه معاوية مناوئه الوحيد على كرسي الحكم .

ولم يدر قيس ذلك اليوم ما الذي كان يحمله معاوية من بغض وكره – سوف يحدوان به إلى مالا تحمد عواقبه – .

– ٥ –

ورجع معاوية يفكر في إجراء التدابير اللازمة ضد مناوآت الأنصار والمهاجرين . وأول خطة اتخذها هي التي سوف يُتلى عليك تفصيلها .

وعرف معاوية أن في البلاد الإسلامية كثرة واعية من المفكرين الذين محضوا عن تجارب الماضي القريب ، ولمسوا حقيقة أمر الحزب الأموي الحاكم ، كما آمنوا بقداسة الحق ، وبوجوب متابعته ، والدفاع عن نواميسه السامية مهما كلفهم الأمر .

وعرف كذلك أنه يستقر في مركز حركة هؤلاء الذين ناوأوه ، علياً أولاً والحسن ثانياً ، وهذا الإمام ثالثاً . ثم عرف أيضاً ما لهذا البيت العلوي من دعائم وطيدة ، ومؤهلات كافية تنذر عرش الأمويين بالفناء العاجل .

فمن هنا بدأت خطته اللئيمة ، ففكر في أن من يحب علياً وآل عليٍّ لا شك في أنه يستاء من مُلك بني أمية . إذاً فلنقلع حب الإمام أولاً من صدور الشعب المسلم ، ولنستأصل مقاييس المسلمين التي يميزون بها الحق عن الباطل – ألا وهي تمثل الإسلام الحق في بيت الرسالة – .

فاخذ يكتب إلى كل والٍ له في أطراف البلاد برسالة إليك نصها بالحرف :

أما بعد ، انظروا إلى من قامت عليه البينة انه يحب عليّاً واهل بيته فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه . ولا تجيزوا لأحد من شيعة علي واهل بيته شهادة .

وهذه اول محنة واجهها انصار عليٍّ الذين كانوا يشكلون الجبهة المناوئة للحزب الأموي الحاكم . وقد كانت جبهةً شديدةً عنيفةً جداً .

ثم راح معاوية في ظلمه يخطو خطوة اخرى — اقسى من الأولى واعنف كثيراً — فكتب إلى ولاته يقول :

أما بعد ، خذوهم على الظنة ، واقتلوهم على التهمة .

ففكّروا في هذه الكلمة : ( اقتلوهم على التهمة ) فهل تعرفون اقسى منها في قاموس المجرمين واعنف حكماً ؟!

— ٦ —

في مثل هذا الجو الرهيب كان يعيش الإمام الحسين (ع) وهو يتقلد منصب الخلافة الإلهية . ولا شك في أنه كان يؤلمه الشوك في طريق اصحاب الحق على الظنة ، وإبادتهم بالتهمة .

ولكنّ الظروف التي كان يعيشها لم تكن بالتي تجيز له المقاومة المسلحة ضد العدوان الأموي الأرعن، لأن معاوية كان يعالج الأمر بالمكر والخدعة ، ويخدّر أعصاب الأمة بالأموال الطائلة من ثروة الدولة التي إن لم تُعطِ الفائدة فهناك شيء كان يسميه بجنود العسل ، ويقصد به الغدر بحياة الشخصيات عن طريق السم يديفه في مطعمه او مشربه ، كما فعل ذلك بالإمام الحسن (ع) بواسطة زوجته الغادرة ، وكان يستعمله دائماً ضدّ أولئك العظماء الذين لايخضعون لسلطان المال والمنصب .

اما إذا استعصى عليه الإغراء بالمال او القضاء بالسم ، فيأتي دور القوّة التي كان يستعملها بدون رحمة في مناسبة وغير مناسبة .

وبهذه الوسيلة الأخيرة قضى على الصحابي الكبير والزعيم الشيعي القدير : حِجْر بن عدي ، حيث استدعاه هو وأصحابه إلى الشام ، وقبل أن يصلوا إلى العاصمة أرسل سرية من شرطته فقتلت بعضهم ودفنت بعضهم أحياءً بغير جرم إلاّ انهم كانوا اصحاب عليٍّ (ع) وقواد جيشه .

— ٧ —

وكان مقتل حجر هذا منبهاً فعّالاً ، للشعب الإسلامي الذي دعا إلى إعلان التمرد ، حتى من بعض اصحاب الأمويين كوالي خراسان ربيع بن زياد الحارثي ، حيث جاء المسجد ونادى بالناس ليجتمعوا ، فلما اكتمل اجتماعهم قام خطيباً وذكر المأساة بالتفصيل وقال : إن كان في المسلمين من حمية شيء لوجب عليهم ان يطالبوا بدم حِجْر الشهيد .

وحتى من مثل عائشة التي كانت بالأمس في الصف المخالف لعلي (ع) فإنها لما سمعت الفاجعة قالت : أما والله لقد كان لجمجمة العرب عز ومنعة ، ثم انشدت :

ذهب الذيـن يعـاش فـي أكنـافهـم و بقيـت في خلـف كجلـد الأجـرب

ومشت في الأوساط السياسية رجة تبعتها اضطرابات جعلت معاوية يندم من سوء فعله لأول مرة .

ولكن لم يكن مقتل حِجْر بالوحيد من نوعه ، فقد رافقه مقتل الصحابي الكبير المعترف به لدى سائر المسلمين عمرو بن الحمق ، الذي حُمل رأسه على الرمح لأول مرة في تاريخ الإسلام ، حيث لم يُحمل فيه قبل ذلك اليوم رأس مسلم قط .

وتبع حادثة حِجْر وأصحابه الستة عشر حوادث مرعبة نشرت على دنيا المسلمين التوتر والإضطراب .

= ٨ =

ويمكننا أن نكشف عن بعض مظاهر هذا التوتر بما يلي :

لقد سيطر زياد ابن أبيه على الكوفة والبصرة ، ولقد كان متشيعاً قبل أن يُلحقه معاوية بنسبه ، فكان يعرف أسرار الشيعة وخباياهم وزعماءهم وقادتهم . فلما استتب له الأمر راحَ يلاحقهم تحت كل حجر ومدر ويمعن فيهم القتل والتنكيل حتى ليَقول الرجل : أنا كافر لا أؤمن بنبيٍ خير له من أن يقول : إني شيعي أؤمن بقداسة الحق وأكفر بالجبت والطاغوت .

فلما ضبط العراقيين إرهاب بني أمية رفع زياد كتاباً إلى البلاد الملكي هذا نصه بالحرف :

إني ضبطت العراق بشمالي ، ويميني فارغة . فولني الحجاز أشغل يميني به ..

ولما أذيع نبا هذه الرسالة في المدينة المنورة اجتمع المسلمون في المسجد النبوي وابتهلوا إلى الله ضارعين : اللهم اكفنا يمين زياد .

ولسنا بصدد بيان أنه كفّ الله عنهم يمين زياد فعلاً ، حيث أصابه الطاعون فمات ذليلاً ، إلاّ أننا بصدد أن نعرف مدى الإرهاب المخيم على الأوساط السياسية حتى أن الناس يجتمعون للدعاء ضد والٍ واحد ، رهيب الجانب ، مرعب السلطة .

= ٩ =

وإذا سألت عن موقف السبط ، فنحن لا يهمنا من هذا الاستعراض الخاطف للأوضاع السياسية في عهد معاوية إلاّ لنعرف موقف الإمام الحسين (ع) منها .

ونستطيع أن نلمس موقفه بصورة إجمالية ، إذا مضينا نفكر في هذه القضايا الثلاث ،التي سنتلوها تباعاً.

١- كانت الأنباء تتوالى على المدينة بنكبات فجيعة ، نزلت على رؤوس المسلمين بسبب مدحهم للإمام علي (ع) وبسبب تشيُعهم لأهل البيت (ع) تماماً بعد إعلان معاوية حكمه الصارم :

كل من نقل فضيلة عن علي فَقَدَ الأمان على نفسه وماله !. وكان ذلك في مستهل السنة الواحدة والخمسين بعد الهجرة النبوية . فدبر الإمام خطة جريئة نفذها بنفسه ، فجمع الناس في محفل ضم من بني هاشم رجالاً ونساءً ومن أصحاب رسول الله ، ومن شيعته أكثر من سبعمائة رجلٍ ، ومن التابعين أكثر من مائتين ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

" اما بعد ، فإن هذا الطاغية ( يعني معاوية بن ابي سفيان ) قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد علمتم وشهدتم ، واني اريد ان اسالكم عن شيء ، فإن صدَقت فصدِّقوني ، وإن كذَبت فكذِّبوني ، واسالكم بحق الله عليكم وحق رسول الله وقرابتي من نبيكم لما سترتم مقامي هذا ، ووصفتم مقالتي ، ودعوتم اجمعين في امصاركم من قبائلكم مَن امنتم من الناس .

إسمعوا مقالتي ، واكتبوا قولي ، ثم ارجعوا إلى امصاركم وقبائلكم ، فمن امنتم من الناس ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون من حقنا فإني اتخوف أن يدرس [٧] هذا الأمر ، ويذهب الحق ويُغلب ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصَّف/٨)

ثم مضى الإمام في الخطبة القوية الهادرة ، يذكّر الجمع بعليٍّ (ع) ، وفي كل مقطوعة يصبر هنيئة فيستشهد الأصحاب والتابعين على ذلك ، وهم لايزيدون على اعترافهم قائلين : اللهم نعم .. اللهم نعم .

حتى ما ترك شيئاً مما انزل الله فيهم من القرآن إلاّ تلاه وفسره ، ولا شيئاً مما قاله الرسول (ص) في ابيه واخيه وامّه ونفسه واهل بيته ، إلاّ رواه ، وفي كل ذلك يقول اصحابه : اللهم نعم . لقد سمعنا وشهدنا ، ويقول التابعي : اللهم قد حدثني به من اصدِّقه وائتمنه من الصحابة [٨] .

اما وقد اشهدوا الله على ذلك قال : " انشدكم الله إلاّ حدثتم به من تثقون به وبدينه ... " .

وكانت هذه خطة مناسبة للحدّ من طغيان معاوية في سب علي (ع) ، بل كانت خطة معاوية لسياسة بني امية قاطبة الذين ارتاوا محو سطور في التاريخ هي اسطع ما فيه واروع ما يحتويه ، الا وهي مآثر اهل بيت الرسالة .

ولم يكتف بنو امية في محوها بالقوة فقط بل لعبت خزينة الدولة دوراً بعيداً في ذلك ايضاً .

فقد كان الحديث يُشترى ويُباع كاي متاع آخر ، وكان المحدِّثون اوسع الناس ثروة او انكاهم نقمة . إن رضوا فلهم كل شيء ، وإن ابوا فعليهم كل شيء .

= ١٥ =

ربما كان معاوية وهو الداهية المعروف ينتظر من الإمام الحسين ذلك الاستنكار البالغ ، بيد أنه لم يكن يفكّر في ان الأمر سوف يدبّر على هذا الشكل المرعب ، وعلى اي حالٍ فقد كان الأمر مرتقباً .

ولكن حدث بعد هذا التظاهر الصارخ امر لم يكن معاوية يحلم به ابداً :

٢- إن عيراً لوالي اليمن كانت محملة بانواع الأمتعة إلى البلاط الملكي لتوزع على اصحاب الضمائر المستاجرة .

ومرّت هذه العير بالمدينة فاستولى عليها الإمام (ع) وامتلكها حقّاً شرعيّاً له ، ليصرفه في مواقعه اللازمة .

---

(٧) يمحى ويضمحل .

(٨) هذه المقطوعة من قول الراوي للحديث .

وكتب إلى معاوية رسالة أرغمت انفه واطارت لبه وهذا نص الرسالة :

" من الحسين بن علي ..

إلى معاوية بن أبي سفيان .

اما بعد فإن عيراً مرّت بنا من اليمن تحمل مالاً وحُللا إليك لتودعها خزائن دمشق ، وتعلّ بها بعد نهل ببني ابيك ، وإني احتجت إليها واخذتها والسلام .. " .

واول ما لفت نظر معاوية من هذه الرسالة تقديم الإمام الحسين (ع) اسمه واسم ابيه على ذكر معاوية ، ثم دعاؤه له باسمه الشخصي دون ان يشفعه بلقب " امير المؤمنين " ويعتبر ذلك – في منطق القرون الأولى – تحدياً بليغاً لسلطة معاوية ، بل يؤكد هذا في ان الكاتب قد خلع عن نفسه الرضوخ لسلطان الدولة الباطلة .

ثم جلب انتباهه موضوع اخذ اليد ، وفيه ابلغ دليل على التمرد على السلطة الحاكمة .

بيد أن معاوية بدهائه عرف ان الظروف لا تقتضي إلاّ الإغماض عن امثال هذه الأعمال ، ولم يكن الإمام (ع) يريد ان يبتدئ بإعلان التمرد المسلح لأنه كان حريصاً على حفظ دماء المسلمين كحرصه على نشر الحقيقة .

فكتب إليه معاوية : في منطق مستعتب وبيّن انه عارف بمكانته ، وجليل شانه ، وانه لايريد ان يمس ساحته بسوء . بيد أن خلفه من بعده سوف يكون له بالمرصاد .

= ١١ =

ومضى الحسين (ع) في توطيد دعائم الحقيقة ، ببث الوعي ، وجمع الأنصار ، ولازالت الأنباء تتوارد على البلاط الملكي بشان الإمام ، وأنه يعد العدة لثورة فاصلة .

بيد أن معاوية كاد يتم الأمر بالخدعة قبل أن يدبر النقمة لعدم مؤاتاة الظروف للساعة المرتقبة ، فكتب رسالة أخرى إلى الإمام يستعتب ويؤنب ، ويذكّر بالصلات الودية بينه وبين الإمام (ع) .

ولكن الإمام الحسين (ع) كان يعلم بالفجائع التي كانت تنقضّ على رؤوس الشيعة من محبي آل الرسول في كل بلد .

٣– فكتب إليه برسالة أخرى يسرد فيها اعماله واحداً تلو الآخر .

" .. أما بعد فقد بلغني كتاب تذكر فيه انه انتهت إليك عني امور انت لي عنها راغب ، وانا بغيرها عنك جدير ، وان الحسنات لايهدي لها ولا يسدد إليها إلاّ الله تعالى .

وأما ما ذكرت انه رقى إليك عني ، فإنه إنما رقّاه إليك الملاّقون المشّاؤون بالنميمة المفرّقون بين الجمع ، وكذب المعادون ، ما اردت حرباً ولا عليك خلافاً .

واني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن الإعذار فيه إليك ، وإلى اوليائك القاسطين الملحدين – حزب الظلمة – واولياء الشياطين .

الست القاتل حجْر بن عدي اخا كندة واصحابه المصلّين العابدين ، كانوا ينكرون ويستفضعون البدع ، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما اعطيتهم الايمان المغلظة والمواثيق المؤكدة جراة على الله واستخفافاً بعهده .

اولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي ابلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه ، فقتلته بعد ما امنته واعطيته من العهود ما لو فهمه الموصم لزلت قدمُه من رؤوس الجبال ؟

اولست بمدّعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف فزعمت أنه ابن أبيك وقد قال رسول الله (ص) : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، فتركت سنّة رسول الله (ص) تعمداً ، وتبعت هواك بغير هدىً من الله . ثم سلطته على اهل الإسلام يقتلهم ، ويقطع ايديهم وارجلهم ، ويسمّل اعينهم ويصلبهم في جذوع النخل ، كانك لست من هذه الأمة ، وليسو منك ؟.

اولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد انه على دين علي صلوات الله عليه ، فكتبت إليه : ان اقتلْ كلّ من كان على دين عليٍّ ، فقتلهم ومثّل بهم ؟.. " .

إلى آخر الكتاب الذي كان سوط عذاب يُلهب متن معاوية ومن دار في فلكه من المنحرفين .

- ١٢ -

وهكذا عاش الإمام (ع) الصوت الوحيد الذي غدا يرعد امام كل بدعة ، والسوط الفارع الذي بات يسوّي كل تخلف او تطرف في المجتمع ، فلطالما حرض ذوي الفكر والجاه ، واثارهم على حكومة الضالين ، بيد أنهم فضلوا مصالح انفسهم على مصالح الدين ، ولم يحفظوا ذممهم ، في حين راحت ذمة الإسلام ضحية كل فاجر .

ولطالما خاطر الإمام الحسين (ع) بوقوفه أمام اعتداءات بني امية على مصلحة الأمة الإسلامية ، وعلى مقدسات الدين ونواميسه .

والواقع اننا لو اردنا ان نتصور الوضع الديني في عصر الإمام خالياً عنه وعن جهاده ، لكنّا نراه أحلك عصر مرّ به المسلمون ، واقساه واعنفه . ولو كنّا نتصور الإسلام وقد مرّ به ذلك العصر بدون ابي عبد الله (ع) لكنّا نراه اضعف دين واقربه إلى الإنحراف .

فلم يكن هناك من قوة تستطيع الوقوف امام المد الأموي الأسود ، إلاّ شخص ابي عبد الله (ع) ومن دار في افقه من الأنصار والمهاجرين ، لأن الحروب التي سبقت عصر الإمام اعلنت عن تجارب سيئة جداً ، واختبارات فظيعة لقوى الخير في المسلمين ، وما كان من شتيتها موجوداً لفته زوابع الترهيب ، واعاصير الترغيب ، فراحت مع التي راحت اولاً .

وبقي المحامي والنصير الأول والأخير للإسلام ، وهو الإمام الحسين (ع) الذي استطاع بسداد رأيه ، ومضاء عزمه ، وسبق قدمه ، وسمو حسبه ونسبه ، وما كان له من مؤهلات ورثها من جده رسول الله

وأبيه علي أمير المؤمنين صلوات الله عليهما استطاع بكل ذلك أن يشكل جبهة قوية نسبياً أمام الطغيان الأموي الوسيع .

وكان ذلك شانه في عصري معاوية ويزيد .

وها نحن قد استعرضنا جانباً موجزاً من عصر معاوية ، وسوف أستعرض شيئاً قليلاً عن عصر يزيد ، في الفصل الأخير ، وسوف لا نذهب في سرد القضايا تفصيلاً ، بل نجعلها موجزةً لسببين :

أولاً : اشتهار نهضته العظيمة في عهد يزيد حتى كاد يعيها كل شيعي مؤمن .

وثانيا : لأن ذلك يحتاج إلى موسوعة علمية كبيرة تحلل القضايا السياسية والدينية التي رافقت نهضة الحسين (ع) ليظفر من ذلك بأروع أمثلة الجهاد وأرفعها .

وهكذا يحق لنا أن ندع البحث أبتراً ، لندخل بحوثاً أخرى ، نتكلم فيها حول السمات الشخصية لسيد الشهداء الحسين (ع) ، تاركين جانب الدين والسياسة لمجال أفسح ، وفي بحث أوسع .

## الفصل الثالث

# الخلـق العظيـم

- ١ -

### الكريـم السخـي :

١- جـاء إلى الإمام الحسين (ع) أعرابي فقال : يابن رسـول اللـه قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن أدائها ، فقلت في نفسي ، أسأل أكرم الناس . وما رأيت أكرم من أهل بيت رسول الله (ص) .

فقال له الحسين (ع) :" يا أخا العرب ، أسألك عن ثلاث مسائل ، فإن أجبت عن واحدة أعطيتك ثلث المال ، وإن أجبت عن اثنين أعطيتك ثلثي المال ، وإن أجبت عن الكل أعطيتك الكل " .

فقال الأعرابي : أمثلك يسأل مثلي ، وأنت من أهل العلم والشرف !؟

فقال الحسين (ع) : " بلى ، سمعت جدي رسول الله (ص) يقول : المعروف بقدر المعرفة " .

فقال الأعرابي : سل عما بدا لك ، فإن أجبت وإلّا تعلمت منك ، ولا قوة إلّا بالله .

فقال الحسين (ع) : " أي الأعمال أفضل ؟ " .

فقال الأعرابي : الإيمان بالله .

فقال الحسين (ع) : " فما النجاة من الهلكة ؟ " .

فقال الأعرابي : الثقة بالله .

فقال الحسين (ع) : " فما يزين الرجل ؟ " .

فقال الأعرابي : علم معه حلم .

فقال (ع) : " فإن أخطاه ذلك ؟ " .

فقال : مالٌ معه مروءة .

قال : " فإن أخطاه ذلك ؟ " .

فقال : فقرٌ معه صبر .

فقال الحسين (ع) : " فإن أخطاه ذلك ؟ " .

فقال الأعرابي : فصاعقة تنزل من السماء فتحرقه فإنه أهل لذلك .

فضحك الحسين (ع) وأعطاه صرّة فيها ألف دينار ، وأعطاه خاتمه ، وفيه فص قيمته مئتا درهم ، وقال : " يا أعرابي ! أعط الذهب إلى غرمائك ، واصرف الخاتم في نفقتك " .

فاخذ الأعرابي ذلك وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته [9] .

٢- قال انس بن مالك :

كنت عند الحسين (ع) ، فدخلت عليه جارية فحيَّته بطاقة ريحان فقال لها : " انت حرة لوجه الله " .

فقلت تحييك بطاقة ريحان لا خطر لها فتعتقها ؟!

قال : " كذا أدَّبنا الله ، قال : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء/٨٦) وكان احسن منها عتقها " [10] .

٣- وجاء إليه اعرابي – فانشده مقطوعة شعرية بيَّن بها حاجته فقال :

| | |
|---|---|
| لم يَخِب الآنَ مَن رَجاك ومَن | حرَّك من دون بابك الحلقه |
| انت جوادٌ ، و انت معتمدٌ | ابوك قد كان قاتل الفسقه |
| لولا الذي كان من أوائلكم | كانت علينا الجحيم منطبقه |

وكان الحسين يصلي آنذاك فلما فرغ من صلاته ، لف على طرف رداء له اربعة آلاف دينار ذهب ، وناوله قائلاً :

| | |
|---|---|
| خذها فإني إليك معتذرٌ | و اعلمْ باني عليك ذو شفقه |
| لو كان في سيرنا الغداة عصاً | كانت سمانا عليك مندفقه |
| لكنَّ ريب الزمان ذو غِيَرٍ | و الكفُّ مني قليلةُ النفقه |

فاخذ الأعرابي يبكي شوقا ، ثم تصعدت من اعماقه آهات حارة ، وقال : كيف تبلى هذه الأيدي الكريمة ؟.. [11] .

– ٢ –

## عون الضعفاء :

وهذه صفة تأتي كالفرع الذي سبقها من سجية الكرم ، فإن النفس إذا بلغت رفعتها المأمولة حنَّت على الآخرين حنان السحابة على الأرض والشمس على الكواكب .

١- وُجد على كاهله الشريف بعد وقعة الطف اثراً بليغاً كأنه من جرح عدة صوارم متقاربة ، وحيث عرف الشاهدون انه ليس من اثر جرح عاديّ ، سألوا علي بن الحسين (ع) عن ذلك ؟ فقال : " هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين " [12] .

---

(٩) أعيان الشيعة : ( ٤ – ٢٩ ) للسيد محسن الأمين .

(١٠) أبو الشهداء – عباس محمود العقاد .

(١١) المعصوم الخامس – جواد فاضل . وفي المناقب : ( ج ٤ ، ص ٦٦ ) .

(١٢) أعيان الشعية : ( ٤ – ١٣٢ ) السيد محسن الأمين .

٢- ويذكر بهذه المناسبة أيضاً أن مالاً وزّعه معاوية بين الزعماء والوجهاء ، فلما فصلت الحمالون تذاكر الجالسون بحضرة معاوية أمر هؤلاء المرسل إليهم الأموال حتى انتهى الحديث إلى الحسين (ع) .

فقال معاوية : وأما الحسين فيبدأ بأيتام مَن قُتل مع ابيه بصفّين ، فإن بقي شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن [١٣] .

ومعاوية كان من الدّ أعداء الحسين (ع) ولكنه يضطر الآن إلى أن يعترف بكرمه وسخائه ، حيث لايجد دون ذلك مهرباً .

وإلى هذا المدى البعيد يبلغ الحسين (ع) في الكرم ، حتى لَيقف عدوّه الكذاب الذي لم يترك أحدا من الزعماء الأبرياء ، إلاّ وكاد له بتهمةٍ ، ووصمه بها وصمة .. حتى أن علياً سيد الصالحين ، والحسن الزكي الأمين ، فإن معاوية هذا يقف على منبرٍ يشيد بهما وبسجاياهما المباركة .

٣- وقال (ع) يرغب الناس في الجود :

| | |
|---|---|
| إذا جـــــادت الدنيـــا عليــــك فجُدْ بهـا | علـى النـــاس طـراً ، قبـل أن تتفلــتِ |
| فـمـــا الـجــــود يـفـنـيه إذا هــــي أقبلـت | و ما البخـل يبقيهـــا إذا هــــي ولـــتِ |

وفعلاً كان الحسين (ع) العامل قبل أن يكون القائل ، وسأتلو عليكم هذه القصة .

٤- دخـل (ع) على أسامة بن زيد وهـو على فراش المـرض يقول : واغمّاه ، فقـال : " ومـا غمّك يا أخـي ؟ " قال : دَيني وهـو ستون ألـف درهـم . فقـال : " هـو عَلَـيّ " قـال : إني أخشى أن أموت قبل أن يُقضى ، قال : " لن تموت حتى أقضيها عنك ، فقضاها قبل موته " [١٤] .

-٣-

## الشجاع والبطل :

نعتقد نحن الشيعة أن الأئمة الأثنى عشر قد بلغوا القمة من كل كمال ، ولـم يَدعو مجالاً للسمو إلاّ ولجوه فكانوا السابقين . بيد أن الظروف التي مرّوا بها كانت تختلف في إنجاز مؤهلاتهم بقدرها ، وطبقاً لهذه الفلسفة فإن كل واحد منهم اختص بصفة مميّزة بين الأخرين . وإن ميزة الإمام الحسين (ع) هي الشجاعة والبطولة بين سائر الأئمة (ع) .

وكلما تصور الإنسان واقعة كربلاء ذات المشاهد الرهيبة ، التي امتزج فيها الدمع بالدم ، ويلتقي بها الصبر بالمروءة ، والمواساة بالفداء ، لاحت بسالة أبرز أبطالها الإمام الحسين (ع) ، في أروع وأبهى ما تكون بطولة في التاريخ . ولولا ما نعرفه في ذات الإمام من كفاءاته البطولية التي ورثها ساعداً عن ساعد، وفؤاداً عن فؤاد ، ولولا الوثائق التاريخية التي لايخالجها الشك ، ولولا ما نعتقده من أن القدوة الروحية لابد أن تكون آية الخلق ومعجزة الإله فلربما شككنا في كثير من الحقائق الثابتة التي يذهل دونها العقل ،

---

(١٣) أبو الشهداء - عباس محمود العقاد .

(١٤) أعيان الشيعة : ( ٤ - ١٢٦ ) السيد محسن الأمين .

والفكر ، والضمير .

كان الإمام الحسين (ع) يوم الطف ينزل إلى المعركة في كل مناسبة فيكشف أسراف الخيل ، لتفصح عن جثمان صحابي أو هاشمي يريد بلوغ مصرعه .

ولربما احتدم النزاع عنيداً شديداً بينه وبينهم وهو يحاول بلوغ مصرع من بريده . فكانت تعد كل محاولة له من هذا النوع هجمة فريدة ، ومع ذلك كان يكرر ذلك كل ساعة حتى قُتل أصحابه ، وأبناؤه ، وإخوانه جميعاً .

والمصيبة ذاتها كانت مما يُنيل من قوة الإنسان ، كما تفُلّ من عزيمته ، والعطش والجوع يضعفان المرء ، ويذهبان بكل طاقاته ، والحر سبب آخر يأخذ جهداً من المرء كثيراً .

ويجتمع كل ذلك في شخص الحسين (ع) يوم عاشوراء ، ومع ذلك فإنه يلبس درعاً منصفاً ، ذو واجهة أمامية فقط ، ويهجم على الجيش الضاري ، فإذا به كالصاعقة تنقض فيتساقط على جانبيه الأبطال كما تتساقط أوراق الشجر في فصل الخريف .

فيقول بعض من حضر المشهد : إنه ما رأيت أشجع منه ، إذ يكر على الجيش ، فيفر أمامه فرار المعزى عن الأسد ، وذلك في حين أنه لم يكن آنذاك أفصح منه إنساناً .

وحينما نرجع بالتاريخ إلى الوراء نجد من الإمام الحسين (ع) بطولات نادرة في الفتوحات الإسلامية . ثم في حروب الإمام ( علي عليه السلام ) . إلاّ أنها مهما بلغت من القوة والاصالة فإنها لاتبلغ شجاعته يوم عاشوراء ، تلك التي كانت آية رائعة في تاريخ الإنسانية بلا شك .

يقول العقاد : وليس في بني الإنسان من هو أشجع قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم عاشوراء [١٥] .

## الزاهد العابد :

كان الحسين (ع) يحج كل سنة ، إلاّ إذا حالت دون ذلك الظروف . وكان يمشي على قدميه إذا حج ، وتقاد بجانبيه عشرات الإبل بغير راكب ، فيتفقد كل مسكين فقير ، صفرت يداه عن تهيئة راحلة للحج ، فيسوق إليه الراحلة من الإبل التي معه .

وكان يصلي كل ليلة ألف ركعة ، حتى سئل نجله الإمام زين العابدين (ع) : ما بال أبيك قليل الأولاد ؟ . فأجاب : " إنه كان يصلي في كل ليلة ألف ركعة ، فمتى يحرث " .

## الصابر الحكيم :

١- الصبر هو استطاعة الفرد على ضبط أعصابه في أحرج موقف . ولا ريب أن الإمام الحسين (ع)

---

(١٥) أبو الشهداء – عباس محمود العقاد : ( ص ٤٦ ) .

كان يوم عاشوراء في احرج موقف وقفه إنسان امام اعنف قوة ، واقسى حالة .

ومع ذلك فقد صبر صبراً تعجَّبت ملائكة السماء من طول استقامته ، وقوة إرادته ، ومضاء عزيمته ..

٢- جنى عليه غلام جناية توجب العقاب ، فامر به ان يُضرب ، فقال ، يا مولاي : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال ، " خلُّوا عنه " فقال ، يا مولاي : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال ، " قد عفوت عنك " قال ، يا مولاي ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال ، " انت حر لوجه الله ، ولك ضعف ما كنت اعطيك " [١٦] .

-٦-

## الفصيح البديه :

لقد زخرت الكتب التاريخية بنوادره الرائعة من كلمات فصيحة يحسدها الدر في المع نضارته ، وآلق روعته . وقد جُمع ذلك في كتب براسها ، إلاّ اني ذاكر لك الآن شيئاً قليلاً منها .

١- ابعد عثمانُ الصحابيَّ الكبيرَ ابا ذر ( رض ) ، فشيَّعه عليٌّ وابناه (ع) ، فقال الإمام الحسين بالمناسبة ،

" يا عمَّاه ، إن الله قادر ان يغير ما قد ترى . والله كل يوم في شان . وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما اغناك عمّا منعوك ، واحوجهم إلى ما منعتهم . فاسال الله الصبر والنصر ، واستعن به من الجشع والجزع ، فإن الصبر من الدِّين والكرم ، وإن الجشع لايقدم رزقاً ، والجزع لايؤخر اجلاً " [١٧] .

٢- جاء إليه اعرابي فقال ، إني جئتك من الهرقل والجعلل والأنيم والمهمم . فتبسم الحسين (ع) وقال ، " يا اعرابي لقد تكلمت بكلام ما يعقله إلاّ العالمون " .

فقال الأعرابي ، واقول اكثر من هذا ، فهل انت مجيبي على قدر كلامي ؟ فاذن له الحسين (ع) في ذلك فانشد يقول ،

هفا قلبي إلى اللهو وقد ودع شرخيه

إلى تسعة ابيات على هذا الوزن .

فاجابه الحسين (ع) مثلها متشابهات منها ،

فما رسم شيطاني قد تحت ابيات رسمَيه

سفور درَّجت ذيلين في بوغاء فاعيه

هتوف حرجفٌ تترى على تلبيد توبيه

ثم اخذ يفسر ما غمض من كلامه فقال ،

" اما هرقل ، فهو ملك الروم ، والجعلل ، فهو قصار النخل ، والأنيم ، بعوض النبات ، والمهمم ،

---

(١٦) الفصول المهمة : ( ص ١٥٩ ) .

(١٧) روضة الكافي : ( ص ٢٠٧ ) .

القليب الغزير الماء " .

وهذه كانت أوصاف الأرض التي جاء منها .

فقال الأعرابي : ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاماً ، وأذرب لساناً ، ولا أفصح منه منطقاً [18] .

ومن روائعه المأثور قوله : " شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء ، والقسوة على الضعفاء ، والبخل عن الإعطاء " [19] .

ومن حكمه البديعة : " لا تتكلف مالا تطيق ، ولا تتعرض لما لا تُدرك ، ولا تعتدّ بما لا تقدر عليه ، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد ، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت ، ولا تفرح إلاّ بما نلت من طاعة الله ، ولا تتناول إلاّ ما رأيت نفسك له أهلاً " [20] .

ومن بديع كلامه لما سئل : ما الفضل ؟ قال : " ملك اللسان ، وبذل الإحسان " . قيل : فما النقص ؟ قال : " التكلف لما لايعنيك " .

---

(١٨) أبـو الشهداء – عباس محمود العقاد ، نقلاً عن كتاب مطالب المسؤول لمحمد بن طلحة الشافعي : ( ص ٧٣ ) .

(١٩) بلاغة الإمام الحسين : ( ص ١٢٨ ) .

(٢٠) بلاغة الإمام الحسين : ( ص ١٥٤ ) .

## الفصل الرابع

# نهضتــه

-١-

### علــى الطريــق :

اولاً : لم تكن الخلافة في المفهوم الإسلامي حقاً يورث . ولكنّ السلطة التي استبدت بالحكم في عصر عثمان ارادت ان تجعلها كذلك . ففي المحفل الحاشد الذي ضم كثيراً من المسلمين بينهم عثمان والإمام علي (ع) ، جاء ابو سفيان شيخ بني امية والوجيه لديهم ، وهم الحزب الحاكم على الأوساط السياسية في البلاد الإسلامية — ذلك اليوم — جاء يتفقد طريقه بعَصاً يحملها وقد كُف بصره .

وكان آنذاك قد شعر بانتهاء دوره في الحياة واقتراب منيّته ، فسال احد الجالسين هل في الحفل مَن يُخشى منه من غير بني امية .

قال له رجل : ليس ههنا رجل غريب .

فقال : تلقفوها — اي السلطة — تلقّفَ الكرة ، فوالذي يحلف به ابو سفيان لا جنّة ولا نار !.

فاصاخ إليه كل سمع كان في بني امية ، ووعى نصيحته بكل التفات ، ولم يعترض عليه يومئذ سوى امير المؤمنين علي (ع) ، إذ وبّخه على إعلانه الكفر ، وأنّبه فاعتذر قائلاً : لقد كنت مغروراً بهذا الرجل الذي نفى وجودَ ايِّ غريب في المجلس ، وإلاّ لم يكن من الحزم ان أصارح مثلك بهذا .

وانتهى الحفل ، وتفرق الجمع ، إلاّ انه كان ذا تاثير كبير في تسيير الأوضاع السياسية لمستقبل المسلمين .

اجل قد افصح قول ابي سفيان عن خطة له مدروسة ساعده على تنفيذها الحزب الأموي :

اولاً : ومَن ابتغى السلطة ، بل ومن ابتغى تقويض الأسس الإسلامية لأضغان قديمة ، واحقاد متراكمة .

ثانياً : تلك هي رغبة السيطرة على الحكم ، ثم يَسهل عليهم كلّ ما يشاؤون .

وابو سفيان — وهم معه — كانوا يستسهلون كل صعب ، ويستحسنون كل قبيح في سبيل ذلك ، ماداموا لايعتقدون بجنة او نار ، ولا يؤمنون بنبي او وصي ، ولا يبالون لاي مقدّس يُدحض ، واي شرف يُدنس ، ولية سمعة تُساء ، فإن امامهم غاية يبررون في سبيل الوصول إليها كل واسطة ، بل يعتبرون كل واسطة تؤدي إليها امراً مقدَّساً ومحرماً . تماماً كالفكرة الجاهلية التي تمكنت من ادمغتهم البالية .

وحينما نجري مع الأحداث التي مرت بالعالم الإسلامي من أواخر عهد عثمان حتى قيام الدولة العباسية نجد أوفق التفاسير لها هذا الذي قدمناه لك الآن من كلام ابي سفيان ، واعتقاده ومن تابعه .

فالحروب التي رافقت عصر الإمام علي (ع) ، والحرمات التي هُتكت في عصر معاوية ، والغارات التي شُنت في عهد يزيد ، والمعارك التي شبت وأضرمت في عهد سائر الخلفاء الأمويين ... كانت جميعاً جارية على هذا المبدأ ، ومنفذة لهذه الخطة المدروسة .

فالحزب الأموي لم يفكر إلاّ في ابتزاز الأموال ، وتشكيل السلطان ، واستعباد الخلق بكل وسيلة . ومن اراد تفكيك الأحداث السياسية في هذه الحقبة الطويلة عن هذه الحقيقة الصريحة فقد أراد تفكيك المعلول عن علته ، والمسبب عن سببه .

= ٢ =

## الحق الموروث :

وهكذا فإن الحزب الأموي شاء ان يجعل الخلافة حقّاً شخصياً وموروثاً منذ استبد بالحكم في عهد عثمان . إلاّ أن المسلمين ادركوا ذلك بوعيهم . وبتنبُّه كبار صحابة رسول الله (ص) ، امثال ابي ذر الغفاري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي فاشعلوها ثورة اطاحت بآمال بني امية ، ونسفت احلامهم وما بنوا عليها من صروح خيالية .

بيد أنهم دبروا الأمر بشكل آخر كما يعرفه الجميع ، حيث طالبوا بدم عثمان . وهذه اول آية تدل على أنهم اعتبروا أنفسهم وارثين الخلافة بعد عثمان . وإلاّ فما كان يمكنهم ان يطالبوا بذلك بعد ان يضموا صوتهم إلى سائر اصوات المسلمين ، ويبايعوا عليّاً (ع) ، لا بل إنهم يريدونها كسروية وقيصرية يرثها الحفيد ، وتُبرم باسم الوليد وهو رضيع .

فما أغنى معاوية عن هذا الذي لج فيه وتهالك عليه .

لقد رفع في الشام قميص عثمان حيث حشد تحته خمسين الف مقاتل خاضبي لحاهم بدموع اعينهم ، ورافعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله الا يُغمدوا سيوفهم حتى يقتلوا قتلة عثمان ، او تلحق ارواحهم بالله .

هل كان نهج معاوية هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القتلة ؟

أكان طريق القصاص ان يمتنع من البيعة للخليفة الجديد الذي اختاره المهاجرون والأنصار في المدينة ، ثم دخل المسلمون في بيعته أفواجاً من كل الأمصار والأقطار .

أكان طريق الثار لعثمان ان يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة في تلك الظروف المزلزلة التي لا تتطلب شيئاً كما تتطلب راب الصدع وجمع الكلمة .

أكانت آية ولائه وحبه لعثمان ان يجعل من " قميصه " المضمخ بدمه رايةً يبعث تحتها كل غرائز

الجاهلية ، ويدير تحتها أتعس حرب أهلية تزلزل الإسلام وتفني المسلمين [21] .

لم يكن الهدف الثار لعثمان . وإلاّ فما حداه إلى أن يكتب إلى كلٍ من طلحة والزبير يدعو كلاً منهما بإمرة المؤمنين ، ويدَّعي انهما احق بها من علي (ع) وأنه من ورائهما ظهير ، قد اتخذ لهما البيعة من اهل الشام سلفاً .

وإنما كان هدفه أن يثير استفزازاً في العالم الإسلامي المتوتر ، ويخرج من وراء ذلك بما يريد من الظفر بالسلطة المامولة ، والحزب الأموي من وراء القصد .

ولنترك هذا المشهد إلى مشهد آخر . فحينما نجحت مؤامرة معاوية وساعدته الأقدار على ابتزاز السلطة من يد أهلها ، وهيات له كل اهدافه وحققت له جميع شهواته ، فما الذي حداه إذاً إلى استخلاف يزيد هذا السكّير المقامر من بعده .

لا نستطيع تفسيراً لذلك إلاّ ما قد سبق من أن القضية كانت اعمق مما نخاله . فإنها ليست قضية استخلاف والد ولده فقط، بل هي تحويل الخلافة إلى مُلك اموي عضوض . صرح به مروان بن الحكم في عهد عثمان إذ قال للناس المحتشدين حول البلاط يطالبون بحقوقهم الشرعية ، ما تريدون من مُلكنا .

إذاً هو مُلك لكم تريدون الإبقاء عليه بما أُوتيتم من قوة وسلطان .. وراحت الأحداث تباعاً كلها تؤكد هذا التفسير حتى جاء احد الموالين لبني أمية فصعد المنبر في حشد يضم زعماء المسلمين ذلك اليوم ، ومعاوية متصدر وإلى جنبه يزيد .

فنظر إلى معاوية ، ثم إلى يزيد ثم هز سيفه قائلاً ،

امير المؤمنين هذا ( معاوية ) .

فإن مات فهذا ( يزيد ) .

وإلاّ .. فهذا .. وهز السيف !!! فتقبل الناس خوفاً من آخر الثلاثة .

ومات معاوية ، وكتب يزيد إلى الولاة باخذ البيعة له . وجاء كتابه إلى المدينة . وطلب حاكم المدينة من الحسين (ع) البيعة ليزيد ، فابى . وكان من الطبيعي ان يابى .

ثم حشد الحسين (ع) اهله ، واصحابه ، وسار إلى مكة لإعلان ثورته ، لا على يزيد فقط بل على الحزب الأموي ، وعلى التوتر الذي يسود العالم الإسلامي ايضاً . ولا شك انه سوف يربح القضية .

وبقي (ع) في مكة المكرمة اياماً ، يعرف الناس مكانته السامية من الرسول (ص) وسابقته الناصحة للرسالة ، وقدمه الأدسيل في قضايا المسلمين .

وارسل يزيد إلى اعتباله مئة مسلح .. فعرف الحسين (ع) ذلك ، فتنكّب الطريق ، وقصد الخروج إلى الكوفة .

---

(٢١) خالد محمد خالد عن كتابه في رحاب علي ( ص ١٦٢ ١٦٣ )

لماذا ؟ لأسباب نوجزها فيما يلي :

١- لأنه إما أن يعلن الحرب على بني أمية وانصارهم في مكة ، وهو لا يريد ذلك لأنه يخالف قداسة البيت وحرمته أولاً ، ولأنه إن ربحها لم يفد شيئاً ، لأن من ورائه دولة مسلحة منتشرة قواها في كل مكان، في حين أن مكة تكفيها سرية تتجه من المدينة ، حيث لاتزال حكومة الأمويين متمكنة هناك . فتطحنها طحناً ، بينما الكوفة هي الآن أعظم قوة إسلامية على الإطلاق .

أضف إلى ذلك أن هناك من أُجراء بني أمية كثيرون يلفقون عليه من الروايات ماهو بريء منها ، كما فعلوا بالنسبة إلى أمير المؤمنين علي (ع) .

والحسين (ع) لا يهمه شيء كما يهمه معرفة الناس أنه على حق ، وأن مناوئيه على باطل ، حتى يُتبع نهج الحق الذي يمثله ، ويترك نهج الباطل الذي يمثلونه .

ولو أعلنها حرباً عليهم لكانت النتيجة أن يقتل بسيف هؤلاء الوافدين من قبل السلطة وتحت البستهم أسلحة الإجرام .

٢- وفي مكة ابن الزبير وهو يزعم بأنه أحق بالأمر من الحسين (ع) ولا يهمه أن يتحد مع يزيد الذي يدعي الآن أنه من مناوئيه في سبيل القضاء على الحسين ، كما صنع ذلك أبوه في معركة البصرة ، حيث اصطف بجانب مناوئي علي (ع) ليحظى بالخلافة دون الإمام .

٣- والإمام الحسين (ع) لم يكن يريد أن يشتغل به ، وهناك القضية الكبرى حيث تحولت الخلافة في الشام إلى مُلك عضوض . وهذا انحراف يُجري الخلافة من حقٍ إلى باطل ، والأولى أشد وأمر من الثانية قطعاً .

٤- إن مجرد سفره إلى العراق في حين يتقاطر الناس إلى مكة من كل حدب وصوب - يوم الثامن من ذي الحجة الحرام - إعلان كافٍ لهم عن هدفه ، بل هو وحده كافٍ لتنبيه أهل الأمصار والأقطار النائية بما يحدث في العاصمة من حقيقة أمر الخلافة .

ثم سار بموكبه الحافل يقصد الكوفة ، وقد أعلنت متابعة الإمام (ع) وأعطت البيعة له ، وتواعدت على الحرب معه ، كما كانت تحارب مع أبيه أهل الشام .

ومسلم بن عقيل ابن عمه والٍ عليهم ، نافذ الكلمة ، مطاعٌ أمين .

ثم اختلفت الرياح السود على الأوساط ، وكما يبين الإمام (ع) نفسُه ، خذلته شيعته وأنصاره ، ونقضوا بيعته ، وتلاشت قواه تحت ترهيب قوة الشام وترغيبها .

وهناك سبب آخر غيّر مجرى التاريخ ، وهو التزام أنصار الحسين بالحق حتى في أشد الظروف وأعتاها. فهذا في جانب ، وفي جانب آخر عدم ارتداع أهل الشام عن أي جريمة ، وأي اغتيال وخدعة .

وهنا أنقل لكم قصتين فقط ، ثم آتي بنظرتين لهما ، حتى نعرف بالمجموع اختلاف السير والاتجاه بين الحسين (ع) وبين يزيد وأنصارهما .

كان مسلم بن عقيل الحاكم على الكوفة مطلق اليد . وكان عبيد الله بن زياد قد جاء إليها ليرجعها لبني امية ، ويرضي رجل من زعماء الشيعة يدعى هاني بن عروة . فعاده ابن زياد عله يستطيع أن يريحه .

وكان مسلم حاضراً فامره هاني أن يختفي في مخدع ، فإذا جاء ابن زياد ، والي يزيد وزعيم المعارضة الأموية في الكوفة ، ضرب عنقه وتخلص من شره وشر يزيد من بعده .

وجاء ابن زياد ، وانتظر هاني خروج مسلم ساعة بعد ساعة تستطيل دقائقها ان لا يفوته الوقت .

ومع ذلك فلم يوافِ مسلم على الوعد ، فاخذ ينشد اشعاراً يحرضه بتلميح على قتل ابن زياد ، فاحس ابن زياد بالسر وخرج هارباً .

فلما جاء مسلم ، وبّخه هاني على استمهاله فقال :

قال رسول الله (ص) : " المسلم لايغدر " .

فقول رسول الله هو الميزان ، وهو المقياس الأول والأخير للحركة في منطق انصار الحسين (ع) ، لأنهم لايهدفون إلى غاية سوى بلوغ مرضاة الله تعالى ، ولن تُبلغ مرضاته بمعصيته ، ولا يطاع الله من حيث يعصى .

-٣-

وانقلبت الأمور .. وقتل مسلم .. وجيء بخبر شهادته إلى الحسين (ع) وهو في طريقه إلى الكوفة ، في منزل يدعى بـ " زبالة " .

وهو إذ ذاك احوج ما يكون إلى انصار يؤيّدونه وينصرونه ، لأن امامه الكوفة المخلوعة المغلوبة على امرها ، ووراءه مكة المحتشدة فيها قوى مناوئيه من انصار بني امية وغيرهم .

ومعه الآن زهاء الف من الأنصار ، أشد ما يكون احتياجاً إلى الإبقاء عليهم بكل وسيلة .

لكنه ابى إلاّ ان يصارحهم بالموضوع ، ويبين لهم سقوط حكومته في الكوفة ، وحرج موقفه ، ويجيز لهم التخلي عنه إن شاؤوا .

استمعوا إلى خطبته حينما سمع بسقوط الكوفة في أيدي بني امية :

" أيها الناس : إنما جمعتكم على أن العراق لي ، وقد اتاني خبر فظيع عن ابن عمي مسلم يدل على أن شيعتنا قد خذلتنا . فمن منكم يصبر على حر السيوف ، وطعن الأسنة فليات معنا ، وإلاّ فلينصرف عنّا "[٢٢] .

إنه لا يبتغي من وراء نهضته سوى الله . وإذاً فليعمل كما يريد الله صريحاً واضحاً فلا يخدع ولا يمكر .

وهنا ندع التاريخ يقص علينا عن انصار يزيد قصتين ايضاً :

---

(٢٢) بلاغة الإمام الحسين - عليه السلام - : ( ص ٦٩ ) .

١– طلب ابنُ زياد الزعيمَ الشيعيَّ الأنف الذكر – هاني بن عروة – ليتفاوض معه في بعض الشؤون . واغتر الرجل وذهب إلى قصر الإمارة ، فلما دخله اخذوه وعذبوه ثم قتلوه ، في حين انهم اعطوه الأيمان والمواثيق قبل قدومه القصر بانه لا يمسُّه سوء منهم .

٢– وحشدت شيعة علي (ع) امرها وجاءت تحاصر قصر الإمارة تريد إنقاذ هانيء الذي خدعوه ومكروا به ، ولم يكن – إذ ذاك – على قيد الحياة .

فإذا بانصار بني امية من فوق القصر ، يطمئنون الناس ويهدئونهم بحياة هانيء ، وانه سوف يخرج إليهم بعد إجراء بعض المفاوضات .

ثم راحوا يهددونهم بجيش الشام ، وانه قد اقترب من حدود الكوفة مالهم به قبل ابداً ، ورغّبوهم بالأموال الطائلة التي سوف تهطل عليهم من الخزينة .. فإذا بالناس يتفرقون قليلاً قليلاً حتى سقطت الكوفة في ايدي هؤلاء .. واول ما صنعوه قتل مسلم بعد ما قتلوا هانيء بن عروة غدراً ومكراً .

إن المستفاد من تاريخ النهضة الحسينية ان سبب سقوطها إنما كان هذه القصة بالذات ، التي استقامت على وعود فارغة ، وتهديد ماكر .

ثم حشد ابن زياد بعد استيلائه التام على الكوفة جيشاً باسم محاربة الترك والديلم ، فلما اقتربت قافلة الإمام (ع) من الكوفة وجّهه إليه ليقيّده إليه او إلى الموت . واول سرية لقيت الحسين (ع) من الجيش ، كانت مكونة من الف مقاتل ، وعلى راسها الحر بن يزيد الرياحي . الذي طلب من الإمام (ع) اما البيعة وإما قدوم الكوفة اسيراً .. فابى الإمام (ع) واخذ طريقاً وسطاً بين طريق الكوفة والمدينة . وارسل الحر كتاباً إلى ابن زياد . فاجابه بلزوم محاربته ، وحشد إلى الإمام جيوشاً بلغ عددها اكثر من ثلاثين الف رجل ، فالتقوا على صعيد كربلاء التي تبعد عن بغداد اليوم مئة وخمسة كيلو مترات وعن الكوفة خمسة وسبعين كيلو متراً .

وكان ذلك اليوم عصر التاسع من شهر محرم الحرام ، حيث جاءت رسالة ابن زياد إلى عمر بن سعد قائد جيش بني امية يامره بالحرب بعد منع الماء عن حرم الرسول (ص) .

واستمهلهم الإمام الحسين (ع) سواد الليل ، حتى إذا افصحت ليلة العاشر من المحرم عن صبح كئيب ، زحف الجيش على مخيم ابي عبد الله (ع) وقاوم انصاره – وهم اثنان وسبعون بطلاً من اشدّ ابطال العالم الإسلامي – وصُرعوا واحداً بعد الآخر بعد ما ابلوا بلاءً حسناً .

وقُتل ايضاً إخوة الإمام (ع) وعلى راسهم بطل العلقمي ابو الفضل العباس (ع) واستشهد ابناؤه ، حتى الرضيع في حضن والده ، ولم يبق إلاّ الإمام (ع) فزحف إلى القوم وجاهد جهاداً عظيماً ، وقتل من اهل الكوفة عدداً هائلاً ، ولم تمض إلاّ ساعات حتى اصابه القدر سهمه الغدّار على يد حرملة الكاهلي لعنه الله ، واصابه الكفر برمحه على يد سنان بن انس لعنه الله وسيفه على يد شمر بن ذي الجوشن لعنه الله واعد له جحيماً وعذاباً اليماً ، فصرع شهيداً رشيداً ظامئاً مظلوماً ، فعليه وعلى انصاره الف تحية

وسلام .

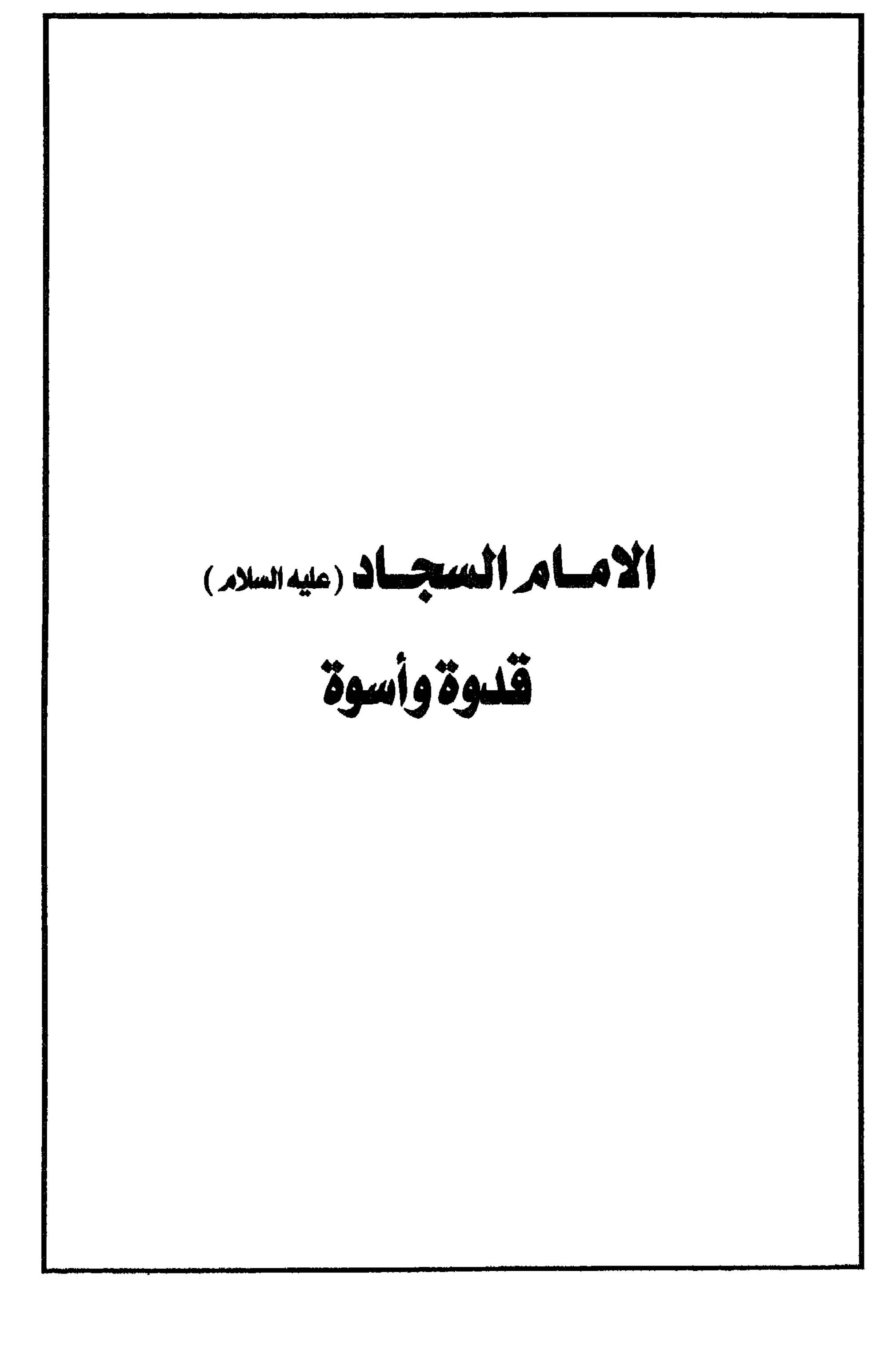
ولما وقعت الواقعة الرهيبة ، وانتهت بمصرع السبط واصحابه الأطهار على ارض كربلاء بابشع إجرام عرفه التاريخ ، دوّى صداها في العالم الإسلامي ، وزلزل عرش بني أمية زلزالاً .

ولم تمض مدة طويلة حتى اندلعت ثورات في كل مكان واستمرت حلقات متصلة ، حتى انتهت بسقوط الدولة الأموية .

وإن كان الأمر لم ينته بسقوط بني أمية تماماً ، حيث انحرفت القيادة الإسلامية أيضاً عن مجراها الصحيح ، إلاّ أن ثورة أبي عبد الله (ع) ونهضته الجبارة كوّنت جبهة قوية متماسكة تقف دون أي انحراف يريده المجرمون للحق ومفاهيمه .

والواقع أننا إذا تابعنا أحداث التاريخ بدقة ، نرى أن كل دعوة صادعة ثارت على الطغيان في قرون متطاولة ، إنما كانت نابعة عن حركة الإمام الحسين (ع) .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن نهضة الحسين (ع) ظلت قاعدة أصيلة للحركات الإصلاحية في التاريخ الإسلامي على طول الخط ، وستظل هكذا إلى الأبد .



# الامـام السجـاد (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

وانا اقرأ حياة الإمام السجاد (ع) ، حاولت ان أرسم في ذهني صورة متكاملة عن شخصيته وما كدت انتهي من ذلك حتى تذكرت آيات الذّكر التي ترسم صورة عباد الله الصالحين .

عندما نتدبر في تلك الآيات ، يوسوس الشيطان في انفسنا . هل إنها تحدِّثنا عن بشر أمثالنا أم عن ملائكة خُلقوا من نور قدرة الله ؟. أم انها روائع أدبية ؟. حاشا لله تعالى ان تكون في كلمات الله ذرة من المبالغة . أوليست المبالغة كذباً ؟. والكذب من الباطل الذي لا ياتي كتاب الله الكريم . ونحن نعرف الحقيقة تماماً حينما نتلو قصص الأنبياء والأئمة وندرك ان تمثيل تلك الصورة المشرقة التي تعكسها الآيات عن حياة عباد الله الأبرار انه حقيقة واقعة ، ونَفهم أننا مدعوُّون لاتّباعهم فيها ..

وبهذا بالذات تكمن حكمة الولاية حيث أمرنا الله ان نبتغي الوسيلة إليه سبحانه عبر ولاية أوليائه . وأن نطلب منه الهدى كما هدى الذين أنعم عليهم ، وأن نركع مع الراكعين . ونكون مع الصادقين ، ونرجو الإلتحاق بركب الصالحين .

إن ولاية أولياء الله تجعلنا نتلمس سيرة حياتهم النيِّرة ، وحين نتعرف عن كثب عليهم نتحصن ضد وساوس الشيطان الذي يوحي إلى أوليائه ان تمثيل صفات القرآن هذه مستحيل ، أو انها إنما ذُكرت تشجيعاً ، أو هي روائع أدبية بليغة .

إن هذا الوسواس أعظم مكائد الشيطان في إغواء البشر عن معارج الكمال الإلهي .. ولا يقضي عليه شيء مثل دراسة حياة الأنبياء والأئمة والصدِّيقين باعتبارهم بشراً امثالنا انعم الله تعالى عليهم ورفعهم إليه مقاماً محموداً .

ومنذ ثلاث وعشرين عاماً انعم الله عليّ بالتاليف عن حياة الأئمة الهداة ، عبر مناسبات نادرة . لذلك لم أُوفق لإكمال سلسلة قدوة واسوة .. حول النبي واهل بيته الكرام صلوات الله عليهم اجمعين .

واليوم حيث وفقني الله سبحانه لكتابة تدبُّراتي في القرآن ، والتي سميتها ( من هدى القرآن ) أعود إلى هذه السلسلة عسى الله تعالى أن يوفقني هذه المرة لإتمامها . ولكن كنت اتساءل : ماذا اسمِّي هذه السلسلة التي بقي منها اربعة اجزاء من اصل اربعة عشر جزءاً . واخيراً وقعت على اسم مناسب وهو : ( النبي وأهل بيته قدوة واسوة ) . وحيث إن القرآن هدى للمتقين ، وحياة الأئمة تمثيل للقرآن فقد جاء الاسم مناسباً لذلك ، كما انه تناغم مع اسم كتابي ( من هدى القرآن ) ولكن ازدادت حيرتي عندما وقفت

على شاطئ بحر زخار ماذا اغترف منه واقدمه للاخوة القرّاء ، وقد كتبت من المذكرات حول حياة الإمام (ع) ما تكفي لكتابة مجلد كبير . بيد أني حكمت على نفسي بالكتابة المختصرة ، وهنا يكمن سبب حيرتي ماذا اختار من حياته التي لا يتسع قلم مثلي لاستيعابها .

وهكذا استميحكم عذراً لو وجدتم قصوراً أو تقصيراً واسعَين في الحديث عن حياته الكريمة ، واعتبروا هذه الدفاتر مدخلاً إلى الكتب المفصلة عن حياته .

وأسأل الله تعالى أن يوفقني لذلك ، وان يحفظ عملي من شوائب الرياء والسمعة والأشر والبطر ، ويتقبله ويحصنه من الإحباط بالعُجب والذنب ، إنه ولي التوفيق .

# الفصل الأول

تتملّكنا الدهشة عندما نستمع إلى الوحي يامرنا بالولاية ، ونتساءل : ما هذا التاكيد المتواصل ، وما هذه التعابير البالغة أمراً وتحريضاً وترغيباً ؟.

يقول الله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء/٥٩) .

وتتكرر اوامر القرآن بالطاعة لأولي الأمر الشرعيين والتسليم لأمرهم ، والنهي عن طاعة الطغاة والجبابرة وضرورة الكفر بهم أكثر من مئة مرة ، بصيغ مختلفة ، وضمن سياقات شتى ، كلها تهدف إلى ترويض النفس البشرية على الطاعة والانضباط ..

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء/٦٥)

وتتواصل آيات الذكر لتؤكد على الرجوع إلى الله ورسوله عشرات المرات وبتعابير شتى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ (النساء/٦٠) .

وهكذا العديد من الآيات تنهى وبشدة بالغة من التحاكم إلى الطاغوت وتامر باجتنابه .

ويقول ربُّنا سبحانه وهو ينهي مئات المرات عن الشرك ويعتبره ظلماً عظيماً لايغفره الله تعالى أبداً ، يقول : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر/٦٥) .

فما هو الشرك ؟ اليس هو عبادة الأصنام ؟ اليس اتخاذ الأرباب من دون الله شركاً ، كما اتخذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان ارباباً ؟..

وهكذا نجد أن الولاية الإلهية محور آيات الذكر وروح توحيد الله تعالى ، والسبيل إلى رضوانه ، والطريق إلى جنّاته .

فلماذا كل ذلك ؟. إن شرح حكمة ذلك يقتضي كتباً مفصلة . ولكننا نختصرها في كلمات نرجو أن يسعفنا فيها تدبُّر القارئ الكريم ، وآفاق ثقافته الإسلامية .

أولاً : امام الإنسان سبيلان : سبيل الله الذي يهديه إلى الجنة والرضوان ، وسبيل الشيطان الذي يحمله إلى سواء الجحيم . ويتجه كل سبيل إلى جهة ، ولكل جهة إمام ، ولكل إمام صفات واسماء ، ولكل امة تابعة صبغةٌ وشرعةٌ ومنهاجٌ !

والصراع الأبدي الذي لا هدنة فيه ولا مداهنة ولا حلول وسط ، انه الصراع بين سبيل الله وسُبُل الشيطان .

وقد قال سبحانه ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة/١٥-١٦) .

وولاية الله سبحانه ، وتولي أوليائه ، واتّباع الإمام المختار من عنده ، والإنخراط في حزب الصالحين ، كلّها بلا ريب الولاية الإلهية . فكيف لا تتواصى بها رسالات الله ورُسله وأوصياؤهم .

ثانياً ، حكمة وجود الإنسان فوق هذا الكوكب ابتلاؤه ليَعلم هل يَصدق أم هو من الكاذبين ؟. هل يُخلص أم يكون من المنافقين ؟. ولا يُبتلى البشر بشيء كما يبتلى باتّباع القيادة الإلهية ورفض جبابرة المال وطغاة السلطة ، أو تدري لماذا ؟

إن في ضمير الإنسان كبراً لابد أن يتغلب عليه حتى يصبح من أهل الجنة . وإن لم يتخلص منه باجتهاده وجهاده في الدنيا ، فإنه سوف يخلص منه بنار الجحيم في الآخرة ، لأنه لايدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر . ومحتوى الكبر النزعة السخيفة نحو ادّعاء الربوبية . ولو تسنى لأي إنسان ما تسنى لفرعون لما امتنع عما قاله ، ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (النازعات/٢٤) .

وإنما يتطهر القلب عن الكبر إذا أُمر بطاعة مَن ليس بأكثر منه مالاً وولداً . إطاعته بسبب أمر الله . وهكذا كانت الفتنة الكبرى للناس عند ابتعاث الرسل ، إذ كيف يطيعون بشراً من أمثالهم ؟. وقد حكى الله تعالى عنهم بقوله ، ﴿ أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر/٢٤) .

ويتساءل البسطاء ، لماذا امتحن الله تعالى خلقه بطاعة الأنبياء وطاعة أوصيائهم ، وقد اختارهم من أوساط الناس ؟. ويمضي المتسائل قائلاً ، أولم يكن من الأفضل أن يزوّدهم الله سبحانه بقوى خارقة وبأموال وبنين حتى تسهل طاعة الناس لهم ؟

كلا .. لأنه عندئذ كانت تبطل حكمة الإبتلاء ، ولم تكن تصبح طاعتهم تطهيراً للنفوس من الكبر ، وبالتالي لم يكن المطيعون لهم يزكّون بذلك إعداداً لدخول الجنة التي هي مأوى عباد الله الخالصين من دنس الشّرك والكبر .

وهكذا يبين هذه الحكمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إذ يقول ، " ولو أراد الله أنْ يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه ، ويبهر العقول رداؤه ، وطيب يأخذ الأنفاس عَرفُه لفَعل . ولو فعل لظلّت له الأعناق خاضعة ، ولخفّت البلوى فيه على الملائكة ، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله ، تمييزاً بالاختبار لهم ، ونفياً للإستكبار عنهم ، وإبعاداً للخيلاء منهم "[1] .

---

(١) نهج البلاغة ( المعجم المفهرس ص ٦٨ ) .

ويضيف الإمام (ع) في ذات السياق قائلاً :

" ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه – حيث بعثهم – أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العُقيان ، ومغارس الجنان ، وأنْ يحشر معهم طيور السماء ، ووحوش الارض لَفعل . ولو فعل لَسقط البلاء ، وبطل الجزاء ، واضمحلت الأنباء ، ولَما وجب للقابلين أجور المبتلين ، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ، ولا لزمت الأسماء معانيها . ولكن الله سبحانه جعل رُسله أولي قوة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم ، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً ، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً " [٢] .

وبعد بيان مفصل حول حكمة الاختبار في فصل زخارف الدنيا عن أولياء الله يقول سلام الله عليه :

" ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ، ويتعبَّدهم بأنواع المجاهد ، ويبتليهم بضروب المكاره ، إخراجاً للتكبر من قلوبهم ، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم .

فالله الله في عاجل البغي ، وآجل وخامة الظلم ، وسوء عاقبة الكبر ، فإنها مصيبة إبليس العظمى ، ومكيدته الكبرى ، التي شاور وقلوب الرجال مشاورة السموم القاتلة " [٣] .

وهكذا حرَّض الوحي على التسليم للأنبياء وأولي الأمر من خاصتهم ، وجعل فيه ثواباً عظيماً . وجاء في حديث مأثور عن النبيِّ (ص) ، أنه قال :

" إنّ أوثق عُرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله ، وتولّي أولياء الله ، وتعادي عدوَّ الله " [٤] .

وروي عن الإمام زين العابدين (ع) قوله :

" مَن أَحبنا لا لِدُنيا يصيبها منّا ، وعادى عدوَّنا لا لشحناء كانت بينه وبينه ، أتى الله يوم القيامة مع محمد وإبراهيم وعليّ " [٥] .

وكما يتحدى الإنسان بالولاية نزعة الكبر وادِّعاء الربوبية في ذاته ، يتحدى بها نزعة الطمع وشهوات الدنيا ، لأن من يطيع أولياء الله يحاربه طغاة الأرض والمترفون في الدنيا بشتى وسائل الحرب ، بالدعاية المضادة وبالتضييق الإقتصادي ، وبالأذى الجسدي ، وحتى بالتشريد والقتل .

ولأن الولاية كانت امتحاناً عظيماً للإنسان ، جُعلت شرطاً بقبول الأعمال ، حيث إن هدف سائر الطاعات تذليل النفس البشرية المتفرعنة والمتجبرة . وتذليلها لطاعة ربها ، وتطهيرها من عبودية الله عن دنس الكبر والشرك والشك . وهذا الهدف يبلغ قمته بالولاية ، حيث يخضع البشر لبشر مثله لا يتميز عنه بجاهٍ عريض ، ولا بثروة واسعة وإنما يأمره الله تعالى بذلك ، وهذا ما تأباه النفس أشد الإباء . وقد

---

(٢) المصدر : ( ص ٧٠ ) .

(٣) المصدر : ( ص ٧٠ ) .

(٤) بحار الأنوار : ( ج ٢٧ ، ص ٥٧ ) .

(٥) المصدر : ( ص ٥٦ ) .

سأل بعضُهم أن يَنزل عذابُ الله الواقع لكي لا يؤمن بالولاية .

وها نحن نقرأ معاً أحاديث في فضل الولاية ، لنعرف مدى فضلها وكيف أنها قطب الرحى في تعاليم الوحي .

جاء في حديثٍ مفصلٍ عن أمير المؤمنين (ع) في إجابته لأسئلة زنديق :

" إن الإيمان قد يكون على وجهين : إيمان بالقلب ، وإيمان باللسان كما كان إيمان المنافقين على عهد رسول الله (ص) لمَّا قهرهم السيف وشملهم الخوف ، فإنهم آمنوا بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ، فالايمان بالقلب هو التسليم للرب ، ومن سلَّم الأمور لمالكها لم يستكبر عن أمره — كما استكبر إبليس عن السجود لآدم ، واستكبر أكثر الأمم عن طاعة أنبيائهم ، فلم ينفعهم التوحيد ، كما لم ينفع إبليس ذلك السجود الطويل ، فإنه سجد سجدة واحدة أربعة آلاف عام ، لم يرد بها غير زخرف الدنيا ، والتمكين من النظرة ، فلذلك لا تنفع الصلاة والصدقة إلاّ مع الاهتداء إلى سبيل النجاة وطريق الحق "[٦] .

ولذلك لم يقبل الله سبحانه طاعة عبد لم يقبل الولاية مهما اجتهد في العبادة والطاعة . هكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع) عن آبائه (ع) ، إذ قال :

" مرَّ موسى بن عمران برجل رافع يده إلى السماء يدعو فانطلق موسى في حاجته فغاب عنه سبعة أيام ، ثم رجع إليه وهو رافع يَديه يدعو ويتضرع ويسأل حاجته ، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه : يا موسى لَو دعاني حتى يسقط لسانه ما استجبتُ له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته به "[٧] .

فولاية الإنسان صبغة أعماله ، إنْ خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ . لذلك جاء في الحديث المأثور عن رسول الله (ص) ، فيما رواه أبو سعيد الخدري :

" لو أنَّ عبداً عبد الله ألف عام ما بين الركن والمقام ، ثم ذُبح كما يذبح الكبش مظلوماً ، لَبعثه الله مع النفر الذين يقتدي بهم ، ويهتدي بهداهم ، ويسير بسيرتهم إن جنة فجنة ، وإن ناراً فنار "[٨] .

وهكذا الولاية تكون وجهة المجتمع ، وعليها يكون الحساب والجزاء . فقد روي عن الإمام علي (ع) عن النبي (ص) عن جبرئيل (ع) عن الله عزّ وجلّ ، قال :

" وعزتي وجلالي لأُعذبنَّ كل رعية في الإسلام دانت بولاية إمام جائر ليس من الله عزَّ وجلَّ ، وإن كانت الرعية في أعمالها برَّة تقية ، ولَأعفونَّ عن كل رعية دانت بولاية إمام عادل من الله تعالى وإن كانت الرعية في أعمالها طالحة مسيئة "[٩] .

---

(٦) المصدر : ( ص ٥٧ ) .

(٧) أي باب الطاعة للنبي وأوصيائه المصدر : ( ص ١٨٠ )

(٨) المصدر : ( ص ١٨٠ ) .

(٩) المصدر : ( ص ٢٠١ ) .

فَضمنَ إطار الولاية الإلهية لابد أن نعرف شخصية الإمام السجاد (ع) وأبعاد حياته . إنه لم يكن كسائر الأنبياء والأئمة . ولا يكون خلفاؤهم من الصدّيقيين والعلماء الربانيين طُلاب حكم وسيطرة ، أو قادة حركات سياسية كالتي نفهمها . لا ، ولكنهم سعوا جاهدين من اجل تطهير قلوب الناس من الجبت ، ومجتمعاتهم من الطاغوت . ولكن ذلك لم يكن حكمة حياتهم الأولى حتى نقول : إنهم قد فشلوا في تحقيق ذلك ، وإنما كانت الحكمة الأولى ابتلاء الناس ، حيث قاموا بتلاوة وحي الله وبتعليم الناس وتزكيتهم . وقد قال ربُنا سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ (الجمعة/٢) .

بلى ، كان من الأهداف السامية لبعثة الرسل ، ونهضة اوصيائهم ، وقيام أوليائهم ، إعداد الناس للقيام بالقسط . ولا اقول قيامهم بالقسط بين الناس ، لأن ذلك يوحي بالوكالة في ذلك ، وهذا ما ينفيه الوحي ببلاغة نافذة . فاستمع إلى قول ربِّك العزيز :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد/٢٥) .

## الإمام السجاد وريث الأنبياء :

ولأن الإمام زين العابدين (ع) ورث عن جده النبي المصطفى ( عليه وآله الصلاة والسلام ) دور الأنبياء ، فإن الحكمة الأولى لإمامته هي ذات الحكمة الأولى في رسالة الأنبياء ، ابتلاء الناس بعد دعوتهم إلى الله ، وكانت سائر الأهداف السامية – كإقامة القسط ونصرة المظلومين – في امتداد تلك الحكمة ، اي انها تتفرع منها وتاتي بعدها .

ولقد تسنت لسائر ائمة الهدى (ع) الظروف للقيام بتلك الأهداف المتدرجة ، وبالذات الهدف السياسي ، كما فعل الإمام علي (ع) عندما نهض باعباء الحرب ضد قريش مرتين ، مرة في عهد النبي وتحت لوائه ، ومرة بعد النبي وتحت لواء الرسالة الحنفية وبرفقة اصحاب النبي (ص) . وهكذا نجله الإمام الحسن (ع) . حيث نهض هو الآخر باعباء الحرب ضد معاوية ، ثم اوقف الحرب لمصلحة المسلمين . وكذلك الإمام الحسين (ع) حيث قاوم معاوية بالسبل السلمية ، وقام ضد ابنه يزيد بالسيف حتى استُشهد مظلوماً .

وهكذا قام سائر الأئمة بادوار سياسية ، وبوسائل غير مباشرة ، وبدرجات مختلفة .

بينما الظروف العامة كانت تناسب تمخض الإمام السجاد (ع) تقريباً في الدعوة الربانية ، حسبما نبين ذلك في مناسبة اخرى إن شاء الله تعالى .

وبذلك كانت حياة الإمام السجاد قطعة مشرقة بنور ربِّه .. وكانت تجلياً باهراً للإيمان الخالص بالله ، وللهيام الشديد بالله ، وللعبادة والتبتل .

وحينما نقرأ معاً صفات الإمام على لسان نجله الإمام الباقر (ع) ، نعرف ماذا تعني ولاية الله ، وولاية أوليائه ، ولماذا التأكيد عليها ، وكيف كانت حياة السجاد شلال نور إلهي . يقول نجله الإمام الباقر (ع) : " كان علي بن الحسين (ع) يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، كما كان يفعل أمير المؤمنين (ع) . كانت له خمسمائة نخلة . فكان يصلي عند كل نخلة ركعتين ، وكان إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر ، وكان قيامه في صلاته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل ، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله عزَّ وجلَّ ، وكان يصلي صلاة مودِّع يرى أنه لا يصلي بعدها أبداً ، ولقد صلّى ذات يوم فسقط الرداء عن أحد منكبيه فلم يسوِّه حتى فرغ من صلاته ، فسأله بعض أصحابه عن ذلك ، فقال : ويحك أتدري بين يدي مَن كنت ؟. إنَّ العبد لا يُقبل من صلاته إلاّ ما أقبل عليه منها بقلبه . فقال الرجل : هلكنا ، فقال : كلاَّ .. إن الله عزَّ وجلَّ متمم ذلك بالنوافل وكان (ع) لَيخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره ، وفيه الصرر من الدنانير والدراهم وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب ، حتى يأتي باباً باباً فيقرعه ، ثم يناول مَن يخرج إليه . وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيراً لئلا يعرفه . فلما توفي (ع) فقدوا ذلك ، فعلموا أنه كان علي بن الحسين (ع) . ولما وُضع (ع) على المغتسل نظروا إلى ظهره وعليه مثل رُكَب الإبل . مما كان يحمل على ظهره إلى منازل الفقراء والمساكين . ولقد خرج ذات يوم وعليه مطرف خز فتعرض له سائل فتعلّق بالمطرف فمضى وتركه ، وكان يشتري الخزَّ في الشتاء ، إذا جاء الصيف باعه فتصدق بثمنه ، ولقد نظر (ع) يوم عرفة إلى قوم يسألون الناس ، فقال : ويحكم لغير الله تسألون في مثل هذا اليوم ، إنّه ليُرجى في هذا اليوم لِمَا في بطون الحبالى أنْ يكون سعيداً ؟. ولقد كان (ع) يأبى أن يؤاكل أُمَّه ، فقيل له : يابن رسول الله أنت أبرُّ الناس وأوصلَهم للرحم ، فكيف لا تؤاكل أمَّك ؟ فقال : إني أكره أنْ تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه . ولقد قال له رجل : يابن رسول الله إني لأحبُّك في الله حبّاً شديداً ، فقال : اللهم إني أعوذ بك أن أُحبَّ فيك وأنت لي مبغض . ولقد حج على ناقة له عشرين حجة فما قرعها بسوط ، فلما نفقت[10] أمر بدفنها لئلا يأكلها السباع . ولقد سئلت عنه مولاة له فقالت : أُطنب أو اختصر ؟ فقيل لها : بل اختصري ، فقالت : ما أتيته بطعام نهاراً قط ، وما فرشت له فراشاً بليلٍ قط . ولقد انتهى ذات يوم إلى قوم يغتابونه فوقف عليهم ، فقال لهم : إن كنتم صادقين فغفر الله لي ، وإن كنتم كاذبين فغفر الله لكم . وكان (ع) إذا جاءه طالب علم فقال : مرحباً بوصيٍّ رسول الله (ص) . ثم يقول : إن طالب العلم إذا خرج من منزله لم يضع رجلَيه على رَطب ولا يابس من الأرض ، إلاّ سبَّحت له إلى الأرضين السابعة ، ولقد كان يعول مئة أهل بيت من فقراء المدينة . وكان يعجبه أن يحضر طعامه اليتامى والأضرار والزّمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم . وكان يناولهم بيده ، ومن كان له منهم عيال حمل له إلى عياله من طعامه ، وكان لا يأكل طعاماً حتى يبدأ فيتصدق بمثله . ولقد كان

---

(١٠) نفقت الدابة ماتت ( القاموس ) .

تسقط منه كل سنة سبع ثفنات من مواضع سجوده لكثرة صلاته ، وكان يجمعها ، فلما مات دُفنت معه . ولقد بكى على أبيه الحسين (ع) عشرين سنة ، وما وضُع بين يَديه طعام إلاّ بكى ، حتى قال له مولى له : يابن رسول الله أَمَا آن لِحُزنك ان ينقضي ؟. فقال له : ويحك ، إن يعقوب النبيَّ (ع) كان له اثني عشر ابناً فغيَّب الله عنه واحداً منهم ، فابيضَّت عيناه من كثرة بكائه عليه ، وشاب رأسه من الحزن ، واحدودب ظهره من الغم ، وكان ابنه حيّاً في الدنيا وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني ؟. "[11]

وقد زخرت كتب التاريخ بكرامات الإمام[12] ولا عجب فإن إماماً هذه صفاته ، يكرمه الله بفضله ، أولم يكرم الله عباده الصالحين باستجابة دعواتهم ؟

وقد قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر/٦٠) .

فكيف لا يستجيب لمن ذاب في حب ربه حتى خشي عليه الهلاك من شدة العبادة . ولننظر معاً في الرواية التالية ثم نقيسها بما نعرفه من قصص القرآن حول الصالحين من عباد الله ، نرى أنهما نبعان من عين واحدة .

عن إبراهيم بن أدهم وفتح الموصلي ، قال كل واحد منهما : كنت أسيح في البادية مع القافلة ، فعرضت لي حاجة فتنحيت عن القافلة ، فإذا أنا بصبي يمشي ، فقلت : سبحان الله بادية بيداء وصبي يمشي ؟. فدنوت منه وسلّمت عليه ، فردَّ عليَّ السلام . فقلت له : إلى أين ؟. قال : أريد بيت ربِّي . فقلت : حبيبي ، إنك صغير ليس عليك فرض ولا سنّة . فقال : يا شيخ ما رأيت من هو أصغر سنّاً مني مات ؟ فقلت : أين الزاد والراحلة ؟ فقال : زادي تقواي ، وراحلتي رجلاي ، وقصدي مولاي . فقلتُ : ما أرى شيئاً من الطعام معك ؟ فقال : يا شيخ هل يستحسن أن يدعوك إنساناً إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام ؟. قلت : لا ، قال : الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقيني . فقلت : ارفع رجلك حتى تدرك[13] فقال : عليَّ الجهاد ، وعليه الإبلاغ . أما سمعت قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت/٦٩) .

قال : فبينما نحن كذلك إذ أقبل شاب حسن الوجه عليه ثياب بيض حسنة ، فعانق الصبي وسلّم عليه . فأقبلتُ على الشاب وقلت له : أسألك بالذي حَسَّن خلقك مَن هذا الصبي ؟ فقال : أما تعرفه ؟ هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . فتركت الشاب وأقبلت على الصبي ، وقلت : أسألك بآبائك مَن هذا الشاب ؟ فقال : أما تعرفه ؟ هذا أخي الخضر ، يأتينا كلَّ يوم فيسلّم علينا . فقلت : أسألك

---

(١١) بحار الأنوار : ( ص ٦١ - ٦٣ ) .

(١٢) سوف نذكر بعضاً منها في خاتمة الكتاب ..

(١٣) يعني ارفع رجلك - أو رحلك - عن المركوب ، واركب مطيتي حتى تدرك الحج ..

بحق آبائك لما أخبرتني بما تجوز المفاوز بلا زاد ؟ قال : بل أجوز بزاد ، وزادي فيها أربعة أشياء . قلت : وماهي ؟ قال : أرى الدنيا كلها بحذافيرها مملكة الله ، وأرى الخلق كلهم عبيد الله وإماؤه وعياله ، وأرى الأسباب والأرزاق بيد الله ، وأرى قضاء الله نافذاً في كل أرض الله . فقلت : نعم الزاد زادك يا زين العابدين ، وأنت تجوز بها مفاوز الآخرة ، فكيف مفاوز الدنيا ؟[14]

وقصة مشابهة يرويها حماد بن حبيب الكوفي القطان فيقول :

انقطعت عن القافلة عند زبالة[15] فلما أجنّني الليل أويت إلى شجرة عالية . فلما اختلط الظلام إذا أنا بشاب قد أقبل عليه أطمار بيض تفوح منه رائحة المسك . فأخفيت نفسي ما استطعت . فتهيأ للصلاة ، ثم وثب قائماً وهو يقول : يا من حاز كل شيء ملكوتاً ، وقهر كل شيء جبروتاً ، أولج قلبي فرح الإقبال عليك ، وألحقني بميدان المطيعين لك ، ثم دخل في الصلاة . فلما رأيته وقد هدأت أعضاؤه ، وسكنت حركاته ، قمت إلى الموضع الذي تهيأ فيه إلى الصلاة ، فإذا أنا بعين تنبع . فتهيأت للصلاة ، ثم قمت خلفه ، فإذا بمحراب كأنه مثل في ذلك الوقت فرأيته كلما مر بالآية التي فيها الوعد والوعيد يرددها بانتحاب وحنين . فلما أن تقشع الظلام وثب قائماً وهو يقول : يا من قصده الضالون فأصابوه مرشداً ، وأمَّه الخائفون فوجدوه معقلاً ، ولجأ إليه العابدون فوجدوه موئلاً . متى راحة مَن نصب لغيرك بدنه ، ومتى فرح من قصد سواك بنيته ؟ إلهي قد تقشّع الظلام ولم أقض من خدمتك وطراً ، ولا من حياض مناجاتك صدراً ، صلِّ على محمد وآله وافعل بي أولى الأمرين بك يا أرحم الراحمين . فخفت أن يفوتني شخصه وأن يخفي علي أمره ، فتعلقت به فقلت : بالذي أسقط عنك هلاك التعب ، ومنحك شدة لذيذ الرهب ، إلاّ ما ألحقتني منك جناح رحمة وكنف رقة ، فإني ضال . فقال : لو صدق توكلك ما كنت ضالاً ، ولكن اتبعني واقفُ أثري . فلما أن صار تحت الشجرة أخذ بيدي وتخيل لي أن الأرض تمتد من تحت قدمي ، فلما انفجر عمود الصبح قال لي : أبشر فهذه مكة ، فسمعت الضجة ورأيت الحجة ، فقلت له : بالذي ترجوه يوم الآزفة يوم الفاقة ، مَن أنت ؟ فقال : إذا أقسمت فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[16] .

ألم أقل لك إنه كان ومضة نور وشلاّل إيمان ، وقبساً من وهج الرسالة ؟..

كان الظلام يخيم على طرقات المدينة وقد أوى الناس إلى بيوتهم ، والسماء تمطر ورياح الشتاء الباردة تعصف .. فيقول : الزهري : رأيته (ع) يمشي وعلى ظهره دقيق . فقلت يابن رسول الله ، ما هذا ؟.

قال (ع) : أريد سفراً أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز .

---

(١٤) قصة إبراهيم - بحار الأنوار : ( ٣ / ج ٣٦ ) .

(١٥) زبالة : اسم موضع بطريق مكة .

(١٦) المصدر : ( ص ٤٠ - ٤١ ) .

فقال الزهري : فهذا غلامي يحمله عنك ، فأبى (ع) .

فقال الزهري : أنا أحمله عنك فاني ارفعك ( واجلك ) عن حمله .

فقال علي بن الحسين (ع) : لكني لا ارفع نفسي ( ولا اجل نفسي ) عما ينجيني في سفري ، ويحسن ورودي على ما أرد عليه . واضاف الإمام قائلا : أسالك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني . فانصرف عنه . فلما كان بعد أيام قال له يابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته اثراً .

قال : بلى يا زهري !. ليس ما ظننت ، ولكنه الموت ، وله استعدّ ، واضاف الإمام لبيان هدف حمله تلك البضاعة في الليل إلى بيوت الفقراء : إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام ، وبذل النفوس في الخير [17] .

إن جذور شخصية الإمام زين العابدين تمتد في افق معرفته بالله تعالى ، ويقينه باليوم الآخر ، ووعيه للسرعة الخاطفة التي تبتلع ساعات الليل والنهار من عمر البشر ، وتزاحم الواجبات عليه !.

حينما يسأله رجل كيف أصبحت يابن رسول الله ؟ يقول : أصبحت مطلوباً بثمان : الله يطلبني بالفرائض ، والنبي (ص) بالسنّة ، والعيال بالقوت ، والنفس بالشهوة ، والشيطان باتّباعه ، والحافظان بصدق العمل ، وملك الموت بالروح ، والقبر بالجسد . فانا بين هذه الخصال مطلوب [18] .

إنه كان مثلاً رائعاً للآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللـه قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران/١٩١) .

لقد أحبَّ الله حتى فاضت على شفاهه روافد الحب في صورة ابتهالات ومناجاة سجّل التاريخ جزءاً بسيطاً جداً منها في صحيفته المعروفة بـ ( السجادية ) .. فلنستمع معاً إلى هذه الرائعة التي تبهر الأبصار :

" فقد انقطعتْ إليك هِمَّتي ، وانصرفتْ نحوك رغبتي . فانتَ لا غيرك مرادي ، ولك لا لسواك سهري وسُهادي ، ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك مُنى نفسي ، وإليك شوقي ، وفي محبتك وَلَهي ، وإلى هواك صبابتي ، ورضاك بُغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك رَوحي وراحتي ، وعندك دواء علتي ، وشفاء غُلتي ، وبردُ لوعتي ، وكشفُ كربتي ، فكن انيسي في وحشتي ، ومُقيل عثرتي ، وغافر زلتي ، وقابل توبتي ، ومجيب دعوتي ، ووليّ عصمتي ، ومغني فاقتي ، ولا تقطعني عنك ، ولا تبعدني منك ، يا نعيمي وجنتي ، ويا دنياي وآخرتي ، يا ارحم الراحمين " [19] .

فأيُّ قلبٍ مفعم بالإيمان هذا الذي يفيض بهذه الكلمات المضيئة ؟!.. واي فؤاد ملتهب بالشوق إلى

---

(١٧) المصدر : ( ص ٤٩ ) .

(١٨) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ج ٣ ، ص ٢٣٤ ) .

(١٩) مفاتيح الجنان : ( ص ١٢٤ ) .

الله ، متيم بحب الله ، يشع بهذه المناجاة ؟. إنّه قلب ذلك الإمام الذي كانت الصلاة أحب الأمور إليه . وكان الذكر شغله الشاغل والعبادة صبغة حياته !

فقد دخل على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فاستعظم عبد الملك ما راى من اثر السجود بين عينَي علي بن الحسين (ع) ، فقال : يا ابا محمد لقد بيَّن عليك الإجتهاد ، ولقد سبق لك من الله الحسنى ، وانت بضعة من رسول الله (ص) قريب النسب وكيد السبب . وإنك لذو فضل عظيم على اهل بيتك وذوي عصرك ، ولقد اُوتيتَ من الفضل والعلم والدين والورع مالم يؤته احد مثلك ولا قبلك ، إلاّ مَن مضى من سلفك .. واقبل يُثني عليه ويطريه .. قال : فقال علي بن الحسين (ع) :

" كلّما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتاييده وتوفيقه . فاين شكرُه على ما انعم يا امير المؤمنين ؟. كان رسول الله (ص) يقف في الصلاة حتى تورّمت قدماه ، ويظما في الصيام حتى يُعصب فوه ، فقيل له : يا رسول الله الم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر ؟ فيقول (ص) افلا اكون عبداً شكوراً ؟. الحمد لله على ما اولى وابلى ، وله الحمد في الآخرة والأولى . والله لو تقطعت أعضائي ، وسالت مقلتاي على صدري ، لن أقوم لله جل جلاله بشكر عَشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه الّتي لا يحصيها العادّون ، ولا يبلغ حدّ نعمة منها على جميع حمد الحامدين ، لا والله لو يراني الله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره ، في ليل ولا نهار ، ولا سر ولا علانية . ولولا ان لأهلي عَلَيّ حقاً ، ولسائر الناس من خاصهم وعامهم عَلَيّ حقوقاً لا يسعني إلاّ القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم ، لَرميتُ بطرفي إلى السماء ، وبقلبي إلى الله ، ثم لم اردهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين ".

وبكى (ع) وبكى عبد الملك وقال : شتان بين عبد طلب الآخرة وسعى لها سعيها ، وبين من طلب الدنيا من أين جاءته ، ماله في الآخرة من خلاق . ثم اقبل يساله عن حاجاته وعما قصد له فشفّعه فيمن شفّع ، ووصله بمال "[٢٠] .

وعندما يراه طاوس في اخريات الليل يطوف بالبيت الحرام يرى منه عجباً حتى يشفق عليه فلنستمع إليه ، يروي قصته :

رأيته يطوف من العشاء إلى السَّحر ويتعبد ، فلمّا لم يَرَ احداً رمق السماء بطرفه ، وقال :

" إلهي غارت نجوم سماواتك ، وهجعت عيون انامك ، وابوابُك مفتّحات للسائلين ، جئتك لتغفر لي وترحمني ، وتريني وجه جَدِّي محمد (ص) في عرصات القيامة " . ثم بكى وقال : " وعزتك وجلالك ما اردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وانا بك شاكٌّ ، ولا بنكالك جاهلٌ ، ولا لعقوبتك متعرضٌ ، ولكن سوّلت لي نفسي ، واعانني على ذلك سترُك المرخى به عَلَيّ . فالآن من عذابك من

---

(٢٠) بح : ( ص ٥٧ ) .

يستنقذني ؟. وبحبل مَن اعتصم إنْ قطعتَ حبلك عني ؟. فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يَديك ، إذا قيل للمخفّين جوزوا ، وللمثقَلين حُطّوا . أمع المخفّين اجوز ؟ أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم اتب ، أما آن لي أن أستحي من ربّي ؟! " .

ثم بكى وانشا يقول :

| | |
|---|---|
| اتحـــرقني بالنـار يا غايــة المنـــى | فـايـن رجـائـي ثـــم ايـــن محبّتـــي |
| اتيـــتُ بـــاعمـــالٍ قبـــــاحٍ زَريَّـــةٍ | ومــا فـي الـورى خلــق جنى كجنايتـي |

ثم بكى وقال : " سبحانك تُعصَى كانك لا ترى ، وتحلم كانك لم تُعص تتودّد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم ، وانت يا سيدي الغني عنهم " .

ثم خر إلى الارض ساجداً . قال : فدنوتُ منه وشلتُ براسه ووضعتُه على ركبتي وبكيتُ حتى جرت دموعي على خده ، فاستوى جالساً وقال : " مَن الذي أشغلني عن ذكر ربّي ؟ "

فقلتُ : انا طاووس يابن رسول الله ، ما هذا الجزع والفزع ؟

ونحن يلزمنا ان نفعل هذا ونحن عاصون جانون ، ابوك الحسين بن علي وأُمك فاطمة الزهراء ،و جدك رسول الله (ص) ؟! قال : فالتفت إليّ وقال :

" هيهات هيهات يا طاووس ، دع عني حديث ابي وامي وجدي ، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً . اما سمعتَ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ( المؤمنون/١٠١ ) ؟. والله لا ينفعك غداً إلاّ تقدمة تقدمها من عملٍ صالح " [٢١] .

ولأنه أحب الله فوّض إليه امره وسلّم له أشد التسليم ، وهو (ع) يروي عن نفسه القصة التالية فيقول :

" مرضتُ مرضاً شديداً ، فقال لي ابي : ما تشتهي ؟ فقلتُ : اشتهي انْ اكون ممّن لا اقترح على الله ربّي ما يدبّره لي . فقال لي : احسنتَ ، ضاهيتَ إبراهيم الخليل صلوات الله عليه حيث قال جبرئيل [٢٢] : هل من حاجة ؟. فقال : لا اقترح على ربّي ، بل حسبي الله ونعم الوكيل " [٢٣] .

وهكذا احبه الله تعالى واكرمه ورفع شانه ، واجرى على يديه تقديره ، والزم الناس ولايته .

والقصة التالية تعكس مدى حب الله سبحانه للإمام زين العابدين (ع) :

والقصة يرويها طائفة من عُبّاد البصرة وفقهاءها وهم ثابت البناني ، وايوب السجستاني ، وصالح المري ، وعتبة الغلام ، وحبيب الفارسي ، ومالك بن دينار .

---

(٢١) قصته في المسجد الحرام مع طاووس .

(٢٢) قال له ذلك عندما همّ الطغاة رميه في النار عبر المنجنيق .

(٢٣) المصدر : ( ص ٦٧ ) .

وننقلُ فيما يلي نص ما جاء في هامش كتاب بحار الأنوار ( ج ٤٦ ، ص ٥٠ ) عن هؤلاء العُبّاد بالترتيب :

أولاً : ثابت البناني : من التابعين وقد ترجمه أبو نعيم في حلية الأولياء ( ج ٢ ، ص ٣١٨ إلى ص ٣٣٣) فقال : ومنهم المتعبد الناحل ، المتهجد الذابل ، أبو محمد ثابت بن مسلم البناني ، وذكر أنه أسند عن غير واحد من الصحابة منهم : ابن عمر ، وابن الزبير ، وشداد وأنس وأكثر الرواية عنه . وروى عنه جماعة من التابعين منهم : عطاء بن أبي رباح ، وداود بن أبي هند ، وعلي بن زيد بن جدعان ، والأعمش ، وغيرهم .

ثانياً : أيوب السجستاني : من التابعين . قال أبو نعيم في حلية الأولياء ، وقد ترجمه في ( ج ٣ من ص ٣ إلى ص ١٣ ) : ومنهم فتى الفتيان ، سيد العبّاد والرهبان ، المنوِّر باليقين والإيمان . السجستاني أيوب بن كيسان . كان فقيهاً محجاجاً ، وناسكاً حجاجاً ، عن الخلق آيساً ، وبالحق آنساً .

أسند أيوب عن أنس بن مالك ، وعمرو بن سلمة الجرمي . ومن قدماء التابعين ، عن أبي عثمان الهندي ، وأبي رجاء العطاردي ، وأبي العالية ، والحسن ، وابن سيرين وأبي قلابة .

وذكره الأردبيلي في جامع الرواة ( ج ١ ، ص ١١١ ) فقال : أيوب بن أبي تميمة ، كيسان السجستاني العنزي البصري ، كنيته أبو بكر مولى عمار بن ياسر ، وكان عمار مولى ، فهو مولى مولى . وكان يحلق شعره في كل سنة مرة ، فإذا طال فرّق . مات بالطاعون بالبصرة سنة ١٣١ .

ثالثاً : صالح المري : هو ابن بشير ، وصفه أبو نعيم في الحلية ( ج ٦ ، ص ١٦٥ ) بقوله : القارئ الدري ، والواعظ التقي ، أبو بشير صالح بن بشير المري ، صاحب قراءة وشجن ومخافة وحزن . يحرك الأخيار ، ويفرك الأشرار .

اسند عن الحسن ، وثابت ، وقتادة ، وبكر بن عبد الله المزني ، ومنصور بن زاذان وجعفر بن زيد ، ويزيد الرقاشي ، وميمون بن سياه ، وأبان بن أبي عياش ، ومحمد بن زياد ، وهشام بن حسان ، والجريري ، وقيس بن سعد ، وخليد بن حسان في آخَرين .

رابعاً : عتبة الغلام : هو الحر الهمام ، المجلو من الظلام ، المكلوء بالشهادة والكلام ، قال عبيد الله بن محمد : عتبة الغلام هو عتبة بن أبان بن صمعة ، مات قبل أبيه . وسئل رباح القيسي عن سبب تسمية عتبة بالغلام فقال : كان نصفاً من الرجال ، ولكنّا كنّا نسميه الغلام لأنه كان في العبادة غلامَ رهبان ، استشهد وقتل في قرية الحباب في غزو الروم ، ترجمه مفصلاً أبو نعيم في الحلية ( ج ٦ ، ص ٢٢٦ إلى ٢٣٨ ) .

خامساً : حبيب الفارسي : قال أبو نعيم في الحلية ( ج ٦ ، ص ١٤٩ ) : أبو محمد الفارسي من ساكني البصرة ، كان صاحب المكرمات ، مُجاب الدعوات ، وكان سبب إقباله على الآجلة وانتقاله عن العاجلة ، حضوره مجلس الحسن بن أبي الحسن ، فوقعت موعظته من قلبه .. وتصدق بأربعين ألفاً في

أربع دفعات .

سادساً : مالك بن دينار ابو يحيى ، وصفه أبو نعيم في الحلية بقوله : العارف النظّار ، الخائف الجبّار .. كان لشهوات الدنيا تاركاً ، وللنفس عند غلبتها مالكاً ، وقد أطال في ذكره ( ج ٢ ، من ص ٣٥٧ إلى ص ٣٨٩ ) .

## استجابة دعائه (ع)

عن ثابت البناني قال : كنت حاجّاً وجماعةَ عُبّاد البصرة مثل أيوب السجستاني وصالح المري وعتبة الغلام وحبيب الفارسي ومالك بن دينار . فلما ان دخلنا مكة رأينا الماء ضيقاً ، وقد اشتد بالناس العطش لقلة الغيث . ففزع إلينا أهل مكة والحجاج يسألونا أن نستسقي لهم ، فاتينا الكعبة وطفنا بها ، ثم سألنا الله خاضعين متضرعين بها ، فَمُنعنا الإجابة ، فبينما نحن كذلك إذا نحن بفتىً قد أقبل ، قد أكربته أحزانُه ، وأقلقته أشجانُه ، فطاف بالكعبة أشواطاً ، ثم أقبل علينا فقال : يا مالك بن دينار ، ويا ثابت البناني ، ويا أيوب السجستاني ، ويا صالح المري ، ويا عتبة الغلام ، ويا حبيب الفارسي ، ويا سعد ، ويا عمر ، ويا صالح الأعمى ، ويا رابعة ، ويا سعدانة ، ويا جعفر بن سليمان ، فقلنا : لبَّيك وسعديك يا فتى . فقال : أما فيكم أحد يحبه الرحمان ؟. فقلنا : يا فتى علينا الدعاء وعليه الإجابة . فقال : ابعدوا من الكعبة ، فلو كان فيكم أحد يحبه الرحمان لأجابه . ثم أتى الكعبة فخر ساجداً فسمعته يقول في سجوده : سيدي ، بحبك لي إلاّ سقيتهم الغيث ، قال : فما استتم الكلام حتى أتاهم الغيث كافواه القُرَب ، فقلت يا فتى : من اين علمت أنه يحبك ؟ قال : لو لم يحبني لم يستزرني ، فلما استزارني علمتُ أنّه يحبني ، فسألته بحبه لي فأجابني ، ثم ولى عنّا وأنشأ يقول .

| | |
|---|---|
| من عرف الرب فلم تُغنه | معرفةُ الرب فذاك الشقي |
| ما ضرَّ في الطاعة ما ناله | في طاعة الله وماذا لقي |
| ما يصنع العبد بغير التقى | والعزُّ كلُّ العزّ للمتّقي |

فقلت : يا أهل مكة من هذا الفتى ؟. قالوا : علي بن الحسين (ع) بن علي بن أبي طالب .

وعن المنهال بن عمرو في خبر قال : حججت فلقيت عليّ بن الحسين (ع) ، فقال : ما فعل حرملة بن كاهل ؟. قلت : تركته حيّاً بالكوفة ، فرفع يديه ثمّ قال (ع) : اللهمّ أذقهُ حرّ الحديد ، اللهمّ أذقهُ حرّ النار . فتوجّهت نحو المختار ، فإذا بقوم يركضون ويقولون البشارة أنّها الأمير ، قد أخذ حرملة ، وقد كان توارى عنه ، فامر بقطع يديه ورجليه وحرّقه بالنار .

وكان زين العابدين (ع) يدعو في كلّ يوم أن يريه الله قاتل أبيه مقتولا ، فلمّا قتل المختارُ قتلة الحسين صلوات الله وسلامه عليه بعث برأس عبيد الله بن زياد ورأس عمر بن سعد مع رسول من قبله إلى زين العابدين ، وقال لرسوله : إنّه يصلّي من الليل ، وإذا أصبح وصلّى صلاة الغداة هجع ، ثمّ يقوم فيستاك

ويؤتى بغدائه ، فإذا أتيت بابه فاسأل عنه ، فإذا قيل لك : إنَّ المائدة وضعت بين يديه فاستأذن عليه وضع الرأسين على مائدته ، وقل له : المختار يقرأ عليك السلام ويقول لك : يابن رسول الله ، قد بلّغك الله ثارك . ففعل الرّسول ذلك ، فلمّا رأى زين العابدين (ع) الرأسين على مائدته خرّ ساجداً وقال :

" الحمد لله الّذي أجاب دعوتي ، وبلّغني ثاري من قتلة أبي ، ودعا للمختار وجزّاه خيراً " [24] .

وحينما نعرف جانباً من شخصية الإمام زين العابدين (ع) ومدى تفانيه في ذات الله عزّ وجلّ وذوبانه في تيار حبّه سبحانه ، وخلوصه من شوائب المصلحة المادية ، نعرف – حينئذ – جانباً من حكمة الولاية ، وذلك التأكيد الشديد عليها في نصوص الإسلام . فمثل ولاية الإمام السجاد تصلح نفس الإنسان وتتسامى في معارج الكمال ، وإن ولاية الأنبياء والأوصياء تصبغ شخصية المجتمع المؤمن بصبغة الإيمان ، وتيسر له العمل بتعاليم أولياء الله تعالى ، والسعي وراء تمثيل شخصياتهم الإلهية ، كما أن تلك الولاية تسقي روضة حب الله في أفئدتهم ، وتصونها من الذبول ، لأن حب أولياء الله يفيض من حب الله كما تفيض الروافد من نبعٍ زخّار ، بل إن حب أولياء الله هو انبساط لحب الله ، وأمثلة له وشواهد عليه !. وكيف يمكن أن يدّعي أحد أنه يحب الله ثم لا يحب من هام في حب الله حتى بلغ ما بلغه الإمام زين العابدين (ع) من العبادة والتهجد ؟!

أولم يقل ربُّنا العزيز : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ (آل عمران/٣١) .

فلنغترف من نبع حب الله فيضاً ، وذلك بِحُبِّ أوليائه أكثر مما مضى ، حتى نطهِّر أفئدتنا من أهواء الدنيا ومن أدران حب أهلها اللئام .

---

(٢٤) بحار الأنوار . ( ج ٤٦ ، ص ٥١ – ٥٣ ) .

## الفصل الثاني

# ميــلاده وعصــره (ع)

كان الإمام زين العابدين (ع) في قلب الأحداث السياسية التي ساهمت في تكوين الأمة الإسلامية ، ورَسْمِ ملامحها التاريخية ..

لقد ولد ( سلام الله عليه ) في بيت جدّه علي أمير المؤمنين (ع) ، من نجله الكريم الإمام الحسين (ع) ، عندما كان الإمام يخوض صراعاً مريراً مع أعداء الإسلام المتسترين في الجمل وصفين والنهروان ، وكان والده الحسين (ع) قائداً في جيش الإسلام – يومئذ – كما كان مضطلعاً مع والده بإدارة أمور المسلمين ..

ولا ريب أن تلك الأحداث الرهيبة التي لازالت أصداؤها تدوي في واقعنا حتى اليوم ، ساهمت في صنع شخصية الوليد الكريم الذي استقبله بيت الإمامة في عام ( ٣٥ ) للهجرة الكريمة ، عندما كانت الأمة الإسلامية تعيش غلياناً انتهى بمقتل الخليفة الثالث ، وما أعقبه من فتنة بني أمية في المطالبة بدمه .

## أم السجاد (ع) :

جاء في كتب التاريخ أن والدة الإمام السجاد (ع) هي ( شهر بانو ) بنت آخر ملوك الفرس ، من سلسلة الساسانية ( يزدجرد ) .

وكانت الأمبراطورية الفارسية كأي نظام جاهلي آخر قائمٍ على الطبقية والظلم والعدوان ، فلما أشرق نور الإسلام تهاوت كما تتهاوى شجرة منخورة أمام إعصارٍ عنيف ، وانهزم الأمبراطور من بلد إلى آخر حتى قُتل غيلةً في خراسان ، وبقيت عائلته في تلك البلاد حتى فتحت على عهد عثمان في عام ( ٣٢ ) وجيء بهم إلى المدينة المنورة ، فلما مثلوا أمام الخليفة الثالث وحضر كبار الأصحاب ، أشار الإمام أمير المؤمنين (ع) إلى الخليفة بإكرامهم ورغّبه في ذلك بذكر حديث الرسول (ص) : " أكرموا عزيزَ قومٍ ذَلّ ".

ولعل الحكمة في ذلك كانت استمالة الشعوب التي لم تزل تحترم قيادتها وكرماءها ، لكي لاتبقى بينهم وبين قبول الإسلام حواجز الحقد والضغينة .

فلما تريث الخليفة في ذلك قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : " اعتقتُ منهم لوجه الله حقي وحق بني هاشم " .

وتبعه في ذلك الأنصار والمهاجرون ، فلم ير الخليفة بدّاً من قبول الأمر ، فأشار الإمام أمير المؤمنين (ع) بأن تُترك كلٌّ واحدةٍ لاختيار الزوج المناسب ، فاختارت إحدى بنات يزدجرد الحسين (ع) ، بينما

اختارت الثانية الحسن ، وقيل محمد بن أبي بكر . فحملت شهر بانو في تلك السنة . وفي منتصف شهر جمادي الأولى لعام ثلاث وثلاثين من الهجرة ولدت ابنها البكر ، وماتت وهي في نفاسها ، فتكفلته واحدة من امهات الأولاد عند الإمام الحسين (ع) ، فنشا زين العابدين في كنفها ، وكان يزعم الناس انها أُمه بينما كانت مولاته [٢٥] .

وفي السابعة من عمره استُشهد جدُّه الإمام امير المؤمنين (ع) في محراب مسجد الكوفة . وبعد اشهر عاد اهل البيت إلى المدينة حيث ترعرع علي بن الحسين (ع) في ربوعها المضوَّعة بعطر الرسول (ص)، فلما بلغ السابعة عشر اغتيل بالسم عمُّه الإمام الحسن المجتبى (ع) .

وعاش الإمام السجاد (ع) يمارس في ظلال والده الإمام الحسين (ع) دور الريادة في مواجهة الردة الجاهلية الأموية .

وبالرغم من قلة المعلومات التي تفصِّل طبيعة هذه المواجهة المتسمة بالهدوء وربما السرِّية ، فإن ما بقي لنا من خُطب الإمام الحسين (ع) ضد معاوية ، وكتبه النارية الموجهة إليه ، وما رافق عهد معاوية من انتفاضات بقيادة أصحاب الرسول الموالين لأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله ، أقول : إن ما بقي لنا من ذلك يُعطينا صورة كافية للحالة السياسية التي عاشها الإمام السجاد ايام والده (ع) ، حينما كان في مقتبل العمر .

**بعد عاشوراء :**

ومهما كانت قوة الحركة السياسية في عهد معاوية ، فإنها كانت ناراً تحت رماد الهدوء السياسي الذي فرضه معاوية على الساحة بدهائه المعروف وبوسائله المختلفة من توزيع الأموال والمناصب ثمناً لسكوت الطامعين ، وتوزيع العسل المسموم على الأحرار . وقد اشتهر عنه القول : إن لله جنوداً من عسل ..

وهكذا كانت التيارات السياسية تنتظر بفارغ الصبر هلاك معاوية . ومن هنا أصبحت واقعة كربلاء صاعقاً فجَّر الثورات في آفاق العالم الإسلامي ، لأنها جاءت في الوقت المناسب بعد هلاك وريث أبي سفيان ، داهية العرب ، فافتتحت عصر الثورات المناهضة للجاهلية المقنَّعة .

فبعد شهادة السبط الشهيد (ع) انتفضت مدينة الرسول ، وخلعت يزيد بن معاوية ، وقام عبد الله بن الزبير بمكة يطالب بالخلافة ، وثارت الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، ثم بقيادة المختار . وهكذا اصبحت الثورات والإنتفاضات صبغة الحياة السياسية في البلاد الإسلامية ، واسلوباً شاخصاً لمواجهة

---

(٢٥) اعتمدنا في بعض ما ذكرنا على رواية مأثورة عن الإمام الرضا (ع) في بحار الأنوار ( ج ٤٦ ، ص ٨) حيث ذكر ان حادثة أسر بنات يزدجرد كانت في عهد عثمان خلافاً لبعض الروايات التي ترى أنها وقعت في عهد عمر ، وهي بعيدة عن السياق التاريخي لمجمل الأحداث كفتح خراسان وتاريخ ولادة الإمام زين العابدين وما أشبه ..

الطغيان والفساد . ولذلك فإننا نستطيع أن نسمي عهد الإمام السجاد (ع) ، خصوصاً في بداياته – منذ واقعة عاشوراء – عهد الثورات والإنتفاضات .

بيد أن الثورة بذاتها ليست هدفاً مقدساً ، وإنما الهدف المقدس هو تلك القيم المتسامية التي تحركها ، وإلاّ فان ضررها يكون أكبر من نفعها . أوليست الثورة بذاتها حالة تمرد على النظام وتعكّر جو الأمن ، وتثير الإضطراب ، وتُريق الدماء ؟ وبلى ، فهي – إذاً – حالة استثنائية لا يحمدها العقلاء ، ولكنها إنما تكتسب شرعيتها وقدسيتها من الغايات النبيلة التي تهدف إليها .

فلأنها تخرج الناس من ظلمات الركود والجهل والظلم إلى نور النشاط والعقل والعدالة ، أصبحت الثورة – بمعناها الشامل – صبغة حياة الأنبياء والأوصياء وعباد الله الابرار .

ولأنها تزيل عن قلوب الناس رين الغفلة واللامبالاة ، وعن تجمعاتهم سحابة الظلم والإعتداء ، وعن مجتمعهم كابوس الطغيان والفساد ، فقد أصبحت مسؤولية كلّ حرٍ أبيٍ ، ووسامَ حقٍ لكلٍّ ذي كرامة وشرف ..

ومن هنا ركزت نصوص الوحي على هدف الثورات ضمن تعبير " القيام لله " وحيث قال ربُّنا سبحانه ، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ ( سبأ/٤٦ ) .

وقال عزَّ وجلَّ ، ﴿ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ (النساء/١٣٥) .

وهكذا كانت الحالة الثورية التي عمّت آفاق البلاد الإسلامية ببركة استشهاد الإمام الحسين (ع) ، بحاجة إلى هوية وصبغة ، وروح ، وقيم ، لكي تتكرس في ضمير الأمة ، ولا تصبح كشعلة السعف أو زوبعة الفنجان لا تلبث أن تتلاشى .. ولكي تتخذ مساراً رسالياً مستقيماً ، ولا تصبح أداةً بيد كلٍّ طامع أو متهوّرٍ كامثال عبد الله بن الزبير وكغيره من الذين طفقوا يستفيدون منها بابشع صورة .

فهذا ابن الزبير يصعد المنبر بعد مقتل الإمام الحسين (ع) فيثني عليه ويلعن قاتله ويخلع يزيد . ولكن عندما احس باستتباب الأمر له اظهر عداءً شديداً لآل البيت (ع) ، حتى انه ترك الصلاة على جدهم النبي (ص) ، لكي لا يشمخوا بانوفهم عند ذكره حسب قوله !

فمن اجل الا تصبح الحالة الثورية مطية لكل من يهوى السلطة او يبحث عن مجد مثل ابن الزبير ، جاء الإمام السجاد (ع) يعطي لتلك الحالة هويّتها الرسالية ، وصبغتها الإلهية ، وروعتها التي تمثلت في قيم الوحي ، وسبيلها القويم الذي رسمته شريعة الله تعالى .

ولعل هذا أعظم دور قيادي قام به الإمام السجاد (ع) . ولم يكن هذا الدور نابعاً من حالة مزاجية عند الإمام (ع) او لانه شاهدَ مثلاً وقائع الطف الفظيعة ، فاصطبغت شخصيته بها . ولم يملك إلاّ البكاء والتفجّع والتبتّل والضراعة .

اجل ، إن تلك الحادثة كان لها اثرها البالغ في شخصيته الكريمة ، ولكن الإمام المعصوم (ع) يقوم بواجبه الإلهي ، وليس بما تمليه حالته النفسية . والشاهد على ذلك ان الإمام زين العابدين (ع) ، الذي

اصطبغت شخصيته الكريمة بالتهجد والبكاء ، حمل رسالة عاشوراء بعد شهادة والده ، هو وعمّته عقيلة الهاشميين زينب (ع) . وما ادراك ما رسالة عاشوراء !. إنها رسالة الجرح الثائر ، والدم المنتصر ، والألم المتمرد ، والإنتفاضة التي لا تهدأ . أوَما سمعت خطبته اللاهبة في اهل الكوفة بعد ثلاثة ايام من فاجعة الطف كيف أثارت فيهم دفائن العطف ، ونفضت عن افئدتهم غبار الرهبة والتردد ، فقالوا له : مرنا بامرك فإنّا مطيعون لأمرك ، لنأخذن يزيد ونتبرا ممن ظلمك وظلمنا .

ولكنه قال لهم : " مسالتي الا تكونوا لنا ولا علينا " .

وها نحن نستمع معاً إلى فقرات من تلك الخطبة الثائرة :

أوما إلى الناس فسكتوا ، فحمد الله وصلّى على النبيّ ، ثم قال :

" أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني أُعرِّفه بنفسي . انا عليُّ بن الحسين بن علي ، أنا ابن المذبوح بشط الفرات ، انا ابن من هُتك حريمه ، وانتُهب ماله ، وسُلب نعيمه . فباية عين تنظرون بها رسول الله (ص) إذا قال لكم : قتلتم عترتي ، وهتكتم حرمي ، فلستم من امتي " ثم بكى (ع) [٢٦] .

وعندما أُدخل أسيراً على ابن زياد الطاغية الذي زعم انه انتصر على الخط الرسالي والى الأبد ، تحدّاه الإمام (ع) وقال له :

" سوف نَقف وتَقفون ، ونُسال وتُسالون ، فايّ جواب تردُّون ، وبخصام جدِّنا إلى النار تُقادون " [٢٧] .

فلما همّ ابن زياد بقتله قال له الإمام (ع) :

" آلنت تهددني بالقتل ؟. اما علمتَ انّ القتل لنا عادة ، وكرامتُنا من الله الشهادة " ؟.

وكان موقفه من الطاغية يزيد ، ذلك المجرم الذي لم يدع جريمة شنيعة إلاّ وارتكبها في سني حكمه القصيرة ، كان موقفه قمة في التحدّي ومثلاً اعلى في الجهاد بالكلمة الرافضة .

ومرة أخرى حينما نال خطيب يزيد في الجامع الأموي من آل بيت الرسول تصدّى له الإمام السجاد (ع) قائلاً : " ويلك يا هذ الخاطب ، اشتريت مَرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبوأ مقعدك من النار " .

ثم التفت إلى يزيد واستاذنه بصعود المنبر ، فلم يجد يزيد بدّاً من ذلك فلما تشرف به المنبر القى تلك الخطبة البليغة التي لايزال صداها يدوّي في الآفاق إلى اليوم .. وإلى ابد الابدين .

وحينما هدم طاغية العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة تصدّى له الإمام (ع) وقال :

" يا حجاج ، عمدت إلى بناء إبراهيم وإسماعيل فالقيته في الطريق وانتهبته ، كانك ترى انّه تراث لك . إصعد المنبر وانشد الناسَ ان لايبقى احد منهم اخذ منه شيئاً إلاّ ردَّه " [٢٨] .

---

(٢٦) ناسخ التواريخ : ( ج ٢ ، ص ١٤٠ ) .

(٢٧) المصدر : ( ص ١٤١ ) .

(٢٨) عوالم العلوم : ( ج ١٨ ، ص ١٧٩ ) .

وهكذا كانت سجية الإمام الشجاعة ، ولكن الظروف التي عاشها لم تكن تنقصها الثورة والشجاعة ، لأن واقعة الطف قد شحنت ضمير الأمة بالشجاعة بما يكفيها لقرون متمادية ، وربما إلى الأبد . إنما كانت بحاجة إلى صبغة إيمانية تسمو بالثورة إلى أهدافها القيّمة ، وهكذا اتّجه الإمام (ع) إليها .

فزعم السذج من الناس أن ذلك كان مزاجاً شخصياً . كما زعموا في مثل ذلك في الأنبياء . فمنهم من قال : إن تضحية إبراهيم وصبر نوح ، ووحدة موسى وزهد عيسى وخُلق محمد عليهم جميعاً صلوات الله ، وسائر الصفات المتميزة لكل نبيٍ من رُسل الله (ع) إنما كانت سمات شخصياتهم ، وحالاتهم المزاجية ، ناسين أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وانه لا يجعل رسالته إلاّ حيث تقتضي حكمته . وأن تلك الصفات التي تجلّت بهم كانت ضرورية للظروف التي عاشوها والبشر الذين تعاملوا معهم . حتى ولو افترضنا جدلاً أن نبيّاً وُضِعَ في مقام نبيٍّ آخر لتبنّى سلوكه وعمل بمنهاجه ، بلا اختلاف قليل أو كثير .

وكالأنبياء يكون الأئمة ، فلكل واحد منهم صحيفة يعمل بها ، وقد كانت مرسومة ضمن السياق التاريخي الذي عاشه . وحسب تلك الصحيفة الإلهية عمل الإمام السجاد (ع) . الذي كانت حياته قمة في العبادة والضراعة ، وبثّ روح الإيمان في المجتمع ، وتربية رجال متميزين في الزهد والتهجد ، من أمثال : الزهري ، وسعيد بن جبير ، وعمر بن عبد الله السبيعي ، وآخرين ..

وهكذا رسمت صحيفة السجاد (ع) منهاج إمامته فيما يبدو في التركيز على الجانب الروحي ، على أنه كان في طليعة مهامٍّ سائر الأئمة (ع) ، إلاّ أن الحاجة إليه كان في عهد الإمام زين العابدين (ع) أشد ، ولذلك كان التركيز عليه أعظم . ولكن السؤال : كيف اضطلع الإمام بهذه المهمة ؟. وأي منهاج اتّبعه لبلوغ هذا الهدف العظيم ؟

## منهاج الإمام (ع) في التربية الروحية :

ممّا لاشك فيه أن ائمة الهدى هم مشاعل الحق للأجيال في كل عصر ومصر ، ولكن لأن الظروف مختلفة من جيل لآخر ، ومن مصر لمصر ثان ، ولأن الله قد ختم بالمصطفى رسالاته ، وبأوصيائه خلفاءه المعصومين ، فإن حكمته اقتضت أن تكون سيرة كل واحد منهم متميزة بهدى ومنهاج ، ليكون مجمل سيرهم المتنوعة ذخيرة غنية يرجع الناس إليها ليأخذوا منها ما يتناسب وظروفهم الخاصة ..

وكانت سيرة الإمام علي بن الحسين (ع) الإيمانية هي المنهاج المتناسب كليّاً وظروف مشابهة لظروفنا في بعض البلاد حيث حبانا الله سبحانه بحالة ثورية تحتاج إلى المزيد من الروح الإيمانية حتى لاتخرج الحركة عن مسارها الديني ، ولا تفسد السياسة ومصالحها وحتمياتها النقاء الإيماني الذي يحتاجه العاملون في سبيل الله .

فماذا كانت سيرته ، وماهو برنامجه ؟

أولاً : كان عباد الله المخلصون دعاة إلى الله بسلوكهم قبل أن يكونوا دعاة بألسنتهم ، فما أمروا الناس بشيء إلاّ وسبقوهم إليه .

وكانت حياة الإمام السجاد (ع) لوحة إيمانية نقية ، وقد تحدثنا عنها في فصل آخر . وقال عنه جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي الشهير : ما رأيت في أولاد الأنبياء شخصاً كعلي بن الحسين (ع) .

ثانياً : تربية جيل من العلماء الربانيين الذين ربوا بدورهم علماء وثائرين وعبّاداً صالحين . وهكذا تماوجت تعاليم الإمام عبر النفوس الزكية في حلقات مترامية كالصخرة العظيمة تُلقى في بحر واسع ..

وكان في هؤلاء الرجال العرب والموالي ،ولكلٍّ قصة وتاريخ . فدَعْنا نتزود من عبق سيرة حواري الإمام (ع) الذين كان أكثرهم من التابعين :

ألف : كان سعيد بن جبير من أولئك التابعين الذين اقتبس من الإمام زين العابدين (ع) روح الإيمان .. كان مثلاً في العبادة والإجتهاد كان يسمى بـ ( بصير العلماء ) ويقرأ القرآن في ركعتين ، وبلغ من علمه أنه اشتهر بين العلماء أنه ما على الأرض أحد إلاّ وهو محتاج إلى علمه [29] .

واستشهد سعيد على يد طاغية العراق الحجاج . ويقول الإمام الصادق (ع) :

" إن سعيد بن جبير كان يأتم بعلي بن الحسين ، فكان علي يثني عليه . وما كان سبب قتل الحجاج له إلاّ على هذا الأمر ، وكان مستقيماً " [30] .

ومن خلال حوار ساخن جرى بينه وبين جزار بني أمية الزنيم نعرف مدى استقامة هذا العالم الرباني .

ذكر أنه لما دخل على الحجاج بن يوسف قال له : أنت شقي بن كسير .

قال : أُمي كانت أعرف بي ، سمتني سعيد بن جبير .

وقيل إنه سأله كيف يفضل أن يقتله ؟ قال : اختر لنفسك ، قال وكيف ذلك ؟. قال : لأنه لاتقتلني بقتلة إلاّ واقتلك بها يوم القيامة .

باء : وكان عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني الذي يكنى بـ ( أبي إسحاق ) من ثقاة الإمام السجاد (ع) وبلغ من عبادته أن قيل عنه لم يكن في زمانه أعبد منه ، حيث كان يختم القرآن في كل ليلة . وقد صلى أربعين سنة صلاة الفجر بوضوء صلاة العتمه ، وكان محدثاً لا أوثق منه في الرواية عند الخاص والعام [31] .

جيم : وكان الزهري عاملاً في بلاط الأمويين ، فعاقب رجلاً فمات في العقوبة ، فارتاع لذلك فخرج على وجهه هائماً ، واعتكف في غار تسع سنين ، فرآه الإمام السجاد (ع) وهو في طريقه إلى الحج ، فقال له :

---

(٢٩) المصدر : ( ص ٢٨٠ ) .

(٣٠) المصدر : ( ص ١٨٢ ) .

(٣١) عوالم العلوم : ( ج ١٨ ، ص ٢٨١ ) .

" إني أخاف عليك من قنوطك مالا أخاف عليك من ذنبك . فابعث بِديَةٍ مسلّمة إلى أهله ، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك " .

فقال له : فرّجتَ عني يا سيدي ، الله أعلم حيث يجعل رسالته . ورجع إلى بيته ، ولزم علي بن الحسين (ع) . وكان يعد من أصحابه . ولذلك قال له بعض بني مروان : يا زهري ـ ما فعل نبيك ، يعني علي بن الحسين [٣٢] .

ومن هذه الرواية نعرف كيف كان الله يهدي الناس بالإمام حتى يصبح عامل بني أمية من كبار العلماء المعروفين عند كل الفرق الإسلامية كالزهري .

دال : وكان سعيد بن المسيب بن حزن من كبار التابعين الذين ربّاهم أمير المؤمنين (ع) ، والتزم خط آل البيت (ع) حتى كان من صفوة أصحاب الإمام السجّاد (ع) . وعنه قال : " سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدم من الآثار " [٣٣] .

وقد قال رجل لسعيد يوماً : ما رأيت رجلاً أورع من فلان ( وذكر اسم رجل من الناس ) فقال له سعيد : فهل رأيت علي بن الحسين ؟. قال : لا ، قال سعيد : ما رأيتُ رجلاً أورع منه [٣٤] .

ومثل هؤلاء طائفة كبيرة من كبار علماء الإسلام الذين أخذوا عن الإمام الزهد والتقوى ، والتفسير والحكمة والفقه ، حتى قال الشيخ المفيد : إنه روى عنه الفقهاء من العلوم مالا يحصى كثرة ، وحفظ عنه من المواعظ والأدعية وفضائل القرآن والحلال والحرام والمغازي والأيام ماهو مشهور بين العلماء .. وقال ابن شهر أشوب : قلّما يوجد كتاب زهد وموعظة لم يذكر فيه : قال علي بن الحسين ، أو قال زين العابدين (ع) [٣٥] .

وكان شديد الإحترام لطلبة العلوم الذين كانوا يتوافدون عليه في المدينة من أقطار العالم الإسلامي ، ويرى أنهم وصية رسول الله (ص) .. وكان العلماء يستلهمون من سلوكه الهدى والورع قبل أن يتلقوا من منطقه العلم والمعرفة ، ومن لايستلهم نور الله من تلك الطلعة الربانية ، من العين التي تفيض من خشية الله ، والجبهة التي عليها ثفنات من أثر السجود ، من ذلك اللسان الذي لاينى يذكر الله عزّ وجلّ .. وبالتالي من تلك السيرة التي يشع منها نور الله تبارك وتعالى .

يذكر عبد الله بن الحسن فيقول : كانت أمي فاطمة بنت الحسين تأمرني أن أجلس إلى خالي علي بن الحسين (ع) . فما جلست إليه قط إلاّ قمت بخير قد أفدته ، إما خشية لله تحدث في قلبي لما أرى من

---

(٣٢) المصدر : ( ص ٢٨٢ ) .

(٣٣) بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ١٣٣ ) .

(٣٤) عوالم العلوم ( ج ١٨ ، ص ٢٨٣ ) .

(٣٥) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ح ٣ ، ص ١٩٦ ) .

خشيته لله ، أو علم قد استفدته منه[36] .

وكانت الفتوحات الإسلامية تطوي كل يوم بلداً جديداً ، وتضم إلى الجسد الإسلامي عضواً جديداً ، ولكنها كانت بحاجة إلى زخم إيماني يصهر مختلف الثقافات والتقاليد والمصالح في بوتقة الأمة الواحدة .

وقد تصدى الإمام زين العابدين (ع) وأصحابه وأنصاره لهذه المسؤولية وبسبل شتى . فقد كان شديد الإحترام للموالي ، وهم المنتمون إلى سائر الشعوب التي دخلت في الإسلام ، بعد فتح البلاد لها ، ولمّا تبلغ من المعارف الإلهية نصيباً كافياً .

وكان كثير من الموالي من خيرة أصحاب الإمام (ع) . كما كان الإمام يتبع منهجاً فريداً في زرع القيم الإلهية في أفئدة ثلة مختارة منهم .. حيث كان يشتري العبيد ويتعامل معهم بأفضل طريقة ثم يُعتقهم ويزوِّدهم بما يوفر لهم الحياة الكريمة ، فيكون كل واحد منهم ركيزة إعلامية بين بني قومه .. ولنقرأ معاً أخلاق الإمام في تعامله مع مواليه قبل أن نعرف كيف كان يعتقهم ، فإن تلك الأخلاق الحسنة كانت مدرسة عملية لهم إلى جانب التوجيه المباشر .

روي عن عبد الرزاق ( أحد الرواة ) أنه قال : جعلت جارية لعلي بن الحسين (ع) تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة ، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجّه . فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية : إنّ الله يقول : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال : كظمت غيظي ، قالت : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال لها : عفا الله عنك ، قالت : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، (آل عمران/١٣٤) قال : اذهبي فأنت حرّة لوجه الله عزَّ وجلَّ[37] .

هكذا كان يتعامل مع الرقيق الذين اعتبرهم بعض الناس ذلك اليوم أن لهم طبيعة غير طبيعة الإنسان ، فكيف لا يؤثر فيهم ذلك الخلق الرفيع ؟.

ويروي بعضهم القصة التالية التي تعكس مستوىً رفيعاً من الصفح والسماحة والإيثار ، تقول الرواية : كان عنده (ع) قوم أضياف ، فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور ، فأقبل به الخادم مسرعاً فسقط السفود منه على رأس بُنَيٍّ لعلي بن الحسين تحت الدرجة فأصاب رأسه فقتله ، فقال عليٌّ للغلام وقد تحير الغلام واضطرب : " أنتَ حرٌّ ، فإنك لم تعتمده " ، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه[38] .

وكان له مولى يتولّى عمارة ضيعة له، فجاء فأصاب فيها فساداً وتضييعاً كثيراً. فغاظه ما رأى من ذلك وغمّه ، فقرع المولى بسوطٍ كان في يده وندمَ على ذلك ، فلما انصرف إلى منزله أرسل في طلب المولى فجاء فوجده عارياً والسوط بين يديه ، فظنّ أنه يريد عقوبته ، فاشتد خوفه ، فقال له علي بن الحسين :

---

(٣٦) المصدر : ( ص ١٩٦ ) .

(٣٧) المصدر : ( ص ١٩٨ ) .

(٣٨) المصدر : ( ص ١٩٩ ) .

" قد كان مني إليك مالم يتقدّم مني مثله ، وكانت هفوة وزلّة ، خذ ذلك السوط واقتصّ مني " .

فقال : يا مولاي والله إن ظننت إلاّ أنّك تريد عقوبتي ، وأنا مستحق للعقوبة . فكيف اقتصُّ منك ؟! قال : " ويحك اقتصّ " ؟ قال : معاذ الله انتَ في حلٍ وسعة ، فكرَّر عليه ذلك مراراً والمولى يتعاظم قوله ويجلله ، فلما لم يره يقتص قال له : " امّا إذا أبيتَ فالضيعة صدقة عليك " [39] .

هذه نماذج من الخلق الكريم الذي اتسَم به سلوك الإمام (ع) مع الموالي . وقد كان اسلوب عتق الإمام لهم متميزاً يرويه التاريخ بجلال وإعجاب . فقد روى ابن طاووس في كتاب شهر رمضان المعروف بالإقبال ، بسنده عن الإمام الصادق (ع) انه قال : كان علي بن الحسين (ع) إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبداً له ، ولا أَمَة . وكان إذا اذنب العبد والأمة يكتب عنده أذنب فلان ، أذنبت فلانة يوم كذا وكذا، ولم يعاقبه . فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ، ثم أظهر الكتاب ثم قال : يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أؤدك اتذكر ذلك ؟ فيقول بلى يابن رسول الله . حتى ياتي على اخرهم ويقررهم جميعاً ثم يقوم وسطهم ويقول : ارفعوا اصواتكم وقولوا : يا علي بن الحسين إن ربك قد احصى عليك كلّ ما عملت كما احصيت علينا ولديه كتاب ينطق عليك بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ احصاها وتجد كلّ ما عملت لديه حاضراً ، فاعف واصفح يعف عنك المليك ويصفح ، فإنه يقول : وليعفوا وليصفحوا ، الا تحبون ان يغفر الله لكم ، وهو ينادي بذلك على نفسه ويلقنهم وينادون معه وهو واقف بينهم يبكي ويقول :

" ربَّنا إنك امرتنا ان نعفو عمن ظلمنا ، وقد عفونا عمن ظلمنا كما امرت ، فاعف عنّا فإنك اولى بذلك منّا ومن المامورين . إلهي كرمت فاكرمني إذ كنت من سؤالك وجدت بالمعروف فاخلطني باهل نوالك يا كريم " .

ثم يقبل عليهم فيقول قد عفوت عنكم ، فهل عفوتم عني ما كان مني إليكم من سوء ملكة فإني مليك سوء لئيم ظالم مملوك لمليك كريم جواد عادل محسن متفضل ؟. فيقولون : قد عفونا عنك يا سيدنا ، وما أسات . فيقول لهم قولوا : اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا عنّا واعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق . فيقولون ذلك ، فيقول : اللهم آمين ربَّ العالمين ، اذهبوا فقد عفوت عنكم واعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتي . فإذا كان يوم الفطر اجازهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس . وما من سنة إلاّ وكان يعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان ما بين العشرين نفساً إلى اقل أو أكثر . وكان يقول : إن لله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار سبعين الف عتيق من النار ، كُلاً قد استوجب النار . فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق فيها مثلما أعتق في جميعه . وإني لأحب أن يراني الله وقد أعتقت رقاباً في ملكي في دار الدنيا ، رجاء أن يعتق رقبتي من النار . وما استخدم

---

(٣٩) المصدر .

خادماً فوق حول . وكان إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسط السنة ، إذا كان ليلة الفطر أعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني ثم أعتقوا كذلك . ولقد كان يشتري السودان وما به إليهم من حاجة ، يأتي بهم عرفات فيسد بهم تلك الفُرَج فإذا أفاض أمر بعتق رقابهم وجوائز لهم من المال .

## الفصل الثالث

# دور الإمام (ع) في الاعلام الرسالي

الإعلام الرسالي هو الجهر بالقيم التي يدعو إليها الوحي . ولعل الكلمة المرادفة له في المنطق الإسلامي " الأذان " . وإذا كانت الدعوة إلى الله هي الركيزة الأولى لرسالات الله ، فإن الإعلام جانب اساسي منها .

ولقد كانت واقعة الطف الرهيبة الفجيعة واحدةً من اعظم الإثارات الإعلامية . اولم يقل السبط الشهيد أنا قتيل العبرة ؟. اولم يتواتر عن ائمة اهل البيت (ع) فضلُ البكاء على الحسين (ع) وزيارة قبره ، والدعاء تحت قبته ؟.

وهذا الدور الإعلامي الذي كان الهدف من استشهاد الإمام الحسين (ع) اضطلع به الإمام زين العابدين (ع) ، ومعه البقية العائدة من كربلاء ، وبالذات عقيلة الهاشميين زينب الكبرى (ع) .

وبقي الإمام (ع) خمساً وثلاثين سنة قائماً بهذا الدور حتى رسَّخ في ضمير الأمة قواعدَ الإعلام الحسيني المبارك على النحو التالي :

الف : كان اول واعظم هدف لوسائل الإعلام الحسيني ، إظهار الجانب المأساوي لواقعة الطف ، لتبقى راسخة في ضمير الأجيال المتصاعدة ، ولتكون شعلة متقدة في أفئدة المؤمنين ، تستثير فيهم حوافز الخير والفضيلة ، وتدعوهم إلى الإجتهاد والإيثار ، وليقولوا على مدى العصور : يا ليتنا كنّا معك فنفوز فوزاً عظيماً ، وليكونوا ابداً جنود الحق المتفانين في سبيل الله لكي لا تتكرر فاجعة الطف مرة اخرى ، أو ليكونوا . إذا وقعت مشاركين فيها بسهم واق ، ومدافعين عن الحق بكل قواهم .

ومن هنا نجد الإمام زين العابدين (ع) واحداً من البكّائين الخمسة في عداد آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

لقد بقي باكياً بعد واقعة الطف ثلاثاً وثلاثين عاماً ، ما وُضع امامه طعام إلاّ وخنقته العبرة وقال : لقد قتل ابن بنت رسول الله جائعاً ، فإذا جيء إليه بشراب انهالت دموعه فيه وقال : لقد قتل ابن بنت رسول الله عطشاناً . وإذا مرّ على جزّار استوقفه وساله : هل سقى الشاة ماءً ، ثم طفق يبكي ويقول : لقد قتلوا سبط رسول الله ظامئاً على شط الفرات .

وقد ضج لبكائه مواليه وأهل بيته . قال له احد مواليه مرة : جُعلت فداك يابن رسول الله ، إني اخاف ان تكون من الهالكين ، قال : إنما اشكو حزني إلى الله ، واعلم من الله مالا تعلمون . إني لم اذكر مصرع

بني فاطمة إلاّ خنقتني العبرة [40] .

باء : ولم يكن البُكاء الرسالة الوحيدة التي حملها الإمام زين العابدين (ع) إلى التاريخ ، فقد كانت رسالة الكلمة الثائرة هي المشكاة الصافية التي تشع من خلالها رسالة الكلمة . فمنذ الأيام الأولى لملحمة كربلاء عملت كلماتُ آل البيت (ع) وفي طليعتهم الإمام السجاد والصديقة زينب الكبرى (ع) في هدم جدار الصمت والتردد والخوف ، في الكوفة ، وفي الشام ، ثم في المدينة المنورة .

وحينما فرّق عامل يزيد " الأشدق " أهل البيت في البلاد الإسلامية خشية انتفاضة أهل المدينة حسب بعض الروايات التاريخية ، رُفِعَ لظُلامة الحسين (ع) في كل حاضرة منبر وجهاز إعلامي مقتدر .

ومن أشهر خطب الإمام (ع) تلك الرائعة التي أوردها في مسجد الشام ، والتي تحتوي على منهاج المبنر الحسيني الذي لو اتبّعناه ، لكان أبلغ أثراً وأنفذ في أفئدة الناس . وها نحن نتدبر في مفردات هذا المنهج قبل أن نستوحي معاً نص الخطاب :

ألف : حدد الإمام أهداف المنبر إذ قال للخاطب الذي سبقه إلى المنبر : اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبوأً مقعدك من النار .. وتوجه إلى يزيد وقال له : أتأذن أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه لله رضاً ولهؤلاء الجلساء نفع وثواب .

إذاً لابد أن تكون توجيهات الخطيب خالصة لوجه الله ، وأن يبحث عما يرضي الله ، حتى ولو أسخط الطغاة ، وأن ينطق بما ينفع الناس لا بما يضرهم .

باء : ثم بدأ الحديث بذكر الله سبحانه ، وحذّر الناس عقابه ، وذكّرهم بالموت والفناء ، ولا أبلغ من الموت موعظة ولا من الفناء رادعاً .

وجاء في بعض الروايات أن الناس قد أجهشوا بالبكاء عندما أكمل الإمام (ع) حديثه عن الآخرة ، مما جعل قلوبهم خاشعة تستقبل ما بيّنه بعدئذ من البصائر السياسية .

جيم : وبيّن الإمام (ع) خطه السياسي الأبلج الذي ينتهي إلى سيد المرسلين محمد وأهل بيته المعصومين ( صلّى الله عليه وعليهم أجمعين ) ، وأسهب في بيان صفاتهم التي هي المثل الأعلى في اليقين والإستقامة والجهاد .

دال : وأشهر الإمام (ع) ظُلامة السبط الشهيد ، وحملها راية حمراء تدعو الضمائر الحرة إلى الجهاد من أجل الله وفي سبيل نصرة المظلومين .. وهذه هي أشد محاور المنبر الحسيني : إثارةً للعواطف وتهييجا لكوامن الحزن والأسى .

هاء : وبعد أن أمر يزيد بأن يقطع عليه المؤذن حديثه لم يترك الإمام (ع) المنبر كما كان معهوداً ، وإنما استوقفه عند الشهادة الثانية وحمّل يزيد مسؤولية قتل والده ، مما يعني – في لغة العصر – وضع

---

(٤٠) المصدر : ( ص ٢٠٩ ) .

النقاط على الحروف . فلا يكفي للخطيب الحسيني ان يشير من بعيد إلى الحقائق السياسية ، بل لابد ان يصرّح بها بوضوح حتى يتبصر الناس وتتم الحجة عليهم .

وهكذا استطاع الإمام السجاد (ع) عبر هذا المنهاج الرائع أن يزلزل عرش يزيد زلزالاً حتى تنصّل من جريمته النكراء ، وتوجه إلى الجماهير الغاضبة التي كادت تبتلعه قائلاً : أيها الناس ، أتظنون أني قتلت الحسين ، فلعن الله مَن قتله عبيد الله بن زياد عاملي بالبصرة [41] .

اما خطاب الإمام (ع) الذي ينبغي ان يُتخذ مثلاً للخطَب الحسينية ، فهو التالي :

" أيها الناس احذركم الدنيا وما فيها ، فإنها دار زوال ، قد افنت القرون الماضية ، وهم كانوا أكثر منكم مالاً ، وأطول أعماراً . وقد أكل التراب جسومهم ، وغيَّر أحوالهم . أفتطمعون بعدهم ، هيهات هيهات ، فلابد من اللحوق والملتقى . فتدبَّروا ما مضى من عمركم وما بقي ، فافعلوا فيه ما سوف يلتقي عليكم بالأعمال الصالحة قبل انقضاء الأجل وفروغ الأمل ، فعن قريب تؤخذون من القصور إلى القبور ، وبافعالكم تحاسبون . فكم – والله – من فاجرٍ قد استكملت عليه الحسرات ، وكم من عزيز قد وقع في مهالك الهلكات ، حيث لا ينفع الندم ، ولا يُغاث من ظلَم .. ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً [42] .

قالوا : فضج الناس بالبكاء لبالغ اثر مواعظه في انفسهم ثم قال :

" أيها الناس ، أُعطينا ستاً وفُضلّنا بسبع :

أُعطينا العلم ، والحلم ، والسماحة ، والفصاحة ، والشجاعة ، والمحبة في قلوب المؤمنين .

وفُضلّنا بان منّا النبيُّ المختار محمداً ، ومنّا الصدّيق ، ومنّا الطيار ، ومنّا أسد الله واسد رسوله ، ومنّا سبطا هذه الأمة .

مَن عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي .

أيها الناس ! أنا ابن مكة ومنى ، أنا ابن زمزم والصفا ، أنا ابن مَن حَمل الرُّكن باطراف الرداء ، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى ، أنا ابن خير من انتعل واحتفى ، أنا ابن خير من طاف وسعى ، أنا ابن خير من حجَّ ولبَّى ، أنا ابن من حُمل على البُراق في الهواء ، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى ، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء ، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى ، أنا ابن محمد المصطفى ، أنا ابن علي المرتضى ، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا : لا إله إلا الله .

أنا ابن مَن ضرب بين يدي رسول الله بسيفَين ، وطعن برمحَين ، وهاجر الهجرتَين ، وبايع البيعتَين وقاتل ببدر وحنَين ، ولم يكفر بالله طرفة عَين .

---

(٤١) المصدر : ( ص ٢٠٩ ) .

(٤٢) المصدر .

أنا ابن صالح المؤمنين ، ووارث النبيين ، وقامع الملحدين ، ويعسوب المسلمين ، ونور المجاهدين وزين العابدين ، وتاج البكائين ، وأصبر الصابرين ، وافضل القائمين من آل ياسين رسول رب العالمين .
أنا ابن المؤيد بجبرئيل ، المنصور بميكائيل ، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين ، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين ، المجاهد أعداءه الناصبين ، وافخر من مشى من قريش اجمعين ، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين ، وأول السابقين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد المشركين ، وسهم من مرامي الله على المنافقين ، ولسان حكمة العابدين ، وناصر دين الله ، وولي أمر الله ، وبستان حكمة الله ، وعيبة علمه .
سمحٌ ، سخيٌّ ، بهيٌّ ، بهلولٌ ، زكيٌّ ، ابطحيٌّ ، رضيٌّ ، مقدامٌ ، همامٌ ، صابرٌ ، صوام ، مهذبٌ ، قوامٌ ، قاطعُ الأصلاب ، ومفرقُ الأحزاب ، أربطهم عناناً ، واثبتهم جَناناً ، وأمضاهم عزيمة ، واشدهم شكيمة ، أسد باسل ، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنّة وقربت الأعنّة طحن الرحا ، ويذروهم فيها ذرو الريح الهشيم ، ليث الحجاز ، وكبش العراق ، مكيٌّ مدنيٌّ خيفيٌّ عقبيٌّ بدريٌّ أحديٌّ شجريٌّ مهاجريٌّ . من العرب سيدها ، ومن الوغى ليثها ، وارث المشعَرين وابو السبطين ، الحسن والحسين ، ذاك جدي علي بن ابي طالب .
ثم قال : أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن سيدة النساء ...
فلم يزل يقول : أنا أنا ، حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب ، وخشي يزيد ( لعنه الله ) ان يكون فتنة ، فامر المؤذن فقطع عليه الكلام . فلما قال المؤذن : الله اكبر قال علي : لا شيء اكبر من الله ، فلما قال: أشهد ان لا إله إلاّ الله ، قال علي بن الحسين : شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ، فلما قال المؤذن : اشهد ان محمداً رسول الله ، التفت من فوق المنبر الى يزيد فقال : محمد هذا جدّي أم جدُّك يا يزيد ؟. فإن زعمت انه جدك فقد كذبت وكفرت ، وإن زعمت أنه جدي فَلِمَ قتلتَ عِترَته ؟ قال : وفرغ المؤذن من الأذان والإقامة وتقدم يزيد فصلّى صلاة الظهر " [٤٣] .

## الدعاء مدرسة ومنبر :

لقد بعث الله تعالى إلينا رسالته ، ترى كيف نستجيب له . ونرد إلى ربّنا الرحمن التحية ؟.
نردُّها بالدعاء . فإنه منهج حديث العبد مع ربّه عزَّ وجلَّ ، كما أن الوحي ذروة حديث الرب مع عباده .
والدعاء مخ العبادة ، ولباب التواصل ، وجوهر الصلاة . وكل دعاء حميد إلاّ ان الله تعالى انعم علينا بأن هدانا لتعلم ادعية أوليائه ، وبما أورثنا من ادعية النبيِّ وأهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام . ويبدو أنها جميعاً أدعية توَارثها عباد الله من الأنبياء ، ومن ثم من الوحي الإلهي ، لولا أقل هي تجليّات الوحي على أفئدة الهداة من عباد الله المقرَّبين ، وانعكاسٌ لمعارف الوحي على قلوبهم الزكية والسنتهم الصادقة .

---

(٤٣) ناسخ التواريخ : ( ج ٢ في حياة الإمام زين العابدين ص ٢٤١ ) .

فالأدعية المأثورة — إذاً — هي الوجه الآخر للوحي ، وهي ظلاله الوارفة ، وأشعته المنيرة ، وتفسيراته وتأويلاته .

وهكذا كانت الأدعية كنوز المعارف الربانية ، وتلاد الحكم التي لاتنفذ ، وفي طليعتها أدعية الصحيفة السجادية التي جمعت من كلمات الإمام زين العابدين (ع) .

فإلى ماذا كان يهدف الإمام من تلك الأدعية ؟. لا ريب انها كانت شعاعاً من قلبه المنير بالإيمان ، وفيضاً من فؤاده المتقد بحب الله ، وكانت كلماتها تتزاحم على شفاه رجل كاد يذوب في هيام ربِّهِ ، ولم تكن تَكلّفاً منه .

بلى ، قد حققت أهدافاً عديدة أبرزها تعليم عباد الله كيف يدعون ربَّهم العظيم ، وكيف يتضرعون إليه ، ويتحببون إليه ، ويلتمسون رضاه . ويتوافون على أسمائه الحسنى .. وكيف يطلبون منه حوائجهم ، وماذا يطلبون ؟.

وهذا الهدف الرباني تفرّع بدوره إلى عدة أمور حياتية يذكرها المؤرخون عادةً عند بيان حكمة الصحيفة السجادية ، ونحن نشير إليها باختصار شديد .

أ : ان الضغوط كانت بالغة الشدة في عهد الإمام السجّاد (ع) إلى درجة ان عقيلة الهاشميين زينب الكبرى (ع) اصبحت لفترة ، وسيطة في شؤون الإمامة بين الإمام والمؤمنين . وفي مثل تلك الظروف العصيبة كان من الطبيعي أن يبث الإمام بصائر الوحي وقيم الرسالة عبر الأدعية التي مشت في الأمة ولا تزال كما يمشي الشذى عند نسيم عليل !!

ب — والإمام كثائر رباني لم يدع معارضة الطواغيت والوقوف بوجه الفساد الذي اوجدوه بسبب الظروف الصعبة ، بل عارضهم بالأدعية التي لم تستطع اجهزة النظام برغم قوتها صد الإمام عنها .

وهكذا اتم الله سبحانه الحجة علينا ، كي لاندع الوقوف بوجه الطغاة باية وسيلةٍ ممكنة ، حتى في اشد العصور إرهاباً وقمعاً .

ج : وكانت الأدعية — إلى ذلك — وسيلة تربية الناس على التقوى والفضيلة والإيثار والجهاد وذلك بما تضمنت من مفاهيم متسامية ، ومواعظ ربانية ، فكان النخبة من ابناء الأمة يتغذون عليها كما يتغذى النبات الزاكي من اشعة الشمس . فإن حركات المعارضة تحتاج إلى زخم ثوري يدفع ابناءها قُدُماً في طريق المعارضة كالنشرات السرية والجلسات الخاصة ، والشعارات والبيانات ، فإن تلك الصحف المطهرة كانت غذاءً رسالياً لتلك النخبة المؤمنة في مواجهة النظام الأموي .

ولا تزال أدعية الإمام (ع) التي جمعت في الصحيفة السجادية ، لاتزال هذه الأدعية ذلك الزخم الإيماني الذي يوفر لنا الروح الإيمانية في الأيام العصيبة . ولا اظن — بعد القران — انَّ كتاباً يكون تسلية لفؤاد المحرومين ، وثورة في دماء المستضعفين ، ونوراً في افئدة المجاهدين وهدى على طريق الثائرين كالصحيفة السجادية ، فسلام الله على تلك النفس الزكية التي فاضت بها ، وسلام الله على من تبتّل

بها مع كل صباح ومساء .

## الشعر منبر سيار :

تناغم الحياة ينعكس في ضمير الإنسان بحبك أوزان الشعر ومعانيه البديعة . وكانت العرب في الجاهلية وفي العصور الإسلامية الأولى ، بالغة الإهتمام بالشعر . وقد مدح ربُّنا سبحانه في سورة الشعراء أولئك المؤمنين منهم الذين ينتصرون للمظلوم . وقد اهتم أئمة الهدى (ع) بالشعر كمنبر سيار يمشي بين الناس بانسياب . كما أن الطغاة بدورهم استخدموا الشعراء مطية لإعلامهم المضلِّل . وقد قيل إن الإمام زين العابدين (ع) نظم الشعر . واشهر ما ينقل عنه تلك الرائعة التي يقول فيها :

| | |
|---|---|
| نحن بنو المصطفى ذوو غصص | يجرعها في الأنام كاظمنا |
| عظيمة في الأنام محنتنا | أولنا مبتلى و آخرنا |
| يفرح هذا الورى بعيدهمُ | و نحن أعيادنا مآتمنا |
| و الناس في الأمن و السرور ، و ما | يأمن طول الزمان خائفنا |
| و ما خصصنا به من الشرف الطا | ئل بين الأنام آفتنا |
| يُحكَم فينا ، و الحكم فيه لنا | جاحدُنا حقَّنا و غاصبنا [44] |

ونسب إليه ابن شهر اشوب في المناقب قوله :

| | |
|---|---|
| لكم ما تدَّعون بغير حَقٍّ | إذا ميز الصحاحُ من المِراضِ |
| عرفتمْ حقَّنا فجحدتمونا | كما عرف السواد من البياضِ |
| كتابُ الله شاهدُنا عليكم | وقاضينا الإله ، فنعم قاضِ [45] |

أما تاييده للشعراء المدافعين عن الحق ، فنعرفه من خلال قصة مع الفرزدق الذي كان محسوباً على بلاط الأمويين ، إلاّ أنه كان ينتمي تاريخيّاً إلى البيت العلوي . فلما وجد فرصة فاضت قريحته بالرائعة المعروفة . فلما غضب عليه هشام بن عبد الملك والسلطة الأموية واعتقل ، بادر الإمام بجائزته . وبقي إلى آخر حياته يعيش في ظل الإمامة الإسلامية حسبما يذكر بعض المؤرخين .

أما رائعته وقصتها . فهي التالية :

رواها السبكي في طبقات الشافعية بسند متصل إلى ابن عائشة عبد الله بن محمد عن ابيه ، قال : حج هشام بن عبد الملك فطاف بالبيت فجهد ان يصل إلى الحجر فيستلمه فلم يقدر عليه ، فنُصب له منبرٌ وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه اهل الشام ، إذ اقبل علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وكان من احسن الناس وجهاً واطيبهم ارجاً ، فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر تنحَّى له الناس حتى

(٤٤) بحار الأنوار : ( ج ٤٥ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ) .

(٤٥) في رحاب أهل البيت : ( ج ٣ ، ص ٢٤٩ ) .

يستلمه ، فقال رجل من أهل الشام مَن هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة ؟. فقال : هشام لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام . وكان الفرزدق حاضراً فقال الفرزدق ، ولكني أعرفه. قال الشامي : من هو يا أبا فراس ؟. فقال الفرزدق ( وقد توافقت روايتا سبط ابن الجوزي والسبكي إلاّ في أبيات يسيرة ، وهذا ما ذكراه ) :

هذا الذي تَعرف البطحاءُ وطأتَهُ … و البيت يعرفه و الْحِلُّ و الحَرمُ

هذا ابنُ خير عبادِ الله كلِّهمُ … هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلَمُ

يكادُ يُمْسِكُه عرفانُ راحَتِه … ركنُ الحطيم إذا ما جاءَ يَستلمُ

إذا رأتْهُ قريشٌ قالَ قائِلُها … إلى مكارمِ هذا يَنتهي الكرَمُ

إنْ عُدَّ أهلَ التُّقى كانوا ذوي عددٍ … لو قيل مَن خيرُ أهلِ الأرضِ قيلَ هُمُ

هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَهُ … بجَدِّه أنبياءُ الله قد خُتِموا

وليسَ قولُك مَنْ هذا بضائرهِ … ألْعُرْبُ تَعرف مَن أنكرتَ والعجَمُ

يُغضي حَياءً ويُغْضَى مِنْ مَهابَتِهِ … فَمَا يُكلَّمُ إلاّ حينَ يَبتسمُ

يُنْمَى إلى ذروةِ العزِّ التي قَصُرَتْ … عنها الأكفُّ وعن إدراكِها القدَمُ

من جدُّه دان فضل الأنبياء له … وفضل أمته دانت له الأممُ

ينشقُّ نورُ الهدى عن صَبْحِ غرّتِهِ … كالشمس تنجابُ عن إشراقها الظُّلَمُ

مشتقّة من رسولِ الله نبعته … طابتْ عناصرُه والْخيمُ والشِّيَمُ

الله شرَّفَهُ قِدْماً وفضَّلَه … جرى بذاك له في لوحِهِ القلَمُ

كِلتا يَديهِ غياثٌ عمَّ نفعُهما … يَستوكِفانِ ولا يَعروهما العدَمُ

سهلُ الخليقةِ لا تُخشى بوادرهُ … يَزينه اثنانِ حُسْنُ الْخُلقِ والكرَمُ

حمّالُ أثقالِ أقوامٍ إذا فُدِحوا … رحبُ الفِناء ، أريبٌ حين يَعتزمُ

ما قال : لا ، قطُّ إلاّ في تشهّدِهِ … لولا التشهدُ كانتْ لاؤه نَعَمُ

عَمَّ البريةَ بالإحسان فانقشعتْ … عنه الغيابةُ لا هلقٌ ولا كَهَمُ

مِنْ مَعشرٍ حبُّهمْ دينٌ ، وبُغضُهمُ … كفرٌ ، وقربهمُ ملجاً ومُعْتصَمُ

لا يَستطيع جوادٌ بَعْدَ غايتِهم … ولا يُدانيهمُ قومٌ وإن كَرُموا

همُ الغيوثُ إذا ما أزمةٌ أزمتْ … والأسْدُ أُسدُ الشرى والرأي مُحْتَدمُ

لا يُنقِص العسرُ بَسْطاً من أكفِّهم … سيَّانِ ذلك إن أثْرَوْا وإنْ عُدِموا

يَستدفع السوءُ والبلوى بحُبِّهمُ … ويُستربُّ به الإحسانُ والنِّعمُ

مقدَّمٌ بعدَ ذكرِ الله ذكرُهُمُ … في كلِّ بدْءٍ ، ومختومٌ به الكَلِمُ

يَأبى لهمْ أن يَحُلَّ الذمُّ ساحتَهم … خيمٌ كريمٌ ، وأيدٍ بالندى هُضُمُ

أيُّ الخلائقِ ليستْ في رقابهمُ لأوّليّةِ هذا أو لَهُ نعَمُ
مَن يَعْرِفِ اللهَ يَعْرِفْ أوّليّةَ ذا الدِّينَ مِنْ بيْتِ هَذا نَالَهُ الأُمَمُ

هذا علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) ، فغضب هشام وأمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة ، فبعث إليه علي بالف دينار فردها وقال : إنما قلت ما قلت غضباً لله ولرسوله ، فما آخذ عليه اجراً . فقال علي : نحن اهل بيت لا يعود إلينا ما اعطينا ، فقبلها الفرزدق وهجا هشاماً فقال :

أيحسبني بين المدينة والتي إليها قلوبُ الناس يَهوي مُنيبُها
يُقَلِّبُ راساً لم يكن راسَ سَيِّدٍ وعَيناً له حولاء بادٍ عُيوبُها

فأُخبر هشامٌ بذلك فاطلقه . ولكنه قطع راتبه من الديوان ، وكان الف دينار سنوياً ، فاشتكى إلى الإمام فاعطاه اربعين الف دينار وقال له : لو كنت تحتاج إلى اكثر لأعطيتك . فعاش الفرزدق اربعين عاماً ثم مات رحمه الله تعالى .

## رسالة الحقوق :

يبحث بعض الناس عن الدرجات العلى في الإيمان ويتساءلون : كيف نجتهد حتى نصبح مؤمنين حق الإيمان ؟. لمثل هؤلاء كتب الإمام زين العابدين (ع) رسالة الحقوق التي تشرح واجبات المؤمن ومسؤولياته تجاه الخالق والناس ، وتحدّد – بالتالي – طبيعة العلاقة القائمة على اسس متوازنةٍ وعادلةٍ ، وقد استهلّت الرسالة بما يلي :

" إعلم – رحمك الله – ان لله عليك حقوقاً محيطةً بك في كل حركة تحرّكتها ، او سكنة سكنتها ، او منزلة نزلتها ، أو جارحة قلّبتها ، أو آلة تصرفت بها ، بعضُها اكبر من بعض . واكبر حقوق الله عليك ما اوجبه عليك نفسك من قرنك إلى قدمك ، على اختلاف جوارحك ، فجعل لبصرك عليك حقّاً ، ولسمعك عليك حقّاً ، وللسانك عليك حقّاً ، وليدك عليك حقّاً ، ولرجلك عليك حقّاً ، ولبطنك عليك حقّاً ، ولفرجك عليك حقّاً ، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال . ثم جعل لافعالك عليك حقوقا : لصلاتك عليك حقّاً ، ولصومك عليك حقّاً ، ولصدقتك عليك حقّاً ، ولهديك عليك حقّاً ، ولافعالك عليك حقّاً . ثم تُخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك ، واوجبُها عليك حقُّ ائمتك ، ثم حقوق رعيتك ، ثم حقوق رَحِمك " [٤٦] .

ويستمر الإمام (ع) في بيان هذه الحقوق وفروعها ، ويبيّن من خلالها العلاقة المثلى بين الانسان وبين الخلق والخالق . وسوف نستوحي من دراسة رسالة الحقوق البصائر التالية :

اولاً : ان حديث الإمام (ع) كان موجهاً للصفوة من اهل الإيمان ، الذين نشروا الكمال وسعوا إليه سعيه ، لذلك تجد الحقوق المذكورة في هذه الرسالة تجمع بين الحقوق الواجبة والأخرى المندوبة . بل

---

(٤٦) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ج ٣ ، ص ٢١٦ ) .

إن أكثرها من النوع الثاني .

ثانياً : إن هذه الرسالة وأمثالها مما نجده عند أئمة أهل البيت (ع) في صيغة رسائل أو وصايا مفصَّلة، والتي جمعها العالم الكبير الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في كتابه الفذ ( تحف العقول ) كانت بمثابة دروس مركَّزة في التربية الرسالية توارثها الصالحون من أولياء أهل البيت ( عليهم السلام ) بهدف بناء القدوات المثلى والطليعة المتميزة من أبنائهم ليكونوا شهداء على الناس .

وما أحوجنا نحن المسلمين اليوم إلى العودة إليها في مناهج التربية ، وبالذات في الحوزات العلمية التي هي الامتداد الرسالي لخط أهل البيت النبوي (ع) .

ثالثاً : إن هذه الرسالة تحافظ على توازن الشخصية الإيمانية وتصونها من التطرف نحو جانب من الشريعة وإهمال سائر الجوانب ، فلابد أن تتسع صدورنا لكافة أبعاد الشريعة ، وضمن برامج محددة نجدها في مثل رسالة الحقوق .

وكلمة أخيرة : إن هذه الرسالة تعكس البصيرة القرآنية ذات الشمول والعمق والدقة التي تتناسب ومقام الإمامة لسيد الساجدين (ع) ، والتي يعجز عن مثلها أي فقيه أو عالم إن لم يكن متصلاً برافد الرسالة الذي لا ينضب . فسلام الله على من أرسلها ، وبارك الله لمن استجاب لها .

## كراماته وشهادته :

استفاضت كتب الأثر بالحديث القدسي الذي ينطق عن ربِّ العزة بالقول : " عبدي أطعني تكن مثْلي (أو مَثلي ) أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

وكتاب الله العزيز حافل بأمثلة واقعية من تاريخ الأنبياء والصالحين الذين استجاب الله دعاءهم بما أعجز الناس . أليس طوفان نوح وسفينته ، ونيران إبراهيم التي جعلها الله تعالى برداً وسلاماً ، وعصا موسى التي ألقاها فجعلها الله ثعباناً مبيناً ، وحديث عيسى في المهد صبيّاً ، واستجابة دعاء إبراهيم ثم زكريا حينما رزقهما الله أولاداً وقد بلغا من الكبر عتيّاً . أليس كل ذلك من كرامة الله لأوليائه المخلصين ؟. فلماذا يصعب على البعض تصديق كرامات أولياء الله الآخرين ، كما يصدقون بكرامات أولياء الله السابقين ؟. أوليس الحديث النبوي الشريف يقول : " علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل " ؟. فكيف تصدق المعجزة على عهد بني إسرائيل بنص القرآن ، ولا تأتي الكرامة على يد أهل بيت الرسول ؟.

وهذا علي بن الحسين (ع) ، الذي قرأنا معاً بعض صفاته ، أَيعزُّ على الله سبحانه أن يجري على يدَيه الكرامات ؟ ومَن أولى بها ممن كان على مثل تلك الصفات ، قوّامَ الليل ، صوّام النهار ، بكّاءً ، سجّاداً ، إلخ .....

ونحن إذ نقتطف من تاريخه (ع) نزراً يسيراً من كراماته ، فلكي نزداد يقيناً بأن ربَّنا سبحانه يستجيب دعوة المخلصين من عباده الذين جاروا إليه بكل كيانهم وأبعاد وجودهم .. ثم نزداد للأئمة من أهل

البيت (ع) حباً ، فإن حُبَّهم نجاةٌ من النار ووسيلةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ .

١– من كراماته (ع) ، أن الله الهمه من علمه عبر رؤيا شاهد فيها رسول الله (ص) ، ما اظهر كرامته وفضله . والقصة كما يلي :

روي عن الإمام الصادق (ع) انه قال :

" لمّا وُلِّيَ عبد الملك بن مروان الخلافة كتب إلى الحجاج بن يوسف :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الملك بن مروان امير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف .

اما بعد ، فانظر دماء بني عبد المطلب فاحقنها واجتنبها ، فإني رايت آل ابي سفيان لما ولعوا فيها لم يلبثوا إلاّ قليلاً ، والسلام . قال : وبعث بالكتاب سرّاً .

وورد الخبر على علي بن الحسين (ع) ساعة كتب الكتاب وبعث به إلى الحجاج ، فقيل له : إنّ عبد الملك قد كتب إلى الحجاج كذا وكذا ، وإن الله قد شكر له ذلك ، وثبَّت ملكه وزاده برهة .

قال : فكتب علي بن الحسين (ع) :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الملك بن مروان امير المؤمنين من علي بن الحسين بن علي .

اما بعد ، فإنك كتبت يوم كذا وكذا ، من ساعة كذا وكذا من شهر كذا وكذا بكذا وكذا . وإن رسول الله (ص) انبائني وخبَّرني . وإن الله قد شكر لك ذلك وثبَّت ملكك وزادك فيه برهة .

وطوى الكتاب وختمه وارسل به مع غلام له على بعيره ، وامره ان يوصله إلى عبد الملك ساعة يقدم عليه . فلما قدم الغلام اوصل الكتاب إلى عبد الملك ، فلما نظر في تاريخ الكتاب وجده موافقاً لتلك الساعة التي كتب فيها إلى الحجاج ، فلم يشك في صدق علي بن الحسين (ع) وفرح فرحاً شديداً ، وبعث إلى علي بن الحسين (ع) بوقر راحلته دراهم ثواباً لما سرَّه من الكتاب " [٤٧] .

٢– وكذلك قصته مع ابي خالد الكابلي ، ويرويها الإمام الباقر (ع) كالتالي :

" كان ابو خالد الكابلي يخدم محمد بن الحنفية دهراً ( وهو ابن الإمام علي ، وعم الإمام السجاد عليهما السلام ) . وما كان يشك في انه إمام حتى اتاه ذات يوم ، فقال له : جعلت فداك إن لي حرمة ومودة وانقطاعاً ، فاسالك بحرمة رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) إلاّ اخبرتني انت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه ؟. قال : فقال : يا ابا خالد حلَّفتني بالعظيم . الإمام عليٌّ بن الحسين (ع) عَلَيَّ وعليك وعلى كلِّ مسلم . فاقبل ابو خالد لَمَّا ان سمع محمد ابن الحنفية ، وجاء إلى علي بن الحسين (ع) فلما استاذن عليه أُخبر ان ابا خالد بالباب ، فاذن له .

---

(٤٧) بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ٤٤ ) .

فلما دخل عليه ودنا منه ، قال : مرحباً يا كنكر . ما كنت لنا بزائر ما بد لك فينا ؟.

فخر ابو خالد ساجداً شاكراً لله تعالى مما سمع من علي بن الحسين (ع) ، فقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى عرفت إمامي .

فقال له علي (ع) : وكيف عرفت إمامك يا ابا خالد ؟.

قال : إنك دعوتني باسمي الذي سمَّتني به أمي التي ولدتني . وقد كنت في عمياء من امري ، ولقد خدمت محمد ابن الحنفية عمراً من عمري ولا اشك أنه إمام ، حتى إذا كان قريباً سالته بحرمة الله تعالى وحرمة رسوله (ص) وبحرمة امير المؤمنين (ع) فارشدني إليك ، وقال : هو الإمام عَلَيَّ وعلَيك وعلى جميع خلق الله كلهم . ثم اذنت لي فجئت فدنوت منك وسمَّيتني باسمي الذي سمَّتني امي ، فعلمت انك الإمام الذي فرض الله طاعته عَلَيَّ وعلى كلِّ مسلم " [48] .

٣– ويذكر الشيخ الطوسي القصة التالية ايضاً :

خرج علي بن الحسين (ع) إلى مكة حاجّاً حتى انتهى إلى وادٍ بين مكة والمدينة ، فإذا هو برجل يقطع الطريق ، قال :

فقال لعلي إنزل .

قال : تريد ماذا ؟.

قال : اريد ان اقتلك واخذ ما معك .

قال : فانا أُقاسمك ما معي وأُحِلُّك .

قال : فقال اللص : لا .

قال : فدع معي ما اتبلَّغ به .

فابى .

قال : فاين ربك ؟.

قال : نائم .

قال : فإذا أسَدانِ مُقبلان بين يَديه فاخذ هذا براسه وهذا برجلَيه .

قال : زعمتَ انّ ربك عنك نائم [49] .

٤– ومن كراماته صلوات الله وسلامه عليه ، ما ظهر عند وفاته . فلقد توفي الإمام بعد ان دس إليه الأمويون السم في عام ( ٩٤ ) في شهر محرم في اليوم الخامس والعشرين ، وقيل في اليوم الثامن عشر. وفي تلك السنة توفي طائفة من الفقهاء حتى سميت سنة الفقهاء . ولست استبعد ان يكون النظام

---

(٤٨) المصدر : ( ص ٤٦ ) .

(٤٩) المصدر : ( ص ٤١ ) .

الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك قد دس السم إلى المعارضين وفيهم كبار الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وسعيد بن جبير . وجاء في التواريخ انه توفي في تلك السنة عامة فقهاء المدينة [50] .

وهل يعقل أن يموت كل الفقهاء في سنة واحدة صدفةً ، علماً بان المعروف أن الإمام السجاد (ع) استشهد متأثراً بالسم الذي دسه إليه عبد الملك بن مروان في ظروف غامضة .

وكيفما كان الأمر فقد ظهرت عند وفاته كرامات منه (ع) ، فقد أُغمي عليه فبقي ساعة ثم رفع عنه الثوب ثم قال : " الحمد لله الذي أورثنا الجنة نتبوأ منها حيث نشاء فنعم أجر العاملين " ثم قال : " احفروا لي ( قبراً ) وابلُغوا إلى الرسخ ( الثابت من الأرض ) ثم مد الثوب عليه فمات " [51] .

وظهرت بعد وفاته الكرامة التي ينقلها سعيد بن المسيّب ، وبها نختم هذه الصفحات المشرقة بحياة الإمام زين العابدين (ع) .

فقد روي عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، وعبد الرزاق ، عن معمر ، عن علي بن زيد قال :

قلت لسعيد بن المسيب إنك أخبرتني أن علي بن الحسين النفس الزكية وانك لا تعرف له نظيراً ؟.

قال : كذلك ، وما هو مجهول ما أقول فيه . والله ما رؤي مثله .

قال علي بن زيد : فقلتُ : والله إنّ هذه الحجة الوكيدة عليك يا سعيد فلم لم تصلِّ على جنازته ؟.

فقال : إنّ القرّاء كانوا لايخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين (ع) . فخرج وخرجنا معه ألف راكب ، فلمّا صرنا بالسقيا نزل فصلّى وسجد سجدة الشكر ..

وفي رواية الزهري ، عن سعيد بن المسيب قال :

كان القوم لايخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين . فخرج (ع) فخرجت معه فنزل في بعض المنازل فصلّى ركعتين فسبّح في سجوده ، فلم يبق شجر ولا مدر إلاّ سبَّحوا معه ، ففزعنا .

فرفع رأسه وقال : يا سعيد افزعت ؟

قلت : نعم يابن رسول الله .

فقال : هذا التسبيح الأعظم . حدثني ابي عن جدي عن رسول الله (ص) انه قال : لا تبقى الذنوب مع هذا التسبيح ، فقلت : علمنا .

---

(٥٠) المصدر : ( ص ١٥٤ ) نقلاً عن تذكرة الخواص : ( ص ١٨٧ ) ( طبعة إيران ) وعن تاريخ ابن عساكر .

(٥١) المصدر : ( ص ١٥٣ ) .

وفي رواية علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب أنّه : سبح في سجوده فلم يبق حوله شجرة ولا مدرة إلاّ سبّحت بتسبيحه ، ففزعت من ذلك وأصحابي .

ثم قال : " يا سعيد إن الله جل جلاله لما خلق جبرئيل الهمه هذا التسبيح فسبَّحت السماوات ومن فيهن لتسبيحه الأعظم . وهو إسم الله جلَّ وعزَّ الأكبر .

يا سعيد اخبرني أبي الحسين ، عن ابيه ، عن رسول الله (ص) عن جبرئيل ، عن الله جلَّ جلالَه أنه قال :

ما من عبد من عبادي آمن بي وصدّق بك وصلّى في مسجدك ركعتين على خلاء من الناس إلاّ غفرت له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " .

فلم أرَ شاهداً افضل من علي بن الحسين (ع) حيث حدثني بهذا الحديث . فلما ان مات شهد جنازته البر والفاجر ، واثنى عليه الصالح والطالح ، وانها لو يتبعونه حتى وضعت الجنازة فقلت : إن ادركت الركعتين يوماً من الدهر فاليوم هو . ولم يبق إلاّ رجل وامرأة ، ثم خرجا إلى الجنازة ، وَثبْتُ لأصلّي فجاء تكبير من السماء فاجابه تكبير من الأرض ، واجابه تكبير من السماء فاجابه تكبير من الأرض ، ففزعتُ وسقطتُ على وجهي ، فكبر من في السماء سبعاً ومن في الأرض سبعاً وصلّي على علي بن الحسين صلوات الله عليهما ودخل الناس المسجد فلم ادرك الركعتين ولا الصلاة على علي بن الحسين صلوات الله عليهما ، فقلت : يا سعيد لو كنت انا لم اختر إلاّ الصلاة على علي بن الحسين ، إن هذا لهو الخسران المبين ، فبكى سعيد ، ثم قال : ما اردت إلاّ الخير ليتني كنت صلّيت عليه ، فإنه ما رؤي مثله [٥٢] .

---

(٥٢) المصدر : ( ص ١٤٩ - ١٥٠ ) .

# الامــام الباقــر (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

الحمد لله رب العالمين – وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين – .

في فاتحة الحديث عن الإمام الباقر (ع) ينبغي أن نشير إلى نهجين متنافرين في تقييم حياة الأئمة والنهج القديم بينهما .

فهناك فريق يقيّمون حياة المعصومين عليهم السلام بمقياس السياسة . ومدى دورهم فيها . ويكاد تفسيرهم لعبادات الأئمة ، وعلومهم ، وأخلاقهم يكون أيضاً بمنظار سياسي .

بينما تجد أغلب المؤرخين لحياتهم عليهم السلام يختصرون حياتهم في حدود فردية ضيقة ، حتى يفصلونها من السياق الزمني لها .

وبين المنهجين حالة وسطى تجعل حياتهم ذات إشعاع فردي يتجاوز حدود الزمان والمكان .. وذات أفق سياسي يتفاعل مع الظرف التاريخي الخاص به ..

بلى . الأئمة هم قدوات البشر ، ونسبة رجال السياسة إلى سائر الناس نسبة ضئيلة ، فلم يكن من المناسب أن يكون كل قدوات البشر في قمة السلطة حتى يكون سلوكهم مناراً لأمثالهم من أصحاب السلطة فقط ، بل كان من المعقول أن يكونوا في مختلف المستويات الإجتماعية حتى تتم حجة الله على خلقه بأنفذ ما يكون بلاغاً وقوة !

ولو كانوا كلهم في قمة السلطة لقال الناس أن مسيرتهم تخص أولي السلطة فحسب فما لنا للدخول في شأن السلاطين .

على أن بعضهم لايزال يحاول التنصل من اتباع الأنبياء والأوصياء والصالحين ، بزعم أنهم ليسوا ببشر .. وبالتالي فهو لايمكنه أن يتبع هداهم ، أو يقدر أحدنا أن يتمثل شخصيّة الملائكة ..

إلاّ أن ما نزل بأنبياء الله وأوصيائهم من الضنك والأذى . وما تعرضوا له من السجن والتعذيب والتهجير والخوف وحتى القتل والأسر والتشهير .. كل ذلك دليل كونهم بشراً أمثالنا ميّزوا بالوحي والعزم والإعتصام بحبل الله ، وقال ربنا سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (الكهف/١١٠)

وقال :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ

إلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (ابراهيم/١١)

ولعل هذه الحكمة كانت أيضاً وراء إذن الله سبحانه بتعرض أوليائه لبعض الأذى ، لكي لا يرفعهم الناس إلى مستوى الألوهية فيهلكوا ، ولكي يرفع الله به درجاتهم عنده . ولكي لايترك الدينَ البسطاءُ من الناس فراراً من الأذى .

ونحن إذ نشرع في الاستضاءة بسيرة الإمام الخامس من أئمة أهل البيت عليهم السلام ، والعلم السابع من قدوات الأئمة المعصومين عليهم السلام بجوار مقام السيدة زينب في الشام . نسأل الله أن يتم نورنا به ويجعلنا من أشد تابعيه تمسكاً وأحسنهم عاقبة .. إنه ولي التوفيق .

## الفصل الأول

# الميلاد الميمـون

ولد الإمام الباقر (ع) من والدين علويين هما الإمام السجاد (ع) ، وأم عبد الله بنت الإمام الحسن المجتبى (ع) ، وكانت ولادته قبل أربع سنوات من واقعة الطف الرهيبة . أي في عام ٥٧ من الهجرة . وكان ذلك الثالث من صفر أو العاشر في رجب ، ( في ذلك اختلاف بين الرواة ) . ولم يكن أكبر أبناء أبيه سناً ، إلاّ أنه كان أولاهم بالإمامة فنصبّه والده لها اتباعا لأمر رسول الله (ص) .

وقد سأل الزهري والده الإمام السجاد عن ذلك وقال : يا ابن رسول الله هلا أوصيت إلى أكبر أولادك ؟ قال : يا أبا عبد الله ليست الإمامة بالصغر والكبر ، هكذا عهد إلينا رسول الله ، وهكذا وجدنا مكتوباً في اللّوح والصحيفة [١] .

وكانت أمّه — حسبما قال : الإمام الصادق (ع) — صديقة لم يدرك في آل الحسن مثلها [٢] .

## النشأة الطيبة :

عاش في ظل جده السبط الشهيد عليه السلام أربع سنوات ، وصبغت شخصيته الفذة بتلك الصبغة الإلهية التي تجلت في حياة السبط الشهيد ، ولا ريب أن مأساة كربلاء الفجيعة تركت طابعها على نفسية الإمام الباقر (ع) الذي رافق صورها وشاهدها لحظة بلحظة .. لأنه — حسب بعض الرواة — كان ممن حضرها مع سائر أبناء الأسرة الهاشمية .

وبعد تلك الفاجعة عاش الإمام (١٩) سنة و (٦٠) يوماً في ظل والده سيد الساجدين [٣] ، حيث كانت حياته الكريمة مثلاً أعلى للصبغة الربانية ، وظل شعاع تلك الحياة يضيء درب السالكين إلى الله .. حتى اليوم .

ومنذ باكورة حياته المباركة تجلت فيه ملامح الإمامة . وقد جاء في الحديث المأثور عن أبي الزبير محمد بن مسلم المكي قال : كنا عند جابر بن عبد الله فأتاه علي بن الحسين ومعه ابنه محمد وهو صبي ، فضمه جابر إليه فقال علي لابنه : قبّل رأس عمك فدنا محمد من جابر فقبل رأسه ، فقال جابر : من هذا ؟وكان قد كفّ بصره — فقال له علي : هذا ابني محمد فضمه جابر إليه وقال : يا محمد ! محمد

---

(١) المصدر : ( ص ٣٣٢ ) .

(٢) بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ٢١٥ ) .

(٣) المصدر : ( ص ٢١٧ ) .

رسول الله (ص) يقرأ عليك السلام ، فقالوا لجابر ، كيف ذلك يا ابا عبد الله ؟

فقال ، كنت مع رسول الله (ص) والحسين في حجره وهو يلاعبه ، فقال ،

يا جابر يولد لابني الحسين ابن يقال له علي إذا كان – يوم القيامة – نادى مناد ليقم سيد العابدين ، فيقوم علي بن الحسين ، ويولد لعلي ابن يقال له محمد ، يا جابر إن رايته فاقراه مني السلام واعلم أن بقاءك بعد رؤيته يسير . فلم يعش ( جابر ) بعد ذلك إلاّ قليلاً ومات .[٤] وبعد والده اضطلع بمقام الإمامة العامة .

## الإمامة وعلم الأنبياء :

عندما آلت شمس بني امية إلى المغيب وضعفت سلطتهم بفعل الثورات الرسالية المتلاحقة .. وجد الإمام الباقر (ع) فرصة لنشر معارف القرآن التي كانت مستوعبة في الصحيفة التي توارثها اهل البيت (ع) من رسول الله ..

في ذلك اليوم كان المجتمع الإسلامي بحاجة إلى معارف القرآن ، إنه قد اتسع في كل افق واصبح خيمة تشمل شعوباً مختلفة وبقايا حضارات ، فعلى اي اساس نقيم هذا المجتمع الجديد .. وماهي قِيَمه التوحيدية واطر الثقافة العامة وروح قوانينه في مختلف الحقول ..

بالأمس نشر الإمام السجاد (ع) راية التوحيد عبر ادعيته وابتهالاته . وصنع بها حياة المجتمع المسلم وبالذات المجتمع الرسالي التابع لخط اهل البيت عليهم السلام .

أما اليوم فإن تلك القاعدة التوحيدية الرصينة قد رست ، ويأتي الإمام الباقر (ع) ليبني عليها صرح المعارف . ويكمله الإمام الصادق (ع) ببيان المزيد من التفاصيل في الحكمة الإلهية والتفسير والفقه ..

ماهي المعارف التي نشرها الإمام الباقر (ع) وكيف استطاع إليها سبيلاً ؟

قد يسلك في طريق العلم من التجارب الجزئية صعوداً إلى القواعد العامة . وقد ننطلق من تلك القواعد إلى المفردات الجزئية . وبينما السبيل الأول هو منهج عموم الناس في بلوغ العلم ، فإن المنهج الثاني هو سبيل علم الأنبياء واوصيائهم المتصلين بالوحي ، ومن هنا جاء في الحكمة المأثورة ، العلم نقطة كثّرها الجاهلون .

والأساس الظاهر لعلم الرسول وخلفائه المعصومين عليهم السلام ، هو القرآن المفسر بالحديث النبوي ، ولكن الأساس الحقيقي هو نور العقل الذي يتوهج بالإيمان والإلهام في افئدة العارفين بالله .. ذلك العقل الذي أوتي الناس منه قدر ضئيل واكمله الله لنبيّه واوصياء نبيّه . وإن توهج نور العقل عند ابناء البشر . وتجليه في تلك المعارف الأولية التي يعرفها كل شخص ، وفي تلك القيم التي يتحاكم الناس إليها فيما بينهم . وفي تلك الإضاءات التي نجدها عند طائفة من الناس دون غيرهم تجعلهم نوابغ وعظماء كبار ..

---

(٤) المصدر : ( ص ٢٢٧ ) .

كل ذلك يهدينا إلى معنى العلم الكوني الذي يلقيه ربنا في روع الصفوة من اوليائه .. وجاء في الحديث الشريف : " العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء " .

وترى بعض الناس يتشكك في مثل هذا العلم عند الانبياء والائمة ، والمحدثين من فقهاء الأمة .. يستشهد بقول الله سبحانه : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ (الانعام/٥٩)

وقوله : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللّه ﴾ (النمل/٦٥)

حقاً إذا كان مراد هؤلاء أن الإنسان لايعلم الغيب بصفة ذاتية ، فإنه حق لاريب فيه ، ولكن : إذا ارادوا انّ الله لايقدر على تعليم الغيب لبعضهم ، نقول : بلى هو قادر ، اليس كلنا يعرف قدراً من العلم بالمستقبل ، فمثلاً أولسنا نعرف اننا نموت وان الساعة آتية لاريب فيها . وان الله يبعث من في القبور . وان الشمس تشرق غداً وهي لابدّ غاربة اليوم ؟ وعشرات من المعارف المستقبلية التي تشكل أكثر من نصف معلوماتنا وهي اساس العلم ، والهدف الأساسي منه ؟

والله سبحانه علّم الإنسان مالا يعلم ، والوحي جزء من علم الغيب الذي علّمه ربنا لمن ارتضاه من عباده .. وقد قال ربنا سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ (الجن/٢٦-٢٧)

وقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللّه لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّه يَجْتَبِي مِن رُسُلِهِ مَن يَشَآءُ فَآمِنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران/١٧٩)

وقال : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران/٤٤)

واخيراً ، إن هؤلاء شككوا في " مدى " علم الأنبياء والأوصياء ، إنهم لم يستوعبوا كيف يمكن لبشر محدود أن يبلغ علم الحقائق من لدن رب العزة ، فهم ينطلقون في تكذيب هذا " المدى " من العلم من ذات المنطلق الذي كذب الأولون بالنبوة ، وهو الجهل بالمقام الذي جعل للإنسان الذي يتوجه إلى الله ويخلص له وجهه ، بيد ان هؤلاء " اضطروا " إلى الإعتراف بالنبوة ، ولما يعرفوا ابعادها فقلصوها إلى اقل قدر ممكن ، وحاولوا الكفر بمعاجز الأنبياء وبمقاماتهم الرفيعة انى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وإذ اعجزتهم الحيلة في ذلك عمدوا إلى الأوصياء فنفوا كرامتهم على الله ، وإمكانية تلقيهم العلم من مصدر الغيب إلهاماً ، وإذا انصفوا انفسهم وانصفوا للحق لما وجدوا مانعاً عقلياً من الإعتراف بذلك ، بعد أن توافرت ادلة بالغة القوة تهديهم إليه من خلال دراستهم لكلماتهم من دون تعصب اعمى أو احكام مسبقة .

وقد ابتلى الإمام الباقر (ع) ، شأنه شأن سائر الأئمة عليهم السلام بنمطين متنافرين من الناس ، فبينما زعم بعضهم انه ليس من البشر وبذلك مرق من الدين بسبب غلوه ، نجد كثيراً من الناس لم يعترفوا بمقامه الكريم .

من النمط الأول كان المغيرة بن سعيد الذي غلا في الدين وكذب على الإمام الباقر (ع) ، حتى قال عنه الإمام لبعض أصحابه ( سليمان اللّبان ) ، اتدري ما مثل المغيرة بن سعيد ،

قال قلت ، لا .

قال ، مثله مثل بلعم الذي اوتي الاسم الأعظم الذي قال الله ﴿ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ . (الاعراف/١٧٥)[5]

اما النمط الثاني فهم اغلب الذين لم يحتملوا علم الإمام ومعرفته بما لا يعرفون ، وكرامته على الله ، واستجابة الله دعاءه في الأمور !!

فهؤلاء لاينكرون فضائل أهل البيت عليهم السلام فقط ، بل ويرون انها من المستحيلات ، لماذا ؟ لأنهم لما يبلغوا معرفة أنبياء الله واوليائه عليهم صلوات الله ومعرفة كرامتهم على الله . ولو كانوا يتفكرون في خلق الإنسان وكيف استخلفه الله في الأرض ، وسخر له ما فيها بما آتاه من علم وقدرة ، لعرفوا أن من حكمة الله سبحانه أن يفضل بعض الناس على بعض في العلم ، وليهب لمن اطاعه واخلص له المزيد من المعرفة سواء عبر الوحي كالرسل او عبر الإلهام ، كما فعل باوصياء الرسل .

ثم إن ما أوحى به الله من الكتاب فيه آفاق من العلم لا يبلغها إلاّ من امتحن الله قلبه بالإيمان ، لأنه نور الله الذي يشع من مشكاة النبوة . إنه ذكر الله الذي يرتفع من بيوت الأوصياء كما قال سبحانه ،

﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ (النور/٣٥) .

قال ، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾ (النور/٣٦-٣٧) .

ثم قال ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ (النور/٤٠) .

هكذا نور الله الذي منح جزءاً بسيطاً منه للإنسان ، فإذا به يعرف علما يسخر به كل شيء من حوله ، إنه لو سلب منه ترى ماذا يبقى له ؟ هل يستطيع انئذ أن يعرف شيئاً . فلو اجتمعت البشرية وحاولوا إعادة مجنون إلى رشده ، او شيخ مخرف إلى سابق علم ، او تعليم هرة دروس الرياضيات ، هل استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ؟ كلا .. فلماذا ينكرون على الله الذي منح البشر هذا النور أن يكون قادراً على مضاعفته لخيرة عباده ؟

هكذا نعرف أن الوحي والإلهام هما في إطار سنن الله في خلقه ، يقبلهما العقل ويطمئن إليهما القلب .

وعلم أئمة أهل البيت عليهم السلام لايخرج من دائرة هذه السنن أيضاً ، فإما أنّه مستوحىً من الوحي او بالإلهام .

ويتصل علم الأئمة بالوحي عبر السبل التالية ،

---

(٥) بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ٣٣٢ ) .

أولاً : العلم من كتاب الله . بالتدبر فيه وتأويل آياته على الحقائق والوقائع . أليس في القرآن علم ما كان وما يكون ، وفصل ما هو كائن ، ومن أولى بكتاب الله ممن أنزل في بيوتهم وزقوا علمه مع اللبن زقاً .

وقد كان الأئمة عليهم السلام شديدي الوله بالقرآن ، عظيمي الإحترام له ، وكانوا يختمونه في كل ثلاثة أيام مرة ، وربما في كل يوم ، وكانوا يقولون انهم يستفيدون منه علماً جديداً كلما أعادوا قرائته حتى انهم استفادوا علم الآفاق من آياته الكريمة ، فقد قال الإمام الصادق (ع) — فيما روي عنه — :

والله إني — أعلم ما في السماوات وأعلم ما في الأرض وأعلم ما في الدنيا وأعلم ما في الآخرة — .

فرأى تغير جماعة — فقال وهو يخاطب بكير بن أعين :

يا بكير إني لأعلم ذلك من كتاب الله تعالى إذ يقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [6]

ثانيا : أحاديث الرسول (ص) والتي توارثوها من آبائهم عبر جدهم الأعلى الإمام أمير المؤمنين ، وجدتهم الطاهرة فاطمة الزهراء عليهم السلام جميعاً.

فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر (ع) انه قال لجابر بن عبد الله :

يا جابر إنّا لو كنا نحدثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ، ولكنّا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وورقهم [7] .

ومعروف أن خزائن علم النبوة كانت قد انتقلت إلى رسول الله . وورثها أهل بيته (ع) . ويبدو انها كانت مكنونة في جفر عظيم .

حيث جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق (ع) انه قال : إن عندي الجفر الأبيض .

فلما سأله الرواي وأي شيء فيه ؟ قال :

زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم والحلال والحرام ومصحف فاطمة ، ما أزعم أن فيه قرآناً ، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ، ولا نحتاج إلى أحد ، حتى أن فيه الجُلْدة ونصف الجَلْدة وثلث الجَلْدة وربع الجَلْدة وأَرشُ الخدش ، الحديث [8] .

وكان في هذا الجفر مجموعة تراث أهل البيت من أحاديث النبي .

منها مصحف فاطمة وهو مجموعة أحاديثها التي كتبها الإمام أمير المؤمنين (ع) في صحيفة ، وحسب ما جاء في رواية أن فيه ما يكون من حوادث وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة [9] .

كما أن من تراثهم كتاب يسمى بالجامعة ، وهو من إملاء رسول الله (ص) وكتابة أمير المؤمنين (ع)

---

(٦) بحار الأنوار : ( ج ٢٦ ، ص ٢٨ ) .

(٧) المصدر . ( ص ٢٨ ) .

(٨) المصدر : ( ص ٣٧ ) .

(٩) المصدر : ( ص ٣٧ ) .

طوله سبعون ذراعاً وفيه احكام الشريعة كلها .

هكذا جاء في حديث مروي عن ابي بصير عن ابي عبد الله الصادق (ع) قال :

سمعته يقول وذكّر ابن بسترمه في مسالة افتى بها : اين هو من الجامعة إملاء رسول الله بخط علي فيها جميع الحلال والحرام حتى ارش الخدش [10] .

وهذا التراث العلمي كان ينتقل من ائمة اهل البيت عليهم السلام من كابر لكابر ، ووجوده عند واحد من ابناء الإمام الراحل كان شاهداً على انه وصيه . لذلك نقرا في تاريخ الإمام الباقر (ع) ان والده الإمام السجاد (ع) التفت إلى ولده وهو في مرض الموت وهم يجتمعون عنده ، ثم التفت إلى محمد بن علي ابنه . فقال :

يا محمد هذا الصندوق فاذهب به إلى بيتك ثم قال .. اما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم ولكنه كان مملوءاً علماً .

ونتساءل : كيف تجتمع احكام الشريعة كلها في كتاب محدود طوله سبعون ذراعا؟ لعل ذلك الكتاب كان محتوياً على اصول العلم ومعاقله وضيائه ، حيث كان الائمة عليهم السلام يستلهمون منها سائر ابواب العلم . كما علّم النبي (ص) الإمام علياً (ع) ابواب العلم جميعاً بهذه الطريقة ، حيث جاء في الحديث الماثور عن الإمام الصادق (ع) : اوصى رسول الله إلى علي بالف كلمة يفتح كل كلمة الف كلمة [11] .

وفي تعبير آخر جاء على لسان الإمام الباقر (ع) عن جده امير المؤمنين انه قال : لقد علمني رسول الله الف باب يفتح كل باب الف باب [12] .

وهكذا بيّن الائمة ان عندهم اصول العلم ومعاقله مما يظهر انها هي التي في تراثهم من الرسول (ص) ، فقد جاء في الحديث الماثور عن الإمام الباقر (ع) انه قال :

" إن رسول الله انال في الناس وانال وانال ، وإنا اهل بيت عندنا معاقل العلم ، وابواب الحكم ، وضياء الامر .. " .

وفي حديث ماثور عن الإمام الصادق (ع) انه قال : " إن رسول الله قد انال في الناس وانال وانال ، – يشير كذا وكذا – وعندنا اهل البيت اصول العلم وعراه وضياؤه واواخيه " [13] .

## علم الإلهام :

إذا كان العلم نور الله يقذفه في قلب من يشاء فما الذي يمنع عن قذف نور العلم في قلب اوليائه ،

---

(١٠) المصدر : ( ص ١٨ ) .

(١١) بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ٢٢٩ ) .

(١٢) بحار الأنوار : ( ج ٢٦ ، ص ٢٩ ) .

(١٣) المصدر : ( ص ٣١ ) والأواخي جمع أوخية وهي ما يشد به الدابة أي ما يحفظ به العلم .

هكذا كان من مصادر علم الأئمة عليهم السلام الإلهام ، والذي ترافقه سكينة تجعلهم يثقون بانه من عند الله .

كذلك روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : إن علمنا غابر ومزبور ونكث في القلب ونقر في الأسماع ، قال : أما الغابر فما تقدم من علمنا ، ولما المزبور فما ياتينا ، واما النكث في القلوب فإلهام ، وأما النقر في الأسماع فإنه من الملك .

وروى زرارة مثل هذا الحديث وأضاف : قلت كيف يعلم انه كان الملك ولا يخاف من الشيطان إذا كان لايرى الشخص قال ..

إنه يلقى عليه السكينة فيعلم أنه من الملك ، ولو كان من الشيطان اعتراه الفزع . وإن كان الشيطان – يازره – لايتعرض لصد هذا الأمر [١٤] .

وعلم الإمام الباقر (ع) – كما سائر ائمة الهدى انبعث من هذه الروافد ، فلم يكن غريباً ، ما اظهر الله على لسانه من معارف الدين حتى قال الشيخ المفيد ( قدس سره ). لم يظهر عن احد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنّة وعلم القرآن وسيرة وفنون الآداب ما ظهر عنه [١٥] .

من هنا ترى عظماء الفقه والحديث يعترفون بالمصدر الإلهي لعلمه الغزير ، فقد جاء في كشف الغمة عن الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في كتابه معالم العترة الطاهرة عن الحكم بن عتيبة ( وكان من كبار فقهاء عصره ) انه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر/٧٥) .

قال : كان والله محمد بن علي منهم [١٦] .

وحكي عن أبي نعيم في كتابه الحلية أنه سال رجل ابن عمر عن مسالة فلم يدر ما يجيبه ، فقال اذهب إلى ذلك الغلام فسله واعلمني بما يجيبك ، واشار إلى الباقر (ع) فساله فاجابه فانجد ابن عمر فقال : إنهم اهل بيت مفهمون [١٧] .

والتعبير بكلمة مفهمون كان شائعاً في ذلك العصر ، وكان يعني أنهم مؤيدون من عند الله يلقي عليهم الرب علماً بالإلهام .

ولذلك ترى من العلماء من يقصدونه من كل افق بحثاً عن علمه الإلهي حتى روي عن عبد الله بن عطاء أنه قال : ما رايت العلماء عند احد قط اصغر منهم عند ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين (ع) ، ولقد رايت الحكم بن عتيبة مع جلالته في القوم بين يديه كانه صبي بين يدي معلمه [١٨] .

---

(١٤) المصدر : ( ص ٦٠ )

(١٥) في رحاب أئمة أهل البيت في سيرة الباقر : ( ص ٧ ) .

(١٦) المصدر : ( ص ٦ ) .

(١٧) المصدر .

(١٨) المصدر .

وقد روى عنه محمد بن مسلم ذلك الفقيه المتبحر ثلاثين الف حديث ، اما جابر الجعفي فقد قال : حدثني أبو جعفر سبعين الف حديث لم أحدث أحداً أبداً [19] .

ولأن الظروف السياسية كانت تتسم ببعض الانفراج فلقد تسنى للإمام أن يحاجج الكثير من المخالفين له ويعيدهم إلى جادة الصواب ، والتاريخ يسجل لنا بعض تلك الاحتجاجات ، وننقل شيئاً منها لتكون شاهدة على ما وراءها من الحجج البالغة .

١- لقد كان عبد الله بن نافع بن الأزرق واحداً من قادة الخوارج الذين كانوا اشد الفرق عداءً للإمام علي (ع) واهل بيته ، وكان يقول : لو اني علمت ان بين قطريها احداً تبلغني إليه المطايا يخصمني أن علياً قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحلت إليه ، فقيل له ولا ولده ، فقال افي ولده عالم فقيل له هذا اول جهلك او هم يخلون من عالم ؟ قال فمن عالمهم اليوم ؟ قيل محمد بن علي بن الحسين بن علي ، فرحل إليه في صناديد أصحابه حتى اتى المدينة ، فاستاذن على ابي جعفر فقيل له هذا عبد الله بن نافع ، قال : وما يصنع بي وهو يبرا مني ومن ابي طرفي النهار ، فقال له ابو بصير الكوفي : جعلت فداك ، إن هذا يزعم أنه لو علم ان بين قطريها احداً تبلغه المطايا إليه يخصمه أن علياً قتل اهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحل إليه ، فقال له ابو جعفر : اتراه جاءني مناظراً ؟. قال : نعم !. قال : يا غلام ، اخرجْ فحط رحله ، وقل له إذا كان الغد فائتنا ، فلما اصبح عبد الله بن نافع غدا في صناديد اصحابه وبعث ابو جعفر إلى جميع ابناء المهاجرين والأنصار فجمعهم ، ثم خرج إلى الناس واقبل عليهم كانه فلقة قمر فخطب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (ص) ثم قال : الحمد لله الذي اكرمنا بنبوته واختصنا بولايته ، يا معشر ابناء المهاجرين والأنصار من كانت عنده منقبة لعلي بن ابي طالب فليقم وليتحدث ، فقام الناس فسردوا تلك المناقب فقال عبد الله انا اروي لهذه المناقب من هؤلاء ، وإنما احدث علي الكفر بعد تحكيمه الحكمين " حتى انتهوا إلى حديث خيبر لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، كرّاراً غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله علي يديه " فقال ابو جعفر (ع) ما تقول في هذا الحديث ؟ قال : هو حق لا شك فيه ولكن احدث الكفر بعد ، فقال له ابو جعفر : ثكلتك امك ، أخبرني عن الله عزَّ وجلَّ احب علي بن ابي طالب يوم احبه وهو يعلم انه يقتل اهل النهروان ام لم يعلم ، فإن قلت لا كفرت ، فقال : قد علم ، قال : فاحبه الله على ان يعمل بطاعته او على ان يعمل بمعصيته ، فقال : على ان يعمل بطاعته ، فقال له ابو جعفر : فقم مخصوماً ، فقام وهو يقول حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، الله اعلم حيث يجعل رسالته [20] .

٢- وكان قتادة من ابرز فقهاء البصرة ولكنه كان يتشوق إلى رؤية الإمام الباقر (ع) ومناظرته ، حيث كانت المدينة المنورة حاضرة الفقه والتفسير وسائر المعارف الإلهية ، ولذلك فقد انتشر علم الإمام إلى

---

(١٩) المصدر .

(٢٠) المصدر : ( ص ٩ ) .

كل الآفاق ..

من هنا جاء قتادة إلى المدينة يسال عن الإمام فلما راه قال له الإمام : انت فقيه اهل البصرة ؟ قال : نعم ، فقال : ويحك يا قتادة إن الله عزّ وجلّ خلق خلقاً فجعلهم حججاً عى خلقه فهم أوتاد في أرضه ، قوام بامره ، نجباء في علمه ، اصطفاهم قبل خلقه ، أظلةً عن يمين عرشه . فسكت قتادة طويلاً ثم قال : أصلحك الله ، والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام احد منهم ما اضطرب قدامك ، فقال له أبو جعفر : اتدري اين انت ؟ أنت بين يدي بيوتٍ اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فانت ثم ونحن أولئك . فقال له قتادة : صدقت والله جعلني الله فداك ماهي بيوت حجارة ولا طين ، قال : فاخبرني عن الجبن ، فتبسم أبو جعفر وقال : رجعت مسائلك إلى هذا ، قال : ضلت عني ، فقال : لا باس به ، فقال : إنه ربما جعلت فيه انفحة الميت ، قال : ليس بها باس إن الأنفحة ليس لها عروق ولا فيها دم ولا لها عظم ، إنما تخرج من بين فرث ودم ، ثم قال : وإنما الأنفحة بمنزلة دجاجة ميتة اخرجت منها بيضة فهل تاكل تلك البيضة ؟ قال قتادة : لا ولا آمر باكلها فقال له أبو جعفر : ولِمَ ؟ قال : لأنها من الميتة ، قال له : فإن حضنت تلك البيضة فخرجت منها دجاجة اتاكلها ؟ قال : نعم قال : فما حرم عليك البيضة واحل لك الدجاجة ، ثم قال : فكذلك الأنفحة مثل البيضة فاشتر الجبن من أسواق المسلمين من أيدي المصلين ولا تسال عنه إلاّ ان ياتيك من يخبرك عنه [21] .

٣- وقد بث الإمام من علمه بين الناس حتى سمي باقراً ، فقد جاء في لسان العرب أنّه لقب به ( أي بالباقر) لأنه بقر العلم ، وعرف أهله واستبسط فرعه وتوسع فيه . والتبقر التوسع [22] .

وقال ابن حجر في صواعقه المحرقة : سمي بذلك من بقر الأرض اي شقها واثار مخبآتها ومكامنها ، فكذلك هو اظهرَ من مخباة الكنوز والمعارف ، وحقائق الأحكام والحكم ، ولطائف مالا يخفى إلاّ على متطمس البصيرة او فاسد الطوية والسريرة ، ومن ثم قيل فيه هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه [23] .

وقد افاض الإمام على المسلمين من علمه عبر تربيته لطائفة عظيمة من الفقهاء والمفسرين وحكماء المعارف الإلهية ، من امثال جابر بن يزيد الجعفي ، ومحمد بن مسلم ، وابان بن تغلب ، ومحمد بن إسماعيل بن بزيع ، وابو بصير الأسدي ، والفضيل بن يسار وآخرين .

كما انه نشر العلم عبر من روى عنه من علماء عصره من امثال : ابن المبارك ، والزهري ، والأوزاعي . وابي حنيفة ومالك والشافعي وزياد بن المنذر الهندي والبطري والبلاذري والسلامي

---

(٢١) المصدر : ( ص ١٠ / ١١ ) .

(٢٢) المصدر : ( ص ٤٠ ) .

(٢٣) المصدر .

والخطيب وغيرهم [24] .

وكان الولاة يجارون إلى اهل بيت الرحمة كلما دهمتهم داهمة ، وبالرغم من الصراع الحاد القائم بين الطرفين لم يدّخر الأئمة عليهم السلام وسعاً في خدمة الإسلام وإنقاذ الأمة من الأخطار المحيطة بهم .

من ذلك ما ينقل لنا التاريخ من ورطة وقع فيها الخليفة الأموي عبد الملك حسبما ذكره إبراهيم بن محمد البيهقي في كتابه المحاسن والمساوئ حيث نقل عن الكسائي انه قال :

دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ( إيوانه وبين يديه مال كثير قد تشق عنه البدر شقاً ، وامر بتفريقه في خدم الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتامله وكان كثيراً ما يحدثني فقال : هل علمت اول من سن هذه الكتابة في الذهب والفضة ؟ قلت يا سيدي هو عبد الملك بن مروان ! قال : فما كان السبب في ذلك ؟ قلت : لا علم لي غير انه اول من احدث هذه الكتابة ! فقال : ساخبرك : كانت القراطيس للروم وكان اكثر من بمصر نصرانيا على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية ، وكان طرازها اباً وابناً وروحاً قديساً فلم يزل ذلك كذلك وصدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى ان ملك عبد الملك فتنبه له وكان فطناً ، فبينا هو ذات يوم إذ مر به قرطاس فنظر إلى طرازه فامر ان يترجم إلى العربية ففعل ذلك ، فانكره وقال : ما اغلظ هذا في الدين والإسلام ، ان يكون طراز القراطيس بمصر وهي تحمل في الأواني والثياب ، فتدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت بشرك مثبت عليها ، فامر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك ، وان يامر صنّاع القراطيس بان يطرزوها بسورة التوحيد و ﴿شهد الله أنّهُ لآ إله إلاّ هُوَ﴾ (آل عمران/١٨) ، وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغير ، وكتب إلى عمال الآفاق جميعاً بإبطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل ، فلما اثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحملت إلى بلاد الروم ، انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم ، فترجم له ذلك الطراز فانكره وغلظ عليه واستشاط غضباً فكتب إلى عبد الملك : إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ، ولم يزل يطرز بطراز الروم إلى ان ابطلته ، فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد اصاب فقد اخطات ، وإن كنت قد اصبت فقد اخطاوا ، فاختر من هاتين الحالتين ايهما شئت واحببت ، وقد بعثت إليك بهدية تشبه محلك واحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من اصناف الأعلاق ، حاجة اشكرك عليها وتامر بقبض الهدية وكانت عظيمة القدر ، فلما قرا عبد الملك كتابه رد الرسول واعلمه أن لا جواب له ولم يقبل الهدية ، فانصرف بها إلى صاحبه فلما وافاه اضعف الهدية ورد الرسول إلى عبد الملك وقال : إني ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني عن كتابي ، فاضعفت لك الهدية وانا ارغب

---

(٢٤) المصدر : ( ص ١٧ ) .

إليك في مثل ما رغبت فيه من رد هذا الطراز إلى ما كان عليه أولاً ، فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية ، فكتب إليه ملك الروم يقتضي أجوبة كتبه ويقول ، إنك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهمتك استقللت الهدية فاضعفتها فجريت على سبيلك الأول وقد أضعفتها ثالثة ، وأنا أحلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز إلى ما كان عليه أو لآمرن بنقش الدنانير والدراهم ، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلاّ ما ينقش في بلادي ، ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الإسلام فينقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته ارفض جبينك له عرقاً ، فأحب أن تقبل هديتي ، وترد الطراز إلى ما كان عليه ، وتجعل ذلك هدية بررتني بها وتبقى على الحال بيني وبينك ، فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضاقت به الأرض وقال ، أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام لأني جنيت على رسول الله (ص) من شتم هذا الكافر ما يبقى غابراً ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب ، إذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم ، فجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به ، فقال له روح بن زنباع ، إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه ، قال ويحك من ؟ قال ، الباقر من أهل بيت النبي (ص) قال ، صدقت ولكن أُرتج عليَّ الرأي فيه فكتب إلى عامله بالمدينة أن أَشْخص إلي محمد بن علي بن الحسين مكّرماً ومتّعه بمائتي ألف درهم لجهازه وبثلاثمائة ألف درهم لنفقته ، وأزح علته في جهازه من يخرج معه من أصحابه ، واحتبس الرسول قبله إلى موافاته عليه ، فلما وافى أخبره الخبر فقال له الباقر (ع) ،

لا يعظمن هذا عليك فإنه ليس بشيء من جهتين ،

( أحداهما ) أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليطلق ما تهددك به صاحب الروم في رسول الله (ص) .

( والأخرى ) وجود الحيلة فيه ، قال ، وماهي ؟ قال ، تدعو في هذه الساعة بصنّاع فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير ، وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله (ص) ، أحدهما في وجه الدرهم والدينار والآخر في الوجه الثاني ، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيه تلك الدراهم والدنانير ، وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل ، فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل ، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدراهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل ، وكانت الدراهم في ذلك الوقت إنما هي الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لأن رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية في الإسلام مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية ( نوش خر ) أي كل هنيئاً ، وكان وزن الدرهم منها قبل الإسلام مثقالاً والدراهم التي كان وزن العشرة منها وزن ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السميرية الخفاف والثقال ونقشها نقش فارس .

ففعل عبد الملك ذلك وامره محمد بن علي بن الحسين ان يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام ، وأن يتقدم إلى الناس في التعامل بها وان يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكك من الدراهم والدنانير وغيرها ، وان تبطل وترد إلى مواضع العمل حتى تعاد إلى السكك الإسلامية ، ففعل عبد الملك ذلك ورد رسول ملك الروم إليه يعلمه بذلك ، ويقول : إن الله عزّ وجلّ مانعك مما قدرت ان تفعله وقد أقدمت إلى عمالي في اقطار البلاد بكذا وكذا وبإبطال السكك والطراز الرومية ، فقيل لملك الروم إفعل ما كنت تهددت به ملك العرب فقال : إنما اردت أن اغيظه بما كتبت إليه لأني كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم فاما الآن فلا افعل لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام وممتنع من الذي قال . وثبت ما اشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم ثم رمى يعني الرشيد بالدرهم إلى بعض الخدم [25] .

إن العلم الإلهي الذي حباه به الرب بما اخلص له في الطاعة ، واجتهد في سبيله بالدعاء والعمل ، إنه كان وراء إرشاده إلى السبيل الأفضل لمواجهة تهديد ملك الروم .

وهذا العلم كان يميز الإمام الحق عمن ادعوا هذا المقام بغير حق ، سواء الولاة الظالمون أو العلويون الذين نازعوا الأئمة حقهم .

وهكذا نجد في تاريخ أهل البيت عليهم السلام كيف كان يقول شيعتهم عليهم بما لديهم من علم الدين والعلم بالحقائق الخفية بإذن الله ، وبالتوسم بنور الله وبتاييد ملائكة الله .

وفيما يلي ننقل بعض الأحاديث التي تزيدنا معرفة بمقام الإمامة عموماً وبدرجات الإمام الباقر (ع) بالذات .

فقد روى الحلبي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : دخل الناس على أبي ( الإمام الباقر ) وقالوا : ما حد الإمام ؟ قال : حده عظيم ، إذا دخلتم عليه فوقروه وعظموه وآمنوا بما جاء به من شيء ، وعليه أن يهديكم ، وفيه خصلة إذا دخلتم عليه لم يقدر أحد أن يملأ عينه منه إجلالاً وهيبةً ، لأن رسول الله (ص) كذلك كان ، وكذلك يكون الإمام ، قالوا : فيعرف شيعته ؟ قال : نعم ساعة يراهم ، قالوا : فنحن لك شيعة ؟ قال : نعم كلكم قالوا : أخبرنا بعلامة ذلك قال : اخبركم باسماءكم وأسماء آبائكم وقبائلكم ؟ قالوا : أخبرنا ، فاخبرهم ، قالوا : صدقت ، ( قال : ) وأخبركم عما أردتم أن تسألوا عنه في قوله تعالى: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ﴾ (ابراهيم/٢٤) نحن نعطي شيعتنا من نشاء من علمنا ، ثم قال : يقنعكم ؟ قالوا : في دون هذا نقنع [26] .

وينقل عبد الله بن معاوية الجعفري قصته مع والي المدينة ، الذي بعث عبره برسالة تهديد إلى الإمام الباقر (ع) ، فلم يابه بها الإمام لأن الله أطلعه على أنه معزول قريبا ، يقول ساحدثكم بما سمعته أذناي ورأته عيناي من أبي جعفر (ع) انه كان على المدينة رجل من آل مروان وانه ارسل إليّ يوماً فاتيته وماعنده

---

(٢٥) المصدر : ( ١٣ - ١٦ ) .

(٢٦) بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ٢٤٤ ) .

احد من الناس ، فقال : يا معاوية إنما دعوتك لثقتي بك ، وإني قد علمت أنه لايبلغ عني غيرك ، فاحببت ان تلقى عميّك محمد بن علي وزيد بن الحسين (ع) وتقول لهما : يقول لكما الأمير لتكفان عما يبلغني عنكما ، أو لتنكران ، فخرجت متوجهاً إلى ابي جعفر فاستقبلته متوجهاً إلى المسجد فلما دنوت منه تبسم ضاحكاً فقال : بعث إليك هذا الطاغية ودعاك وقال : الق عميّك فقل لهما كذا ؟ قال : اخبرني ابو جعفر بمقالته كانه كان حاضراً ، ثم قال : يا ابن عم قد كفينا امره بعد غد ، فإنه معزول ومنفي إلى بلاد مصر والله ما انا بساحر ولا كاهن ، ولكني اتيت وحدثت ، قال : فوالله ما اتى عليه اليوم الثاني حتى ورد عليه عزله ونفيه إلى مصر وولي المدينة غيره [27] .

اما ابو بصير الذي كان من خواص الإمام فإنه يروي قصته مع الإمام وكيف كان (ع) يراقبه ويؤدبه يقول :

كنت اقرئ امراة القرآن بالكوفة فمازحتها بشيء ، فلما دخلت على أبي جعفر عاتبني وقال : من ارتكب الذنب في الخلاء لم يعبأ الله به ، اي شيء قلت للمراة ؟ فغطيت وجهي حياءً وتبت فقال ابو جعفر : لا تعد [28] .

ويروي ابو بصير ايضاً كيف اخبر الإمام عن ملك بني العباس قبل سنين من توليهم السلطة فيقول : كنت مع الباقر في مسجد رسول الله (ص) قاعداً حدثان ما مات علي بن الحسين (ع) إذ دخل الدوانيقي وداود بن سليمان قبل ان افضي الملك إلى ولد العباس ، وما قعد إلى الباقر إلاّ داود فقال الباقر (ع) : ما منع الدوانيقي ان ياتي ؟ قال : فيه جفاء ، قال الباقر (ع) : تذهب الأيام حتى يلي أمر هذا الخلق ويطأ اعناق الرجال ، ويملك شرقها وغربها بطول عمره فيها حتى يجمع من كنوز الأموال مالم يجتمع لأحد قبله ، فقام داود واخبر الدوانيقي بذلك فاقبل إليه الدوانيقي وقال : ما منعني من الجلوس إليك إجلالك فما الذي خبرني به داود ؟ فقال : هو كائن ، قال : وملكنا قبل ملككم ؟ قال : نعم ، قال : يملك بعدي احد من ولدي ؟ قال : نعم ، قال : فمدة بني امية اكثر أم مدتنا ؟ قال : مدتكم أطول وليتلقفن هذا الملك صبيانكم ويلعبون كما يلعبون بالكرة ، هذا ما عهده إليّ ابي ، فلما ملك الدوانيقي تعجب من قول الباقر (ع) [29] .

## خصال الإمام :

لا يختار الله عبداً لمقام الإمامة . ويجعله حجة بالغة على خلقه إلاّ إذا اكتملت فيه الخصال الجيدة . وكان مثلاً لما اقر به سبحانه في كتابه من خشية الله وتوقيره . وتعظيمه وتجليله . وإخلاص العبودية له والتي تتجلى في جملة اقواله وافعاله . فلا يقول إلاّ صواباً ولا يعمل إلاّ رشداً .

---

(٢٧) المصدر : ( ص ٢٤٦ ) .

(٢٨) المصدر : ( ص ٢٤٧ )

(٢٩) المصدر : ( ص ٢٤٩ ) .

وإذا كنا ننقل بعض خصال الإمام الباقر (ع) الحميدة ، او خصال احد المعصومين عليهم السلام ، فلكي ناتي بالشواهد الواضحة التي تدلنا على امثالها ، وليس لأننا نريد ان تختصر كل حياة الإمام فيها . أو نحصي فضائله وخصاله الحميدة ، كلا .. لأننا نعرف سلفاً ان حياتهم كانت صورة واقعية عن القرآن الكريم ، بيد أن ما بلغنا منها لم يكن مستوعباً لجوانب حياتهم ، لأن جانباً منها انبهر به المؤرخون فاكثروا فيه الحديث واكتفوا بقياس سائر الجوانب عليه ، فمثلاً ذكروا من حياة الإمام السجاد جانب العبادة ، ولم يتحدثوا كثيراً عن جانب العلم ، بينما عكسوا الأمر فيما يتصل بحياة الإمام الباقر (ع) .

وهكذا نكتفي ببعض الإشراقات التي وصلت إلينا من حياة الإمام ونترك للقارئ ان يقيس سائر ابعاد حياته عليها .

" قال : ابن شهراشوب في المناقب " : كان أصدق الناس لهجة وأحسنهم بهجة وأبذلهم مهجة ، وكان اقل أهل بيته مالاً وأعظمهم مؤونة ، وكان يتصدق كل جمعة بدينار ، وكان يقول الصدقة يوم الجمعة تضاعف لفضل يوم الجمعة على غيره من الأيام ، وكان إذا أحزنه أمر جمع النساء والصبيان ثم دعا فامنوا ، وكان كثير الذكر ، كان يمشي وإنه ليذكر الله وياكل الطعام وإنه ليذكر الله ، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله عن ذكر الله ، وكان يجمع ولده فيامرهم بالذكر حتى تطلع الشمس ، ويامر بالقراءة من كان يقرأ منهم ومن كان لا يقرأ منهم امره بالذكر ، وياتي قول المفيد ، وكان ظاهر الجود في الخاصة والعامة مشهور الكرم في الكافة ، معروفاً بالتفضل والإحسان مع كثرة عياله وتوسط حاله ، وياتي عن سليمان بن دمدم انه عليه السلام كان يجيز بالخمسمائة درهم إلى الستمائة إلى الألف ، وكان لا يمل من صلة إخوانه وقاصديه ومؤمليه وراجيه ، وكان إذا ضحك قال : اللهم لا تمقتني . وقال الأبي في كتاب نثر الدرر : كان إذا رأى مبتلى اخفى الاستعاذة ، وكان لايسمع من داره يا سائل بورك فيك ولا يا سائل خذ هذا وكان يقول : سموهم باحسن أسمائهم [30] .

وحينما يذكر ابو نعيم في كتابه الحلية الإمام يصفه بهذا النعت : الحاضر الذاكر الخاشع الصابر ابو جعفر محمد بن علي الباقر [31] .

وكان من شدة خشوعه ما يذكره ( افلح ) مولى ابي جعفر انه قال : خرجت مع محمد بن علي حاجّاً فلما دخل المسجد نظر إلى البيت فبكى حتى علا صوته ، فقلت : بابي انت وامي إن الناس ينظرون إليك فلو رفعت بصوتك قليلاً [32] فقال لي : ويحك يا افلح ولم لا ابكي لعل الله تعالى ان ينظر إليّ منه برحمة فافـوز بها عنده غداً ، قال ( افلح ) ثم طاف بالبيت ثم جاء حتى ركع عند المقام فرفع راسه من سجوده فإذا موضع سجوده مبتل من كثرة دموع عينه ويضيف افلح قائلاً : كان إذا ضحك قال : اللهم

---

(٣٠) في رحاب أئمة أهل البيت سيرة الباقر : ( ص ٦ ) .

(٣١) بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ٢٨٩ ) نقلاً عن حلية الأولياء : ( ج ٣ ص ١٨٠ ) .

(٣٢) الظاهر خفضت والله العالم .

لا تمقتني[33] .

ويقول نجله الإمام الصادق (ع) وهو يصف تبتل والده إلى الله ، كان ابي كثير الذكر ، لقد كنت امشي معه وانه يذكر الله ، وآكل معه الطعام وانه ليذكر الله ، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله . وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول ، لا الله إلاّ الله ، وكان يجمعنا فيامرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ، ويامر بالقرآن من كان يقرا منا ومن كان لايقرا منا امره بالذكر[34] .

ويقول الإمام الصادق (ع) :

إني كنت امهد لأبي فراشه فانتظره حتى ياتي ، فإذا اوى إلى فراشه ونام قمت إلى فراشي . وإنه ابطا عليّ ذات ليلة فاتيت المسجد في طلبه وذلك بعدما هدا الناس ، فإذا هو في المسجد ساجد ، وليس في المسجد غيره وسمعت حنينه وهو يقول ، سبحانك اللهم انت ربي حقاً حقاً ، سجدت لك تعبداً ورقاً ، اللهم إن عملي ضعيف فضاعفه لي ، اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك ، وتب عليّ إنك انت التواب الرحيم[35] .

وكان (ع) شديد الحب لكتاب ربه ، عظيم الاهتمام به والتاثر بآياته ، حتى أن أبان بن ميمون القداح قال ، قال لي ابو جعفر (ع) ، إقرأ . قلت ، من اي شيء اقرا ؟. قال ، من السورة التاسعة ؟ قال ، فجمعت ارتمسها فقال ، اقرا من سورة يونس فقال .. قرات ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ (يونس/٢٦) قال ، حسبك ، قال ، قال رسول الله (ص) ، إني لأعجبُ كيف لا اشيب إذا قرات القرآن[36] .

وكان يستلهم من كتاب ربه معارف الدين حتى انه يدعو الرواة أن يسالوه عن مصدر اقوالهم من القرآن ، هكذا يروي ابو الجارود قال ، قال ابو جعفر (ع) ، إذا حدثتكم بشيء فاسالوني عن كتاب الله . ثم قال ، حتى حديثه ان الله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال ، فقالوا يابن رسول الله واين هذا من كتاب الله ؟ فقال ، إن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه ، ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ ﴾ (النساء/١١٤) وقال ، ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (النساء/٥) وقال ، ﴿ لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة/١٠١)[37] .

وإذا سال عن حاله استغل السؤال لتذكير نفسه والسائل بالله ، فقد روي انه قيل لمحمد بن علي الباقر (ع) كيف اصبحت ، قال ، " اصبحنا غرقى في النعمة ، موتورين بالذنوب ، يتحبب الينا إلهنا

---

(٣٣) المصدر : ( ص ٢٩٠ ) .

(٣٤) المصدر : ( ص ٢٩٧ ) .

(٣٥) المصدر : ( ص ٣٠١ ) .

(٣٦) المصدر : ( ص ٣٠٣ )

(٣٧) المصدر . ( ص ٣٠٣ )

بالنعم ، ونتمقت إليه بالمعاصي ، ونحن نفتقر إليه وهو غني عنّا " [38] .

وكان (ع) شديد التسليم لأمر الله فقد روى بعض اصحابه انه قال : كان قوم أتوا ابا جعفر (ع) ، فوافوا صبياً له مريضاً ، فرأوا منه اهتماماً وغماً ، وجعل لا يقر ( قال ) فقالوا : والله لإن أصابه بشيء إنا نتخوف أن نرى منه ما نكره ، قال فما لبثوا أن سمعوا الصياح عليه ، فإذا هو قد خرج عليهم منبسط الوجه في غير الحال التي كان عليها ، فقالوا له : جعلنا الله فداك لقد كنا نخاف مما نرى منك ان لو وقع ان نرى منك ما يغمنا ، فقال لهم : إنا لنحب أن نعافى في من نحب ، فإذا جاء أمر الله سلمنا فيما يحب [39] .

وكان (ع) لا يلويه عن العمل الصالح شيء . وفي ذلك رواية طريفة ينقلها بعض اصحابه حيث يقول : — حضر ابو جعفر (ع) جنازة رجل من قريش وأنا معه ، وكان فيها عطاء فصرخت صارخة فقال عطاء : لتسكتن او لنرجعن ، قال : فلم تسكت فرجع عطاء قال : فقلت لأبي جعفر (ع) إن عطاء قد يرجع ، قال : ولِمَ ؟ قلت : صرخت هذه الصارخة فقال لها : لتسكتن أو لنرجعن ؟ فلم تسكت فرجع ، " فقال : إمضِ بنا فلو انا إذا راينا من الباطل مع الحق تركنا له الحق لم نقض حق مسلم ، قال : فلما صلى على الجنازة قال وليها لأبي جعفر : إرجع ماجوراً رحمك الله فإنك لا تقوى على المشي ، فابى ان يرجع ، قال فقلت له : قد اذن لك في الرجوع ولي حاجة اريد ان اسالك عنها ، فقال : إمضِ فليس بإذنه مشينا ولا بإذنه نرجع ، إنما هو فضل واجر طلبناه فبقدر ما يتبع الجنازة الرجل يؤجر على ذلك [40] .

أما معاشرته لإخوانه فقد كانت غاية في الأدب ، فمثلاً يحكي ابو عبيدة عن آداب عشرته في السفر فيقول : كنت زميل ابي جعفر (ع) وكنت ابدا بالركوب ثم يركب هو " فإذا استوينا سلّم وسال مسالة رجل لا عهد له بصاحبه ، وصافح ، قال : وكان إذا انزل نزل قبلي ، فإذا استويت انا وهو على الأرض سلم وسال مسالة من لا عهد له بصاحبه ، فقلت يابن رسول الله إنك تفعل شيئاً ما يفعله من قبلنا ، وإن فعل مرة لكثير ، فقال :

أما علمت ما في المصافحة ، إن المؤمنين يلتقيان فيصافح احدهما صاحبه فما تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر إليهما حتى يفترقان [41] .

وكان في تعامله مع الناس براً عفيفاً ، وكان يعفو عن السيئة اني استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان لذلك اطيب الأثر في نفوس الناس ، فقد قال له نصراني يوماً : انت بقر قال : لا انا باقر قال : انت ابن الطباخة ( يريد تعييره بها ) قال : تلك حرفتها ، قال : انت ابن السوداء الزنجية البذية ؟ قال : إن كنت صدقت

---

(٣٨) المصدر : ( ص ٣٠٤ ) .

(٣٩) المصدر : ( ص ٣٠١ ) .

(٤٠) المصدر : ( ص ٣٠١ ) .

(٤١) المصدر : ( ص ٣٠٢ ) .

غفر الله لها ، وإن كنت كذبت غفر الله لك ، فانبهر النصراني باخلاقه ، ودعاه ذلك إلى الإسلام على يديه [42] .

وقد كان تعامله مع المستضعفين يتميز بالشفقة والرفق ، وقد روي عن نجله الإمام الصادق (ع) انه قال :

إذا استكملتم ما ملكت ايمانكم في شيء فيشق عليهم فاعملوا معهم فيه ، قال : وإن كان ابي ( الإمام الباقر عليه السلام ) ليامرهم فيقول كما انتم ، فياتي فينظر ، فإن كان ثقيلاً قال باسم الله ثم عمل معهم ، وإن كان خفيفاً تنحى عنهم [43] .

وربما كان عمله في إصلاح حقله ومزرعته لهذه الجهة ، حيث كان الائمة (ع) يرون الكدح والكد امراً محبوباً يقربهم إلى الله .

في ذلك يروي ابو عبد الله الصادق أن محمد بن المكدر كان يقول : ما كنت ارى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً لفضل علي بن الحسين حتى رايت ابنه محمد بن علي ، فاردت أن اعظه فوعظني ، فقال له اصحابه : باي شيء يعظك ؟ قال : خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيت محمد بن علي وكان رجلاً بديناً وهو متكٍّ على غلامين له اسودين او موليين ، فقلت في نفسي : شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا ، اشهد لأعظنه ، فدنوت منه فسلمت عليه ، فسلّم عليَّ ببهر وقد تصبب عرقاً ، فقلت اصلحك الله يا شيخ من اشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا ، لو جاءك الموت وانت على هذه الحال ؟ قال : فخلى عن الغلامين من يده ، ثم تساند وقال : لو جاءني والله الموت وانا في هذه الحال جاءني وانا في طاعة من طاعات الله تعالى اكفّ بها نفسي عنك وعن الناس ، وإنما كنت اخاف الموت لو جاءني وانا على معصية من معاصي الله ، فقلت : يرحمك الله اردت ان اعظك فوعظتني [44] .

وكان يمكن الإمام ان يستخدم عبيده في امر إصلاح ارضه ، إلاّ انه احب ان يراه الله كاداً في سبيل إعاشة عياله .

ونختم حديثنا عن عشرة الإمام بحديث يرويه الإمام الصادق (ع) يقول :

اعتق ابو جعفر من غلمانه عند موته شرارهم وامسك خيارهم . فقلت : يا ابته تعتق هؤلاء وتمسك هؤلاء ؟ فقال : إنهم قد اصابوا مني حزناً فيكون هذا بهذا [45] .

---

(٤٢) المصدر . ( ص ٢٨٩ )

(٤٣) المصدر : ( ص ٣٠٣ )

(٤٤) المصدر : ( ص ٢٨٧ )

(٤٥) المصدر ( ص ٣٠٠ )

هكذا ضرب الإمام أروع الأمثلة في الخصال الحميدة والآداب الرفيعة ، ولا ريب أن الرواة لم ينقلوا لنا إلاّ نزراً يسيراً من جوانب حياته التي تفيض بالحكمة والرشاد .. فسلام الله عليه أبداً وصلاته عليه دائماً سرمداً .

## الفصل الثاني

# الإمام وعصره

من خلال مراجعة سريعة لعصر الإمام الباقر (ع) تعرف ان هدوءاً غاضباً كان يسوده قبل ان تهدر العاصفة الثائرة ، التي أطاحت بالحكم الأموي بعد وفاة الإمام الباقر (ع) ، وحملت إلى الساحة النظام العباسي في عهد الإمام الصادق (ع) .

ومن خلال الشواهد التي نستوحيها من قصص حياته (ع) نتلمس ملامح ذلك العصر .. وكيف ان إرهاصات العاصفة كانت ظاهرة هنا وهناك .

اولاً : الشاهد الأول ظاهرة عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الذي قاد ثورةً إصلاحية من قمة هرم فمع النجاح الجزئي الذي كسبه هذا الخليفة . إلاّ انه لم ينجح لسببين :

الأول : لأنه جاء متاخراً جّداً إذ ان الفرق الإسلامية التي تبنت معارضة الحكم الأموي كانت راسخة الجذور في الأمة .. ولم تكن تنخدع بهذه اللعبة السياسية . وفي طليعتها شيعة اهل البيت عليهم السلام ، الذين كان وعيهم بالسياسة إلى درجة لم يكن بإمكان ابن عبد العزيز او عبد الله المامون أن يؤثرا فيهم ، وذلك بفضل ثقافتهم القرآنية . وتوعية الائمة بحقائق الإسلام . ومن أبرزها ان الحكم ليس بالوراثة او القوة ، وانما هو بامر الدين ، فها هو الإمام الباقر (ع) يقول لأصحابه ان اهل السماء يلعنون عمر بن عبد العزيز — وذلك حتى قبل توليه السلطة — لنستمع إلى الحديث التالي :

روى أبو بصير قال : كنت مع الباقر في المسجد إذ دخل عمر بن عبد العزيز ، وعليه ثوبان ممصران متكئاً على مولى له ، فقال :

لَيَلِيَنَّ هذا الغلام فيظهر العدل، ويعيش اربع سنين ثم يموت فيبكي عليه اهل الارض ويلعنه اهل السماء ، قال : يجلس في مجلس لا حق له فيه ، ثم ملك واظهر العدل جهده [46] .

هكذا يعتبره الإمام ملعوناً لأنه قد جلس في مقام الخلافة الذي لا يحق له الجلوس فيه ابداً .

صحيح ان ابن عبد العزيز اعاد فدكاً إلى البيت العلوي ، وكانت فدك رمزاً لظلامة اهل البيت ، وكان ردها دليلاً عند الناس على صدق مذهبهم .

إلاّ إن الأئمة لم يعبأوا بذلك ولم يعتبروه كافياً لحسن سلوك النظام ، لأن النظام كان اساسه باطلاً ،

---

(٤٦) المصدر : ( ص ٢٥١ ) .

وكانت حركة الأئمة تستهدف إصلاح المجتمع من جذوره كما يفعل الأنبياء (ع) .

والحديث التالي يكشف عن طريقة تفكير طليعة الأمة فيما يتعلق بنظام عمر بن عبد العزيز ، دعنا نستمع إليه .

فقد روي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بخراسان أن أوفد إليّ من علماء بلادك مائة رجل أسألهم عن سيرتك ، فجمعهم عامله وقال لهم ذلك ، فاعتذروا وقالوا إن لنا عيالاً وأشغالاً لا يمكننا مفارقته ، وعدله لا يقتضي إجبارنا ، ولكن قد أجمعنا على رجل منا يكون عوضنا عنده ، ولساننا لديه ، فقوله قولنا ، ورأيه رأينا فأوفد به العامل إليه ، فلما دخل عليه سلم وجلس ، فقال له : أخل لي المجلس ، فقال له : ولم ذلك ؟ وأنت لا تخلو أن تقول حقاً فيصدقوك ، أو تقول باطلاً فيكذبوك فقال له : ليس من أجلي أريد خلو المجلس ، ولكن من أجلك ، فإني أخاف أن يدور بيننا كلام تكره سماعه .

فأمر بإخراج أهل المجلس ثم قال له : قل ! فقال : أخبرني عن هذا الأمر من أين صار إليك ؟ فسكت طويلاً فقال لـه : ألا تقول ؟ فقال : لا ، فقال : ولم ؟ فقال لـه : إن قلت بنص من الله ورسوله كنت كاذباً ، وإن قلت بإجماع المسلمين ، قلت فنحن أهل بلاد المشرق ولم نعلم بذلك ، ولم نجمع عليه ، وإن قلت بالميراث من آبائي ، قلت بنو أبيك كثير فلِمَ تفردت به دونهم ؟ فقال له : الحمد لله على اعترافك على نفسك بالحق لغيرك ، أفأرجع إلى بلادي ؟ فقال : لا فوالله إنك لواعظ قط فقل ما عندك بعد ذلك فقال له : رأيت أن من تقدمني ظلم وغشم وجار واستأثر بفيء المسلمين ، وعلمت من نفسي أني لا استحل ذلك ، وأن المؤمنين لا شيء يكون أنقص وأخف عليهم فوليت ، فقال له : أخبرني لولم تل هذا الأمر ووليه غيرك ، وفعل ما فعل من كان قبله ، أكان يلزمك من إثمه شيء ؟ فقال : لا ، فقال له : فأراك قد شريت راحة غيرك بتعبك ، وسلامته بخطرك فقال له : إنك لواعظ قط ، فقام ليخرج ثم قال له : والله لقد هلك أولنا بأولكم وأوسطنا بأوسطكم ، وسيهلك آخرنا بآخركم ، والله المستعان عليكم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وموقف الإمام من عمر بن عبد العزيز كان انتهاز الفرصة المؤاتية لتبليغ الرسالة ونصيحة الولاة ، ويصحح ما يمكن تصحيحه من أوضاع الأمة دون الإعتراف بشرعية النظام بالجملة ، وفيما يلي نقرأ حديثاً يصف دخول الإمام عليه ونصيحته له :

" يروي هشام بن معاذ ويقول : كنت جليساً لعمر بن عبد العزيز حيث دخل المدينة ، فأمر مناديه فنادى من كانت له مظلمة أو ظلامة فليأت الباب ، فأتى محمد بن علي يعني الباقر (ع) فدخل إليه مولاه مزاحم فقال : إن محمد بن علي بالباب ، فقال له : أدخله يا مزاحم ، قال : فدخل وعمر يمسح عينيه من الدموع فقال له محمد بن علي :

ما أبكاك يا عمر ؟ فقال هشام : أبكاني كذا وكذا يا ابن رسول الله ، فقال محمد بن علي (ع) : يا عمر إنما الدنيا سوق من الأسواق منها خرج قوم بما ينفعهم ، ومنها خرجوا بما يضرهم ، وكم من قوم قد

غرتهم بمثل الذي اصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبوا ، فخرجوا من الدنيا ملومين لما لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ، ولا مما كرهوا جنة ، قسم ما جمعوا من لا يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فنحن والله محقوقون ، إن ننظر إلى تلك الأعمال التي كنا نغبطهم بها ، فنوافقهم فيها ، وننظر إلى تلك الأعمال التي كنا نتخوف عليهم منها ، فنكف عنها .

فاتق الله واجعل في قلبك اثنتين ، تنظر الذي تحب ان يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك ، وتنظر الذي تكرهه أن يكون معك إذا قدمت على ربك فابتغ به البدل ، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ، ترجو أن تجوز عنك ، واتق الله يا عمر وافتح الأبواب وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ورد المظالم . ثم قال : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، فجثا عمر على ركبتيه وقال : إيه يا أهل النبوة فقال : نعم يا عمر من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له ، فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما رد عمر بن عبد العزيز ظلامة محمد بن علي (ع) فدك .

ثانياً : يبدو أن بني امية كانوا يتجنبون قتل ابناء علي (ع) بصورة ظاهرة ، للآثار السلبية التي خلفتها عليهم واقعة الطف ، وكان الأئمة بدورهم لا يجدون الظروف مؤاتية للقيام بنهضة دموية . والقصة التالية التي يذكرها الرواة تشهد بذلك ، فبعد ان نازع زيد بن الحسن الإمام الباقر في ميراث رسول الله استنجد بالخليفة الأموي ( عبد الملك بن مروان ) ودخل عليه وقال له : اتيتك من عند ساحر كذاب لا يحل لك تركه . فكتب عبد الملك كتاباً إلى واليه على المدينة أن يبعث إليه محمد بن علي مقيداً ، وقال لزيد : ارأيتك إن وليتك قتله قتلته ؟ قال : نعم .

ولكن عامله على المدينة استدرك الأمر وكتب إلى الخليفة : إن الرجل الذي اردته لا يوجد اليوم على وجه الأرض أعف منه ولا ازهد ولا اورع منه ، وإنه ليقرأ في محرابه فيجتمع الطير والسباع تعجباً لصوته ، وإن قراءته وكتبه مزامير داود ، وإنه من أعلم الناس ، وارق الناس ، وأشد الناس اجتهاداً وعبادة ، وأضاف في كتابه ، وكرهت لأمير المؤمنين التعرض له ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

وهكذا تراجع عبد الملك مما بدر منه . وبعد أن اكتشف كذب زيد بن الحسن أخذه وقيّده وهيّاه ، وقال له : لولا اني أريد أن لا أبتلى بدم احد منكم لقتلتك . ثم كتب إلى الإمام الباقر (ع) بعثت إليك بابن عمك فاحسن أدبه [٤٧] .

من هذه القصة نعرف أن ملوك بني امية كانوا يتحنبون ما امكنهم قتل أولاد علي (ع) بصورة ظاهرة .

ثالثاً : كانت المعارضة العلنية لحكم بني امية أصبحت معروفة ، ويروي التاريخ بعض النماذج منها

---

(٤٧) المصدر باختصار : ( ص ٣٢٩ ٣٣١ )

ونذكر فيما يلي اثنين منها :

١- يحكي الديلمي قصة طريفة في كتابه إعلام الدين يقول :

قال رجل لعبد الملك بن مروان أُناظرك وانا آمن ، قال : نعم ، فقال : أخبرني عن هذا الأمر الذي صار إليك أبنص من الله ورسوله ؟ قال : لا ، قال : اجتمعت الأمة فترضّوا بك ؟ قال : لا ، فقال : فكانت لك بيعة في أعناقهم فرضوا بها ؟ قال : لا ، قال : فاختارك أهل الشورى ؟ قال : لا ، قال : أفليس قد قهرتهم على أمرهم ، واستأثرت بفيئهم ، دونهم ؟ قال : بلى ، قال : فبأي شيء سُميت أمير المؤمنين ؟ ولم يؤمرك الله ورسوله ولا المسلمون ، قال له اخرج عن بلادي وإلاّ قتلتك ، قال : ليس هذا جواب أهل العدل والإنصاف ، ثم خرج عنه [٤٨] .

٢- وقصة أخرى ينقلها الشيخ الطوسي في أماليه عن الشيخ المفيد عن الثمالي قال :

حدثني من حضر عبد الملك بن مروان وهو يخطب الناس بمكة ، فلما صار إلى موضع العظة من خطبته ، قام إليه رجل فقال له : مهلاً مهلاً ، إنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولاتنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفاقتداء بسيرتكم أم طاعة لأمركم ؟ فإن قلتم اقتداءً بسيرتنا فكيف يقتدى بسيرة الظالمين ، وما الحجة في اتباع المجرمين الذين اتخذوا مال الله دولاً ، وجعلوا عباد الله خولاً ، وإن قلتم أطيعوا أمرنا ، واقبلوا نصحنا ، فكيف ينصح غيره من لم ينصح نفسه ؟ أم كيف تجب طاعة من لم تثبت له عدالة ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فلعل فينا من هو أفصح بصنوف العظات وأعرف بوجوه اللغات منكم ، فتزحزحوا عنها واطلقوا أقفالها وخلّوا سبيلها ، ينتدب لها الذين شردتهم في البلاد ، ونقلتموهم عن مستقرهم إلى كل واد ، فوالله ما قلدناكم أزمة أمورنا ، وحكمناكم في أموالنا وأبداننا وأدياننا ، لتسيروا فينا بسيرة الجبارين ، غير أنا بصراء بأنفسنا لاستيفاء المدة وبلوغ الغاية وتمام المحنة ، ولكل قائم منكم يوم لا يعدوه ، وكتاب لابدّ أن يتلوه ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، قال : فقام إليه بعض أصحابه المسالح ، فقبض عليه ، وكان آخر عهدنا به ، ولا ندري ما كانت حاله [٤٩] .

رابعاً : خروج الإمام إلى الشام .

إن حادثة استدعاء هشام بن عبد الملك الإمام الباقر (ع) من المدينة إلى الشام ، تكشف عن طبيعة علاقة الإمام بالسلطة السياسية ، وما كان يعانيه منها ، وكيف كان يتحداها ، ونحن إذ نثبت نصّاً تاريخياً فيها ندع للقارئ فرصة التأمل فيها ، على أن النصوص مختلفة في تفاصيل هذه الواقعة وإنما نذكر أكثرها تفصيلاً بإذن الله .

وقد حج هشام بن عبد الملك بن مروان سنة من السنين ، وكان قد حج في تلك السنة محمد بن علي

(٤٨) المصدر : ( ص ٣٣٥ ) .

(٤٩) المصدر : ( ص ٣٣٧ ) .

الباقر وابنه جعفر بن محمد عليهما السلام . وقال الإمام الصادق (ع) : الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً وأكرمنا به فنحن صفوة الله على خلقه وخيرته من عباده وخلفاوه ، فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا وخالفنا .

ثم قال :

فأخبر مسلمة أخاه بما سمع ، فلم يعرض لنا حتى انصرف إلى دمشق وانصرفنا إلى المدينة ، فأنفذ بريداً إلى عامل المدينة بإشخاص أبي وإشخاصي معه ، فأشخصنا ، فلما وردنا مدينة دمشق حجبنا ثلاثاً ، ثم أذن لنا في اليوم الرابع فدخلنا ، وإذا قد قعد على سرير الملك ، وجنده وخاصته وقوف على أرجلهم سماطان متسلحان ، وقد نصب البرجاس حذاه وأشياخ قومه يرمون ، فلما دخلنا وأبي أمامي وأنا خلفه ، فنادى أبي وقال : يا محمد إرم مع أشياخ قومك الغرض .

فقال له : إني قد كبرت عن الرمي فهل رأيت أن تعفيني .

فقال : وحق من أعزنا بدينه ونبيه محمد (ص) لا أعفيك ، ثم أومأ إلى شيخ من بني أمية أن أعطه قوسك ، فتناول أبي عند ذلك قوس الشيخ ثم تناول منه سهماً ، فوضعه في كبد القوس ، ثم انتزع ورمى وسط الغرض فنصبه فيه ، ثم رمى فيه الثانية فشق فواق سهمه إلى نصله ثم تابع الرمي حتى شق تسعة أسهم بعضها في جوف بعض ، وهشام يضطرب في مجلسه فلم يتمالك إلاّ أن قال : أجدت يا أبا جعفر وأنت أرمى العرب والعجم ، هلاّ زعمت أنك كبرت عن الرمي ، ثم أدركته ندامة على ما قال .

وكان هشام لم يكن كنّى أحداً قبل أبي ولا بعده في خلافته ، فهمَّ به وأطرق إلى الأرض إطراقة يتروى فيها . وأنا وأبي واقفان حذاه مواجهين له ، فلما طال وقوفنا غضب أبي فهم به ، وكان أبي (ع) إذا غضب نظر إلى السماء نظر غضبان يرى الناظر الغضب في وجهه ، فلما نظر هشام إلى ذلك من أبي .

قال له : إلي يا محمد !

فصعد أبي إلى السرير ، وأنا أتبعه ، فلما دنا من هشام ، قام إليه واعتنقه وأقعده عن يمينه ، ثم اعتنقني وأقعدني عن يمين أبي ، ثم أقبل على أبي بوجهه .

فقال له : يا محمد لاتزال العرب والعجم تسودها قريش مادام فيهم مثلك ، لله درك ، من علمك هذا الرمي ؟ وفي كم تعلمته ؟

فقال أبي : قد علمت أن أهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته أيام حداثتي ثم تركته ، فلما أراد أمير المؤمنين مني ذلك عدت فيه .

فقال له : ما رأيت مثل هذا الرَّمي قط مُذْ عقلت ، وما ظننت أن في الأرض أحداً يرمي مثل هذا الرمي أيرمي جعفر مثل رميك ؟ فقال :

إنا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه (ص) في قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣) والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الأمور التي

يقصر غيرنا عنها .

قال : فلما سمع ذلك من أبي انقلبت عينه اليمنى فاحولت واحمر وجهه ، وكان ذلك علامة غضبه إذا غضب ، ثم اطرق هنيئة ثم رفع راسه .

فقال لأبي : السنا بنو عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد ؟

فقال ابي : نحن كذلك ولكن الله جل ثناءه اختصنا من مكنون سره وخالص علمه بما لم يخص احداً به غيرنا .

فقال : اليس الله جل ثناؤه بعث محمداً (ص) من شجرة عبد مناف إلى الناس كافة ، ابيضها واسودها واحمرها من اين ورثتم ما ليس لغيركم ؟ ورسول الله (ص) مبعوث إلى الناس كافة وذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (آل عمران/١٨٠) إلى آخر الآية فمن اين ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد نبي ولا انتم انبياء ؟ فقال : من قوله تبارك وتعالى لنبيِّه (ص) : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (القيامة/١٦) الذي لم يحرك به لسانه لغيرنا امره الله أن يخصنا به من دون غيرنا ، فلذلك كان ناجى اخاه علياً من دون اصحابه فانزل الله بذلك قرآناً في قوله : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (الحاقة/١٢) فقال رسول الله (ص) لأصحابه : سالت الله ان يجعلها اذنك يا علي ، فلذلك قال علي بن ابي طالب صلوات الله عليه بالكوفة : علّمني رسول الله (ص) الف باب من العلم ففتح لكل باب الف باب ، خصَّه رسول الله (ص) من مكنون سره بما يخص امير المؤمنين اكرم الخلق عليه ، فكما خص الله نبيه (ص) خص نبيه (ص) اخاه علياً من مكنون سره بما لم يخص به احداً من قومه ، حتى صار إلينا فتوارثنا من دون أهلنا .

فقال هشام بن عبد الملك : إن علياً كان يدعي علم الغيب والله لم يطلع على غيبه احداً ، فمن اين ادعى ذلك ؟

فقال ابي : إن الله جل ذكره أنزل على نبيّه (ص) كتاباً بيَّن فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل/٨٩) وفي قوله : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الانعام/٣٨) وأوحى الله إلى نبيه (ص) ان لايبقي في غيبه وسره ومكنون علمه شيئاً إلاّ يناجي به علياً ، فامره ان يؤلف القرآن من بعده ، ويتولى غسله وتكفينه وتحنيطه من دون قومه ، وقال لأصحابه : حرام على اصحابي واهلي ان ينظروا إلى عورتي غير اخي علي ، فإنه مني وانا منه ، له مالي وعليه ما عليَّ ، وهو قاضي ديني ومنجز وعدي . ثم قال لأصحابه : علي بن ابي طالب يقاتل على تاويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، ولم يكن عند احد تاويل القران بكماله وتمامه إلاّ عند علي (ع) ، ولذلك قال رسول الله (ص) لأصحابه : اقضاكم علي اي هو قاضيكم وقال عمر بن الخطاب : لولا علي لهلك عمر ، يشهد له عمر ويجحده غيره .

فاطرق هشام طويلاً ثم رفع راسه فقال : سل حاجتك .

فقال : خلفت عيالي وأهلي مستوحشين لخروجي .

فقال : قد آنس الله وحشتهم برجوعك إليهم ولا تقم ، سر من يومك .

فاعتنقه ابي ودعا له وفعلت انا كفعل ابي ، ثم نهض ونهضت معه وخرجنا إلى بابه ، وإذا بميدان ببابه وفي آخر الميدان أناس قعود عددهم كثير ، قال أبي : من هؤلاء ؟

فقال الحجاب هؤلاء القسيسون والرهبان وهذا عالم لهم يقعد إليهم في كل سنة يوماً واحداً يستفتونه فيفتيهم .

فلف ابي عند ذلك راسه بفاضل ردائه وفعلت انا مثل فعل ابي ، فاقبل نحوهم حتى قعد نحوهم وقعدت وراء ابي ، ورفع ذلك الخبر إلى هشام ، فامر بعض غلمانه أن يحضر الموضع فينظر ما يصنع أبي ، فاقبل واقبل عداد من المسلمين فاحاطوا بنا ، واقبل عالم النصارى وقد شد حاجبيه بحريرة صفراء حتى توسطنا ، فقام إليه جميع القسيسين والرهبان مسلمين عليه ، فجاؤوا به إلى صدر المجلس فقعد فيه ، واحاط به أصحابه وابي وانا بينهم ، فادار نظره ثم قال لأبي :

امنّا أم من هذه الأمة المرحومة ؟

فقال ابي : بل من هذه الأمة المرحومة .

فقال : من أيهم انت من علمائها ام من جهالها ؟

فقال له ابي : لست من جهالها ، فاضطرب اضطراباً شديداً ثم قال له : اسالك ؟ فقال له ابي : سل ، فقال : من اين ادعيتم ان اهل الجنة يطعمون ويشربون ولا يُحدثون ولا يبولون ؟

وما الدليل فيما تدعونه من شاهد لا يجهل ؟

فقال له ابي : دليل ما ندّعي من شاهد لا يجهل ، الجنين في بطن أمه يطعم ولا يحدث .

قال : فاضطرب النصراني اضطراباً شديداً ، ثم قال : هلاّ زعمت انك لست من علمائها ؟

فقال له أبي : ولا من جهالها ، واصحاب هشام يسمعون ذلك .

فقال لأبي : اسالك عن مسالة اخرى فقال له ابي : سل .

فقال : من اين ادعيتم ان فاكهة الجنة ابداً غضة طرية موجودة غير معدومة عند جميع اهل الجنة ؟ وما الدليل عليه من شاهد لا يجهل ؟

فقال له ابي : دليل ما ندّعي ان ترابنا ابداً يكون غضاً طرياً موجوداً غير معدوم عند جميع اهل الدنيا لا ينقطع ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، ثم قال : هلاّ زعمت انك لست من علمائها ؟ فقال له ابي : ولا من جهالها .

فقال له : اسالك عن مسالة ؟ فقال : سل ، فقال : اخبرني عن ساعة لا من ساعات الليل ولا من ساعات النهار ؟

فقال له ابي : هي الساعة التي بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يهدا فيها المبتلي ، ويرقد فيها

الساهر ، ويفيق المغمى عليه ، جعلها الله في الدنيا رغبة للراغبين وفي الآخرة للعاملين لها دليلاً واضحاً وحجة بالغة على الجاحدين المتكبرين التاركين لها .

قال : فصاح النصراني صيحة ثم قال : بقيت مسالة واحدة والله لأسالك عن مسالة لاتهدي إلى الجواب عنها أبداً .

قال له أبي : سل فإنك حانث في يمينك .

فقال : أخبرني عن مولودين ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد عمر أحدهما خمسون سنة وعمر الأخر مائة وخمسون سنة في دار الدنيا ؟

فقال له أبي : ذلك عزيز وعزيرة ولدا في يوم واحد ، فلما بلغا مبلغ الرجال خمسة وعشرين عاماً ، مرّ عزيز على حماره راكباً على قرية بانطاكية وهي خاوية على عروشها ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (البقرة/٢٥٩) وقد كان اصطفاه وهداه فلما قال ذلك القول غضب الله عليه فأماته الله مائة عام سخطاً عليه بما قال ، ثم بعثه على حماره بعينه وطعامه وشرابه وعاد إلى داره ، وعزيرة أخوه لا يعرفه فاستضافه فاضافه وبعث إليه ولد عزيرة وولد ولده وقد شاخوا وعزيز شاب في سن خمس وعشرين سنة ، فلم يزل يذكر أخاه وولده وقد شاخوا وهم يذكرون ما يذكرهم ويقولون : ما أعلمك بامر قد مضت عيه السنون والشهور ، ويقول له عزيرة وهو شيخ كبير ابن مائة وخمسة وعشرين سنة : ما رأيت شاباً في سن خمسة وعشرين سنة أعلم بما كان بيني وبين أخي عزير أيام شبابي منك ! فمن أهل السماء أنت ؟ أم من أهل الأرض ؟ فقال : يا عزيرة أنا عزير سخط الله عليّ بقول قلته بعد أن اصطفاني وهداني فأماتني مائة سنة ثم بعثني لتزداد بذلك يقيناً ، إن الله على كل شيء قدير ، وها هو هذا حماري وطعامي وشرابي الذي خرجت به من عندكم أعاده الله تعالى كما كان ، فعندها أيقنوا فأعاشه الله بينهم خمسة وعشرين سنة ، ثم قبضه الله وأخاه في يوم واحد .

فنهض عالم النصارى عند ذلك قائماً وقاموا – النصارى – على أرجلهم فقال لهم عالمهم : جئتموني بأعلم مني واقعدتموه معكم حتى هتكني وفضحني وأعلم المسلمين بان لهم من أحاط بعلومنا وعنده ما ليس عندنا ، لا والله لا كلمتكم من راسي كلمة واحدة ، ولا قعدت لكم إن عشت سنة .

فتفرقوا وأبي قاعد مكانه وأنا معه ، ورفع ذلك الخبر إلى هشام .

فلما تفرق الناس نهض أبي وانصرف إلى المنزل الذي كنا فيه ، فوافانا رسول هشام بالجائزة وأمرنا أن ننصرف إلى المدينة من ساعتنا ولا نجلس ، لأن الناس ماجوا وخاضوا فيما دار بين أبي وبين عالم النصارى ، فركبنا دوابنا منصرفين وقد سبقنا بريد من عند هشام إلى عامل مدين على طريقنا إلى المدينة أن ابني أبي تراب الساحرين : محمد بن علي وجعفر بن محمد الكذابين – بل هو الكذاب لعنه الله – فيما يظهران من الإسلام وردّا عليّ ، ولما صرفتهما إلى المدينة مالا إلى القسيسين والرهبان من كفار النصارى واظهرا لهما دينهما ومرقا من الإسلام إلى الكفر دين النصارى وتقربا إليهم بالنصرانية ،

فكرهت ان انكل بهما لقرابتهما ، فإذا قرات كتابي هذا فناد في الناس : برئت الذمة ممن يشاريهما او يبايعهما او يصافحهما او يسلم عليهما فإنهما قد ارتدا عن الإسلام ، ورأى امير المؤمنين ان يقتلهما ودوابهما وغلمانهما ومن معهما شر قتلة ، قال : فورد البريد إلى مدينة مدين .

فلما شارفنا مدينة مدين قدم ابي غلمانه ليرتادوا لنا منزلاً ، ويشروا لدوابنا علفاً ، ولنا طعاماً ، فلما قرب غلماننا من باب المدينة اغلقوا الباب في وجوهنا وشتمونا وذكروا علي بن ابي طالب صلوات الله عليه فقالوا : لا نزول لكم عندنا ولا شراء ولا بيع يا كفار يا مشركين يا مرتدين يا كذابين يا شر الخلائق اجمعين ، فوقف غلماننا على الباب حتى انتهينا إليهم فكلمهم ابي وليّن لهم القول وقال لهم :

اتقوا الله ولا تغلظوا فلسنا كما بلغكم ولا نحن كما تقولون فاسمعونا ، فقال لهم : فهبنا كما تقولون افتحوا لنا الباب وشارونا كما تشارون وتبايعون اليهود والنصارى والمجوس ، فقالوا : انتم شر من اليهود والنصارى والمجوس لأن هؤلاء يؤدون الجزية وانتم ما تؤدون ، فقال لهم ابي : فافتحوا لنا الباب وانزلونا وخذوا منا الجزية كما تاخذون منهم ، فقالوا : لا نفتح ولا كرامة لكم حتى تموتوا على ظهور دوابكم جياعاً نياعاً او تموت دوابكم تحتكم ، فوعظهم ابي فازدادوا عتواً ونشوزاً ، قال : فثنى ابي رجله عن سرجه ثم قال لي : مكانك يا جعفر لا تبرح ، ثم صعد الجبل المطل على مدينة مدين واهل مدين ينظرون إليه ما يصنع ، فلما صار في اعلاه استقبل بوجهه المدينة وجسده ، ثم وضع إصبعيه في اذنيه ثم نادى باعلى صوته ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (هود/٨٤-٨٦) نحن والله بقية الله في ارضه ، فامر الله ريحاً سوداء مظلمة فهبت واحتملت صوت أبي فطرحته في اسماع الرجال والصبيان والنساء ، فما بقي احد من الرجال والنساء والصبيان إلاّ صعد السطوح ، وابي مشرف عليهم ، وصعد فيمن صعد شيخ من اهل مدين كبير السن ، فنظر إلى ابي على الجبل ، فنادى باعلى صوته : اتقوا الله يا اهل مدين فإنه قد وقف الذي وقف فيه شعيب (ع) حين دعا على قومه ، فإن انتم لم تفتحوا له الباب ولم تنزلوه جاءكم من الله العذاب . فإني اخاف عليكم وقد أعذر من انذر ، ففزعوا وفتحوا الباب وانزلونا ، وكُتب بجميع ذلك إلى هشام فارتحلنا في اليوم الثاني ، فكتب هشام إلى عامل مدين يامره بان ياخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته ، وكتب إلى عامل مدينة الرسول أن يحتال في سم ابي في طعام او شراب ، فمضى هشام ولم يتهيا له في ابي من ذلك شيء [٥٠] .

---

(٥٠) موسوعة بحار الأنوار : ( ص ٣٠٦ - ٣١٣ ) نقلاً عن دلائل الإمامة تصنيف محمد بن جرير الطبري الإمامي .

## الفصل الثالث

# وفـاتـه

بعد ثمانية عشر عاماً تصدى خلالها للإمامة الإسلامية ، استجاب لنداء ربه الحق ، فلبّاه راضياً مرضياً ، وقد قضى من عمره المبارك سبعاً وخمسين ربيعاً .

في غرة رجب من عام ١١٤ للهجرة كان اهل بيته يحفّون به وكان السم الذي دس غليه من خلال سرج امتطاه قد انتشر في جسده فالتفت إلى نجله ووصيه الإمام الصادق (ع) وقال :

سمعت علي بن الحسين ناداني من وراء الجدران يا محمد تعال عجل ، وقال : يا بني هذا الليلة التي وعدتها وقد كان وضوءه قريباً ، قال : اريقوه اريقوه فظن بعضهم انه يقول : من الخمس فقال يا بني أرقه فارقناه فإذا فيه فارة .

واوصى ابنه الإمام جعفر بن محمد بان يكفّنه في ثلاثة أثواب ، أحدها رداء له جدة كان يصلي فيه يوم الجمعة ، وثوب آخر وقميص ، وأوصى أن يشق له القبر شقاً ، واضاف فإن قيل لكم ان رسول الله لحد له فقد صدقوا .

واوصى أن يرفع اربع أصابع ، وأن يرش بالماء ، وأن يوقف من امواله قدراً لكي تندبه النوادب بمنى عشر سنين أيام المنى .

ولما توفي ضجت المدينة المنورة . ويروى عن الإمام الصادق (ع) :

ان رجلاً كان على بعد اميال من المدينة فرأى في منامه انه قيل له : انطلق فصل على ابي جعفر : فإن الملائكة تغسله ، فجاء الرجل فوجد أبا جعفر قد توفي .

وبعد تجهيزه دفن في البقيع عند قبر والده الإمام زين العابدين وعم ابيه الإمام الحسن المجتبى [٥١] .

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات مسموماً ويوم يبعث حيّاً .

### كلماته المضيئة :

لقد فاضت بكلماته المضيئة كتب المعارف ، اولم يكن باقر العلم في اهل بيت الرسالة ؟ ولكننا نقتبس منها قبسات لعل الله ينور بها قلوبنا ويبصرنا حقائق انفسنا ويهدينا إلى الصراط القويم .

تعال نستمع معاً إلى وصيته الرشيدة التي القاها إلى جابر بن يزيد الجعفي :

---

(٥١) هناك بعض الإختلافات في تفاصيل وفاته وسني عمره وما نقلناه استعرناه من جملة روايات تجدها في بحار الأنوار : ( ج ٤٦ ، ص ١١٢ -٢٢٠ ) .

" اوصيك بخمس : إن ظُلمت فلا تظلم ، وإن خانوك فلا تخن ، وإن كذبت فلا تغضب ، وإن مدحت فلا تفرح ، وإن ذممت فلا تجزع ، وفكر فيما قيل فيك فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جل وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من اعين الناس ، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك فثواب اكتسبته من غير أن تتعب بدنك ، واعلم انك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك اهل مصرك وقالوا أنك رجل سوء لم يحزنك ذلك ، ولو قالوا انك رجل صالح لم يسرك ذلك ، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده ، راغباً في ترغيبه ، خائفاً من تخويفه ، فاثبت وأبشر فإنه لايضرك ما قيل فيك ، وإن كنت مبايناً للقرآن فما الذي يغرك من نفسك ، إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها ، فمرة يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله ، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها ، فينعشه الله فينتعش ويقيل الله عثرته فيتذكر ، ويفزع إلى التوبة والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف وذلك بان الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (الاعراف/٢٠١) ، يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلّصاً إلى الشكر واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله ازراء على النفس وتعرّضاً للعفو ، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم ، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل ، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف وتوقَّ مجازفة الهوى بدلالة العقل ، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم ، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء ، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة ، واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل ، واقطع أسباب الطمع ببرد الياس ، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس ، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض ، وتعرض لرقة القب بكثرة الذكر في الخلوات ، واستجلب نور القلب بدوام الحزن ، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق ، وإياك والرجاء الكاذب فإنه يوقعك في الخوف الصادق ، وإياك والتسويف فإنه بحر يغرق فيه الهلكى ، وإياك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب ، وإياك والتواني فيما لا عذر لك فيه فإليه يلجا النادمون ، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار ، وتعرض للرحمة وعفو الله بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم ، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر واطلب بقاء العز بإماتة الطمع ، وارفع ذلك الطمع بعز الياس ، واستجلب عز الياس ببعد الهمة ، وتزود من الدنيا بقصر الأمل وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة ، وإياك والثقة بغير المامون ، واعلم انه لا علم كطلب السلامة ، ولا عقل كمخالفة الهوى ، ولا فقر كفقر القلب ، ولا غنى كغنى النفس ، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك ، ولا نعمة كالعافية ولا عافية كمساعدة التوفيق ، ولا شرف كبعد الهمة ، ولا زهد كقصر الأمل ، ولا عدل كالإنصاف ، ولا جور كموافقة الهوى ، ولا طاعة كاداء الفرائض ، ولا مصيبة كعدم العقل ، ولا معصية كاستهانتك بالذنب ، ورضاك بالحالة التي انت عليها ، ولا فضيلة كالجهاد ، ولا جهاد كمجاهدة الهوى ، ولا قوة كرد الغضب ، ولا ذل كذل الطمع ، وإياك والتفريط عند إمكان الفرصة ، فإنه ميدان يجري لأهله بالخسران .

وقال (ع) ، خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها وإن لم يعمل بها ، فإن الله يقول ، ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ﴾ (الزمر/١٨) ، ويحك يا مغرور الا تحمد من تعطيه فانياً ويعطيك باقياً ، درهم يفنى بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف مضاعفة ، إنما أنت لص من لصوص الذنوب كلما عرضت لك شهوة او ارتكاب ذنب سارعت إليه وأقدمت بجهلك عليه فارتكبته كأنّك لست بعين الله او كان الله ليس لك بالمرصاد ، يا طالب الجنة ما أطول نومك وأكل مطيتك وأوهى همتك فللّه انت من طالب ومطلوب ، ويا هارباً من النار ما أحث مطيتك إليها ، وما أكسبك لما يوقعك فيها [٥٢] .

(٥٢) في رحاب أهل البيت سيرة الامام الباقر (ع) : ( ص ٢١ - ٢٢ ) .

# الامـام الصــادق (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

توافق هذه الليلة — التي اشرع فيها بسرد قضية تاريخية جليلة عن حياة الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) — الخامس والعشرين من شهر شوال لسنة ١٣٨٦ هجرية ، حيث يحتفي العالم الجعفري بتجديد ذكرى وفاة سادس أئمته ويفتخر بشرف الانتماء إليه مبدءاً ومذهباً .

وإني إذ أقدم أسجى التعازي إلى المسلمين عامة ، والجعفريين خاصة ، أرجو من الله العلي القدير ان يسددهم في اتخاذ مبادئ صاحب هذه الذكرى المفجعة ويهديهم للعمل الجاد بتعاليمه ومناهجه .

وبالتالي فإني أشرّف قلمي بالكتابة عنه ، مشاطرة مني في تجديد الذكرى مع الأمة الإسلامية ، ولدعم المجتمع الإسلامي بالثقافة الحقة التي شرعها لنا ربّ السماء ورسوله ، ومن ثم تادية لمسؤوليتي تجاه مبدئي والحق الذي يمثله ، وليس سداً لثغرة في التاريخ ، فهناك عدد من الكتب الحديثة عالجت قضية الإمام الصادق (عليه السلام ) ومذهبه ومذهب تابعيه بشتى الأساليب والصور .

## الفصل الاول

# الاصل الكريم

### ميلاده :

كانت الأمة الإسلامية تحتفل بالذكرى الثمانين[1] من مولد الرسول الأعظم (ص) ، في السابع عشر من شهر ربيع الأول ، وكانت تسير في بيت الرسالة موجة كريمة من السرور والإبتهاج ، ترتقب مجدا يهبط عليها فيزيدها رفعة وشموخاً .

في تلك الليلة ، وفي ذلك الجو الميمون ولد الإمام الصادق (ع) شعلة نور بازغة سخت بها إرادة السماء لتضيء لأهل الأرض ، وتنير سبلها إلى الخير والسلام .

### أبواه :

ولد من أبوين كريمين عظيمين مباركين هما :

١ – الإمام محمد بن علي بن الحسين بن علي ، الباقر (ع) ، الذي انحدر من سلالة علي اباً وأماً ، حيث كان حفيد الحسين بن علي ، وكانت أمه حفيدة الحسن (ع) . وهكذا بُني اول بيت فاطمي اصيل ، فكان اشم واروع قمة إنسانية ارتفعت على بيت الرسالة .

٢ – فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر ، التي كانت هي الأخرى اول نقيبة من سلالة ابي بكر أماً وأباً . وجدها محمد بن ابي بكر كان له سابقة الجهاد بين يدي الإمام امير المؤمنين (ع) ، وكان ربيباً له حيث تزوج الإمام بعد موت ابي بكر زوجته اسماء بنت عميس ، فربى ولدها محمد في حجره ، وغذاه من علومه ، حتى أصبح فدائياً مخلصاً للإسلام ، وولاه مصراً فقتل فيها بامر من معاوية .

وهكذا ياتي الإمام عصارة جهاد مقدس ، من اب وام منحدرين من سلالة مباركة .

### نشأته :

لقد كانت ولادته في عصر جده الإمام زين العابدين الذى ملأ الافاق فضله ومجده ، ولم يزل في كنفه الوديع الذي كان يوحي إليه كل معاني السمو والعظمة ، ويغذيه بكل معاني الفضل والكمال ، ولم يزل يرى من جده العبادة والزهادة والرفادة والإجتهاد في طاعة الله فتنطبع في نفسه اثارها ، حتى بلغ سن الثانية عشر .

---

(١) يقول بعض المحققين أن أقرب الروايات إلى الحقيقة في تاريخ ميلاد الصادق (ع) هي التي تحدده بسنة (٨٠) هجرية وهناك روايتان أخريتان ٨٣ و ٧٧ غير معتمد عليهما .

وعندما انتقلت إلى ابيه مقاليد الإمامة العامة ، وقام (ع) باداء واجباتها ومسؤولياتها خير قيام ، كان الإمام الصادق (ع) يترعرع ليصبح فتاً نموذجيا يرمق إليه الشيعة بابصارهم ويرون فيه القدوة السادسة لهم .

## سفرته إلى الشام :

لقد كان الأمويون في الفترة الأخيرة من تسلطهم — حيث اختلفت على الامة الإسلامية التيارات الفكرية المتناقضة — يمارسون آخر محاولاتهم لتمويه الحقائق وإثبات المتناقضات ، ويعالجون الأحداث السياسية على ضوء سياسة أسلافهم المنحرفين ، والعجيب من امرهم أنّهم في تلك الحقبة كانوا يبدِّلون أزياء الخلافة كما تتبدل السنين ، فلا تكاد تقبل سنة جديدة على الناس إلاّ بخليفة جديد ، لأن الأمة تلفظهم وتأبى الخضوع لسيادتهم الباطلة .

في هذا العصر — بالذّات — قاسى الإمام الباقر (ع) من ظلم الأمويين الشيء الكثير ، لأنه كان مأوى الحق وأهله ومركز المضطهدين ، الذين عارضوا سياسة الأمويين كما يتبين ذلك من سيرته المقدسة .

أما الشيعة فقد إبتلوا بلاءً عظيماً من جراء الظلم الأموي ، كما بين الإمام الباقر (ع) حين قال : " ثم جاء الحجاج فقتلهم — يعني الشيعة — شر قتله واخذهم بكل ظنة وتهمة " .

حتى ان الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من ان يقال له شيعي ينتمي لعلي (ع) .

ولأن الخليفة الأموي أراد إثبات سلطته على الإمام الباقر (ع) واستعراض قوته امامه — مثلما يصنعه الحاكم السياسي الظالم اليوم بمن يعارضه في الأمر — قام باستدعائه إلى الشام ، فسافر الإمام (ع) إليها مصطحباً ولده العزيز .

## الفصل الثاني

# عهد امامته

في سنة (١١٧ هـ) – حيث انتقل الإمام الباقر (ع) إلى جوار ربه ضحية غالية لسياسة بني امية الجائرة – اوصى إلى ولده الصادق (ع) وهو في سن الرابعة والثلاثين بمدرسته التي اجتمعت عليها المئات من ذوي الفكر والبصيرة ، حتى كانت نواة المدرسة الكبرى التي اسسها الإمام الصادق (ع) من بعد ابيه ، كما اوصى له بالإمامة . وبهذا انتقلت إلى الإمام الصادق (ع) قيادة الأمة الدينية ومسؤولياتها السياسية الكبيرة .

### المدرسة الكبرى :

لعلنا لن نجد في التاريخ الإنساني مدرسة فكرية استطاعت أن توجه الأجيال المتطاولة ، وتفرض عليها مبادئها وأفكارها ، ثم تبني أمة حضارية متوحدة لها كيانها وذاتيتها ، مثلما صنعته مدرسة الإمام الصادق (ع) .

إن من الخطا أن نحدد إنجازات هذه المدرسة في من درس فيها واخذ منها من معاصريها وإن كانوا كثيرين جدا ، وإنما بما خلّفته من أفكار ، وبما صنعته من رجال غيّروا وجه التاريخ ووجهوا امته ، بل وكوّنوا حضارته التي ظلت قروناً مستطيلة .

لقد اثبت التاريخ أن الذين استقوا من افكار هذه المدرسة مباشرة كانوا اربعة آلاف طالب [٢] . ولكن ذلك لا يهمنا بمقدار ما يهمنا معرفة ما كان لهذه المدرسة من تاثير في تثقيف الأمة الإسلامية التي عاصرتها والتي تلتها إلى اليوم ، وإن الثقافة الإسلامية الأصيلة كانت جارية عنها فقط ، حيث اثبتت البحوث أن غيرها من الثقافات المنتشرة بين المسلمين إنما انحدرت عن الأفكار المسيحية واليهودية بسبب الدّاخلين منهم ، أو ملونة بصبغة الفلاسفة اليونان والهنود الذين ترجمت كتبهم إلى العربية ، فبنى المسلمون عليها افكارهم وكوّنوا بها مبادئهم .

ولم تبق مدرسة فكرية إسلامية حافظت على ذاتيتها ووحدتها واصالتها في جميع شؤون الحياة كما بقيت مدرسة الإمام الصادق (ع) ، ذلك لثقة التابعين بها وبافكارها ، مما دفعهم إلى التحفظ بها وبملامحها الخاصة عبر قرون طويلة ، حتى أنهم كانوا ينقلون عنها الروايات فماً بفم ، وإذا كتبوا شيئا لا ينشــــروه إلاّ

---

(٢) لقد جمع الحافظ ابن عقدة الزيدي أسماء الرواة عن أبي عبد الله (ع) فكانوا أربعة آلاف ، وجاء ابن القضائري فاستدل على ابن عقدة فزاد عليهم .

بعد الإجازة الخاصة ممن رووا الأفكار عنه .

وإذا عرفنا بأن الثقافة الإسلامية – الشيعية منها أو السنّية – كانت ولا زالت تعتمد على الأئمة من معاصري الإمام الصادق (ع) كالأئمة الأربعة ممن توقف المسلمون على مذاهبهم فقط ، وبالتالي عرفنا بأن معظم هؤلاء الأئمة أخذوا من هذه المدرسة أفكارهم الدينية ، حتى أن ابن أبي الحديد اثبت أن علم المذاهب الأربعة راجع إلى الإمام الصادق في الفقه . وقد قال المؤرخ الشهير أبو نعيم الأصفهاني : ( روى عن جعفر عدة من التابعين منهم : يحيى بن سعيد الأنصاري ، وأيوب السختياني ، وأبان بن تغلب ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويزيد بن عبد الله بن هاد ، وحدث عنه الأئمة الأعلام : مالك بن أنس ، وشعبة الحجاج ، وسفيان الثوري ، وابن جريح ، وعبد الله بن عمر ، وروح بن القاسم ، وسفيان بن عيينه ، وسليمان بن بلال ، وإسماعيل بن جعفر ، وحاتم بن إسماعيل ، وعبد العزيز بن المختار ، ووهب بن خالد ، وإبراهيم بن طهمان ، في آخرين ، وأخرج عنه مسلم بن الحجاج في صحيحه محتجاً بحديثه[3] .

إذا عرفنا ذلك صح لنا القول بأن الثقافة الإسلامية الأصيلة ترجع إلى الإمام الصادق (ع) وإلى مدرسته فقط .

ومن جانب آخر إذا عرفنا بأن تلميذاً واحداً من الملتحقين بهذه المدرسة ألّف زهاء خمسمائة رسالة في الرياضيات كلها من إملاء الإمام الصادق (ع) ، وهو جابر بن حيان المعلم الرياضي الشهير الذي لا يزال العالم يعرف له فضلاً كبيراً على هذه العلوم وأيادي طويلة على أهلها .

وروى عنه محمد بن مسلم ستة عشر ألف حديث في مختلف العلوم ، وآخرون من هؤلاء الأفذاذ ، حتى قال قائلهم رأيت في هذا المسجد – أي مسجد الكوفة – تسعمائة شيخ كل يقول : ( قال : جعفر بن محمد ) . حتى أن أبا حنيفة كان يقول :

( لولا السَّنتان لهلك النُعمان ) .

وأخيراً عرفنا بأنه لم يرو عن أحد من الأئمة الإثني عشر – بل عن المعصومين الأربعة عشر وفيهم رسول الله (ص) – بقدر ما روي عن الإمام الصادق (ع) . ولقد جمع المتأخرون من الشيعة ما روي عنهم في مجلدات ضخمة : فكان البحار للمجلسي يحوي مائة وعشرة مجلدات ، وكان جامع الأخبار للنراقي مثيلاً له ، وكان مستدرك البحار نظيراً له ، وقد احتوت غالبية هذه الكتب ونظائرها على أحاديث الإمام الصادق (ع) وأكثرها في الفقه والحكمة والتفسير وما إلى ذلك .

أما في سائر العلوم فلم يصل إلى أيدينا إلاّ الشيء القليل ، حيث ذهب معظمها ضحية الخلاف السياسي الذي أعقب عصر الإمام ، فكم من كتب مخطوطة للشيعة أحرقتها نيران المنحرفين ، وكان نصيب مكاتب الفاطميين بمصر أكثر من ثلاثة ملايين كتاباً مخطوطا ، وكم من كتب لفتها أمواج دجلة

---

(٣) حلية الأولياء : ( ٣ / ١٩٩ ) .

والفرات وأحرقتها مطامع العباسيين ببغداد والكوفة ، وكم من محدّث واسع المعرفة جمّ الثقافة ظلت العلوم هائجة في فؤاده لا يستطيع لها نشراً خوفاً من إرهاب العباسيين وإجرامهم ، فهذا ابن أبي عمير ظلَّ في سجون بني العباس مدة طويلة — ومن المؤسف — ان ما كتبها هجرت في هذه المدة حتى عفنت واكلها التراب ، وراحت أحاديث كثيرة منها صحيحة الأعمال . وهذا محمد بن مسلم حفظ ثلاثين الف حديثاً عن الإمام الصادق ولم يرو منها شيئاً .

إذا عرفنا كل ذلك امكننا معرفة مدى شمول ثقافة هذه المدرسة العالم الإسلامي ومدى سعة افقها الرحيب .

والمشهور ان منهاج الإمام الصادق كان يوافق احدث مناهج التربية والتعليم في العالم ، حيث ضمت حوزته اختصاصيين كهشام بن الحكم الذي تخصص في المباحث النظرية ، وتخصص زرارة ومحمد بن مسلم واشباههم في المسائل الدينية ، كما تخصص جابر بن حيان في الرياضيات ، وعلى هذا الترتيب .

حتى انه كان ياتيه الرجل فيساله عما يريد من نوع الثقافة ، فيقول الفقه فيدله على إخصائيه ، أو التفسير فيومىء إلى صاحبه ، أو الحديث والسيرة ، أو الرياضيات ، او الطب ، أو الكيمياء ، فيشير إلى تلامذته الاخصائيين ، فيذهب الرجل بملازمة من أراد حتى يخرج رجلاً قديراً بارعاً في ذلك الفن .

ولم يكن الوافدون إليه من اهل قطر خاص ، فلقد كانت طبيعة العالم الإسلامي في عصره تقضي على الأمة بتوسيع الثقافة والعلم والمعرفة في كل بيت .. حيث ان الفتوحات المتلاحقة التي فتحت على المسلمين ابواباً جديدة من طرق العيش وعادات الخلق ، وافكار الأمم ، كانت تسبب احتكاكاً جديداً للأفكار الإسلامية بالنظريات الأخرى ، ولسبيل الحياة عند المسلمين بعادات الفرس والروم وغيرهما من جارات الدولة الإسلامية ، كما خلقت مجتمعاً حديثاً امتزج فيه المتاثر العميق بالوضع ، والمنحرف الكامل عن الإسلام ، مما سبب حدوث تناقضات في الحياة ، قد ترديه وتحدث لديه انعكاسات سيئة جداً لذلك الامتزاج الطبيعي المفاجىء .

لذلك هرعت الأمة يومئذ إلى العلم والثقافة والتصقت بابي عبد الله الصادق (ع) مؤملة الخصب الموفور ، ووفدت عليه من اطراف العالم الإسلامي طوائف مختلفة ، وساعدهم على المثول عنده مركزه الحساس ، حيث اختار — في الأعم الأغلب — مدينة الرسول (ص) التي كانت تمثل العصب الحساس في العالم الإسلامي ، ففي كل سنة كانت وفود المسلمين تتقاطر على الحرمين لتادية مناسك الحج المفروضة ولحل مسائلهم الفقهية والفكرية . فيلتقون بصادق اهل البيت (ع) وبمدرسته الكبرى حيث يجدون عنده كل ما يريدون .

ويجدر بنا المقام هنا ان نشير إجمالا إلى موجة الإلحاد التي زحفت على العالم الإسلامي في عهد الإمام الصادق (ع) ، وقد اصطدمت بمدرسته ، فإذا بها الصّد المتين ، والسّد الرصين ، الذي حطم قواها وجعلها رذاذاً ، وباعتبار اننا نحاول أن نلخّص حياة إمامنا العظيم ونحدد ملامح مدرسته الكبرى ، يلزم أن

نلم موجزاً بهذه الموجة الشاملة .

لقد اشرنا قريباً إلى أن الفتوحات الإسلامية سببت احتكاكاً عنيفاً بين المسلمين وبين الداخلين ، ولأن اغلب المسلمين لم يكونوا قد تفهموا الإسلام تفهماً قويماً ، ولا وعوه وعياً مستوعباً ، فإن نتيجة هذا الاصطدام كانت سيئة ، إذ أدّى إلى تشعب المسلمين إلى فرقتين :

الأولى : المحافظون المتزمتون الذين اتخذوا ظاهر الدين ولم يتفهموا جوهره وحقيقته ، فإذا بهم يفقدون عقولهم ويفقدون معها مقاييس الأشياء ، وكانت الخوارج من فرسان هذا الإتجاه ، كما كانت الأشاعرة مع ملاحظة ما بين طوائفهم من اختلاف في الكمية والكيفية .

والثانية : المتطورون المفرّطون الذين بالغوا في التأثر بالوضع والغوا المقاييس ، واكتفوا بما اوحت إليهم عقولهم الناقصة ، حسب اختلاف النزعات وتطور الظروف ، وكان في مقدمتهم الملحدون ثم — مع اختلاف كثير — كانت المعتزلة ومن إليهم من الفرق الأخرى .

وبطبيعة الحال كان الملحدون متسترين بسبب الوضع الاجتماعي القاسي الذي يعتبر فيه المرتد أسوأ حالاً من الكافر الأصيل ، وكانوا أقلاء في نفس الوقت ، بيد أنهم كانوا يستقون أفكارهم من فلسفة اليونان التي كان العرب لا يعرفها حتى ذلك اليوم ، وحيث تمت صلتهم بها عن طريق حركة الترجمة المنتشرة من عهد الإمام فصاعداً .

ولذلك كان القليل من المسلمين الذين تفهموا فلسفة الإسلام النظرية من جميع أبعادها ، وعرفوا الاختلاف بينها وبين سائر النظريات ، واستطاعوا أن يقيموا الحجة البالغة على صحة مبادئ الإسلام الفكرية ودحض ما سواها .

وقد اصطدم هؤلاء بمن اقتصرت معلوماتهم على مجموعة من الأحاديث التي يروونها عن أبي هريرة أو غيره ، غير مبالين بما فيها من تناقضات جمة ، وكانوا يحسبون أنهم على حق ، وأن لهم مقدرة كافية لإثبات مزاعمهم الباطلة ، فترى أحدهم يشكل حزباً ويدعو إليه الناس سراً .

لذلك تحتم على الإمام الوقوف في وجههم وتبديد مزاعمهم . فرسم ثلاثة خطط حكيمة لذلك :

الأولى : لقد خصّ فرعاً من مدرسته بالذين يعرفون فلسفة اليونان بصورة خاصة وغيرها بصورة عامة ، ويعرفون وجهة نظر الإسلام إليها والحجج التي تنقضها ، وكان من هؤلاء هشام بن الحكم المفوّه الشهير ، وعمران بن أعين ، ومحمد بن النعمان الأحول ، وهشام بن سالم ، وغيرهم من مشاهير علم الحكمة والكلام ، العارفين بمقاييس الإسلام النظرية ايضا .

الثانية : وكتب رسائل في ذلك ، مثل رسالته المدعاة بـ ( توحيد المفضل ) ، ورسالته المسماة بـ (الإهليلجة) وما إليها .

الثالثة : المواجهة الشخصية لزعماء فكرة الإلحاد . وباعتبار أن هذه العملية الأخيرة كانت أبلغ في مقابلة الموجة من اللتين سبقتا ، لذلك يجدر بنا الوقوف عندها قليلاً لقراءة بعض القصص والأحداث المهمة :

١ — كان ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن الأعمى وابن المقفع مجتمعين بنفر من الزنادقة في الموسم بالمسجد الحرام ، وكان الإمام الصادق (ع) متواجداً آنذاك يفتي الناس ويفسر لهم القرآن ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات . فطلب القوم من ابن أبي العوجاء تغليظ الإمام وسؤاله عما يفضحه بين المحيطين به .

فاجابهم بالإيجاب واتجه — بعد ان فرّق الناس — صوب الإمام ، وقال : يا أبا عبد الله إن المجالس أمانات [٤] ولا بدّ لكل من به سؤال أن يسال ، أفتاذن لي في السؤال ؟ فقال له أبو عبد الله : سل إن شئت .

فقال ابن أبي العوجاء : إلى كم تدوسون هذا البيدر ، وتلوذون بهذا الحجر ، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر ، وتهرولون حوله هرولة البعير ، فهناك من فكّر في هذا وقدّر بانه فعل غير حكيم ولا ذي نظر . فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه ؟

فقال الصادق (ع) :

" إن من أضله الله وأعمى قلبه استوهم الحق فلم يستحث به ، وصار الشيطان وليّه وربّه يورده مناهل الهلكة ولا يصدره ، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه ، فحثهم على تعظيمه وزيارته ، وجعله قبلة للمصلين له ، فهو شعبة لرضوانه ، وطريق يؤدي إلى غفرانه ، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال ، خلقه الله قبل دحو الأرض بالفي عام ، فاحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما زجر ، هو الله المنشئ للأرواح والصور " .

فقال له ابن أبي العوجاء : فاحلت على غائب .

فقال الصادق (ع) : " كيف يكون يا ويلك غائباً من هو مع خلقه شاهد ، واليهم اقرب من حبل الوريد ، يسمع كلامهم ويعلم أسرارهم ، لا يخلو منه مكان ، ولا يشغل به مكان ، ولا يكون إلى مكان أقرب من مكان ، تشهد له بذلك آثاره ، وتدل عليه أفعاله ، والذي بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمد رسول الله (ص) الذي جاءنا بهذه العبادة ، فإن شككت في شيء في أمره فاسال عنه " .

فابلس ابن أبي العوجاء ولم يدر ما يقول ثم انصرف من بين يديه ، وقال لأصحابه : سالتكم أن تلتمسوا لي خمرة [٥] فالقيتموني على جمرة .

فقالوا له : اسكت فو الله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه . فقال : إليّ تقولون هذا ، إنه ابن من حلق رؤوس من ترون — وأوما بيده إلى أهل الموسم — .

ومرة أخرى جاء إليه يساله عن حدوث العالم ؟

فقال (ع) : " ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلاّ إذا ضم إليه صار أكبر ، وفي ذلك انتقال عن الحالة الأولى ،

---

(٤) إن هذه الكلمة اعتادت العرب استعمالها عندما يريدون أن يقولوا شيئا مكتوباً يسترونه عن الناس .

(٥) أي فراش يستريح عليه .

ولو كان قديماً ما زال ولا حال ، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل ، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث ، وفي كونه في الأزل دخول في القدم ، ولن يجتمع صفة الحدوث والقدم في شيء واحد " .

فقال ابن أبي العوجاء ، هب علمك في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت استدللت على حدوثها ، فلو بقيت الأشياء على صغرها من اين كان لك ان تستدل على حدوثها ؟

فقال (ع) : " إنا نتكلم عن هذا العالم الموضوع ، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدلّ على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره ، ولكن اجيبك من حيث قدرت ان تلزمنا فتقول ، إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء منه شيء إلى منه كان اكبر ، وفي جواز التغيّر عليه خروجه من القدم ، إن في تغيّره دخوله في الحدث ، وليس لك وراءه بشيء يا عبد الكريم "[6] .

ومرة جاء وقد جمع كيده وحشد أدلته وحدّ اظفاره ، فما أن تباحث مع الإمام حتى افحم إفحاما ، فقام ولم يرجع حتى هلك[7] ، وطوي بموته على هذه الشاكلة صفحة إلحاد كان لها انصار واعوان ، ومضى زعيم إلحاد كان له صولة وجولة وحزب كبير .

٢ – يروى عن هشام بن الحكم أنه قال ، كان زنديق بمصر يبلغه عن ابي عبد الله علم ، فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها ، وقيل هو بمكة فخرج إلى مكة – ونحن مع ابي عبد الله (ع) آنذاك – فانتهى إليه وهو في الطواف ، فدنا منه وسلم .

فقال له أبو عبد الله (ع) ، ما اسمك ؟

قال ، عبد الملك .

قال ، فما كنيتك ؟

قال ، ابو عبد الله .

قال ، فمن ذا الملك الذي أنت عبده ، امن ملوك الأرض ام من ملوك السماء . وأخبرني عن ابنك اعبد إله السماء ام عبد إله الأرض ؟ فسكت . فقال ، ابو عبد الله قل . فسكت .

فقال له (ع) ، إذا فرغت من الطواف فاتنا . فلما فرغ ابو عبد الله ( عليه السلا) من الطواف اتاه الزنديق ، فقعد بين يديه – ونحن مجتمعون عنده – فقال ابو عبد الله (ع) ، اتعلم ان للأرض تحتاً وفوقاً ؟

فقال ، نعم .

---

(٦) الاحتجاج : ( ص ٧٦ ) .

(٧) ذكر العلامة المظفر في كتابه ( الإمام الصادق ) أن سليمان عامل الكوفة من قبل المنصور قتل ابن أبي العوجاء لالحاده وزندقته .

قال : دخلت تحتها ؟

فقال : لا .

قال : فهل تدري ما تحتها ؟

قال : لا ادري إلاّ اني اظن ان ليس تحتها شيء .

فقال : فالظن عجز ما لم تستيقن .

ثم قال له : صعدت إلى السماء ؟

قال : لا .

قال : أفتدري ما فيها ؟

قال : لا .

قال : فاتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفهما ؟

قال : لا .

قال : فالعجب لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ولم تنزل تحت الأرض ولم تصعد إلى السماء ولم تجد ما هناك فتعرف ما خلفهن وانت جاحد ما فيهن ، وهل يجحد العاقل مالا يعرف .

فقال الزنديق : ما كلمني بهذا غيرك .

فقال ابو عبد الله (ع) : فانت من ذلك في شك ، فلعل هو ولعل ليس هو .

قال : ولعل ذلك .

فقال ابو عبد الله (ع) : " ايها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، ولا حجة للجاهل على العالم ، يا اخا اهل مصر تفهم عني ، اما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يستبقان يذهبان ويرجعان ، — قد اضطرًا ، ليس لهما مكان إلاّ مكانهما ، فإن كانا يقدران على ان يذهبا فلم يرجعان ، وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً . والله يا اخا اهل مصر ان الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر ، فإن كان هو يذهبهم فلم يردهم ، وإن كان يردهم فلم يذهب بهم ، اما ترى السماء مرفوعة والأرض موضوعة لا تسقطها على الأرض ولا تنحدر الأرض فوق ما تحتها ، امسكها والله خالقها ومديرها " .

قال : فآمن الزنديق على يدي ابي عبد الله (ع) ، فقال لهشام : خذه الليلة وعلمه .

٣ — وجاء إليه زنديق آخر وساله عن امور نظرية ، فكان بينهما الحوار التالي :

قال كيف يعبد الله الخلق ولم يروه ؟

قال ابو عبد الله (ع) : " راته القلوب بنور الايمان ، واثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان ، وابصرته الأبصار بما راته من حسن التركيب وإحكام التاليف ، ثم الرسل واياتها والكتب ومحكماتها ، واقتصرت العلماء على اماراته من عظمته دون رؤيته " .

قال : أليس هو قادر على أن يظهر لهم حتى يروه فيعرفونه فيعبد على يقين ؟

قال (ع) : " ليس لمحال جواب "[8] .

قال : فمن أين أثبت أنبياءً ورسلاً ؟

قال (ع) : " إنما لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق ، وكان ذلك الصانع حكيماً لم يجز أن يشاهده خلقه ، ولا أن يلامسوه ، ولا أن يباشرهم ويباشروه ، ويحاجهم ويحاجوه ، ثبت أن له سفراء عباداً يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم ، وما به بقاؤهم ، وفي تركه فناؤهم ، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه ، وثبت عند ذلك أن لهم معبّرين – هم الأنبياء وصفوته من خلقه – حكماء مؤدبين بالحكمة ، مبعوثين عنه ، مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم له في الخلق والتدبير ، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص " .

قال : من أي شيء خلق الأشياء ؟

قال (ع) : من لا شيء !

فقال : كيف يجيء بشيء من لا شيء ؟

قال (ع) : " إن الأشياء لا تخلو ، إما أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء ، فإن كانت خلقت من شيء فإنّ ذلك الشيء قديم ، والقديم لا يكون حديثا ولا يتغير ، ولا يخلو ذلك الشيء جوهراً واحداً ولوناً واحداً ، فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى ، ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشئت منه الأشياء حيّاً ، أو من أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً ، ولا يجوز أن يكون من حي وميت ، لأن الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حيّاً ، ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً ، لم يزل لما هو به من الموت لأن الميت لا قدرة به ولا بقاء " .

ثم قال : من أين قالوا أن الأشياء أزلية ؟

قال (ع) : " هذه مقالة قوم جحدوا مدبر الأشياء ، فكذبوا الرسل ومقالتهم والأنبياء وما أنبأوا عنه ، وسموا كتبهم أساطير ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم ، وإن الأشياء تدل على حدوثها من دوران الفلك بما فيه .. إلى آخر حديثه الطويل " .

وعندما ننهي الحديث عن هذه المحادثات الغزيرة بالنظريات الفلسفية من جانب ، والنظريات الدينية من جانب آخر ، ثم بالتوفيق بينهما ورد الأفكار الباطلة – عند ذلك – يجب أن نعرف أن الفلسفة الإسلامية لم تستطع أن تقوم لها قائمة إلاّ بعد قرن كامل من انقضاء مدرسة الإمام الصادق (ع) ، فهناك

---

(٨) إشارة إلى أن رؤية الله محالة ، حيث ان الله ليس بحجم حتى يدركه البصر ، ولا بمحاط حتى يحيط به الفكر ، ولا محدود حتى يحدده الوصف ، وإنما هو فوق ذلك كله ، وقدرة الله وإن كانت شاملة إلاّ أن الشيء حيث لا يقبل إلاّ مكان فكيف يوحد .

استطاع المسلمون أن ينشئوا مدرسة ذات اصالة وملامح خاصة من بين مدارس العالم الفلسفية ، ومع ذلك فإنا نرى أن هذه النظريات التي استفاضت بها احاديث الإمام الصادق تتمتع باصالة وذاتية كاملة ، في حين أن غيرها بدى مثل غثاء البحر الذي يجتمع إليه من كل جانب شيء دون أن يكون فيها أي تجاوب أو تناسب — هذا في صورتها — اما في واقعها فإنها فشلت في التوفيق بين المبادئ الدينية والدراسات الفلسفية فشلاً ذريعاً ، حتى التجأت إلى التاويل في النصوص الإسلامية الصريحة ، أو الطرح لها راساً ، لدرجة لم تعد هي فلسفة الإسلام أبداً .

بينما نرى نظريات الإمام الصادق (ع) في دراساته لا زالت من صميم الفكرة الإسلامية وآيات الذكر وآثار النبي ، ومن قوانين الإسلام ونظمه حتى لكانه جزء لا يتجزأ من كيان موحد اصيل ، في نفس الوقت الذي نرى توفيقه الشامل لفطرة الإنسان ووحي ضميره سواء في المعنى أو في الدليل .

## الفصل الثالث

# مواقـف مشرقـة

### عـرض موجز للأحـداث :

بنو امية عشيرة تنتسب إلى قريش عن طريق أمية بن حرب ، وكانت تناوئ بني هاشم في الجاهلية ، حتى جاء الرسول محمد (ص) وجاءت معه الدعوة الإسلامية فعارضتها هذه العشيرة اشد معارضة حتى فشلت امام قوتها واستسلمت إلى حين .

ومات النبي (ص) وجرت احداث التاريخ هائجة طائشة ، ولم يكن عند بني امية أمل العودة إلى المسرح السياسي حتى حلت الخلافة في بيت عثمان ، فوجدت بصيصاً من الأمل فراحت تتبعه .

وشاء القدر ان يقتل عثمان ، كما شاء التاريخ ان يقوم بنو عمه بطلب ثاره . من هنا بدأ تاريخ بني أمية ظاهراً في الحكومة الإسلامية .

حارب معاوية علياً (ع) الخليفة الشرعي للامة بحجة طلب الثار لعثمان ، فلما وجد انصاراً كثيرين نصب نفسه على الناس ، ثم تطور وقال : إني وبنيَّ الملوك ، والناس عبيد صاغرون لنا .

وانحدرت سلسلة بني امية تحكم الناس على انها المالكة لأمرهم وهم المطيعون ، وإلاّ فالسيف وكل انواع الفتك والتعذيب مآلهم .

وانفجرت من الناس ثورات تعارض الوضع بكل صراحة ومع انها فشلت آخر الأمر ، لكنها ابقت ضمائرها لتحيا ذات مرة وتقود المسير .

وكانت الثورات قد اتخذت طابعاً واحداً – تقريباً – هو الأخذ بثار الإمام الحسين (ع) ابن بنت رسول الأمة الذي جاهد الباطل للحق فقتل افظع ما تكون قتلة في التاريخ .

اما بنو العباس فهي فرقة تنتمي إلى عم الرسول ، كانت لها سوابق لا باس بها في تاريخ المعارضة السياسية لدولة بني امية ، اكسبتها مزيداً من الكرامة والاعتبار بين الشعب الساخط على سياسة الامويين .

وجاءت سنة الثورة وارسلت الثورات مبعوثها إلى خراسان – آخر نقطة تقريباً من البلاد الإسلامية – حيث يتواجد انصار الدعوة ، لتعلن الثورة في الوقت المعلوم .

وكان ابو مسلم الخراساني فردا مؤمنا بضرورة قلب الأوضاع مهما يكن من امر ، ولم يكن يؤمن بغير ذلك ابداً . وهذا الإيمان في الواقع اصمّه واعماه ، وعدم إيمانه بغيرها هو الذي سبب نجاح بني العباس في

ثورتهم دون غيرهم ممن خرجوا على الدولة ، حيث أن الثائرين على الأغلب كانوا يتورعون من ارتكاب المحرمات ولو ضمنت نجاحهم الدائم ، في نفس الوقت الذي لم يكن انصار بني أمية محجمون عن أي عمل يدعم سلطانهم او يفني عدوهم ، فإذا حاربهم من كان مثلهم في هذه التبعية تساوى احتمال نجاح الطرفين .

لم يكن ابو مسلم فريداً بين المنتمين إلى الدعوة العباسية الجديدة ، بل إن الأكثرية الغالبة من قادتها كانوا من هذا الطراز ، فلم يروا عائقا يمنعهم عن السيادة والاستئثار بالحكم إلاّ اعتبروا العمل لإزالته ، عملاً حسناً باي صورة كانت .

لقد استلم ابو مسلم من مركز القيادة — الكوفة — واصدر اوامر كانت هذه بعض فقراتها :

" إنك رجل منا — اهل البيت — إحفظ وصيتي ، انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن من اظهرهم ، واتّهم ربيعة في أمرهم ، واما مضر فإنهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت الا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وايما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ سليمان بن كيد ولا تعصه ، وإذا اشكل عليك الأمر فاكتف به مني والسلام " .

وهو بالذات لا يحتاج إلى مثل هذه الأوامر لانه — كما سبق — كان رجلاً سفاكاً إلى ابعد الحدود ، فكم غدر بالقادة المعارضين له بعدما استضافهم في بيته ، وكم اعطى الأمان لرجال صالحين ثم نكّل بهم وقتّلهم تقتيلاً ، وكم قتل الأبرياء بغير جريمة ، وكم هتك الحرمات بغير مبرر ، وكم وكم ..

اما القادة في الكوفة فلم يكونوا باقل إجراماً منه ، فقد بايعوا رجلاً من بني هاشم هو محمد بن عبد الله [٩] ، وحينما وجدوا فرصة سرقوا الثورة واستاثروا بخيراتها وانزلوا العذاب بمن ناصرهم في الأمس بل بالمؤسس للفكرة وبالذي بايعوه عن قريب فقد اخذوه وقتلوه غدراً .

وهذا ابو مسلم الذي كان المؤسس للدولة قد غدر به المنصور فقتله شر قتله ، وغدر بعيسى بن موسى وعزله عن ولاية العهد بعدما جعلها له إكراماً لما قدمه إليه من خدمات جليلة .

كما غدر بنو العباس بكل من ابي سلمة الخلال ، ويعقوب بن داود ، وفضل بن سهل ، وجعفر البرمكي ، ويحيى الحسني ، وغيرهم ... ممن اسدوا إليهم خدمات كانت جديرة بان تشكر وتجزى خير جزاء .

## موقف الإمام :

يعتقد البعض أن عصر الإمام الصادق (ع) كان يمكن أن يكون من انسب العصور واخصبها لو كان الإمام يشتغل للثورة الحقة التي ترجع الخلافة إلى المؤهل لها من عند الله عزّ وجلّ ومن لدن رسوله

---

(٩) لقد بايع الهاشميون على الأغلب وفيهم السفاح والمنصور هذا الرجل الذي رشحته كفاءاته الكثيرة للقيادة فنصب نفسه لها وأعانه عليه أقرباؤه جميعاً . كل ذلك في محل بين المدينة ومكة يسمى بـ (الأبواء) .

(ص) ، لكونه عصر تطور – بالغ الخطورة – في التاريخ الإسلامي ، حيث أزاح الستار عما كان الزمن قد ستره من الحقائق الدينية ، ولكن الواقع ينبئ بغير هذا الزعم وهو أن الإمام الصادق (ع) لم يكن يستطيع النهوض بإظهار الدعوة على المسرح السياسي في يوم من الأيام ، فاما في عصر الأمويين فلما سبق من انهم لم يكونوا يتورعون من اي جريمة يرتكبونها في سبيل إخماد ثورة ضدهم ، مع أن الإمام (ع) لم يلجأ إلى الباطل في طريق الحق ولم يستعن بالظلم لتطبيق العدل ، وأما بنو العباس فلم يكونوا باحسن أعمالاً من إخوانهم بني أمية ولا بأورع عن الفتك والمكر في سبيل توطيد ملكهم ، ولذلك استطاعوا أن ينسفوا عرش بني أمية نسفاً – وهكذا ضرب الباطل بالباطل وكان بينهما تبديلاً – .

كما استغل العباسيون كل نشاط لدعوة بني هاشم ، واستفادوا من الاستياء العام الذي صنعه الطالبيون – ولا زال الناس يلقون بآمالهم الكبيرة عليهم – لذلك لم يمكن النهوض بعبا الثورة الشيعية لاسيما تلك التي يتورع فيها عن اي سفك للدماء البريئة واي هتك للحرمات المقدسة .

ويدلنا على عدم وجود مؤهلات النهوض في عصر العباسيين أن طائفة من بني عمومة الإمام ثاروا – سواء في عصر الإمام (ع) أو بعده – فلم يفلحوا وكان مصيرهم نفس المصير الذي لقيه اباؤهم في عصر الأمويين أبداً .

ومع ذلك كله فإن الإمام (ع) كان يدعم أسس الثورة الفكرية الجامحة التي تؤدي إلى الثورة السياسية أيضاً ، وذلك بنشر الحقائق الدينية والتاريخية بصراحة وبدون غموض ، مما أدى إلى تهيئة جوّ صالح لغرس نواة الانقلاب الفكري السياسي ، حتى انه قرر أن يكون الإمام موسى بن جعفر الكاظم – نجل الصادق (ع) – قائم آل محمد (ص) الذي كان تعبيراً عن رجوع الدولة المغتصبة والحق المضيع إليهم، حيث أن الشيعة لمسوا فيه رعايات واسعة لها تاثيرها في تحويل الوضع السياسي ، ولكن أتباع الدعوة الشيعية خانوها بإفشاء سر النهج والطريق المرسوم ، وكانت النتيجة أن القي القبض على الإمام الكاظم (ع) وسجن سنوات طويلة وانزل على الشيعة الويل والعذاب بشتى الصور .

ولكن روح الثورة التي خلقها الإمام الصادق (ع) ظلت متوثبة – حتى – بعد موت هارون الرشيد في زمان الإمام الرضا (ع) حفيد الإمام ، وانتهت بإعلان ولاية العهد الذي كان سبيلاً مباشراً لرجوع الخلافة إلى أبناء علي (ع) ولكن شاء القدر باستشهاد الإمام الرضا (ع) قبل موت المامون .

وعلى اي حال فإن الإمام الصادق (ع) خلق جواً صالحاً للثورة في هذه السنوات التي تولى فيها إمامة المسلمين بعد ابيه (ع) .

ومن الطبيعي أن لا تتركه السلطات هادئاً يمشي في طريقه المرسوم وإن كان لا يعارضهم معارضة مباشرة ، لأن مقاطعته للعباسيين كانت لهم نذير سوء ، ومثيرة لسخطهم البالغ عليه وعنفهم الشديد له .

فقد دعاه المنصور ليسير في ركابه كما سار غيره من أئمة الجور . حيث أرسل إليه يقول ، الا تغشانا كما يغشانا الناس ؟

فأجابه الإمام (ع) : " ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك ما نرجوك له ، ولا أنت في نعمة فنهنيك ولا نراك في نقمة فنعزيك بها . فما نصنع عندك " ؟

فكتب إليه المنصور : تصحبنا لتنصحنا .

فأجابه (ع) : " من أراد الدنيا لا ينصحك ، ومن أراد الآخرة لا يصحبك "

فقال المنصور والله لقد ميز عندي منازل الناس من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة .

والآن حيث انتهيت من وضع الخطوط العريضة لسياسة الإمام الصادق (ع) مع السلطات المعاصرة ينبغي لي أن أشير إلى بعض الأحداث التي جرت على الإمام (ع) أو على بعض مواليه من المحن التي لاقوها من السلطة لا لشيء إلاّ لأنهم أرادوا الحق ودعوا إليه ، تاركاً البحث حولها إلى مجال آخر .

أشخص السفاح الإمام الصادق (ع) من المدينة إلى الحيرة ليفتك به ، ولكن كفاه الله من ذلك .

وجاء دور المنصور فتعاهد الإمام بالأذى اثنتي عشرة سنة ، وأشخصه سبع مرات في المدينة والربذة والكوفة وبغداد ، وفي كل مرة يستدعيه المنصور ، فإذا جاء إليه أنذر وأعذر وذهب بالذل ، ورجع الإمام بالخير والمعروف .

وإني إذ أنقل إليك أخي القارئ تفصيل هذا الاستحضار في أوائل خلافة المنصور وأواخرها ابتغاءً لبيان حدة الخلاف ونوعيته بين المنصور وبينه (ع) .

١ – روى السيد ابن طاوس نقلاً عن الربيع حاجب المنصور أنه قال : لما حج المنصور – ربما يكون في سنة ١٤٠ أو ١٤٤ هجرية – وصار بالمدينة سهر ليلة فدعاني فقال : يا ربيع انطلق في وقتك هذا على أخفض جناح وألين مسير ، وإن استطعت أن تكون وحدك فافعل حتى تأتي أبا عبد الله جعفر بن محمد (ع) فقل له هذا ابن عمك يقرأ عليك السلام ويقول لك :

" إن الدار وإن نأت ، والحال وإن اختلفت ، فإنا نرجع إلى رحم أمس من يمين بشمال ونعل بقبال ، وهو يسألك المصير إليه في وقتك هذا ، فإن سمح بالمصير معك فأوطئه خدّك ، وإن امتنع بعذر أو غيره فاردد الأمر إليه في ذلك ، وإن أمرك بالمصير إليه في تأن فيسر ولا تعسر ، واقبل العفو ولا تعنف في قول ولا فعل " .

قال الربيع : فصرت إلى بابه فوجدته في دار خلوته ، فدخلت عليه من غير استئذان فوجدته معفراً خديه مبتهلاً بظهر كفيه قد أثر التراب في وجهه وخديه .

فأكبرت أن أقول شيئاً حتى فرغ من صلاته ودعائه ثم انصرف بوجهه . فقلت : السلام عليك يا أبا عبد الله .

فقال : وعليك السلام يا أخي ، ما جاء بك ؟

فقلت : ابن عمك يقرأ عليك السلام .. حتى بلغت آخر الكلام .

فقال : ويحك يا ربيع : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا

كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد/١٦ )

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللـه فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللـه إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الاعراف/٩٧-٩٩)

قرأت على امير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم اقبل على الصلاة وانصرف إلى توجهه ، فقلت هل بعد السلام من مستعتب او إجابة ؟

فقال ، نعم قل له ،

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ (النجم/٣٣-٤٠)

وإنا والله يا امير المؤمنين قد خفناك وخافت بخوفنا النسوة اللاّتي انت اعلم بهن ، لابدّ لنا من الايضاح به ، فإن كففت وإلاّ اجرينا اسمك على الله عز وجل في كل يوم خمس مرات ( اي دعونا عليك مع كل صلاة دعاء لا يرد لانه مع إخلاص ) .

وانت حدثتنا عن ابيك عن جدك ان رسول الله (ص) قال اربع دعوات لا يحجبن عن الله تعالى ، دعاء الوالد لولده والأخ لأخيه بظهر الغيب والمخلص .

قال الربيع ، فما استتم الكلام حتى اتت رسل المنصور تقفوا اثري وتعلم خبري ، فرجعت فاخبرته بما كان فبكى ، ثم قال ، إرجع إليه وقل له الأمر في لقائك إليك والجلوس عنا ، واما النسوة اللاّتي ذكرتهن فعليهن السلام فقد امّن الله روعتهن وجلا همهن .

قال ، فرجعت إليه فاخبرته بما قال المنصور ، فقال ، قل له وصلت رحماً وجزيت خيراً ثم اغرورقت عيناه حتى قطر من الدموع في حجره قطرات .

٢ – وعن محمد بن عبد الله الاسكندري كان من ندماء المنصور وخواصه ، انه قال ، دخلت على المنصور يوماً فرايته مغتماً وهو يتنفس نفساً بارداً فقلت ما هذه الفكرة يا امير المؤمنين !

فقال لي ، يا محمد لقد هلك من اولاد فاطمة مائة او يزيدون وقد بقي سيدهم وإمامهم .

فقلت له ، من ذلك ؟

قال ، جعفر بن محمد الصادق .

فقلت يا امير المؤمنين ، إنه رجل قد انحلته العبادة واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة .

فقال ، يا محمد لقد علمت انك تقول به وبإمامته ولكن الملك عقيم وقد آليت على نفسي الاّ امسي عشيتي هذه او افرغ منه .

قال محمد ، والله لقد ضاقت عليَّ الأرض برحبها ، ثم دعا سيافاً وقال له ، إذا انا احضرت ابا عبد الله الصادق وشغلته بالحديث ووضعت قلنسوتي عن راسي فهي العلامة بيني وبينك فاضرب عنقه .

ثم احضر ابا عبد الله (ع) في تلك الساعة ولحقته في الدار وهو يحرك شفتيه فلم أدر ما الذي قرأ ، فرأيت القصر يموج كانه سفينة في لجج البحار ورأيت ابا جعفر المنصور وهو يمشي بين يديه حافي القدمين مكشوف الراس قد اصطكت اسنانه وارتعدت فرائصه يحمر ساعة ويصفر أخرى ، واخذ بعضد ابي عبد الله واجلسه على سرير ملكه وجثا بين يديه كما يجثوا العبد بين يدي مولاه ، ثم قال : يا ابن رسول الله (ص) ما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟

قال : جئتك طاعة لله ولرسوله ولأمير المؤمنين أدام الله عزه .

قال : ما دعوتك والغلط من الرسول . ثم قال : سل حاجتك ؟

فقال : اسألك الا تدعوني لغير شغل .

قال : لك ذلك وغير ذلك . ثم انصرف ابو عبد الله (ع) سريعاً وحمد الله عزّ وجلّ كثيراً .

ودعا ابو جعفر المنصور بالدواويج — أي الألحفة والأغطية — ونام ولم ينتبه إلاّ في نصف الليل ، فلما انتبه كنت عند راسه فترة ذلك ، وقال : لا تخرج حتى اقضي ما فاتني من صلاتي فاحدثك بحديث ، فلما قضى صلاته اقبل على محمد وحدّثه بما شاهده من الأهوال التي افزعته عند مجيء الصادق (ع) ، وكان ذلك سبباً لانصرافه عن قتله وداعياً لاحترامه والإحسان إليه .

يقول محمد قلت له : ليس هذا بعجيب — يا أمير المؤمنين — فإن ابا عبد الله وارث علم النبي (ص) وجده أمير المؤمنين (ع) ، وعنده من الأسماء وسائر الدعوات التي لو قراها على الليل لأنار ولو قراها على النهار لأظلم ولو قراها على الأمواج في البحور لسكنت .

وهكذا استمر المنصور يدعو الإمام مرة بعد أخرى حتى دس إليه السم فقتله .

ولم تقتصر مواقف الإمام المشرفة في التي وقفها مع المنصور فقط ، بل ، إن له مواقف مشابهة مع ولاة المنصور من ذلك ما يلي :

١ — ذات مرة كان الصادق (ع) عند زياد بن عبد الله فقال الرجل : يابني فاطمة ما فضلكم على الناس ؟ ( فسكت كل من كان في المجلس من الفاطميين خوفاً على انفسهم من قتل الرجل ) .

فقال الإمام : " إن من فضلنا على الناس انا لا نحب ان نكون من احد سوانا ، وليس احد من الناس لا يحب أن يكون منا " .

٢ — وكان داود بن علي والياً على المدينة فامر مدير الشرطة بإعدام ( معلى بن خنيس ) وهو من زعماء الشيعة البارزين ومن اصحاب الإمام الصادق (ع) المفوهين ، فنفذ مدير الشرطة امر الرئيس .

فلما قتل ( معلى ) جاء الإمام وقد اشتد غضبه على الحكم إلى الوالي يقول له : قتلت مولاي واخذت مالي !! أما علمت أن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب .

فاعتذر الوالي بانه لم يكن القاتل المباشر .

فذهب إلى مدير الشرطة فاعترف بالجرم فامر بضرب عنقه فقتله جزاءً على قتله وفوراً .

## الفصل الرابع

# مكـارم الاخـلاق

### ثقافتـه الواسعـة :

لا نستطيع أن نحدد من ثقافة الإمام – أيّ إمام – إذا اعتقدنا بان ثقافته صورة واضحة عن اتصاله بالله تعالى ، حيث انه يحدو بنا إلى الإعتقاد بان الله يوحي إليه إلهاماً . وكذلك لا نستطيع أن نجد وصفاً شاملاً لثقافته إذا عرفنا بان المفاهيم العادية التي نعيشها في حياة الإنسان لا تضبط كل ثقافته وكل معرفته ، لأن للإمام وللنبي ولبعض الملهمين من الصالحين قوة يهبهم إياها الله القدير ، تلتقط المعلومات عن الكون والحياة كما تلتقط آلة التصوير أو أفلام السينما صور الموجات ، وكما تلتقط العين وأعصاب الأذن جمال الحياة وصوت الأحياء ، فيعرف شيئاً جميلاً وفرداً متكلماً .

وأعود فأقول : ليست ثقافة الإمام الصادق (ع) محدودة بما قال أو بما حفظ عنه من آثار في مختلف العلوم ، بل أكبر من هذا سعة وأكثر رحابة وأبعد أفقاً ، لأن ثقافته اتصلت بالموجودات رأساً كما تتصل السحابة بالبحر ، والضياء بالشمس والعطر بالورد وحيث كان يستوحي أفكاره واتجاهاته ومعارفه من الله خالق البحر والشمس ، ومفتح الورد . فالوحي من الله فالنبي فالإمام ، وكذلك الإلهام من الله فالإمام .

إن الحقيقة التي عبر عنها فم الإمام هي الحقيقة التي عرفها قلبه ، وحواها فكره ، وأدركتها روحه ، والتي نفخها بارئ الحقيقة في روح الإمام (ع) .

وبعد كل هذا فإن هناك جانباً واحداً يهمنا من ثقافة إمامنا الصادق (ع) وهو أنها كانت معجزته كما كان معجزة النبي (ص) قرآنه ، وإنه يعلم كل شيء يحتاج إليه الإنسان ، وهذا الجانب وحده هو الذي حدا بالجعفرية أن يتبعوا مدرسته الفكرية في كل عصر .

وهنا يجدر بنا أن ننقل اعترافات بعض الزعماء والمفكرين بمدى سعة آفاق الإمام العلمية ، ومدى رحابة مكانته الثقافية ، التي جعلت من أعدائه منابر المدح ومنصات الثناء .

قال فيه أبو حنيفة : " ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد " و " جعفر بن محمد أفقه من رأيت " .

وقال فيه الشهرستاني : " وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة " .

وقال فيه ابن حجر الهيثمي : " جعفر بن محمد الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الكبار " .

وقال فيه السيد أمير علي صاحب كتاب مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي :

" لا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تزّعم تلك الحركة هو حفيد علي بن أبي طالب المسمى بالإمام جعفر والملقب بـ ( الصادق ) ، وهو رجل رحب أفق التفكير ، بعيد أغوار العقل ، ملم كل الإلمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية في الإسلام . ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة المتفلسفون من الأنحاء القاصية .

وقال العلاّمة هولميادر الكاتب الإنكليزي :

" إن جابر هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه ، وقد وجد في إمامه الفذ سنداً ومعيناً وراشداً أميناً وموجهاً لا يستغني عنه ، وقد سعى جابر إلى أن يحرر الكيمياء بإرشاد أستاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الإسكندرية ، فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد ، من أجل ذلك يجب أن يقرن اسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم أمثال ( بويله) و ( فوازيه ) وغيرهما من الأعلام "[10] .

وهناك مئات بل ألوف من الإعترافات التي أبداها كل من الكتّاب المسلمين وغيرهم من المحدثين والقدماء ، وبصورة خاصة من معاصري الإمام (ع) حتى ملأ العالم فضله وعلمه الغزير وثقافته الوسيعة البالغة .

## جوده وكرمه :

١ – قال سعيد بن بيان : مرَّ بنا المفضل بن عمر – أنا وأخت لي – ونحن نتشاجر في ميراث فوقف علينا ساعة ثم قال لنا : تعالوا إلى المنزل ، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم دفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كل واحد منا صاحبه قال المفضل : أما إنها ليست من مالي ولكن أبا عبد الله الصادق أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح وأفتد بها من ماله – فهذا مال أبي عبد الله – .

٢ – وجاء إليه رجل وقال : لقد سمعت أنك تفعل في عين زياد – وكان ذلك اسم قرية له – شيئاً أحب أن أسمعه منك .

فقال (ع) : " نعم كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم ( أي يشق ويهدم ) في حيطانها الثلم ليدخل الناس ويأكلوا . وكنت آمر أن يوضع بنيات يقعد على كل بنية عشرة ، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى يلقي لكل منهم مدٌ من رطب ، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم الشيخ والعجوز والمريض والصبي والمرأة ومن لا يقدر أن يجيء فيكال لكل إنسان مداً فإذا أوفيت القوام والوكلاء آجرتهم وأحمل الباقي إلى المدينة ففرقت في أهل البيوت والمستحقين على قدر استحقاقهم ، وحصل لي بعد ذلك أربعمائة دينار وكان غلتها أربعة آلاف دينار "[11] .

---

(١٠) نجد هذه الإعترافات وعشرات أمثالها في كتاب الإمام الصادق للأستاذ الدخيل فصل ( الإمام في نظر العظماء والعلماء ) : ( ص ٨٦ – ١١١ )

(١١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة : ( ج ٢ ، ص ٥٣ ) .

يعني ذلك انه كان يصرف تسعة أعشار تلك الضيعة في الوجوه الخيرية بينما يجعل لنفسه عشراً واحداً منها فقط .

٣ – وينقل هشام بن سالم أحد أصحاب الإمام البارزين فيقول : كان ابو عبد الله إذا اعتم – أي اظلم – وذهب من الليل شطره أخذ خناً فيه لحم وخبز ودراهم فحمله على عنقه ثم ذهب إلى اهل الحاجة من اهل المدينة فقسمه فيهم ولا يعرفونه .

فلما مضى " وتوفي " أبو عبد الله فقدوا ذلك ، فعلموا انه كان ابا عبد الله [١٢] .

٤ – يحدّث الهياج البسطامي عن كرم الإمام فيقول : كان ابو عبد الله ينفق حتى لا يبقى شيء لعياله [١٣] .

٥ – وقال بوابه المصادف : كنت مع ابي عبد الله بين مكة والمدينة فمررنا على رجل في أصل شجرة وقد القى بنفسه فقال (ع) مل بنا إلى هذا الرجل ( اي إعدل الطريق إلى جانبه ) فإني أخاف أن يكون قد أصابه العطش ، فملنا إليه فإذا هو رجل من النصارى طويل الشعر ، فسأله الإمام : عطشان انت ؟ فقال : نعم فقال الإمام : إنزل يا مصادف فاسقه ، فنزلت وسقيته ثم ركب وسرنا ، فقلت له : هذا نصراني افتصرف على نصراني ؟

فقال : نعم إذا كانوا بمثل هذه الحالة [١٤] .

٦ – كان مريضاً ذلك النهار الذي دخل عليه الشاعر الملهم اشجع السلمي فجلس إليه يسال عن احواله فقال له الإمام (ع) تعدّ عن العلة واذكر ما جئت له .

فقال الشاعر :

البسك الله منه عافية ... في نومك المعتري وفي أرقك
يخرج من جسمك السقام كما ... اخرج ذل السؤال من عنقك

فقال الإمام : يا غلام اي شيء عندك ؟

قال : لربعمائة . قال : أعطها لأشجع .

٧ – وبعث إلى ابن عم له من بني هاشم صرّة بيد أبي جعفر الخشعمي – وكان من وراته الموثوقين – فامره بان يكتمه عنه . فلما جاء إلى الهاشمي وأعطاه ، قال : جزاه الله خيراً ، ما يزال كل حين يبعث بها فنعيش به إلى عام قابل ، ولكني لا يصلني جعفر بدرهم مع كثرة ماله .

وحينما حضرته الوفاة امر بسبعين ديناراً لابن عمه الحسن بن علي الأفطس ، فقيل له : اتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة ليقتلك ؟

---

(١٢) الإمام الصادق – محمد أبو زهرة : ( ص ٨١ ) .

(١٣) المصدر : ( ص ٨١ )

(١٤) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة · ( ج ٤ ص ٣٨ ) .

فقال عليه السلام ، ويحكم أما تقرأون ،

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ (الرعد /٢٠)

" إن الله خلق الجنة فطيّبها وطيّب ريحها ليوجد من مسيرة الف عام ، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم " [١٥] .

## حلمه ورأفته :

١ – كان (عليه السلام ) إذا بلغه من احد نيلاً منه او وقيعة فيه قام إلى مصلاّه فاكثر من ركوعه وسجوده وبالغ في ابتهاله وضراعته وهو يسال الله أن يغفر لمن ظلمه بالسب ونال منه .

وإن كان من اقربائه الادنين فكان يوصله بمال ويزيد في بره قائلاً ، إني لأحب ان يعلم الله اني اذللت رقبتي في رحمي ، واني لأبادر اهل بيتي أصلهم قبل أن يستغنوا عني .

لله سيدي ما أعظمك واحلمك .. وماأكبرك نفساً وارحبك صدراً واحسنك خلقاً .

٢ – وبعث غلامه إلى حاجة فابطا ، فذهب على اثره يتفقده فوجده نائماً على بعض الأرصفة ، فجاء حتى جلس بجانبه يروح له فلما انتبه قال له ، يا فلان ما ذلك لك تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار.

إذا اضفنا هذه القصة الصغيرة إلى الوضع الإجتماعي ذلك اليوم الذي كان الرقيق يعاملون معاملة البهائم فيشبعونهم ضرباً بمجرد أن تبدر منهم بادرة ، نعرف مدى نضوج الإنسانية الرفيعة في فؤاده الكبير .

٢ – بعث غلاماً له اعجمياً في حاجة فلما رجع بالجواب لم يستطع ان يفصح به العبد لانه لم يكن يجيد العربية تماماً ، فبدلاً من ان ينهره ويطرده – شان الناس ذلك اليوم – سكّن قلبه وهدا اضطرابه وقلقه حيث قال له ، لإن كنت عيّ اللسان فما انت بعيّ القلب ثم اضاف ،

" إن الحياء والعفاف والعيّ – عيّ اللسان لا عيّ القلب – من الإيمان " [١٦] .

٣ – ونهى اهل بيته عن الرقي إلى السطح عبر سلّم مشيراً لهم بافضلية الدرج المالوف للصعود ، فدخل ذات مرة الدار ورأى إحدى الجواري التي كانت تربي ولداً له تتسلق السلّم والطفل بيدها فلما بصرت الجارية بالإمام خافت وارتعدت فرائصها وسقط الصبي من يدها ومات .

فخرج (ع) إلى مجلسه متغيراً لونه ، فلما سئل عن ذلك قال ، ما تغير لوني لموت الصبي ، وإنما تغير لوني لما ادخلت على الجارية من الرعب ، في حين ان الإمام قال لها حينما شاهدها خائفة مذعورة ، انت حرة لوجه الله ، انت حرة لوجه الله [١٧] .

٤ – كانت الحجاج تتقاطر على مكة والمدينة وكان بعضهم يفضل المبيت في مسجد النبي (ص) بدلاً

---

(١٥) تجد هذه الأخبار كلها في كتاب الإمام الصادق للعلاّمة المظفر في ( ص ٣٥٢ ٢٥٥ ) .

(١٦) بحار الأنوار : ( ج ٤٧ ، ص٦١ ) .

(١٧) المناقب .

من أن يستاجروا مقابل بعض الدراهم ، فكان أحدهم نائماً بالمسجد والإمام يصلي بجانبه فلما انتبه لم ير هميانه الذي حفظ فيه نقوده ، فتعلق بالإمام – ولم يكن يعرفه – قائلاً له أنت سرقت همياني .

قال له الإمام : كم كان عندك من النقود ؟

قال : الف دينار . فحمله إلى منزله وأعطاه الف دينار فذهب الرجل ثم وجد هميانه وفيه الف دينار فعاد بالمال إلى الإمام متعذراً ، فابى قبوله قائلا : شيء خرج من يدي لا يعود إليّ .

فخرج الرجل يسال الناس عن الإمام فقيل هذا جعفر بن محمد فقال : لا جرم هذا فعال مثله [18] .

## صبره وأمانته :

كان للإمام ولداً يدعى ( إسماعيل ) وكان اكبر اولاده ، فلما شبَّ كان جمَّاع الفضائل والمكارم حتى حسب انه خليفة ابيه والإمام من بعده ، ولما اكتمل نبوغه صرعته المنية ، فلم يخرج لوفاته بل دعا أصحابه إلى داره لمراسم الدفن واتى إليهم بافخر الأطعمة وحثهم على الأكل الهنيء ، فسالوه عن حزنه على الفقيد الفتي الذي اختطفه الموت في ربيعه ولما يكمل من الحياة نصيبه ، قال لهم : ومالي لا أكون كما ترون في خير أصدق الصادقين – أي الرسول (ص) – : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾

٢ – وكان له ولد آخر كان في بعض طرقات المدينة يمشي امامه غضاً طرياً ، اعترضته غصة في حلقه فشرق بها ومات امامه ، فبكى (ع) ولم يجزع بل اكتفى بقوله مخاطباً لجثمان ولده الفقيد :

" لئن اخذت لقد ابقيت ، ولئن ابليت لقد عافيت " .

ثم حمله إلى النساء فصرخن فاقسم عليهن الا يصرخن .

ثم اخرجه إلى المدفن وهو يقول : " سبحان من يقتل أولادنا ولا نزداد له إلاّ حباً " .

وقال بعد الدفن : " إنا قوم نسال الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا ، فإذا احب ما نكره فيمن نحب رضينا " .

## نظرته الإنسانية :

إن نظرة الإمام الصادق (ع) الإنسانية تنبثق من نظرة الإسلام إليها في شتى صيغها ومفاهيمها ، وإني لا اريد أن اورد بعض المثل في ذلك من سيرة الإمام ، بينما أجعل البحث والتعليق لفرص أخرى إن شاء الله تعالى ، ذلك لكي نكشف عن مدى تفاني الإمام في حب الإنسانية وصراعاتها وتقدير حقوقها حتى ليجعل الصخر ينحني والنجم والشجر يسجدان إجلالاً وإكراماً لهذه النظرة العظيمة .

١ – اعطى بوابه ومولاه – مصادف – الف دينار وقال له تجهز حتى نخرج إلى مصر ( أي في رحلة تجارية ) فإن عيالي قد كثروا ، فتجهز وخرج مع التجار إلى مصر فلما دنوا منها استقبلتهم قافلة خارجة منها فسالوهم عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة ؟ فاخبرهم أن ليس بمصر منه شيء فتحالفوا

---

(١٨) الإمام الصادق (ع) للعلاّمة المظفر : ( ج ١ ، ص ٢٥٨ ) .

وتعاقدوا على أن لا ينقصوا من ارباح دينار ديناراً – يعني يجعلون الربح مضاعفاً – فلما قبضوا اموالهم انصرفوا إلى المدينة .

فدخل مصادف على أبي عبد الله (ع) ومعه كيسان في كل واحد الف دينار وقال : جعلت فداك هذا راس المال وُهذا الآخر ربح فقال (ع) : إن هذا الربح كثير ولكن ما صنعتم في المتاع ؟ فحدّثه مصادف بقصة تجارتهم .

فقال :

" سبحان الله تحلفون على قوم مسلمين الا تبيعوهم إلاّ بربح الدينار ديناراً ؟ ثم اخذ احد الكيسين فقال هذا راس مالي ولا حاجة لنا في الربح . ثم قال يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال " [19] .

٢ – كان للإمام صديق لا يكاد يفارقه ، فغضب يوماً على عبده وسبه قائلاً : اين كنت يا ابن الفاعلة !! فلما سمع أبو عبد الله دفع يده فصك بها جبهة نفسه . ثم قال : سبحان الله تقذف امه ، قد كنت أرى لك ورعاً .

فقال الرجل : جعلت فداك إن امه امة مشركة ، فقال (ع) : اما علمت ان لكل امة نكاحاً .

٣ – انقطع شسع نعله وهو يسير مع بعض اصحابه يشيعون جنازة ، فجاء رجل بشسعه ليناوله ، فقال: امسك عليك شسعك فإن صاحب المصيبة اولى بالصبر عليها .

٤ – قال بعض اصحابه : اصاب اهل المدينة غلاء وقحط حتى اقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير وياكله ، وكان عند أبي عبد الله طعام جيد – فيه كفاية – قد اشتراه اول السنة فقال لبعض مواليه : إشتر لنا شعيراً واخلط بهذا الطعام ، أو بعه فإنا نكره ان ناكل جيدا وياكل الناس رديئاً .

وقال الآخر دخلنا على أبي عبد الله في حائط – اي بستان – له وبيده مسحاة يفتح بها الباب وعليه قميص ، وكان يقول إني لأعمل في بعض ضياعي وإن لي من يكفيني ليعلم الله اني اطلب الرزق الحلال .

## عبادتـه وطاعتـه :

كل من وصف جعفر بن محمد الصادق (ع) بالعمل شفعه بالزهد والطاعة وإليك بعض كلماتهم في ذلك :

قال مالك – إمام المذهب – : " كان جعفر لا يخلو من إحدى ثلاث خصال ، إما مصلٍ وإما صائم وإما يقرأ القرآن " [20] .

وقال : " ما رأت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب بشر افضل من جعفر بن محمد الصادق (ع) علماً وعبادةً وورعاً " [21] .

وقال الوزير أبو الفتح الأربلي : " وقف نفسه الشريفة على العبادة وحثّها على الطاعة والزهادة والاشتغال

---

(١٩) المصدر : ( ص ٢٦٧ ) .

(٢٠) تهذيب التهذيب : ( ج ٢ ، ص ١٠٥ ) .

(٢١) المصدر : ( ص ١٠٥ ) .

باوراده وتهجده وصلاته وتعبده " .

ويروي بعض معاصريه : رايت ابا عبد الله (ع) ساجداً في مسجد النبي (ص) فجلست حتى أطلت ، ثم قلت : لأسبحنّ ما دام ساجداً فقلت : سبحان ربي وبحمده استغفر ربي وأتوب إليه ثلاثمائة ونيفاً وستين مرة فرفع راسه [22] .

" إنه كان يلبس الجبة الغليظة القصيرة من الصوف على جسده ، والحلة من الخز على ثيابه ويقول : نلبس الجبة لنا والخز لكم [23] ، ويرى عليه قميص غليظ خشن تحت ثيابه وفوقه جبّة صوف وفوقها قميص غليظ " .

" ويطعم ضيوفه اللحم ينتقيه بيده وهو ياكل الخل والزيت ويقول : " إن هذا طعامنا طعام الأنبياء " [24] .

## من بلاغتـه :

لقد زخرت الكتب الدينية باحاديث بليغة عن الإمام الصادق (ع) ولك ايها القارئ بعض روائعه تاركين من يريد اكثر من ذلك يراجع كتاب " أشعة من بلاغة الإمام الصادق (ع) " للعلاّمة الفقيه الشيخ عبد الرسول الواعظي .

" أوصى إلى المنصور الخليفة المعاصر له فقال : عليك بالحلم فإنه ركن العلم ، واملك نفسك عند اسباب القدرة ، فإن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفي غيظاً أو تداوى حقداً أو يجد ذكراً بالصولة ، واعلم بانك إن عاقبت مستحقاً لم تكن غاية ما توصف به إلاّ العدل ، والحال التي توجب الشكر افضل من الحال التي توجب الصبر " .

فقال المنصور : " وعظت فاحسنت وقلت فاوجزت " .

ومن وصية له إلى ولده الإمام الكاظم (ع) :

" يا بني إفعل الخير إلى كل من طلبه منك . فإن كان من أهله فقد اصبت موضعه ، وإن لم يكن له باهل كنت أهله ، وإن شتمك رجل عن يمينك ثم تحول إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره " .

قال سفيان الثوري لقيت الصادق ابن الصادق جعفر بن محمد (ع) فقلت : يابن رسول الله أوصني .

فقال : يا سفيان لا مروءة لكذوب ، ولا اخ لملوك ، ولا راحة لحسود ، ولا سؤدد لسيّئ الخلق .

فقال : يابن رسول الله زدني .

فقال لي : يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً ، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً ، واحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، ولا تصحب الفاجر معك يعلمك من فجور ، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل [25] .

---

(٢٢) أعيان الشيعة : ( ح ٤ ، ص ١٣٨ ) .

(٢٣) الإمام الصادق للعلامة المطفر : ( ح ١ ، ص ٢٧٠ ) .

(٢٤) المصدر . ( ص ٢٧٠ ) .

(٢٥) الإمام الصادق ( ع ) للأستاد الدحيل ( ص ٣٢ )

# الامـام الكـاظـم (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، محمد وآله الهداة .

في الوقت الذي يشهد العالم بعثاً إسلامياً اصيلاً ، ليكون املاً في افئدة المحرومين ، وخطراً على كيان الظالمين ، يعكف مستكبروا العالم ، والظالمون على دراسة الخطط الكفيلة بصدّ هذا الموج ، او لا اقل من احتوائه ، ويهمس شياطينهم في آذانهم ان لا يفسد امر آخر هذه الأمة إلاّ بما افسد اوّله ، اي بث النواة الطائفية ، وإقامة انظمة التسلط والقهر باسم الدين ، وبعث الروح في العصبيات الجاهلية .

فإذا بالاقلام المرتزقة تضرب على وتر الطائفية ، وتهاجم مذهب آل البيت ، ولا تفتا تكرر من نغمة الإرهاب الشيعي ، عسى أن تثير احقاداً أموية دفينة في نفوس بعض المسلمين .

وهكذا كان على الأقلام الشريفة والضمائر النظيفة أن تنهض بواجب المحافظة على مكاسب الأمة ، وتحمي روافد البعث الإسلامي الجديد ، من رجس الشياطين ونفثهم ووسوستهم وإعلامهم المضلل .

الا فلننبذ العصبيات الجاهلية ، ولندافع عن رسالات الله ، وعن رسله العظام ( عليهم السلام ) وعن رسول الله محمد بن عبد الله (ص) ، وعن اهل بيته المظلومين (ع) ، وعن الخط الرسالي الأصيل في الأمة .

إن الشيطان قد عبّا قواه وجاءكم بخيله ورجاله واعدّ لإغوائكم وصدّكم عن السبيل كل مكائده ومصائده ، فلنتسلّح بمزيد من الوعي ولنكن على اشد الحذر ، ولنتخذ اقلامنا دروعاً للدفاع عن مقدسات الأمة ، وعن اهل بيت الرسول وعن سبيلهم القويم في مقاومة انظمة النفاق التي تعود اليوم إلى الظهور .

وإنّي ارى بوضوح ، ان الإهتمام بتراث آل البيت (ع) المتمثل في نهجهم وسيرتهم وشرحهم لمعارف القرآن ، وتفسيرهم لسُنة جدهم الرسول (ص) يضمن استمرار الثورة الإسلامية واستقامتها وانتصارها بإذن الله ، وإن التهاون بهذا الشان غلطة كبيرة وخطا مميت .

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال لعالم ١٤٠٥ هـ والذي يصادف ذكرى وفاة الإمام الصادق (ع) ، ابتدا في تاليف حلقة جديدة من سلسلة ( قدوة واسوة ) تقص حياة نجل الإمام الصادق الإمام موسى بن جعفر (ع) تلك الحياة الحافلة بالعبر والدروس الثورية .

واني أعتبر ذلك مساهمة بسيطة في صدّ مؤامرات المستكبرين ضد خط آل البيت ، ومكرهم في احتواء البعث الإسلامي الأصيل .

أسال الله أن يوفقني لإكمال هذه الحلقة وسائر الحلقات ، وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم .

## الفصل الاول

# الاصل الكريم والمولد المبارك

يبدو أن قرية ( الأبواء ) الواقعة بين المدينة ومكة ، كانت تستقطب قوافل الحجاج من آل البيت اكثر من غيرها ، لأنها كانت مثوى أم الرسول آمنة بنت وهب .

وفي طريقهم إلى المدينة قافلين من حج بيت الله الحرام[1] حطت قافلة الإمام ابي عبد الله الصادق (ع) في هذه القرية ، وذلك في اليوم السابع عشر من شهر صفر الخير ، عام ١٢٨ هـ — على اشهر الروايات —، حيث قدم الإمام المائدة لضيوفه ، وجاءه الرسول من عند نسائه تبشره بالوليد المبارك .

تقول الرواية التاريخية — المأثورة عن منهال القصّاب قال : ( خرجت من مكة وانا اريد المدينة ) فمررت بالأبواء وقد ولد لأبي عبد الله (ع) فسبقته إلى المدينة ، ودخل بعدي بيوم فاطعم الناس ثلاثاً ، فكنت آكل فيمن ياكل ، فما آكل شيئاً إلى الغد حتى أعود فآكل ، فمكثت بذلك ثلاثاً أطعم حتى ارتفق ثم لا اطعم شيئاً إلى الغد ) .

وجاء في حديث مروي عن ابي بصير قال : ( كنت مع ابي عبد الله (ع) في السنة التي ولد فيها إبنه موسى (ع) ، نزلنا الأبواء وضع لنا ابو عبد الله (ع) الغذاء ولأصحابه واكثره واطابه ، فبينما نحن نتغدى إذ أتاه رسول حميدة ان الطلق قد ضربني ، وقد أمرتني أن لا اسبقك بابنك هذا .

فقام ابو عبد الله فرحاً مسروراً ، فلم يلبث أن عاد إلينا حاسراً عن ذراعيه ضاحكاً سنّه ، فقلنا : اضحك الله سنّك ، واقر عينك ، ما صنعت حميدة ؟

فقال : وهب الله لي غلاماً وهو خير من برا الله ، ولقد خبرتني عنه بامر كنت أعلم به منها ، قلت : جعلت فداك وما خبّرتك عنه حميدة ؟ قال : ذكرت انه لما وقع من بطنها وقع واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء ، فاخبرتها أن تلك امارة رسول الله (ص) وامارة الإمام من بعده .

فقلت : جعلت فداك وما تلك من علامة الإمام ؟ فقال : إنه لما كان في الليلة التي علق بجدي فيها ، أتى آتٍ جدّ ابي وهو راقد ، فاتاه بكاس فيها شربة ارقّ من الماء ، وابيض من اللّبن ، والين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، وابرد من الثلج ، فسقاه إيّاه وامره بالجماع ، فقام فرحاً ومسروراً فجامع فعلق فيها بجدّي ، ولما كان في الليلة التي علق فيها بابي اتى آتٍ جدي فسقاه كما سقى جدّ ابي وامره بالجماع ، فقام فرحاً

---

(١) راجع موسوعة بحار الأنوار . ( ج ٤٨ ، ص ٤ ) وأيضاً كتاب المحاسن للبرقي : (ج ٢ ، ص ٤١٨) .

مسروراً فجامع فعلق بابي ، ولما كان في الليلة التي علق بي فيها ، اتى آتٍ ابي فسقاه وامره كما امرهم ، فقام فرحاً مسروراً فجامع فعلق بي ، ولما كان في الليلة التي علق فيها بابني هذا اتاني آتٍ كما اتى جدّ ابي وجدّي فسقاني كما سقاهم ، وامرني كما امرهم ، فقمت فرحاً مسروراً بعلم الله بما وهب لي ، فجامعت فعلق بابني هذا المولود ، فدونكم فهو والله صاحبكم من بعدي )[2] .

فلما ان عاد الإمام إلى المدينة أطعم الناس ثلاثاً وتباشر الناس بالوليد المبارك .

## أبواه :

والده : إمام الهدى أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) .

والدته : حميدة البربرية التي ربما كانت من الأندلس أو من المغرب ، وكانت تلقب بـ ( حميدة المصفاة ) .

وقد كانت حميدة من فضليات النساء حيث اضطلعت بمهمة نشر الرسالة ، وقد روت بعض الأحاديث عن زوجها (ع) .

فعن ابن سنان ، عن سابق بن الوليد ، عن المعلّى بن خنيس ان ابا عبد الله (ع) قال : ( حميدة مصفّاة من الأدناس ، كسبيكة الذهب ، ما زالت الأملاك تحرسها حتى أُدّيت إليّ كرامةً من الله لي والحجة من بعدي )[3] .

## صفاته :

كانت ملامحه الشخصية (ع) تعبر عن تلك النفس الكبيرة ، وتلك المسؤولية العظمى التي كان عليه ادائها . ذلك الهاشمي الكريم أزهر الملامح ، مربع القامة ، تمام خضر ، حالك ، كث اللحية ، يفيض مطابة وجلالاً .

وتكشف القابه عن الصفات الرسالية التي تجلّت فيه فهو : الكاظم والصابر والصالح ، والأمين . وفعلاً كانت حياته حافلة بتجليات هذه الصفات الفضيلة .

## نشأته :

خلال عشرين عاماً من عمره الشريف كان والده الإمام ابو عبد الله الصادق (ع) يتعهده بالرعاية ، ويشير الى فضائله ويبين لخاصة اوليائه انه سيد ولده ، وانه الإمام من بعده .

ان الإمامة لابد ان تكون بنص صريح ، وقد تواترت النصوص على الأئمة الإثني عشر من الرسول الأكرم (ص) ، وهكذا كان كل إمام يوصي بمن بعده ، فلهذا كان الموالون لآل البيت (ع) [illegible] على [illegible] من امامهم يسالون السلف عن الخلف .

يروي عبد الرحمن بن الحجاج يقول : دخلت على جعفر بن محمد في منزله وهو في [illegible] ،

---

(٢) موسوعة البحار : ( ج ٤٨ ، ص ٢ ) .

(٣) المصدر : ( ص ٦ ) نقلاً عن الكافي : ( ج ١ ، ص ٤٧٧ )

في مسجدٍ له وهو يدعو ، وعلى يمينه موسى بن جعفر يؤمِّن على دعائه ، فقلت له ، جعلني الله فداك قد عرفت انقطاعي إليك ، وخدمتي لك ، فمن وليّ الأمر بعدك ؟ قال ، ( يا عبد الرحمن إن موسى قد لبس الدرع فاستوت عليه ، فقلت له ، لا احتاج بعدها إلى شيء )[4] .

وكان الإمام الصادق (ع) يوصي سائر أبنائه بحق ابنه موسى (ع) ، فهذا عبد الله بن جعفر أكبر سناً من الإمام موسى يتحدث إليه والده ويقول له ، ما يمنعك أن تكون مثل أخيك ، فوالله إني لأعرف النور في وجهه ، فقال عبد الله ، وكيف ؟ أليس أبي وأبوه واحداً ؟ وأصلي وأصله واحداً ؟ فقال له أبو عبد الله ، ( إنه من نفسي وأنت ابني )[5] .

وكانت حياة الإمام موسى (ع) متميّزة منذ الصبا ، ولذلك فقد كانت في ذلك أمارة مقامه العظيم . جاء في حديث مأثور عن صفوان الجمّال وهو من خواصّ الشيعة ، سألت أبا عبد الله عن صاحب هذا الأمر ، قال ، صاحب هذا الأمر لا يلهو ولا يلعب ، وأقبل أبو الحسن وهو صغير ومعه بهمة عناق مكية[6] ويقول لها، ( اسجدي لربك ، فأخذه أبو عبد الله وضمه إليه وقال بأبي أنت وأمي من لا يلهو ولا يلعب )[7] .

وهكذا شبّ موسى بن جعفر محبوباً بين إخوته بسبب وصفه المميز ، وعملاً بوصايا والده بحقه ، فكان بين إخوته المتمسكين بولاية علي بن جعفر ، جاء في الحديث المأثور عن محمد بن الوليد قال ،

( سمعت علي بن جعفر بن محمد الصادق (ع) يقول ، سمعت أبا جعفر بن محمد (ع) يقول لجماعة من خاصته وأصحابه ، استوصوا بموسى ابني خيراً فإنه أفضل ولدي ، ومن أخلّف من بعدي وهو القائم مقامي والحجة لله عزّ وجلّ على كافة خلقه من بعدي ، وكان علي بن جعفر شديد التمسك بأخيه موسى، والإنقطاع إليه ، والتوفر على أخذ معالم الدين منه ، وله مسائل مشهورة عنه ، وجوابات رواها سماعاً منه، والأخبار فيما ذكرناه أكثر من أن تحصى على ما بيّناه ووصفناه )[8] .

ولأن عهد الإمام الصادق (ع) مميَّز ببعض الانفراج ، وقد انتشرت معارف أهل البيت وأصبح مذهبهم من بين المذاهب الأكثر شيوعاً واتباعاً في العالم الإسلامي ، فلقد كان الخوف على مستقبل الطائفة شديداً ، حيث كان يخشى من طمع بعض القيادات في الرئاسة على الطائفة ، وربما انجرف معهم بعض أولاد الإمام الصادق أو أحفاده ، لذلك فقد كان تأكيد الإمام على أن الوصي بعده ابنه موسى شديداً ومستمراً .

وهكذا كان فلقد انحرف البعض وزعم أن الوليّ بعد الإمام الصادق ( عليه السلام ) ابنه الأكبر إسماعيل، وقالوا بأنه لم يمت على عهد أبيه إنما غاب عن الأنظار .

---

(٤) المصدر : ( ص ١٨١ ج ٤٨ ) .

(٥) المصدر .

(٦) البهمة الواحدة من الضأن ، والعناق الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة .

(٧) المصدر .

(٨) المصدر . ( ص ٢٠ ) .

وكانت الفرقة الإسماعيلية ذات الشوكة التي اسست أكبر حركة ثورية بعد الحركة الرسالية ، وبَنت دولة عظيمة في شمال إفريقيا وكانت هذه الحركة وليدة هذا التصور الخاطىء .

من هنا أشهد الإمام الصادق (ع) كبار شيعته على وفاة ابنه واكد لهم أن الوصي الحق بعده إنما هو موسى (ع) .

فلقد روي عن زرارة بن أعين أنه قال :

( دخلت على أبي عبد الله (ع) وعن يمينه سيد ولده موسى (ع) وقدّامه مرقد مغطى ، فقال لي : يا زرارة جئني بداود الرّقي ، وحمران ، وأبي بصير ، ودخل عليه المفضل بن عمر ، فخرجت فأحضرت من أمرني بإحضاره ، ولم يزل الناس يدخلون واحداً إثر واحد ، حتى صرنا في البيت ثلاثين رجلاً .

فلما حشد المجلس قال : يا داود اكشف لي عن وجه اسماعيل ، فكشف عن وجهه ، فقال أبو عبد الله (ع) : يا داود أحيٌّ هو أم ميت ؟ قال داود : يا مولاي هو ميت ، فجعل يعرض ذلك على رجل رجل ، حتى أتى على آخر من في المجلس وكل يقول : هو ميت يا مولاي ، فقال : اللهم اشهد ثم أمر بغسله وحنوطه ، وإدراجه في أثوابه .

فلما فرغ منه قال للمفضل : يا مفضل احسر عن وجهه ، فحسر عن وجهه فقال : أحيٌّ هو أم ميت ؟ فقال ميت قال : اللهم اشهد عليهم ، ثم حمل إلى قبره ، فلما وضع في لحده قال : يا مفضل اكشف عن وجهه ، وقال للجماعة : أحيٌّ هو أم ميت ؟ قلنا له : ميت فقال : اللهم اشهد ، واشهدوا فإنه سيرتاب المبطلون ، يريدون إطفاء نور الله بأفواههم ثم أومأ إلى موسى ، والله متم نوره ولو كره المشركون ، ثم حثوا عليه التراب ، ثم أعاد علينا القول فقال : الميت المكفن المحنط المدفون في هذا اللحد من هو ؟ فقلنا : إسماعيل قال : اللهم اشهد ، ثم أخذ بيد موسى (ع) وقال : هو حق والحق معه ومنه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ) [9] .

---

(٩) المصدر : ( ص ٢١) .

## الفصل الثاني

# الإمـام وعصـره

### عصر الإمام موسى بن جعفر (ع) :

لقد كانت مدّة إمامة الكاظم (ع) خمسةً وثلاثين عاماً حيث اضطلع بها منذ أن كان عمره عشرين ربيعاً عام ١٤٨ هـ إلى أن استشهد عام ١٨٣ هـ وعمره خمسة وخمسون عاماً .

وهكذا عاصر من ملوك بني العباس بقية ملك المنصور ، وملك المهدي لمدة ( ١٠) سنوات ، والهادي لمدة سنة واحدة ، وهارون الملقب بالرشيد لمدة (١٥) عاماً .

وكان ملك بني العباس من أقوى ما يكون خلال هذه الفترة حتى سمّي عصر الرشيد بالعصر الذهبي ، ولا ريب أن قوة البلاد الإسلامية خلال هذا العصر لا يمكن قياسها بسائر العصور ، وفي ذات الوقت كانت الحركة الرسالية قد بلغت من القوة خلال عهد الإمام الكاظم (ع) ما أهّله للقيام بثورة شاملة لولا بعض الأقدار التي منعت اندلاع الثورة ، وأخرت نجاحها .

وقد بلغ الصراع بين السلطة العباسية والحركة الرسالية الذُروة في عهد الرشيد ، حيث نستوحي من مجموعة نصوص وحوادث تاريخية أن مخطط الثورة كان جاهزاً ، وأن السلطة العباسية قد فشلت في احتواء الثورة على أنها كانت في عصرها الذهبي ، ذلك لأن أنصار الحركة الرسالية قد ازدادوا ليس فقط بين الناس بل كان بعض كبار رجالات الدولة يميلون إلى حدٍ ما إلى الحركة الرسالية ، ولعل ذلك يفسر لنا محاولة المأمون العباسي خليفة الرشيد ، للتقرب إلى البيت العلوي وبالذات إلى الإمام علي بن موسى الرضا (ع) الذي قتل الرشيد والده (ع) . والحوادث التي تهدينا إلى تلك الحقيقة هي التالية :

هناك بعض الأحاديث التي تدل على أنه كان المقدر أن يقوم الإمام السابع بالأمر ، وقد اشتهر عند الشيعة أنه القائم من آل محمد (ص) وأنه لا يموت حتى يملأ الله على يديه الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

فعن أبي حمزة الثمالي قال : قلت لأبي جعفر (ع) إن علياً (ع) كان يقول : ( إلى السبعين بلاء ، وكان يقول : بعد البلاء رخاء ) وقد مضت السبعون ولم نر رخاءً ، فقال أبو جعفر (ع) : ( يا ثابت إن الله تعالى قد وقّت هذا الأمر في السبعين ، فلما قتل الحسين اشتد غضب الله على أهل الأرض فأخّره إلى أربعين ومائة سنة ، فحدثناكم فأذعتم الحديث وكشفتم قناع السرّ ، فأخّره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتاً عندنا ، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ) قال أبو حمزة : وقلت ذلك لأبي عبد الله (ع) فقال :

( قد كان ذلك ) .

وهذالك رواية عن داود الرقّي قال : قلت لأبي الحسن الرضا (ع) جعلت فداك انه والله ما يلج في صدري من أمرك شيء إلاّ حديث سمعته من ذريح يرويه عن ابي جعفر (ع) قال لي : ( ما هو) قال سمعته يقول :

( سابعنا قائمنا إن شاء الله ) .

قال : ( صدقت وصدق ذريح وصدق ابو جعفر (ع) ، فازددت والله شكاً ، ثم قال لي : ( يا داود بن ابي كلدة : اما والله لولا ان موسى قال للعالم ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِراً ﴾ (الكهف/٦٩) ما ساله عن شيء ، وكذلك ابو جعفر (ع) لولا ان قال إن شاء الله لكان كما قال ، فقطعت عليه ) .

لقد بدأ الرساليون في ذلك الظرف يتناقلون الكلام ، وبلغ الأمر إلى السلطات ، إلى درجة انه شاع وفشى ، فاعتقلت مجموعة من الرساليين وسجنت الإمام (ع) وقتلته بعد ذلك [١٠] .

ولقد شاعت فكرة قيام الإمام السابع إلى درجة ان السلطة استخدمتها كورقة إعلامية ضد الحركة الرسالية ، بعد ان دسّت السمّ إلى الإمام وقتلته في غياهب سجون بغداد ، كيف ؟

إن من المعروف ان القائم لا يموت حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ان ملئت ظلماً وجوراً ، وها هو الإمام السابع قد فارق الحياة ، إذاً هو ليس القائم المنتظر .

وهكذا حاولت السلطة إبراز التناقض في اقوال الحركة الرسالية ، حيث نادى أزلام السلطة على نعش الإمام الكاظم (ع) ما يلي :

هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة انه لا يموت ، فانظروا إليه فنظروا [١١] .

والواقع ان ( فشل الثورة ) او تأخيرها ، واستشهاد الإمام المنتظر لقيادتها ، سبّب صدمة عنيفة لبعض ابناء الحركة الرسالية ، وكان امتحاناً عسيراً لولا ما ظهر بعدئذ من حكمة ذلك حيث تحول الوضع السياسي لمصلحتهم بعد هارون من دون إراقة الدماء .

ولقد استغل بعض اصحاب المصالح الطامعين في الرئاسة او المال هذه الصدمة عند السذّج من الناس ، وطفقوا يقولون ان موسى بن جعفر (ع) لم يمت ، وانه لا يموت حتى يقوم بالأمر .

ولقد قاوم الإمام علي بن موسى الرضا (ع) هذا المذهب الفاسد ، حتى اضمحل ولم يعد لهم وجود يذكر .

فمثلاً جاء في الحديث المأثور عن جعفر بن محمد النوفلي قال : اتيت الرضا (ع) وهو بقنطرة اربق [١٢] ، فسلمت عليه ثم جلست وقلت : جعلت فداك إن اناساً يزعمون ان اباك حيّ ، فقال : كذبوا لعنهم الله ، لو كان حياً ما قسم ميراثه ولا نكح نساءه ، ولكنه والله ذاق الموت كما ذاقه عليّ بن ابي طالب (ع) [١٣] .

---

(١٠) بحار الأنوار : ( ج ٤٨ ، ص ٢٩١ ) .

(١١) مقاتل الطالبين : ( ص ٥٠٥ ) .

(١٢) من نواحي رامهرمز في حوزستان إيران .

(١٣) موسوعة البحار : ( ج٤٨ ، ص ٢٦٠ ) .

وهكذا كانت المواجهة بين السلطة العباسية والحركة الرسالية قد بلغت الذروة ، وكان مخطط الثورة الشاملة جاهزاً لولا إذاعة السرّ ومبادرة السلطة باعتقال الإمام موسى الكاظم . وقد سردنا نصوصاً وشواهد تاريخية على ذلك ، وهناك المزيد من الشواهد نبينها فيما يلي :

## عهد الرشيد : قمة الإرهاب العباسي :

بسبب تصاعد المد الرسالي ، وازدياد احتمالات سقوط النظام العباسي ، مارس هارون الرشيد إرهاباً لا مثيل له في تاريخ المواجهة بين السلطة العباسية وائمة آل البيت (ع) .

لقد كانت التقية – والتي تعني العمل السري – على اشدها في عصر الإمام موسى (ع) ، ولعل لقب الإمام الكاظم يشير إلى ان منهج حياته كان التقية ، وكظم الغيظ عمّا يصيبه من آلام وضغوط .

وسائر القابه ايضاً تدل على ميزة عصره ، فقد كان شيعته يكنون عنه بـ ( العبد الصالح ) و ( النفس الزكية ) و ( الصابر ) وتنوع كناه يدل ايضاً على السرّية التي اتسمت بها الحركة في عصره ، فهو " ابو الحسن " و " ابو علي " و " ابو إبراهيم " وقيل ايضاً " ابو إسماعيل " .

ولقد بقي سيدنا الإمام موسى (ع) فترة طويلة في سجون آل عباس ، وكانت شهادته ايضاً بصورة ماساوية لا يساويها إلاّ شهادة جده ابي عبد الله الحسين (ع) ، وذلك يدل على ان خشيتهم كانت عظيمة من قيامه (ع) ضد ظلمهم وإرهابهم ، ذلك لانه لا احد من الطغاة كان يفكّر في تكرار غلطة يزيد بن معاوية في قتله لسيد الشهداء (ع) بصورة علنية ، إنما كانوا يفضلوا اغتيال ائمة آل البيت للتخلص منهم ، وللبراءة من دمائهم عند الجماهير المسلمة الذين كانوا يكنّون لآل بيت رسول الله كل ولاء واحترام .

حتى الرشيد الذي استشهد الكاظم (ع) في سجنه ، حاول التبرؤ من دمه ، والتمويه بانه مات حتف انفه ، او ان السندي بن شاهك قائد شرطته هو الذي بادر بقتل الإمام دون امره[١٤] .

ومن هنا نعلم ان السلطة لم تخاطر بقتل سيد اهل البيت ، لو لم تشعر بالخوف على مركزها . على ان السلطة قد قتلت – صبراً – الكثير من قيادات البيت العلوي .

## محنة البيت العلوي :

وهكذا كانت محنة البيت العلوي عظيمة في تلك الحقبة ، حيث انهم رفضوا التسليم لإرهاب النظام ، فزجّ بهم في السجون الرهيبة ، ومورس في حقهم كل الوان التعذيب ، كما قتل النظام الكثير منهم صبراً . وإن ذلك لدليل على قوة شوكة المعارضة الرسالية وتهديدها للنظام ، كما هو دليل على مدى احتمال هذا البيت الطاهر للمآسي والمصائب من اجل رسالات الله ، ولم يكن عبثاً تاكيد الرسول (ص) على الإهتمام باهل بيته واعتبارهم ورثته ، وجعلهم محور اهل الحق ، وإن مثلهم مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهلك .

---

(١٤) المصدر : ( ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ) .

وفي القصة التالية بعض تلك المحن العظيمة التي توالت على اهل بيت الرسول من أبناء فاطمة وعلي عليهم السلام .

عن عبيد الله البزاز النيسابوري – وكان مسناً – قال : كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة ، فرحلت إليه في بعض الأيّام ، فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعليّ ثياب السفر لم اغيّرها ، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر .

فلمّا دخلت إليه رايته في بيت يجري فيه الماء فسلمت عليه وجلست ، فاتي بطست وابريق فغسل يديه ، ثم امرني فغسلت يدي واحضرت المائدة وذهب عني انّي صائم واني في شهر رمضان ، ثمّ ذكرت فامسكت يدي ، فقال لي حميد : مالك لا تاكل ؟ فقلت ايها الأمير هذا شهر رمضان ، ولست بمريض ولا بي علّة توجب الإفطار ، ولعلّ الأمير له عذر في ذلك او علّة توجب الإفطار ، فقال : ما بي علّة توجب الإفطار وانّي لصحيح البدن ، ثم دمعت عيناه وبكى .

فقلت له بعدما فرغ من طعامه : ما يبكيك ايّها الأمير ؟ فقال : انفذ إليّ هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل ان اجب ، فلمّا دخلت عليه رايت بين يديه شمعة تتقد وسيفاً اخضر مسلولاً وبين يديه خادم واقف ، فلما قمت بين يديه رفع راسه إليّ فقال : كيف طاعتك لأمير المؤمنين ؟ فقلت : بالنفس والمال ، فاطرق ثم أذن لي في الانصراف .

فلم البث في منزلي حتى عاد الرسول إليّ وقال : اجب امير المؤمنين ، فقلت في نفسي : انا والله اخاف ان يكون قد عزم على قتلي وانه لما راني استحيى منّي ، فعدت إلى بين يديه فرفع راسه إليّ فقال : كيف طاعتك لأمير المؤمنين ؟ فقلت : بالنفس والمال والأهل والولد – فتبسم ضاحكاً ، ثم اذن لي في الانصراف .

فلما دخلت منزلي لم البث ان عاد الرسول إليّ فقال : اجب امير المؤمنين فحضرت بين يديه وهو على حاله ، فرفع راسه إليّ فقال : كيف طاعتك لأمير المؤمنين ، فقلت : بالنفس والمال والأهل والولد والدين فضحك ، ثم قال لي : خذ هذا السيف وامتثل ما يامرك به هذا الخادم .

قال : فتناول الخادم السيف وناولنيه وجاء بي إلى بيت بابه مغلق ففتحه فإذا به بئر في وسطه ، وثلاثة بيوت ابوابها مغلقة ، ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفسا عليهم الشعور والذوائب ، شيوخ وكهول وشبّان مقيّدون ، فقال لي : انّ امير المؤمنين يامرك بقتل هؤلاء ، وكانوا كلهم علويّة من ولد علي وفاطمة (ع) فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فاضرب عنقه حتى اتيت على اخرهم ، ثم رمى باجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر .

ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه ايضاً عشرون نفسا من العلويّة من ولد علي وفاطمة (ع) مقيدون ، فقال لي : إن امير المؤمنين يامرك بقتل هؤلاء ، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فاضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر ، حتى اتيت على آخرهم ، ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد علي

وفاطمة (ع) ، مقيدون عليهم الشعور والذوائب فقال لي : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تقتل هؤلاء أيضاً فجعل يخرج إليَّ واحداً بعد واحد فاضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر ، حتى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم ، وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي : تبّاً لك يا مشؤوم أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله (ص) وقد قتلت من أولاده ستين نفساً ، قد ولدهم عليٌ وفاطمة (ع) ، فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي فنظر إليَّ الخادم مغضباً وزبرني ، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورمى به في تلك البئر ، فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله (ص) فما ينفعني صومي وصلاتي وأنا لا أشك أني مخلد في النار [15] .

## محنة العلماء الرساليين :

وكانت محنة العلماء الكبار من الموالين لآل البيت عظيمة أيضاً أو ليسوا شيعة آل محمد (ص) ؟ فلابد أن يقتدوا بهم في بلائهم ، ومن أعظمهم بلاء محمد بن أبي عمير الأزدي البغدادي وهو في نفس الوقت من أعظمهم شأناً . وكان من أوثق الناس عند الخاصة والعامة ، وأنسكهم نسكاً ، وأورعهم وأعبدهم ، وحكي عن الجاحظ أنه قال : كان أوحد أهل زمانه في الأشياء كلها ، وقال أيضاً : وكان وجهاً من وجوه الرافضة ، حبس أيام الرشيد ليلي القضاء . وقيل بل ليدلّ على الشيعة وأصحاب موسى بن جعفر (ع) ، وضرب على ذلك ، وكاد يقر لعظيم الألم ، فسمع محمد بن يونس بن عبد الرحمن يقول له : إتق الله يا محمد بن أبي عمير فصبر ففرّج الله عنه ، وروى الكشي أنه ضرب مائة وعشرين خشبة أيام هارون ، وتولى ضربه السندي بن شاهك ، وكان ذلك على التشيع ، وحبس فلم يفرج عنه ، حتى أدى من ماله واحداً وعشرين ألف درهم ، وروي أن المأمون حبسه حتى ولاه قضاء بعض البلاد ، وروى الشيخ المفيد في الاختصاص أنه حبس سبع عشرة سنة ، وفي مدة حبسه دفنت أخته كتبه فبقيت مدة أربع سنين ، فهلكت الكتب ، وقيل أنه تركها في غرفة فسال عليها المطر ، لذلك حدّث من حفظه ، ومما كان سلف له في أيدي الناس أدرك أيام الكاظم (ع) ولم يحدث عنه ، وأيام الرضا والجواد (ع) وحدّث عنهما ، ومات سنة ٢١٧ [16] .

## التسلل إلى النظام :

ولعل أوضح شواهد القوة عند الحركة الرسالية في عصر الإمام الكاظم ( عليه السلام ) هو حجم تسلل عناصرها في أجهزة النظام ، والذي يدل على مدى نفوذهم في مجمل المؤسسات الرسمية ، ولعلّ رأس النظام كان على علم وإن بصورة إجمالية بولاء رجاله لآل البيت ، لكنه كان عاجزاً عن الانقلاب عليهم لسبب أو لآخر ، وقبل أن نورد بعض القصص التاريخية لهذا التسلل ، يجدر أن نعلم أن متانة الشبكة التنظيمية التي كانت تتمتع بها الحركة الرسالية التي أوجدت هذا المدى الواسع من العناصر في مختلف

---

(١٥) المصدر . ( ص ١٧٦ ، ١٧٨ ) .

(١٦) المصدر : ( ص ١٧٩ ) الهامش عن شرح مشيخة الفقيه : ( ص ٥٦ - ٥٧ ) .

أجهزة النظام الحساسة ، لتعتبر نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه التنظيمات الرسالية في كل مكان .

١ — يبدو أن بعض رؤساء المحافظات أو حسب تعبيرهم يومئذ ( الولاة ) كانوا منتمين إلى الحركة ، فمثلاً مدينة ( الري ) وهي طهران الحالية ، كانت من الحواضر العامة في ذلك اليوم ، ومع ذلك كان واليها واحداً من موالي أهل البيت ، كما تذكر الرواية التالية من كتاب قضاء حقوق المؤمنين لأبي علي بن طاهر الصوري بإسناده عن رجل من أهل الري قال : ولّي علينا بعض كتاب يحيى بن خالد ، وكان عليّ بقايا يطالبني بها ، وخفت من إلزامي إيّاها خروجاً عن نعمتي ، وقيل لي : أنه ينتحل هذا المذهب ، فخفت أن أمضي إليه فلا يكون كذلك فاقع فيما لا أحب ، فاجتمع رأيي على أني هربت إلى الله تعالى ، وحججت ولقيت مولاي الصابر — يعني موسى بن جعفر (ع) — فشكوت حالي إليه فاصحبني مكتوباً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم اعلم أن لله تحت عرشه ظِلاً لا يسكنه إلاّ من أسدى إلى أخيه معروفاً أو نفّس عنه كربة ، أو أدخل على قلبه سروراً ، وهذا أخوك والسلام .

قال : فعدت من الحجّ إلى بلدي ، ومضيت إلى الرجل ليلاً ، واستأذنت عليه وقلت : رسول الصابر (ع) فخرج إليّ حافياً ماشياً ، ففتح لي بابه ، وقبّلني وضمني إليه ، وجعل يقبّل بين عيني ، ويكرّر ذلك كلما سالني عن رؤيته (ع) ، وكلما أخبرته بسلامته وصلاح أحواله استبشر وشكر الله ، ثمّ أدخلني داره وصدّرني في مجلسه وجلس بين يدي ، فأخرجت إليه كتابه (ع) فقبّله قائماً وقرأه ثم استدعى بماله وثيابه ، فقاسمني ديناراً ديناراً ، ودرهماً درهماً ، وثوباً ثوباً ، وأعطاني قيمة ما لم يمكن قسمته ، وفي كلّ شيء من ذلك يقول : يا أخي هل سررتك ؟ فأقول : أي والله ، وزدت على السرور ، ثم استدعى العمل فاسقط ما كان باسمي وأعطاني براءة مما يتوجّه عليّ منه ، وودّعته ، وانصرفت عنه .

فقلت : لا أقدر على مكافأة هذا الرّجل إلاّ بأن أحج في قابل وأدعو له وألقى الصّابر (ع) وأعرّفه فعله ، ففعلت ولقيت مولاي الصابر (ع) وجعلت أحدّثه ووجهه يتهلّل فرحاً ، فقلت : يا مولاي هل سرّك ذلك ؟ فقال : أي والله لقد سرني وسرّ أمير المؤمنين ، والله لقد سرّ جدي رسول الله (ص) ، ولقد سرّ الله تعالى [17] .

٢ — كان علي بن يقطين وزيراً للخليفة وكان يشرف على بلاد واسعة وكان من أقرب المستشارين لهارون الرشيد وفي الوقت ذاته كان من الموالين لأهل البيت (ع) [18] وسنذكر بإذن الله بعض الأحاديث

---

(١٧) المصدر : ( ص ١٧٤ ) .

(١٨) علي بن يقطين بن موسى البغدادي مسكناً ، والكوفي أصلاً ، مولى بني أسد يكنى أبا الحسن ، من وجوه هذه الطائفة ، جليل القدر ، وقد ضمن له الإمام الكاظم (ع) الجنة وأن لا تمسه النار ، وفي الكشي أحاديث دلت على عظم شانه وجلالة قدره ، وأنه كان يحمل إلى الإمام الكاظم (ع) أموالاً طائلة ، فربما حمل مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف ، وكان علي يبعث في كل سنة من يحج عنه حتى أحصى له في بعض السنين مائة وخمسين أو ثلاثمائة ملبي ، وكان يعطي بعضهم عشرة آلاف وبعضهم عشرين ألف ، مثل

التي تبين لنا مواقف علي بن يقطين والتي تكشف أن سياسة التقية أو العمل السري لم تكن سياسة مرحلية مؤقتة ، بل كانت بمثابة استراتيجية عمل بعيدة المدى ، فلعل أئمة الهدى رأوا أن تمكين رجالهم من مراكز الحكم بصورة أو بأخرى ، أفضل وسيلة لإصلاح أمر الأمة ، ولم يجدوا حاجة إلى التغيير السريع في قمة الهرم السلطوي ، وتحمل مسؤوليات الحكم بصورة مباشرة وحتى ولو لم يكن بناء الأمة الحضاري قد بلغ من النضج ما يحتمل نظاماً إلهياً ، كالذي كان أهل البيت (ع) يريدونه .

وبتعبير آخر : إن استراتيجية ( التقاطع ) مع نظام الحكم وذلك بالسيطرة على مراكزه الهامة ، وشل قدرته من الداخل عن المعارضة ربما كانت الاستراتيجية المثلى لتلك الظروف .

## ألف : قصة الدرّاعة :

في الوقت الذي كان علي بن يقطين مقرباً إلى الرشيد ، كان جواسيسه لا يفتلون يحيطون به وبسائر الوزراء ، إذ كان هاجس موالاة وزراءه للإمام الحق موسى بن جعفر (ع) يلاحق الرشيد ليل نهار ، إلاّ أن العلم الإلهي الذي كان لأئمة آل البيت (ع) منع الرشيد من إثبات أي شيء بحق علي بن يقطين ، كما أن انضباط علي بن يقطين وشدة التزامه بالأوامر القيادية فوّتت على الرشيد فرصاً كثيرة ، ومنها ما ذكرت قصة الدرّاعة التي نبيّنها فيما يلي : —

روى إبراهيم بن الحسن بن راشد ، عن ابن يقطين قال : ( كنت واقفاً عند هارون الرشيد إذ جاءته هدايا ملك الروم ، وكان فيها درّاعة ديباج سوداء منسوجة بالذهب لم أر أحسن منها ، فرآني أنظر إليها فوهبها لي ، وبعثتها إلى أبي إبراهيم (ع) ومضت عليها برهة تسعة أشهر وانصرفت يوماً من عند هارون بعد أن تغدّيت بين يديه ، فلمّا دخلت داري قام إليّ خادمي الذي يأخذ ثيابي بمنديل على يده وكتاب لطيف ختمه رطب ، فقال : أتاني بهذا رجل الساعة فقال : أوصله إلى مولاك ساعة يدخل ، ففضضتُ الكتاب وإذ به كتاب مولاي أبي إبراهيم (ع) وفيه : يا علي هذا وقت حاجتك إلى الدرّاعة وقد بعثت بها إليك ، فكشفت طرف المنديل عنها ورأيتها وعرفتها ، ودخل عليّ خادم هارون بغير إذن فقال : أجب أمير المؤمنين .

قلت : أيُّ شيء حدث ؟ قال لا أدري .

فركبت ودخلت عليه ، وعنده عمر بن بزيع واقفاً بين يديه فقال : ما فعلت بالدرّاعة الّتي وهبتك ، قلت : خلع أمير المؤمنين عليّ كثير من دراريع وغيرها فعن أيّها يسألني ؟ قال : درّاعة الديباج السوداء الرّومية المذهّبة ، فقلت : ما عسى أن أصنع بها ألبسها في أوقات وأصلّي فيها ركعات ، وقد كنت دعوت بها عند منصرفي من دار أمير المؤمنين السّاعة لألبسها ، فنظر إلى عمر بن بزيع فقال : قل يحُضرها ، فأرسلت

---

الكاهلي وعبد الرحمن بن الحجاج وغيرهما ، ويعطي أدناهم ألف درهم ، له كتب رواها عنه ابنه الحسن وأحمد بن هلال مات سنة ١٨٢ في أيام حياة أبي الحسن الكاظم ببغداد ، وأبو الحسن في سجن هارون وقد بقي فيه أربع سنين .

" باقتضاب عن شرح مشيخة الفقيه : ( ص٤٧ ) عنه هامش كتاب البحار : ( ص ١٧٨ ، ح ٤٨ ) " .

خادمي جاء بها ، فلمّا رآها قال : يا عمر ما ينبغي أن تنقل على عليّ بعد هذا شيئاً ، قال : فأمر لي بخمسين الف درهم حملت مع الدرّاعة إلى داري ، قال عليّ بن يقطين ، وكان السّاعي ابن عم لي فسوّد الله وجهه وكذّبه والحمد لله )[19] .

## باء : سرية الاتصالات :

كيف كان يتم الاتصال بين الإمام وبين شيعته المتخفّين من امثال علي بن يقطين ؟

نحن لا نعرف مزيداً من التفاصيل حول طبيعة الاتصالات ، إلاّ ان الباحث باستطاعته ان يتعرف على القضايا من خلال بعض الأخبار المتناثرة ، فالخبير الزراعي يتعرف على طبيعة التربة والماء والهواء والبذر والسماد و . و .. من خلال ثمرة واحدة من شجرة التفاح مثلاً ، وهكذا المؤرخ بإمكانه ان يتعرف على المزيد من التفاصيل من خلال التفكر في ابعاد حادثة تاريخية تروى .

وهكذا الحادثة الثانية تبين أبعاد الاتصالات السرية التي كانت تتم بين ائمة الهدى وشيعتهم .

عن محمد بن مسعود ، عن الحسين بن شكيب ، عن بكر بن صالح ، عن إسماعيل بن عباد القصري، عن إسماعيل بن سلام وفلان بن حميد ، قالا : ( بعث إلينا علي بن يقطين فقال : اشتريا راحلتين ، وتجنبا الطريق — ودفع إلينا اموالاً وكتباً — حتى توصلا ما معكما من المال والكتب إلى ابي الحسن موسى (ع) ولا يعلم بكما احد ، قال : فاتينا الكوفة واشترينا راحلتين وتزوّدنا زاداً ، وخرجنا نتجنب الطريق ، حتى إذا صرنا ببطن الرمة شددنا راحلتنا ، ووضعنا لها العلف ، وقعدنا نأكل ، فبينما نحن كذلك ، إذ راكب قد اقبل ومعه شاكري ، فلما قرب منّا فإذا هو ابو الحسن موسى (ع) ، فقمنا وسلّمنا عليه ، ودفعنا إليه الكتب وما كان معنا ، فاخرج من كمّه كتباً فناولنا إيّاها فقال : هذه جوابات كتبكم .

قال : فقلنا : إنّ زادنا قد فني فلو اذنت لنا فدخلنا المدينة ، فزرنا رسول الله وتزوّدنا زاداً فقال : هاتا ما معكما من الزّاد ، فاخرجنا الزّاد إليه فقلّبه بيده فقال : هذا يبلّغكما إلى الكوفة ، واما رسول الله (ص) فقد رأيتماه ، إني صليت معهم الفجر ، وإني اريد ان أصلي معهم الظهر ، انصرفا في حفظ الله )[20] .

## جيم : التقية حتى في كيفية الوضوء :

وفشلت محاولات الوشاة ورجال مباحث النظام في كشف حقيقة علي بن يقطين ، وقام الرشيد بنفسه بعملية التجسس عليه ، فكانت عاقبته الفشل أيضاً كما في الخبر التالي :

روى محمد بن إسماعيل ، عن محمد بن الفضل قال : ( اختلفت الرواية بين أصحابنا في مسح الرجلين في الوضوء هو من الأصابع إلى الكعبين ؟ أم من الكعبين إلى الأصابع ؟ فكتب علي بن يقطين إلى ابي

---

(١٩) المصدر : ( ص ٥٩ – ٦٠ ) .

(٢٠) المصدر : ( ص ٣٥ ) .

ويبدو ان الامام امرهم بالانصراف من زيارة النبي (ص) والاشتغال بزيارة [illegible]
قال : اما رسول الله فقد رأيتماه .

الحسن موسى (ع) أن أصحابنا قد اختلفوا في مسح الرجلين ، فإن رأيت أن تكتب إليّ بخطك ما يكون عملي عليه فعلت إن شاء الله ، فكتب إليه أبو الحسن (ع) : فهمتُ ما ذكرتَ من الاختلاف في الوضوء والذي آمرك به في ذلك فأن تتمضمض ثلاثاً وتستنشق ثلاثاً ، وتغسل وجهك ثلاثاً ، وتخلل شعر لحيتك وتمسح رأسك كله ، وتمسح ظاهر أذنيك . وباطنها ، وتغسل رجليك إلى الكعبين ثلاثاً ولا تخالف ذلك إلى غيره .

فلما وصل الكتاب إلى عليّ بن يقطين تعجب بما رسم فيه ، ممّا أجمع العصابة على خلافه ، ثم قال : مولاي أعلم بما قال وأنا ممتثل أمره ، وكان يعمل في وضوئه على هذا الحدّ ، ويخالف ما عليه جميع الشيعة امتثالاً لأمر أبي الحسن (ع) ، وسعي بعليّ بن يقطين إلى الرشيد ، وقيل له : إنه رافضي مخالف لك .

فقال الرشيد لبعض خاصّته : قد كثر عندي القول في عليّ بن يقطين والقذف له بخلافنا وميله إلى الرفض ولست أرى في خدمته لي تقصيراً ، وقد امتحنته مراراً فما ظَهَرْتُ منه على ما يُقذف به ، وأحبّ أن أستبرئ أمره من حيث لا يشعر بذلك فيتحرز منّي .

فقيل له : إنّ الرّافضة يا أمير المؤمنين تخالف الجماعة في الوضوء فتخفّفه ولا ترى غسل الرّجلين فامتحنه يا أمير المؤمنين من حيث لا يعلم ، بالوقوف على وضوئه ، فقال : أجل إنّ هذا الوجه يظهر به أمره ، ثم تركه مدّة وناطه بشيء من الشغل في الدّار ، حتّى دخل وقت الصلاة ، وكان علي بن يقطين يخلو في حجرة في الدار لوضوئه وصلاته ، فلمّا دخل وقت الصلاة وقف الرّشيد من وراء حائط الحجرة بحيث يرى عليّ بن يقطين ، ولا يراه هو، فدعا بالماء للوضوء ، فتمضمض ثلاثاً ، واستنشق ثلاثاً ، وغسل وجهه ثلاثاً ، وخلّل شعر لحيته ، وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثاً ، ومسح رأسه وأذنيه ، وغسل رجليه والرشيد ينظر إليه .

فلما رآه وقد فعل ذلك ولم يملك نفسه حتّى أشرف عليه بحيث يراه ، ثمّ ناداه : كذب يا علي بن يقطين من زعم أنّك من الرافضة ، وصلحت حاله عنده ، وورد عليه كتاب أبي الحسن (ع) : ابتداءً من الآن يا علي بن يقطين فتوضّأ كما أمر الله ، واغسل وجهك مرة فريضة ، وأخرى إسباغاً ، واغسل يديك من المرفقين كذلك وامسح مقدم رأسك وظاهر قدميك بنداوة وضوئك ، فقد زال ما كان يخاف عليك والسلام )[21] .

٣ – كان المسيّب نائب رئيس شرطة النظام سندي بن شاهك ، وكان موكلاً بسجن الإمام (ع) ، وكان يوالي الإمام (ع) كما يظهر من بعض التواريخ ، وكان يتصل بالشيعة ويأمرهم بما يوصيه الإمام ، والواقع أن كثير ممن سجن الإمام عندهم قالوا بولايته لما شاهدوا منه من المعاجز ، فهذا بشّار مولى السندي بن شاهك يقول : ( كنت من أشد الناس بغضاً لآل أبي طالب (ع) ، فدعاني السندي بن شاهك يوماً

---

(٢١) المصدر : ( ص ٣٨ - ٣٩ )

فقال لي : يا بشار إنّي اريد أن ائتمنك على ما ائتمنني عليه هارون ، قلت : إذن لا أبقي فيه غاية ، فقال : هذا موسى بن جعفر قد دفعه إلّي وقد وكّلتك بحفظه ، فجعله في دار دون حرمه ووكّلني عليه ، فكنت اقفل عليه عدّة اقفال ، فإذا مضيت في حاجة وكّلت امراتي بالباب فلا تفارقه حتّى ارجع .

قال بشّار : فحوّل الله ما كان في قلبي من البغض حبّاً ، قال : فدعاني (ع) يوماً فقال : يا بشّار امضِ إلى سجن القنطرة فادع لي هند بن الحجاج وقل له : ابو الحسن يامرك بالمصير إليه ، فإنّه سينهرك ويصيح عليك ، فإذا فعل ذلك ، فقل له : انا قد قلت لك وابلغت رسالته ، فإن شئت فافعل ما امرني ، وإن شئت فلا تفعل ، واتركه وانصرف ، قال : ففعلت ما امرني وأقفلت الأبواب كما كنت اقفل واقعدت امراتي على الباب وقلت لها : لا تبرحي حتّى آتيك .

وقصدت إلى سجن القنطرة فدخلت إلى هند بن الحجّاج ، فقلت : ابو الحسن يامرك بالمصير اليه ، قال : فصاح عليّ وانتهرني فقلت له : انا قد ابلغتك وقلت لك ، فإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل ، وانصرفت وتركته وجئت إلى ابي الحسن (ع) فوجدت امراتي قاعدة على الباب والأبواب مغلقة ، فلم ازل افتح واحداً منها حتى انتهيت إليه فوجدته واعلمته الخبر ، فقال : نعم قد جائني وانصرف ، فخرجت إلى امراتي فقلت لها : جاء احد بعدي فدخل هذا الباب ؟ فقالت : لا والله ما فارقت الباب ولا فتحت الأقفال حتى جئت )[٢٢] .

---

(٢٢) المصدر : ( ص ٢٤١) .

## الفصل الثالث

# معاجز الإمام وعلمه

### معاجز الإمام الكاظم :

هناك فرق كبير بين فكرة الغلو المرفوضة عند المسلمين بشدة ، وبين الإعتقاد بكرامة أولياء الله ، واستجابة الله دعائهم ، ونظرهم بنور الله إلى الحقائق .

ذلك ان فكرة الغلو تسمو بالشخص إلى درجة الألوهية وترى ان الرب سبحانه وتعالى يحل في عباده ، حتى يصبح العبد هو الرب بروحه ، وتكون قدراته آنئذ ذاتية .

بينما الإعتقاد بالإعجاز لدى أولياء الله يعكس التوحيد الخالص حيث يرفض أي تحول ذاتي في شخص النبي أو الإمام أو الولي ، إنما يعني تفضيل الله لعباده المخلصين ، وإكرامهم بالعلم أو القدرة .

وفي الوقت الذي نجد الآيات القرآنية تقدس الله وتسبّحه وتذكرنا باستحالة حلوله في شيء أو شخص وتندد بعقائد الشرك ، في ذات الوقت تذكر لنا معاجز الأنبياء (ع) التي دلّت على كرامتهم عند الله ، حيث اجرى الله على ايديهم تلك المعاجز فيقول الله سبحانه في شان عيسى ابن مريم (ع) :

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران/٤٩)

إن تكرار كلمة ( بإذن الله ) يدلل على ان تلك المعاجز لا تعني حلولاً إلهياً في شخص عيسى ليجعله ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقوله المشركون ، بل على ان الله يهب لعبده ما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء .

وهكذا كانت عقيدة المسلمين في الأئمة (ع) والأولياء بان الله قد اكرمهم بالعلم والقدرة ، وهذا من صميم عقيدة التوحيد ، اوليس الله بقادر على ان يكفي عبده وينصره ويطلعه على غيبه إذا ارتضاه ؟ ولِمَ لا يفعل الرب بعبده المطيع له المخلص في العبادة مثل ذلك ؟ أوليس الله يحب التوّابين ويحب المتطّهرين ويحب المتوكّلين ، ويحب من يطيعه ، ويجزي من يعبده ، ويجزي المتصدقين ، ويجزي المحسنين ، ويكرم المتقين ، ويسلّم ويصلي على عباده الصابرين ؟ كما نقرأ في اكثر سور القرآن الكريم.

إن من لا يعتقد بالتاييد الإلهي لعباده الصالحين وفي طليعتهم الأئمة المعصومين (ع) ، ويثير الشكوك حول معاجزهم ، يكاد يكفر بروح القرآن وباطنه ومحتواه واعظم معانيه .

إن لبّ رسالات الله هو الإعتقاد بان الله مهيمن على عرش القدرة ، ويفعل ما يشاء وانه لا يفعل إلاّ بحكمة بالغة ، وخلاصة الحكمة جزاء من احسن وعقاب من اساء ، فإذا كان سواء عنده من أحسن ومن اساء وكان لا ينصر عباده المؤمنين ولا يخذل الكفار والمنافقين ، فما هي فائدة الإيمان بقدرته وحكمته و. و..

وهكذا كان الإمام موسى بن جعفر حليف القرآن ، واعبد الناس للرب في عصره ، واعظم المطيعين للخالق ، كان له من المعاجز والكرامات ما اعترف بها المسلمون جميعاً ، ولا يسعنا ان نذكر فيما يلي إلاّ قليلاً منها [٢٣] :

١ – لقد أنقذ الله سبحانه عبده الصالح موسى بن جعفر (ع) من طغاة عصره بفضل توكله عليه وتبتله إليه ، وكذلك ينجي الله المؤمنين .

جاء في الحديث عن عبيد الله بن صالح قال : حدثني حاجب الفضل بن الربيع عن الفضل بن ربيع قال : كنت ذات ليلة في فراشي مع بعض جواريّ فلما كان في نصف الليل سمعت حركة باب المقصورة فراعني ذلك فقالت الجارية : لعل هذا من الريح ، فلم يمض إلاّ يسير حتى رايت باب البيت الذي كنت فيه قد فتح ، وإذا مسرور الكبير قد دخل عليّ فقال لي : اجب الأمير ، ولم يسلّم عليّ .

فيئست من نفسي وقلت : هذا مسرور ، دخل إليّ بلا إذن ولم يسلم ، ما هو إلاّ القتل ، وكنت جنباً فلم اجسر ان اساله إنظاري حتى اغتسل ، فقالت لي الجارية : لما رات تحيّري وتبلّدي : ثق بالله عزّ وجلّ وانهض ، فنهضت ، ولبست ثيابي ، وخرجت معه حتى اتيت الدار ، فسلمت على امير المؤمنين وهو في مرقده فرد عليّ السلام فسقطت فقال : تداخلك رعب .؟ قلت : نعم يا امير المؤمنين ، فتركني ساعة حتى سكنت ثم قال لي : صر إلى حبسنا فاخرج موسى بن جعفر بن محمد وادفع إليه ثلاثين الف درهم ، واخلع عليه خمس خلع ، واحمله على ثلاث مراكب ، وخيره بين المقام معنا أو الرحيل عنا إلى ايّ بلد اراد واحب .

فقلت : يا امير المؤمنين تامر بإطلاق موسى بن جعفر ؟ قال : نعم فكرّرت ذلك عليه ثلاث مرات ، فقال لي : نعم ويلك اتريد ان أنكث العهد ؟ فقلت : يا امير المؤمنين وما العهد ؟ قال : بينا انا في مرقدي هذا إذ ساورني اسود ما رايت من السودان اعظم منه فقعد على صدري وقبض على حلقي وقال لي : حبست موسى بن جعفر ظالماً له ؟ فقلت : فانا اطلقه واهب له ، واخلع عليه ، فاخذ عليّ عهد الله عزّ وجلّ وميثاقه ، وقام عن صدري ، وقد كادت نفسي تخرج .

فخرجت من عنده ووافيت موسى بن جعفر (ع) وهو في حبسه ، فرايته قائماً يصلي فجلست حتى سلم ، ثم ابلغته سلام امير المؤمنين ، واعلمته بالذي امرني به في امره ، واني قد احضرت ما وصله به ، قال :

---

(٢٣) العلاّمة المجلسي خصص في موسوعته بحار الأنوار الجزء ٤٨ جزءاً مفصلاً ( من ص ٢٩ – ١٠٠ ) حول بعض معاجزه .

إن كنت امرت بشيء غير هذا فافعله ؟ فقلت : لا وحق جدّك رسول الله ما امرت إلاّ بهذا ، فقال : لا حاجة لي في الخلع والحملان والمال إذ كانت فيه حقوق الأمة فقلت : ناشدتك بالله أن لا ترده فيغتاظ ، فقال : إعمل به ما احببت ، واخذت بيده (ع) واخرجته من السجن .

ثم قلت له : يابن رسول الله اخبرني بالسبب الذي نلت به هذه الكرامة من هذا الرجل ، فقد وجب حقي عليك لبشارتي إياك ، ولما اجراه الله عزّ وجلّ علي يدي من هذا الأمر ، فقال (ع) : رايت النبي (ص) ليلة الأربعاء في النوم فقال لي : يا موسى انت محبوس مظلوم ؟ فقلت : نعم يا رسول الله محبوس مظلوم ، فكرر عليّ ذلك ثلاثاً ثم قال :

﴿ وإنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (الانبياء/١١١) اصبح غداً صائماً واتبعه بصيام الخميس والجمعة ، فإذا كان وقت الإفطار فصلّ اثنتي عشر ركعة تقرا في كلّ ركعة الحمد واثنتي عشرة مرة قل هو الله أحد ، فإذا صلّيت منها اربع ركعات فاسجد ثم قل : يا سابق الفوت يا سامع كلّ صوت يا محيي العظام وهي رميم بعد الموت ، اسالك باسمك العظيم الأعظم أن تصلي على محمد عبدك ورسولك وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وأن تعجل لي الفرج مما أنا فيه " ففعلت فكان الذي رايت [24] .

٢ – وقد دعا سيدنا الكاظم (ع) لإنقاذ بعض المؤمنين من شيعته من ظلم الطاغية ن فاستجاب الله دعاءه حيث جاء في التاريخ عن صالح بن واقد الطبري قال : دخلت على موسى بن جعفر فقال : يا صالح إنه يدعوك الطاغية يعني هارون فيحبسك في محبسه ويسالك عني فقل إني لا اعرفه ، فإذا صرت إلى محبسه فقل من اردت أن تخرجه فاخرجه بإذن الله تعالى ، فدعاني هارون من طبرستان فقال : ما فعل موسى بن جعفر فقد بلغني انه كان عندك ؟ فقلت : ما يدريني من موسى بن جعفر ؟ انت يا امير المؤمنين اعرف به وبمكانه ، فقال : اذهبوا به إلى الحبس ، فوالله إني لفي بعض اللّيالي قاعد واهل الحبس نيام إذ انا به يقول : يا صالح ، قلت : لبيك قال : صرت إلى ههنا ؟ فقلت : نعم يا سيدي ، قال: قم فاخرج واتبعني ، فقمت وخرجت ، فلما صرنا إلى بعض الطريق قال : صالح يا رسول الله محبوس مظلوم فكرر عليّ ذلك ثلاثاً ، ثم قال :

السلطان سلطاننا كرامة من الله اعطاناها ، قلت : يا سيدي فاين احتجز من هذا الطاغية ؟ قال : عليك ببلادك فارجع إليها فإنه لن يصل إليك ، قال صالح : فرجعت إلى طبرستان ، فوالله ما سال ولا ادري احبسني أم لا [25] .

٣ – وكان يؤدب شيعته على التقوى ، ويعطيه الرب نوراً يعلم به خباياهم ، فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن القاسم بن الحارث البطل ، عن مرازم قال : ( دخلت المدينة فرايت جارية في الدار التي نزلتها فعجبتني فاردت أن اتمتع منها فابت أن تزوجني نفسها ، فجئت بعد العتمة فقرعت الباب فكانت هي

---

(٢٤) المصدر : ( ص ٢١٣ – ٢١٥ ) .

(٢٥) المصدر : ( ص ٦٦ ) .

التي فتحت لي ، فوضعت يدي على صدرها فبادرتني حتى دخلت ، فلما اصبحت دخلت على أبي الحسن (ع) فقال : يا مرازم ليس من شيعتنا من خلا ثم لم يرع قلبه )[26] .

٤ – وينتفع بعلمه الإلهي في سبيل تربية شيعته على الانضباط ، باعتباره ضرورة قصوى في سائر حقول الحياة ، وبالذات حقل الجهاد ، جاء في الآثار :

عن محمد بن الحسين بن علي عن حسان الواسطي ، عن موسى بن بكر قال : ( دفع إليّ ابو الحسن الأول (ع) رقعة فيها حوائج وقال لي : إعمل بما فيها ، فوضعتها تحت المصلّى ، وتوانيت عنها ، فمررت فإذا الرقعة في يده ، فسالني عن الرقعة فقلت : في البيت ، فقال : يا موسى إذا أمرتك بالشيء فاعمله وإلاّ غضبت عليك )[27] .

٥ – وربما اقتضى الأمر الإعجاز بهدف تاديب الشيعة على التواضع للحق ، والإبتعاد عن الكبر والتعالي للارتفاع بهم إلى مستوى ( حزب الله ) الذين لا يتمايزون عن بعضهم بما يملكون من مال أو علم أو منصب ، دعنا نقرا معاً قصة علي بن يقطين ، وهو وزير في سلطان الطغاة ، وبحكم منصبه ربما أخذه الغرور وتعالى على سائر المؤمنين ، لننظر كيف يؤدبه الإمام ، ويستخدم قدرته الإلهية لتربية روح التقوى فيه .

عن محمد بن علي الصوفي قال : ( استاذن إبراهيم الجمّال رضي الله عنه على ابي الحسن علي بن يقطين الوزير فحجبه ، فحج علي بن يقطين في تلك السنّة فاستاذن بالمدينة على مولانا موسى بن جعفر فحجبه ، فراه ثاني يومه فقال علي بن يقطين : سيدي ما ذنبي ؟ فقال : حجبتك لانك حجبت اخاك إبراهيم الجمال ، وقد ابى الله ان يشكر سعيك او يغفر لك حجب إبراهيم الجمّال ، فقلت : يا سيدي ومولاي من لي بإبراهيم الجمّال في هذا الوقت وانا بالمدينة وهو بالكوفة ؟ فقال : إذا كان الليل فامض إلى البقيع وحدك من غير ان يعلم بك احد من اصحابك وغلمانك واركب نجيباً هناك مسرجاً ، قال : فوافى البقيع وركب النجيب ولم يلبث ان اناخه على باب إبراهيم الجمّال بالكوفة ، فقرع الباب وقال : انا علي بن يقطين. فقال إبراهيم الجمّال من داخل الدار : وما يعمل علي بن يقطين الوزير ببابي ؟! فقال علي بن يقطين : يا هذا إن امري عظيم ، وآلى عليه ان ياذن له ، فلما دخل قال : يا إبراهيم إن المولى (ع) ابى ان يقبلني أو تغفر لي ، فقال : يغفر الله لك فآلى علي بن يقطين على إبراهيم الجمّال ان يطا خده فامتنع ابراهيم من ذلك ، فآلى عليه ثانياً ففعل ، فلم يزل ابراهيم يطا خده ، وعلي بن يقطين يقول : اللهم اشهد ، ثم انصرف وركب النجيب واناخه من ليلته بباب المولى موسى بن جعفر (ع) بالمدينة ، فاذن له ودخل عليه فقبله )[28] .

---

(٢٦) المصدر : ( ص ٤٥ ) .

(٢٧) المصدر : ( ص ٤٤ ) .

(٢٨) المصدر / ( ص ٨٥ ) .

٦ – باعتباره قائد المسلمين ، وخليفة رسول الله (ص) الذي تحلّى بمكارم الخلق المحمدي ، فإنه كان رحيماً بالمؤمنين عزيزاً عليه ما عندتم .

وكثيراً ما كان ينظر بنور الله فيرى الضر الذّي قد يلحق بهم فيبادر برفعه عنهم بطريقة او باخرى حتى ولو كان من النوع الفردي او الجزئي ، دعنا نقرأ معاً القصة التالية :

عن إبراهيم بن عبد الحميد قال : ( كتب إليّ ابو الحسن (ع) – قال عثمان بن عيسى وكنت حاضراً بالمدينة – : تحوّل عن منزلك ، فاغتمَّ بذلك ، وكان منزله منزلاً وسطاً بين المسجد والسوق ، فلم يتحوّل ، فعاد إليه الرسول : تحوّل عن منزلك ، فبقي ، ثم عاد إليه الثالثة : تحوّل عن منزلك ، فذهب وطلب منزلاً وكنت في المسجد ، ولم يجيء إلى المسجد إلاّ عتمة فقلت له : ما خلّفك ؟ فقال : ما تدري ما أصابني اليوم ؟ قلت : لا ، قال : ذهبت أستقي الماء من البر لأتوضا فخرج الدلو مملوءاً خرءاً وقد عجّنا خبزنا بذلك الماء ، فطرحنا خبزنا وغسلنا ثيابنا ، فشغلني عن المجيء ، ونقلت متاعي إلى البيت الذي اكتريته ، فليس بالمنزل إلاّ الجارية ، الساعة انصرف وآخذ بيدها ، فقلت : بارك الله لك ، ثم افترقنا ، فلمّا كان سحراً خرجنا إلى المسجد فقال : ما ترون ما حدث في هذه الليلة ؟ قلت : لا " قال : سقط والله منزلي ، السفلى والعليا ) [29] .

هكذا قدم الإمام نصيحته لشيعته في مسالة حياتية جزئية ولكنها هامة بالنسبة إلى الفرد المؤمن صاحب المسالة ، وفي واقعة اخرى نجد الإمام ينصح الفرد في مسالة تجارية تبدو هي الأخرى جزئية ولكنها تكشف عن حقيقة الإهتمام بامور المسلمين ، والواقعة رويت هكذا :

عن الحسن بن علي بن النعمان ، عن عثمان بن عيسى قال : ( ابو الحسن (ع) لإبراهيم بن عبد الحميد ، ولقيه سحراً وإبراهيم ذاهب إلى قبا ، وابو الحسن (ع) داخل الى المدينة فقال : يا إبراهيم فقلت : لبيك ، قال : إلى اين ؟ قلت : الى قبا ، فقال : في اي شيء ؟ فقلت : إنّا كنا نشتري في كل سنة هذا التمر فاردت ان آتي رجلا من الأنصار فاشتري منه من الثمار ، فقال : وقد امنتم الجراد ، ثم دخل ومضيت انا فاخبرت ابا العز ، فقال : لا والله لا اشتري العام نخلة ، فما مرت بنا خامسة ، حتى بعث الله جراداً فاكل عامة مافي النخل ) [30] .

## علم الإمامة :

إن قاعدة الرسالات الإلهية قائمة على اساس الإيمان بالغيب ، وابرز مظاهر الغيب هو العلم به من قبل عباد الله المقربين ، اوليس ذات الكتاب الذي يوحى إلى النبي – ايّ نبي – ويؤمر الناس باتباعه من الغيب ؟

كيف علّم الله رسوله النبي الأمي كل تلك الرسالة العظيمة وذلك الكتاب الكريم ، الذي تحدّى العالمين

---

(٢٩) المصدر : ( ص ٤٥ ٤٦ ) .

(٣٠) المصدر : ( ص ٤٦ ، الرقم ٣٠ ) .

ان يأتوا بمثل بعض سوره أو آياته .

إننا نقرأ في الكتاب حجة عيسى ابن مريم على قومه أن ينبئهم بما يدّخرون في بيوتهم .

وهكذا يكون علم الإمام الإلهي الذي تجاوز حدود علم الناس دليلاً على انه مؤيد بالله ، وأنه الإمام ، والحجة على الناس أجمعين .

كيف يكون هذا العلم ؟ هل يكون عبر توارث الحديث عن رسول الله عن جبرائيل عن الله ، أم عبر نكت في القلوب ونقرٍ في الأسماع ، أو عبر عمود من نور ينظر إليه الإمام متى شاء الله أن يعلم شيئاً فيعلم ، أم بنزول الروح — وهو اعظم من الملائكة — عليه ليلة القدر ؟!

الصحيح أن كل ذلك وربما غير ذلك مما لا نعلم من سبل العلم الإلهي يكون طريق علم الإمام ، ولم نكلف نحن بمعرفة تفاصيل ذلك ، إنما يكفينا ان الإمام يعلم — بإذن الله — بما يجهله الناس ، وبذلك يفضّل عليهم ، ولا بدّ أن يكون مطاعاً فيهم بإذن الله .

جاء في حديث شريف عن ابي عبد الله الصادق (ع) :

" قال قلت : اخبرني عن علم عالمكم ؟ قال : وراثة من رسول الله (ص) ومن علي بن ابي طالب (ع) ، فقلت : إنّا نتحدث انه يقذف في قلبه أو ينكت في إذنه ، فقال : أو ذاك "[31] .

اي لعله يكون ذلك .

والإمام الكاظم نطق بعلم الرسالة في كافة الحقول ، ويكفيك وصيته لهشام التي تعتبر خلاصة حكم الأنبياء ، وزبدة رؤى الرسالات ، وما نذكره فيما يلي رشح من بحر علمه الزاخر :

١ — روي أن إسحاق بن عمار قال : ( لما حبس هارون ابا الحسن موسى (ع) دخل عليه ابو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، صاحبا ابي حنيفة فقال احدهما للاخر : نحن على احد الأمرين ، إما ان نساويه او نشكله ، فجلسا بين يديه ، فجاء رجل كان موكلاً من قبل السندي بن شاهك ، فقال : ان نوبتي قد انقضت وانا على الإنصراف فإن كان لك حاجة امرتني حتى آتيك بها في الوقت الذي تخلفني النوبة ؟ فقال : مالي حاجة ، فلما أن خرج قال لأبي يوسف :

( ما اعجب هذا يسالني ان اكلفه حاجة من حوائجي ليرجع وهو ميت في هذه الليلة ) .

فقاما فقال احدهما للآخر : إنا جئنا لنساله عن الفرض والسنّة وهو الآن جاء بشيء آخر كانه من علم الغيب .

ثم بعثا برجل مع الرجل فقالا : إذهب حتى تلزمه وتنظر ما يكون من امره في هذه الليلة وتاتينا بخبره من الغد ، فمضى الرجل فنام في مسجد في باب داره ، فلما اصبح سمع الواعية ورأى الناس يدخلون داره فقال : ما هذا ؟ قالوا قد مات فلان في هذه الليلة فجاة من غير علة ، فانصرف إلى ابي يوسف

---

(٣١) بحار الانوار : ( ج ٢ ، ص ١٧٤ ) .

ومحمد واخبرهما الخبر ، فاتيا ابا الحسن (ع) فقالا : قد علمنا انك ادركت العلم في الحلال والحرام فمن اين ادركت أمر هذا الرجل الموكل بك انه يموت في هذه الليلة ؟ قال :

( من الباب الذي لخبر بعلمه رسول الله (ص) علي بن ابي طالب (ع) ) . فلمّا ردّ عليهما هذا بقيا لا يحيران جواباً ) [٣٢] .

هكذا اوتي الإمام موسى بن جعفر (ع) علم المنايا كما اوتي ذلك من قبل انبياء الله واوليائه الكرام .

٢ – وكذلك اوتي علم منطق الناس بإذن الله تعالى ، فقد جاء في الحديث عن ابن ابي حمزة قال : (كنت عند أبي الحسن موسى (ع) إذ دخل عليه ثلاثون مملوكاً من الحبشة اشتروا له ، فتكلم غلام منهم فكان جميلاً بكلام فاجابه موسى (ع) بلغته ، فتعجب الغلام وتعجبوا جميعاً وظنوا انه لا يفهم كلامهم ، فقال له موسى ، إني لادفع إليك مالاً فادفع إلى كل منهم ثلاثين درهماً ، فخرجوا وبعضهم يقول لبعض : إنه أفصح منا بلغاتنا ، وهذه نعمة من الله علينا .

قال علي بن أبي حمزة ، فلما خرجوا قلت : يابن رسول الله رأيتك تكلم هؤلاء الحبشيين بلغاتهم ؟! قال : نعم ، قال : وامرت ذلك الغلام من بينهم بشيء دونهم ؟ قال : نعم امرته أن يستوصي باصحابه خيراً ، وان يعطي كل واحد منهم في كل شهر ثلاثين درهماً ، لانه لما تكلم كان أعلمهم فإنه من ابناء ملوكهم ، فجعلته عليهم واوصيته بما يحتاجون إليه ، وهو مع هذا غلام صدق ، ثم قال : لعلك عجبت من كلامي إياهم بالحبشة ؟ قلت : إي والله قال : ( لا تعجب فما خفي عليك من امري أعجب واعجب ، وما الذي سمعته مني إلاّ كطائر أخذ بمنقاره من البحر قطرة ، أفترى هذا الذي يأخذه بمنقاره ينقص من البحر ؟! والإمام بمنزلة البحر لا ينفد ما عنده وعجائبه اكثر من عجائب البحر ) [٣٣] .

٣ – وجاء في حديث آخر يرويه علي بن حمزة قال : ( ارسلني ابو الحسن (ع) إلى رجل قدّامه طبق يبيع بفلس فلس وقال : اعطه هذه الثمانية عشر درهماً وقل له : يقول لك ابو الحسن : انتفع بهذه الدراهم فإنها تكفيك حتى تموت ، فلما اعطيته بكى ، فقلت : وما يبكيك ؟ قال : ولم لا ابكي وقد نعيت إليّ نفسي ، فقلت : وما عند الله خير مما انت فيه ، فسكت وقال : من انت يا عبد الله ؟ فقلت علي بن أبي حمزة ، قال : والله لهكذا قال لي سيدي ومولاي اني باعث إليك مع علي بن أبي حمزة برسالتي ، قال علي : فلبثت نحواً من عشرين ليلة ثم اتيت إليه وهو مريض فقلت : اوصني بما احببت انفذه من مالي ، قال : إذا انا متّ فزوج ابنتي من رجل دين ، ثم بع داري وادفع ثمنها إلى ابي الحسن ، واشهد لي بالغسل والدفن والصلاة . قال : فلما دفنته زوّجت ابنته من رجل مؤمن وبعت داره وأتيت بثمنها إلى ابي الحسن (ع) فزكاه وترحم عليه وقال : رد هذه الدراهم فادفعها إلى ابنته ) [٣٤] .

---

(٣٢) المصدر : ( ص ٦٤ ، ٦٥ ) .

(٣٣) المصدر . ( ص ٧٠ ) ( ٩٣/ ) .

(٣٤) المصدر : ( ص ٧٦ ) .

٤ – وإذا كان علم الأئمة من الله ، فإن الله سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض ، وقد تقضي حكمته أن يجعل علمه عند صبي في المهد ، كما فعل بالمسيح عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا (ع) ، وهكذا أظهر قدرته في شخص الإمام الكاظم (ع) حيث جاء في حديث شريف مأثور عن عيسى شلقان قال : ( دخلت على أبي عبد الله (ع) وأنا أريد أن أسأله عن أبي الخطاب فقال لي مبتدئاً من قبل أن أجلس : ما منعك أن تلقى ابني موسى فتسأله عن جميع ما تريد ؟ قال عيسى : فذهبت إلى العبد الصالح (ع) وهو قاعد في الكتّاب وعلى شفتيه أثر المداد فقال لي مبتدئاً : يا عيسى إن الله أخذ ميثاق النبيين على النبوة فلم يتحوّلوا عنها ، وأخذ ميثاق الوصيين على الوصية فلم يتحولوا عنها أبداً ، وإن قوماً إيمانهم عارية ، وإن أبا الخطاب ممن أعير الإيمان فسلبه الله إياه ، فضممته إليّ وقبلت ما بين عينيه وقلت : ذرية بعضها من بعض .

ثم رجعت إلى الصادق (ع) فقال : ما صنعت ؟ قلت : أتيته فأخبرني مبتدئاً من غير أن أسأله عن جميع ما أردت ، فعلمت عند ذلك أنه صاحب هذا الأمر ، فقال : يا عيسى إن ابني هذا الذي رأيت لو سألته عما بين دفتي المصحف ، لأجابك فيه بعلم ثم أخرجه ذلك اليوم من الكتاب )[٣٥] .

٥ – حينما يسقط الحجاب بين الرب وعبده ، وحينما يبلغ الصفاء الروحي والمعرفة الإلهية القمة ، فإن الدنيا تأتي مطيعة للعبد الصالح ، كما قال الله في الحديث القدسي :

" عبدي ، أطعني تكن مِثلي ( أو مَثَلي ) أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

هكذا يروي لنا شقيق البلخي جانباً من الكرامة التي خصها الله تعالى لإمامنا السابع موسى بن جعفر (ع) فيقول : ( خرجت حاجّاً في سنة تسع وأربعين ومائة ، فنزلت القادسية فبينا أنا أنظر إلى الناس في زينتهم وكثرتهم ، فنظرت إلى فتى حسن الوجه شديد السمرة ضعيف ، فوق ثيابه ثوب من صوف مشتمل بشملة ، في رجليه نعلان وقد جلس منفرداً ، فقلت في نفسي : هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كلا على الناس في طريقهم ، والله لأمضين إليه ولأوبخنه ، فدنوت فلما رآني مقبلاً قال : يا شقيق :

﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات/١٢)

ثم تركني ومضى ، فقلت في نفسي إن هذا الأمر عظيم قد تكلم بما في نفسي ونطق باسمي ، وما هذا إلاّ عبد صالح لألحقنه ولأسألنه أن يحللني ، فأسرعت في أثره فلم ألحقه وغاب عن عيني ، فلما نزلنا واقصة وإذا به يصلّ وأعضاؤه تضطرب ، ودموعه تجري فقلت : هذا صاحبي أمضي إليه واستحلّه .

فصبرت حتى جلس ، وأقبلت نحوه فلما رآني مقبلاً قال : يا شقيق اتلُ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه/٨٢)

ثم تركني ومضى ، فقلت : إن هذا الفتى لَمِنَ الأبدال ، لقد تكلّم على سرّي مرتين ، فلما نزلنا زُبالة إذا

---

(٣٥) المصدر : ( ص ٥٨ ) .

بالفتى قائم على البئر وبيده ركوة يريد أن يسقي ماءً ، فسقطت الركوة من يده في البئر وانا انظر إليه ، فرايته قد رمق السماء وسمعته يقول :

انـت ربـي إذ ظمئـت إلـى المـاء وقوتـي إذا اردت الطعـامـا

" اللهم سيدي مالي غيرها فلا تعدمنيها " .

قال شقيق : فوالله لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤها فمد يده واخذ الركوة وملأها ماءً ، فتوضا وصلى اربع ركعات ، ثم مال إلى كثيب رمل فجعل يقبض بيده ويطرحه في الركوة ويحركه ويشرب ، فاقبلت إليه وسلّمت عليه ، فرد عليّ السلام فقلت : أطعمني من فضل ما أنعم الله عليك ، فقال : يا شقيق لم تزل نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة فاحسن ظنك بربك ، ثم ناولني الركوة فشربت منها فإذا هو سويق وسكّر ، فوالله ما شربت الذّ منه ولا اطيب ريحاً فشبعت ورويت واقمت اياماً لا اشتهي طعاماً ولا شراباً .

ثم لم أره حتى دخلنا مكة ، فرايته ليلة إلى جنب قبة الشراب في نصف الليل قائما يصلي بخشوع وأنين وبكاء ، فلم يزل كذلك حتى ذهب الليل ، فلما رأى الفجر جلس في مصلاه يسبّح ، ثم قام فصلّى الغداة وطاف بالبيت اسبوعاً وخرج فتبعته ، وإذا له غاشية وموال وهو على خلاف ما رايته في الطريق ، ودار به الناس من حوله يسلّمون عليه ، فقلت لبعض من رأيته بقرب منه : من هذا الفتى ؟ فقال : هذا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) فقلت : قد عجبت أن تكون هذه العجائب إلا لمثل هذا السيد ، ولقد نظم بعض المتقدّمين واقعة شقيق معه في أبيات طويلة اقتصرت على ذكر بعضها فقال :

سـل شقيـق البلخـي عنـه وما عـا يـن منـه ومـا الـذي كـان ابصـرْ

قـال لمـا حججـت عاينـت شخصـاً شاحب اللـون ناحـل الجسـم اسمـرْ

سائـراً وحـده وليـس لـه زا د فمـازلـت دائمـا اتفكّـرْ

وتـوهمـت انـه يسـال النـا سّ ولـم أدر أنـه الحـج الأكبـر

ثـم عـاينتـه ونحـن نـزول دون فيـد عَلـى الكثيـب الأحمـر

يضـع الرمـل فـي الإنـاء ويشربـ ـهُ فنـاديتـه وعقلـي محيّـر

أسقنـي شـربـة فنـاولني منـ ـهُ فعـاينتـه سويقـاً وسكّـر

فسالـت الحجيـج مـن يـك هـذا ؟ قيل هـذا الإمـام موسـى بـن جعفـر [36] .

---

(٣٦) المصدر : ( ص ٨٠ - ٨٢ ) .

الفصل الرابع

# خلقه وفضائله

## خلقه وفضائله :

إنما جعل الله انبياءه وحملة رسالاته من البشر ، لكي تتم الحجة على الناس فيقتدوا بهم ، ولو كانوا ملائكة لكان الناس يقولون مالنا والملائكة ، اوليسوا من جنس آخر ؟

بلى وإن الإنسان مفطور على حب الفضيلة ، وإذا تجسدت في شخص ازداد لها حباً ، ودفعته دواعي الخير في ذاته إلى اتباعه ، والسعي لكي يكون مثله .

إنك لو القيت على شخص محاضرة مفصّلة عن فضيلة الإحسان فإنه لا يندفع بقدر ما لو حكيت له قصة رجل محسن .

إن مكارم أخلاق الأئمة من أهل البيت (ع) افضل منهاج تربوي ، وانهم — بحق — أسمى قدوات الخير والفضيلة ، وإن سيرة حياتهم الحافلة بالمكرمات اقوى حجة على سلامة نهجهم في التربية وسلامة خطتهم في الحياة ، وإن افكارهم التي تناقلتها الرواة هي التفسير الصحيح للقرآن الحق ، اوليسوا من البشر ؟ إذاً كيف بلغوا هذا الشان من العظمة ، الم يبلغوه بتطبيق هذه الأفكار التي رويت عنهم ؟ بلى ، اولسنا نحن ايضاً نريد العظمة ؟ إذاً دعنا نقرا تلك الأفكار ونتفاعل معها .

والواقع ان التاريخ لم يحفظ لنا من سيرة الأئمة إلاّ قليلاً ، لأنهم كانوا محاصرين إعلامياً من قبل سلطات الجور حتى ان رواية فضيلة لهم كانت تكلّف في بعض العصور حياة الراوي ، وكان على الشاعر دعبل ان يحمل على كتفه خشبة إعدامه لمدة ربع قرن ، ويهيم على وجهه في القفار لأنه كان يمدح اهل البيت . ومع ذلك فإن ما تبقّى من فضائلهم يعتبر دورة تربوية كاملة لمكارم الأخلاق .

ولأن عاش إمامنا الكاظم (ع) في أشد أيام الصراع واصعب اوقات التقيّة وسرّية العمل ، فإن اختراق قصصه لحصار السلطات يعتبر معجزة ، وعلينا ان نستدل بما وصلتنا من قصصه وهي قليلة على ما لم تصل إلينا وهي الأكثر .

## أ — عبادته وزهده :

من أبرز سمات القيادات الرسالية الزهد ، والتقشف والإجتهاد في التبتل إلى الله تعالى ، وقد كان عصر الإمام الكاظم (ع) معروفاً بالعصر الذهبي ، وكانت بيوت السلطة العباسية تفيض بالثروات الطائلة، وتشهد حفلات المجون ، كالتي نقرا بعضها في قصص الف ليلة وليلة ، وفي ذات الوقت ينقل إبراهيم بن

عبد الحميد ويقول : ( دخلت على أبي الحسن الأول (ع) في بيته الذي كان يصلي فيه فإذا ليس في البيت شيء إلاّ حضفة [37] وسيف معلق ومصحف ) [38] .

وكان (ع) يسعى إلى بيت الله الحرام ماشياً لشدة تواضعه لله ، واجتهاده في العبادة ، وإذا عرفنا المسافة بين المدينة ومكة التي تقارب ( ٤٠٠) كليو متر وطبيعة الصحراء في أرض الحجاز ، عرفنا مدى تحمل الإمام للصعاب في سبيل الله .

يقول علي بن جعفر (ع) : ( خرجنا مع أخي موسى بن جعفر (ع) في أربع عُمَرٍ يمشي فيها إلى مكة بعياله وأهله ، واحدة منهن مشى فيها ستة وعشرين يوماً ، وأخرى خمسة وعشرين يوماً ، وأخرى أربعة وعشرين يوماً ، وأخرى واحداً وعشرين يوماً ) [39] .

أما شدة اجتهاده في الصلاة وهي قرة عين المؤمنين وملتقى الحبيب مع الحبيب فيقول عنها الحديث التالي :

" روي أنه كان يصلي نوافل الليل ، ويصلها بصلاة الصبح ، ثم يعقب حتى تطلع الشمس ، ويخر لله ساجداً فلا يرفع رأسه من السجدة والتحميد حتى يقرب زوال الشمس ، وكان يدعو كثيراً فيقول : اللهم إني أسالك الراحة عند الموت ، والعفو عند الحساب ، ويكرر ذلك ، وكان من دعائه (ع) عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك ، وكان يبكي من خشية الله حتى تخضلّ لحيته بالدموع ، وكان أوصل الناس لأهله ورحمه ، وكان يفتقد فقراء المدينة " [40] .

والواقع أن اجتهاد الإمام في عبادة ربه والتبتل إليه بالصلوات والأدعية ، هو السبب الذي بعثه الله به مقاما محموداً . وهو الذي أعطاه قدرة تحمل أعباء الرسالة التي نهض بها وضحّى بما لديه في سبيل تبليغها ، وكانت صلواته أعظم مؤنس له في ظلِّ ظُلم الطغاة ، فهذا أحمد بن عبد الله ينقل عن أبيه فيقول : ( دخلت على الفضل بن الربيع وهو على سطح فقال لي : إشرف على هذا البيت وانظر ما ترى ؟ فقلت : ثوباً مطروحا فقال : أنظر حسناً فتأملت فقلت : رجل ساجد ، فقال لي : تعرفه ؟ هو موسى بن جعفر أتفقّده الليل والنهار فلم أجده في وقت من الأوقات إلاّ على هذه الحالة ، إنه يصلي الفجر فيعقب إلى أن تطلع الشمس ثم يسجد سجدة ، فلا يزال ساجداً حتى تزول الشمس ، وقد وكّل من يترصّد أوقات الصلاة ، فإذا أخبره وثب يصلّي من غير تجديد وضوء ، وهو دأبه فإذا صلّى العتمة أفطر ، ثم يجدد الوضوء ثم يسجد فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر ، وقال بعض عيونه : كنت أسمعه كثيراً يقول في دعائه :

---

(٣٧) الحضفة : الحيكة تعمل من الخوص للتمر ، وأيضاً يقال للثوب الغليظ جداً .

(٣٨) المصدر : ( ص ١٠٠ ) .

(٣٩) المصدر .

(٤٠) المصدر : ( ص ١٠٢ ) .

" اللهم إنك تعلم انني كنت أسالك أن تفرّغني لعبادتك ، اللهم وقد فعلت فلك الحمد "[41] .

أما قراءته للقرآن ، فيحدثنا عنها حفص ويقول : ( ما رأيت أحداً أشد خوفاً على نفسه من موسى بن جعفر (ع) ولا أرجى للناس منه ، وكانت قراءته حزناً ، فإذا قرأ فكأنه يخاطب إنساناً[42] .

لقد علّمه القرآن الكريم أسمى القيم ، ومن أبرزها الإشفاق على نفسه ، والسعي الدائب لتزكيتها وخلاصها من غضب الرب ، وإصلاحها لتكون موضع محبة الخالق ورضوانه .

بينما كان يرجو للناس كل خير ، ولم يكن رجاؤه مجرداً عن العمل ، بل كان (ع) يتقرب إلى الله بالإحسان إلى الناس ، فقد كان يتفقد فقراء أهل البيت فيحمل إليهم في الليل العين والورق وغير ذلك ، فيوصله إليهم وهم لا يعلمون من أي جهة هو )[43] .

## ب - جوده وكرمه :

بالتوكل على الله واليقين يعظم ثواب المحسنين عنده ، والثقة بأنه الرزاق ذو القوة المتين . يعطي المؤمن عطاءً لا يخشى الفقر ، وأئمة الهدى هم المثل الأسمى في الكرم والجود ، فهذا الإمام موسى بن جعفر (ع) مع ما كان يعيشه من ظروف قاسية ، اشتهر بهذه الصفة في الآفاق .

جاء في التاريخ رواية مأثورة عن محمد بن عبد الله البكري ، قال :

( قدمت المدينة أطلب ديناً فأعياني ، فقلت لو ذهبت إلى أبي الحسن (ع) فشكوت إليه ، فأتيته بنقمي في ضيعته ، فخرج إليّ ومعه غلام ومعه منسف فيه قديد مجزع ، ليس معه غيره ، فأكل فأكلت معه ، ثم سألني عن حاجتي فذكرت له قصّتي ، فدخل ولم يقم إلاّ يسيراً حتى خرج إليّ فقال لغلامه : إذهب ثم مدّ يده إليّ فناولني صرة فيها ثلاثمائة دينار ، ثم قام فولى فقمت فركبت دابّتي وانصرفت )[44] .

وروي عن أبي الفرج في مقاتل الطالبيين عن يحيى بن الحسن قال : ( كان موسى بن جعفر (ع) إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصرة دنانير ، وكانت صراره ما بين الثلاثمائة إلى المائتين دينار ، فكانت صرار موسى مثلاً )[45] .

وجاء في حكاية تاريخية طريفة أن المنصور العباسي تقدم إلى موسى بن جعفر (ع) بالجلوس للتهنئة في يوم النيروز ، وقبض ما يحمل إليه فقال (ع) :

" إني قد فتشت الأخبار عن جدي رسول الله (ص) فلم أجد لهذا العيد خبراً ، وإنه سنة للفرس ومحاها الإسلام ، ومعاذ الله أن نحيي ما محاه الإسلام " .

---

(٤١) المصدر : ( ص ١٠٧ ، ١٠٨ ) .

(٤٢) المصدر : ( ص ١١١ ) .

(٤٣) المصدر : ( ص ١٠٨ )

(٤٤) المصدر : ( ص ١٠٢ ) .

(٤٥) مقاتل الطالبيين ( ص ١٠٤ )

فقال المنصور : إنما تفعل هذا سياسة للجند ، فسالتك بالله العظيم إلاّ جلست ، فجلس ودخلت عليه الملوك والأمراء والأجناد يهنئونه ، ويحملون إليه الهدايا والتحف ، وعلى رأسه خادم المنصور يحصي ما يحمل ، فدخل في آخر الناس رجل شيخ كبير السن فقال له : يا ابن بنت رسول الله إني رجل صعلوك لا مال لي أتحفك ولكن اتحفك بثلاثة أبيات قالها جدّي في جدّك الحسين بن علي (ع) :

| | |
|---|---|
| عجبـــت لمصقـــول عـــلاك فرنـــده | يـــوم الهيـــاج وقـــد عـــلاك غبـــار |
| ولأسهـــم نفذتـــك دون حـــرائـــر | يدعـــون جـــدك والـــدمـــوع غـــزار |
| الا تغضغضـــت السِّهـــام وعـــاقهـــا | عـــن جسمـــك الإجـــلال والإكبـــار |

قال : قُبلت هديتك ، إجلس بارك الله فيك ، ورفع رأسه إلى الخادم وقال : إمضي إلى أمير المؤمنين وعرّفه بهذا المال وما يصنع به ، فمضى الخادم وعاد وهو يقول : كلّها هبة منّي له ، يفعل به ما أراد ، فقال موسى للشيخ : إقبض جميع هذا المال فهو هبة مني لك ) [٤٦] .

وكان يلقى بكرمه عدوه فإذا به يصبح ولياً حميماً ، فهذا شخص من أولاد الخليفة الثاني كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى (ع) ويسبه إذا رآه ، ويشتم علياً ، فقال له بعض حاشيته يوماً : دعنا نقتل هذا الفاجر ، فنهاهم عن ذلك أشد النهي وزجرهم ، وسأل عن العمري فذكر انه يزرع ناحية من نواحي المدينة ، فركب إليه ، فوجده في مزرعة له ، فدخل المزرعة بحماره ، فصاح به العمري لا توطىء زرعنا، فتوطاه (ع) بالحمار حتى وصل إليه ونزل وجلس عنده ، وباسطه وضاحكه ، وقال له : كم غرمت على زرعك هذا ؟ قال : مائة دينار ، قال : فكم ترجو أن تصيب ؟ قال : لست أعلم الغيب ، قال له : إنما قلت كم ترجو أن يجيئك فيه ؟ قال : أرجو أن يجيء مائتا دينار .

قال : فأخرج له أبو الحسن (ع) صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال هذا زرعك على حاله ، والله يرزقك فيه ما ترجو ، قال : فقام العمري فقبل رأسه وسأله أن يصفح عن فارطه ، فتبسم إليه أبو الحسن وانصرف ، قال : وراح إلى المسجد فوجد العمري جالساً فلما نظر إليه قال : الله أعلم حيث يجعل رسالاته قال : فوثب أصحابه إليه فقالوا له : ما قضيتك ؟ قد كنت تقول غير هذا ، قال : فقال لهم : قد سمعتم ما قلت الآن ، وجعل يدعو لأبي الحسن (ع) فخاصموه وخاصمهم ، فلما رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري : إيَّما كان خيراً ما أردتم أم ما أردت ؟ إنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكُفيت به شره [٤٧] .

## ج- علمه (ع) :

سبق الحديث عن علم الإمام ونعود هنا لنثبت رواية طريفة في علمه ، حيث ينقل عن محمد بن النعمان المعروف بأبي حنيفة إمام المذهب انه قال :

---

(٤٦) المصدر : ( ص ١٠٨ ) .

(٤٧) المصدر : ( ج ٥٦ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ) .

( رأيت موسى بن جعفر وهو صغير السن في دهليز أبيه ، فقلت : أين يحدث الغريب منكم إذا أراد ذلك ؟ فنظر إليّ ثم قال : يتوارى خلف الجدار ويتوقّى عن أعين الجار ، ويتجنب شطوط الأنهار ومساقط الثمار ، وأفنية الدور والطرق النافذة ، والمساجد ، ولا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ، ويرفع ويضع ذلك حيث شاء .

قال : فلما سمعت هذا القول منه ، نبل في عيني ، وعظم في قلبي فقلت له : جعلت فداك ممن المعصية ؟ فنظر إليّ ثم قال : إجلس حتى أخبرك ، فجلست فقال : إن المعصية لابد أن تكون من العبد أو من ربه أو منهما جميعاً ، فإن كانت من الله تعالى فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ويأخذه بما لم يفعله ، وإن كانت منهما فهو شريكه ، والقوي أولى بإنصاف عبده الضعيف ، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر ، وإليه توجه النهي ، وله حق الثواب والعقاب ، ووجبت الجنة والنار فقلت :
﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ ( آل عمران / ٣٤) .

وروى عنه الخطيب في تاريخ بغداد ، والسمعاني في الرسالة القومية ، وأبو صالح أحمد المؤذن في الأربعين ، وأبو عبد الله بن بطة في الإبانة ، والثعلبي في الكشف والبيان ، وكان أحمد بن حنبل مع انحرافه عن أهل البيت (ع) لما روي عنه قال : حدثني موسى بن جعفر قال : حدثني أبي جعفر بن محمد وهكذا إلى النبي (ص) ثم قال أحمد : ( وهذا إسناد لو قُرِأ على المجنون أفاق ) .

## شجاعتــه واستقامتــه :

لقد حمل الإمام أعباء رسالات الأنبياء بذات العزيمة العظيمة التي كانت للنبيين (ع) . لقد تحدى كل طغيان الإستكبار ، وكل تراكمات الفساد بثقة مطلقة برب العالمين .

حينما يأتيه الفضل بن الربيع ويقول له : استعد للعقوبة يا أبا إبراهيم رحمك الله فقال (ع) : " أليس معي من يملك الدنيا والآخرة ولن يقدر اليوم على سوء بي إن شاء الله " :

وحينما يدخل على هارون الرشيد ذلك الطاغية الذي كان يخاطب مرة السحاب ويفتخر بسعة سلطانه ، فيقول : شرّقي غرّبي فأنى ذهبت فخراجك إليّ .

يقول له هارون : ما هذه الدار ؟

فقال الإمام : هذه دار الفاسقين ، قال الله تعالى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وإن يروْا كُلّ ءاية لاَيُؤْمنوا بها وإن يروْا سبيل الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (الاعراف/١٤٦)

فقال له هارون : فدار من هي ؟ قال : " هي لشيعتنا فترة ، ولغيرهم فتنة " .

قال : فما بال صاحب الدار لا يأخذها ؟ فقال : " أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلاّ معموره " .

قال فأين شيعتك ، فقرأ أبو الحسن (ع) :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِين مُنفكّين حتّى تأتيهُمُ الْبَيِّنةُ ﴾ (البينة/١)

قال : فقال له : فنحن كفّار ؟ قال : لا .. ولكن كما قال الله :

﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (ابراهيم/٢٨)

فغضب عند ذلك وغلّظ عليه [٤٨] .

ومن المعتقل حيث تحيط به جلاوزة السلطات المجرمون ، كتب رسالة إلى الرّشيد جاء فيها : " إنه لن ينقضيَ عنّي يوم من البلاء إلاّ انقض عنك معه يوم من الرضاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له إنقضاء يخسر فيه المبطلون " [٤٩] .

---

(٤٨) البحار : ج ٥٦ ( ص ٢٢٣ ) .

(٤٩) المصدر : ( ص ١٤٨ )

## الفصل الخامس

# محنتـه وشهادتـه

بعد محنة ابي عبد الله الحسين (ع) ، واكثر من سائر ائمة الهدى من اهل بيت الرسول ، كانت محنة ابي إبراهيم موسى بن جعفر (ع) شديدة واليمة .

لقد كان الرّشيد يترصده ولا يقدر عليه ، ولعله كان يخشى من بعث جيش إليه خوف انقلابه وتحوله إلى صفه ، وكانت السرّية التي عمل بها الرساليون تجعل السلطات لا تثق باقرب الناس إليهم ، فهذا علي بن يقطين وزير الرّشيد ، وذاك وزيره الآخر جعفر بن محمد بن الأشعث شيعيان ، كما كان من بين قيادات جيشه ، وابرز ولاته على الأمصار من يخفي ولائه لآل البيت (ع) ، فلذلك قرر الذهاب بنفسه إلى المدينة ، لإلقاء القبض عليه ، واخذ معه قوّاته الخاصة ، بالإضافة إلى جيش من الشعراء ، وعلماء السلاطين ، والمستشارين و. و. كما انه حمل معه الملايين مما سرقه من المحرومين ، فقسّمها بين الناس لشراء سكوتهم .

وخص منهم رؤساء القبائل ووجوه واعيان المعارضة .

هكذا ذهب الرّشيد إلى المدينة ليلقي القبض على اعظم معارضي سلطانه الغاصب ، لننظر ما فعل :

اولاً : جلس عدة ايام يستقبل الناس ويامر لهم بالصّلات السخية ، حتى اشبع بطون المعارضين ، ممن كانت معارضتهم للسلطة لأسباب شخصية ومصالح خاصة .

ثانياً : بعث في البلد من يبث الدعايات ضد اعداء السلطان ، واغرى الشعراء وعملاء السلطة من ادعياء الدين بمدح السلطان وإصدار الفتاوى بحرمة محاربته .

ثالثاً : استعرض قوّته لأهل المدينة لكي لا يفكر احد بمقاومته في هذا الوقت بالذات .

رابعاً : وحينما اكمل استعداده قام شخصياً بتطبيق البند الأخير من خطته الإرهابية ، فدخل مسجد رسول الله ، ربما في وقت يجتمع الناس لأداء الفريضة ، ولا يتخلف عنهم — بالطبع — الإمام موسى بن جعفر (ع) .

ثم تقدم إلى قبر الرسول وسلم عليه ، وقال : السلام عليك يا رسول الله ، يا ابن عم .

وكان هدفه إثبات شرعية خلافته لرسول الله ، لتكون سبباً وجيهاً لاعتقال الإمام (ع) ، ولكن الإمام فوّت عليه هذه الفرصة ، وشق الصفوف حتى تقدمها وتوجه إلى القبر الشريف وقال في ذهول الجميع : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا جدّاه .

فلإن كان رسول الله ابن عمك يا سلطان الجور ، وإنك تدّعي شرعية سلطتك بانتمائك النسبي لرسول الله (ص) ، فإنه أقرب إليّ ، فهو جدي وأنا أحقُّ بخلافته منك .

ولكن الرّشيد استدرك الموقف وقال وهو يبرّر عزمه على اعتقال الإمام بالقول :

بابي انت وأمي يا رسول الله ، إني أعتذر إليك من أمر عزمت عليه ، وإني أريد أن آخذ موسى بن جعفر فاحبسه ، لأني قد خشيت أن يلقي بين أمتك حرباً تسفك فيها دماؤهم .

فلما كان اليوم التالي أرسل إليه الفضل بن الربيع وهو قائم يصلي في مقام رسول الله ، فأمر بالقبض عليه وحبسه [50] .

وأخرج من داره بغلان عليهما قبتان مغطاتان هو في أحدهما ، ووجّه مع كل واحدة منهما خيلاً فأخذ بواحدة على طريق البصرة ، والأخرى على طريق الكوفة ، ليعمي على الناس أمره ، وكان الإمام في القبة التي مضت على البصرة ، وأمر الرسول أن يسلم إلى عيسى بن جعفر بن المنصور ، وكان والياً يومئذ على البصرة فمضى به فحبسه عنده سنة .

ثم كتب إلى الرّشيد أن خذه مني ، وسلّمه إلى من شئت ، وإلاّ خلّيت سبيله ، فقد اجتهدت بأن أجد عليه حجة ، فما أقدر على ذلك ، حتى أني لأتسمّع عليه إذا دعا لعله يدعو عليّ أو عليك فما أسمعه يدعو إلاّ لنفسه ، يسأله الرحمة والمغفرة ، فوجّه من تسلمه منه ، وحبسه عند الفضل بن الربيع ببغداد ، فبقي عنده مدة طويلة ، وأراده الرّشيد على شيء من أمره فأبى ، فكتب بتسليمه إلى الفضل بن يحيى ، فتسلّمه منه وأراد ذلك منه فلم يفعل ، وبلغه أنه عنده في رفاهية وسعة ، وهو حينئذ بالرقة .

فأنفذ مسروراً الخادم إلى بغداد على البريد ، وأمره أن يدخل من فوره إلى موسى بن جعفر (ع) فيعرف خبره ، فإن كان الأمر على ما بلغه أوصل كتاباً منه إلى العباس بن محمد وأمره بامتثاله ، وأوصل منه كتاباً آخر إلى السندي بن شاهك يأمره بطاعة العباس [51] .

وتمضي الرواية التاريخية لتقول : وبلغ يحيى بن خالد فركب إلى الرّشيد ودخل من غير الباب الذي يدخل الناس منه ، حتى جاءه من خلفه وهو لا يشعر ، ثم قال : التفت إليّ يا أمير المؤمنين فأصغى إليه فزعاً ، فقال له : إن الفضل حدث وأنا أكفيك ما تريد ، فانطلق وجهه وسرّ وأقبل على الناس فقال : إن الفضل كان عصاني في شيء فلعنته وقد تاب وأناب إلى طاعتي فتولوه ، فقالوا له : نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وقد توليناه . ثم خرج يحيى بن خالد بنفسه على البريد حتى أتى بغداد فماج الناس وأرجفوا بكل شيء ، فأظهر أنه ورد لتعديل السواد ، والنظر في أمر العمّال وتشاغل ببعض ذلك ، ودعا السندي فأمره فيه بأمره ، فامتثله وسأل موسى (ع) السندي عند وفاته أن يحضره مولى له ينزل عند دار العبّاس بن محمد في أصحاب القصب ليغسله ، ففعل ذلك ، قال : وسألته أن يأذن لي أن أكفّنه فأبى

---

(٥٠) المصدر : ( ص ٢١٣ )

(٥١) المصدر : ( ص ٢٣٣ ) .

وقال :

( إنا اهل البيت مهور نسائنا وحجّ صرورتنا ، واكفان موتانا من طاهر اموالنا ، وعندي كفني ) .

فلما مات ادخل عليه الفقهاء ووجوه اهل بغداد وفيهم الهيثم بن عدي وغيره فنظروا إليه ولا اثر به ، وشهدوا على ذلك واخرج فوضع على الجسر ببغداد ، ونودي : هذا موسى بن جعفر قد مات فانظروا إليه، فجعل الناس يتفرّسون في وجهه وهو (ع) ميت .

قال : وحدّثني رجل من بعض الطالبيّين انه نودي عليه : هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة انه لا يموت ، فانظروا إليه ، فنظروا إليه .

قالوا : وحمل فدفن في مقابر قريش ، فوقع قبره ، إلى جانب رجل من النوفليين يقال له عيسى بن عبد الله [٥٢] .

وتنقل الروايات التاريخية : ان الإمام (ع) كان يتصل بشيعته واهل دعوته من السجون التي يتناقل فيها ، ويامرهم بامره ، كما انه كان يجيب عن مسائلهم السياسية ، والفقهية .

وقد نتساءل : كيف كان (ع) يتصل بهم ، لعله بطرق غيبية ، ولكن احاديث كثيرة تبيّن لنا ان اكثر من سجن عندهم الإمام (ع) قالوا بإمامته ، بالرغم من ان السلطة كانت تختار سجّانه من بين اغلظ الناس واكثرهم ولاءً لها ، لما كانوا يرونه فيه من شدة الإجتهاد في العبادة ، وغزارة العلم ومكارم الأخلاق ، ولما كانوا يرونه منه من كرامات .

وفي كتاب الأنوار قال العامري : إن هارون الرشيد انفذ إلى موسى بن جعفر جارية خصيفة ، لها جمال ووضاءة لتخدمه في السجن ، فقال قل له : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (النمل/٣٦)

لا حاجة لي في هذه ولا في امثالها ، قال : فاستطار هارون غضباً وقال : إرجع إليه وقل له : ليس برضاك حبسناك ولا برضاك اخذناك ، واترك الجارية عنده وانصرف ، قال : فمضى ورجع ، ثم قام هارون عن مجلسه وانفذ الخادم إليه ليستفحص عن حالها فراها ساجدة لربها لا ترفع راسها تقول : قدوس سبحانك سبحانك .

فقال هارون : سحرها والله موسى بن جعفر بسحره ، عليّ بها ، فاتي بها وهي ترعد شاخصة نحو السماء بصرها فقال : ما شانك ؟ قالت : شاني الشان البديع ، إنّي كنت عنده واقفة وهو قائم يصلي ليله ونهاره ، فلما انصرف عن صلاته بوجهه وهو يسبح الله ويقدّسه قلت : يا سيدي هل لك حاجة اعطيكها ؟ قال : وما حاجتي إليك ؟ قلت : إني ادخلت عليك لحوائجك قال : فما بال هؤلاء ؟ قالت : فالتفت فإذا روضة مزهرة لا ابلغ آخرها من أولها بنظري ، ولا اولها من آخرها ، فيها مجالس مفروشة بالوشي والديباج ، وعليها وصفاء ووصائف لم ارَ مثل وجوههم حسناً ، ولا مثل لباسهم لباساً ، عليهم الحرير

---

(٥٢) المصدر : ( ص ٢٣٤ ) نقلاً عن كتاب الغيبة للطوسي : ( ص ٢٢ )

الأخضر ، والأكاليل والدرّ والياقوت ، وفي أيديهم الأباريق والمناديل ومن كل الطعام ، فخررت ساجدة حتى أقامني هذا الخادم فرأيت نفسي حيث كنت .

قال : فقال هارون : يا خبيثة لعلك سجدت فنمت فرأيت هذا في

منامك ؟ قالت : لا والله يا سيدي إلاّ قبل سجودي رأيت فسجدت من أجل ذلك ، فقال الرّشيد : إقبض هذه الخبيثة إليك ، فلا يسمع هذا منها أحد ، فاقبلت في الصلاة ، فإذا قيل لها في ذلك قالت : هكذا رأيت العبد الصالح (ع) ، فسئلت عن قولها قالت : إني لما عاينت من الأمر نادتني الجواري يا فلانة ابعدي عن العبد الصالح ، حتى ندخل عليه فنحن له دونك ، فما زالت كذلك حتى ماتت ، وذلك قبل موت موسى بأيام يسيرة .

هذه هي كرامة الإمام (ع) على الله ، وتلك هي عاقبة الرّشيد الظّالم الطّاغي .

نسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا ممن يتولى أوليائه ، ويتبرأ من أعدائه ، ويسير على نهجهم أئمة الهدى من آل محمد ( صلى الله عليه وعليهم أجمعين ) والحمد لله رب العالمين .

# الامام الرضا (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

الحمد لله رب العالمين وسلام الله على الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين .

وصلى الله على سيد الخلق أجمعين المهيمن على رسالات الله خاتم النبيين محمد وعلى آله الهداة الميامين .

وبعد ..

إن حياة المعصومين الأربعة عشر كانت زاهرة بالحب والمعرفة والعبر والبصائر ، إلاّ أن ما بلغنا من ضياء بعضهم كان أكثر من البعض الآخر ، والإمام الرضا (ع) من أولئك الذين تسنّت لنا فرصة الاهتداء إلى المزيد من فضائلهم ، ولأنهم عند الله نور واحد ، فليس علينا إلاّ الاستضاءة بسيرته (ع) لمعرفة سيرة سائر المعصومين من آبائه ( عليهم جميعا سلام الله ) .

وأظن أن حياة الإمام الرضا (ع) كانت فاتحة مرحلة جديدة من حياة الشيعة حيث خرجت بصائرهم وأفكارهم من مرحلة الكتمان إلى الظهور والإعلان ، ولم يعد الشيعة من بعد ذلك العهد طائفة معارضة في مناطق خاصة ، بل أصبحوا ظاهرين في كل البلاد ، ولقب الرضا الذي أطلق على الإمام علي بن موسى (ع) يدل – فيما يدل – على أنه كان إماماً رضي به الموافق والمخالف .

وها نحن نتبرك بالحديث عنه سائلين الرب أن يرزقنا معرفته واتباعه وشفاعته وشفاعة جده المصطفى ( عليه وآله الصلاة والسلام ) .

## الفصل الأول

# وجاء المولود الميمـون

يذكر الرواة أن أم الإمام موسى بن جعفر (ع) حميدة المصفاة كانت من أشراف العجم ، فاشترت جارية قد ولدت في البلاد العربية وتربت فيها ، فلما اختبرتها ووجدتها من افضل الناس في دينها وعقلها ، اختارتها لولدها الإمام موسى بن جعفر (ع) ، وقالت له ، يا بني إن تكتم ( وهذا احد اسماءها ) جارية ما رايت جارية قط افضل منها ، ولست أشك ان الله تعالى سيطهر نسلها إن كان لها نسل ، وقد وهبتها لك فاستوصي بها خيراً .

وذكروا من فضلها ، انها لمّا وَلَدت للإمام علي الرضا كان الرضا يرتضع كثيراً وكان تام الخلق ، فقالت، اعينوني بمرضعة فقيل لها ، أنقص الدر ؟ فقالت ، لا اكذب ، والله ما نقص ، ولكن علي ورد عن صلاتي وتسبيحي وقد نقص منذ ولَدت [١] .

وقد ذكر المؤرخون أسماء عديدة لوالدة الإمام ، أما الجارية فكانت تسمى عند كل مولاة باسم جديد . فكانت تسمى نجمة ، وأروى ، وسكن وسمان ، وتكتم وطاهرة . إلاّ أن اشهر الأسماء هي تكتم ، وبعد ولادتها سميت طاهرة ، وأم البنين .

وفي سنة مائة وثمان وأربعين من الهجرة في اليوم الحادي عشر من شهر ذي القعدة الحرام [٢] ولد الإمام (ع) ، وعمَّ بيت الرسالة سرور وبهجة .

تقول امه ( تكتم الطاهرة ) لمّا حملت بابني علي لم اشعر بثقل الحمل ، وكنت اسمع في منامي تسبيحاً وتهليلاً وتمجيداً في بطني فيفزعني ذلك ويهولني ، فإذا انتبهت لم اسمع شيئاً ، فلما وضعته وقع على الأرض واضعاً يده على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء يحرك شفتيه كأنه يتكلم ، فدخل إلي ابوه موسى بن جعفر (ع) فقال لي ، هنيئاً لك يا نجمة كرامة ربك ، فناولته إياه في خرقة بيضاء فأذّن في اذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ودعا بماء الفرات فحنكه به ثم ردّه إلي وقال ، خذيه فإنه بقية الله تعالى في ارضه [٣] .

وكان الإمام موسى بن جعفر (ع) قد منحه لقب " الرضا " منذ نعومة اظفاره ، كما انه اعطاه كنية ابو الحسن فكان كثير الحب له ، هكذا يروي المفضل بن عمر يقول ،

---

(١) بحار الأنوار : ( ج ٤٩ ، ص ٥ ) .

(٢) وقيل بل ولد في الحادي عشر من ذي الحجة ، أنظر المصدر . ( ص ٢ ٣ )

(٣) المصدر : ( ص ٩ ) .

دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر (ع) وعلي ابنه في حجره وهو يقبله ويمص لسانه ، ويضعه على عاتقه ويضمه إليه ويقول : بأبي أنت ما أطيب ريحك وأطهر خلقك ، وأبين فضلك ؟ قلت : جعلت فداك لقد وقع في قلبي لهذا الغلام من المودة ما لم يقع لأحد إلاّ لك ، فقال لي : " يا مفضل هو مني بمنزلتي من أبي (ع) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم " .

قال : قلت هو صاحب هذا الأمر من بعدك ؟ قال : " نعم من أطاعه رشد ومن عصاه كفر " [٤] .

وهكذا ترعرع الوليد في ظل والده يزكيه بآداب الإمامة ويعلّمه أسرارها ويطلعه على ودائع النبوة .

وكان الإمام موسى بن جعفر يقول — حسبما جاء في حديث : —

" علي ابني أكبر ولدي وأسمعهم لقولي وأطوعهم لأمري ، ينظر معي في كتاب الجفر والجامعة ، وليس ينظر فيه إلاّ نبي أو وصي نبي " [٥] .

وخلال سني حياته مع والده تولى — فيما يبدو لي — إدارة بعض شؤون الطائفة نيابة عن والده ، ولعل الحديث التالي يدل على ذلك . يقول زياد بن مروان القندي : دخلت على أبي إبراهيم ( الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ) وعنده علي ابنه ، فقال لي :

" يا زياد هذا كتابه كتابي ، وكلامه كلامي ، ورسوله رسولي ، وما قال فالقول قوله " [٦] .

وقد أكثر الإمام موسى بن جعفر (ع) من بيان فضائل ابنه الرضا (ع) وأنه خليفته والإمام من بعده مما يثير السؤال عن حكمة ذلك ، ولعل من الأسباب التي تهدينا إلى تلك الحكمة :

أن الظروف السياسية كانت قياسية جداً . حيث التقيّة في أشدها ، وأهل البيت مطاردون ، وهارون الرشيد كان يلاحق أصحاب وأنصار أهل البيت من بلد إلى بلد ، ويقتلهم زرافاتٍ ووحداناً . والإمام موسى بن جعفر يتنقل بأمره من سجن لآخر ، فكانت إمكانية تفرق كلمة الشيعة بعد وفاته تجعل من الحكمة التأكيد على ولاية الإمام الرضا .

والأصحاب بدورهم كانوا يتوجسون خيفة من اختفاء الإمام فجأة دون معرفة الإمام من بعده ، يظهر ذلك كله من بعض الأحاديث التالية :

روي عن يزيد بن سليط الزيدي قال : لقيت موسى بن جعفر فقلت : أخبرني عن الإمام بعدك بمثل ما أخبر به أبوك قال : " كان أبي في زمن ليس مثل هذا " .

قال يزيد فقلت من يرضى منك بهذا فعليه لعنة الله ، قال فضحك ثم قال : " أخبرك يا أبا عمارة إني خرجت من منزلي فأوصيت في الظاهر إلى بنيّ وأشركتهم مع علي ابني وأفردته بوصيّتي في الباطن " [٧] .

---

(٤) المصدر : ( ص ٢١ ) .

(٥) المصدر : ( ص ٢٠ ) .

(٦) المصدر : ( ص ١٩ ) .

(٧) المصدر : ( ص ١١ ) .

ويروي علي بن عبد الله الهاشمي ، قال ، كنا عند القبر ( اي قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ) إذ اقبل ابو إبراهيم موسى بن جعفر ويد علي ابنه في يده فقال ، " اتدرون من انا " ؟

قلنا ، انت سيدنا وكبيرنا ، قال ، " سموني وانسبوني " .

فقلنا انت موسى بن جعفر ، فقال ، " من هذا معي " ؟

قلنا ، هو علي بن موسى بن جعفر ، قال ، " فاشهدوا انه وكيلي في حياتي ووصيي بعد موتي " [8] .

وقد اتخذ الإمام موسى بن جعفر (ع) كافة وسائل الاحتياط لبيان إمامة الإمام الرضا . فمثلاً ، كتب كتاباً بذلك واشهد عليه ستين رجلاً من وجوه اهل المدينة [9] .

وكان يرجع الأمور إليه في حياته كما فعل عندما اشخص به إلى البصرة ، حيث دفع إلى عبد الله بن وحوم كتاباً وامره بإيصالها إلى نجله الرضا في المدينة [10] .

وكتب في البصرة الواحاً وبعثها إلى شيعته هناك وقد كتب فيها ، عهدي إلى اكبر ولدي [11] .

وكان يأخذ بعض الحقوق التي تجبى إليه ويبقي بعضها ليعطيه إلى وصيه الذي يطالبه به ليكون علامة ظاهرة كما فعل بداود بن زربي [12] .

وذلك شبيه بعكس الظروف السياسية الصعبة التي كان يعيشها الإمام في حياة والده والتي احتاط الإمام موسى بن جعفر (ع) فيها لتبقى الإمامة بعيدة عن الشكوك .

ويظهر ذلك بوضوح من وصية لنجله بان يسكت مادام الرشيد حياً فإذا هلك نطق بالحق .

ومن جهة اخرى في مثل هذه الظروف الصعبة التي كان الشيعة يعيشونها على عهد طاغية بغداد هارون الرشيد ، كان من الممكن ان تنتشر الخرافات التي لها سوق رائجة عند اشتداد الأزمات . ولعل بعض التيارات السياسية كانت وراء نشر مثل تلك الخرافات لأهداف معينة . فدرءاً لمثلها قام الإمام الكاظم ببيان امامة ابنه الرضا بذلك الوضوح .

وبالرغم من أن فكرة غياب الإمام الكاظم انتشرت ردحاً من الزمان وغذتها ايد خائنة واخرى جاهلة ، فقالوا بان الإمام لم يمت وانه مهدي هذه الأمة ، ووقفوا عند الإمام السابع فسمّوا ( الواقفية ) .

إلاّ أنها لم تلبث أن زالت ، ويبدو أن احد اهم اسباب ذلك ، تاكيد الإمام (ع) في تعريف الشيعة بان وصيّه الإمام الرضا (ع) .

---

(٨) المصدر : ( ص ١٥ ) .

(٩) المصدر : ( ص ١٧ ) .

(١٠) المصدر : ( ص ١٦ ) .

(١١) المصدر : ( ص ١٩ ) .

(١٢) يبدو من بعض الأحاديث أن هذا الرجل كان يعيش حالة التقية مما يجعل هذا الإجراء مناسباً لحاله .

## خلقه وفضائله :

كان الإمام الرضا (ع) بمثابة قرآن ناطق ، فخلقه من القرآن ، وعلمه ومكرماته من القرآن ، أوليس القرآن هو آية الله العظمى في خلقه ، اولم ييسّره ربنا لمن شاء من عباده أن يستقيم عليه ؟ أوَ يكون ذلك غريباً أن يصبح من تمثل القرآن في حياته آية عظمى لرب العالمين .

والنبي (ص) كان افضل واعظم ميزاته ، انه عبد يوحى إليه ، وحين سأل بعضهم عن خلقه العظيم قال :

" كان القرآن خلقه .." .

واعظم ميزات الإمام علي (ع) ان الله قد جعل اذنه واعية للقرآن .

وقد ذكّرنا الرسول بانه يخلّف بعده الثقلين : كتاب الله وعترته اهل بيته ، ثم بيّن انهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض . أوَلا يعني ذلك ان اهل بيت الرسالة (ع) كانوا مشكاة نور القرآن ومعدن خيرات الوحي ومستقر علم الله ؟.

وكان الإمام الرضا (ع) قد تمثل هذا النور – بكل وجوده حتى جاء في الحديث : عن ابي ذكوان قال : سمعت إبراهيم بن العباس يقول :

ما رايت الرضا (ع) سئل عن شيء قط إلاّ علمه ، ولا رايت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره ، وكان المامون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب فيه ، وكان كلامه كله وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن ، وكان يختمه في كل ثلاث ليالٍ ، ويقول :

" لو اردت ان أختمه في اقرب من ثلاثة لختمت ، ولكني ما مررت بآية قط إلاّ فكرت فيها وفي اي شيء أنزلت وفي اي وقت ، فلذلك صرت أختم كل ثلاثة أيام "[١٣] .

ولكن دعنا نعرف كيف تمثل إمامنا الرضا (ع) القرآن بهذه الدرجة ، أو يمكننا أن نتبعه في ذلك ؟

القرآن كتاب الله ومن لا يتصل قلبه بنور الله لا يعرف كتابه ، أو لم يقل ربنا سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ ( الاسراء / ٨٢ ) .

وبدرجة الإيمان ، وبمستوى اليقين ، وبقدر تجلي عظمة الرب في القلب يستضيء الإنسان بنور الله الذي تجلى به في كتابه ..

والإمام الرضا (ع) عظّم الله ووقره وسلّم له امره واستصغر كل شيء سواه ، واستعد لكل بلاء في سبيله ، وكان كل ذلك وسيلته إلى ربه .

دعنا نلتمس بعض الشواهد على ما قلنا لا لنزداد بالإمام معرفة فقط ، بل لكي تخشع قلوبنا أيضاً بهذه السيرة التي تفيض روحاً إلهياً وضياءً .

---

(١٣) المصدر : ( ص ٩٠ ) .

كان من عبادته (ع) انه إذا صلّى الفجر في أول وقتها يسجد لربه فلا يرفع راسه الى أن ترتفع الشمس [14] ..

وعندما كلّف المامون العباسي واليه على المدينة بمرافقة الإمام إلى خراسان ، ساله — بعد مقدمه إليها — عن أحواله في الطريق ففصّل الحديث عن درجات عبادته وذكره وتبتله ، فلما قص عليه ذلك امره بان يكتم عن الناس ذلك وكان مما نقله :

كان إذا اصبح صلى الغداة ، فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهلله ، ويصلي على النبي وآله حتى تطلع الشمس ، ثم يسجد سجدة يبقى فيها حتى يتعالى النهار ، ثم اقبل على الناس يحدثهم ويعظهم إلى قرب الزوال ، ثم جدد وضوءه وعاد إلى مصلاه .. وبعد ان يذكر كيفية صلاته وسجداته ونوافله إلى وقت العصر مما هو معروف في الفقه ، ثم يقول اقام وصلى العصر فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهلله ما شاء الله ، ثم سجد سجدة يقول فيها مائة مرة " حمداً لله " .

ثم يذكر كيف كان يصلي بعد غروب الشمس ويسبّح ربه حتى يمضي قريب من ثلث الليل ثم ياوي إلى فراشه .. فإذا كان الثلث الأخير من الليل قام من فراشه لنافلة الليل ، واستمر على ذلك حتى يطلع الفجر ، ثم يجلس للتعقيب حتى تطلع الشمس ، ويسجد حتى يتعالى النهار .

ويضيف : وكان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فإذا مر بآية فيها ذكر جنة او نار بكى وسال الله الجنة وتعوّذ من النار [15] .

وكان الإمام يرى أن ماله من فضل إنما هو بالتقوى وليس فقط بالانتساب إلى رسول الله (ص) بالولادة .

هكذا ينقل البيهقي عن الصولي عن محمد بن موسى بن نصر الرازي قال : سمعت ابي يقول : قال رجل للرضا والله ما على وجه الأرض اشرف منك اباً ، فقال : " التقوى شرفتهم وطاعة الله اعظمتهم " .

فقال له آخر : انت والله خير الناس ، فقال له :

" لا تحلف يا هذا ، خير مني من كان اتقى لله عزّ وجلّ واطوع له والله ما نسخت هذه الآية :

﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ [16] .

وهذا الحديث يذكرنا بما يروى عن الإمام الصادق (ع) انه قال : " لولايتي لمحمد صلّى الله عليه وآله احب إليّ من ولادتي منه " .

وهكذا اطاع الله بكل جوانب حياته ، فاحبه الله ونوّر قلبه بضياء المعرفة والهمه من العلوم ما الهمه .

---

(١٤) المصدر : ( ص ٩٠ ) .

(١٥) المصدر باختصار : ( ص ٩٢ - ٩٤ ) .

(١٦) المصدر : ( ص ٩٥ ) .

وجعله حجة بالغة على خلقه ، أو لم نقرأ سورة (ص) كيف بيّن فيها ربنا مواهبه لعباده الصالحين ، وأنه إنما أتاهم كل تلك المواهب لعبادتهم وإخلاصهم فقال مثلاً :

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ( ص/ ١٧) ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ ( ص /٢٠) . إلى أن يقول : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص/٢٥-٢٦) .

وهكذا أناب الإمام الرضا (ع) إلى ربه فوهب الله له ما شاء من الكرامة والعلم ..

لقد زهد في الدنيا واستصغر شأنها ، ورفض مغرياتها ، فرفع الله الحجاب بينه وبين الحقائق لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو حجاب سميك بين الإنسان وبين حقائق الخلق ..

يذكر البيهقي عن الصولي ، كان جلوس الرضا في الصيف على حصير وفي الشتاء على مسح ، ولبسه الغليظ من الثياب حتى إذا برز للناس تزين لهم [١٧] .

وكان ذلك عندما أقبلت الدنيا عليه فلم يقبلها ، وتزينت له فلم يغترّ بها . بل عندما كانت الخلافة العباسية في أوج عظمتها وبذخها وترفها وكان الإمام ولي عهد الخليفة في الظاهر يومئذ عاف الدنيا وشهواتها . هكذا تروي جارية اسمها عذر فتقول : اشتريت مع عدة جواري من الكوفة ، وكنت من ولداتها ( كانت مولودة في الكوفة ) قالت : فحملنا إلى المأمون فكنا في داره في جنة من الأكل والشرب والطيب وكثرة الدنانير فوهبني المأمون للرضا ، فلما صرت في داره فقدت جميع ما كنت فيه من النعيم ، وكانت علينا قيّمة تنبهنا من الليل ، وتأخذنا بالصلاة ، وكان ذلك من أشد ما علينا فكنت أتمنى الخروج من داره [١٨] .

وأعظم الزهد زهده في الخلافة بالطريقة التي عرضها عليه المأمون العباسي ، فإن من الناس من يزهد في الدنيا طلباً لما هو أعظم من متاعها . ولا أعظم من الرئاسة في أعين الإنسان .

يقول الفضل بن سهل الذي شهد حوار المأمون مع الإمام الرضا في شأن الخلافة ما رأيت الملك ذليلاً مثل ذلك اليوم .

يقول المأمون العباسي فيما روي منه ، فجهدت الجهد كله وأطمعته في الخلافة وما سواها فما أطمعني في نفسه [١٩] .

## السبيل إلى الله :

ومـن يعظم الله يعظم أولياءه ، ومن يرفض توقير أولياء الله يفقد السبيل الى الله . والإمام الرضا (ع)

---

(١٧) بحار الأنوار : ( ج ٤٩ ، ص ٨٩ ) .

(١٨) المصدر : ( ص ٨٩ )

(١٩) المصدر : ( ص ٢٠ ) .

سلك هذا السبيل إلى ربه . ولعمري إن الشيطان يزين للإنسان مخالفة أولياء الله والتكبر عليهم حتى يضله عن سبيل الله القويم ، ويلقيه في تيه السبل المتفرقة .

وكلما ازداد الإنسان تسليماً لقيادته الشرعية ، وحباً لولي امره ، ولأولياء الله من الأنبياء والأوصياء والصالحين ، كلما يزداد من ربه قرباً .

والإمام الرضا (ع) كان كما سائر الأئمة (ع) اطوع الناس لولي امره الإمام موسى بن جعفر (ع) فجعله الله حجة من بعده .

يقول الإمام الكاظم :

" علي ابني اكبر ولدي واسمعهم لقولي ، واطوعهم لأمري " [20] .

وقال :

" علي أكبر ولدي وابرهم عندي واحبهم إلي " [21] .

إن بين الإنسان وبين أولياء الله حجاب من الغرور والكبر ، فمن خالف هواه وتحدى غروره وحارب كبر نفسه ، يخرق هذا الحجاب ، فيدخل في حزب الله وينتمي إلى أوليائه ويستقر في مقامه عند الله . لذلك أكّد القرآن على الكافرين قولهم :

﴿ أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ( القمر / ٢٤ ) .

وقد جاء في حديث روي عن ابن ابي كثير قال : لما توفي موسى (ع) وقف الناس في أمره فحججت في تلك السنة فإذا أنا بالرضا (ع) فاضمرت في قلبي امراً فقلت : ابشراً منا واحداً نتبعه فمر كالبرق الخاطف علي ، فقال :

" أنا والله البشر الذي يجب عليك أن تتبعني . فقلت : معذرة إلى الله واليك فقال : مغفور لك " [22] .

## الشجرة الطيبة :

كان الرضا من الشجرة الطيبة التي اكرمها الله ، وبارك لأمة محمد فيها وقال سبحانه :

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ( آل عمران / ٣٤ ) .

ولقد اختار الله يحيى بن زكريا للنبوة وآتاه الحكم صبياً ، بحكمته البالغة وإكراماً لوالده زكريا .

واختار مريم صديقة حينما نذرت امراة عمران ما في بطنها محرراً لله .

واختار عيسى ابن مريم ( عليهما السلام ) كرامة لوالدته الصديقة فكلم في المهد قائلاً : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ ( مريم / ٣٠ ) .

---

(٢٠) المصدر : ( ص ١٤٥ ) وسيأتي الحديث إن شاء الله مفصلاً حول ما جرى بينه ( ع ) وبين المأمون .

(٢١) المصدر : ( ص ٢٤ ) .

(٢٢) بحار الأنوار : ( ج ٤٩ ، ص ٣٨ ) .

فلماذا نستغرب حينما يختار من أهل بيت محمد (ص) اثنا عشر نقيباً ، أئمة هداة ميامين بحكمته البالغة وكرامة لأقرب الناس إلى الله سيد المرسلين محمد صلّى الله عليه وآله .

## الخلق الكريم :

وقد فاضت من هذه النفس الكريمة تلك الأخلاق الحسنة التي تحدثنا بها كتب التاريخ ، أوليس الطيب دليل الزهرة ، والشعاع دليل الضياء ؟ وهل الإيمان إلاّ الحب ، وهل دليل الحب غير تلك الأخلاق الحسنة ؟

كان (ع) في قمة التواضع وحسن المعاشرة مع الناس هكذا ينقل إبراهيم بن العباس يقول : ما رأيت أبا الحسن الرضا جفا أحداً بكلامه قط ، وما رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه ، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها ، ولا مدّ رجليه بين يدي جليس له قط ، ولا اتكأ بين يدي جليس له قط ، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قط ، ولا رأيته تفل قط ، ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط ، بل كان ضحكه التبسم .

وكان إذا خلا ونصبت مائدته أجلس معه على مائدته مماليكه حتى البواب والسائس ، وكان (ع) قليل النوم بالليل ، كثير السهر يحيي أكثر لياليه من أولها إلى الصبح ، وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر ، ويقول : ذلك صوم الدهر ، وكان (ع) كثير المعروف والصدقة في السر ، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة ، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه [٢٣] .

وكان من تواضعه (ع) أنه دخل الحمام فقال له بعض الناس : دلكني فجعل يدلكه ، فإذا بالناس يدعون الرجل يعرّفونه بالإمام ، وإذا الرجل جعل يستعذر منه ولكنه يطيب قلبه ويستمر في تدليكه [٢٤] .

ويروي رجل من أهل بلخ رافق الإمام في سفره إلى خراسان ويقول : دعا يوماً بمائدة له فجمع مواليه من السودان وغيرهم ، فقلت : جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فقال : مه إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد ، والجزاء بالأعمال [٢٥] .

وكان يكره لغلمانه أن يقوموا له احتراماً عندما يكونون على الطعام ويقول : " إن قمت على رؤوسكم وأنتم تأكلون ، فلا تقوموا حتى تفرغوا " [٢٦] .

وكان عظيم الحلم والعفو ، ويذكر من حلمه أن قائداً من أتباع بني العباس يسمى بـ ( الجلودي ) أمره هارون الرشيد بأن يذهب إلى المدينة ويسلب نساء آل أبي طالب ، ولا يدع على كل واحدة منهن إلاّ ثوباً واحداً ، ففعل الرجل ، مما أثار سخطاً عظيماً عند الإمام الرضا (ع) ، ولكن بعد أن عهد إلى الإمام الرضا

---

(٢٣) المصدر : ( ص ٩١ ) .

(٢٤) المصدر : ( ص ٩٩ ) .

(٢٥) المصدر : ( ص ١٠١ ) .

(٢٦) المصدر : ( ص ١٠٢ ) .

بولاية العهد عارض ذلك الجلودي ونقم من بيعة الإمام فغضب عليه المامون ، وأخرجه يوماً ليقتله من بعد أن قتل اثنين قبله فلما تمثل امامه شفع له الإمام الرضا عند المامون وقال :

" يا أمير المؤمنين هب لي هذا الشيخ " .

فظن الجلودي أنه يعين عليه ، فاقسم على المامون الا يقبل قوله . فقال المامون والله لا اقبل قوله فيك ، وامر بضرب عنقه [27] .

وكان سخياً كريماً . وكان من آدابه في الصدقات انه إذا جلس للاكل أتى بصفحة فتوضع قرب مائدته ، فيعمد إلى اطيب الطعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شيء شيئاً فيوضع في تلك الصفحة ، ثم يامر بها للمساكين ثم يتلو هذه الآية :

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ( البلد / ١١ ) .

ثم يقول :

" علم الله عز وجل أن ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل الجنة ( عبر الإطعام ) " [28] .

وفرّق بخراسان ماله كله في يوم عرفة ، فقال له الفضل بن سهل : إن هذا لمغرم ، فقال (ع) :

" بل هو المغنم ، ولا تعدن مغرماً ما اتبعت به اجراً وكرماً " [29] .

وكان إذا أعطى احداً سعى الا يذهب بهاءه ولا يراق ماء وجهه ، والقصة التالية تعلمنا كيف نجعل صدقاتنا خالصة لوجه الله لا منّة فيها ولا استعلاء .

يروي اليسع بن حمزة ويقول : ( كنت انا في مجلس ابي الحسن الرضا (ع) احدثه وقد اجتمع إليه خلق كثير يسالونه عن الحلال والحرام ، إذ دخل عليه رجل طوالٌ ادم ، فقال له : السلام عليك يا ابن رسول الله ، رجل من محبيك ومحبي ابائك واجدادك (ع) مصدري من الحج ، وقد افتقدت نفقتي وما معي ما ابلغ به مرحلةً ، فان رأيت أن تنهضني إلى بلدي ولله علي نعمة ، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك ، فلست موضع صدقة فقال له : إجلس رحمك الله ، واقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا ، وبقي هو وسليمان الجعفري وخيثمة وانا ، فقال : تاذنون لي في الدخول ؟ فقال له : يا سليمان قدم الله امرك ، فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج ورد الباب ، واخرج يده من اعلى الباب وقال : اين الخراساني ؟ فقال : ها أنا ذا فقال : خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤنتك ونفقتك وتبرك بها ولا تصدق بها عني ، واخرج فلا اراك ولا تراني .

ثم خرج فقال سليمان : جعلت فداك لقد اجزلت ورحمت ، فلماذا سترت وجهك عنه ؟ فقال :

---

(٢٧) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ص ١٠٨ ) سيرة الرضا .

(٢٨) بحار الأنوار : ( ج ٤٩ ، ص ٩٧ ) .

(٢٩) المصدر : ( ص ١٠٠ ) .

" مخافة أن أرى ذلك السؤال في وجهه لقضائي حاجته ،أما سمعت حديث رسول الله (ص) : "المستتر بالحسنة ، تعدل سبعين حجة ، والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له " أما سمعت قول الأول :

متى آته يوماً لأطلب حاجة رجعت إلى أهلي ووجهي بمائه "[30] .

وقد أعطى أبا نواس ثلاثمائة درهم لم يكن عنده سواها ، وقدّم إليه بغلته التي كان يمتطيها ، وحينما أعطى دعبل الخزاعي ستمائة دينار اعتذر إليه .

وكان كثير الصدقة في السر ، وأكثرها كان في الليالي المظلمة[31] .

وكان (ع) مكتمل الجسم عظيم الهيبة . وكأيِّن من ذي حاجة دخل عليه ليطلبها منه فشغله جلاله وهيبته عنها فبادره الإمام بقضائها ، وسنذكر جانباً من ذلك عن بيان علمه .

## هكذا أفاض الإمام علمه :

أربعة من أئمة الهدى تسنى لهم نشر معارف الإسلام في الآفاق . أولهم الإمام أمير المؤمنين وآخرهم الإمام الرضا والصادقان محمد بن علي وجعفر بن محمد ( عليهم جميعاً صلوات الله ) .

وبالرغم من أن جميع أئمة الهدى نشروا العلم ، إلاّ أن الظروف ساعدت هؤلاء الأربعة على ذلك أكثر من الآخرين .

ولقد سبق الحديث – ببعض التفصيل – عن علم الأئمة ومصادره المتنوعة فيما سردته من حياة الإمام الباقر (ع) فنكتفي بذلك ، وإنما نشير إلى آفاق العلم التي تناولتها أحاديث الإمام الرضا (ع) ونقل عن اليقطيني أنه قال : لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا جمعت من مسائله مما سئل عنه وأجاب عنه خمس عشرة ألف مسألة "[32] .

ولقد قال الإمام مرة :

" كنت أجلس في الروضة والعلماء بالمدينة متوافرون ، فإذا أعيا الواحد منهم عن مسألة أشاروا إلي بأجمعهم وبعثوا إلي بالمسائل فأجيب عنها "[33] .

وقد بدأ بالفتيا في مسجد الرسول ، وعمره الشريف نيف وعشرون عاماً .

ولنعرف دور الإمام الرضا في هذا الحقل لابد أن نعود قليلاً إلى الوراء ، لنعرف أن الحزب العباسي الذي تسلط على رقاب المسلمين بعد الفراغ السياسي الذي أحدثه غياب السلطة الأموية قد وجد نفسه أمام تيارات سياسية معارضة ، تعتمد على الفكر ، وتتسلح بالنظريات الثقافية ، وفي طليعتها التيار

---

(٣٠) المصدر : ( ص ١٠١ ) .

(٣١) المصدر : ( ص ١١٠ ) .

(٣٢) المصدر : ( ص ٩٧ ) .

(٣٣) المصدر : ( ص ١٠٠ ) .

العلوي الذي كان يقود المعارضة السياسية إلى جنب قيادة الساحة الفكرية ، والحزب العباسي الذي كان يعيش خواءً نظرياً قاتلاً لم يجد حيلةً إلاّ البحث عن مصادر خارجية للثقافة ، فشجع حركة الترجمة وتوجه إلى الكتب الفلسفية قبل الكتب العلمية ، وبنشاط هذه الحركة حدث في الأمة اضطراب فكري وتوتر ثقافي مما أضحى يهدد وحدة الأمة .

وكانت عوامل شتى تساهم في هذا الخطر :

اولاً : انشغال المفكرين بالقضايا السياسية .

ثانياً : ازدياد الإضراب السياسي ، والحروب الداخلية التي تجر بطبيعتها الأمة إلى المزيد من التوتر الفكري .

ثالثاً : وجود تيارات غريبة عن الأمة كان هدفها إفساد ثقافة المجتمع ومحاربة الإسلام باسم الإسلام ، والتي كانت تغذيها حركات سياسية متصلة بالكفار .

وفي عهد المامون العباسي بلغ الإضطراب الفكري قمته مما دفع الإمام الرضا (ع) بالتصدي لها .

وقد ساعده في ذلك انتقاله إلى حاضرة البلاد الإسلامية ، وقبوله لولاية العهد مما جعله في قلب الصراعات الفكرية .

وهكذا كثرت حواراته مع سائر الملل والمذاهب ، مما حدى بعلمائنا الكرام إفراد كتب حول ما روي عنه (ع) ، مثل ما فعل الصدوق ( رحمه الله ) في كتابه عيون أخبار الرضا .

وحينما نتدبر في كلمات الإمام الرضا وحججه التي القاها على خصوم الإسلام او مخالفي المذهب نراها تتسم بمنهجية علمية عميقة . مما يدل على مستوى الثقافة في عصره لأن الأئمة – كالأنبياء ( عليهم جميعاً صلوات الله ) – إنما يكلمون الناس على قدر عقولهم ، وبمستوى أفكارهم .

كذلك نستوحي من التامل في كلماته أنها كانت تصد تشكيكات يبثها الأعداء حول الإسلام وبالذات حول عقلانية أحكامه ، من هنا كثرحديثه عن علل الشرائع ، والحكم التي وراء احكام الدين . كما أن طائفة من كلماته المضيئة تعالج الشؤون الحياتية مثل رسالته الطبية المعروفة بطب الرضا (ع) .

ومما يميز حياة الإمام الرضا (ع) العلمية ان كلماته كانت تلقى قبولاً في كافة الأوساط الإسلامية ، ولعل ورود مدينة نيسابور التي كانت من الحواضر العلمية في العالم الإسلامي أظهرت مدى اهتمام علماء الإسلام باحاديث الإمام ، دعنا نستمع إلى هذه القصة الطريفة :

( لما دخل إلى نيسابور في السفرة التي فاض فيها بفضيلة الشهادة ، كان في مهد على بغلة شهباء عليها مركب من فضة خالصة ، فعرض له في السوق الإمامان الحافظان للأحاديث النبوية ابو زرعة ومحمد بن أسلم الطوسي رحمهما الله فقالا : أيها السيد ابن السادة ، ايها الإمام وابن الأئمة ايها السلالة الطاهرة الرضية ، أيها الخلاصة الزاكية النبوية بحق آبائك الأطهرين وأسلافك الأكرمين إلاّ أريتنا وجهك المبارك الميمون ، ورويت لنا حديثاً عن آبائك عن جدك ، نذكرك به .

فاستوقف البغلة ، ورفع المظلة ، واقر عيون المسلمين بطلعته المباركة الميمونة ، فكانت ذوابتاه كذوابتي رسول الله (ص) فقال (ع) :

" حدثني ابي موسى بن جعفر الكاظم ، قال : حدثني أبي جعفر بن محمد الصادق قال : حدثني أبي محمد بن علي الباقر ، قال : حدثني أبي علي بن الحسين زين العابدين ، قال : حدثني ابي الحسين بن علي شهيد ارض كربلاء ، قال : حدثني ابي أمير المؤمنين علي بن ابي طالب شهيد ارض الكوفة ، قال : حدثني أخي وابن عمي محمد رسول الله (ص) قال : حدثني جبرائيل (ع) قال : سمعت رب العزة سبحانه وتعالى يقول :

( كلمة لا إله إلّا الله حصني فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني امن من عذابي ) " .

صدق الله سبحانه وصدق جبرائيل (ع) وصدق رسول الله والأئمة عليهم السلام [34] .

---

(٣٤) بحار الأنوار : ( ج ٤٩ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ) .

## الفصل الثاني

# الإمام وعصره

عاش الإمام الرضا (ع) عصرين مختلفين وكان عهد هارون الرشيد من أقسى العهود على آل البيت ، حيث قرأنا عما في سيرة الإمام الكاظم (ع) كيف ضيّق العباسيون على شيعة أهل البيت ، وكيف أذوا الإمام وهجّروه عن دار أمنه عند قبر جده إلى البصرة ، ثم الى بغداد حيث وضعوه إما تحت الإقامة الجبرية ، وإما في قعر السجون المظلمة حتى دسوا إليه السم ، فمات شهيداً مظلوماً .

وخلال السنين الأربع الأولى من عهد إمامته تجرع الإمام كوالده غصص الألم . وهناك قصتان تعكسان طبيعة هذه الغصص :

١ — يروي أبو الصلت الهروي : كان الرضا ذات يوم جالساً في منزله إذ دخل عليه رسول هارون الرشيد فقال : أجب أمير المؤمنين فقام ، فقال لي :

" يا أبا الصلت إنه لا يدعوني في هذا الوقت إلاّ لداهية ، فوالله لا يمكنه أن يعمل بي شيئاً أكرهه لكلمات وقعت إليّ من جدي رسول الله " .

قال فخرجت معه حتى دخلنا على هارون الرشيد فلما نظر إليه الرضا قرأ هذا الحرز ( وذكره ) فلما وقف بين يديه نظر إليه هارون الرشيد وقال : يا أبا الحسن قد أمرنا لك بمائة ألف درهم ، واكتب حوائج أهلك ، فلما ولي عنه علي بن موسى وهارون ينظر إليه في قفاه قال : ( أردت وأراد الله وما أراد الله خير ) [٣٥] .

وقد أشار يحيى البرمكي على هارون بقتل الإمام الرضا كما أشار غيره بذلك فاستعظم الأمر ، وقال : ما ترى تريد أن أقتلهم كلهم .

٢ — والقصة الثانية تلك التي رويناها سابقاً عن دخول الجلودي على الإمام وسلبه أهله . حتى هلك هارون ، وشب الخلاف بين ورثته بدأ الإمام نشاطه بقدر من الحرية النسبية .

لقد وصّى هارون لثلاثة من أبنائه بولاية العهد وهم الأمين والمأمون والمؤتمن بالترتيب ، ولمعرفته بميول العباسيين إلى الأمين الذي كانت والدته زبيدة ترعاه ، خشي على المأمون الذي كان يرى فيه كفاءة أكثر لادارة البلاد فمنحه بعض المناصب في الدولة ..

---

(٣٥) بحار الأنوار : ( ج ٤٩ ، ص ١١٦ ) .

وكان الفرس الذين كانوا لا يزالون متنفذين في الدولة العباسية بالرغم من نكبة البرامكة يميلون نحو المامون لأن أمه منهم ولأنه تربى في أحضانهم .

من هنا كانت سحُب الفتنة تتجمع في سماء الأمة ، وكان هلاك هارون الرشيد في خراسان في وقت مبكر وقبل أن يرتب أوضاع البلاد ، فعجَّل ذلك في اشتعال نار الفتنة ، كما أن مرافقة المامون لوالده التي جاءت – حسب بعض الروايات – بإشارة من فضل بن سهل ساهمت فيها .

لقد سارع الأمين وربما بإشارة من بعض قواده العباسيين في خلع أخيه ونصب ابنه ولياً للعهد ، وكان من الطبيعي أن يرفض المامون ذلك مما حدى بالأمين إلى بعث بعض قواده ليأتون به مغلولاً .

وقد شجع المامون بعض قادة جيشه ولا سيما من هم من الفرس على التمرد ، ففعل وانتهى إلى الحرب بين الأخوين التي انتهت بخلع الأمين واستتب الأمر لأخيه .

وكانت هذه الحرب أول حرب بين العباسيين ، ومن أسوأ الحروب الداخلية بين المسلمين . مما زعزع الثقة بالنظام السياسي عند الجماهير وشجع المعارضة على الثورة ، فإذا بأطراف البلاد تنتفض وتخلع الحاكم وتبايع واحداً من العلويين .

وكانت أخطر وأعظم هذه الثورات حركة أبي السرايا في الكوفة التي قادها السري بن منصور ، وعقدت لواء الزعامة لواحد من أبناء الإمام الحسن المجتبى (ع) واسمه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل .

وانتشرت هذه حتى شملت الكوفة والواسط والبصرة والحجاز واليمن . ووقعت بينها وبين جيوش بني العباس معارك طاحنة لم يظفر العباسيون بها إلاّ بالحيلة والمكر[٣٦] .

وفي مكة المكرمة ثار محمد ابن الإمام جعفر الصادق (ع) وبويع بالخلافة ولقب بـ ( أمير المؤمنين ) .

وكانت هناك ثورات أخرى في بلاد الشام والمغرب وكلها تدل على اضطراب الوضع السياسي ، حتى أن الناس لم يبايعوا المامون إلاّ بعد أن استتب الأمر له وعاد إلى بغداد ، وبعد حروب أكلت مئات الألوف من المسلمين .

وكان عصر المامون يتميز – كما أشرنا سابقاً – بتنامي التيارات الفكرية الغريبة التي كان من شأنها زعزعة النظام الثقافي للأمة ، وكانت نتيجة طبيعية لحركة الترجمة التي شجّعها العباسيون من دون رؤية .

كما أن الثقة عند قيادات الجيش الذي يمثل العماد الأصلي للنظام كادت تنهار ، حتى قال هرثمة بن حازم ( أحد قيادات العسكر ) للمامون :

يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ، ولن يغشك من صدقك ، لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك[٣٧] .

---

(٣٦) راجع التاريخ الإسلامي .. دروس وعبر ( للمؤلف ) : ( ص ٢٩٠ – ٢٩٦ ) .

(٣٧) تاريخ المسعودي : ( ج ٣ ، ص ٣٨٩ ) .

ولعلنا نضيف إلى كل ذلك حالة المجون والترف التي اشتهرت بين رجال الدولة وبطانتهم ، والتي كان يشجعها النظام لإلهائهم عن الحقائق المرة التي يعيشها المسلمون . وإذا كان آل ( برمك ) بالأمس ابطال هذا الميدان ، فإن آل ( سهل ) خلفوهم فيه ، وما يذكره بعض المؤرخين عن زواج الخليفة (ببوران) وما رافقه من مظاهر البذخ والترف شاهد على ذلك .

## الإمام الرضا يتحدى الفساد :

حينما نتدبر في سورة هود أو سائر السور القرآنية التي تقص علينا رسالة الأنبياء السابقين (ع) نجد انهم يتحدون الفساد بكل الوانه . وبالذات الفساد الذي كان مستشرياً في قومهم ، ويعتبرون كل فساد سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو فكري ينتهي إلى الضلالة أو الشرك أو الكفر وكانوا (ع) يذكّرون الناس بالله ويحذّرونهم عذابه في الدنيا وعقابه في الآخرة ، لأن هذا هو السبيل لإصلاح الإنسان وردعه عن الفساد بكل الوانه .

وسار الأئمة (ع) على طريق الأنبياء ، حاربوا كل الوان الفساد ، بذات الوسيلة ، والإمام الرضا (ع) كأجداده قاد المخلصين من ابناء الأمة في هذا السبيل وتحمل الأذى في سبيل الله .

لقد رفض الاعتراف بالسلطة الجاهلية التي بناها العباسيون باسم الإسلام واعتبرها سلطة غاصبة ظالمة فاسدة جملةً وتفصيلاً .

وناهض التيارات الفكرية المخالفة لأصول الشريعة ، وقاوم الفساد الخلقي في الأمة وذلك بنشر تعاليم الدين الحنيف .

ولم يكن الإمام وحده في مواجهة ذلك الفساد العريض ، بل كانت صفوة الأمة وخيرة العلماء والحكماء والقادة المخلصين وهم شيعة أهل البيت (ع) يتبعونه في ذلك .

وقد قرأنا معاً كيف وباي أسلوب كان الأئمة يقودون الامة ، ولكن هنا ينبغي أن نتحدث قليلاً عما أثار التساؤل عند المؤرخين ، وهي نقطةٌ مضيئةٌ – في رأينا – تلمع في حياة الإمام الرضا ، ومنعطف أساسي في حركة الشيعة وهي قبول الإمام بولاية عهد المامون .

وقبل كل شيء نتساءل عن الأسباب التي دفعت الخليفة العباسي للإقدام على هذه الخطوة الجريئة .

## المأمون يتقرب للإمام :

والمامون الذي ولد من أم فارسية ، وتربى في حجر المؤيدين للبيت العلوي ، وعرف الكثير من تاريخ الإسلام وتبحَّر في علم الكلام ، هل كان شيعياً فعلاً ، وهل كان عهده إلى الإمام الرضا بدافع سليم ، ثم انقلب عن ذلك ودس السم إلى الإمام لأن الملك – كما قال والده هارون له يوماً – عقيم وأنه لو نازعه فيه لأخذ الذي فيه عيناه ؟

أم كانت خطة دبرها الفضل بن سهل وغيره من بطانته ووقع فيها من دون التفات ، ثم عاد عنها وقتل الفضل غيلة في الحمام وقضى على الإمام بالسم ؟

ام انها كانت خطته اشترك فيها هو وغيره من القادة ، وكانت مجرد لعبة سياسية ؟

كل ذلك ممكن ؛ ولم اجد فيما اطلعت عليه من التاريخ ما يدل على واحد من الإحتمالات بالتاكيد ، على اني اميل إلى الإعتراف بكل العوامل التاريخية ، وآخذها بعين الإعتبار عند تفسير ظاهرة معينة ، لأن مثل هذه العوامل تتفاعل مع بعضها في حياتنا وتصنع من حيث المجموع حياتنا الحاضرة ، فلماذا لا نعتقد ان الماضي كالحاضر تصنعه كل العوامل المؤثرة في حياة البشر ؟

من هنا أميل إلى الراي التالي .. ان كلا من خلفية المامون الثقافية ، والظروف السياسية ، ورأي بطانته ، أقرت في الإقدام على هذه الخطوة الجريئة ، ولولا واحدة منها لم يقدم ..

وهذا يعني ان انقلاب المامون على الإمام الرضا (ع) جاء بعد تحول الظروف السياسية — وأن الرجل لم يكن شيعياً بالمعنى الحقيقي للكلمة ، وهو إتباع اهل البيت ، والتعبد لله في طاعته ، إنما كان متاثراً ببعض الأفكار الشيعية كتفضيل امير المؤمنين (ع) على غيره من الخلفاء ، والإعتقاد بخيانة معاوية ، وبان القرآن كتاب محدث وما أشبه .

إلاّ ان ذلك لا يجعل الفرد شيعياً في نظر الأئمة (ع) وهو بالتالي كان صاحب سلطة يبحث عنها اكثر مما يبحث عن المبادئ والقيم .

ولعل والده هارون كان يشير إلى ابنه وإلى خواصّ اهل بيته كما يشير الطغاة عادة إلى بطانتهم من الإعتراف بحق معارضيهم ، وذلك عندما تستيقظ ضمائرهم ولو لفترة محدودة . وهكذا يروي المامون انه إنما تشيّع على يد والده .

وقد اسرّ المامون إلى بعض خواصه بالسبب الذي دعاه إلى هذا الأمر ، فعن الريّان بن الصلت قال ؛ أكثر الناس في بيعة الرضا (ع) من القواد والعامة ، ومن لا يحب ذلك ، وقالوا ؛ إن هذا من تدبير الفضل بن سهل ذي الرئاستين ، فبلغ المامون ذلك ، فبعث إليَّ في جوف الليل فصرت إليه ، فقال ؛ يا ريّان بلغني ان الناس يقولون ، ان بيعة الرضا (ع) كانت من تدبير الفضل بن سهل ؟ فقلت ؛ يا أمير المؤمنين يقولون هذا . قال ، ويحك يا ريّان ايجسر احد أن يجيء إلى خليفة قد استقامت له الرعية والقواد ، واستوت له الخلافة فيقول له إدفع الخلافة من يدك إلى غيرك ، ايجوز هذا في العقل ؟ قلت له ، لا والله يا امير المؤمنين ما يجسر على هذا احد ، قال ، لا والله ما كان كما يقولون ولكن ساخبرك بسبب ذلك .

إنه لما كتب إليَّ محمد اخي يامرني بالقدوم عليه فابيت عليه ، عقد لعلي بن عيسى بن ماهان وامره ان يقيِّدني بقيد ويجعل الجامعة في عنقي ، فورد علي بذلك الخبر ، وبعثتُ هرثمة بن اعين الى سجستان وكرمان وما والاهما فافسد علي امري ، وانهزم هرثمة وخرج صاحب السرير ، وغلب على كور خراسان ، من ناحيته ، فورد عليَّ هذا كله في اسبوع .

فلما ورد ذلك عليَّ لم يكن لي قوة بذلك ولا كان لي مال اتقوى به ، ورايت من قوادي ورجالي الفشل

والجبن ، أردت أن الحق بملك كابل ، فقلت في نفسي : ملك كابل رجل كافر ويبذل محمد له الأموال فيدفعني إلى يده ، فلم أجد وجهاً أفضل من أن أتوب إلى الله عزّ وجلّ من ذنوبي وأستعين به على هذه الأمور واستجير بالله عزّ وجلّ ، فأمرت بهذا البيت وأشار إلى بيت تكنس ، وصببت عليّ الماء ، ولبست ثوبين أبيضين وصليت أربع ركعات ، قرأت فيها من القرآن ما حضرني ودعوت الله عزّ وجلّ واستجرت به، وعاهدته عهداً وثيقاً بنية صادقة إن أفضى الله بهذا الأمر إليّ وكفاني عاديته ، وهذه الأمور الغليظة ، أن أضع هذا الأمر في موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه .

ثم قوي فيه قلبي فبعثت طاهراً إلى علي بن عيس بن هامان فكان من أمره ما كان ، ورددت هرثمة إلى رافع ( بن أعين ) فظفر به وقتله ، وبعثت إلى صاحب السرير فهادنته وبذلت له شيئاً حتى رجع ، فلم يزل أمري يقوى حتى كان من أمر محمد ما كان ، وأفضى الله إلي بهذا الأمر ، واستوى لي .

فلما وافى الله عزّ وجلّ لي بما عاهدته عليه ، أحببت أن أفي الله تعالى بما عاهدته ، فلم أر أحداً أحق بهذا الأمر من أبي الحسن الرضا (ع) ، فوضعتها فيه فلم يقبلها إلا أن عليّ ما قد عملت ، فهذا كان سببها )[38] .

ولعل هذا السبب كان أيضاً من الدواعي المساعدة إلاّ أن أبرز العوامل التي دفعته إلى ذلك كانت الظروف السياسية التي أشرنا إليها حيث كانت علاقته بالعباسيين سيئة لقتله أخاه أميناً ، كما أن القيادات العربية لم تكن راضية عنه بسبب تفضيله الصارخ للقيادات الفارسية ، أما أنصار البيت العلوي فقد رأوا ووجدوا الفرصة مؤاتية للإنتقام من السلطة العباسية الغاشمة ، وانتفضوا في كل مصر . فماذا بقي له من فرص الإستمرار في السلطة ؟

ولكن محصلة خطط المأمون ، والأقدار التي أجرت الرياح في اتجاهه كانت التالية .

١ – اكتساب ود أنصار البيت العلوي باستقدام الإمام الرضا لولاية عهده .

٢ – تصفية لكثير من الثورات بالأعمال العسكرية وبقدر من السماحة والعطاء .

٣ – الإلتفاف على العباسيين واكتساب ودّهم والعودة إلى خطهم ، بعد تصفية الفضل بن سهل ، وشهادة الإمام الرضا (ع) .

وهكذا تسنى للمأمون أن يستمر في الحكم وأن يحافظ على العرش العباسي من بعده .

## الإمام يستجيب للتحدّي :

لماذا قبل الإمام الرضا (ع) ولاية عهد المأمون ، وإذا كان مضطراً إلى ذلك فكيف استجاب لتحديه ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال لابد أن نلقي نظرة إلى واقع الحركة الرسالية عندما تولى الرضا مركز الإمامة من بعد والده الإمام الكاظم ( عليهما السلام ) .

---

(٣٨) المصدر : ( ص ١٣٧ - ١٣٨ ) .

في حديث شريف ، كان من المقدر أن يكون الإمام موسى بن جعفر هو قائم آل محمد (ص) إلاّ أن الشيعة أذاعوا الأمر فبدا لله فتأخر إلى أجل غير مسمى .

وهذا يعني أن الحركة الرسالية كادت تبلغ يومئذ إلى مستوى التصدي لشؤون الأمة . وبالرغم من أن الإمام الكاظم (ع) قضى نحبه في سجن هارون مسموماً ، إلاّ أن الحركة لم تصب بأذى كثير كما نستفيد ذلك من حديث شريف .

وهكذا كانت إمامة الإمام الرضا (ع) واحدة من فرصتين :

الأولى : القيام بحركة مسلحة قد تنتهي إلى دمار الحركة .

الثانية : الإستجابة لتحدي المأمون بقبول ولاية العهد للعمل من خلال السلطة دون إعطاء شرعية لها، كما فعل النبي يوسف حينما طلب من عزيز مصر بأن يجعله على خزائن الأرض . ثم قام بما استطاع إليه سبيلا ، من الإصلاح من داخل النظام ..

وكما فعل الإمام أمير المؤمنين (ع) مع الخلفاء الذين سبقوه عندما قبل بالدخول في الشورى كواحد من ستة أعضاء .

وأقل ما في هذه الفرصة الثانية أنها تشكل حماية للحركة الرسالية من التصفية ، والقبول بها كحركة معارضة رسمية .

وهكذا نعرف أن الإمام لم يترك قيادته للحركة الرسالية – بل استفاد من مركزه الجديد ، كما استفاد الشيعة لدعم مسيرة حركتهم الرسالية التي فرضت نفسها على النظام فرضاً .

ولتحقيق هذه الغايات اتبع الإمام النهج التالي :

أولاً : امتنع عن قبول الخلافة التي عرضها عليه المأمون أولاً ، ولعل السبب في رفض الخلافة كان أمرين :

ألف : إن تلك الخلافة كانت ثوباً خاصاً بأمثال المأمون وإنها لا تليق بحجة الله البالغة ، لأن بناءها كان قائماً على أساس فاسد ، جيشها ونظامها وقوانينها وكل شيء فيها ، ولو قبل الإمام بها كان عليه أن يهدمها ويبنيها من جديد ولم يكن ذلك أمراً ممكناً في تلك الظروف .

باء : إن المأمون لم يكن صادقاً في عرضه ، فهو كان يدبر حيلة مع حزبه الماكر للإيقاع بالإمام إن قبل ، بعد أخذ الشرعية منه ، كما فعل بالنسبة إلى ولاية العهد .

ثانياً : اشترط في قبوله لولاية العهد ألاّ يتدخل في شؤون الدولة من قريب أو بعيد ، مما أفقدهم القدرة على تمشية الأمور باسم الإمام وكسب الشرعية له وأبان للعالمين ذلك اليوم وللتاريخ إلى الأبد أنه لا يعترف بشرعية النظام بأي وجه . وقد حاول المأمون مراراً أن يستدرج الإمام للتدخل في الشؤون فلم يقبل والحديث التالي يدل على ذلك :

إن المأمون لمّا أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بإمرة المؤمنين ، وللرضا (ع) بولاية العهد ، وللفضل بن

سهل بالوزارة ، امر بثلاثة كراسي فنصبت لهم ، فلما قعدوا عليها اذن للناس ، فدخلوا يبايعون فكانوا يصفقون بأيمانهم على أيمان الثلاثة من اعلى الإبهام إلى الخنصر ويخرجون حتى بايع في آخر الناس فتى من الأنصار فصفق بيمينه من الخنصر إلى الإبهام ، فتبسم ابو الحسن الرضا (ع) ثم قال :

" كل من بايعنا بايع بفسخ البيعة غير هذا الفتى فإنه بايعنا بعقدها " .

فقال المامون : وما فسخ البيعة من عقدها ؟ قال أبو الحسن (ع) :

" عقد البيعة هو من اعلى ا لخنصر إلى أعلى الإبهام وفسخها من أعلى الإبهام إلى أعلى الخنصر " .

قال : فماج الناس في ذلك وأمر المامون بإعادة الناس إلى البيعة على ما وصفه ابو الحسن (ع) وقال الناس : كيف يستحق الإمامة من لا يعرف عقد البيعة ، إن من علم لأولى بها ممن لا يعلم ، قال : فحمله ذلك على ما فعله من سمه [٣٩] .

ثالثاً : منذ الأيام الأولى لولايته للعهد انتهز الإمام كل فرصة ممكنة لنشر بصائر الوحي ، وأظهر أنه أحق بالخلافة من غيره ، فمثلاً نقرأ في وثيقة ولايته للعهد ما يدل على أن المامون إنما عمل بواجبه في الأحتفاء بأهل بيت الرسالة ، دعنا نقرأ ونتدبر معاً الوثيقة التالية :

" بسم ا لله الرحمن الرحيم الحمد لله الفعّال لما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وصلى الله على نبيّه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين .

اقول وانا علي بن موسى بن جعفر أن أمير المؤمنين عضّده الله بالسداد ووفقّه للرشاد ، عرف من حقنا ما جهله غيره ، فوصل ارحاماً قطعت ، وآمن نفوساً فزعت ، بل احياها وقد تلفت ، وأغناها إذ افتقرت ، مبتغياً رضى رب العالمين ، لا يريد جزاء من غيره ، وسيجزي الله الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين .

وإنه جعل إلي عهده ، والأمرة الكبرى إن بقيت بعده ، فمن حل عقدة أمر الله بشدها ، وقصم عروة أحب الله إيثاقها ، فقد أباح حريمه ، وأحل محرمة ، إذ كان بذلك زارياً على الإمام ، منتهكاً حرمة الإسلام ، بذلك جرى السالف ، فصبر منه على الفلتات ، ولم يعترض بعدها على العزمات خوفاً على شتات الدين ، واضطراب حبل المسلمين ، ولقرب أمر الجاهلية ، ورصد فرصة تنتهز ، وبائقة تبتدر .

وقد جعل لله على نفسي أن استرعاني أمر المسلمين ، وقلّدني خلافته ، والعمل فيهم عامة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة بطاعته وطاعة رسوله (ص) وأن لا أسفك دماً حراماً ولا أبيح فرجاً ، ولا مالاً إلّا ما سفكته حدوده ، وأباحته فرائضه ، وأن اتخير الكفاة جهدي وطاقتي ، وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً يسالني الله عنه ، فإنه عزّ وجلّ يقول :

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ ( الاسراء / ٣٤ ) .

---

(٣٩) المصدر : ( ص ١٤٤ ) .

وإن احدثت او غيّرت او بدَّلت كنت للغير مستحقاً ، وللنكال متعرضاً ، واعوذ بالله من سخطه ، واليه ارغب في التوفيق لطاعته ، والحول بيني وبين معصيته في عافية لي وللمسلمين .

والجامعة والجفر يدلان على ضد ذلك ، وما ادري ما يفعل بي ، ولا بكم إن الحكم إلاّ لله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين .

لكني امتثلت امر امير المؤمنين ، وآثرت رضاه ، والله يعصمني وإياه ، واشهدت الله على نفسي بذلك ، وكفى بالله شهيداً "[٤٠] .

وهناك بصائر نستوحيها من كلمات الرضا المضيئة :

اولاً : قوله (ع) : " عرف من حقنا ما جهله غيره إلخ " .

حيث عرّض بهارون والد المامون ، وبالنظام العباسي كله ، الذين لم يرعوا حرمة رسول الله (ص) .

ثانياً : إنه قال : فمن حل عقدة امر الله بشدها إلخ ، إشارة إلى خبث السرائر ، وحبك المؤامرات ضد الولاية .

ثالثاً : قوله : بذلك جرى السالف إلى آخره ، لعله إشارة إلى سكوت الإمام امير المؤمنين عن جهة او صبر الائمة على الأذى خوفاً على شتات الدين واضطراب حبل المسلمين .

رابعاً : ثم بيان برنامجه للحكم الذي يخالف ما كان عليه عامة بني العباس ، وبضمنهم المامون ذاته .

خامساً : وقال اخيراً : والجامعة والجفر يدلان على ضد ذلك ، حيث بيّن بذلك انهم اصحاب علم رسول الله وانهم احق بالأمر منهم .

وعندما تهيء الناس للبيعة لفت الإمام نظره إلى ان طريقتهم للبيعة خاطئة مما اثار زوبعة في الناس ، دعنا نستمع إلى الحديث التالي الذي جرى بين المامون والإمام (ع) :

" يا ابا الحسن انظر بعض من تثق به توليه هذه البلدان ، التي قد فسدت علينا ، فقلت له : تفي لي وافي لك ، فإني إنما دخلت فيما دخلت على ان لا آمر فيه ولا انهى ، ولا اعزل ولا اولي ولا اسير حتى يقدمني الله قبلك ، فوالله إن الخلافة لشيء ما حدثت به نفسي ، ولقد كنت بالمدينة اتردد في طرقها على دابتي ، وإن اهلها وغيرهم يسالوني الحوائج فاقضيها لهم ، فيصيرون كالأعمام لي ، وإن كتبي لنافذة في الأمصار ، وما زدتني في نعمة هي علي من ربي فقال : افي لك "[٤١] .

وكانت من اعظم ما بيّن فضل الإمام ، مجالس المحاجّة التي كان يعقدها بين فترة وأخرى ، ولنستعرض معاً واحداً من هذه المجالس لنرى ماذا يدور فيها :

( قال الحسن بن محمد النوفلي : فبيّنا نحن في حديث لنا عند ابي الحسن الرضا (ع) إذ دخل علينا ياسر ، وكان يتولى امر ابي الحسن (ع) فقال : يا سيدي إن اميري يقرؤك السلام ويقول : فداك اخوك إنه

---

(٤٠) المصدر : ( ص ١٥٢ – ١٥٣ ) .

(٤١) المصدر : ( ص ١٤٤ ) .

اجتمع إليَّ أصحاب المقالات ، وأهل الأديان ، والمتكلمون من جميع الملل ، فرأيك في البكور علينا إن أحببت كلامهم ، وإن كرهت ذلك فلا تتجشم ، وإن أحببت أن نصير اليك خف ذلك علينا ، فقال أبو الحسن (ع) .

" أبلغه السلام وقل له : قد علمت ما أردت ، وأنا صائر إليك بكرة إن شاء الله تعالى " [42] .

ثم بيَّن الإمام ما يدل على أن هدف المامون من تشكيل مثل هذه المجالس ، النيل من قدر الإمام حيث يظن انه قد يتوقف عن محاجة خصومه ولكن الإمام قال للنوفلي ( الراوي ) :

يا نوفلي أتحب أن تعلم متى يندم المامون ؟ قلت : نعم ، قال : إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم ، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم وعلى أهل الزبور بزبورهم ، وعلى الصابئين بعبرانيتهم ، وعلى أهل الهرابذة بفارسيتهم ، وعلى أهل الروم بروميتهم ، وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم ، فإذا قطعت كل صنف ودحضت حجته ، وترك مقالته ورجع إلى قولي ، علم المامون أن الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحق له ، فعند ذلك تكون الندامة منه ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم " [43] .

ثم بيَّن الحديث — بعد هذا الكلام — وضع الجلسة وقال :

( فلما دخل الرضا (ع) قام المامون وقام محمد بن جعفر وجميع بني هاشم ، فما زالوا وقوفاً والرضا (ع) جالس مع المامون حتى أمرهم بالجلوس فجلسوا فلم يزل المامون مقبلاً عليه يحدثه ساعة ثم التفت إلى الجاثليق فقال : ياجاثليق هذا ابن عمي علي بن موسى بن جعفر ، وهو من ولد فاطمة بنت نبينا وابن علي بن أبي طالب (ع) فأحب أن تكلمه وتحاجه وتنصفه ، فقال الجاثليق : يا أمير المؤمنين كيف أحاجّ رجلاً يحتجّ عليّ بكتاب أنا منكره ، ونبي لا أؤمن به فقال الرضا (ع) : يا نصراني فإن احتججت عليك بإنجيلك أتقرّ به ؟

فقال الجاثليق : وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل ، نعم والله أقرّ به على رغم أنفي . ثم قرأ الرضا (ع) عليه الإنجيل ، وأثبت عليه أن نبينا (ص) مذكور فيه ثم أخبره بعدد حواري عيسى (ع) وأحوالهم ، واحتج بحجج كثيرة أقرّ بها ثم قرأ عليه كتاب شعيا وغيره إلى أن قال الجاثليق : ليسألك غيري فلا وحق المسيح ما ظننت أن في علماء المسلمين مثلك . فالتفت الرضا (ع) الى رأس الجالوت واحتجّ عليه بالتوراة والزبور وكتاب شعيا وحيقوق حتى أفحم ولم يُحِر جواباً .

ثم دعا (ع) بالهربذ الأكبر واحتجّ عليه حتّى انقطع هربذ مكانه .

فقال الرضا (ع) : يا قوم إن كان فيكم أحد يخالف الإسلام وأراد أن يسأل فليسأل غير محتشم فقام إليه عمران الصابيّ وكان واحداً من المتكلمين فقال : يا عالم النّاس لولا أنك دعوت إلى مسألتك لم أقدم عليك بالمسائل ، فلقد دخلت الكوفة والبصرة ، والشام والجزيرة ، ولقيت المتكلّمين فلم أقع على

---

(42) المصدر : ( ص ١٧٤ ) .

(43) المصدر : ( ص ١٧٥ ) .

أحد يثبت لي واحداً ليس غيره قائماً بوحدانيّته افتاذن ان اسالك ؟ قال الرضا (ع) : إن كان في الجماعة عمران الصابيُّ فانت هو ، قال : انا هو ، قال : سل يا عمران ، وعليك بالنصفة وإيّاك والخطل والجور ، فقال : والله يا سيّدي ما اريد إلاّ ان تثبت لي شيئاً أتعلّق به ، فلا اجوزه ، قال : سل عمّا بدا لك .

فازدحم الناس وانضمَّ بعضهم إلى بعض ، فاحتج الرضا (ع) عليه وطال الكلام بينهما إلى الزّوال فالتفت الرضا (ع) الى المامون ، فقال : الصلاة قد حضرت فقال عمران : يا سيدي لاتقطع عليَّ مسالتي فقد رقَّ قلبي قال الرضا (ع) : نصلّي ونعود ، فنهض ونهض المامون ، فصلّى الرضا (ع) داخلاً وصلّى الناس خارجاً خلف محمد بن جعفر ، ثمّ خرجا فعاد الرضا (ع) إلى مجلسه ودعا بعمران ، فقال : سل يا عمران ، فساله عن الصانع تعالى وصفاته وأُجيب إلى ان قال : افهمت يا عمران ؟ قال : نعم يا سيّدي قد فهمت ، واشهد ان الله على ما وصفت ، ووحّدت وانّ محمداً عبده المبعوث بالهدى ودين الحقِّ ، ثمَّ خرَّ ساجداً نحو القبلة واسلم .

قال الحسن بن محمد النوفليُّ : فلما نظر المتكلّمون الى كلام عمران الصابي وكان جدلاً لم يقطعه عن حجته أحد قطّ لم يدن من الرضا (ع) أحد منهم ، ولم يسالوه عن شيء ، وأمسينا ، فنهض المامون والرضا (ع) فدخلا ، وانصرف الناس وكنت مع جماعة من اصحابنا إذ بعث إليَّ محمد بن جعفر فاتيته فقال لي : يا نوفلي اما رايت ما جاء به صديقك ، لا والله ما ظننت ان علي بن موسى خاض في شيء من هذا قط ولا عرفناه به ، إنه كان يتكلم بالمدينة او يجتمع إليه أصحاب الكلام ؟ قلت : قد كان الحجاج ياتونه فيسالونه عن اشياء من حلالهم وحرامهم فيجيبهم ، وربما كلم من ياتيه بحاجة .

فقال محمد بن جعفر : يا ابا محمد إني أخاف عليه أن يحسده هذا الرجل فيسمه أو يفعل به بلية ، فاشر عليه بالإمساك عن هذه الأشياء ، قلت : إذاً لا يقبل مني ، وما اراد الرجل إلاّ امتحانه ليعلم هل عنده شيء من علوم آبائه (ع) فقال لي : قل له : إن عمك قد كره هذا الباب ، واحب ان تمسك عن هذه الأشياء لخصال شتى .

فلما انقلبت إلى منزل الرضا (ع) اخبرته بما كان من عمه محمد بن جعفر فتبسم (ع) ثم قال :

حفظ الله عمي ما أعرفني به لم كره ذلك ، يا غلام صر إلى عمران الصابي فائتني به فقلت :

جعلت فداك انا أعرف موضعه وهو عند بعض إخواننا من الشيعة ، قال : فلا باس فقرّبوا إليه دابة ، فصرت إلى عمران فاتيته به ، فرحب به ودعا بكسوة فخلعها عليه ، وحمله ودعا بعشرة آلاف درهم ، فوصله بها .

فقلت : جعلت فداك حكيت فعل جدك أمير المؤمنين (ع) قال : هكذا يجب ، ثم دعا (ع) بالعشاء فاجلسني عن يمينه واجلس عمران عن يساره ، حتى إذا فرغنا قال لعمران : انصرف مصاحباً وبكّر علينا نطعمك طعام المدينة ، فكان عمران بعد ذلك يجتمع إليه المتكلمون من أصحاب المقالات ، فيبطل امرهم حتى اجتنبوه ووصله المامون بعشرة آلاف درهم ، واعطاه الفضل مالاً ، وحمله وولاه الرضا (ع)

صدقات بلخ فاصاب الرغائب ) [٤٤] .

وقصة استعداد الإمام لصلاة العيد التي ارهبت النظام دليل آخر على أن الإمام لم يترك فرصة إلاّ واستفاد منها لإعلان دعوته ، وبيان انه الأحق بالخلافة من البيت العباسي .

( لما حضر العيد بعث المامون إلى الرضا (ع) يساله ان يركب ويحضر العيد ويخطب لتطمئن قلوب الناس ، ويعرفوا فضله ، وتقرّ قلوبهم على هذه الدولة المباركة ، فبعث إليه الرضا (ع) وقال : علمت ما كان بيني وبينك من الشروط في دخولي في هذا الأمر ، فقال المامون : إنما اريد بهذا ان يرسخ في قلوب العامة والجند والشاكرية هذا الأمر ، فتطمئن قلوبهم ويقرّوا بما فضّلك الله تعالى به ، فلم يزل يرادّه الكلام في ذلك . فلما الح عليه قال :

يا امير المؤمنين إن اعفيتني من ذلك فهو احب إلي ، وإن لم تعفني خرجت كما كان يخرج رسول الله (ص) وكما خرج امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) .

قال المامون : اخرج كما تحب . وأمر المامون القوّاد والناس ان يبكروا إلى باب ابي الحسن (ع) فقعد الناس لأبي الحسن (ع) في الطرقات والسطوح من الرجال والنساء والصبيان واجتمع القوّاد على باب الرضا (ع) .

فلما طلعت الشمس قام الرضا (ع) فاغتسل وتعمم بعمامة بيضاء من قطن والقى طرفاً منها على صدره ، وطرفاً بين كتفيه وتشمّر ثم قال لجميع مواليه : افعلوا مثل ما فعلت ، ثم اخذ بيده عكازة وخرج ونحن بين يديه ، وهو حاف قد شمّر سراويله إلى نصف الساق وعليه ثياب مشمّرة .

فلما قام ومشينا بين يديه رفع رأسه إلى السماء وكبر اربع تكبيرات ، فخيل إلينا ان الهواء والحيطان تجاوبه ، والقوّاد والناس على الباب قد تزينوا ولبسوا السلاح وتهيأوا باحسن هيئة ، فلما طلعنا عليهم بهذه الصورة حفاة قد تشمّرنا ، وطلع الرضا وقف وقفة على الباب وقال :

" الله اكبر الله اكبر الله اكبر على ما هدانا ، الله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام ، والحمد لله على ما ابلانا " ورفع بذلك صوته ورفعنا اصواتنا .

فتزعزعت مرو من البكاء والصياح فقالها : ثلاث مرات فسقط القوّاد عن دوابهم ، ورموا بخفافهم ، لما نظروا إلى ابي الحسن (ع) وصارت مرو ضجة واحدة ولم يتمالك الناس من البكاء والضجة .

فكان ابو الحسن (ع) يمشي ويقف في كل عشرة خطوات وقفة يكبر الله اربع مرات فيتخيل إلينا ان السماء والأرض والحيطان تجاوبه ، وبلغ المامون ذلك ، فقال له الفضل بن سهل ذو الرئاستين : يا امير المؤمنين إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس فالراي ان تساله ان يرجع ، فبعث إليه المامون فساله الرجوع فدعا ابو الحسن (ع) بخفه فلبسه ورجع ) [٤٥] .

---

(٤٤) المصدر : ( ص ١٧٥ ) .

(٤٥) المصدر : ( ص ١٤٣ - ١٣٥ ) .

## الفصل الثالث

# شهادته ومـزاره

وأخيراً دسّ إليه السم فمضى شهيداً شأن سائر أئمة الهدى الذين جاء عنهم الحديث الشريف : " ما منا إلاّ مسموم أو مقتول " .

ولكن من الذي فعل ذلك ؟ يرى طائفة كبيرة من العلماء أن المأمون كان وراء ذلك ، بينما يستبعد ذلك البعض ويتساءل عما إذا كان المأمون بهذا المستوى من الدناءة أن يلوث يده بهذه الجريمة النكراء؟

وقد رأيت بعضهم قد ساق عشر أدلة على براءة المأمون عن دم سيدنا الإمام الرضا (ع) ولكنها عند التمحيص تنتهي إلى دليل واحد هو استبعاد وقوع تلك الجريمة من شخص نصب نفسه للدفاع عن أفكار المذهب الشيعي ، وتبني أفضلية الإمام (ع) .

ولكن إذا عرفنا أن المأمون العباسي كان واحداً من الخلفاء العباسيين الذين تميز نظامهم بالغدر بأنصارهم ، أو بالذين يخشون منهم من تابعيهم ، ابتداء من أبو مسلم الخراساني وإلى برمك ، وانتهاءً بفضل بن سهل . وإن المأمون كان متسنماً قمة هرم ذلك النظام الذي قد بنيت مؤسساته على أساس البغي والمكر والغيلة ، فما الذي يمنعه عن اتباع سيرة أسلافه ، وممارسة جرائم أجداده ؟

على أن عقائده في خلق القرآن أو تفضيل الإمام علي على سائر الصحابة أو ما أشبه لم تجعله من شيعة علي وآل علي (ع) ، لأن استمراره في حكم المسلمين بذاته أكبر جريمة ، وأعظم ذنب ، وأعتى طغيان في منطق علي وشيعة علي . إذ أنه نوع من ادعاء الربوبية ومنازعة الله في الألوهية !

ثم إن سيرته – مع الناس من القتل والتنكيل ونشر الفساد بمختلف ألوانه – ، تتنافى وأبسط مبادئ التشيع لآل البيت (ع) . فماذا الذي يمنعه إذاً من ارتكاب جريمة القتل .. بحق آل بيت الرسالة ؟ .

وإننا لنقرأ في صفحات التاريخ ما يهدينا إلى أن شخص المأمون قد أشرف على عملية اغتيال الإمام عبر جهازه السري ، الذي يشابه في أيامنا مخابرات قصر الإمارة أو الرئاسة في الدولة الأشد ديكتاتوريةً في العالم .

وقد جاءت هذه الخطوة بعد أن قمعت أو هدأت ثورات العلويين في أطراف الأرض ، وانتهت فلسفة استدعاء الإمام إلى خراسان . وبعد أن بدأت تتجمع الغيوم فوق بغداد ، وظهرت ارهاصات ثورة العباسيين ، وأزمع المأمون على العودة إلى بغداد لاسترضاء بني عمه .. والعودة إلى سيرة أجداده من لبس السواد وتوزيع المناصب على ذوي قرباه .

ولعل الحديث التالي يوضح هذه الحالة التي تنبه لها الإمام الرضا (ع) واشار إليها للمامون ربما ليعرف هذا الأخير أن الإمام واقف على نواياه ، وانه إنما يسايره حسب المصلحة العامة .

قال الإمام الرضا للمامون يوماً في حديث مفصل :

" اتق الله يا أمير المؤمنين في أمور المسلمين ، وارجع إلى بيت النبوة ، ومعدن المهاجرين والأنصار ، ثم قال : أرى أن تخرج من هذه البلاد ، وتتحول إلى موضع آبائك واجدادك ، وتنظر في أمور المسلمين ، ولا تكلهم إلى غيرك ، فإن الله عز وجل سائلك عما ولاّك "[٤٦] .

ثم إن الفضل بن سهل تنبه إلى ذلك أيضاً فتراه يمتنع عن الرحيل مع المامون ، ويعتذر في ذلك إليه بالقول : إن ذنبي عظيم عند أهل بيتك وعند العامة ، والناس يلومونني بقتل اخيك المخلوع ، وبيعة الرضا ولاءً من السعادة والحساد ، وأهل البغي ان يسعوا بي ، فدعني اخلفك بخراسان )[٤٧] .

ولكن المامون يصد عليه بذلك وقد دبر له أمراً . إنه لا يريد اغتياله في معقل قوته وبين انصاره واعوانه بل في الطريق . و– فعلاً تقول الرواية – فلما كان بعد ذلك ( والحوار بين المامون والفضل ) – بأيام ونحن في بعض المنازل – دخل الفضل الحمام فدخل عليه قوم بالسيوف فقتلوه ، واجتمع القواد والجند ومن كان من رجال ذي الرئاستين على باب المامون ، فقالوا : اغتاله وقتله فلنطلبن بدمه[٤٨] .

وهكذا تخلص المامون من أبرز مراكز القوى داخل سلطته ، ولم يبق امامه إلاّ الإمام الرضا (ع) الذي تم اغتياله بعد ذلك بأيام قلائل .. أوَلا يدل قرب وفاته (ع) وقتل الفضل على وجود مؤامرة قذرة ضده .

هكذا يتاكد لنا ما يذهب إليه المشهور من العلماء الشيعة بأن الإمام استشهد بسم المامون حسبما يقول العلاّمة المجلسي بقوله : الأشهر بيننا انه مضى شهيداً بسم المامون ، ونضيف .. وينسب إلى السيد علي بن طاوس انه انكر ذلك[٤٩] .

دعنا نستمع إلى نبأ شهادته من لسان المعاصرين :

الف : كان أبو الصلت الهروي من المعاصرين للإمام ومن صانعي الأحداث لو المراقبين لها عن كثب لصلته الوثيقة بالإمام ، فيساله احمد بن علي الأنصاري عن سبب اغتيال المامون للإمام الرضا (ع) فيقول له : ( كيف طابت نفس المامون بقتل الرضا (ع) مع إكرامه ومحبته له ، وما جعل له من ولاية العهد بعده ؟ فقال : إن المامون إنما كان يكرمه ويحبه لمعرفته بفضله ، وجعل له ولاية العهد من بعده ليري الناس انه راغب في الدنيا فيسقط محله من نفوسهم ، فلما لم يظهر منه في ذلك للناس إلاّ ما ازداد به فضلاً عندهم ومحلاً في نفوسهم ، جلب عليه المتكلمين من البلدان طمعاً في ان يقطعه واحد

---

(٤٦) بحار الأنوار : ( ج ٤٩ ، ص ١٦٥ ) .

(٤٧) المصدر .

(٤٨) المصدر : ( ص ١٦٩ ) .

(٤٩) المصدر : ( ص ٣١١ ) .

منهم فيسقط محله عند العلماء ، وبسببهم يشتهر نقصه عند العامة .

فكان لا يكلّمه خصم من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين والدهرية ولا خصم من فرق المسلمين المخالفين له إلاّ قطعه والزمه الحجة ، وكان الناس يقولون : والله إنه أولى بالخلافة من المامون فكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه فيغتاظ من ذلك ويشتد حسده ، وكان الرضا (ع) لا يحابي المامون من حق ، وكان يجيبه بما يكره في أكثر احواله فيغيظه ذلك ، ويحقده عليه ولا يظهره له ، فلما أعيته الحيلة في أمره اغتاله فقتله بالسم )[50] .

باء : وينقل الشيخ المفيد — رضوان الله عليه — مجمل قصة شهادته ، مع بعض التفسير لأسباب غيظ المامون منه — فيقول :

( دخل الرضا (ع) يوماً عليه فرآه يتوضا للصلاة يصب الماء على يديه ، فقال : لا تشرك يا أمير المؤمنين بعبادة ربك احداً .

فصرف المامون الغلام وتولى تمام وضوء نفسه وزاد ذلك في غيظه ووجده ) .

وكان (ع) يزري على الفضل والحسن ابني سهل عند المامون ، إذا ذكرهما ويصف له مساوئهما وينهاه عن الإصغاء إلى قولهما ، وعرفا ذلك منه ، فجعلا يخطئان عليه عند المامون ، ويذكران له عنده ما يبعده منه ، ويخوفانه من حمل الناس عليه فلم يزالا كذلك حتى قلبا رأيه فيه ، وعمل على قتله (ع) .

فاتفق انه اكل هو والمامون يوماً طعاماً فاعتل منه الرضا (ع) واظهر المامون تمارضاً ، فذكر محمد بن علي بن حمزة ، عن منصور بن بشر ، عن أخيه عبد الله بن بشر ، قال : أمرني المامون أن أطول اظفاري على العادة ، ولا اظهر ذلك لأحد ففعلت ، ثم استدعاني فاخرج إلي شيئاً يشبه التمر الهندي فقال لي : اعجن هذا بيديك جميعاً ، ففعلت ، ثم قام وتركني ودخل على الرضا (ع) وقال له : ما خبرك ؟

قال : ارجو ان اكون صالحاً .

قال له : أنا اليوم بحمد الله ايضاً صالح ، فهل جاءك احد من المترفقين في هذا اليوم ؟ قال : لا ، فغضب المامون وصاح على غلمانه ثم قال : فخذ ماء الرمان الساعة فإنه مما لا يستغنى عنه ، ثم دعاني فقال : ائتنا برمّان فاتيته به ، فقال لي : اعصر بيديك ، ففعلت وسقاه المامون الرضا (ع) بيده وكان ذلك سبب وفاته ، فلم يلبث إلاّ يومين حتى مات (ع) .

وذكر عن أبي الصلت الهروي انه قال : دخلت على الرضا (ع) وقد خرج المامون من عنده .

فقال لي : يا أبا الصلت قد فعلوها ، وجعل يوحد الله ويمجده .

وروي عن محمد بن الجهم انه قال : كان الرضا (ع) يعجبه العنب ، فاخذ له منه شيئاً فجعل في موضع اقماعه الأبر اياماً ، ثم نزع وجيء به إليه ، فاكل منه وهو في علته التي ذكرنا فقتله ، وذكر أن ذلك

---

(٥٠) المصدر : ( ص ٢٩٠ ) .

من لطيف السموم .

ولما توفي الرضا (ع) كتم المامون موته يوماً وليلة ، ثم أنفذ إلى محمد بن جعفر الصادق (ع) وجماعة آل ابي طالب الذين كانوا عنده ، فلما حضروه نعاه إليهم وبكى ، واظهر حزناً شديداً وتوجع وأراهم إياه صحيح الجسد ، وقال : يعزّ علي يا اخي أن أراك في هذه الحال . قد كنت أؤمّل أن اقدم قبلك ، فابى الله إلّا ما أراد .

ثم أمر بغسله وتكفينه وتحنيطه ، وخرج مع جنازته فحملها حتى أتى إلى الموضع الذي هو مدفون فيه الآن فدفنه ، والموضع دار حميد بن قحطبة في قرية يقال لها سناباد على دعوة من نوقان من أرض طوس ، وفيها قبر هارون الرشيد وقبر أبي الحسن (ع) بين يديه في قبلته ، ومضى الرضا (ع) ولم يترك ولداً نعلمه إلّا ابنه الإمام بعده أبا جعفر محمد بن علي (ع) وكان سنّه يوم وفاة ابيه سبع سنين .[٥١]

جيم : ويصف ياسر الخادم اللحظات الأخيرة من حياة الإمام الرضا (ع) حيث تجلت فيها روحه الربانية وخلقه المحمدي فيقول :

( لما كان بيننا وبين طوس سبعة منازل اعتل أبو الحسن (ع) فدخلنا طوس وقد اشتدت به العلة ، فبقينا بطوس أياماً ، فكان المامون يأتيه في كل يوم مرتين فلما كان في آخر يومه الذي قبض فيه كان ضعيفاً في ذلك اليوم فقال لي بعدما صلى الظهر : يا ياسر أكل الناس شيئاً ؟

قلت : يا سيدي من يأكل ههنا مع ما أنت فيه .

فانتصب (ع) ثم قال : هاتوا المائدة .

ولم يدع من حشمه أحداً إلّا أقعده معه على المائدة ، يتفقّدهم واحداً واحداً ، فلما أكلوا قال : ابعثوا إلى النساء بالطعام .

فحمل الطعام إلى النساء فلما فرغوا من الأكل اغمي عليه وضعف ، فوقعت الصيحة وجاءت جواري المامون ونساؤه حافيات حاسرات ، ووقعت الوجبة بطوس وجاء المامون حاسراً يضرب على رأسه ، ويقبض على لحيته ، ويتأسف ويبكي وتسيل الدموع على خديه فوقف على الرضا (ع) وقد أفاق ، فقال : يا سيدي والله ما أدري أي المصيبتين أعظم على فقدي لك وفراقي إياك أو تهمة الناس لي أني اغتلتك وقتلتك ، قال : فرفع طرفه إليه ثم قال :

" أحسن يا أمير المؤمنين معاشرة أبي جعفر ، فإن عمرك وعمره هكذا وجمع بين سبابتيه " .[٥٢]

كما أنه يصف الحوادث التي وقعت بعد وفاته مباشرةً ، فيقول :

( فلما كان من تلك الليلة ، قضى عليه بعد ما ذهب من الليل بعضه ، فلما أصبح اجتمع الخلق وقالوا: هذا قتله واغتاله يعني المامون ، وقالوا : قتل ابن رسول الله وأكثروا القول والجلبة ، وكان محمد بن

---

(٥١) المصدر : ( ص ٣٠٨ ) .

(٥٢) المصدر : ( ص ٢٩٩ ) .

جعفر بن محمد (ع) استأمن إلى المأمون وجاء إلى خراسان وكان عم أبي الحسن ، فقال له المأمون : يا أبا جعفر أخرج إلى الناس وأعلمهم أن أبا الحسن لا يخرج اليوم وكره أن يخرجه فتقع الفتنة ، فخرج محمد بن جعفر إلى الناس فقال : أيها الناس تفرّقوا فإن أبا الحسن لا يخرج اليوم ، فتفرق الناس وغسل أبو الحسن في الليل ، ودفن ) [53] .

وبقي ضريح الإمام الرضا (ع) مزاراً يؤمه شيعة أهل البيت (ع) ومحبوهم لما أُثر عن النبي (ص) وأهل بيته من الترغيب في ذلك ، فقد روي عن النبي (ص) أنه قال :

" ستدفن بضعة مني بأرض خراسان لا يزورها مؤمن إلاّ أوجب الله عزّ وجلّ له الجنة ، وحرّم جسده على النار " [54] .

وروي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال :

" يخرج ولد من ابني موسى اسمه اسم أمير المؤمنين ( عليه الصلاة والسلام ) إلى أرض طوس ، وهي خراسان يقتل فيها بالسم ، فيدفن فيها غريباً ، من زاره عارفاً بحقه أعطاه الله تعالى أجر من أنفق من قبل الفتح وقاتل " [55] .

وطفق الشعراء يرثونه بما يفتت كبد الحجر الماً . كما أخذوا بفضح أولئك الغدرة الذين اغتالوه بالسم ، فقال دعبل ضمن قصيدة :

أَرعتـم ذئـابـاً مـن أميّـة وانتحـت ... عليهـم دراكـاً أزمـة وسنـون
وعاشت بنـوا العبّـاس في الدين عيشـة ... تحكـم بـه ظالـم وظنيـن
وسمـوا رشيـداً ليـس فيهـم لرشـده ... ومـا ذاك مـأمـون وذاك أميـن
فمـا قبلـت بالرشـد منهـم رعايـة ... ولا لـولـي بالأمـانـة ديـن
رئيسهـم غـاد وطفـلاً بعـده ... لهـذا دنـا بـاد وذاك مجـون
ألا أيهـا القبـر الغـريـب محلـه ... بطـوس عليـك الساريـات هتـون [56] .

وقال أبو فراس الحمداني يرثي الرضا (ع) :

بـاؤوا بقتـل الرضـا مـن بعـد بيعتـه ... وأبصـروا بعضـه من رشدهـم وعمـوا
عصابـة شقيت مـن بعد مـا سعـدت ... ومعشـر هلكـوا مـن بعدمـا سلمـوا
لا بيعـة ردعتهـم علـى دمـائهـم ... ولا يميـن ولا قـربـى ولا رحـم [57]

---

(٥٣) المصدر : ( ص ٢٩٩ ) .

(٥٤) المصدر : ( ص ٢٨٤ ) .

(٥٥) المصدر : ( ص ٢٨٦ ) .

(٥٦) المصدر : ( ص ٣١٥ ) نقلاً عن مقاتل الطالبيين : ( ص ٣٧٢ - ٣٧٣ ) .

(٥٧) المصدر : ( ص ٣١٤ ) .

## كلماته المضيئة :

هل يكفي الإنتماء الاسمي إلى الإمام الرضا (ع) من دون معرفته ، والاستضاءة بنور علمه ومعارفه ؟ وكيف يرجو شفاعة النبي وأهل بيته يوم الجزاء من لم يتبع سننهم ، ويهتدي بنورهم ؟

إن علينا ان نبحث عن وصاياهم التي خلفوها لنا كنوز لا تنفد ، وتلاد نعم لا تضاهى .

والإمام الرضا (ع) خلّف ميراثاً عظيماً من المعارف والعلوم ، خصوصاً في ا لحكمة الإلهية وبيان فلسفة الأحكام والرد على المذاهب الباطلة .

ونحن في خاتمة كتابنا الذي تشرّف باسمه نثبت وصاياه الرشيده واشعاره الحكيمة ، لعلنا ننتفع بها ،

☆ قال علي بن شعيب :

( دخلت على ابي الحسن الرضا (ع) فقال لي : يا علي من احسن الناس معاشاً ؟ قلت : يا سيدي انت اعلم مني ، فقال : يا علي من حسن معاش غيره في معاشه ، يا علي من اسوا الناس معاشاً ؟ قلت : انت اعلم ، قال : من لم يعش غيره في معاشه ، يا علي احسنوا جوار النعم فإنها وحشية ما نات عن قوم فعادت إليهم ، يا علي إن شر الناس من منع رفده واكل وحده وجلد عبده ، احسن الظن بالله فإن من حسن ظنه بالله كان الله عند ظنه ، ومن رضي بالقليل من الرزق قبل منه اليسير من العمل ، ومن رضي باليسير من الحلال خفت مؤونته ونعم اهله ، وبصّره الله داء الدنيا ودواءها واخرجه منها سالماً إلى دار السلام . ليس لبخيل راحة ، ولا لحسود لذة ، ولا لملول وفاء ، ولا لكذوب مروءة ) [58] .

☆ وقال (ع) :

( اوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيرى الدنيا ويوم يموت فيعاين الأخرة واهلها ، ويوم يبعث فيرى احكاماً لم يرها في دار الدنيا ، وقد سلّم الله على يحيى وعيسى (ع) في هذه الثلاثة المواطن ، فقال في يحيى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ ( مريم / ١٥ ) ، وفي عيسى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ ( مريم / ٣٣ ) .

☆ لا يتم عقل امرئ مسلم حتى تكون فيه عشر خصال :

( الخير منه مامول والشر منه مامون ، يستكثر قليل الخير من غيره ، ويستقل كثير الخير من نفسه ، لا يسام من طلب الحوائج إليه ، ولا يمل من طلب العلم طول دهره ، الفقر في الله احب إليه من الغنى ، والذل في الله احب إليه من العز في عدوه والخمول اشهى إليه من الشهرة ، ثم قال : العاشرة وما العاشرة ، قيل له ما هي ؟ قال : لا يرى احداً إلاّ قال هو خير مني واتقى ، إنما الناس رجلان رجل خير منه واتقى ورجل شر منه وادنى ، فإذا لقي الذي هو شر منه وادنى قال : اعل خير هذا باطن وهو خير له وخيري ظاهر وهو شر لي ، وإذا راى الذي هو خير منه واتقى تواضع له ليلحق به ، فإذا فعل ذلك فقد

---

(٥٨) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ص ١٤٨ ) .

علا مجده وطاب خيره وحسن ذكره وساد أهل زمانه )[59] .

☆ وكان ينشد أشعاراً يقول فيها ( ولعلها من إنشائه ) :

إذا كـان دونـي مـن بليت بجهلـه | ابيت لنفسـي أن اقـابـل بالجهـل
وإن كـان مثلـي في محلـي مـن النهـى | أخـذت بحملي كي أجـلّ عـن المثـل
وإن كنت أدنى منه في الفضـل والحجـى | عـرفـت لـه حـق التقـدم والفضـل [60]

☆ وقـال :

إنـك فـي دنيـا لهـا مـدة | يقبـل فيهـا عمـل العامـل
أمـا تـرى المـوت محيطـاً بهـا | يصلـب فيهـا أمـل الآمـل
تعجـل الـذنب بمـا تنتهـي | وتـامـل التـوبـة مـن قـابـل
والمـوت يأتـي أهلـه بغتـة | مـاذاك فعـل الحـازم العـاقـل [61]

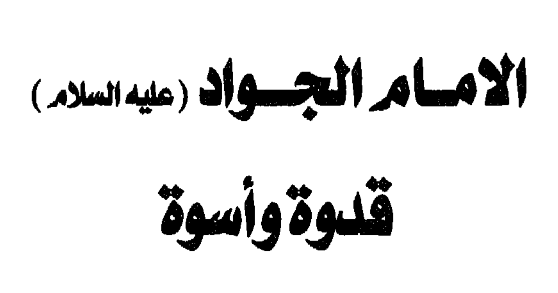
وإلى هنا نختم حديثنا المختصر عن حياة سيدنا الإمام الرضا (ع) نسأل الله أن ينفعنا به يوم القيامة ويجعل ذلك وسيلةً لاتباعنا له في الدنيا وشفاعته عند الله في الآخرة .

---

(٥٩) المصدر : ( ص ١٤٧ ) .

(٦٠) المصدر : ( ص ١٥٠ ) .

(٦١) المصدر .



# الامام الجواد (عليه السلام)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

أحمد ربي الموفِّق عباده لطاعته ، المقدِّر لهم الخير في عبادته ، وأصلّي على النبيّ محمد سيد المرسلين وعلى آله المعصومين .

وبعد :

يسرني أن أجد فرصة متاحة لأغمر يراعي الصغير في بحر البطولة والعبقرية من حياة الإمام الجواد – تاسع الأئمة الطاهرين – حيث تمتزج فيه البطولة بالاستقامة والطهارة بالمجد والشرف .

والإمام الجواد الذي أتشرف بسرد موجز من حياته المباركة ، كان أقصر الأئمة عمراً حينما أدركته المنية ، فلقد ولد في سنة ( ١٩٥ ) هجرية وتوفي في سنة ( ٢٢٠ ) ، وكل عمره ( ٢٥) سنة فقط .

ومن هذه الناحية تكون حياة إمامنا ذات أهمية تدعو إلى البحث أكثر ، حيث أن بعض البسطاء من الناس قد يستغربون إمامة فتى لم يبلغ من العمر أكثر من سبع سنوات .

ومن جهة أخرى إن عصر الإمام الجواد (ع) كان من العصور الزاخرة بالأحداث المختلفة والتيارات المتفاوته التي تدعو إلى دراسته بصورة خاصة .

ونحن إذ نقدم حياة الإمام (ع) ، نستعرض أيضاً بعض الأحداث التاريخية التي رافقت حياته بين سنة (١٩٥ – و ٢٢٠) هجرية .

فإليكم الحديث مفصلاً ..

## الفصل الأول

# الاصل الكريم والميلاد المبارك

### ١ - والده :

والده الإمام علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) .

ولقد كان عبقرياً ملأ فضله وعلمه آفاق العالم الإسلامي ، فلهج بمدحه مخالفوه ، كما هلل به شيعته ومواليه سواءً بسواء ، فكان الرضا الذي ارتضى به الخالق إماماً وحجه ، وللخلق سيداً وقدوةً .

### ٢ - أمه :

السيدة سبيكة النوبية التي وفدت إلى المدينة مع من وفد من أهل إفريقيا ، فالتحقت بآل الرسول وانجبت سيدهم الإمام الجواد (ع) ، وتذهب بعض الروايات إلى انها كانت من قوم مارية القبطية زوجة النبي الأكرم ( صلّى الله عليه وآله وسلم ) إلاّ ان ذلك مستبعد .

### ٣ - ميلاده :

في عقيدتنا ، ان الإمام الذي يختاره الله لكي يكون قدوة صالحة للخير والصلاح يلزم أن يكون كاملاً من جميع الوجوه ، وأيما نقص أو عيب في الفكر أو في الجسم عند الإنسان يبين انه ليس إماماً . ولقد كان الإمام الرضا (ع) قد بلغ الخامسة والخمسين ولم يرزق ولداً ، فذهبت بعض الإشاعات تنشر من قبل دعاة الواقفية الذين قالوا بغيبة الإمام موسى الكاظم (ع) ، وانه لم يوص إلى اي إمام من بعده ، قائلين بأن الإمام الرضا عقيم ليس له ولد وهو عيب واضح في القدوة الدينية . فإذاً لا يكون هو الإمام الحق حسب زعمهم ، حتى كتب بعضهم إليه (ع) رسالة قال فيها :

كيف تكون إماماً وليس لك ولد ؟ فأجابه الرضا (ع) ، وما علمك انه لا يكون لي ولد والله لا تمضي الأيام والليالي حتى يرزقني الله ولداً ذكراً يفرق بين الحق والباطل [١] .

وجاء إليه رجل من اصحابه يقول : من الإمام بعدك ؟ فقال : ابني ، ثم قال : هل يجترئ احد أن يقول ابني وليس له ولد ؟ ، فيحدث الراوي انه لم تمض الأيام حتى ولد ابو جعفر الجواد [٢] .

ودخل عليه ابن قيام الواسطي وكان من الواقفية الذين لم يكونوا يعترفون بالإمام الرضا (ع) ، فاراد أن يعيب عليه فقال : أيكون إمامان ؟ ، قال : لا ، إلاّ ان يكون احدهما صامتاً ، فقال الرجل : هو ذا انت

---

(١) بحار الانوار : ( ج ٥٠ ، ص ٢٢ ) .

(٢) المصدر .

ليس لك صامت ، فقال : بلى والله ليجعلن الله لي من يثبت به الحق وأهله ويمحق به الباطل وأهله ، ولم يكن له في ذلك الوقت ولد ، فولد له أبو جعفر بعد سنة [٣] .

## الميلاد المبارك :

وكانت سنة ( ١٩٥ ) هجرية ، وكان شهر رمضان وكان الشيعة المخلصون يعيشون أشد الانتظار لمقدم ولد الإمام الرضا (ع) ، ذلك الذي زخرت أحاديثهم تنبئ عن مقدمه المبارك ، وهم الراوون عن الرسول (ص) أنه قال : بأبي خيرة الإماء النوبية ، وهو يشير إلى الإمام (ع) ، ليدحضوا حجة الواقفية الذين قد أكثروا من الدعايات ضده .

وكانت تلك الليلة توافق ليلة التاسع عشر من شهر الله المبارك ، حينما بزغ من أفق الحق بدر أضحى شمساً للهدى ، وسماءً في جلاله ، ألا وهو الإمام الجواد (ع) .

وتناقل الرواة الحديث على لسان والده العظيم يقول : هذا هو المولود الذي لم يولد في الإسلام أعظم بركة منه [٤] .

أجل ، لقد ولد الإمام في الوقت الذي اختلفت فيه الشيعة أيما اختلاف ، وكانت دعايات بعض المخالفين لهم تشق طريقها إلى أفئدة بعض السذج منهم ، كانت آية صدق الإمام الرضا وإبطال زعم الواقفية تثبت بميلاد ابنه الموعود .

فلما ولد الجواد (ع) ذهبت دعايات الواقفية أدراج الرياح ، وذابت كما يذوب الملح في الموج الهادر ، وأصبح ميلاد الإمام سبباً لانتصار الحق واتحاد الشيعة ، أتباع الحق ، بعد الإختلاف والتفرقة ، أضف إلى ذلك أن الإمام الرضا (ع) كان يقول دائماً أن ابني خليفتي عليكم ، وهم يرون أن لا ابن له ، وحتى إذا بلغ مرحلة الكهولة ، ومضت الشكوك تراود أفئدة البسطاء من الموالين جاء الإمام الجواد (ع) ، فكان ميلاداً مباركاً ميموناً ، فهللت الشيعة وسبحت لله لمّا رأت في أحاديثها الصدق والحق .

## عهد الصبـا :

وترعرع الطفل الشريف في رعاية والده العظيم (ع) كما يترعرع الورد على كف النسيم ، يضفي عليه والده المعارف والآداب ، فتجتمع أصول الحسب بشرف المحتد ، فإذا بالمواهب تتفتح كما يتفتح الفجر عن صبح بهيج .

وإذا بمشيئة الله تتعلق على أن يكون الطفل وهو في صباه سيداً وإماماً .

سبـق الدهـر كلـه فـي صبـاه و مشـى الدهـر خادمـاً من ورائـه

وعندما كان الإمام الجواد (ع) في الخامسة من عمره جاءت رسل المأمون العباسي تحث والده الإمام الرضا (ع) ليهاجر إلى العاصمة الجديدة للبلاد الإسلامية وهي خراسان ، ويكون ولي العهد وذلك بعدما

---

(٣) المصدر .

(٤) المصدر : ( ص ٢٠ ) .

قتل المامون لخاه الأمين ، وكانت الظروف تُكره الإمام علي بن موسى (ع) على ان يغادر المدينة إلى خراسان عاصمة المسلمين الجديدة ، حيث إن الحرب التي قامت بين الأخوين العباسيين ، الأمين والمامون ، كانت قد صرفت كثيراً من طاقات المسلمين وجعلتها وقوداً مشتعلاً لها ، بل قامت ثورة خراسان على كتف الشيعة هناك الذين استخدموا في ثورة العباسيين الأولى ضد الحكم الأموي ، ثم سرقت ثورتهم بانحراف القادة وذهبت مساعيهم ادراج الرياح ، وهذه الثورة الثانية قامت كرد فعل قوي لانحراف دفة الحكم عن آل بيت الرسول ، اصحابه الشرعيين ، والمامون كان ممن تشيع ظاهراً ونادى بمبادئ الشيعة صريحاً في باكورة امره ، واكره الإمام الرضا (ع) على الرحيل إلى خراسان ليثبت فكرة تشيعه في قلوب التابعين ثم يصنع ما يشاء .

استعد الإمام الرضا للرحيل ولكنه كان يعلم يقيناً بما سوف يحدث له بعد سفره ، إنها رحلة واضحة المعالم ، ولكنها خطة يجب ان يسير عليها الإمام حسب الظروف وحسب التعاليم الظاهرية للدين الإسلامي ، يجب عليه ان يبلّغ فيعذر ، ويعمل حسب مقدرته على بث الوعي الصحيح للمسلمين وإن كان ذلك سوف يؤدي بحياته الكريمة ، ثم ودع اهله وجعل الخليفة عليهم ابنه الجواد ، وهو ابن الخامسة فقط ، لِمّا كان يعرف منه من الكفاءة الموهوبة ، وراح الرضا يخترق السهل والجبل إلى خراسان حيث تستقبله الجماهير المؤمنة ويجعلونه ولياً لعهدهم ، تنتقل إليه الخلافة الإسلامية بعد المامون ، وكانت الرسائل تربط بين الوالد والولد ، فترد تباعاً بشان الأمور الخاصة او العامة .

اما الإمام الرضا (ع) فقد كان معجباً بنجله ايما إعجاب ، فإذا جاءت رسالة عن الجواد (ع) واراد ان يخبر شيعته بها قال : كتب لي ابو جعفر او كتبت إلى ابي جعفر ، فلا يقول ابني ولا يرضى باسمه الخاص ، بل يكنيه إجلالاً واحتراماً .

واما ولده التقي في المدينة فقد كان يختلف إليه الشيعة اختلافهم إلى والده الرضا (ع) ، لأنهم كانوا يعرفون انه إمامهم في المستقبل ، وعلى حد تعبيرهم ( إمامهم الصامت ) .

وذات يوم والشيعة في حضرة الجواد (ع) وفي مشهده إذ تغير حاله واخذ يبكي ، وعندما جاء الخادم ، امره بإقامة الماتم ..

— عزاء من ؟ وماتم لمن ؟ جعلت فداك .

— ماتم ابي الحسن الرضا (ع) ، فقد استشهد الساعة في خراسان .

— بابي انت وامي ، خراسان قطر يبتعد عن المدينة آلاف الأميال ، وتفصل بينهما سهول وجبال .

— نعم ، دخلني ذل من الله عزّ وجلّ لم اكن اعرفه ، فعرفت ان ابي قد توفي (٥) .

وكان الإمام الجواد يكنى بابي جعفر ليكون تذكاراً لجده ابي جعفر بن علي الباقر (ع) ، ولأنه لم يكن له

---

(٥) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٦٣ ) .

ولد يسمى بجعفر .

وكان يلقب بألقاب شتى ، منها الجواد ، والتقي ، والمرتضى ، والمنتجب ، والقانع ، بيد أن لقباً واحداً اشتهر به أكثر من غيره وهو " ابن الرضا " ذلك أن أباه الإمام الرضا (ع) طار صيته في الآفاق لما اشتهر به من الفضل والجد فعرف الناس ثلاثة من أبنائه باسم ابن الرضا ولذلك كان كل من الإمام التاسع والعاشر والحادي عشر يعرفون بـ ( ابن الرضا ) لِمَا كان للرضا من الصيت الواسع الحسن بين المسلمين .

الفصل الثاني

# حياته وامامته

## إمام وهو ( صبي ) :

الإمامة في عقيدة الشيعة القائلين بها تختلف عنها في منطق الاخرين كثيراً . فإن الكلمة تعني عند الشيعة الخلافة المطلقة لشخص الرسول ولعلومه ومعارفه ومؤهلاته وصلاحياته ومسؤولياته ، وبتعبير آخر " صورة كاملة للنبوة " ، بفارق واحد فقط هو أن الإمام لا يوحى إليه ، بينما النبي يوحى إليه ، فلا نبي بغير وحي ، ولكن الإمام بدونه .

والنبوة — في منطق الإسلام — صلاحية فريدة في نوعها ومتميزة عن صلاحيات سائر البشر ، يهبها الله تعالى إلى فرد يختاره ويجعله وسيطاً يتلقى الوحي منه وينشره بين قومه ، وإذا تمت هذه الفكرة عن النبي تتم عن الإمام بنفس الملاك ونفس الحجة ، وكما أنه إذا صح القول بانه من الممكن ان يغتدي الصبي نبياً وهو في المهد رضيع ، صح ذلك في الإمام (ع) .

والعمر وإن كان مقياساً للناس في الأغلب ولكنه ليس بمقياس عند الله ، فليس الأكبر سناً أعظم عند الله دائماً ، وربَّ شيخ يغيض عند ربه ولربَّ شاب أو طفل محبوب عند بارئه . العمل الصالح والنية الطيبة والإمكانيات الموهوبة وما إلى ذلك مما يهب الفرد قيمة وتقديراً هو المقياس الأول عند الإسلام وفي منطق القرآن ، اضف إلى ذلك أن القول بالنبوة والإمامة لا يمكن إلاّ بعد الإيمان الكامل بقدرة الله تعالى على أن يجعل من فرد واحد مجمعاً للفضائل ، ومرجعاً للمعارف ، وقدوة للناس واسوة للخلق ، فالإعتقاد بالنبوة يفرض على الإنسان الإيمان بالمعجزة ( والتي هي ما يتعدى طاقة الإنسان ) وله ميزة على سائر البشر حتى يمكنه أن يقودهم ويقول لهم إنني نذير من الله .

وإذا كانت المعجزة تعني شيئاً خارجاً عن الطبيعة الجارية في سائر الخلق ، فلا فرق بين أن يكون الفرد الذي تتجلى فيه المعجزة كبيراً أو صغيراً ، غنياً أو فقيراً .

وطالما زعمت الأمم السالفة ، أن النبي يجب أن يكون له مال وثراء عريض ، ويكون سيداً في قومه ورئيساً مهيباً ، فافهمهم أنبياؤهم (ع) بأن الله إذا اراد ان ينزِّل رحمته في فرد لا تتوفر فيه هذه الشروط ويجعله نبياً ، فهل في ذلك من باس ؟ قال تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف/٣٢)

ولطالما أعجبت الأمم ودهشت حينما رات أن الله قد بعث إليها صبياً نبياً ، ولكن ربنا ابرز لهم ان فعله ذلك إنما كان تعمداً ليعرفهم معنى النبوة ، وانها ليست موهبة عادية تبرز في فرد دون فرد ، تبعاً للبيئة والتربية ، وإنما هو نبوءٌ عن عادة الخلق ، وخرق لسنة الكون ، ونداء جديد ليس يشابهه نداء المخلوقات ، بان الله هو القادر وأنه إليه المصير ، يقول علي بن اسباط في حديث له عن الإمامة : رأيت أبا جعفر الجواد (ع) قد خرج إليّ فاحددت النظر إليه ، وإلى راسه وإلى رجله لأصف قامته لأصحابنا بمصر فخر ساجداً وقال : إن الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج في النبوة ، قال تعالى :

﴿ وءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ (مريم/١٢)

وقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ (يوسف/٢٢)

وقال :

﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (الاحقاف/١٥)

فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز أن يؤتى وهو ابن اربعين سنة [٦] .

أجل إذا كانت النبوة معجزة الله تعالى ، أو كانت آية الابتداع فسواء — إذاً — ان تظهر في كبير أو صغير.

وعن بعض الرواة أنه قال ، كنت واقفاً عند ابي الحسن الرضا (ع) بخراسان فقال قائل : يا سيدي .. إن كان كون فإلى من ؟ ( يريد : إذا متَّ فمن الإمام بعدك ؟ ) .

قال : إلى أبي جعفر ابني .. وكان القائل استصغر سن أبي جعفر .

فقال أبو الحسن (ع) : إن الله سبحانه بعث عيسى رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدئة في أصغر من السن الذي فيه ابو جعفر (ع) [٧] .

نعم : ليس هناك اي استبعاد لما يشاؤه الله ويفعله ، فقد يجعل عيسى نبياً في أول صباه .. ويهب محمد بن علي الإمامة صبياً أيضاً .

كان للإمام أبي عبد الله الصادق (ع) ولد كان يدعى علي بن جعفر وكان وجيهاً محترماً لدى الشيعة الإمامية ، وكان يفد إليه الناس ، وينهلون من علومه التي تلقاها مباشرةً عن أبيه الصادق (ع) .. وأخيه موسى بن جعفر (ع) .. فيروي بعض المحدثين : انه كنت عند علي بن جعفر بن محمد (ع) جالساً بالمدينة ، وكنت اقمت عنده سنتين أكتب عنه ما سمعه من اخيه يعني موسى بن جعفر (ع) إذ دخل عليه ابو جعفر محمد بن علي بن موسى (ع) المسجد — مسجد رسول الله (ص) فوثب علي بن جعفر بلا رداء ولا حذاء ، فقبَّل يده وعظَّمه ، فقال له ابو جعفر (ع) : يا عم اجلس رحمك الله .

قال : يا سيدي كيف أجلس وأنت قائم .

---

(٦) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٢٤ - ٣٧ )

(٧) نفس المصدر .

فلما رجع علي بن جعفر إلى مجلسه جعل أصحابه يوبخونه ويقولون انت عم أبيه وأنت تفعل هذا الفعل؟

فقال : اسكتوا ، إذا كان الله عزَّ وجلَّ – وقبض على لحيته – لم يؤهل هذه الشيبة وأهّل هذا الفتى ووضعه حيث وضعه ، أُنكر فضله ! نعوذ بالله مما تقولون بل أنا له عبد [8] .

## بعد وفاة والده :

توفي الإمام الرضا في خراسان مسموماً ، ودفن في طوس ، واختلفت – بسبب موته – الأمة الإسلامية ، وفقدت الأمة ملامحها التي كانت قد تميَّزت بها في عهد الرضا (ع) .. فرجعت الخلافة إلى بغداد .. وقرَّب المأمون العباسي من يريد وغدر بمن كان قد نصره على أخيه الأمين في نزع الملك عنه ، وغيَّر شعاره الذي اتخذه للثورة التي كانت نصف علوية ، ورجع إلى لبس السواد ، فأصبحت الدولة دولة عباسية مرة أخرى .

ومرة كان الإمام يسير في طرقات بغداد العاصمة المزدحمة وقد اصطف الناس لابن الرضا (ع) ، رافعين أعناقهم كي يفوزوا بنظرة منه .. وكان من الواقفين رجل زيدي المذهب ، يحدثنا فيقول :

خرجت إلى بغداد فبينما أنا بها ، إذ رأيت الناس يتدافعون ويتشرفون ويقفون ، فقلت :

ما هذا ؟ .. فقالوا : ابن الرضا (ع) ، فقلت : والله لأنظرن إليه ، فطلع على بغل أو بغلة ، فقلت لعن الله أصحاب الإمامة حيث يقولون أن الله افترض طاعة هذا ، فعدل إليَّ وقال : يا قاسم بن عبد الرحمن : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر/٢٤)

فقلت في نفسي : " ساحر والله " .

فعمد إليَّ فقال :

﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (القمر/٢٥)

قال : فانصرفت وقلت بالإمامة وشهدت أنه حجة الله على خلقه واعتقدت به [*] ، أجل ... إن الاستغراب الذي غمر قلب هذا الرجل من جهة صغر السن كان جوابه في هاتين الآيتين المباركتين واضحاً مستبيناً.

وكان الإمام الجواد (ع) رابضاً بالمدينة وهو الفتى الحديث في السن ، المقدر عند الله والخلق ، قد أعطت الشيعة – وهي يومذاك كثرة لا يستهان بها – أزّمتها بيده فنهض بتدبيرها خير نهوض ، حتى التفت حوله طائفة من أصحاب أبيه وجده .

## في المدينة :

وبقي في المدينة المنورة بعد عهد إمامته زهاء ثمانية أعوام ، يحترمه الخاص والعام ويأوي إليه البعيد والقريب ، يسألونه عما أغمض وأشكل عليهم فيحل ذلك لهم في أسرع وقت .

---

(٨) الكافي : ( ج ١ ، ص ٣٢٢ ) .

(*) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٦٤ ) .

يقول بعض الرواة : لما مات ابو الحسن الرضا (ع) حججنا فدخلنا على ابي جعفر وقد حضر من الشيعة من كل بلد لينظروا إلى ابي جعفر (ع) فدخل عمه عبد الله بن موسى وكان شيخاً كبيراً نبيلاً ، عليه ثياب خشنة وبين عينيه سجادة .

فجلس وخرج ابو جعفر (ع) من الحجرة وعليه قميص قصب ورداء قصب ونعل خوص بيضاء ، فقام عبد الله – عمه – واستقبله وقبّل بين عينيه وقامت الشيعة ، وقعد ابو جعفر (ع) على كرسي ونظر الناس بعضهم إلى بعض تحيراً لصغر سنه .

فانتدب رجل من القوم فقال لعمه ، اصلحك الله ما تقول في رجل اتى بهيمة [9] . فقال تقطع يمينه ويقام عليه الحد .

فغضب ابو جعفر (ع) وقال ، يا عم إتق الله – إتق الله – إنه لعظيم ان افتيت يوم القيامة بين يدي الله عز وجل لما افتيت الناس بما لا تعلم ، فقال له عمه ، يا سيدي اليس قال هذا ابوك (ع) ؟

فقال ابو جعفر (ع) ، إنما سُئل ابي عن رجل نبش قبر امراة فنكحها ، فقال ابي ، تقطع يمينه للنبش ويضرب حد الزنا ، فإن حرمة الميّتة كحرمة الحية فقال ، صدقت يا سيدي انا استغفر الله ، فتعجب الناس فقالوا له ، يا سيدنا اتاذن ان نسالك ؟

فقال ، " نعم ، فسالوه في مجلس عن ثلاثين الف مسالة فاجابهم فيها وله تسع سنين" [10] .

وهذه القصة تبين مدى اهمية الإمام في عين الشيعة ثم غزارة علمه وطول باعه وسعة ثقافته التي نبعث عن قلب نفخ فيه الله علمه ومعرفته واكثر فيه تقواه وخشيته .

## إلى بغداد :

وحينما انتقل المامون العباسي إلى بغداد ، وكان يعيش في صراع دائم مع العباسيين الذين استنكروا عليه إعطائه ولاية العهد للرضا (ع) ، مذكرين له ان هؤلاء بني فاطمة هم المناوئون الذين يخشى جانبهم اكثر من اي مناوئ آخر لأن لهم انصاراً وموالين في شرق البلاد وغربها .

وكان المامون يبرر موقفه من علي بن موسى بنقل فضائله التي عجزت شفاه المامون وغيره عن ان تحصيها عداً قائلاً ، بان اهل هذا البيت قد ورثوا العلم من آبائهم كما ورثوا المكارم والخلق الرفيع .

---

(٩) أي باشر ووطئ بهيمة .

(١٠) المصدر : ص ٨٥ ومن المحتمل أن يكون عمره ثمان سنوات فقط كما هو مذكور في بعض الأحاديث ، حيث أن الذي يبدو من هذا الحديث : أن الشيعة كانت قد اجتمعت بالمدينة في الموسم بعد وفاة الإمام الرضا مباشرة .. وكان للإمام الجواد (ع) ، ( ٧ ) سنين حين موته في آخر شهر صفر ، فلما انقضت سبعة أشهر جاء شهر رمضان ودخل الجواد في الثامنة ، وفي موسم الحج من تلك السنة كانت هذه المحاورة كما وإن من الممكن كون الأسئلة وجهت إلى الإمام في أيام متعددة مع وحدة المجلس فيكون مجلسه أشبه بالمؤتمرات التي تطول أياماً تباعاً يقصونها بالبحث باستثناء أوقات الراحة والطعام .

وكانت الشيعة يومئذ قد قويت شوكتهم بالإمام الرضا واصبح لهم دعاة مخلصون في كل زاوية من البلاد الإسلامية ومالت إليهم العامة لما ظهر من الإمام الرضا (ع) في المسرح السياسي من آيات الفضل والكمال .

ثم إنه ذهبت دعوتهم إلى إمامة بني فاطمة تنتشر اكثر من اي يوم آخر ، لان كثيراً منهم نالوا المناصب الرفيعة في الدولة وقاموا بحركات إيجابية دائمة بسبب الإختلاف الذي وقع بين العباسيين .. وعرفت السلطة طوائف كثيرة من العباسيين انفسهم كانوا يكيدون للدولة ويريدون لانفسهم السلطان فاضطرت إلى استخدام مناوئ هؤلاء ، من الشيعة .

هذا من جانب ومن جانب آخر كانت موجة من الاستياء العام تمثل العامة بسبب قتل المامون للرضا (ع) . وتغطية لغدره بالرضا (ع) واحتجاجاً على الخاصة من العباسيين .. واستمالة لفؤاد العامة من غيرهم ، أرسل المامون إلى المدينة يطلب الإمام الجواد (ع) في دعوة رسمية . .

كان ذلك في السنة ( ٢١١) هجرية حيث كان لأبي جعفر الجواد من العمر زهاء ( ١٦) سنة فقط .

ومما يبدو من التاريخ ؛ أن وفود الإمام (ع) كان حافلاً بالاحتفاء الملوكي ... الذي هياه الخليفة لمقدم موفوده المبارك .

وكان الناس يبشرون انفسهم بابن الرضا (ع) الذي طالما تشوقوا إلى رؤيته والمثول عنده .

واستقبله المامون استقبالاً حافلاً ، ونوى أن يزوجه ابنته أم الفضل ، كما زوج اباه الرضا (ع) ابنته ام حبيب .

فاعترضه العباسيون اعتراضاً شديداً ، خوفاً من انتقال الخلافة إلى بني فاطمة .

فاجتمع من أهل بيته الأدنون وقالوا له : نناشدك الله يا امير المؤمنين الا تقدم على هذا الأمر الذي عزمت من تزويج ابن الرضا (ع) ، فإنّا نخاف ان يخرج به عنا امر قد ملكنا الله عزَّ وجلَّ ، وينزع منا عزّاً قد البسناه الله ، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً ، وقد كنا في خشية من عملك مع الرضا (ع) ، فكفانا الله المهم في ذلك ، فالله ان تردنا إلى غم قد انحسر عنا .

فقال لهم المامون ؛ اما ما بينكم وبين آل أبي طالب فانتم السبب فيه ولو انصفتم القوم لكان اولى بكم، واما ما كان يفعله من قبلي بهم فقد كان قاطعاً للرحم ، واعوذ بالله من ذلك ، والله ما ندمت على ما كان مني من استخلاف الرضا (ع) .. ولقد سالته ان يقوم بالأمر وانزعه من نفسي فابى وكان امر الله قدراً مقدوراً !!

وأما أبو جعفر محمد بن علي فقد اخترته لتفوّقه على اهل الفضل كافة في العلم والثقافة مع صغر سنه .

وانا ارجو ان يظهر للناس ما قد عرفته منه فتعلمون ان الراي ما رايت فيه .

فقالوا ؛ إن هذا الفتى وإن راقك منه هديه فإنه صبي لا معرفة له ولا فقه ، فامهله ليتادّب ثم اصنع ما تراه بعد ذلك .

فقال لهم : ويحكم إني أعرف بهذا الفتى منكم ، وإن أهل هذا البيت علمهم من الله تعالى لم يزل اباؤه اغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة ، فإن شئتم فامتحنوا ابا جعفر بما يثبت لكم به ذلك .

قالوا : قد رضينا بذلك فخلٍّ بيننا وبينه لننصب من يساله بحضرتك عن شيْ ، من فقه الشريعة فإن اصاب لم يكن لنا اعتراض ، وظهر للخاصة والعامة سديد راي امير المؤمنين فيه ، فإن عجز عن ذلك فقد كفينا الخطب منه ، فرضي المامون بذلك ، فاجتمع رايهم على يحيى بن اكثم قاضي قضاة الديار الإسلامية في ذلك العهد أن يسال الإمام الجواد (ع) عن المسائل الغامضة في الفقه الإسلامي ، وحان الموعد واجتمع الناس ، وجاء الإمام الجواد ( (ع) ) وحضر ابن أكثم ، وجلس يحيى بين يديه والمامون بجانب الإمام يهيمن على المجلس ، فالتفت ابن أكثم إلى الخليفة وقال :

يأذن لي أمير المؤمنين أن اسال أبا جعفر عن مسالة ؟ فقال المامون استأذنه في ذلك ، فاقبل عليه يحيى قائلاً : جعلت فداك ، تأذن لي في مسالة ؟ قال ابو جعفر (ع) : سل ما شئت .

قال يحيى : ما تقول — جعلت فداك — في محرم قتل صيداً ؟

فقال ابو جعفر :

— قتله في حل أو حرم ؟

— عالماً كان المحرم او جاهلاً ؟

— قتله عمداً أو خطأً ؟

— حُرًّاً كان المحرم أو عبداً ؟

— صغيراً كان أو كبيراً ؟

— مبتدئاً بالقتل أو معيداً ؟

— من ذوات الطير كان الصيد أو من غيرها ؟

— من صغار الصيد أم من كبارها ؟

— مصراً على ما فعل أو نادماً ؟

— في الليل كان قتله للصيد أم في النهار ؟

— محرماً كان بالعمرة إذ قتله ، أم بالحج كان محرماً ؟ [11] .

---

(١١) في هذه الفقرات التالية تبدو بطولته العلمية التي تظهر في مدى استطاعته على التشقيق .

وقديماً قالوا : تشقيق السؤال نصف الجواب ، بالإضافة إلى بديهة الخاطر ، والذكاء النادر الذي يحيط بجميع جوانب المسألة ، وكل سؤال ثنائي للإمام (ع) يضرب في السؤال السابق عليه ويضرب فيه السؤال اللاحق به ، لأن السؤال يكون على هذا الوجه ، لو كان القتل في الحل فهو على قسمين ، إما أن يكون المحرم عالماً أو جاهلاً ، كما أن القتل في الحرم ينقسم بدوره إلى قسمين " إما أن يكن المحرم عالماً أو جاهلاً ، وهكذا دواليك .

فتحير يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والإنقطاع ولجلج حتى عرف الحاضرون امره ، فقال المامون، الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الراي ، ثم توجه إلى اهل بيته ، فقال لهم : أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه ؟ ثم اقبل على ابي جعفر (ع) فقال له ، اتخطب يا ابا جعفر ؟ فقال ، نعم يا أمير المؤمنين، فقال له المامون ، اخطب لنفسك جعلت فداك ، قد رضيتك لنفسي وانا مزوجك أم الفضل ابنتي ، وإن رغم قوم لذلك .

فقال أبو جعفر ، الحمد لله إقراراً بنعمته ولا إله إلاّ الله إخلاصاً لوحدانيته وصلى الله على محمد سيد بريّته والأصفياء من عترته ... أما بعد ، فقد كان من فضل الله على الأنام أن أغناهم بالحلال عن الحرام ، فقال سبحانه ، ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور/٣٢)

ثم إن محمد بن علي بن موسى يخطب أم الفضل بنت عبد الله المامون ، وقد بذل لها من الصداق مهر جدته فاطمة بنت محمد (ص) ، وهو خمسمائة درهم جياداً ، فهل زوجته يا أمير المؤمنين بها على هذا الصداق المذكور ؟

فقال المامون ، نعم قد زوجتك يا ابا جعفر أم الفضل ابنتي على الصداق المذكور ، فهل قبلت النكاح ، قال ابو جعفر (ع) ، قد قبلت ذلك ورضيت به .

## حفلة الزواج :

قال المحدث ، ولم نلبث أن سمعنا أصواتاً تشبه أصوات الملاّحين في محاوراتهم ، فإذا الخدم يجرون سفينة مصنوعة من فضة مشدودة بالحبال من الإبريسم على عجلة مملوءة من الغالية ( قسم من العطر ) ، فأمر المامون أن تخضب لحاء الخاصة من تلك الغالية ، ثم مدت إلى الدار العامة فتطيبوا منها ووضعت الموائد فأكل الناس وخرجت الجوائز إلى كل قوم على قدرهم ، فلما تفرق الناس وبقي بعض الخاصة ، قال المامون لأبي جعفر (ع) ، إن رأيت جعلت فداك أن تذكر الفقه الذي فصلته من وجوه من قتل الصيد ، فقال أبو جعفر (ع) ،

نعم ، إن المحرم إذا قتل صيداً في الحل وكان الصيد من ذوات الطير ، وكان من كبارها فعليه شاة ، فإن أصابه في الحرم فعليه جزاءً الضعف ، وإذا قتل فرخاً في الحل فعليه حمل قد فطم من اللبن ، وإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ ، فإذا كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة ، وإن كان نعلماً فعليه بدنة ، وإن كان ظبياً فعليه شاة ، وإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه جزاءً مضاعفاً هدياً بالغ الكعبة ، وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه وكان إحرامه بالحج نحره بمنى ، وإن كان احرامه بالعمرة نحره بمكة ، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء وفي العمد عليه المأثم ، وهو موضوع عنه في الخطأ والكفارة على الحر في نفسه ، وعلى السيد في عبده ، والصغير لا كفارة عليه ، وهي على الكبير واجبة ، والنادم يسقط بندمه عنه عقاب الآخرة ، والمصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة .

فقال المامون : احسنت يا أبا جعفر ، أحسن الله إليك ، فإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك ، فقال أبو جعفر (ع) ليحيى : أسألك ؟ قال : ذلك إليك — جعلت فداك — فإن عرفت جواب ما تسألني عنه ، وإلاّ استفدته منك ، فقال له أبو جعفر (ع) : أخبرني عن رجل نظر إلى امرأة في أول النهار ، فكان نظره إليها حراماً عليه ، فلما ارتفع النهار حلت له ، فلما زالت الشمس حرمت عليه ، فلما كان وقت العصر حلت له ، فلما غربت الشمس حرمت عليه ، فلما دخل وقت العشاء الآخرة حلت له ، فلما كان وقت انتصاف الليل حرمت عليه ، فلما طلع الفجر حلت له ، فما حال هذه المرأة ، وبماذا حلت له وحرمت عليه ؟

فقال له يحيى : لا والله لا أهتدي إلى جواب هذا السؤال ، ولا أعرف الوجه فيه ، فإن رأيك أن تفيدنا .

فقال أبو جعفر : هذه أمة لرجل من الناس نظر إليها أجنبي في أول النهار فكان نظره إليها حراماً عليه ، فلما ارتفع النهار ابتاعها من مولاها فحلت له ، فلما كان عند الظهر اعتقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر تزوجها فحلت له ، فلما كان وقت المغرب ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء الآخرة كفّر عن الظهار فحلت له ، فلما كان نصف الليل طلقها واحدة فحرمت عليه ، فلما كان عند الفجر راجعها فحلت له .

فاقبل المامون على من حضره من أهل بيته فقال لهم : هل فيكم من يجيب هذه المسألة بمثل هذا الجواب أو يعرف القول فيما تقدم من السؤال ؟

قالوا : لا والله ، إن أمير المؤمنين أعلم ، وما رأى .

فقال : ويحكم ، إن أهل هذا البيت خصّوا من الخلق بما ترون من الفضل ، وإن صغر السن فيهم ، لا يمنعهم من الكمال ، أما علمتم أن رسول الله (ص) افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وهو ابن عشر سنين ، وقبل منه الإسلام ، وحكم له به ، ولم يدع أحداً في سنه غيره ، وبايع الحسن والحسين (ع) وهما ابنان دون الست سنين ، ولم يبايع صبياً غيرهما ، أولا تعلمون ما اختص الله به هؤلاء القوم ؟ وإنهم ذرية بعضها من بعض يجري لآخرهم ما يجري لأولهم .

فقالوا : صدقت يا أمير المؤمنين ، ثم نهض القوم .

## الجوائز :

فلما كان من الغد أحضر الناس ، وحضر أبو جعفر (ع) ، وسار القواد والحجاب والخاصة والعمال لتهنئة المامون وأبي جعفر (ع) ، فأخرجت ثلاثة أطباق من الفضة فيها بنادق [١٢] مسك زعفران معجون ، في أجواف تلك البنادق رقاع مكتوبة بأموال جزيلة وعطايا سنية وإقطاعات [١٣] فأمر المامون بنثرها على القوم من خاصته ، فكان كل من وقعت في يده بندقة أخرج الرقعة التي فيها ، والتمسه فأطلق يده له .

---

(١٢) جمع بندقة ، وهي شيء مدور يشبه الجوز .

(١٣)كان الملوك يهبون لبعض الأفراد قطعا كبيرة من الأراضي الأميرية ، فكانت تسمى إقطاعاً .

ووضعت البدر ، فنثرت ما فيها على القواد وغيرهم ( من كبار الموظفين ) وانصرف الناس وهم أغنياء بالجوائز والعطايا ، وتقدم المامون بالصدقة على المساكين كافة ، ولم يزل مكرماً لأبي جعفر (ع) ، معظماً لقدره مدة حياته ، يؤثره على ولده وجماعة أهل بيته [14] .

وحينما تم زواج الإمام بابنة المامون ، وبقي في بغداد مدة غير قليلة ناعماً مرفهاً يأتيه المسلمون ، فينهلون من فيضه ، ويستقون غمائمه ، ما تغنيهم وترويهم ، بيد أنه لم يكن يرضيه التنعم في قصور العباسيين تاركاً أمور الشيعة والمسلمين الدينية وراءه ظهريّاً ، وكما يبدو أنه إن لم يكن قد أكرهته الظروف بالمقام في بغداد ، لما أقام فيها إلاّ قليلاً .

يروي بعض أصحابه فيقول : دخلت عليه في بغداد ففكرت فيما به من نعم ، وقلت في نفسي إن هذا الرجل لا يرجع إلى موطنه أبداً ، فاطرق راسه ثم رفعه وقد اصفر لونه ، فقال : يا حسين خبز شعير وملح جريش في حرم رسول الله أحب إلي مما تراني فيه [15] .

## إلى المدينة من جديد :

وسار إلى المدينة عن طريق الكوفة ، فلما أن ورد الكوفة اجتمع إليه الشيعة ، فاستقبلوه استقبالاً حافلاً ، ثم ودعهم إلى مدينة جده ، حيث بقي فيها سائر أيام حياته يواصل أداء مسؤولياته الخطيرة التي منها إنشاء مدرسة فكرية جامعة حتى وفاة المامون العباسي .

## بعد المأمون :

وأوصى المامون إلى أخيه المعتصم العباسي ولبى دعوة ربه فمات في قرية من نواحي طرسوس ، التي كانت من الحدود الفاصلة بين البلاد الإسلامية وبلاد الروم وكانت قد اشتعلت فيها مناوشات وقد سار إليها الخليفة بنفسه حتى ظفر المسلمون .

وأوصى إليه بشأن العلويين بصورة خاصة فقال مخاطباً أخاه المعتصم : هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي (ع) فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم وأقبل عليهم ولا تترك صلاتهم في كل سنة عن محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى .

في أواخر الصيف ، ليلة الثاني عشر من رجب سنة ٢١٨ هـ توفي المامون العباسي ودفن في ضاحية طرسوس ، فأخذ المعتصم أزمّة الحكم ، وراح يثبت حكمه بكل قدر مستطاع ففكر في أن الإمام الجواد وهو صهر الخليفة الراحل وسيد الشيعة وهم قوة جبارة في الأمة ، قد يشكل خطراً ما على الدولة فاشخصه من المدينة إلى بغداد ، لا لشيء إلاّ لكي يكون الإمام تحت مراقبته الشخصية ، ونزح الإمام للمرة الثانية إلى بغداد ، وبقي فيها مبتعداً عن البلاط الملكي مشتغلاً بالشؤون العامة وذلك في الفترة ما بين ( ٢٨ محرم الحرام سنة ٢٢٠ هـ و ٢٩ ذي القعدة الحرام من نفس السنة ) حيث وافته المنية بسم

---

(١٤) الاحتجاج : ( ص ٢٢٧ - ٢٢٩ ) وبحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٧٣ - ٧٧ )

(١٥) مختار الخرائج والجرائح ( ص ٢٠٨ ) .

دس إليه من قبل السلطة بإشارة من الخليفة المعتصم بالله ، وقصة ذلك حسب ما رواها المؤلف القدير العياشي عن خادم ابن ابي داود وصاحب سره الذي كان يسمى ( ونان ) ، وابن ابي داود هذا كان قاضياً شهيراً في بغداد قال : رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغموم فقلت له فيما ذاك ، قال : لما كان اليوم من هذا الأسود " أي ابي جعفر الجواد (ع) " بين يدي امير المؤمنين ، قال قلت وكيف ذاك ؟ قال : إن سارقاً أقر على نفسه بالسرقة وسال الخليفة تطهيره فجمع في ذلك الفقهاء وقد احضر محمد بن علي (ع) فسالنا عن القطع في اي موضع ؟ فقلت من الكرسوع ( اي المفصل بين الكف والذراع ) ، قال : وما الحجة في ذلك ؟ قلت : لأن اليد من الأصابع إلى الكرسوع لقوله تعالى في التيمم ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ ﴾ (المائدة/٦)

واتفق معي على ذلك جماعة ، وقال آخرون بل يجب القطع من المرفق لأن الله تعالى يقول في الوضوء ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ فدلّ على أن اليد من المرفق ، فالتفت المعتصم إلى محمد بن علي (ع) وقال ، ما تقول انت يا ابا جعفر (ع) فقال (ع) : قد تكلم فيه القوم يا امير المؤمنين ، قال : دعني عما تكلموا به ، اي شيء عندك ؟ قال : اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين ، قال : اقسمت عليك بالله تعالى لما أخبرت بما عندك فيه ؟ فقال : اما إذا اقسمت علي بالله فإني أقول انهم اخطئوا فيه السنّة ، فإن القطع يجب ان يكون من مفصل اصول الأصابع فيترك الكف ، فقال : فما الحجة في ذلك ؟

قال : قول رسول الله (ص) السجود على سبعة اعضاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين ، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وإنَّ المَسَاجِدَ لِلّـه ﴾ يعني بهذه الاعضاء السبعة التي يسجد عليها وما كان لله لم يقطع .

قال : فاعجب المعتصم بذلك وامر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف .

( قال ابن أبي داود ) فقامت قيامتي وتمنيت اني لم اكُ حيّاً ، ( قال ) : ثم صرت إلى المعتصم بعد ثلاث وقلت : إن نصيحة أمير المؤمنين واجبة وانا اكلمه بما اعلم اني ادخل النار به ، قال وما هو ؟ قلت إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيته وعلماءهم لأمر وقع من امور الدين وسالهم عن الحكم فيه فاخبروه بما عندهم ، وقد حضر مجلسه قوّاده ووزراؤه وكتّابه ، وقد تسامع الناس ذلك من وراء بابه ، ثم يترك اقاويلهم كلهم ، لقول رجل يقول شطر هذه الأمة بإمامته ، ويدّعون انه اولى منه بمقامه ، ثم يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء !! ( قال ) فتغير لونه وتنبه لما نبهته له ، قال : جزاك الله عن نصيحتك خيراً .

قال : فامر في اليوم الرابع فلاناً — بالطبع ، ذكر اسماً حذفه بعض المؤلفين او الرواة — من كتّاب وزرائه ، ان يدعو الجواد (ع) إلى منزله فدعاه فابى أن يجيبه وقال : لقد علمت اني لا احضر مجالسكم ، فقال : إنما ادعوك الى الطعام وأحب ان تطا ثيابي وتدخل منزلي فاتبرك بذلك ، فقد أحب فلان ابن فلان من وزراء الخليفة لقاءك ، فصار إليه ( ودسَّ إليه السم في الطعام ) فلما طعم (ع) احس بالسم ، فدعى بدابته فساله رب المنزل ان يقيم، فقال: خروجي من منزلك خير لك فلم يزل يومه ذاك وليلته يجود بنفسه

والسمّ يسري في بدنه حتى قبض (ع) .

آه ، إمام الحق ، هذا جزاؤك بعد كل هذا انك لم ترم لهم إلاّ الخير ، ولم يبغوا لك إلاّ الشر فسقياً لك ورعياً ، وتعساً لهم وويلاً ، غدُر والله ومكّر والله إن يطعموك السم وانت في ربيع ايامك ، ولكن لك في الأولين من آبائك اسوة حسنة ، ولهم في الأولين من آبائهم اسوة سيئة فعليك السلام وعليهم اللعنة والعذاب .

نعم ، انطفا ذلك المشعل الوهاج وخلّف وراءه الأمة الإسلامية تجّر حسراتها تندبه كالأرض تنتحب بعد مغيب الشمس .

لقد كان الإمام الجواد (ع) احدث الأئمة الإثني عشر سناً باستثناء الإمام الحجة (ع) حين انتقلت إليه الخلافة الروحية في آخر صفر من سنة ٢٠٢ – وهو ابن سبع وكان احدثهم سناً على الإطلاق ، فحينما استشهد في آخر ( ذي القعدة سنة ٢٢٠ من الهجرة ) وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين ربيعاً كما كانت مدة إمامته ثماني عشرة سنة .

وضجت بغداد بوفاة ابن الرضا (ع) وذهبت الشكوك تحوم حول البلاط وكادت تتفجر ثورة عارمة على الحكم الجائر ، وصلى عليه ابن المعتصم وولي عهده الواثق بالله كما صلى عليه نجله الكريم الإمام علي بن محمد النقي (ع) ودفن في مرقده في الكاظمية حيث لا يزال يُقصد ويُزار ، فعلى محمد بن علي الجواد (ع) التحية والسلام .

وجاء في بعض الأحاديث عن وفاته (ع) أن المعتصم دعى بعض وزرائه وامرهم بأن يشهدوا على محمد بن علي الجواد (ع) بانه قد اراد ان يخرج عليه بثورة يفجرها مع تابعيه من الشيعة الإمامية ذلك لكي يسهل عليه ان يلقي به في السجن او يقتله قتلاً .

فلما احضر الإمام التفت المعتصم إليه قائلاً : انك اردت ان تخرج عليّ ، فقال الامام : والله ما فعلت شيئاً من ذلك ، قال : إن فلاناً وفلاناً شهدوا عليك ، فاحضروا فقالوا : نعم هذه الكتب اخذناها من بعض غلمانك قال : وكان جالساً في بهو ( قاعة في مقدم الدار ) فرفع ابو جعفر يده وقال : اللهم إن كانوا كذبوا عليّ فخذهم .

قال الراوي : فنظرنا إلى ذلك البهو كيف يرجف ويذهب ويجئ وكلما قام واحدٌ وقع .

فقال المعتصم : يابن رسول الله إني تائب مما فعلت فادع ربك ان يسكنه ، فقال : اللهم سكّنه إنك تعلم انهم اعداؤك واعدائي ، فسكن [١٦] .

---

(١٦) مختار الخرائج والجرائح : ( ص ٢٣٧ ) .

## الفصل الثالث

# الإمام وعصره [17]

عاصر الإمام محمد بن علي الجواد (ع) ، خليفتين عباسيين . والخليفة الذي عاش الإمام في عهده ظروفاً هادئة ، هو المامون العباسي .

ومعروف أن المامون قام بالتقرب إلى العلويين وإلى سيدهم الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ، بسبب الضغط الجماهيري الذي تعرض له النظام العباسي حيث تميز عهده بسلسلة من الثورات والإنتفاضات في كافة أرجاء الدولة الإسلامية .

ويقول بعض المؤرخين ، أن المامون العباسي كان شيعياً ، وكان يذهب إلى احقية أولاد الإمام علي (ع) بالخلافة ، وإلى إمامة الإمام علي (ع) ، ولكننا لا نرى ذلك في المامون العباسي لأن ذلك شرف لا يستحقه خليفة غاصب .

يبقى أن نعرف أنه بعد استشهاد الإمام الرضا (ع) على يد المامون ، أصبح محمد بن علي الجواد (ع) الإمام الشرعي للرساليين ، ومعروف أن الإمام الجواد (ع) صاهر المامون العباسي .

## لماذا صاهر الإمام الخليفة ؟

ونتساءل لماذا أقدم الإمام الجواد (ع) على الزواج من بنت المامون العباسي ؟

ولكي نعرف الإجابة عن مثل هذا السؤال لابدّ أن نلقي نظرة على الحركة الرسالية التي كان الأئمة (ع) يقودونها ويوسعونها ، في عصر الإمام الرضا ونجله الإمام الجواد (ع) .

في عهد المامون تحوّلت الحركة الرسالية إلى حركة تستطيع أن تتداخل مع النظام وتستفيد من مظلته أو حتى تكوّن ما يسمى اليوم بحكومة ائتلافية ، مع أي دولة من الدول ، والأئمة (ع) كانوا يقبلون بالحماية من قبل الدولة بدون أن يفقدوا رسالتهم .

والأئمة المعصومون (ع) لم يحلوا حركتهم ، اي أنهم لم يقبلوا بالخلافة ولم يشتركوا فيها ، والدليل على ذلك موقف الإمام الرضا من ولاية العهد حيث قبلها بشرط عدم التدخل في شؤون النظام .

اما الإمام الجواد (ع) فحينما خطب ابنة المامون وتزوجها ، أصبح صهر الخليفة واستفاد من ذلك لأجل رسالته فماذا يعني أن يصبح شخص صهراً للخليفة ؟

---

(١٧) اقتبسنا هذا الفصل من كتاب التاريخ الإسلامي للمؤلف : ( ص ٣٤٣ وص ٣٤٨ - ٣٥٥ ) .

إن من يدخل البلاط يمكن أن يصير والياً على منطقة ، أو حاكماً على بلد ، أو قاضي القضاة لا أقل ، ولكن الإمام الجواد لم يفعل شيئا من ذلك ، بل أخذ بيد زوجته وذهب إلى المدينة وبقي هناك حتى مات المامون العباسي .

فماذا كسب الإمام (ع) من هذه المصاهرة ؟

كسب الإمام الجواد (ع) بهذا العمل أمرين :

أولاً :

منع المامون من أن يقوم بعملية اغتياله ، وذلك بقبوله الزواج من ابنته .

ثانياً :

جعل مخالب السلطة وانيابها في قفص الحركة الرسالية ، وذلك أن المامون ما كان ليجرؤ بعد ذلك على أن يقوم بالفتك برجالات الحركة ومجموعاتها .

ولقد كان هذا الأسلوب متبعاً في كثير من عصور الأئمة (ع) ، وخير شاهد على ذلك قصة علي بن يقطين بن موسى البغدادي الذي كان بمثابة مستشار للخليفة المهدي العباسي ، ثم صار في رتبة الوزير لهارون الرشيد ، وعندما حصل على هذا المنصب وكان اتجاهه رسالياً ، جاء إلى الإمام الصادق (ع) وقال : " يا ابن رسول الله انا صرت عوناً لهذا الطاغية " واراد أن يستقيل ، ومعروف أن الذي يحصل على هذا المركز ذلك اليوم يسيطر على مرافق أكبر دولة في العالم .

فطلب منه الإمام ان يظل في عمله ، ويستمر في أداء مهامه الرسالية ويبقى في بلاط هارون ، وعاود الطلب من الإمام بان يأذن له بترك السلطة إلاّ أن الإمام لم يأذن له ، ولقد كانت أعماله كبيرة بالنسبة للحركة، حتى أن الإمام أبا الحسن (ع) قال فيه عندما دخل عليه داود الرقي، في يوم النحر : " ما عرض في قلبي أحد وانا على الموقف إلاّ علي بن يقطين ، فإنه ما زال معي وما فارقني حتى أفضت "[18] .

## عصر المعتصم العباسي :

والإمام الجواد (ع) عاصر خليفة من الخلفاء الذين أثّروا تأثيراً مباشراً على زوال الدولة العباسية ، وهو المعتصم العباسي .

المعتصم العباسي كان ابن أمة تركية ، فمال إلى أخواله فكان يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم أربعة آلاف ، وألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلي المذهبة وأبانهم عن سائر الجنود[19] .

ثم وسمهم رتباً قيادية في الجيش حتى أنه ثارت ثائرة العسكريين العرب في الجيش ، فلقد حاول "عجيف " أن يقلب الحكم على المعتصم ليولّي العباس بن المامون ، ولكن هذه المحاولة أخفقت وقتله

---

(١٨) جامع الرواة / العلامة الأردبيلي : ( ج ١ ، ص ٦٠٩ )

(١٩) المسعودي : ( ج ٣ ، ص ٤٦٥ ) .

المعتصم .

والأتراك حينما جاؤوا إلى البلاد الإسلامية لخذوا شيئاً فشيئاً يسيطرون على الحكم ويجردون الخلفاء من سلطتهم الحقيقية ، وأخذوا يحدثون الانقلابات العسكرية ( كما نسميها الآن ) .

حتى وصل بهم الأمر إلى أنه إذا مال عنهم خليفة عباسي ، فإنهم كانوا يقتلونه غيلة ، ثم ينصبون رجلاً آخر من البيت العباسي مكانه ، فابتداءً من المتوكل إلى المستعين إلى المهتدي وانتهاءً بالمقتدر ، كل هؤلاء قتلوا بواسطة القادة العسكريين الأتراك .

وهكذا كانوا يقومون بالخلع والقتل لأي خليفة لم تتجاوب اهواءه مع اهوائهم ، وليس ذلك لشيء في تركيبة العنصر التركي ، وإنما نتيجة للحالة المتردية التي وصل إليها المجتمع الإسلامي من الانحلال والفساد الخلقي الشامل .

والإمام الجواد (ع) استفاد من هذا الوضع في تغذية الحركات الرسالية التي كانت تضع جنينها للمستقبل ، وفي هذا الوقت كانت الثورة التي قام بها محمد بن القاسم بن علي الطالبي تقلق السلطة ولا تدعها تعيش في هدوء وسكينة .

## نموذج من الثورة العلوية :

لقد كانت ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) أبرز ثورة في عهد الإمام الجواد (ع) .

كان محمد بن القاسم جليل القدر إذا ما قرانا يوميات جهاده . كانت العامة تلقبه بالصوفي ، لأنه كان يدمن لبس الصوف الأبيض الخشن ، وكان من أهل العلم والفقه والدين والزهد .

كان قد ذهب إلى ( مرو ) في مقاطعة خراسان ، وكان معه من الكوفيين بضعة رجال ، وذلك بعد أن رحل من الكوفة ، وكان قبل ذلك قد خرج إلى ناحية الرقة ، ومعه جماعة من وجوه الزيدية ، منهم يحيى بن الحسن بن الفرات ، وعبّاد بن يعقوب الرواجني ، والزيدية كانت تشكل القاعدة للكثير من الثورات .

روى إبراهيم بن عبد العطّار : " كنا معه ، فتفرقنا في الناس ندعوهم إليه ، فلم نلبث إلاّ يسيراً حتى استجاب له أربعون ألفاً ، وأخذنا عليهم البيعة ، وكنا أنزلناه في رستاق من رساتيق مرو ، وأهله شيعة كلهم ، فأحلوه في قلعة لا يبلغها الطير في جبل حريز " [20] .

ومرة سمع بكاء في ( مرو ) فندب أحد أصحابه ليرى ما هذا البكاء ، فجاءه بخبر أن أحد الذين بايعوه قد كان غصب شيئاً من أحد الرجال ، فأصلح بينهما ، فقال محمد لصاحبه إبراهيم : " يا إبراهيم : أبمثل هذا ينصر دين الله ؟ ثم قال ، فرقوا الناس عني حتى أرى رأيي " .

فانتخب الصالحين من الذين بايعوه ثم سار بهم ، وهذا نموذج من طبيعة الثورات الرسالية إذ أنها لم

---

(٢٠) المصدر .

تكن تبيح اية وسيلة في سبيل الوصول إلى الهدف ، بل مثلما يكون الهدف هو إقامة حكم الله عزّ وجلّ ، يجب ان تكون الوسيلة ايضاً مرضية من قبل الله تعالى .

وهذا كان يربي المجتمع على عشق المثل العليا ، والمبادئ السامية ، وبعدما نقّي أصحابه ، ساروا إلى الطالقان .

ويروي إبراهيم صاحبه :

" ورحل محمد بن القاسم من وقته إلى الطالقان ، وبينها وبين مرو اربعين فرسخاً ، فنزلها وتفرقنا ندعو الناس فاجتمع عليه عالم ، وجئنا إليه ، فقلنا له : إن أتممت امرك ، وخرجت فنابذت القوم ، رجونا أن ينصرك الله ، فإذا ظفرت اخترت حينئذ من ترضاه من جندك ، وإن فعلت كما فعلت بمرو — يقصد اختيار الصالحين فقط — ، اخذ عبد الله بن طاهر يعقبك ، وهكذا اراد صاحبه " ابراهيم " أن يثنيه عن إبعاد الذين ليسوا بملتزمين جيداً عن جيش الثورة " . ولكن محمد بن القاسم ابى ذلك ، ودخل محمد بن القاسم مع عبد الله بن طاهر في حروب كثيرة وكان يلحق به شرّ الهزائم .

ومرة هدات صولات الحرب بينهما ، فسارع عبد الله بن طاهر بإرسال كل جيوشه مقسمة في فرق ضمن خطة ماكرة جداً ، وقال ابن طاهر لقائد جيوشه وهو ابراهيم بن غسان بن فرج العودي :

" قد جرّدت لك الف فارس من نخبة عسكري ، وامرت أن يحمل معك مائة الف درهم تصرفها فيما تحتاج إلى صرفها من امورك ، وخذ من خيلي ثلاثة افراس نجيبة معك تنتقل عليها ، وخذ بين يديك دليلاً قد رسمته لصحبتك فادفع إليه من المال الف درهم ، واحمله على فرس من الثلاثة فليركض بين يديك ، فإذا صرت على فرسخ واحد من " نسا " ، ( وهي المدينة التي يتواجد فيها محمد بن القاسم ) فافضض الكتاب ، واقراه واعمل بما فيه ولا تغادر منه حرفاً ، ولا تخالف مما رسمته شيئاً واعلم ان لي عيناً في جملة من صحبك يخبرني بانفاسك ، فاحذر ثم احذر وانت أعلم " .

وهذا يبين مدى خوف ابن طاهر من ان يكون هذا القائد يميل إلى صف محمد بن القاسم ، فلقد كان ذلك شيئا طبيعياً لأن نفوس الناس كانت مع الحركة الثورية ، ولكن السلطات كانت تجلب وتسخّر الناس في ضرب الحركة الرسالية مرة بالتهديد ومرة بالإغراء ومرة بالإفساد ومرات باساليبها المختلفة حتى أن ابن طاهر يقول : جعلت عيوناً عليك يرقبون انفاسك .

فسار قائده إلى " نسا " وقبل ان يصل بفرسخ فتح كتاب ابن طاهر وإذا فيه الخطة كاملة ، والبيت الذي يسكن فيه محمد بن القاسم ، وصاحبه ابو تراب ، ويامره فيه لن يستوثقهما بالحديد ، استيثاقاً شديداً ، وأن ينفذ خاتمه مع خاتم محمد بن القاسم اول ما يظفر به ، وقبل ان يعود خطوة واحدة لكي يطمئن ، وعلى الذي يرسلهما معه أن يركض بهما ركضاً ، ثم يكتب إليه شرح ما حدث . " وكن على غاية التحرز والتحفظ والتيقظ من امره حتى تصير به وصاحبه إلى حضرتي " .

نجحت الخطة وحمل محمد بن القاسم مع صاحبه ابو تراب إلى ابن طاهر في نيسابور ، فجاء ابن طاهر

ليراهما فقال لقائده :

" ويحك يا إبراهيم " أما خفت الله في فعلك – يقصد القيود الثقيلة جداً التي وضعها على محمد وصاحبه – اتقيد هذا الرجل الصالح بمثل هذا القيد الثقيل ؟

فقال إبراهيم العودي ( قائده ) :

" أيها الأمير خوفك انساني خوف الله ووعدك الذي قدمته إليّ اذهل عقلي عما سواه " .

وكانا يتكلمان من فوق سطح يطل على الغرفة المسجون بها محمد بن القاسم في نيسابور .

فقال ابن طاهر : خفف هذا الحديد كله عنه ، وقيّده بقيد خفيف في حلقته رطل وليكن عموده طويلاً ، وحلقتاه واسعتين ليخطو فيه ، وفي فترة سجن محمد بن القاسم طلب قرآناً يتدارس فيه .

وكان عبد الله بن طاهر يخرج من اصطبله بغالاً عليها القباب ليوهم الناس انه قد أخرجه ، ثم يردّها حتى استتر بنيسابور ، سلّه في جوف الليل ، وخرج به مع إبراهيم العودي ووافى به الري ، وقد أمره عبد الله بن طاهر أن يفعل به كما فعل هو ، يخرج في كل ثلاث ليال ومعه بغل عليه قبة ، ومعه جيش حتى يجوز الري بفرسخ ، ثم يعود إلى أن يمكنه سلّه ، ففعل ذلك خوفاً من أن يغلب عليه لكثرة من أجاب محمد بن القاسم بالبيعة له ، حتى أخرجه من الري ولم يعلم به أحد ، ثم اتبعه حتى أورده بغداد على المعتصم .

وقد سمع المعتصم بمسير محمد إلى بغداد ، فارسل إلى طاهر العودي أن انزع العمامة من عليه واجعله حاسراً وانزع رداء قبة البغل ليكون على البغل حاسراً ، ثم ادخله بغداد .

وكان يريد بذلك تعذيب محمد نفسياً والحط من كرامته ، وقد ازدحم الناس ازدحاماً شديداً على الطرقات حين إدخال محمد بن القاسم إلى بغداد ، ثم ادخل على المعتصم في مجلس اللهو والشراب .

وقيل : وجعلت الفراغنة يحملون على العامة ويرمونهم بالقذر والمعتصم يضحك ، ومحمد بن القاسم يسبّح ويستغفر الله ويحرك شفتيه يدعو عليهم ، والمعتصم جالس يشرب ، ومحمد واقف إلى أن انتهى من لعبه فامر بسجنه .

وسرعان ما دبّر محمد بن القاسم حيلة ذكية للهروب ، ثم توارى عن الأنظار في بغداد ثم إلى واسط ، وقد شدَّ وسطه للوهن الذي أصاب فقار ظهره عند عملية هروبه . وظل محمد مختفياً بعد ذلك إلى نهاية عهدَي المعتصم ومحمد الواثق ، ثم بعض أيام المتوكل ، وقيل انه اخذ إليه فحمل إلى السجن حتى مات فيه .

ولكن ماذا فعل خلال فترة تواريه عن الأنظار وهي ليست بالفترة القليلة ؟ هذا ما أجابت عليه الثورات العديدة التي قامت بعد ذلك في عهد المتوكل ، والمستعين وما بعده من الخلفاء ، التي لم تدع الخليفة يلعب ويلهو براحة .

وفي واسط سكن محمد بيتاً يعود إلى أم ابن عمه علي بن الحسن بن علي بن عمر ابن الإمام زين

العابدين (ع) وكانت عجوزاً مقعدة ، فلما نظرت إليه وثبت فرحاً وقالت : " محمد والله ، فدتك نفسي واهلي ، الحمد لله على سلامتك " فقامت على رجلها وما قامت قبل ذلك بسنين .

وقال إبراهيم العودي ، قائد جيوش ابن طاهر يصف محمداً :

ما رايت قط اشدّ اجتهاداً منه ، ولا اعف ، ولا اكثر ذكراً لله عزّ وجلّ مع شدة نفس ، واجتماع وما اظهر من جزع ولا انكسار ولا خضوع في الشدائد التي مرت به ، وانهم ما راوه قط مازحاً ولا هازلاً ولا ضاحكاً إلا مرة واحدة ، فإنهم لما انحدروا من عقبة حلوان اراد الركوب ، فجاء بعض اصحاب إبراهيم بن غسان العودي ، فطاطا له ظهره ، حتى ركب في المحمل على البغل ، فلما استوى على المحمل قال للذي على ظهره مازحاً : " اتاخذ ارزاق بني العباس وتخدم بني علي بن ابي طالب ؟ وتبسم " .

وقال : عرضوا على محمد بن القاسم كل شيء نفيس من مال وجواهر وغير ذلك ، فلم يقبل إلاّ مصحفاً جامعاً كان لابن طاهر فلمّا قبله ، سُر عبد الله بن طاهر بذلك ، وإنما قبله لأنه كان يدرس فيه .

ووجود شخصية ثورية مثل محمد وثورة مثل ثورته تدلان على ان الحركة الرسالية لم تتوقف يوماً ما عن مسيرتها ، وانها لا يمكن ان تميل عن استقامتها التي كانت معهودة بها ، وهاتان ميزتان موجودتان في طول الثورات التي قامت بها الحركة الرسالية .

بجانب وضع السلطة المتازم ومن عهد الإمام الجواد (ع) بدات مسيرة ذات كيفية خاصة للثورات وطبيعتها ، ووضع الحركة الرسالية في ايام الإمام الجواد كان جيداً ، وإذا كان احرج وقت مرّ على الحركة الرسالية هو في ايام الإمام موسى بن جعفر (ع) ، فإن احسن الأوقات كانت في عهد الإمام الجواد (ع) ، وربما لذلك جاء في الحديث الماثور عن ابن اسباط وعبّاد بن إسماعيل :

" انا لَعند الرضا (ع) بمنى إذ جيء بابي جعفر (ع) قلنا : هذا المولود المبارك ؟ قال : نعم هذا المولود الذي لم يولد في الإسلام اعظم بركة منه "[21] .

وروي ابو يحيى الصنعاني قال : كنت عند ابي الحسن (ع) فجيء بابنه ابي جعفر (ع) وهو صغير فقال: " هذا المولود الذي لم يولد مولود اعظم على شيعتنا بركة منه " .

والبركة التي حصلت للحركة الرسالية بولادة الإمام الجواد (ع) ليست في ارتفاع الإرهاب والاختناق السياسي عنهم فقط بل واهم من ذلك في تجذر الرسالة عقيدة وفكراً وسياسةً وفقهاً .

---

(٢١) البحار : ( ج ٥٠ ، ص ٢٣ ) .

**الفصل الرابع**

# خلقه وفضائلـه

## أ - الجواد الكريم :

كان يلقب إمامنا التاسع بالجواد لما كان يشتهر به من الجود الذي فاض فغمر السهل والجبل كما يغمر الضوء السهول .

واليك قصصاً من جوده :

— لقد كان برنامجه العملي ، كتاب وفد إليه من والده من خراسان وله زهاء ست سنوات من العمر ومضمون الكتاب ما يلي :

فاسالك بحقي عليك لا يكن مدخلك ومخرجك إلاّ من الباب الكبير وإذا ركبت فليكن معك ذهب وفضة ثم لا يسالك احد إلاّ واعطيته . من سالك من عمومتك ان تبره فلا تعطه اقل من خمسين ديناراً والكثير إليك، ومن سالك من عماتك فلا تعطها اقل من خمسة وعشرين ديناراً والكثير إليك ، إني اريد ان يرفعك الله فانفق ولا تخشى من ذي العرش افتقاراً .

— وروي انه حمل له حمل بزّله قيمة كثيرة ، فسل في الطريق ، فكتب إليه الذي حمله يعرفه الخبر ، فوقّع بخطه ان انفسنا واموالنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة يمتع بما متع منها في سرور وغبطة ويأخذ ما اخذ منها في اجر وحسبة فمن غلب جزعه على صبره حبط اجره ونعوذ بالله من ذلك [٢٢] .

— ودخل عليه بعض اصحابه الذي كان للإمام عليه دين يقول له : جعلت فداك اجعلني من عشرة الآف درهم في حل فإني انفقتها ، فقال له ابو جعفر (ع) : انت في حل ، الحديث [٢٣] .

## ب - زهده وتقواه :

— ينقل بعض الرواة انه حججت ايام ابي جعفر (ع) وجئت إليه في المدينة فدخلت الدار فإذا ابو جعفر (ع) قائم على دكان لم يكن فُرِش له ما يقعد عليه ، فجاء غلام بمصلى فالقاه له فجلس فلما نظرت إليه تهيبته ودهشت فذهبت لأصعد الدكان من غير درجه فاشار إلى موضع الدرجة فصعدت وسلمت فردّ السلام ومد إلي يده فاخذتها وقبّلتها ووضعتها على وجهي واقعدني بيده فامسكت بيده مما دخلني من الدهشة فتركها في يدي فلما سكنت خليتها .

---

(٢٢) تحف العقول : ( ص ٣٣٩ ) .

(٢٣) بحار الانوار : ( ج ٥٠ ، ص ١٠٥ ) .

– واستقبل الناس في حفلة اقيمت تكريماً له ايام الحج ، وقد حضرها من فقهاء العراق ومصر والحجاز جمع غفير استقبلهم بقميصين وعمامة بذوابتين ونعلين .

– وينقل عن ابي هاشم قوله : ان ابا جعفر اعطاني ثلاثمائة دينار في مرة وامرني أن احملها إلى بعض بني عمه ، وقال : أما انه سيقول لك دلني على من اشتري بها منه متاعاً ، فدلّه ، قال : فاتيته بالدنانير، فقال لي يا ابا هاشم ، دلني على عريف يشتري بها متاعاً ففعلت [٢٤] .

– وعن احد اصحابه الذي كان يدعى ( ابن حديد ) قال : خرجت مع جماعة حجاجاً ، فقطع علينا الطريق ، فلما دخلت المدينة لقيت ابا جعفر (ع) في بعض الطريق ، فاتيته إلى المنزل فاخبرته بالذي اصابنا ، فامر لي بكسوة واعطاني دنانير وقال : فرّقها على أصحابك على قدر ما ذهب ، فقسمتها بينهم فإذا هي على قدر ما ذهب منهم لا اقل ولا اكثر .

– وقال بعضهم : جئت إلى ابي جعفر (ع) يوم عيد فشكوت إليه ضيق المعاش ، فرفع المصلى واخذ من التراب سبيكة من ذهب فاعطانيها فخرجت بها إلى السوق فكانت ستة عشر مثقالاً [٢٥] .

– وقال عمر بن الريّان : احتال المامون على ابي جعفر (ع) – لكي يهوي به مزالق الفساد فينقص من كرامته وهيبته لدى الناس جميعاً – فاحتال بكل حيلة فلم يمكنه في شيء ، فلما اراد ان يثني عليه ابنته جاء بمائة وصيفة من اجمل ما يكون ، ودفع إلى كل واحدة منهن جاماً فيه جوهر يستقبلن ابا جعفر (ع) إذا قعد في موضع الأختان ، فلم يلتفت الإمام (ع) اليهن ، وكان رجل يقال له مخارق صاحب صوت وعود وضرب ، طويل اللحية فدعاه المامون فقال : إن كان في شيء من امر الدنيا فانا اكفيك امره ، فقعد بين يدي أبي جعفر فشهق شهقة اجتمع إليه اهل الدار ، وجعل يضرب بعوده ويغني ، فلما فعل ساعة وإذا ابو جعفر لا يلتفت لا يميناً ولا شمالاً ، ثم رفع راسه إليه وقال : إتق الله يا ذا العثنون ( اي اللحية ) فسقط المضراب من يده والعود ، فلم ينتفع بيده إلى ان مات [٢٦] .

– وجاء بعض أصحاب ابيه ، وقد كان حديثاً في السن ، وحمل معه شيئاً مما يلعب به الاطفال ، فيقول لما جئته ووقفت امامه مسلّماً لم يإذن لي بالجلوس ، فرميت بما كان معي بين يديه فغضب علي وقال : ما لهذا خلقنا .

## ج – علمه وثقافته :

لقد سبق الحديث عن علم الأوصياء (ع) في كتابي الخاص بحياة الإمام جعفر الصادق ناشر علوم آل البيت ومبلغها الشرق والغرب ، وسبق بيان معنى علم الأوصياء بالمغيبات ، ومع ذلك فلا احد بُدّاً من ان ابحث ها هنا عن علم الإمام الجواد الغزير ، وثقافته التي نبعت عن قلب ملهم ، وفؤاد مفعم اقول : لقد

---

(٢٤) بحار الانوار : ( ج ٥٠ ، ص ٤١ ، ط ٢ ) .

(٢٥) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٤٩ )

(٢٦) مناقب آل أبي طالب : ( ج ٤ ، ص ٣٩٦ ) .

كثر في الأحاديث إنباؤه (ع) الناس بما يجول في خاطرهم وبما يأتي عليهم مستقبلاً ، ولا يعني ذلك أن الأئمة (ع) يعلمون الغيب ، وإنما يعني انهم (ع) متصلون بالله سبحانه وتعالى عن طريق الإلهام او عن طريق النبي (ص) ، فيستقون معارفهم بشكل مباشر بينما يستقي سائر البشر معارفهم عبر الحواس والتجارب مثلاً .

وإذا أثبتت التجارب الحديثة وجود الحس السادس عند بعض الأفراد ، سهل علينا أن نعتقد بأن شيئاً ما يوجد في بعض الأشخاص الذين يشاء الله لهم ذلك ، اضف إلى ذلك ان الإيمان بقدرة الله واستطاعته على ان يفعل كل شيء دون اي استثناء ، يحدو بالفرد إلى تقبل كل ممكن إذا ثبت أن الله قد أراده .

وروي أن والي مكة والمدينة ( فرج الرغجي ) ، الذي كان من المعارضين لآل البيت قال مرة لأبي جعفر (ع) : إن شيعتك تدّعي انك تعلم كل ماء دجلة ووزنه ، وكانا في ذلك الوقت واقفين على شاطئ دجلة ، فقال (ع) : أيقدر الله تعالى أن يفوّض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه أم لا ؟ يقول الراوي : فقال فرج : نعم يقدر ، فقال (ع) : أنا أكرم على الله تعالى من بعوضة ومن أكثر خلقه .

نعم ، إن الغرابة الناشئة عن الشك في قدرة الله لهي أوهى من الشك في ضياء الشمس ، بل يبقى الريب في محله إذا كان في الرجل الذي يدّعي هذا المنصب الرفيع ، فلا يستطيع المرء أن يتقبله إلاّ بعد الفحص والتدقيق ، أما إذا كان في أهل بيت الرسول فسوف لا يبقى للشك مجال ، بعد استفاضة حديث متواتر عن النبي (ص) في أنهم قدوة الخلق وأئمتهم ، وبعد أن عرفنا أن كل إمام كان أعلم أهل زمانه في كل شيء منذ ان تنتقل إليه الخلافة الروحية ، وكذلك كان النبي (ص) وأوصياؤه (ع) جميعاً .

ويكفيك في الإمام الجواد ما سبق من أنه سئل في مجلس واحد ثلاثين الف مسألة ، فأجاب عنها وهو ابن ثمان أو تسع ، وأنه كان في زهاء السادسة عشرة من عمره إذ حضر مجلس المأمون وباحث مع قاضي القضاة ، فأفحمه إفحاماً ، وإذا علمنا بأن المأمون كان كما يحدثنا التاريخ أعلم الخلفاء العباسيين وأعرفهم بعلوم اهل زمانه ، ثم رأيناه كيف يخشع لجلال ابن الرضا (ع) في المشاهد التي مضت علينا ، نعرف معنى العلم الإلهي ونوعيته .

وإليك بعض الأحاديث التي تنبئنا عن جانب من علم الإمام الجواد (ع) :

١ — عن أمية بن علي قال : كنت مع أبي الحسن بمكة في السنة التي حج فيها ، ثم صار إلى خراسان ومعه أبو جعفر وأبو الحسن يودع البيت ، فلما قضى طوافه عدل إلى المقام فصلى عنده فصار أبو جعفر على عنق موفق يطوف به ، فصار ابو جعفر إلى الحجر ، فجلس فيه فأطال ، فقال له موفق : قم جعلت فداك ، فقال : ما اريد ان ابرح من مكاني هذا إلاّ أن يشاء الله ، واستبان في وجهه الغم ، فأتى موفق أبا الحسن (ع) ، فقال له : جعلت فداك قد جلس أبو جعفر في الحجر وهو يأبى ان يقوم ، فقام أبو الحسن (ع) فأتى أبا جعفر فقال له : قم يا حبيبي، فقال : ما اريد ان ابرح من مكاني هذا، فقال : بلى يا حبيبي ،

ثم قال : كيف أقوم وقد ودّعت البيت وداعاً لا ترجع إليه ، فقال : قم يا حبيبي ، فقام معه .

٢ — كان يحيى بن أكثم قاضي القضاة في عهد المأمون ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه تشيع أخيراً لو كان شيعياً ، وينقل عنه أنه قال : فبينا أطوف بقبر رسول الله (ص) ، رأيت محمد بن علي الرضا (ع) يطوف به ، فناظرته في مسائل عندي ، فأخرجها إلي ، فقلت له والله إني أريد أن أسألك مسألة واحدة ، وإني والله لأستحي من ذلك ، فقال لي ، أنا أخبرك قبل أن تسألني ، تسألني عن الإمام ، فقلت هو والله هذا ، فقال : إذاً هو ، فقلت : علامة ، فكان في يده عصا فنطقت وقالت : إنه مولاي إمام هذا الزمان وهو الحجة [٢٧] .

٣ — نقل بعض الرواة أنه اجتاز المأمون بابن الرضا (ع) وهو ما بين صبيان ، فهربوا سواه فقال : عليّ به ، ثم قال له : مالك لم تهرب في جملة الصبيان ؟ قال : مالي ذنب فأفرّ منه ، ولا الطريق ضيق فأوسعه عليك ، سر حيث شئت ، فقال : من تكون أنت ؟ قال : أنا محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ، فقال : ما تعرف من العلوم ؟ قال : سلني عن أخبار السماوات ، فقال : ما عندك من أخبار السماوات ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين حدثني أبي عن آبائه عن النبي (ص) عن جبرائيل عن رب العالمين أنه قال : بين السماء والهواء بحر عجاج ، تتلاطم به الأمواج ، فيه حيات خضر البطون ، رقط الظهور ، يصيدها الملوك بالبزاة الشهب يمتحن به العلماء .

فقال : صدقت وصدق أبوك وصدق جدك وصدق ربك ، فأركبه ، ثم زوّجه أم الفضل [٢٨] .

٤ — ويروي عن فاصد طلبه الإمام أبو جعفر الثاني في عهد المأمون ، فقال له : افصدني في العرق الزاهر ، فقال له : ما أعرف هذا العرق يا سيدي ، ولا سمعت به ، فأراه إياه ، فلما فصده خرج منه ماء أصفر فجرى حتى امتلأ الطشت ، ثم قال له أمسكه ، وأمر بتفريغ الطشت ثم قال خل عنه ، فخرج دون ذلك ، فقال شده الآن ، فلما شد يده ، أمر له بمائة دينار فأخذها وجاء إلى يوحنا بن بختيشوع ، فحكى له ذلك ، فقال والله ما سمعت بهذا العرق من نظرتي في الطب ، ولكن هاهنا فلان الأسقف ، قد مضت عليه السنون ، فامض بنا إليه ، فإن كان عنده علمه ، وإلاّ لم نقدر على من يعلمه ، فمضينا ودخلنا عليه ، وقصّ القصص ، فأطرق ملياً ثم قال : يوشك أن يكون هذا الرجل نبياً أو من ذرية نبي .

وهكذا تمضي الأحاديث تنقل عن الأئمة عجباً ، ولكن لا عجب من أمر الله ، إذ يشاء أن يجعل علمه ومعرفته وقوته وقدرته في إنسان امتحن قلبه ، فزكّاه وطهّره تطهيراً .

## د – من كلمات الإمام :

الروايات المفتعلة — يروى أن المأمون لما زوّج ابنته أم الفضل أبا جعفر (ع) ، كان ذات يوم في المجلس وعنده الإمام ويحيى بن أكثم ، وجماعة كثيرة ، فقال له يحيى بن أكثم : ما تقول يا ابن رسول

---

(٢٧) الكافي : ( ج ١ ، ص ٣٥٣ ) .

(٢٨) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٥٦ ) .

الله في الخبر الذي روي انه نزل جبرائيل على رسول الله (ص) وقال : يا محمد إن الله عز وجلّ يقرؤك السلام ويقول لك : سل ابا بكر هل هو عني راضي ، فإني عنه راضي فقال ابو جعفر : لست بمنكر فضل ابي بكر ولكن يجب على صاحب هذا الخبر ان يلخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله (ص) في حجة الوداع :

( قد كثرت علي الكذّابة ، وستكثر ، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، فإذا اتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به ، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تاخذوا به ) .

ولا يوافق هذا الخبر كتاب الله ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق/١٦)

فالله عزّ وجلّ خفي عليه رضا ابي بكر من سخطه حتى سال من مكنون سره ، هذا مستحيل في المعقول .

ثم قال يحيى بن اكثم : وقد روي ان مثل ابي بكر وعمر في الأرض كمثل جبرائيل وميكائيل في السماء .

فقال (ع) : وهذا ايضاً يجب ان ينظر فيه لأن جبرائيل وميكائيل ملكان لله مقربان لم يعصيا قط ، ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة ، وهما قد اشركا بالله عزّ وجلّ وإن اسلما بعد الشرك ، وكان اكثر ايامهما في الشرك بالله فمحال ان يشبّههما بهما .

قال يحيى : وقد روي ايضاً انهما سيدا كهول اهل الجنة فما تقول فيه ؟

فقال (ع) : وهذا الخبر محال ايضاً لأن اهل الجنة كلّهم يكونون شباباً ولا يكون فيهم كهل ، وهذا الخبر وضعه بنو امية لمضادة الخبر الذي قاله رسول الله في الحسن والحسين بانهما سيدا شباب اهل الجنة .

فقال يحيى بن اكثم : إن عمر بن الخطاب سراج اهل الجنة ؟

فقال (ع) : هذا ايضاً محال ، لأن في الجنة ملائكة الله المقربين ، وآدم ومحمداً وجميع الأنبياء والمرسلين ، لا تضيء بانوارهم حتى تضيء بنور عمر .

فقال يحيى : وقد روي ان السكّينة تنطق على لسان عمر .

فقال (ع) : إن ابا بكر كان افضل من عمر فقال على راس المنبر : إن لي شيطاناً يعتريني ، فإذا ملت فقوّموني .

فقال يحيى : قد روي ان النبي (ص) قال : لو لم أبعث لبُعِثَ عمر ؟

فقال (ع) : كتاب الله اصدق من هذا الحديث ، يقول الله في كتابه :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ (الاحزاب/٧)

فقد اخذ الله ميثاق النبيين فكيف يمكن ان يبدل ميثاقه ، وكان الأنبياء لم يشركوا طرفة فكيف يبعث

بالنبوة من اشرك ، وكان اكثر ايامه مع الشرك بالله وقال رسول الله (ص) : نبئت وآدم بين الروح والجسد .

فقال يحيى بن اكثم : وقد روي أن النبي (ص) قال :

ما احْتُبس الوحي عنّي قط إلاّ ظننته قد نزل على آل الخطاب ، فقال (ع) : وهذا محال أيضا لأنه لا يجوز أن يشك النبي في نبوته . قال الله تعالى :

﴿ الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج/٧٥)

فكيف يمكن أن تنقل النبوة ممن اصطفاه الله إلى من أشرك به .

قال يحيى بن أكثم : ان النبي (ص) قال : لو نزل العذاب لما نجي منه إلاّ عمر .

فقال (ع) : وهذا محال أيضاً ، إن الله يقول :

﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الانفال/٣٣)

فأخبر سبحانه ألا يعذب احداً مادام فيهم رسول الله (ص) وماداموا يستغفرون [٢٩] .

## هـ- أنا محمد :

— وروي أنه جيء بأبي جعفر (ع) إلى مسجد رسول الله (ص) بعد موت ابيه وهو طفل ، وجاء المنبر ورقى منه درجة ثم نطق فقال :

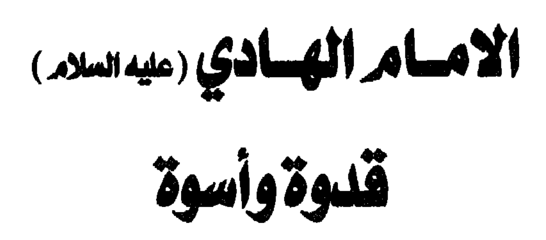
( انا محمد بن الرضا ، انا الجواد ، انا العالم بانساب الناس في الأصلاب ، انا اعلم بسرائركم وظواهركم ، وما انتم صائرون إليه ، علم منحنا به من قبل خالق الخلق اجمعين ، وبعد فناء السماوات والأرضين ، ولولا تظاهر اهل الباطل ودولة اهل الضلال ، ووثوب اهل الشك لقلت قولاً تعجب منه الأولون والآخرون ) .

ثم وضع يده الشريفة على فيه وقال : يا محمد اصمت كما صمت اباؤك من قبل .

وفيما نأتي على هذا القدر المقدور نحمد الله تعالى ونصلّي على نبيّه والمعصومين من آله ونسلم لهم تسليماً .

---

(٢٩) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٨٣ ، ط ٢ ) .



الامام الهادي (عليه السلام)
قدوة وأسوة

# تمهيد

الحمد لله رب العالمين . والسلام على النبيّين والصديقين ، وصلوات الله وبركاته على خاتم المرسلين محمد وآله الهداة الميامين .

أفكر في نفسي أحياناً ، هل تكفي أحدنا صلة بالأئمة هذه المعرفة البسيطة بأسمائهم وتواريخ ميلادهم وشهادتهم ؟

وهل بمجرد ذلك يصبح الواحد منا تابعاً للأئمة بحيث يكون مأموماً لهم ، وما علامة الائتمام إذاً ؟

وإذا مثل الواحد منا أمام رب العزة فسأله ، من إمامك أو من هم أئمتك ؟ فعرّفهم بأسمائهم دون صفاتهم وأفعالهم فلم يعرفوه بل أنكروه وأنكروا أن يكون من شيعتهم فهل له عذر مقبول عند الله يومئذ ؟

أشك في ذلك ، وأحتمل أن يكون على موالي أهل البيت الذي يدعي الإنتماء إليهم ، والتشيع لهم واتباع منهجهم أن يعرفهم معرفة تنشئ بينه وبينهم صلة الإئتمام ، وهي معرفة تتجاوز كثيراً حدود الأسماء والألقاب ، حتى تبلغ — على الأقل — إلى معرفة نهجهم العام في الحياة ، وبعض ما أمروا به شيعتهم .

وإذا كان هذا الإحتمال صحيحاً يجب أن يجعل الشيعي في برنامج دراسته معرفة تاريخ الأئمة ولو بصورة موجزة .

على أن الإستزادة من معرفتهم (ع) ، ودراسة أقوالهم ترفع درجات الإنسان عند ربه ، كما ترفع قيمة أعماله الصالحة .

وما نقدمه خلال الصفحات التالية بضاعة مزجاة إلى أئمة الهدى ، أرجو أن يتقبلها الله قبولاً حسناً ومنّاه ..

وإذا وفقنا الله لإكمال هذا الكتاب الذي يتشرف بتاريخ حياة الإمام العاشر (ع) ، فإن مشروع التأليف عن تاريخ المعصومين الأربعة عشر يكون قد أنجز بفضل الله بالرغم من أنه قد تكون الفاصلة الزمنية بين الكتاب والآخر تبلغ ثلاثا وعشرين عاماً من سني المحن والفتن ، وإذا وجد القارئ اختلافاً بين أساليب التأليف ، فهو الإختلاف بين شاب عمره ٢٣ عاماً ومن بلغ الخامسة والأربعين من حياته التي أسأل الله تعالى أن يختمها بالشهادة في سبيله وحسن العاقبة بحق أوليائه المعصومين محمد وآله الطاهرين .

## الفصل الاول

# منعطفات الحركة الرسالية

منذ ان هبط آدم ابو البشر (ع) ارض الفتن والإبتلاء ، ومن قيام الساعة تجري سنّة الصراع بين الأبرار الذين ابتغوا رضوان الله ، والضّالين الذين اتبعوا خطوات الشيطان .

ولم تخل الأرض — في اية حقبة — عن أولي بقية من سلالة النبيين واتباعهم ينهون عن الفساد في الأرض ، ويقيمون حجة الله على العباد .

وقد قال ربّنا سبحانه ، ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود/١١٦)

وكان يقود اولئك البقية الصالحة نبي مرسل ، او وصي نبي ، او عالم رباني ، يتوارثون الدعوة إلى الله، والقيام بامره . وورث الإمام الهادي (ع) هذه القيادة الرشيدة من والده الجواد (ع) الذي انتهى إليه ميراث رسول الله خاتم الأنبياء والمهيمن على رسالات الله جميعاً ؛ فالإمامة الربانية ورثها المصطفون من عباد الله ، وان نهج الحق توارثه العلماء الربانيون ، واهل الزهد والصلاح من شيعة الحق واتباع نهج الأنبياء .

وكان هدف هذا الخط الميمون تحقيق ذات التطلعات التي سعى إليها الأنبياء والصالحون عبر التاريخ والتي يوجزها ربّنا سبحانه في كتابه حين يقول ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد/٢٥)

ان ما تهدينا اليه سائر الآيات القرآنية ومنها هذه الآية المباركة هي الغايات السامية لابتعاث الرسل وهي التالية ؛

الف ؛ الدعوة إلى الله بالبينات ، التي تتمثل في كلمة الإمام امير المؤمنين (ع) ؛

" ليستادوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ، ويقدروا لهم بالبينات ، وليثيروا لهم دفائن العقول ..." .

هكذا بإيقاظ العقل من سباته ، وإثارة الوجدان من تحت ركام الغفلة ، وتنقية الفطرة من الشوائب ، والحجب ، بذلك كله تتم حجة الله على عباد الله عبر رسله الكرام !

باء ؛ تلاوة كتاب الله الذي فيه تبيان كل شيء مما يحتاجه الخلق ، وعبر تلاوة الكتاب وآياته الكريمة

كان الأنبياء (ع) يقومون بتزكية الناس وتعليمهم وقد قال ربنا سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ (الجُمُعَة/٢)

جيم : توفير الميزان ، والذي يعني ولي الأمر الذي يقضي بين الناس بالعدل ، وقد قال ربنا سبحانه :

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء/٦٥)

وهكذا كل من يستلم منصب الخلافة الإلهية يكون ميزاناً للحق وفرقاناً ونوراً ، ليعلم الناس إذا تشابهت المذاهب ، واختلفت الآراء ، اي سبيل يهديهم إلى ربهم ، واي نهج يرضاه خالقهم .

دال : والهدف الأسمى لكل تلك التطلعات السامية تحقيق أقصى درجات العدالة بين الناس وهي القسط ، والتي لا تتم إلاّ بإيمان الناس بالرسل واتباعهم للكتاب وتسليمهم للميزان -- لذلك قال ربنا سبحانه : ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾

ومعلوم : ان هذا القسط لا يتحقق بالتمام إلاّ بقوة مادية رادعة تتمثل بالحديد الذي أنزله الله .. وجعل فيه بأساً شديداً .

والحديد بدوره لا يعني شيئاً لو لم تحمله أيادي شجاعة متفانية في سبيل الله ونصر دينه ورسله .

فإذا حملوا الحديد دفاعاً عن وحي الله ونهج رسل الله ، نزل عليهم نصر الله إن الله قوي عزيز ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحَج/٤٠)

تلك كانت تطلعات الخط الرسالي الذي قاده في عصره الإمام النقي علي بن محمد الهادي (ع) ، فماذا كانت منعطفات هذا الخط منذ تبلوره في عصر الإمام امير المؤمنين (ع) حتى ذلك اليوم .

بعد رحيل النبي إلى الرفيق الأعلى كانت الأمة الناشئة بحاجة إلى إمام يحافظ على تراث الرسول ، ويدافع عن خطه الأصيل ان يزمع الناس عنه يمنة ويساراً ، ويكرس تلك القيم السامية التي نزل بها الوحي في واقع الأمة .

وقد قام الإمام امير المؤمنين (ع) بذلك خير قيام والتف حوله الاصفياء من الأمة الذين اصبحوا تلك البقية الصالحة الذين حافظوا على الخط الأصيل للرسالة الإلهية !

وعندما وقعت معركة صفّين ازداد الفرق بين هذا الخط وبين سائر الخطوط وضوحاً ، وانحاز الأبرار كلياً إلى الإمام (ع) وبينهم بقية السلف الصالح من أصحاب النبي (ص) ، وبقي هذا الخط في تصاعد رغم إرهاب الحزب الأموي الحاكم ، ولكنه لم يشتهر في ارجاء الأرض إلاّ بعد ان اصطبغ بلون الدم ، واكتسب حرارة المأساة بعد واقعة الطف ، فإذا كانت بلورة الخط في صفّين ، فإن رشده وتكامله كان في يوم عاشوراء .

وعلى عهد الإمام زين العابدين تضاعفت صبغته الإلهية . وفي عهد الإمام الباقر تبلور فيه المنهج التوحيدي حيث يلتقي في ذروته العقل النير بالوحي المنزل . اما في عهد الإمام الصادق (ع) فإن تفاصيل هذا المنهج في الأحكام والأخلاق والآداب والمواعظ كانت قد رسمت بصورة تامة .

اما في عهد الإمام الكاظم (ع) فإن الخط قد اتخذ الصبغة السياسية في صورتها حيث التخطيط لثورة جماهيرية ، اما على عهد الأئمة من بعده – الإمام الرضا وابنائه الثلاثة – فإن الخط الرسالي قد أصبح قوة سياسية واجتماعية متداخلة مع السلطة الحاكمة مؤثرة في قراراتها مهيمنة على الحياة الدينية .

وهكذا كان عهد الإمام الهادي (ع) يتميز بقدرة الخط الرسالي على جميع الأصعدة بالرغم من الإرهاب الذي كان يتميز به النظام العباسي ، وبالذات على عهد المتوكّل العبّاسي .

ولعلنا نجد في الشواهد التاريخية التالية بعض الملامح لوضع الطائفة في عصر الإمام (ع) .

١ – في حديث مفصل رواه الشيخ الكليني رضوان الله عليه عما جرى بعد وفاة الإمام الجواد (ع) جاء فيه :

" فلما مضى ابو جعفر ( الإمام الجواد (ع) ) لم اخرج من منزلي حتى علمت ان رؤوس العصابة قد اجتمعوا عند محمد بن الفرج ( الرخجي وكان ثقة من أصحاب الرضا والجواد ووكيلاً عن الإمام الهادي عليه السلام ) يتفاوضون في الأمر "[1] .

وهكذا كان للشيعة يومئذ مجالس للتفاوض في الأمور المهمّة ، ومن ابرزها معرفة الإمام والبيعة له والتسليم لأوامره ، وقد اجمعوا بعد الإمام الجواد على الإمام الهادي ، بما تناهت إليهم من الإخبار الصحيحة بذلك حيث جاء في نهاية هذه الرواية ، فلم يبرح القوم حتى سلموا لأبي الحسن (ع) ، واضاف الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد ، والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً إن عملنا على إثباتها طال الكتاب ، وفي إجماع العصابة على امامة ابي الحسن وعدم من يدعيها سواه في وقته ممن يلتمس الأمر فيه ، غني عن إيراد الأخبار بالنصوص على التفصيل "[2] .

وهكذا ترى الشيخ المفيد يقول بإمامة الهادي (ع) بإجماع العصابة ، بلى وهو صفوة الأمة وكبار فقهائها ، فمعرفتهم بالإمام الذي عاصروه وعاصروا والده وجدّه ، سبيل عقلائي الى معرفة الإمام بعدهم . والأمر الذي نستفيده من كلام الشيخ المفيد ومن الحديث الذي يرويه هو وضع الطائفة في ذلك اليوم .

٢ – وكان فتح بن خاقان وزيراً عند المتوكل ، ولكنه كان يتحبب إلى الإمام الهادي ، إما لميله النفسي إليه او لأنه كان من رجاله في البلاط ، ولكن ورد من الإمام بحقه الذم حفاظاً عليه ، دعنا نستمع معاً إلى الحديث التالي الذي يحكي مكرمة من مكارم الإمام ، وفي ذات الوقت يعكس جانباً من وضع الطائفة في

---

(١) الحديث مفصل أخذنا منه موضع الحاجة عن بحار الأنوار . ( ج ٥٠ ، ص ١٢٠ ) .

(٢) المصدر . ( ص ١٢١ ) نقلاً عن إرشاد المفيد : ( ص ٣٠٨ ) .

تلك الأيام :

قصدت الإمام (ع) يوماً فقلت : يا سيدي إن هذا الرجل قد اطّرحني ، وقطع رزقي ، وملني ، وما اتهم في ذلك إلاّ علمُه بملازمتي لك ، وإذا سالته شيئاً منه يلزمه القبول منك فينبغي أن تتفضل عليّ بمسالة ، فقال : تكفى إن شاء الله .

فلما كان في الليل طرقني رسل المتوكل رسول يتلو رسولاً فجئت والفتح على الباب قائم فقال : يا رجل ما تاوي في منزلك بالليل كدني هذا الرجل مما يطلبك ، فدخلت وإذا المتوكل جالس على فراشه فقال : يا أبا موسى نشغل عنك وتنسينا نفسك أي شيء لك عندي ؟ فقلت : الصلة الفلانية والرزق الفلاني وذكرت أشياء فامر لي بها ويضعها .

فقلت للفتح : وافي علي بن محمد إلى ههنا ؟ فقال : لا ، فقلت : كتب رقعة ؟ فقال : لا فوليت منصرفاً فتبعني فقال لي : لست أشك أنك سالته دعاء لك فالتمس لي منه دعاء .

فلما دخلت إليه (ع) فقال لي : يا أبا موسى : هذا وجه الرضا ، فقلت : ببركتك يا سيدي ، ولكن قالوا لي : إنك ما مضيت إليه ولا سالته ، فقال : إن الله تعالى علم منا أنا لا نلجا في المهمات إلاّ إليه ولا نتوكل في الملمات إلاّ عليه وعودنا إذا سالناه الإجابة ، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا .

قلت : إن الفتح قال لي كيت وكيت ، قال : إنه يوالينا بظاهره ، ويجانبنا بباطنه ، الدعاء لمن يدعو به : إذا أخلصت في طاعة الله ، واعترفت برسول الله (ص) وبحقنا أهل البيت وسالت الله تبارك وتعالى شيئاً لم يحرمك [٣] .

٣ — وكان الإمام الهادي يسكن سامراء في عاصمة الخلافة وكان يدخل على المتوكل وينقل الرواة في صفة دخوله عليه أنه كان لا يملك من يحضر باب الخليفة أن يترجل إذا طلع عليه الإمام ، يقول محمد بن الحسن بن الأشتر العلوي .. قال : كنت مع أبي بباب المتوكل ، وانا صبي في جمع الناس ما بين طالبي إلى عباسي إلى جندي إلى غير ذلك ، وكان إذا جاء ابو الحسن (ع) ترجل الناس كلهم حتى يدخل . فقال بعضهم لبعض : لم نترجل لهذا الغلام ؟ وما هو باشرفنا ولا باكبرنا ولا باسننا ولا باعلمنا ؟ فقالوا : والله لا ترجلنا له فقال لهم ابو هاشم : والله لترجلن له صغاراً وذلة إذا رايتموه ، فما هو إلاّ أن اقبل وبصروا به فترجل له الناس كلهم فقال لهم ابو هاشم : اليس زعمتم انكم لا تترجلون له ؟ فقالو : والله ما ملكنا انفسنا حتى ترجلنا [٤] .

وكان الإمام إذا دخل على المتوكل رفعوا له الستر واحترموه بكل وقار ، تقول الرواية : إن أحد الأشرار قال للمتوكل العباسي يوماً ما يعمل أحد بك اكثر مما تعمله بنفسك في علي بن محمد ، فلا يبقى في الدار إلاّ من يخدمه ولا يتعبونه بشيل ستر ولا فتح باب ولا شيء ، ولهذا كان الناس يقولون : لو لم يعلم

(٣) المصدر : ( ص ١٢٧ ) .

(٤) المصدر : ( ص ١٣٧ ) .

استحقاقه للأمر ما فعل به هذا [٥] .

ويظهر من هذا الحديث المفصّل الذي أخذنا منه موضع الحاجة أنه (ع) كان مهيباً مبجلاً حتى في بلاط أشد الخلفاء العباسيين إرهاباً في عصره وهو المتوكل العباسي .

وكان (ع) إذا دخل على الخليفة جابهه بالحق ، فقد دخل يوماً عليه فقال المتوكل : يا أبا الحسن من أشعر الناس ، قال الإمام فلان ابن فلان العلوي حيث يقول :

| | |
|---|---|
| لقــد فاخرتنــا من قريـش عصابـة | بمـط خـدود وامتـداد أصـابـع |
| فلمـا تنازعنـا القضـاء قضـى لنـا | عليـه بمـا فـاهـوا نـداء الصوامـع |

قال وما نداء الصوامع يا أبا الحسن ؟

قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً .. جدي أم جدكم ، فضحك المتوكل كثيراً ثم قال : هو جدك لا ندفعك عنه [٦] .

ومرة أخرى أدخل المتوكل الإمام (ع) إلى مجلس لهوه وطلب منه المشاركة فيما كان فيه ، فوعظه الإمام عظة بليغة تعالوا نستمع إلى قصة ذلك حسبما ينقلها المسعودي ، قال : سعي إلى المتوكل بعلي بن محمد الجواد (ع) أن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم ، وأنه عازم على الوثوب بالدولة ، فبعث إليه جماعة من الأتراك ، فهجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً ووجدوه في بيت مغلق عليه ، وعليه مدرعة من صوف ، وهو جالس على الرمل والحصى وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن ، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له : لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة ، وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب فدخل عليه والكاس في يد المتوكل . فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه ، وناوله الكاس التي كانت في يده فقال : والله ما يخامر لحمي ودمي قط ، فاعفني فاعفاه ، فقال : أنشدني شعراً فقال (ع) : إني قليل الرواية للشعر فقال : لابد ، فأنشده (ع) وهو جالس عنده :

| | |
|---|---|
| بـاتـوا علـى قلـل الأجبـال تحـرسهـم | غلـب الـرجـال فلـم تنفعهـم القـلل |
| واستنزلـوا بعـد عـز مـن معاقلهـم | واسكنـوا حفـراً يـا بئسمـا نزلـوا |
| نـاداهـم صـارخ مـن بعـد دفنهـم | أيـن الأسـاور والتيجـان والحـلل |
| أيـن الوجـوه التـي كانـت منعّمـة | مـن دونهـا تضـرب الأستـار والكـلل |
| فافصـح القبـر عنهـم حيـن سـاءلهـم | تلـك الوجـوه عليهـا الـدود تقتتـل |
| قـد طـال مـا أكلـوا دهـراً وقد شربـوا | وأصبحـوا اليوم بعد الأكـل قـد أكلـوا |

قـال : فبكى المتوكل حتى بل لحيتـه دمـوع عينيه ، وبكى الحاضرون ، ودفع إلى علي (ع) أربعة آلاف

---

(٥) المصدر : ( ص ١٢٨) .

(٦) المصدر : ( ص ١٢٩ ) .

دينار ، ثم رده إلى منزله مكرّماً [٧] .

وحسبما نقرأ في المصادر التاريخية ، كان الكثير من بطانة الخليفة يتشيع للإمام ، اما واقعاً أو لما يجد عند الشيعة من ثقل سياسي ، مثل الفتح بن خاقان الذي كان من اعظم وزراء المتوكل ، والذي قتل معه عندما انقلب عليه عسكره من الاتراك ، كان يحاول التقرب إلى الإمام ، ويظهر من بعض الروايات ان المتوكل كان يتهمه بذلك مما يدل على انه قد احسَّ بامره [٨] .

وجاء فيه فقال المتوكل : يا فتح هذا صاحبك وضحك في وجه الفتح وضحك الفتح في وجهه . كما يظهر من القصة التالية أن بعض قادة النظام العسكريين كانوا يكنون للإمام الحب وربما الولاء ، كما ان القصة تعكس جانباً من انتشار حب الإمام واحترامه بين عامة الناس لا سيما في الحرمين الشريفين .

ينقل عن القائد العباسي يحيى بن هرثمة قال : ارجعني المتوكل إلى المدينة لإشخاص علي بن محمد (ع) لشيء بلغه عنه ، فلما صرت إليها ضج اهلها وعجوا ضجيجاً وعجيجاً ما سمعت مثله ، فجعلت أسكنهم وأحلف اني لم اومر فيه بمكروه ، وفتشت منزله ، فلم أصب فيه إلاّ مصاحف ودعاء وما أشبه ذلك ، فاشخصته وتوليت خدمته ، وأحسنت عشرته .

فبينما انا في يوم من الأيام والسماء صاحية والشمس طالعة ، إذ ركب وعليه ممطر عقد ذنب دابته فتعجبت من فعله ، فلم يكن من ذلك إلاّ هنيئة حتى جاءت سحابة فارخت عزاليها ، ونالنا من المطر امر عظيم جداً فالتفت إليَّ فقال ، انا أعلم انك انكرت ما رأيت ، وتوهمت اني اعلم من الأمر ما لم تعلم ، وليس ذلك كما ظننت ولكني نشأت بالبادية ، فانا اعرف الرياح التي تكون في عقبها المطر فتاهبت لذلك .

فلما قدمت إلى مدينة السلام بدأت بإسحاق بن إبراهيم الطاهري وكان على بغداد ، فقال : يا يحيى إن هذا الرجل قد ولده رسول الله (ص) والمتوكل من تعلم ، وإن حرضته عليه قتله ، وكان رسول الله (ص) خصمك ، فقلت : والله ما وقفت منه إلاّ على امر جميل .

فصرت إلى سامراء فبدأت بوصيف التركي وكنت من أصحابه ، فقال لي : والله لئن سقط من رأس هذا الرجل شعرة لايكون الطالب بها غيري ، فتعجبت من قولهما ، وعرَّفتُ المتوكل ما وقفت عليه من أمره ، وسمعته من الثناء فاحسن جائزته ، واظهر بره وتكرمته [٩] .

وكان عصر الإمام (ع) قد تميز بالتحولات السياسية حيث تنامى بعودة الأتراك في بلاط العباسيين ، وكان كل قائد منهم يميل إلى واحد من المرشحين للخلافة ، فيتحين الفرص لدفعه إلى واجهة السلطة وتسميته باسم الخليفة ليلعب ما يشاء في امور البلاد باسمه . فبعدما مضى المعتصم ملك الواثق ابنه

---

(٧) المصدر : ( ص ٢١١ - ٢١٢ ) .

(٨) راجع المصدر : ( ص ١٩٦ ) الحديث الثامن .

(٩) المصدر : ( ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ) .

واستوزر ابن الزيات ، وغضب على جعفر بن المعتصم لخيه ، وما لبث ان مات واستخلف المتوكل وقتل ابن الزيات ، وشهد عصره قدراً من الإستقرار ، وقبل ان يموت الواثق سئل عن الخليفة بعده فقال ، لا يراني الله اتقلدها حياً وميتاً ، " ويبدو من هذه الكلمة ، انه كان يعرف ماذا تعني الخلافة في عصره او ليست تعني القمع والدجل والمؤامرات والإنغماس في الشهوات ، ثم اليس انه نفسه قد سجن اخاه المتوكل بعد ان ولاّه إمارة الحج لمّا عرف ان يذافسهم الأمر ولم يقبل فيه شفاعة احد ؟ " .

وبعد الواثق وُلّي المتوكل الذي شهد عصره قدراً من الإستقرار ولكنه كان استقراراً قائماً على العنف والتضليل .

وابرز مظاهر عنفه سياسته الإرهابية تجاه البيت العلوي وأمره بهدم قبر سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين (ع) حيث أمر سنة ٢٣٦ بهدم قبر الإمام وما حوله من الدور ، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضعه ، وأن يمنع الناس من إتيانه ، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عنده بعد ثلاثة ايام بعثنا به إلى المطبق ( السجن ) ، فهرب الناس واشنعوا من المصيد إليه ، وقد اثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين وخاصة أهل بغداد الذين ردوا على الإهانات التي الحقها بالعلويين بسببه في المساجد والطرقات [١٠] .

ووقعت في عهده مجاعة رهيبة في العراق وهلك كثير من الناس ، وقد طمع الروم في بلاد الإسلام بسبب ضعف الدولة العباسية فاستانفوا غاراتهم على اراضي قاليقلا جنوبي آسيا الصغرى وهزموا اهلها هزيمة منكرة [١١] .

وتظهر من القصة التالية صورة عن طبيعة حكم المتوكل ، وما بلغ من إرهابه ضد العلويين ومن ثورة هؤلاء ضده .

قال البختري ، كنت بمنبج بحضرة المتوكل ، إذ دخل عليه رجل من اولاد محمد بن الحنيفة حلو العينين ، حسن الثياب ، قد قرف عنده بشيء فوقف بين يديه والمتوكل مقبل على الفتح يحدثه .

فلما طال وقوف الفتى بين يديه وهو لا ينظر إليه قال له ،

" يا أمير المؤمنين إن كنت احضرتني لتاديبي فقد اسات الادب ، وإن كنت احضرتني ليعرف من بحضرتك من اوباش الناس استهانتك باهلي فقد عرفوا " .

فقال له المتوكل ، والله يا حنفي لولا ما يثنيني عليك من أوصال الرحم ويعطفني عليك من مواقع الحلم لانتزعت لسانك ، ولفرقت بين راسك وجسدك ، ولو كان بمكانك محمد ابوك ، قال ، ثم التفت إلى الفتح فقال ، أما ترى ما نلقاه من آل ابي طالب ؟ إما حسني يجذب إلى نفسه تاج عز نقله الله إلينا قبله ، او حسيني يسعى في نقض ما انزل الله إلينا قبله ، او حنفي يدل بجهله اسيافنا على سفك دمه .

---

(١٠) تاريخ الإسلام السياسي / حسن إبراهيم حسن : ( ج ٣ ، ص ٥ ) .

(١١) المصدر .

فقال له الفتى : " وأي حلم تركته لك الخمور وإدمانها ؟ أم العيدان وفتيانها ومتى عطفك الرحم على أهلي وقد ابتززتهم فدكاً إرثهم من رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فورثها ابو حرملة : وأمّا ذكرك محمداً أبي فقد طفقت تضع عن عز رفعه الله ورسوله ، وتطاول شرفاً تقصر عنه ولا تطوله ، فانت كما قال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ثم ها أنت تشكو لي علجك هذا ما تلقاه من الحسني والحسيني والحنفي فلبئس المولى ولبئس العشير .

ثم مد رجليه ثم قال : هاتان رجلاي لقيدك ، وهذه عنقي لسيفك ، فبؤ بإثمي وتحمّل ظلمي فليس هذا أول مكروه اوقعته انت وسلفك بهم ، يقول الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (الشورى/٢٣) [١٢] فوالله ما اجبت رسول الله (ص) عن مسالته ولقد عطفت بالمودة على غير قرابته فعما قليل ترد الحوض ، فيذودك ابي ويمنعك جدي صلوات الله عليهما .

قال : فبكى المتوكل ثم قام فدخل إلى قصر جواريه ، فلما كان من الغد احضره واحسن جائزته وخلى سبيله .

وكانت قبضة المتوكل الحديدية وإرهابه الشديد سبباً لسخط الناس عليه ، والذي تنامى حتى بلغ الجيش الذي ثار عليه بقيادة بغا الصغير وباغر ، وقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وخلفه ابنه المنتصر في شوال عام ٢٤٧ الذي اخذ يخالف اباه في كل شيء ، وبالذات فيما يتعلق بالبيت العلوي وحتى أنشد يزيد المعلبي يقول :

ولقد بررت الطالبية بعدما ... ذموا زماناً بعدها وزمانا
ورددت الفة هاشم فرأيتهم ... بعد العداوة بينهم إخوانا [١٣]

ولم يدم عهد المنتصر الذي وصفه بعض المؤرخين بالحسن ، وقالوا : كان عظيم الحلم ، راجح العقل ، غزير المعروف راغباً في الخير جواداً كثير الإنصاف حسن العشرة [١٤] .

فقد مات بعد ستة اشهر وذلك سنة ( ٢٤٨ ) وبايع الناس احمد بن محمد المعتصم ( ٢٤٨ / ٢٥٢ ) واعطوه لقب المستعين بالله ، ويبدو ان المستعين أراد أن يحدّ من نفوذ الأتراك الذين تحولت قوتهم العسكرية إلى قوة سياسية متنامية في البلاد ، فواجه تحدياً من قبل بعضهم وبالذات من بغا وباغر الذين تمردا عليه وبايعا المعتز بن المتوكل وقامت حرب ضارية بين انصار الخليفتين حيث استقر الأول

---

(١٢) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ ) .

(١٣) تاريخ الإسلام السياسي : ( ج ٣ ، ص ٧ ) .

(١٤) المصدر عن ابن الأثير : ( ج ٧ ، ص ٢٩ ) .

ببغداد والثاني بسامراء ، وأثرت الحرب على الحالة الإقتصادية للبلاد وبعد أن تم الأمر للمعتز تم إبعاد المستعين إلى واسط ولكنه قتل بالتالي على يد عصابة سيرها بقيادة سعيد الخادم [15] .

ولكن المعتز بقي يخشى جانب الأتراك الذين قتلوا اباه وخلعوا ابن عمه ، وهكذا لم تصفو له الخلافة بل قتل بصورة شنيعة يصفها المؤرخون بما يلي .. قد حل إليه جماعة من الاتراك فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحر وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ثم اشهدوا على خلعه بعض علماء البلاط وادخلوه سرداباً وجصوا جصوا عليه وسدوا عليه الباب حتى مات [16] .

وبعده استخلفوا المهتدي بن واثق عام ٢٥٥ واضطربت البلاد في عهده فمن ثورة ببغداد إلى تمرد في الجيش ، إلى انتفاضات للعلويين هنا وهناك .

وهكذا أصبحت الخلافة العباسية شعاراً لكل الطامعين في السلطة ، وأصبحت المؤامرة والدجل سمة بارزة للسياسة .. وكل ذلك كان نهاية طبيعية للإرهاب والدجل الذي مارسه الرواد الأوائل لهؤلاء الخلفاء .. حيث أن المعتصم مثلاً حينما استقدم الأتراك وجعل منهم قوة عسكرية ضاربة ، وارهب بهم الناس وأخمد الإنتفاضات والثورات ، كان من الطبيعي أن تتحول هذه القوة ضد أسرته وأن تستبد بالأمر دونهم . حتى حكى بعض المؤرخين أنه لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصهم واحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ، وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال ، انا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته فقالوا : فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما اراد الأتراك ، فلم يبق في المجلس إلاّ من ضحك [17] .

وهكذا كان الإنحراف يبدأ في الظاهر قليلاً وسرعان ما يجرف كل خير وصلاح ، وإنما كان الأئمة (ع) وأنصارهم يدافعون عن قيم الحق والعدل والحرية ، لكي لا تنتهي امور الدين وشؤون الملة إلى مثل هذه المآسي الفظيعة .

---

(١٥) المصدر : ( ص ٨ ) عن ابن الأثير : ( ج ٧ ص ٦٠ - ٦١ ) .

(١٦) المصدر : ( ص ١٠ ) .

(١٧) المصدر : ( ص ٩ ) .

## الفصل الثاني

# سيـرة الإمام الهـادي (ع)

في الثاني من رجب من عام ٢١٢ هـ ، استقبلت المدينة المنورة ميلاد أول أبناء الإمام الجواد (ع) ، و عمَّ البيت الهاشمي فرح عظيم ، فسمّاه والده علياً باسم جده الرضا وجده الأكبر أمير المؤمنين ، وكنّاه بأبي الحسن ومشت ألقابه الكريمة تعبر عن محياه الكريم وسيرته الزكيّة ، فكان النجيب والمرتضى والهادي والنقي والعالم والفقيه والأمين والمؤتمن والطيب والمتوكل .

وعندما انتقل إلى مدينة سامراء وسكن محلة كانت تسمى عسكر سمي أيضاً العسكري أو الفقيه العسكري .

وقيل بل كان اسم سامراء العسكر لأنها كانت حاشية الجيش ولذلك سمي الإمام بـ (العسكري) .

أما أمّه فكانت سماته الغربيبة ، وترعرع الوليد في ظل أبيه يربيه بعلم الإمامة ، ويرفع له من معارف الدين كل يوم علماً ويامره بالاقتداء به ، وفي الثامن والعشرين من محرم عام ٢٢٠ هـ حيث استقدم المعتصم والده الإمام الجواد (ع) إلى العراق ، أجلسه في حجره وقال له : ما الذي تحب أن أهدي إليك من طرائق العراق ؟ فقال سيفاً كأنه شعلة نار [18] .

ولكنه لم ير ذلك االسيف ولم يعد يرى والده الكريم لأنه لم يعد من تلك الرحلة أبداً . فلعله كان في يوم ٢٩ / ذي القعدة من عام ٢٢٠ حيث رأت عائلة الإمام أنه قد رعب ، وكان عمره يومئذ ثمانية أعوام فسألوه ما به فقال : مات أبي والله الساعة ، فقالوا له : لا تقل هذا قال : هو والله كما أقول فكتبوا ذلك اليوم فكان كما قال [19] .

وكان قد سبقت وصية أبيه إلى زعماء الطائفة فاجتمعوا وسلموا إليه الأمر .. كما سبق الحديث عن ذلك بتفصيل .

وبقي في مدينة جده بقية خلافة المعتصم وأيام خلافة الواثق ، حيث اشتهرت مكارمه في الآفاق ، فلما ملك المتوكل ، خشي منه القيام ضده فاستقدمه ، ليكون قريباً منه يراقبه ويسهل الضغط عليه .

ويبدو أنه لم يستقدمه إلّا بعد أن توالت عليه الرسائل من الحجاز تخبره بان الناس في الحرمين يميلون

---

(١٨) المصدر : ( ص ١٢٣ )

(١٩) المصدر : ( ص ١٧٦ ) .

إليه ، وكانت زوجة المتوكل التي يبدو انه ارسلها لاستخبار الأمر ممن بعثوا الرسائل .

ويبدو من طريقة استقدام الإمام ان المتوكل كان شديد الحذر في الأمر ، حيث بعث بسرية كاملة من سامراء إلى المدينة لتحقيق هذا الأمر .. كما سبق . وقد كتب المتوكل إلى الإمام رسالة رقيقة جاء فيها :

فقد رأى أمير المؤمنين صرف عبد الله بن محمد عما كان يتولى من الحرب والصلاة بمدينة الرسول إن كان على ما ذكرت من جهالته بحقك ، واستخفافه بقدرك ، وعندما قرنك به ونسبك إليه من الأمر الذي قد علم أمير المؤمنين براءتك منه وصدق نيتك وبرك وقولك وانك لم تؤهل نفسك لما قرفت بطلبه [20] .

وكان هذا الرجل قد كتب رسالة إلى المتوكل يتهم الإمام فيها بانه ينوي القيام ضده ، وكتب الإمام رسالة إلى المتوكل ينفي تلك التهمة ، ثم أضاف :

وقد ولى امير المؤمنين ما كان يلي من ذلك محمد بن الفضل وامره بإكرامك وبتجليك والانتهاء إلى امرك ورأيك والتقرب إلى الله وإلى أمير المؤمنين بذلك .

وامير المؤمنين مشتاق إليك يحب إحداث العهد بك والنظر إلى وجهك [21] .

وعندما نزل الإمام مدينة سامراء أراد المتوكل النيل من شخصيته عند الناس فامر أن يسكن دار الصعاليك لمدة أيام ثلاث ، قبل أن يدخل عليه وهو لا يعلم ان قدر الإمام عند الله ، أو عند عباد الله الصالحين ليس بما يسكنه من دار أو يحوزه من ثروة ، وإنما بزهده في درجات الدنيا ورغبته فيما عند الله ، فلا يزداد بتواضعه وصبره على الأذى في جنب الله إلاّ زلفى من الله .

وهكذا دخل عليه بعض شيعته ( صالح بن سعد ) في ذلك المكان المتواضع وقال له : جعلت فداك في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتشهير بك حتى انزلوك هذا الخان الأشنع خان الصعاليك ، ولكن الإمام أراه بعض مكرماته ثم قال له : " حيث كنا فهذا لنا عتيد ولسنا في خان الصعاليك " [22] .

وقد فتش الموالون لأهل البيت عن موضع ذلك الخان فاشتروا مكاناً معيناً قريباً من مرقد الإمام الهادي (ع) وحولوه إلى مركز ديني بامل أن يكون هو موضع ذلك الخان الذي تشرف بمقام الإمام فيه برهة من الوقت .

ويبدو أن الإمام كان يقود في تلك الفترة من مقامه في سامراء الخط الرسالي وبطرقه الخاصة ، وقد استطاب السكن فيها حتى قال (ع) :

" اخرجت إلى سر من رأى كرهاً ولو اخرجت عنها ، اخرجت كرهاً ، قال الراوي : ولم يا سيدي ؟ قال : لطيب هوائها وعذوبة مائها وقلة دائها " [23] .

---

(٢٠) المصدر : ( ص ٣٠١ ) .

(٢١) المصدر .

(٢٢) المصدر : ( ص ١٣٣) .

(٢٣) المصدر : ( ص ١٣٠ ) .

والمتوكل العباسي المعروف بشدّة بطشه وبغضه لأهل البيت ، وإرهابه ضد الشيعة ، أراد أن يبقى أعظم وأقوى معارضيه قريباً منه حتى يسهل عليه القضاء عليه أنى شاء . إلاّ أن الإمام قد كاد بإذن الله كيداً ، حيث أخذ ينفذ إلى عمق سلطته ، ويمد نفوذه إلى أقرب أنصاره ، وهكذا فعل .

في هذا الوقت كانت أم المتوكل تنذر للإمام ، ولعل القصص التالية تعكس جانباً من تأثير الإمام في بلاطه .

( مرض المتوكل من خراج خرج به ، فأشرف منه على التلف ، فلم يجسر أحد أن يمسه بحديدة ، فنذرت أمه إن عوفي أن يحمل إلى أبي الحسن علي بن محمد (ع) مالاً جليلاً من مالها ) .

وقال له الفتح بن خاقان : لو بعثت إلى هذا الرجل يعني أبا الحسن فسألته فإنه ربما كان عنده صفة شيء يفرج الله به عنك ، قال : ابعثوا إليه فمضى الرسول ورجع ، فقال : خذوا كسب الغنم فديفوه بماء ورد ، وضعوه على الخراج فإنه نافع بإذن الله .

فجعل من بحضرة المتوكل يهزأ من قوله ، فقال لهم الفتح : وما يضر من تجربة ما قال فوالله إني لأرجو الصلاح به ، فأحضر الكسب ، وديف بماء الورد ووضع على الخراج ، ، فانفتح وخرج ما كان فيه ، وبشرت أم المتوكل بعافيته فحملت إلى أبي الحسن (ع) عشرة آلاف دينار تحت ختمها فاستقل المتوكل في علته [24] .

٢ — روي عن الصقر بن أبي دلف الكرخي ، قال : لما حمل المتوكل سيدنا أبا الحسن العسكري (ع) جئت أسأل عن خبره ، قال : فنظر إلى الزرافي وكان حاجباً للمتوكل ، فأمر أن أدخل إليه فأدخلت إليه ، فقال : يا صقر ما شأنك ؟ فقلت : خير أيها الأستاذ ، فقال : اقعد فأخذني ما تقدم وما تأخر ، وقلت : أخطأت في المجيء .

قال : فوحى الناس عنه ثم قال لي : ما شأنك وفيم جئت ؟ قلت : لخبر ما فقال : لعلك تسأل عن خبر مولاك ؟ فقلت له : ومن مولاي ؟ مولاي أمير المؤمنين ، فقال : أسكت ! مولاك هو الحق ، فلا تحتشمني فإني على مذهبك ، فقلت : الحمد لله .

قال : أتحب أن تراه ؟ قلت : نعم ، قال : اجلس حتى يخرج صاحب البريد من عنده .

قال : فجلست فلما خرج قال الغلام له : خذ بيد الصقر وأدخله إلى الحجرة التي فيها العلوي المحبوس ، وخل بينه وبينه ، قال : فأدخلني إلى الحجرة وأومأ إلى بيت فدخلت فإذا هو جالس على صدر حصير وبحذاه قبر محفور ، قال : فسلمت عليه فرد عليّ ثم أمرني بالجلوس ثم قال لي : يا صقر ما أتى بك ؟ قلت : سيدي جئت أتعرف خبرك ؟ قال : ثم نظرت إلى القبر فبكيت فنظر إليّ فقال : يا صقر لا عليك لن يصلوا إلينا بسوء الآن ، فقلت : الحمد لله [25] .

---

(٢٤) المصدر : ( ص ١٦٨ ) .

(٢٥) المصدر : ( ص ١٩٤ ) .

٣ – قال أبو عبد الله الزيادي :

لما سمَّ المتوكل ، نذر لله إنّ رزقه الله العافية أن يتصدق بمال كثير ، فلما عوفي اختلف الفقهاء في المال الكثير فقال له الحسن حاجبه : إن أتيتك يا أمير المؤمنين بالصواب فما لي عندك ؟

قال : عشرة آلاف درهم وإلاّ ضربتك مائة مقرعة قال : قد رضيت فأتى أبا الحسن (ع) فسأله عن ذلك فقال : قل له : يتصدق بثمانين درهماً فأخبر المتوكل فسأله ، ما العلة ؟ فأتاه فسأله قال : إن الله تعالى قال لنبيه (ص) : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ (التوبة/٢٥) فعددنا مواطن رسول الله (ص) فبلغت ثمانين موطناً ، فرجع إليه فأخبره ففرح وأعطاه عشرة آلاف درهم [٢٦] .

٤ – وهكذا كان الإمام (ع) يحل المعضلات فيزداد الناس إيماناً به ، ومعرفة بمقامه وبمدى جهالة خصمه المتوكل ، فكثيراً ما كان المتوكل يوعز إلى بعض أصحابه بأن يسألوا الإمام أسئلة صعبة لعله يتوقف فيها ، فمثلاً قال المتوكل لابن السكيت : سل ابن الرضا مسألة عوصاء بحضرتي فسأله فقال : لم بعث الله موسى بالعصا وبعث عيسى (ع) بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وبعث محمداً بالقرآن والسيف ؟

فقال أبو الحسن (ع) :

بعث الله موسى (ع) بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر ، فأتاهم من ذلك ما قهر سحرهم وبهرهم ، وأثبت الحجة عليهم ، وبعث عيسى (ع) بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في زمان الغالب على أهله الطب فأتاهم من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله فقهرهم وبهرهم، وبعث محمداً بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر فأتاهم من القرآن الزاهر والسيف القاهر ما بهر به شعرهم وبهر سيفهم وأثبت الحجة به عليهم .

فقال ابن السكيت : فما الحجة الآن ؟ قال :

" العقل يعرف به الكاذب على الله فيكذب " .

وقد كان ابن السكيت هذا عالماً كبيراً في النحو والشعر واللغة وقالوا عن كتابه المنطق أنه أفضل كتاب في اللغة كتبه علماء بغداد ، وكان المتوكل قد عهد إليه بتربية ابنيه المعتز والمؤيد ، فسأله يوماً أيهما أحب إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين فقال ابن السكيت والله إن قنبراً خادم علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنيك ، فقال المتوكل للأتراك سلوا لسانه من قفاه ففعلوا فمات ( رضوان الله عليه ) .

٤ – وفي بعض أيام الربيع حيث كان الجو صحواً وحاراً خرج الناس في مناسبة رسمية صائفين ، وخرج الإمام الهادي (ع) في ثياب شتوية فلما توسطوا الصحراء خرجت عليهم سحابة ممطرة وفاضت عليهم الوديان ولم يسلم من أذى المطر والطين إلاّ الإمام فاهتدى إليه وإلى علمه الكثير من الناس .

---

(٢٦) المصدر . ( ص ١٦٢ ١٦٣ )

وهكذا تكيف الإمام (ع) مع الواقع المر لعهد المتوكل حتى استفاد منه إيجابياً لمصلحة الدعوة الإلهية ، وذلك بحكمته الرشيدة وباستقامته وصبره في الله .

ولكن المتوكل عقد العزم على الإيقاع به في ايامه الأخيرة فلم يأذن له الله بذلك بل أطيح به في إنقلاب دموي .

فقد جاء في الجزامة ، لمّا حبس المتوكل ابا الحسن (ع) ، ودفعه إلى علي بن كركر قال أبو الحسن ، أنا أكرم على الله من ناقة صالح ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود/٦٥) ، فلما كان من الغد أطلقه واعتقد إليه ، فلما كان في اليوم الثالث وثب عليه ياغز وتاشي ومعطوف فقتلوه واعقدوا المنتصر ولده خليفة [٢٧] .

ولعل المتوكل اعتقل الإمام أكثر من مرة ولكن الله انقذه من شرّه ، ولعله كان يخشى كل مرة من ثورة جماهيرية عارمة ضده بالإضافة إلى أنّه لم يجد مبرراً للقضاء على الإمام مع انه كان يعرف أن في أصحابه من يتشيع له .

فمثلاً عندما سعى البطحاني إلى المتوكل وكان من اولاد أبي طالب ولكنه يتشيع للبيت العباسي ، وقال له أنّ عنده سلاح وأموال ، فتقدم المتوكل إلى سعيد الحاجب وامره ان يهجم ليلاً عليه ويأخذ ما يجد عنده من الأموال والسلاح ويحمل إليه .

فقال إبراهيم بن محمد ، قال لي سعيد الحاجب ، صرت إلى دار أبي الحسن (ع) بالليل ، ومعي سلم، فصعدت منه إلى السطح ، ونزلت من الدرجة إلى بعضها في الظلمة ، فلم ادر كيف أصل إلى الدار فناداني ابو الحسن (ع) من الدار ، " يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة " .

فلم ألبث أن أتوني بشمعة ، فنزلت ووجدت عليه جبة من صوف وقلنسوة منها وسجادته على حصير بين يديه وهو مقبل على القبلة فقال لي ، " دونك بالبيوت " .

فدخلتها وفتشتها فلم أجد فيها شيئاً ، ووجدت البدرة مختومة بخاتم أم المتوكل وكيساً مختوماً معها ، فقال ابو الحسن (ع) ، دونك المصلى فرفعت فوجدت سيفاً في جفن غير ملبوس ، فأخذت ذلك وصرت إليه .

فلما نظر إلى خاتم امه على البدرة بعث إليها ، فخرجت إليه ، فسالها عن البدرة ، فأخبرني بعض خدم الخاصة أنها قالت له ، كنت نذرت في علتك إن عوفيت أن أحمل إليه من مالي عشرة آلاف دينار فحملتها إليه ، وهذا خاتمك على الكيس ما حركها .

وفتح الكيس الآخر وكان فيه اربع مائة دينار ، فأمر ان يضم إلى البدرة بدرة أخرى وقال لي ، إحمل ذلك إلى أبي الحسن واردد عليه السيف والكيس بما فيه ، فحملت ذلك إليه واستحييت منه ، وقلت ، يا

---

(٢٧) المصدر : ( ص ٢٠٤ )

سيدي عزَّ علي دخول دارك بغير إذنك ، ولكني مامور به ، فقال لي : ﴿ سيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون ﴾ [28] .

والواقع ان الشيعة كانوا يحملون إلى الإمام الأموال ولكنهم كانوا قد اتقنوا اساليب الكتمان ، وكانت لديهم عناصرهم في البلاط العباسي مما يجعلهم عارفين بمواقع الخطر وكيفية اجتنابها ، والحديث التالي يكشف لنا جانباً من ذلك .

فعن المنصوري ، عن عم أبيه قال : دخلت يوماً على المتوكل وهو يشرب فدعاني إلى الشرب فقلت : يا سيدي ما شربته قط ، قال : انت تشرب مع علي بن محمد ، قال : فقلت له : ليس تعرف من في يدك إنما يضرك ولا يضره ولم اعد ذلك عليه .

قال : فلما كان يوماً من الايام قال لي الفتح بن خاقان : قد ذكر الرجل يعني المتوكل خبر مال يجيء من قم ، وقد امرني ان ارصده لاخبره له فقل لي من اي طريق يجيء حتى اجتنبه ، فجئت إلى الإمام علي بن محمد فصادفت عنده من احتشمه فتبسم وقال لي : لا يكون إلاّ خيراً يا ابا موسى لِمْ لمْ تعد الرسالة الأولى ؟ فقلت : اجللتك يا سيدي ، فقال لي : المال يجيء الليلة وليس يصلون إليه فبت عندي [29] .

## الإمام بعد عهد المتوكل :

بعد أن قتل المتوكل بدعاء الإمام الهادي وبسبب مؤامرات قواته التركية ، انقشعت عن آل ابي طالب والموالين لأهل بيت الرسول سحابة الإرهاب إذ كان المنتصر بن المتوكل يخالف اباه في كل شيء ويظهر الحب والإحترام لآل الرسول وشيعتهم ، حتى انه عزل والي المدينة الذي نصبه ابوه واسمه صالح بن علي ونصّب مكانه علي بن الحسين ، فدخل عليه يردعه فقال : يا علي إني اوجهك إلى لحمي ودمي ، ومد جلد ساعده وقال : إلى هذا وجهتك فانظر : كيف تكون للقوم ، وكيف تعاملهم -- يعني آل ابي طالب [30] .

أما الخلفاء العباسيون الذين تعاقبوا بعد المتوكل وابنه المنتصر لم يكونوا في قوة المتوكل ولا في لين المنتصر ، ولم نجد في التاريخ حوادث مهمة تتصل بحياة الإمام الهادي (ع) ، الذي يبدو انه تفرغ لتربية وقيادة الربانيين من العلماء وإدارة الشؤون العامة لمواليه وشيعته ، كذلك في ملاحقة بعض الغلاة والمشعوذين الذي ارادوا التسلل إلى صفوف الخط الرسالي مثل الذي اغتاله بعض الموالين وربما بعد صدور الفتوى الشرعية بإعدامه !!

والكتاب التالي نموذج لمنهجية إدارة الإمام (ع) للشيعة ، قال : ( نسخة الكتاب مع ابن راشد إلى جماعة الموالي الذين هم ببغداد المقيمين بها والمدائن والسواد وما يليها :

" احمد الله إليكم ما انا عليه من عافية وحسن عائدته ، واصلي على نبيه وآله افضل صلواته واكمل رحمته

---

(28) المصدر : ( ص 199 -- 200 ) .

(29) المصدر : ( ص 124 - 125 ) .

(30) المصدر : ( ص 210 ) .

ورأفته ، وإني أقمت أبا علي بن راشد مقام الحسين بن عبد ربه ومن كان قبله من وكلائي وصار في منزلته عندي ، ووليته ما كان يتولاه غيره من وكلائي قبلكم ، ليقبض حقي وارتضيته لكم ، وقدمته في ذلك وهو أهله وموضعه .

فصيروا رحمكم الله إلى الدفع إليه ذلك وإليّ ، وأن لا تجعلوا له على أنفسكم علة ، فعليكم بالخروج عن ذلك ، والتسرع إلى طاعة الله وتحليل أموالكم والحقن لدمائكم ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ﴾ فقد أوجبت في طاعته طاعتي ، والخروج إلى عصيانه الخروج إلى عصياني ، فالزموا الطريق يأجركم الله ويزيدكم من فضله ، فان الله بما عنده واسع كريم ، متطول على عباده رحيم ، نحن وأنتم في وديعة الله وحفظته وكتبته بخطي والحمد لله كثيراً " .

وفي كتاب آخر : " وأنا آمرك يا أيوب بن نوح أن تقطع الإكثار بينك وبين أبي علي وأن يلزم كل واحد منكما ما وكل به وأمر القيام فيه بأمر ناحيته ، فإنكم إن انتهيتم إلى كل ما أمرتم به استغنيتم بذلك عن معاودتي وآمرك يا أبا علي بمثل ما آمرك به أيوب أن لا تقبل من أحد من أهل بغداد والمدائن شيئاً يحملونه ولا تلي لهم استئذاناً عليّ ، ومر من أتاك بشيء من غير أهل ناحيتك أن يصيره إلى الموكل بناحيته ، وآمرك يا أبا علي بمثل ما أمرت به أيوب وليقبل كل واحد منكما ما أمرته به " [31] .

وبالتالي وبعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الإمامة ، وقيادة طليعة الأمة أحضر الإمام الهادي (ع) نجله الإمام الحسن العسكري وأوصى إليه وأشهد خيرة الطائفة بذلك واستعد للرحيل .

وفي الثالث من رجب وفي ملك المعتمد بالله فارقت روحه النقية الدنيا ونقل عن العالم الكبير ابن بابويه أن المعتمد قد دس إليه السم فمضى شهيداً :

وقال المسعودي ، ولما توفي اجتمع في داره جملة بني هاشم من الطالبيين والعباسيين ، واجتمع خلق كثير من الشيعة ، ثم فتح من صدر الدار باب وخرج خادم أسود ، ثم خرج بعده أبو محمد الحسن العسكري حاسراً مكشوف الرأس ، مشقوق الثياب ، وكان وجهه وجه أبيه لا يخطى منه شيئاً ، وأضاف ، وكانت الدار كالسوق بالأحاديث ، فلما خرج وجلس أمسك الناس وكنا لا نسمع إلّا العطسة والسعلة وقال ، وصاحت سر من رأى يوم موته صيحة واحدة [32] .

ويظهر من المسعودي أن وفاة الإمام كانت في عهد المعتمد الذي استهل بعام ٢٥٦ هـ ، وحيث كان أخوه الموفق الغالب على السلطة وهو الذي حضر جنازة الإمام ، ويقول المسعودي في ذلك : ووثب إليه ( الإمام الحسن العسكري ) أبو أحمد الموفق فعانقه ثم قال له : " مرحباً يابن العم " [33] .

---

(٣١) المصدر : ( ص ٢٢٣ ) .

(٣٢) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ج ٤ ، ص ١٨٣ ) .

(٣٣) المصدر .

وهكذا يظهر من الشيخ ابن بابويه الذي يرى أن المعتمد قد سم الإمام ، وعلى هذا فلا بدَّ أن تكون وفاته بعد عام ٢٥٦ وليس كما قالوا عام ( ٢٥٤ ) ، ويظهر ذلك أيضاً من كشف الغمة إذ قال ، وفي آخر ملك المعتمد استشهد مسموماً [٣٤] .

ولعل هناك اشتباهاً عند النسّاخ بين المهتدي والمعتمد ، إذ أن آخر ملك المعتمد يصادف عام ٢٧٩ ، ولعل الذي استشهد في أيام المعتمد هو الإمام الحسن العسكري الذي استشهد عام ٢٦٠ والله العالم .

---

(٣٤) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ١١٤ ) .

### الفصل الثالث

# كراماتــه ومكرماتــه

كما اختار ربنا من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، اختار لهذه الأمة اثني عشر إماماً هادياً إليه بإذنه ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .. أوليس الله اعلم حيث يجعل رسالته ؟ بلى . لذلك كان الإمام افضل خلق الله في علم الله ، ولذلك اصطفاه الله لهذا المنصب الإلهي العظيم !!

وهكذا كان الإمام عبداً لله قد وقر قلبه الإيمان بالله ومعرفته ، احب الله ، والتسليم له فاحبه الله ، ورفعه مقاماً علياً ، وكان عند ربه مرضياً .

وما الكرامات التي ظهرت على يديه إلاّ آية بينة لمدى حب الله له ، وبالتالي لمدى حبه لله ، وتسليمه له ورضاه بما قدر له وقضى .

لقد كان للإمام الهادي (ع) ذكراً يبدو انه كان يكرره ، وقد علّمهُ لشيعته وقال : دعوت الله ان يستجيب لمن دعا به في مشهدي بعد وفاتي وهذا الذكر هو :

" يا عدتي عند العدد ويا رجائي والمعتمد ويا كهفي والسند ، ويا واحد يا احد ، يا قل هو الله احد ، وأسالك اللهم بحق من خلقته من خلقك ، ولم تجعل في خلقك مثلهم احداً أن تصلي عليهم وتفعل بي (كيت وكيت) [٣٥] .

هذا الذكر هو عنوان صفات الإمام ، ومفتاح معرفته فهو عبد أخلص العبودية لله ، فكان مثلاً لما جاء في الحديث القدسي :

" عبدي اطعني تكن مثلي — او مثلي — اقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

إنه عبد أطاع الله فطوع الله له الأشياء ، إنه خاف ربه فاخاف الله منه كل شيء .

ولابد أن نجعل كرامات أهل البيت (ع) في هذا الإطار ، وهو الإطار المناسب الذي وضعوا فيه انفسهم وعلمهم وكرامتهم على الله ، فمثلاً عندما أظهر الله على يد الإمام الهادي (ع) بعض آياته ولم يتحمله بعض مواليه ، فدخله وسواس الشيطان فبادره الإمام (ع) برفع اللّبس عنه وقال له :

" واما الذي اخلج في صدرك فإن شاء العالم انبئك ان الله لم يظهر على غيبه احداً إلاّ من ارتضى من رسول ، فكل ما كان عند الرسول كان عند العالم وكل ما اطلع عليه الرسول فقد اطلع اوصياءه عليه ،

---

(٣٥) المصدر : ( ص ١٢٧ )

كيلا تخلو ارضه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته ، وجواز عدالته .

يا فتح عسى الشيطان اراد اللّبس عليك ، فاوهمك في بعض ما اودعتك ، وشكّك في بعض ما انبأتك ، حتى اراد إزالتك عن طريق الله ، وصراطه المستقيم ؟ فقلت : " متى أيقنت أنهم كذا فهم ارباب ، معاذ الله إنهم مخلوقون مربوبون ، مطيعون لله داخرون راغبون ، فإذا جاءك الشيطان من قبل ما جاءك فاقمعه بما انبأتك به .

فقلت له : جعلت فداك ؛ فرّجت عني ، وكشفت ما لبس الملعون عليّ بشرحك فقد كان اوقع في خلدي انكم ارباب ، قال : فسجد ابو الحسن (ع) وهو يقول في سجوده : راغماً لك يا خالقي داخراً خاضعاً ، قال : فلم يزل كذلك حتى ذهب ليلي "[٣٦] .

وهكذا كانت الكرامات التي نتلوها عليك بفضل هذه الصلة الوثيقة بين الإمام وبين ربه سبحانه ، وكذلك كان الذين اتبعوه مخلصين العبودية لله ، من العلماء الربانيين والمجاهدين الصابرين فإن الله لا يضيع اجر من عمل صالحاً منهم ، وإن الله ينصرهم في الدنيا كما في الآخرة وقد قال سبحانه :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج/٤٠)

وقال :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق/٣)

وهكذا نجد كيف يدعو الإمام للمؤمنين وكيف يتسجيب الله له دعاءه في حقهم .

لقد كان يونس النقاش واحداً من الموالين الذين حظي بخدمة الإسلام ، فجاء يوماً يرعد فقال : يا سيدي اوصيك باهلي خيراً ، قال : وما الخبر ؟ قال : عزمت على الرحيل ، قال : ولم يا يونس ؟ وهو (ع) مبتسم ، قال : موسى بن بغا وجّه إليّ بفص ليس له قيمة اقبلت انقشه فكسرته باثنين وموعده غداً وهو موسى بن بغا امّا ألف سوط أو القتل ، قال : إمض إلى منزلك إلى غد فما يكون إلاّ خيراً .

فلما كان من الغد وافى بكرة يرعد فقال : قد جاء الرسول يلتمس الفصّ قال : إمض إليه فما ترى إلاّ خيراً ، قال : وما اقول له يا سيدي ؟ قال : فتبسّم وقال : إمض إليه واسمع ما يخبرك به ، فلن يكون إلاّ خيراً .

قال : فمضى وعاد يضحك قال : قال لي يا سيدي : الجواري اختصمن فيمكنك ان تجعله فصين حتى نغنيك ؟ فقال سيدنا الإمام (ع) : اللهم لك الحمد إذ جعلتنا ممن يحمدك حقاً ( اي شيء ) قلت له ؟ قال : قلت له : امهلني حتى اتامل امره كيف اعمله ؟ فقال : اصبت[٣٧] .

وكان محمد بن الفرج واحداً من المجاهدين الصابرين الذين كتب إليه الإمام يحذره من بلاء وشيك يقول :

---

(٣٦) المصدر : ( ص ١٧٩ ) .

(٣٧) المصدر : ( ص ١٢٦ ) .

إن أبا الحسن كتب إليَّ إجمع أمرك ، وخذ حذرك ، قال : فانا في جمع أمري لست ادري ما الذ ي أراد فيما كتب به إليَّ حتى ورد علي رسول حملني من مصر مقيداً مصفداً بالحديد ، وضرب على كل ما املك .

فمكثت في السجن ثماني سنين ثم ورد علي كتاب من ابي الحسن (ع) وانا في الحبس " ولا تنزل في ناحية الجانب الغربي " فقرات الكتاب فقلت في نفسي : يكتب إليَّ أبو الحسن ( عليه لاسلام ) بهذا وانا في الحبس إن هذا لعجيب ! فما مكثت إلاّ أياماً يسيرة حتى أفرج عني ، وحلّت قيودي ، وخلي سبيلي .

ولما رجع إلى العراق لم يقف ببغداد لما امره ابو الحسن (ع) وخرج إلى سر من راى [٣٨] .

وكان الإمام يهتم بتاديب شيعته مثلما يهتم بقضاء حوائجهم ، ومن ذلك قصة يرويها لنا ابو هاشم الجعفري ويقول : اصابتني ضيقة شديدة فصرت إلى ابي الحسن علي بن محمد (ع) فاذن لي فلما جلست قال : يا ابا هاشم أي نعم الله عزّ وجلّ عليك تريد ان تؤدي شكرها ؟ قال ابو هاشم : فوجمت فلم ادر ما اقول له .

فابتدا (ع) فقال : رزقك الإيمان فحرم بدنك على النار ، ورزقك العافية فاعانتك على الطاعة ، ورزقك القنوع فصانك عن التبذل ، يا ابا هاشم إنما ابتداتك بهذا لأني ظننت انك تريد ان تشكو لي من فعل بك هذا ، وقد امرت لك بمائة دينار فخذها [٣٩] .

ويبدو ان عمله (ع) كان مشروطاً بالتزامهم بفرائض الدين ، وهكذا يحكي لنا ابو محمد الطبري قصته مع خاتم حصل عليه بفضل الإمام ويقول :

تمنيت أن يكون لي خاتم من عنده (ع) فجاءني نصر الخادم بدرهمين ، فصنعت خاتما فدخلت على قوم يشربون الخمر فتعلقوا بي حتى شربت قدحاً أو قدحين ، فكان الخاتم ضيقاً في إصبعي لا يمكنني إدارته للوضوء ، فاصبحت وقد افتقدته ، فتبت إلى الله [٤٠] .

إن ولاء الإنسان لأهل بيت الرسول إذا كان خالصاً لوجه الله ، يكون وسيلة لهدايته وسعادته والقصة التالية تعكس مدى صدق هذه الحقيقة .

حدّث ان جماعة من اهل اصفهان منهم ابو العباس احمد بن النضير وأبو جعفر محمد بن علوية قالوا : كان باصفهان رجل يقال له : عبد الرحمان وكان شيعياً قيل له : ما السبب الذي اوجب عليك بإمامة علي النقي دون غيره من اهل الزمان ؟ قال : شاهدت ما اوجب عليَّ ، وذلك لأني كنت رجلاً فقيراً وكان لي لسان وجراة ، فاخرجني أهل اصفهان سنة من السنين مع قوم آخرين إلى باب المتوكل متظلمين .

فكنا بباب المتوكل يوماً إذ خرج الأمر بإحضار علي بن محمد بن الرضا (ع) ، فقلت لبعض من حضر :

---

(٣٨) المصدر : ( ص ١٤٠ ) .

(٣٩) المصدر : ( ص ١٢٩ ) .

(٤٠) المصدر : ( ص ١٥٥ ) .

من هذا الرجل الذي قد امر بإحضاره ؟ فقيل : هذا رجل علوي تقول الرافضة بإمامته ، ثم قال : ويقدر ان المتوكل يحضره للقتل فقلت : لا ابرح من ههنا حتى انظر إلى هذا الرجل أي رجل هو ؟

قال : فاقبل راكباً على فرس ، وقد قام الناس يمنة الطريق ويسرتها صفين ينظرون إليه ، فلما رايته وقع حبه في قلبي فجعلت ادعو في نفسي بان يدفع الله عنه شر المتوكل ، فاقبل يسير بين الناس وهو ينظر إلى عرف دابته لا ينظر يمنة ولا يسرة ، وانا دائم الدعاء ، فلما صار إليَّ اقبل بوجهه إليَّ وقال : استجاب الله دعاءك ، وطوّل عمرك ، وكثر مالك وولدك قال : فارتعدت ووقعت بين اصحابي فسالوني وهم يقولون : ما شانك ؟ فقلت : خير ولم اخبر بذلك .

فانصرفنا بعد ذلك إلى اصفهان ، ففتح الله عليَّ وجوهاً من المال ، حتى انا اليوم اغلق بابي على ما قيمته الف الف درهم ، سوى مالي خارج داري ، ورزقت عشرة من الأولاد ، وقد بلغت الآن من عمري نيفاً وسبعين سنة وانا اقول بإمامة الرجل على الذي علم ما في قلبي ، واستجاب الله دعاءه فيَّ ولي[41] .

هكذا استجاب ربنا سبحانه دعاء وليّه الكريم الإمام الهادي في حق واحد من سائر الناس احبه واشفق عليه من ظلم السلطان ، وبالرغم من انه لم يكن من مواليه وشيعته من قبل ، بينما نجد اخاه موسى بن محمد ينوي الإضرار بالدين فيدعو عليه ويستجيب الله دعاءه فيه ، الا يَدُلُّنا ذلك على انه (ع) كسائر الانبياء والأوصياء والصديقين يعملون لمرضاة ربهم والله يؤيدهم لأنهم ينصرون دينه ، وهكذا كل من نصر دين الله نصره الله سبحانه .

تعالوا نستمع قصة موسى هذا الذي عرف عنه بموسى المبرقع لكي نعرف ان اولياء الله المرضيين لا تاخذهم في دينه لومة لائم .

روي عن يعقوب بن ياسر قال : كان المتوكل يقول : وَيْحكم قد اعياني امر ابن الرضا وجهدت ان يشرب معي وينادمني فامتنع ، وجهدت ان آخذ فرصة في هذا المعنى ، فلم اجدها ، فقالوا له : فإن لم تجد من ابن الرضا ما تريده في هذه الحالة فهذا اخوه موسى قصاف عزاف ياكل ويشرب ويتعشق قال : ابعثوا إليه وجيئوا به حتى نموّه به على الناس ، ونقول : ابن الرضا .

فكتب إليه واشخص مكرماً وتلقاه جميع بني هاشم والقواد والناس على انه إذا وافى اقطعه قطيعة ، وبنى له فيها وحوّل الخمّارين والقيان إليه ، ووصله وبره وجعل له منزلاً سريّاً حتى يزوره هو فيه .

فلما وافى موسى تلقاه ابو الحسن في قنطرة وصيف ، وهو موضع يتلقى فيه القادمون فسلم عليه ووفاه حقه ثم قال له : إن هذا الرجل قد احضرك ليهتكك ويضع منك ، فلا تقر له انك شربت نبيذاً قط ، فقال له موسى : فإذا كان دعاني لهذا فما حيلتي ؟ قال : فلا تضع من قدرك ولا تفعل ، فإنما اراد هتكك فابى عليه ، فكرر عليه القول والوعظ وهو مقيم على خلافه ، فلما راى انه لا يجيب قال : اما إن هذا مجلس لا

---

(٤١) المصدر : ( ص ١٤١ - ١٤٢ ) .

تجتمع أنت وهو عليه أبداً .

فأقام موسى ثلاث سنين يبكر كل يوم فيقال : قد تشاغل اليوم فَرَح فَيرُوح فقال : قد سكر فبكر : فيبكر فيقال : قد شرب دواء فما زال على هذا ثلاث سنين حتى قتل المتوكل ولم يجتمع معه عليه [42] .

## علم الإمام :

لقد تحدثنا بإيجاز حول علم الإمام عندما تحدثنا عن حياة الإمام الباقر (ع) وقلنا ان علم الأئمة (ع) بالغيب ليس علماً ذاتياً بل بما أعطاهم الله سبحانه وبالقدر الذي شاءت حكمته ، وبطرق شتى أبرزها توارث العلم عن النبي وعبر آبائهم الطاهرين .

وقد جاء في الحديث عن الإمام الهادي (ع) تأكيد على ذلك حيث قال :

إن الله لم يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول الله ، لكل ما كان عند الرسول كان عند العالم وكل ما اطلع عليه الرسول فقد اطلّع أوصياؤه عليه كيلا تخلو أرضه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته [43] .

ومن أبعاد علمه (ع) إلهام الله له حسبما تقتضيه حكمته البالغة ، وقد قال ربنا سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر/٧٥)

وهكذا كان الإمام يعلم اللغات المختلفة بإلهام الله وقد استفاضت الروايات التي تهدينا إلى علم الأئمة بذلك .

كذلك روي عن علي بن مهزيار ، قال : أرسلت إلى أبي الحسن (ع) غلامي وكان مقلابياً ، فرجع الغلام إليّ متعجباً فقلت مالك يا بني ؟ قال : كيف لا أتعجب ، مازال يكلمني بالقلابية كأنه واحد منا ، فظننت أنه إنما دار بينهم [44] .

وفي ذلك روايات أخرى تدل على علمهم بسائر اللغات الفارسية والتركية وما أشبه . وكان ينبئ الناس بما يحدث في المستقبل بتعليم الله ، كما حدث بالنسبة إلى موت الواثق .

روي عن خيران الأسباطي قال : قدمت المدينة على أبي الحسن (ع) فقال لي :

ما فعل الواثق ؟ قلت : هو في عافية ، قال : وما يفعل جعفر ؟ قلت تركته أسوأ الناس حالاً في السجن قال : وما يفعل ابن الزيات ؟ قلت : الأمر أمره وأنا منذ عشرة أيام خرجت من هناك ، قال : مات الواثق ، وقد قعد المتوكل جعفر ، وقتل ابن الزيات قلت : متى ؟ قال : بعد خروجك بستة أيام وكان كذلك [45] .

وكذلك إخباره بموت المتوكل حيث دعا عليه وأخبر المقربين إليه أنه يهلك خلال أيام ثلاثة .

---

(٤٢) المصدر : ( ص ١٥٨ - ١٦٠ ) .

(٤٣) المصدر : ( ص ١٧٩ ) .

(٤٤) المصدر : ( ص ١٣٠ ) .

(٤٥) المصدر : ( ص ١٥١ ) .

وحينما حمله قائد المتوكل إلى سر من رأى أخذ حذره وأخذ لبابين وبرانس احتياطاً لما كان يتوقعه في الطريق من عواصف ثلجية أيام الصيف ولم تكن متوقعة أبداً ، ولكنها وقعت وقتلت طائفة من الجنود المرافقين له وبقي الإمام سالماً بفضل الله [٤٦] .

وتجلى علمه في احتجاجه على يحيى بن أكثم ، الذي كان المقدم بين علماء عصره عند الخليفة ، فطلب منه إحضار أسئلة صعبة لإحراجه ، وسوف نذكر القصة في فصل آت .

وقد وعظ شاباً كان يبالغ في الضحك وأخبره بقرب وفاته وكان كذلك :

قالوا : حدث لبعض أولاد الخليفة وليمة فدعا الناس إليها ودعا أبا الحسن ، فدخلنا فلما رأوه انصتوا إجلالاً له ، وجعل شاب في المجلس لا يوقره ، وجعل يلغط ويضحك ، فأقبل عليه وقال له : يا هذا تضحك ملء فيك وتذهل عن ذكر الله وأنت بعد ثلاثة من أهل القبور ؟ قال : فقلنا هذا دليل حتى ننظر ما يكون .

قال : فأمسك الفتى وكفّ عما هو عليه ، وطعمنا وخرجنا ، فلما كان بعد يوم أعتل الفتى ومات في اليوم الثالث من أول النهار ، ودفن في آخره [٤٧] .

وفي خبر مشابه حدّث به سعيد بن سهل البصري قال : اجتمعنا أيضاً في وليمة لبعض أهل سر من رأى وأبو الحسن (ع) معنا ، فجعل رجل يعبث ويمزح ، ولا يرى له جلالة فأقبل على جعفر فقال : أما انه لا يأكل من هذا الطعام ، وسوف يرد عليه من خبر أهله ما ينغص عليه عيشه ، قال : فقدمت المائدة قال جعفر : ليس بعد هذا خبر ، قد بطل قوله ، فوالله لقد غسل الرجل يده وأهوى إلى الطعام فإذا غلامه قد دخل من باب البيت يبكي وقال له : الحق أمك فقد وقعت من فوق البيت ، وهي بالموت ، قال جعفر فقلت والله لا وقفت بعد هذا وقطعت عليه [٤٨] .

وآخر مكرمة ننقلها عنه (ع) تلك التي ينقلها الرواة حول تل المخالي حيث سعى المتوكل لإرهاب معارضيه بما يملك من قوة عسكرية ، فأمر العسكر وهم تسعون ألف فارس من الأتراك الساكني بسر من رأى أن يملأ كل واحد مخلاة فرسه من الطين الأحمر ، ويجعلوا بعضه على بعض في وسط تربة واسعة هناك ، ففعلوا . فلما صار مثل جبل عظيم واسمه تل المخلي صعد فوقه ، واستدعى أبا الحسن واستصعده ، وقال : استحضرتك لنظارة خيولي ، وكان قد أمرهم أن يلبسوا التجافيف ويحملوا الأسلحة وقد عرضوا بأحسن زينة ، وأتم عدة ، وأعظم هيبة ، وكان غرضه أن يكسر قلب كل من يخرج عليه وكان خوفه من أبي الحسن (ع) أن يأمر أحداً من أهل بيته أن يخرج على الخليفة .

فقال له أبو الحسن (ع) : وهل أعرض عليك عسكري ؟ قال : نعم ، فدعا الله سبحانه فإذا بين السماء

---

(٤٦) انظر المصدر : ( ص ١٤٢ - ١٤٤ ) .

(٤٧) المصدر : ( ص ١٨٣ ) .

(٤٨) المصدر : ( ص ١٨٣ ) .

والأرض من المشرق والمغرب ملائكة مدججون فغشي على الخليفة ، فلما افاق قال ابو الحسن (ع) : نحن لانناقشكم في الدنيا نحن مشتغلون بامر الآخرة فلا عليك شيء مما تظن [49] .

## كرمه وجوده :

وكان (ع) من أهل بيت عادتهم الإحسان وسجيتهم الكرم .

جاء في التاريخ : دخل ابو عمرو عثمان بن سعيد واحمد بن إسحاق الأشعري وعلي بن جعفر الهمداني على أبي الحسن العسكري ، فشكى إليه احمد بن إسحاق ديناً عليه فقال يا ( أبا) عمرو — وكان وكيله — إدفع إليه ثلاثين الف دينار ، وإلى علي بن جعفر ثلاثين الف دينار ، وخذ انت ثلاثين الف دينار ، فهذه معجزة لا يقدر عليها إلاّ الملوك ، وما سمعنا بمثل هذا العطاء [50] .

والقصة التالية تعكس قمة الإيثار عند الإمام (ع) حيث سعى لقضاء حاجة واحدة من مواليه بطريقة عجيبة دعنا نستمع إلى التاريخ يروي لنا قصته بكل عظمة :

قال محمد بن طلحة : خرج (ع) يوماً من سر من رأى إلى قرية لِمُهّمٍ عرض له ، فجاء رجل من الأعراب يطلبه فقيل له قد ذهب إلى الموضع الفلاني ، فقصده فلما وصل إليه قال له ما حاجتك ؟ فقال : انا رجل من اعراب الكوفة المتمسكين بولاية جدك علي بن ابي طالب (ع) قد ركبني دين فادح اثقلني حمله ، ولم أر من اقصده لقضاءه سواك .

فقال له ابو الحسن : طب نفساً وقر عيناً ثم انزله ، فلما اصبح ذلك اليوم قال له ابو الحسن (ع) : أريد منك حاجة . الله الله أن تخالفني فيها ، فقال الأعرابي لا اخالفك ، فكتب ابو الحسن (ع) ورقة بخطه معترفاً فيها أن عليه للأعرابي مالاً عينه فيها يرجح على دينه ، وقال : خذ هذا الخط فإذا وصلت إلى سر من رأى إحضر إليّ وعندي جماعة ، فطالبني به واغلظ القول عليٍّ في ترك إيفائك إياه الله الله في مخالفتي فقال : افعل ، واخذ الخط .

فلما وصل ابو الحسن إلى سر من رأى ، وحضر عنده جماعة كثيرون من اصحاب الخليفة وغيرهم ، حضر ذلك الرجل واخرج الخط وطالبه وقال كما أوصاه ، فالان ابو الحسن (ع) له القول ورفقه ، وجعل يعتذر ، ووعده بوفائه وطيبه نفسه ، فنقل ذلك إلى الخليفة المتوكل فامر أن يحمل إلى أبي الحسن (ع) ثلاثون الف درهم .

فلما حملت إليه تركها إلى ان جاء الرجل فقال : خذ هذا المال واقض منه دينك ، وانفق الباقي على عيالك واهلك ، واعذرنا ، فقال له الأعرابي : يا ابن رسول الله والله إن املي كان يقصر عن ثلث هذا ، ولكن الله اعلم حيث يجعل رسالته ، واخذ المال وانصرف [51] .

---

(٤٩) المصدر : ( ص ١٥٥ – ١٥٦ ) .

(٥٠) المصدر : ( ص ١٧٣ ) .

(٥١) المصدر : ( ص ١٧٥ )

تعالوا نتعلم من أئمتنا الإيثار والكرم ، فليس الكرم مجرد الإنفاق إنما السعي لقضاء الحاجة بكل وسيلة ممكنة وحتى ولو كانت في ذلك غضاضة على النفس .

وتذكرني قصة الإمام هذه بما روي عن أحد الأنبياء العظام الذي جاءه صاحب حاجة ، وطلب منه مالاً ولم يكن يملك شيئاً ، فقال له خذني وبعني في سوق النخاسين كما لو كنت عبداً لك وخذ الثمن واقض حاجتك به ، وفعل الرجل ولكن الذي اشترى النبي عرفه بالتالي فتركه .. وبهذه الطريقة التي تفيض إيثاراً وكرماً وجوداً علّمنا قادتنا كيف نحسن إلى بعضنا ، وننفق بما نملك ونسعى لامتلاك ما نفقده بهدف قضاء حوائج الناس .

الفصل الرابع

# كلماتـه المضيئـة

لقد بلغ مذهب أهل البيت (ع) مرحلة النضج في عهد الإمام الهادي ، إلاّ أنه كان يهدده خطر التطرف الذي تسرب إلى بعض المسلمين عبر الثقافات المستوردة من الشرق ، كما أنه كان بحاجة إلى مزيد من الدفع الإيماني حتى لا تهبط الروح المعنوية عند البعض بسبب دعايات الأعداء وبالذات الخلفاء العباسيين الذين لم يعرفوا مقام الأئمة فنسبوا إليهم أو إلى شيعتهم الغلو والغنوص ، وهكذا احتياج المذاهب إلى نصوص جامعة تكون بمثابة دروس توجيهية تتضمن أصول العقائد بلا زيادة أو نقصان .

وهكذا جاءت زيارة الجامعة المروية عن الإمام الهادي (ع) التي تجعل الأئمة في مقامهم الأسمى بعيداً عن الغنوص والغلو .

دعنا نتدبر في بعض كلماتها المضيئة التي تعتبر أفضل وسيلة لتكريس حبهم في النفس ذلك الحب الذي يعتبر امتداداً لحب المؤمن لربّه ، وليس بديلاً عنه .

" السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط الوحي ومعدن الرحمة ، وخزّان العلم ومنتهى الحلم ، وأصول الكرم وقادة الأمم ، وأولياء النعم وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار ، وساسة العباد وأركان البلاد ، وأبواب الإيمان وأمناء الرحمن ، وسلالة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة رب العالمين ورحمة الله وبركاته ، السلام على أئمة الهدى ومصابيح الدجى ، وأعلام التقى وذوي النهى ، وأولي الحجى وكهف الورى ، وورثة الأنبياء والمثل الأعلى ، والدعوة الحسنى وحجج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى ورحمة الله وبركاته ، السلام على محال معرفة الله ، ومساكن بركة الله ، ومعادن حكمة الله ، وحفظة سر الله ، وحملة كتاب الله ، وأوصياء نبي الله ، وذرية رسول الله (ص) ورحمة الله وبركاته ، السلام على الدعاة إلى الله والأدلاّء على مرضاة الله ، والمستقرين " والمستوفرين " في أمر الله ، والتامين في محبة الله ، والمخلصين في توحيد الله ، والمظهرين لأمر الله ونهيه ، وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ورحمة الله وبركاته "[52] .

وقال (ع) ينصح بعض مواليه ، " يا فتح من أطاع الخالق لم يبال بسخط المخلوق ، ومن أسخط الخالق فأيقن أن يحل به الخالق سخط المخلوق ، وأن الخالق لا يوصف إلاّ بما وصف به نفسه ، وأنى

---

(٥٢) زيارة الجامعة في كتاب الأنوار اللامعة – في شرح زيارة الجامعة ( ص ١٢٣ ) للسيد عبد الله شبر .

يوصف الخالق الذي تعجز الحواس ان تدركه ، والأوهام ان تناله ، والخطرات ان تحده ، والأبصار عن الإحاطة به " .

" جل عما يصفه الواصفون ، وتعالى عما ينعته الناعتون ، ناى في قربه ، وقرب في نأيه ، فهو في نأيه قريب ، وفي قربه بعيد ، كيف الكيف فلا يقال كيف ، وأيّن الأين فلا يقال اين ، إذ هو منقطع الكيفية والأيّنية "[53] .

وقال (ع) : " من اتقى الله يُتّق ، ومن اطاع الله يُطَع ، ومن اطاع الخالق لم يبال سخط المخلوقين ، من امن مكر الله واليم اخذه تكبر حتى يحل به قضاؤه ونافذ امره ، ومن كان على بينة من ربه هانت عليه مصائب الدنيا ولو قرض ونشر ، الشاكر اسعد بالشكر منه بالنعمة التي اوجبت الشكر لان النعم متاع والشكر نعم وعقبى ، إن الله جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى وجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، إن الظالم الحاكم يكاد ان يعفى على ظلمه بحلمه وان المحق السفيه يكاد ان يطفئ نور حقه بسفهه ، من جمع لك وده ورايه فاجمع له طاعتك ، من هانت عليه نفسه فلا تامن شره ، الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون "[54] .

" المراء يفسد الصداقة القديمة ويحل العقدة الوثيقة واقل ما فيه أن يكون فيه المغالبة والمغالبة اسباب القطيعة " .

" العتاب مفتاح التقالي والعتاب خير من الحقد " .

وقال لرجل ذم إليه ولداً له : " العقوق ثكل من لم يثكل " .

وقال : السهر الذ للمنام والجوع يزيد في طيب الطعام ، يريد به الحث على قيام الليل وصيام النهار " .

" اذكر مصرعك بين يدي اهلك ، ولا طبيب يمنعك ولا حبيب ينفعك " .

" الغضب على من تملك لؤم " .

" الحكمة لا تنجح في الطباع الفاسدة " .

" خير من الخير فاعله ، واجمل من الجميل قائله ، وارجح من العلم حامله ، وشر من الشر جالبه ، واهول من الهول راكبه " .

" إياك والحسد فإنه يبين فيك ولا يعمل في عدوك " .

" إذا كان زمان العدل فيه اغلب من الجور فحرام ان يظن احد باحد سوء حتى يعلم ذلك منه ، وإذا كان زمان الجور اغلب فيه من العدل فليس لأحد ان يظن باحد خيراً ما لم يعلم ذلك منه "[55] .

---

(٥٣) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ) .

(٥٤) في رحاب أئمة أهل البيت : ( ج ٤ ، ص ١٨٠ ) .

(٥٥) المصدر : ( ص ١٨١ ) .


الامـام العسكـري (عليه السلام)
قدوة وأسوة

# تمهيد

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الميامين !

السلام على الهداة والمجاهدين ..

عندما تمرّ بنا ذكرى شهادة او ميلاد واحد من ائمة الهدى (ع) فنتذكر مدى الفجوة بين حياتنا والحياة التي بشر بها الوحي ، وتجلت في سيرة النبي وأهل بيته ( عليه وعليهم صلوات الله ) .

والمصيبة الأكبر تتمثل في أن الكثير منا لا يعرف من حياة الأئمة إلاّ النزر اليسير وهل يمكن آنئذ من اتباعهم ، وانتهاج سيرتهم ؟

واليوم الثامن من ربيع الأول يصادف ذكرى شهادة الإمام الحسن العسكري (ع) النجم الحادي عشر الذي غاب عن افق الإمامة في مدينة سامراء التي بناها الخلفاء العباسيون ، كمعسكر لجنودهم الأتراك . بعد ان ضجت من عبثهم عاصمتهم الأولى بغداد !!

وحين اشرع في رسم صورة عن حياة الإمام العسكري اعترف بقلة المصادر المتوافرة لدينا عن سيرة الأئمة الأطهار من بعد الإمام الرضا (ع) ولا ادري ما السبب في ذلك ؟ على انني افترض قلة تحقيق المؤرخين في تلك الحقبة التي تميزت بهدوء نسبي في حقل السياسة . بالرغم من تنامي سائر الحقول لأن اغلب المؤرخين السابقين كانت تستهويهم الأحداث الكبيرة أكثر من الأحداث المؤثرة تاريخياً من غيرها .

**الفصل الاول**

# الميلاد الكريم

في اليوم العاشر من الربيع الثاني من عام ٢٣٢ هجرة وفي مدينة الرسول استقبل بيت الإمام الهادي (ع) ثاني ابنائه من امرأة فاضلة ، صالحة كانت تسمى حديث او سلسل [١] .

وبقي في المدينة الى عام ٢٤٣ ، حيث انتقل – فيما يبدو – مع والده الكريم إلى عاصمة الخلافة العباسية ، سر من رأى ، واستوطن معه في منطقة تُسمى بالعسكر ، ولُقب على أساسها بالعسكري .

كما كان يلقب ايضاً بـ : الصامت ، الهادي ، الرفيق ، الزكي ، النقي ، وكانت تعكس هذه الألقاب الخصال الحميدة التي تجلت في حياته ، للناس وكانت كنيته أبا محمد ، والعامة من الناس ، كانوا يلقبونه هو وأباه وجده بابن الرضا (ع) [٢] .

وكان للإمام اخ اكبر سناً يُسمَّى بـ ( محمد ) عظيم الشان جليل المنزلة وكانت انظار أبناء الطائفة ترمقه بصفته الإمام بعد والده ، باعتباره اكبر اولاده ، إلاّ إن الإمام الهادي (ع) ، كان يشير لخواص أصحابه ان صاحب العهد من بعده انما هو ابو محمد الحسن ، وفعلاً قُبض محمد في سن مبكر . ودفن حيث مرقده اليوم بين بغداد وسامراء حيث يتوافد عليه الزوار ويدعون الله هناك فيستجيب لهم كرامة له ولأبائه الطاهرين .

وبوفاة السيد محمد – وهذا هو الاسم الذي يشتهر به عند الناس اليوم – عرف الجميع ان الإمام الحادي عشر سيكون أبا محمد الحسن ..

ولمزيد من التوضيح قال له الإمام الهادي (ع) عند جنازة محمد كلمته المشهورة :

" يا بني أحدث لله شكراً فقد احدث فيك امراً " [٣] .

ولعل ، ما احدث الله له إنما كان نعمة الأتفاق عليه ، وعدم حدوث خلاف حول امامته بعد والده ، بصفته الابن الأكبر بعد وفاة محمد .. وليس الإمامة ذاتها التي هي موهبة إلهية لا ترتبط بالعمر وما اشبه . والدليل على ذلك ان الإمام الهادي كان يشير إلى ذلك من قبل وفاة ابنه أبي جعفر محمد (المعروف بالسيد محمد ) كما ان روايات اخرى أشارت إلى ذلك ماثورة من آبائه الكـرام .. لنقرأ معاً

---

(١) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٢٣٦ ) .

(٢) المصدر .

(٣) المصدر : ( ص ٢٤٠ ) .

بعض تلك النصوص التي اتفقت على محتواها الطائفة وهي ذات دلالة كافية على امامة الإمام العسكري .

يقول علي بن عمر النوفلي : كنت مع أبي الحسن العسكري ( يعني الإمام الهادي (ع) ) في داره فمرّ علينا أبو جعفر فقلت له : هذا صاحبنا ؟ فقال : لا ، صاحبكم الحسن [4] .

ويروي علي بن عمرو العطار ويقول : دخلت على أبي الحسن ، وابنه أبو جعفر في الاحياء ، وانا اظن أنّه الخلف من بعده ، فقلت : جعلت فداك من لخص من ولدك ؟ فقال : لا تخصوا أحداً من ولدي حتى يخرج إليكم أمري قال : فكتبت إليه بعدُ : فيمن يكون هذا الأمر ؟ قال : فكتب إلي : الأكبر من ولدي وكان أبو محمد اكبر من جعفر [5] وهو الذي لقب بعدئذ بالكذاب أو التواب ، لأنه ادعى الامامة حيناً ، ثم تراجع عن دعواه وتاب .. وكان أبو جعفر ، السيد محمد ، أكبرَ أولاد الإمام الهادي ، إلاّ أنه كان قد توفي يومئذ فيما يبدو .

وكتب الإمام الهادي (ع) إلى أبي بكر الفهفكي يقول له :

أبو محمد ابني أصح آل محمد غريزة ، وأوثقهم حجة ، وهو الأكبر من ولدي ، وهو الخلف ، وإليه ينتهي عرى الإمامة واحكامها فما كنت سائلي منه فاسأله عنه وعنده ما تحتاج إليه [6] .

وقد اشار الإمام الجواد (ع) إلى هذه الحقيقة أيضاً حيث جاء في حديث ماثور عن العقر بن دلف قال : سمعت أبا جعفر ، محمد بن علي الرضا ، يقول أن الإمام بعدي ابني علي ، أمره أمري ، وقوله قولي ، وطاعته طاعتي ، والإمام بعده في ابنه الحسن [7] .

كما ان هناك روايات مستفيضة تناقلتها الثقاة من أئمة الحديث عن النبي الأكرم (ص) تبين عدد الأئمة الاثنى عشر واسماءهم وصفاتهم بما لا يدع شكاً عند المؤمنين بان حجة الله البالغة بعد الإمام الهادي كان سيدنا الإمام الحسن العسكري (ع) .

وهكذا انتقلت مهام الامامة الإسلامية والخلافة الإلهية إليه بعد وفاة والده الإمام الهادي وله من العمر ثلاث وعشرون عاماً .

وكان في سني امامته بقية أيام المعتز العباسي ثم ملك المهتدي ، وخمس سنين من ملك المعتمد [8] .

## صفاتــه وكراماتــه :

يصفه بعض معاصريه ، انّه (ع) كان : اسمر، اعين، حسن القامة ، جميل الوجه، جيّد البدن ، حديث

---

(٤) المصدر : ( ص ٢٤٢ ) .

(٥) المصدر : ( ص ٢٤٤ ) .

(٦) المصدر : ( ص ٢٤٥ ) .

(٧) المصدر : ( ص ٢٣٩ ) .

(٨) المصدر : ( ص ٢٣٦ ) .

السن ، له هيبة وجلال [9] .

وقد وصف جلاله وعظمة شانه وزير البلاط العباسي في عصر المعتمد احمد بن عبيد الله بن خاقان مع انه كان يحقد على العلويين ويحاول الوقيعة بهم ، وصفه كما جاء في رواية الكليني فقال :

ما رايت ولا عرفت ، بسر من راى ، من العلوية مثل الحسن بن علي بن محمد بن الرضا ، ولا سمعت بمثله ، في هديه وسكوته وعفافه ونبله وكرمه عند أهل بيته والسلطان ، وجميع بني هاشم وتقديمهم إياه على ذوي السن منهم والحظ ، وكذلك القواد والوزراء والكتّاب وعوام الناس ، وما سالت عنه احداً من بني هاشم والقواد والكتّاب والقضاة والفقهاء وسائر الناس إلاّ وجدته عندهم في غاية الاجلال والاعظام ، والمحل الرفيع والقول الجميل والتقديم له على اهل بيته ومشائخه وغيرهم ولم ار له ولياً ولا عدواً إلاّ ويحسن القول فيه والثناء عليه [10] .

ووصفه الشاكري الذي لازم خدمته فقال : كان استاذي صالحاً من بين العلويين ، لم ار قط مثله قال : وكان يركب إلى دار الخلافة بسر من راى في كل اثنين وخميس قال : وكان يوم النوبة يحضر من الناس شيء عظيم . ويغص الشارعُ بالدواب والبغال والحمير والضجة ، فلا يكون لأحد موضع يمشي ولا يدخل بينهم . قال فإذا جاء استاذي سكنت الضجة ، وهدأ صهيل الخيل ، ونهاق الحمير . وتفرقت البهائم حتى يصير الطريق واسعاً لا يحتاج ان يتوقى من الدواب نحفه ليزحمها ثم يدخل فيجلس في مرتبته التي جعلت له فإذا اراد الخروج وصاح البوابون : هاتوا دابة ابي محمد ، سكن صياح الناس وصهيل الخيل ، وتفرقت الدواب ، حتى يركب ويمضي .

واضاف في صفة الإمام ، كان يجلس في المحراب ويسجد فانام وانتبه وانام ، وهو ساجد ، وكان قليل الأكل ، كان يحضره التين والعنب والخوخ وما شاكله فياكل منه الواحدة واثنين ويقول شل هذا يا محمد إلى صبيانك ، فاقول هذا كله ، فيقول : خذه ، ما رايت قط اسدى منه [11] .

وعندما سجنه طاغية بني العباسي ، وقال بعض العباسيين للذي وكل بسجنه ( صالح بن وصيف ) : ضيّق عليه ولا توسع فقال له صالح : ما اصنع به ؟ وقد وكلت به رجلين شرّ من قدرت عليه ، فقد صارا من العبادة و الصلاة إلى امر عظيم . ثم امر باحضار الموكلين . فقال لهما : ويحكما ما شانكما في امر هذا الرجل ، فقالا له : ما تقول في رجل يصوم نهاره ويقوم ليله كله ، ولا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة فإذا نظر إلينا ارتعدت فرائصنا . وداخلنا مالا نملكه من انفسنا [12] .

وقد كان الجميع يعرفون قدره ومدى كرامته على ربه حتى ان المعتمد العباسي حينما بويع بالخلافة في

---

(9) سيرة الأئمة الاثنى عشر : ( ص ٤٩٠ ) .

(10) المصدر : ( ص ٤٨٢ ) .

(11) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٢٥٣ ) .

(12) المصدر : ( ص ٣٠٩ ) .

تلك الظروف المضطربة التي لم يكن يلبث الخليفة سنة أو بعض سنة جاء إلى الإمام العسكري (ع) وطلب منه الدعاء له بالبقاء عشرين سنة ( وكان عنده تلك المدة طويلة جداً بالقياس إلى من سبقه ) فقال (ع) مدّ الله في عمرك فاجيب وتوفي بعد عشرين عاماً [١٣] .

هذه واحدة من كرامات الإمام (ع) وقد حفلت كتب الحديث بكراماته التي تفيض عن حدود هذا الكتاب المختصر وإنما نسوق بعضها لنزداد معرفة بحقه ، وبان ائمة الهدى نور واحد من ذرية طيبة بعضها من بعض اصطفاها الله لبلاغ رسالاته واتمام حجته ، واكمال نعمه علينا ..

تعالوا نستمع معاً إلى الرواة كيف قصوا علينا تلك الكرامات :

١ — قال أبو هاشم ( احد الرواة ) سال محمد بن صالح ابا محمد عن قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ (الروم/٤) فقال (ع) — له الأمر من قبل ان يامر به وله الأمر من بعد ان يامر به مما يشاء ، فقلت في نفسي ، هذا قول الله : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الاعراف/٥٤) فاقبل علي فقال :

هو كما أسررت في نفسك ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قلت : اشهد انك حجة الله وابن حجته في خلقه [١٤] .

٢ — قال احد الرواة ( علي بن زيد ) صحبت ابا محمد ، من دار العامة الى منزله ، فلما صار الى الدار واردت الانصراف قال : امهل فدخل ثم اذن لي فدخلت فاعطاني مائتي دينار وقال : اصرفي في ثمن جارية فان جاريتك فلانة قد ماتت وانت خرجت من المنزل وعهدي بها انشط بما كانت ، فمضيت فإذا الغلام قال : ماتت جاريتك فلانة الساعة . قلت ما حالها ؟ قيل شربت ماء فشرقت فماتت [١٥] .

٣ — وروي أبو هشام الجعفري وقال : شكوت إلى أبي محمد ( الإمام العسكري (ع) ) ضيق الحبس وشدة القيد ، فكتب إليّ : أنت تصلي الظهر في منزلك ، فاخرجت عن السجن وقت الظهر فصليت في منزلي [١٦] .

٤ — وروى عن أبي حمزة نصير الخادم قال : سمعت ابا محمد (ع) غير مرة يكلم غلمانه وغيرهم بلغاتهم وفيهم روم وترك وصقالبة ، فتعجبت من ذلك وقلت هذا ولد هذا ولد بالمدينة ولم يظهر لأحد حتى قضى ابو الحسن ( اي والده الإمام الهادي عليه السلام ) ولا راه احد فكيف هذا ؟ احدث بهذا نفسي ، فاقبل عليّ وقال : ان الله بين حجته من بين سائر خلقه وأعطاه معرفة كل شيء فهو يعرف اللغات والأنساب

---

(١٣) والمعتمد استخلف أكثر من ذلك ولعله بعد عدة من خلافته طلب من الإمام ذلك ، المصدر : (ص٣٠٩) .

(١٤) المصدر : ( ص ٢٥٧ ) .

(١٥) المصدر : ( ص ٢٦٤ ) .

(١٦) المصدر : ( ص ٢٦٧ ) .

والحوادث ، ولولا ذلك لم يكن بين الحجة والمحجوج فرق [17] .

٥ – وسلّم الإمام إلى بعض أعوان الظلمة واسمه نحرير فقالت له امرأته : اتق الله ، فانك لا تدري من في منزلك ، وذكرت عبادته وصلاحه ، واني لأخاف عليك منه ؟ فقال : لأرمينّه بين السباع ثم استأذن في ذلك ( من طغاته ) فاذن له ، ( وكانت هذه طريقة من طرق الاعدام في ذلك الزمان ) .

فرمى به إليها ، ولم يشكوا في أكلها له ، فنظروا إلى الموضع ليعرفوا الحال ، فوجدوه قائماً يصلي ، وهي حوله ، فامر باخراجه [18] .

٦ – وروي عن الهمداني قال : كتبت إلى ابي محمد (ع) اساله التبرك بان يدعو ان ارزق ولداً من بنت عم لي ، فوقّع : رزقك الله ذكراناً فولد لي أربعة [19] .

٧ – وروى العبدي قال : خلفت ابني بالبصرة عليلاً وكتبت إلى ابي محمد أساله الدعاء لابني فكتب إلي : رحم الله ابنك ان كان مؤمناً قال الراوي : فورد علي كتاب من البصرة ان ابني مات في ذلك اليوم الذي كتب إليّ ابو محمد بموته ، وكان ابني شك في الامامة للاختلاف الذي جرى بين الشيعة [20] .

٨ – وروى بعضهم : ان رجلاً من موالي ابي محمد العسكري (ع) دخل عليه يوماً وكان حكاك الفصوص فقال : يا ابن رسول الله : ان الخليفة دفع إليّ فيروزجاً أكبر ما يكون ، وقال انقش عليه كذا وكذا ، فلما وضعت عليه الحديد صار نصفين وفيه هلاكي ، فادع الله لي ، فقال : لا خوف عليك إن شاء الله . قال : فخرجت إلى بيتي ، فلما كان من الغد دعاني الخليفة وقال لي : ان حظيّتين اختصمتا في ذلك الفص ، ولم ترضيا الا ان تجعل ذلك نصفين بينهما فاجعله ..

وانصرفت وأخذت ( الفص ) وقد صار قطعتين فاخذتهما ورجعت بهما إلى دار الخلافة فرضيتا بذلك ، واحسن الخليفة إليّ بسبب ذلك ، فحمدت الله [21] .

٩ – وروى بعضهم : عن محمد بن علي قال : ضاق بنا الأمر قال لي ابي : إمض بنا حتى نصير إلى هذا الرجل – يعني ابا محمد – فانه قد وصف عنه سماحتهُ .

فقلت : تعرفه ؟ فقال لي ما اعرفه ولا رايته قط ، قال : فقصدناه ، فقال ابي – وهو في طريقه – ما أحوجنا إلى ان يامر لنا بخمس مائة درهم : مائتي درهم للكسوة ، ومائتي درهم للدقيق ومائة درهم للنفقة ، ( وقال محمد ابنه ) وقلت في نفسي ليته أمر لي بثلاث مائة درهم ، مائة اشتريت بها حماراً ، ومائة للنفقة ومائة للكسوة ، واخرج إلى الجبل ( اطراف قزوين ) .

---

(١٧) المصدر : ( ص ٢٦٨ ) .

(١٨) المصدر : ( ص ٢٦٨ ) .

(١٩) المصدر : ( ص ٢٦٩ )

(٢٠) المصدر : ( ص ٢٧٤ ) .

(٢١) المصدر : ( ص ٢٧٦ ) .

فلما وافينا الباب خرج إلينا غلام وقال : يدخل علي بن إبراهيم ، وابنه محمد ، فلما دخلنا عليه وسلمنا قال لأبي : يا علي ما خلفك عنا إلى هذا الوقت ؟ قال : يا سيدي استحييت ان القاك على هذه الحال .

فلما خرجنا من عنده جاءنا غلامه فناول ابي ، صرّة وقال : هذه خمس مائة ، مائتان للكسوة ، ومائتان للدقيق ، ومائة للنفقة ، وأعطاني صرة . وقال هذه ثلاثة مائة درهم فاجعل مائة في ثمن حمار ، ومائة للكسوة ومائة للنفقة ، ولا تخرج إلى الجبل وصر إلى سورا ( أطراف بغداد ) [22] .

١٠ — وجاء في رواية مأثورة عن علي بن الحسن بن سابور انه قال :

قحط الناس بـ ( سر من رأى ) في زمن الحسن الأخير ( الامام العسكري (ع) ) .. فأمر الخليفة الحاجب واهل المملكة ان يخرجوا إلى الاستسقاء فخرجوا ثلاثة أيام متوالية إلى المصلى يدعون فما سُقوا .

فخرج ( حبر النصارى ) الجاثليق في اليوم الرابع ، ومعه النصارى والرهبان ، وكان فيهم راهب ، فلما مدّ يده هطلت السماء بالمطر فشك اكثر الناس وتعجبوا وصبوا إلى دين النصرانية .

فانفذ الخليفة إلى الحسن ( الإمام العسكري ) وكان محبوساً فاستخرجه من محبسته وقال : إلحق أمة جدك فقد هلكت ، فقال : اني خارج في الغد ومزيل الشك إن شاء الله تعالى .

فخرج الجاثليق في اليوم الثالث [23] والرهبان معه وخرج الحسن في نفر من أصحابه فلما بصر بالراهب وقد مدّ يده أمر بعض مماليكه ان يقبض على يده اليمنى ويأخذ ما بين اصبعيه ففعل ، وأخذ من بين سبابتيه عظماً اسود . فأخذ الحسن بيده ثم قال : استسق الآن ، فاستسقى وكان السماء متغيماً فتقشعت وطلعت الشمس بيضاء .

فقال الخليفة : ما هذا العظم يا ابا محمد قال (ع) : هذا رجل مرّ بقبر نبي من الأنبياء ، فوقع إلى يده هذا العظم ، وما كشف من عظم نبي إلاّ وهطلت السماء بالمطر [24] .

١١ — وروى ابو يوسف الشاعر القصير — شاعر المتوكل — قال : ولد لي غلام وكنت مضيقاً فكتبت رقاعاً إلى جماعة استرفدهم ، فرجعت بالخيبة قال قلت : اجيء فاطوف حول الدار طوفة وصرت إلى الباب فخرج ابو حمزة ومعه صرة سوداء فيها اربع مائة درهم فقال : يقول لك سيدي انفق هذه على المولود بارك الله فيك [25] .

١٢ — قال ابو هاشم : كتب إليه بعض مواليه يسأله ان يعلمه دعاء فكتب إليه ان ادع بهذا الدعاء " يا اسمع السامعين ، ويا ابصر المبصرين ، ويا عزّ الناظرين ، يا اسرع الحاسبين ، ويا أرحم الراحمين ، ويا

---

(٢٢) المصدر .

(٢٣) أي اليوم الخامس أو الثالث ، بعد خروج النصارى ، وهو السادس منذ البدء بالاستسقاء .

(٢٤) المصدر : ( ص ٢٧١ ) .

(٢٥) المصدر : ( ص ٢٩٤ ) .

احكم الحاكمين ، صل على محمد وال محمد ، واوسع لي في رزقي ومدّ في عمري . وامنن عليّ برحمتك واجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري " .

قال ابو هاشم : فقلت في نفسي ، اللهم اجعلني في حزبك وفي زمرتك ، فاقبل عليّ ابو محمد فقال : انت في حزبه وفي زمرته ، إذا كنت بالله مؤمناً ولرسوله مصدقاً ، ولأوليائه عارفاً ، ولهم تابعاً ، فابشر ثم ابشر [٢٦] .

تلك كانت نبذة منتقاة من كرامات الإمام (ع) .. وهناك الكثير الكثير مما لا تسعه هذه الأوراق . واكثر منها بكثير مما لم تنقله الرواة ..

وهي الدلالة الشاهدة التي جعلت الناس يؤمنون بانه الوصي حقاً لرسول الله ، والإمام المعصوم من ذريته . وقد تحدثنا في كتب سبقت عن ائمة الهدى . جانباً من حكمة ظهور هذه الكرامات على ايديهم الطاهرة .

---

(٢٦) المصدر : ( ص ٢٩٩ ) .

## الفصل الثاني

# الإمام شاهد عصره

معروف — لدى القارئ الذي تابع معنا قصص أئمة الهدى ، ان دور الأئمة (ع) امتداد لدور الأنبياء . ورسالتهم هي تلك الرسالة الخالدة التي بشرت بها كتب السماء .. من الدعوة إلى الله .. والترغيب في ثوابه والترهيب من شديد عقابه !! وسوق الناس إلى اتباع رضوانه وتزكية نفوسهم - الرذائل . وتطهيرها بالحب والايمان والخلق الفاضل . ثم تعليمهم شرائع دينهم ..

وكان من أبرز مسؤوليات الأنبياء (ع) " قيادة المجتمع المؤمن بما لهذه المسؤولية من علاقة بتطبيق اصول القيم الإلهية على مفردات الحياة اليومية .. وبتمثيل تلك الأصول ضمن مواقف وفاعليات وأنشطة . حتى يصبح النبي والإمام من بعده ثم الصديقون قدوات وحججاً على الخلق وليقطعوا عنهم حبل المعاذير والتبريرات . ويشحذوا وليشحنوا عزائمهم بومضات من الإرادة ، ومن هنا لا ينبغي ان نحدد دور الإمام في الحقل السياسي بالمعنى الضيق للكلمة بالرغم من ان ا لسياسة تمثل تقاطع سائر الحقول أو ليست الثقافة ذات تاثير على السياسة ؟ أو ليس الإقتصاد والتربية والأنظمة الإجتماعية هي العوامل التي تصنع السياسة .

ومن هنا يجب ان نفرق بين معنيين للسياسة .. المعنى الخاص الذي يعني إدارة القوى الإجتماعية ذات التاثير في عالم الحكم .. والتي يقوم بها السلاطين والرؤساء السياسيون .. وهذه هي السياسة المباشرة ( المعنى الضيّق للكلمة ) .

والمعنى العام والذي يعني صنع القوى الفاعلة في المجتمع والتي تؤثر بالتالي في عالم الحكم . وهي السياسة غير المباشرة ، والتي يقوم بها — عادة — المصلحون وأصحاب المبادئ التغييرية ( وهذه السياسة بالمعنى العام ) .

ولا ريب ان الأنبياء واوصياءهم كانوا يقودون عملية التغيير ، وثورة الاصلاح بكل أبعادها الثقافية ( نشر الدعوة ) والتربوية ( تزكية النفوس ) والإجتماعية ( تكوين التجمع الايماني وتنظيم علاقاته ) كما كانوا يتعاطون احياناً السياسة بالمعنى الخاص حيث يديرون البلاد بصورة منفردة أو يشتركون في الإدارة مع سائر القوى ..

كذلك قام النبي الأعظم (ص) باصلاح المجتمع في مكة ، وبنى هناك التجمع الايماني ، ونظم علاقاتهم ثم شكّل حكومته منهم في المدينه المنورة .

وخلال سني خلافته الظاهرية تعاطى الإمام علي (ع) السياسة المباشرة . بينما قام بدور اصلاحي قبلئذ عند حكومة الخلفاء من قبله وفي ذات الوقت ساهم معهم بصورة أو باخرى في السياسة المباشرة .

والأئمة الأطهار (ع) كانوا يقومون بالاصلاح بكل ما اوتوا من قدرة ويصنعون قوة سياسية فاعلة في المجتمع . وذلك عبر قيادتهم المباشرة للمؤمنين الاصفياء من شيعتهم .

حتى انتهى الأمر إلى الإمام العسكري (ع) إذ قام خلال سني امامته بإدارة الشيعة الذين اصبح وزنهم السياسي متعاظماً في عهد الإمام الكاظم واعترف بهم كقوة سياسية في العهود التي تلت ولاية العهد من قبل الإمام الرضا (ع) ، وحتى غيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه ..

كيف كان يدير الإمام الشيعة ؟ وكيف تكونت عبر الآفاق شبكة الوكلاء الذين كانوا يمثلونه ؟ وكيف كانت تجري المراسلة بينهم وبينه ؟

تلك الحقائق لم يبحثها التاريخ الذي اقتصر – مع الأسف – على وصف الملوك وغزواتهم وحروبهم وحتى ليالي مجونهم . بينما اهمل حياة الشعوب والتيارات التي كانت تجري في المجتمع .

إلّا ان الأحاديث التي سجلت الكثير من تفاصيل حياة الأئمة (ع) ، تعتبر مادة موثوقة نستطيع ان نستلهم منها بعض الحقائق .. إلّا انها تبقى لا تعكس وحدها كل الصورة التي نتشوق إليها لمعرفة حياة الإمام (ع) التي اتسمت كحياة غيره من الأئمة بطابع السرية المطلقة ليس فقط خوفاً من الطغاة وانما ايضاً كاجراء احتياطي للمستقبل والمتغيرات التي تحكمه وكمنهج في تربية الناس على الحقائق الكبرى التي لا يحتمل قلب اغلب الناس ثقلها ..

وما نذكره فيما يلي بعض تلك الحقائق عن حياة الإمام العسكري التي لابد ان نكملها بما نعرفه من سيرة سائر الأئمة (ع) .

١ – الإمام والتقية الشديدة ، لان الإمام (ع) كان يمهد للغيبة الكبرى . وكانت من سمات عصر الغيبة ،التقية . فان حياته اتسمت – وربما أكثر من غيره من الأئمة الهداة – باقسى حالات التكتم .. والقصص التالية تعكس جانباً من حالات التقية .

أ – يقول داود بن الأسود ، دعاني سيدي ابو محمد فرفع إلي خشبة كانها رجل باب مدورة طويلة ملاء الكف فقال ، صر بهذه الخشبة إلى العمري ( احد وكلاءه المقربين ) فمضيت فلما صرت في بعض الطريق عرض لي سقاء معه بغل فزاحمني البغل على الطريق . فناداني السقاء ضح عن الطريق ( أي وسع الطريق ) فرفعت الخشبة التي كانت معي فضربت بها البغل ، فانشقت ( الخشبة ) فنظرت إلى كسرها فإذا فيها كتب ( رسائل ) فبادرت سريعاً فرددت الخشبة إلى كمي فجعل السقاء ينادي ويشتمني ، ويشتم صاحبي [27] .

---

(٢٧) بحار الأنوار : ( ج ٥٠ ، ص ٢٨٣ ) .

هكذا كان الإمام يستخدم اسلوب الكتمان وبهذا المستوى الرفيع .. حتى في نقل الرسائل من دار لدار او بلد قريب إلى بلد قريب آخر .

وفي نهاية القصة نجد عتاباً شديداً تعرض له حامل الرسالة على تصرفه البعيد عن روح العمل السري فقال خادم الإمام ، حكاية عن الإمام قال ، وإذا سمعت لنا شاتماً فامضِ في سبيلك التي أمرت بها ، وإياك ان تجاوب من يشتمنا أو تعرفه من أنت ! فانا ببلد سوء ، ومصر سوء ، وامضِ في طريقك ، فان أخبارك واحوالك ترد إلينا فاعلم ذلك [٢٨] .

ب — وكان أسلوب التحدث بالاشارة شائعاً في أوساط الشيعة كما يظهر من كثير من قصصهم .. وفي القصة التالية نجد هذا الأسلوب كما نجد مدى تحذير الإمام من مخالفة التقية دعنا نستمع إليها :

يقول محمد بن عبد العزيز البلخي : أصبحت يوماً في شارع الغنم ، فإذا بأبي محمد (ع) قد اقبل من منزله يريد دار العامة [٢٩] ، فقلت في نفسي أن صحت أيها الناس هذا حجة الله عليكم فاعرفوه ، يقتلوني؟ فلما دنا مني أوما باصبعه السبابة على فيه ان اسكت . ورايته تلك الليلة يقول ، انما هو الكتمان او القتل فاتق الله على نفسك [٣٠] .

ج — ونقرأ عن أسلوب الإشارة ايضاً قصة علي بن محمد بن الحسن قال وافت جماعة من الاهواز من اصحابنا وكنت معهم وخرج السلطان إلى صاحب البصرة ( الذي خرج بالبصرة وهو صاحب الزنج المعروف ) فخرجنا ننظر إلى ابي محمد ( الذي كان يخرج عادة مع السلطان في مثل هذه المناسبات الرسمية تطبيقا لمبدا التقية ) .

فنظرنا إليه ماضياً وقعدنا بين الحائطين بـ ( سر من راى ) ننتظر رجوعه ، فرجع فلما حاذانا وقرب منا وقف ومدَّ يده إلى قلنسوته فاخذها عن راسه وامسكها بيده وأمرَّ يده الأخرى على راسه ، وضحك في وجهه رجل منا .

فقال الرجل مبادراً ، اشهد انك حجة الله وخيرته ، فقلنا يا هذا ما شانك ؟ قال ، كنت شاكاً فيه فقلت في نفسي ان رجع واخذ القلنسوة عن راسه قلت بامامته [٣١] .

## ملامح عن عصر الإمام :

وتتسارع دورة الحضارة في اي امة من البشر إلى نهايتها المأساوية ، إلاّ إذا قام فيها مصلحون ودفعوا سفينة الحياة بعيداً عن عواصف الهلاك ، واعاصير الفتن .. ولعل الآية القرآنية تشير إلى هذه الحقيقة إذ يقول ربنا سبحانه :

---

(٢٨) المصدر .

(٢٩) لعلها كانت داراً يجلس فيها للعامة .

(٣٠) المصدر : ( ص ٢٩٠ ) .

(٣١) المصدر : ( ص ٢٩٤ ) .

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود/١١٦)

ثم يقول ؛

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود/١١٧)

فما دامت حركة الإصلاح قائمة في الأمة . تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وتقاوم باستمرار بؤر الفساد ( الطغاة ، والمترفين ، والاشياع الجهلة ) فان العذاب يتاخر عنها لانها تصبح قوة تردع الأمة عن الانزلاق إلى الهاوية .

ولقد كانت حضارة الأمة الإسلامية في عصر الإمام العسكري قد تكاثرت فيها عوامل الأنهيار ولولا دفاع الإمام وشيعته عن قيم الحق والعدل ، وجهادهم العظيم ضد الترف والبغي والجهل .. ربما كانت الحضارة تتلاشى بصورة كلية .

لقد اوغل الخلفاء وحاشيتهم الفاسدة في الإرهاب والقمع ، وسرقة أموال الأمة . والاسراف في صرفها على لهوهم أو شراء ضمائر الشعراء والتافهين ..

أما ارهابهم وقمعهم للأحرار والمصلحين ، فقد كانت تلك قاعدة الحكم عندهم . مثلاً عندما انتفضت الشام ضد الحكم العباسي في عهد المتوكل بعث إليهم بجيش قوامه ثلاثة آلاف راجل وسبعة آلاف فارس . فدخلوا الشام واباحوا دمشق ثلاثة أيام [٣٢] .

وقد كان من أساليب الخلفاء يومئذ في الاعدام القاء المتهم امام السباع لتاكله . أو القاءهم في تنور ليحترقوا أو ضربهم حتى الموت ، أو ما أشبه من الأساليب الوحشية . وقد انعكس الإرهاب حتى اصبح اسلوباً في فض صراعاتهم الداخلية ، حيث نجد الإنقلابات ، والإغتيالات اصبحت لغة التفاهم بين أبناء الأسرة الحاكمة ..

فهذا المتوكل الطاغية المرهوب يسلط الله عليه ابنه المنتصر . فيتحالف مع بعض قواد جيشه الأتراك. فيثبون عليه ليلاً ، ويقتلونه هو ووزيره الطاغية فتح بن خاقان ، وهما غارقان في اللهو والفجور حتى يقول الشاعر بحقه ؛

| | |
|---|---|
| هكـذا لتكـن منـايـا الكـرام | بيـن نـاي ومـزهـر ومـدام |
| بيـن كـاسيـن اورثـاه جميعـا | كـاس لـذاتـه وكـاس الحمـام |
| لـم يـذل نفسـه رسـول المنـايـا | بصنـوف الأوجـاع والأسقـام [٣٣] |

وبعد المتوكل لم يدم نظام ولده وقاتله المنتصر حيث قيل ان الأتراك الذين ساعدوه في اغتيال والده خشوا الفتك بهم فدسوا إليه السمّ عبر طبيبه المعروف بـ ( ابن طيغور ) الذي رشوه بثلاثين الف دينار

---

(٣٢) حياة الإمام العسكري : ( ص ٢١٧ ) .

(٣٣) المصدر : ( ص ٢٤٢ ) .

ففصده بريشة مسمومة ، فمات من ساعته [34] .

وحكم المستعين الذي خلعه الأتراك وبايعوا المعتز . وكان قد هرب إلى بغداد وجرد جيشاً لمحاربة الأتراك ولكنهم هزموه وجيشه ثم قتلوه ولم يبلغ الثانية والثلاثين من عمره .

اما المعتز الذي كان شديد العداء لآل البيت (ع) وقد ورث من ابيه المتوكل الحقد ضد الأسرة النبوية الشريفة ، فقد أخذ هو الآخر واقيم في الشمس في يوم قائظ واضطر ليخلع نفسه أمام قاضي بغداد ثم قتلوه صبراً .

وبعد المعتز نصب الأتراك المهتدي الذي سار على سنة أجداده في الإرهاب والضغط على أهل البيت (ع) وشيعتهم حتى قال : والله لأجلينّهم عن جديد الأرض ، ولكن الله نفاه إلى جهنم قبل ذلك ، حيث هجم عليه قائد تركي مخمور وضربه على أوداجه ثم أخذ يشرب دمه ، حتى روى منه .

وبعد المعتز بويع المعتمد الذي لم يشذ في شيء من اللهو والفجور والإرهاب والقمع عن الشجرة الملعونة ( بني العباس ) . لقد كانت تلك صورة خاطفة عن طبيعة النظام القائم على الإرهاب خارجياً وداخلياً .

ولقد كانت سيطرة الأتراك الذين جاء بهم العباسيون كمرتزقة لحماية عروشهم ومقاومة غضب العرب من جهة واستئثار الفرس من جهة ثانية فتحولوا مع الزمن ، إلى اكبر مشكلة للحكم العباسي ، حيث تسيس الجيش التركي المرتزق ولعل بعضهم كان يتاثر بتيارات سياسية وثقافية معينة ويؤيدهُ ضد تيار آخر ويقوم – تبعاً لذلك – بانقلاب عسكري ضد الخليفة – ولا نستبعد وجود قيادات مؤيدة للتيار العلوي حسبما تشير إلى ذلك بعض الشواهد التاريخية .

وهناك قانون سياسي مشهور كلما توغل النظام في الإرهاب كلما شجع على اللهو والفجور ليلهي الناس عن الحياة المرة التي يعيشونها . وهكذا فعل العباسيون منذ باكورة عهدهم حيث تشهد بذلك قصص الف ليلة وليلة واخبار قصورهم المليئة باسباب اللهو والدعارة .

وكلما تقدم الزمن وزاد إرهاب العباسيين وعزلتهم عن الجماهير كلما ازدادوا انهماكاً في اللذات حتى إذا بلغ عهد المتوكل بلغ به الخلاعة واللهو الذروة . فكانت مجالسته معروفة حتى قال المؤرخون انه كان يملك خمسة آلاف سرية يقال انه قاربهن جميعاً ، حتى حلف عبد من عبيده انه لو لم يقتل لما عاش طويلاً لكثرة جماعه [35] .

واللهو والترف كان على حساب الجماهير المستضعفة حيث كان النظام يستنزف الناس بزيادة الخراج ( التي هي بمثابة الضرائب اليوم ) وبقمع المعترضين ، وكلما سبب ترف النظام وبذخه افلاس الخزينة ابتدع الولاة اسلوباً جديداً في جمع الأموال من الناس ، وفرض الضرائب الفادحة عليهم .

---

(٣٤) المصدر : ( ص ٢٤٦ )

(٣٥) المصدر : ( ص ٢٣١ ) .

واستاثروا باموال الدولة وكانت اموال المحسوبين تقدر بالملايين . وكان يفرق الخليفة على رؤساء جنده، واقاربه وارحامه ، والشعراء المتزلفين إليه الأموال الطائلة التي تعد بآلاف الألوف .

وكانت عطايا المتوكل على بعض جواريه تعد بخمسين الف . وقد صنعت في عهد المقتدرصورة مجسمة لقرية من فضة وقد كانت كل ما في القرى من اشجار وحيوانات وبيوت ، وقد أنفق عليها اموال طائلة .. ثم هداها الخليفة إلى بعض جواري أمه .

وقد بنى المتوكل قصراً فخماً أنفق عليه مليون وسبعمائة الف دينار فدخل عليه بعض حواشيه (يحيى) وقال : ارجو — يا أمير المؤمنين — ان يشكر الله لك بناء هذا القصر فيوجب لك به الجنة .

تعجب المتوكل من كلام هذا المتزلف التافه . لانه كان يعرف انه سرق اموال الشعب وبنى به هذا القصر واني يرضى الرب بذلك فقال : وكيف ذلك ؟ قال يحيى : لانك شوقت الناس بهذا القصر إلى الجنة ، فيدعوهم ذلك إلى الأعمال الصالحة التي يرجون بها دخول الجنة فسرَّ بذلك المتوكل [٣٦] .

وكان المتوكل قد امر الاّ يدخل في هذا القصر احد إلاّ وهو في ثياب من الديباج والوشي وقد احضر اصحاب الملاهي والمعازف ..

وإلى جانب هذا البذخ كان يعيش عامة الناس اشد البؤس . او ليس قد قال الإمام امير المؤمنين (ع) : " ما رايت نعمة موفورة إلاّ وبجانبها حق مضيع " .

وقد عبر الشعراء المعدمون عن تلك الحياة الصعبة التي كان يعيشها عامة الناس ، احسن تعبير فقال بعضهم وهو يصف حالة نفسه ( التي تعكس حالة مجتمعه ) وكيف ان له صبية أضرَّ بهم الجوع ..

| | |
|---|---|
| و صبية مثل صغار الذر | سود الوجوه كسواد القدر |
| جاء الشتاء وهم بشر | بغير قمص و بغير ازر |
| تراهم بعد صلاة العصر | وبعضهم ملتصق بصدري |
| وبعضهم ملتصق بظهري | وبعضهم منحجر بحجري |
| إذا بكوا عللتهم بالفجر | حتى إذا لاح عمود الفجر |
| ولاحت الشمس خرجت اسري | عنهم وحلّوا باصول الجدر |
| كانهم خنافس في حجر | هذا جميع قصتي وامري |
| فارحم عيالي وتول أمري | فانت انت ثقتي وذخري |
| كنيت نفسي كنية في شعر | انا ابو الفقر ولمّ الفقر [٣٧] |

وكان المعارضون للسلطة يواجهون حصاراً إقتصادياً شديداً . وقد بلغ الأمر بالسلالة العلوية في عهد

---

(٣٦) المصدر : ( ص ١٩٢ ) نقلاً عن عيون التواريخ ٦ / ورقة ١٧٠ مصدر في مكتبة الإمام أمير المؤمنين بالنجف الأشرف .

(٣٧) المصدر : ( ص ١٩٥ ) نقلاً عن طبقات ابن المعتز : ( ص ٣٧٧ ) .

المتوكل ان القميص الواحد كان مشتركاً بين العلويات تصلي فيه الواحدة بعد الأخرى [٣٨] .

وبسبب هذا الوضع الإجتماعي البائس اندلعت ثورات إجتماعية ابرزها – في عصر الإمام العسكري – ثورة يحيى بن عمر الطالبي التي اندلعت في الكوفة فاستولى يحيى عليها وأخرج من كان في سجونها ، ولكنها قمعت من قبل العسكر العباسي . وقتل قائدها وكان يوماً عظيماً في تاريخ الحركة الرسالية . إن كانت تلك المصيبة حلقة في سلسلة المصائب التي تواردت على آل النبي (ص) وقد رثاه بعض الشعراء بابيات منها :

| | |
|---|---|
| بكت الخيل شجوها | و بكاه المهند المصقول |
| وبكاه العراق شرقاً وغرباً | و بكاه الكتاب والتنزيل |
| والمصلي والبيت والحـ | ـجر جميعا عليه عويل |
| كيف لم تسقط السماء علينا | يوم قالوا ابو الحسين قتيل [٣٩] |

وثورة الزنج التي قادها علي بن عبد الرحيم من بني عبد القيس وقد ادعى انه علوي إلاّ ان المؤرخين يشكون في ذلك وقد صدر عن الإمام العسكري بيان ينفي كونه منهم أهل البيت .

ولا ريب انها من اعظم الثورات في ذلك العصر . حيث اتبعها المحرومون والفقراء ، وقد استنفذت طاقات الخلافة العباسية ردحاً من الزمن .

وقد أثرت هذه الطريقة الشاذة التي اتبعها السلاطين في إدارة البلاد باسم الخلافة الإسلامية اثرت تاثيراً سلبياً على الثقافة الدينية للأمة ؛ فاستغل المتاثرون بالفلسفة اليونانية هذا الوضع ، وحاولوا تشكيك الناس بحقائق دينهم وكان بينهم الفيلسوف المعروف " إسحاق الكندي " حيث اخذ في تاليف كتاب يظن انه يرد على القرآن الكريم ويبين تناقضاته ( على طريقة الفلاسفة في الرد على بعضهم عبر بيان تهافت افكارهم ) فلما انتهى الخبر إلى الإمام العسكري طلب بعض تلامذة الكندي وقال له : اما فيكم رجل رشيد يردع استاذكم الكندي عما اخذ فيه من تشاغله بالقرآن ؟

فلما سأله الرجل عن كيفية ذلك قال له الإمام (ع) : " أتؤدي إليه ما ألقيه إليك " ؟

قال : نعم قال :

" صر إليه ، وتلطف في مؤانسته ، ومعونته على ما هو بسبيله فإذا وقعت الأنسة فقل : قد حضرتني مسالة اسالك عنها ، فانك تستدعي ذلك منك ، فقل له .. ان اتاك هذا المتكلم بهذا القرآن ، هل يجوز ان يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها انك ذهبت إليها ، فانه سيقول لك انه من الجائز لانه رجل يفهم إذا سمع ؛ فإذا أوجب ذلك فقل له : فما يدريك لعله أراد غير هذا الذي ذهبت أنت إليه ، فيكون واضعاً لغير معانيه " .

---

(٣٨) المصدر : ( ص ٢٣٤ ) نقلاً عن مقاتل الطالبيين .

(٣٩) المصدر . ( ص ٢١٦ ) عن ابن الأثير : ( ح٥ ، ص ٣١٤ – ٣١٦ ) .

فذهب الرجل إليه . وصنع مثلما أمره الإمام فوقع الكلام في قلبه موقعه لانه — كما أشار الإمام — كان رجلاً ذكياً فهماً . وعرف ان الإحتمال — مجرد الإحتمال — يبطل الإستدلال — كما يقول الفلاسفة — وان هذا الكلام لو انتشر في تلامذته لم يصدقه أحد في كتابه فيكون قد حكم على نفسه بالسفه إذا هو أصر في تاليف الكتاب فارتدع عنه ولكنه سال من الرجل وقال له :

اقسمت عليك الا ما اخبرتني من اين لك هذا ؟ قال الرجل : انه شيء عرض بقلبي فاوردته عليك قال الكندي : كلا ما مثلك من يهتدي إلى هذا ، قال الرجل : امرني به الامام ابو محمد .. فقال الكندي : وما كان ليخرج مثل هذا إلاّ من ذلك البيت .. وعمد إلى كتابه فاتلفه [٤٠] .

وهكذا انقذ الإمام دين جده المصطفى (ع) من كتاب شبهة وضلالة — ولعل — هذا التلميذ كان من شيعة الإمام الذي تسلل إلى جهاز الكندي . إذ من المناسب جداً استخدام هذه الأساليب من قبل القيادات الرسالية لمقاومة التيارات المنحرفة !

وكم من المبادرات الشجاعة قامت بها القيادة الرسالية لصد هجمات الأعداء الفكرية وظلت في طي الكتمان لطبيعتها السرية — مثل هذه المبادرة — او لضياع المصادر والمراجع التاريخية .

ومثل هذه المبادرة قصة الإمام (ع) مع الراهب الدجال الذي كاد يفسد على ضعفاء النفوس دينهم ، والتي سبق الحديث عنها .

---

(٤٠) المصدر : ( ص ٢٢٠ - ٢٢١ ) نقلاً عن المناقب : ( ج ٤ ، ص ٤٢٤ ) .

## الفصل الثالث

# شهادتـه الاليمـة

كان يوم الثامن من ربيع الأول ، لعام ٢٦٠ هجرية يوماً كئيباً في مدينة سامراء حيث انتشر نبا استشهاد الإمام العسكري في عنفوان شبابه .

عطلت الأسواق وهرع الناس إلى دار الإمام يبكون وشبَّه المؤرخون ذلك اليوم الحزين بيوم القيامة ، لماذا ؟ لان الجماهير المحرومة التي كانت تكتم حبها واحترامها للإمام العظيم خشية بطش النظام .. أطلقت اليوم العنان لعواطفها الجياشة .

آه كم عانى أهل بيت النبوة في سبيل ترسيخ دعائم الدين ونشر قيم التوحيد .

كم سفكت دماءهم ، وهتكت حرماتهم ولم ترع حقوقهم وقرابتهم من رسول الله (ص) .

حقاً كم هي عظيمة محنة أولياء الله على مر العصور .. وكم هو عظم مقامهم عند ربهم وأجرهم !

وهذا الإمام العظيم الذي يرحل عن دنياهم ، ولم يتجاوز عمره السادسة والعشرين . كم كابد من الوان المحن ، منذ عهد المتوكل الطاغوت التافه الذي ناصب اهل بيت الرسالة – العداء – وهدم قبر ابي عبد الله الحسين (ع) .. وإلى عهد المستعين بالله الذي حبس الإمام عند واحد من اشد رجاله عداوة لآل البيت .. ( اوتاش الذي اهتدى بالإمام بعد ان رأى منه الكرامات ) . وكاد ان يقتل الإمام لولا ان الله لم يمهله فخلع عن السلطة .

وإلى عهد المعتز الذي عمد على سجن الإمام فتضرع الإمام إلى الله حتى هلك .

وحتى عهد المهتدي الذي ظل يضايق الإمام حتى اعتقله واراد قتله ولكن الإمام اخبر واحداً من أصحابه واسمه ابو هاشم بما يلي ؛

يا ابا هاشم ان هذا الطاغية اراد قتلي في هذه الليلة . وقد بتر الله عمره ، ليس لي ولد وسيرزقني الله ولداً[41] .

واخيراً في عهد المعتمد الذي لم يزل يؤذيه حتى اعتقله .

بلى عاش الإمام اكثر ايام قيادته في محن وها هو يقضي نحبه . هل مات حتف انفه . أم دسَّ إليه السم ؟

---

(٤١) المصدر . ( ص ٢٥٤ ) نقلاً عن مهج الدعوات : ( ص ٢٧٤ ) .

لقد كان السم من اشهر وسائل الإغتيال عند السلاطين في ذلك العهد . وكانت خشيتهم من أمثال الإمام من القيادات الدينية المحبوبة تدفعهم إلى تصفيتهم بمثل هذه الطريقة .

ويزيدنا دلالة على ذلك طريقة تعامل النظام مع الإمام في مرضه حيث أوعز الخليفة إلى خمسة من ثقاته بملازمة الإمام في مرضه ، وجمع له بعض الأطباء ليرافقوه ليل نهار [٤٢] .

لماذا ؟ يبدو ان هناك سببين لمثل هذا التصرف الغريب :

أولاً : محاولة التنصل عن مسؤولية اغتيال الإمام ، أمام الجماهير . وحسب المثل المعروف عن السياسيين : اقتله وابك تحت جنازته .

ثانياً : كان معروفاً عند كل الناس وبالذات عند الساسة ، ان أئمة اهل البيت يحظون باحترام اوسع الجماهير وان الشيعة يعتقدون بان الإمامة تنتقل فيهم كابراً عن كابر . وها هو الإمام الحادي عشر يكاد يرحل عنهم إذاً لابد ان يكون هناك وصي له فمن هو هذا الوصي ؟ كان الخلفاء العباسيون يحاولون دائماً معرفة الوصي عند شهادة واحد من الأئمة . وكان الأئمة يخفون اوصيائهم عند الخوف عليهم حتى يزول الخطر .

ومن جهة اخرى كانت احاديث المهدي المنتظر سلام الله عليه قد ملأت الخافقين وكان العلماء يعرفون انه الوصي الثاني عشر . ومن غير المعقول الا يعرف سلاطين بني العباس شيئاً من تلك الاحاديث . لذلك تراهم يبحثون عن المنتظر بكل وسيلة لعلهم يقدرون على اطفاء نوره الإلهي .. ولكن هيهات .

من هنا اتخذ المعتمد العباسي تدابير استثنائية عندما ثقل حال الإمام واشرف على الرحيل .

اما بعد وفاته فقد أمر بتفتيش داره ، ومراقبة جواريه ، ولم يكن يعرف ان الله بالغ امره وان الإمام المنتظر قد ولد قبل أكثر من خمس سنوات وانه قد أخفي عن عيون النظام . وان صفوة الشيعة قد بايعوه .

وهكذا رحل الإمام بسم المعتمد [٤٣] وبعد وفاته وغسله وتكفينه صلى عليه من طرف السلطة ابو عيسى ابن المتوكل نيابة عن الخليفة وبعد الفراغ كشف وجه الإمام وعرض على الهاشميين والعلويين – بالذات – وكبار المسؤولين ، والقضاة والأطباء وقال هذا الحسن بن ( علي ) بن محمد بن الرضا مات حتف انفه على فراشه ، وحضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان ، ومن القضاة فلان وفلان ، ومن المتطببين فلان وفلان ، ثم غطى وجهه الشريف [٤٤] .

وهذا الاجراء جاء لنفي تورط السلطة في قتل الإمام . مما يدل على انها كانت متهمة من قبل الناس بذلك .

---

(٤٢) المصدر : ( ص ٢٦٧ ) عن الإرشاد : ( ص ٣٨٣ ) .

(٤٣) المصدر : ( ص ٢٦٧ ) عن الارشاد : ( ص ٣٨٣ ) .

(٤٤) المصدر : ( ص ٢٦٨ ) نقلا عن الإرشاد : ( ص ٣٨٣ ) .

هكذا رحل الإمام . وخلف وراءه مسيرة وضاءة ليهتدي بنورها الأجيال .. ودفن في مقامه الشريف في مدينة سامراء عند قبر والده حيث لا يزال المسلمون يتوافدون للسلام عليه .

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً ..

وسلام الله على شيعته واتباعه إلى يوم القيامة .

## الوصية الأخيرة :

كانت شمس الإمامة تميل إلى المغيب – حيث قدّر الله ان تشع هذه الشمس من وراء حجاب الغيبة الصغرى ثم الكبرى . لذلك قام الإمام الحسن العسكري سلام الله عليه بدورين هامين :

أولاً : التاكيد على بصيرة الغيبة وأخذ البيعة لولي الله الأعظم الإمام المنتظر عجل الله فرجه .

ثانياً : ترسيخ قواعد المرجعية الدينية .

## ألف : البيعة للمنتظر :

تظافرت الأحاديث حول الإمام الحجة المنتظر سلام الله عليه ، التي صدرت عن النبي وعن ائمة الهدى جميعاً .. الا ان تاكيد الإمام العسكري (ع) على هذا الأمر كان ذا اثر ابلغ لأنه قد حدد شخص الإمام لخواص اصحابه وهناك روايات عديدة في ذلك نكتفي بذكر واحدة منها .

روى الثقة احمد بن إسحاق بن سعيد الأشعري ، قال : دخلت على ابي محمّد الحسن بن عليّ (ع) ، وانا اريد ان اساله عن الخلف من بعده ، فقال لي مبتدئاً :

" يا احمد بن إسحاق إنّ الله تبارك وتعالى لم يخل الأرض منذ خلق آدم ، ولا يخليها إلى ان تقوم الساعة من حجة الله على خلقه ، به يرفع البلاء عن أهل الأرض ، وبه ينزل الغيث ، وبه يخرج بركات الأرض " .

فقلت له : يابن رسول الله : فمن الإمام والخليفة بعدك ؟

فنهض مسرعاً فدخل البيت ، ثم خرج وعلى عاتقه غلام كأنّ وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين فقال :

" يا احمد لولا كرامتك على الله – عزّ وجلّ – وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا إنّه سميّ باسم رسول الله وكنيته الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، يا احمد مثله في هذه الأمة مثل الخضر ، ومثل ذي القرنين ، والله ليغيبنّ غيبةً لا ينجو من الهلكة فيها إلاّ من ثبّته الله على القول بإمامته ، ووفقه فيها للدعاء بتعجيل فرجه "[45] .

## باء : المرجعية الرشيدة :

وكان لابد لهذه الإمامة التي كانت امتداد للرسالة الإلهية ، كيان إجتماعي على الأرض وهم الشيعة المخلصون ، وكان لابد لهؤلاء من نظام إجتماعي راسخ قادر على مواجهة التحديات ، وقد تمثل في

---

(٤٥) المصدر ( ص ٣٦٣ ) .

القيادة المرجعية ، التي تعني تمحور الطائفة حول العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه . لذلك ترّسخ في عهد الإمام العسكري نظام المرجعية حيث تعاظم دور علماء الشيعة باعتبارهم وكلاء ونواب وسفراء عن الإمام المعصوم (ع) وانتشرت روايات عن الإمام العسكري في دور علماء الدين منها تلك الرواية المعروفة التي نقلت عن الإمام العسكري عن جده الإمام الصادق (ع) . والتي جاء فيها :

" من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام ان يقلدوه " .

وهكذا طفق العلماء المهتدون بضياء أهل البيت (ع) بالتصدي لشؤون الطائفة في عصر الإمام (ع) . وكانوا يراسلون الإمام فيما تأتيهم من مسائل غامضة فيأتيهم الجواب المختوم بتوقيعه مما سمي عندهم بالتواقيع ، وقد اشتهرت جملة منها عن الإمام العسكري (ع) .

وفيما يلي نذكر أسماء طائفة من أصحاب الإمام والرواة عنه والذين كان بعضهم في مركز قيادة الطائفة حسبما يتبين من التاريخ .

١ — إبراهيم بن أبي حفص الذي قال عنه النجاشي ، انه شيخ من أصحاب أبي محمد العسكري (ع) وأضاف في تعريفه ، ثقة وجه له كتاب الردّ على الغالية وأبي الخطاب [٤٦] ..

ويبدو من كلمته انه وجه وانه كان شخصية معروفة عند ابناء الطائفة او عند الناس جميعاً .

٢ — أحمد بن إدريس القمي قال عنه النجاشي ، كان ثقة فقيهاً في أصحابنا كثير الحديث صحيح الرواية [٤٧] ..

٣ — أحمد بن إسحاق الأشعري — كان وافد القميين وكان من خواص الإمام العسكري (ع) .

وقد روى كتباً عن اهل البيت (ع) وقال عنه الشيخ ، انه ممن رأى الإمام صاحب الزمان (ع) [٤٨] .

٤ — الحسن بن شكيب المروزي كان عالماً متكلماً ومصنفاً للكتب وكان يسكن سمرقند وقد عدهُ الشيخ الطوسي في أصحاب الإمام العسكري (ع) [٤٩] .

٥ — الحسن بن موسى الخشاب ، الذي يقول عنه النجاشي ، انه من وجوه أصحابنا ، مشهور ، كثير العلم والحديث ، له مصنفات منها ، كتاب " الرد على الواقفة " وكتاب " النوادر " [٥٠] .

٦ — حفص بن عمرو العمري الذي عدّه الشيخ من أصحاب الإمام أبي محمد (ع) وقد خرج من الإمام بشأنه توقيع جاء فيه ،

" فلا تخرجن من البلد حتى تلقى العمري ، رضي الله عنه برضائي عنه فتسلم عليه ، وتعرفه ويعرفك ،

---

(٤٦) حياة الإمام الحسن العسكري لمؤلفه الأستاذ باقر شريف القرشي : ( ص ١٣١ ) .

(٤٧) المصدر : ( ص ١٣٥ ) .

(٤٨) المصدر : ( ص ١٣٦ ) .

(٤٩) المصدر : ( ص ١٤١ ) .

(٥٠) المصدر : ( ص ١٤٢ ) .

فانه الطاهر الأمين ، العفيف القريب منا وإلينا ، فكل ما يحمله إلينا من شيء من النواحي فإليه يصير آخر أمره ، ليوصل ذلك إلينا "[51] .

وهذا التوقيع يدل على منهجية الإمام (ع) في تكريس القيادات الصالحة في الطائفة ، لتكون المرجع ، لشؤونها في عصرهم ، وليصير سنة حسنة في العصور التالية .

٧ — حمدان بن سليمان : أبو سعيد النيشابوري ، عده الشيخ من أصحاب الإمام العسكري وكان ثقة من وجوه الشيعة[52] .

٨ — سعد بن عبد الله القمي حيث عاصر الإمام العسكري (ع) بالرغم من ان الشيخ الطوسي قال عنه، لم أعلم انه قد روى عنه ، وقال النجاشي عنه ، انه شيخ هذه الطائفة وفقيهها وحجتها وقد صنّف كتباً كثيرة ، وسافر في طلب الحديث . وسمعه من أئمته من مختلف المذاهب[53] .

٩ — السيد عبد العظيم الحسني الذي ينتهي نسبه إلى الإمام المجتبى (ع) . وكان عالماً فقيهاً زاهداً، معارضاً للسلطات الطاغية ، وكان الأئمة يامرون شيعتهم بالرجوع إليه . فقد روى أبو حماد الرازي وقال ، دخلت على علي بن محمد ( الإمام الهادي عليه السلام ) بسر من رأى ، فسالته عن أشياء من الحلال والحرام فاجابني فيها ، ولما ودعته قال لي :

" يا حماد إذا اشكل عليك شيء من أمر دينك بناحيتك ، فسل عنه عبد العظيم بن عبد الله الحسني واقراه مني السلام "[54] .

وقد اشتهر بين الشيعة في منطقة ( الري ) بالرغم من اختفاءه وسرية أعماله حتى إذا مات ، دفن في بستان هناك ، وأصبح قبره مزاراً للطائفة حتى اليوم .

١٠ — عبد الله بن جعفر الحميري الذي كان شيخ القميين ووجههم وقد الف كتباً كثيرة في حقول شتى وقد قدم الكوفة زهاء عام التسعين بعد المائتين فسمع أهلها منه حديثاً كثيراً[55] .

١١ — علي بن جعفر الهماني الذي كان — حسب البرقي — فاضلاً مرضياً من وكلاء الإمامين الهادي والعسكري (ع) ، وقد روى الكشي فيه حديثاً طريفاً . جاء فيه : انه حبس في عهد المتوكل العباسي لصلته بالإمام الهادي فلما طال حبسه وعد أحد أمراء العباسيين ( واسمه عبد الله بن خاقان ) بثلاثة الاف دينار ليكلم المتوكل فيه فلما كلمه قال : يا عبد الله لو شككت فيك لقلت انك رافضي وأضاف : هذا وكيل فلان (يعني الإمام الهادي عليه السلام) وانا عازم على قتله فلما بلغ الهماني هذا الخبر كتب إلى أبي

---

(٥١) المصدر : ( ص ١٤٤ ) .

(٥٢) المصدر .

(٥٣) المصدر : ( ص ١٤٨ )

(٥٤) المصدر : ( ص ١٥٠ )

(٥٥) المصدر : ( ص ١٥١ ) .

الحسن (ع) " يا سيدي الله الله فيَّ فقد – والله – خفت ان ارتاب ، فوقع في رقعة ؛

اما إذا بلغ بك الأمر ما ارى فساقصد الله فيك .

وكان هذا في ليلة الجمعة فاصبح المتوكل محموماً فازدادت عليه حتى صرخ عليه يوم الأثنين . فامر بتخلية كل محبوس عرض عليه إسمه حتى ذكر له علي بن جعفر ( الهماني ) فقال لعبد الله ( بن الخاقان ) لِمَ لَمْ تعرض علي امره ؟ فقال ، لا اعود إلى ذكره ابداً قال ، خل سبيله الساعة وسله ان يجعلني في حل فخلى سبيله وصار إلى مكة بامر ابي الحسن (ع) فجاور بها [٥٦] .

وقد وقع خلاف بين علي بن جعفر وبين شخص كان ينافسه في زعامة الشيعة إسمه فارس . فكتب بعضهم إلى الإمام العسكري يساله عنهما فجاء الكتاب بتوثيق علي بن جعفر وكان ضمن الكتاب ؛

قد عظّم الله قدر علي بن جعفر . متعنا الله تعالى به واضاف ، فاقصد علي بن جعفر بحوائجك . واخشوا فارساً وامتنعوا في ادخاله في شيء من اموركم [٥٧] .

ومن هذا التوقيع يتبين كيف كان الائمة (ع) يديرون شؤون الطائفة من خلال وكلائهم ، ويكرسون المرجعية الدينية في اوساطهم .

١٢ – محمد بن الحسن الصفار الذي كان وجهاً من وجوه الشيعة في قم وكان ثقة عظيم القدر وقد الف عشرات الكتب حفظ فيها احاديث اهل البيت (ع) في مختلف الحقول . وقد كانت له مراسلات مع الإمام العسكري (ع) [٥٨] .

١٣ – الفضل بن شاذان الذي كان من اكثر الشيعة انتاجاً ، وقالوا ان بعض مؤلفاته قد حظيت برضا الإمام العسكري (ع) وانه كتب فيه ، هذا صحيح ينبغي ان يعمل به . وقالوا ، ان الإمام (ع) نظر في بعض مؤلفاته وقال ؛

" اغبط اهل خراسان بمكان الفضل بن شاذان وكونه بين اظهرهم " [٥٩] .

١٤ – عثمان بن سعيد العمري الذي كان من اعمدة النظام المرجعي في عهد الإمام العسكري (ع) وقد اشار الائمة بمقامه . وكان عظيم الشان عند الطائفة وقد كان الإمام الهادي (ع) يرجع الطائفة إليه . حسبما جاء في رواية أحمد بن إسحاق القمي قال ؛

دخلت على ابي الحسن علي بن محمد صلوات الله عليه في يوم من الأيام فقلت يا سيدي اين اغيب واشهد ، ولا يتهيا لي للوصول إليك إذا شهدت في كل وقت فقول من نقبل ، وامر من نمتثل ؟ فقال لي صلوات الله عليه ؛

---

(٥٦) المصدر : ( ص ١٥٦ ) .

(٥٧) المصدر : ( ص ١٥٧ ) .

(٥٨) المصدر : ( ص ١٦٥ ) .

(٥٩) المصدر : ( ص ١٦١ ) .

" هذا أبو عمرو الثقة الأمين ، ما قاله لكم فعني يقوله . وما اداه إليكم فعني يؤديه " .

فلما مضى أبو الحسن (ع) ، وصلت إلى أبي محمد ابنه الحسن العسكري (ع) ذات يوم ، فقلت مثل قولي لأبيه ، فقال لي :

" هذا أبو عمرو الثقة الأمين ، ثقة الماضي وثقتي في المحيا والممات ، فما قاله لكم فعني يقوله ن وما ادى إليكم فعني يؤديه "[٦٠] .

وبعد الإمام العسكري تولى عثمان بن سعيد مقام النيابه عن سيدنا ومولانا الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه مده خمسين سنة حيث كان جسراً بين الطائفة وبين الإمام الغائب (ع) .

١٥ — علي بن بلال الذي كان من وجوه الشيعة في الواسط ( فيما يبدو ) وقد اعتمده الأئمة (ع) في رسائلهم . وقد جاء في بعض الرسائل الواردة إليه من الإمام العسكري (ع) : " وقد اعلم انك شيخ ناحيتك ، فاحببت افرادك واكرامك بالكتاب بذلك " .

وجاء في رسالة منه موجهة إلى إسحاق ( احد اصحابه ) :

" يا إسحاق اقرا كتابنا على البلالي رضي الله عنه فانه الثقة المامون العارف بما يجب عليه "[٦١] .

١٦ — العمري ، نجل عثمان بن سعيد الذي كان — كما والده — من اعمدة النظام المرجعي الذي اقامه ائمة الهدى (ع) في الطائفة حيث جعلوه معتمداً من قبلهم في شؤون الشيعة وقد سال احمد بن إسحاق الإمام العسكري ، وقال : من اعامل ، او عمَّن آخذ ؟ وقول من اقبل ؟ فقال (ع) :

" العمري — عثمان بن سعيد ، وابنه — يعني محمد — ثقتان فما اديا إليك فعني يؤديان "[٦٢] .

وورد التوقيع من لدن الإمام الحجة المنتظر (ع) عند وفاة والده جاء فيه :

" اجزل الله لك الثواب ، واحسن إليك العزاء ، رزيت ورزينا ، واوحشك فراقه واوحشنا ، فسرّه الله في منقلبه ، كان من كمال سعادته ، ان رزقه الله ولداً مثلك يخلفه من بعده ويقوم مقامه بامره ويترحم عليه "[٦٣] .

هؤلاء هم بعض وكلاء الإمام ونوابه والذين بهم ترسخت اعمدة النظام المرجعي في الأمة . ذلك النظام الذي يعتبر منهجاً في التحرك السياسي ، وسبيلاً قويماً للدعوة إلى الله ، وتنظيماً رسالياً للمجتمع . كما انه يصلح ان يكون نظاماً سياسياً للأمة إذا عاد الحكم إلى اهله .

وينبعث النظام المرجعي ، كما نظام الإمامة من صميم الدين ، إذ انه تنظيم بعيد عن الطائفية والعشائرية . كما هو بعيد عن الروح الحزبية والفئوية . ولا تزال الطائفة الشيعية تعيش في ظل هذا

---

(٦٠) المصدر : ( ص ١٥٣ ) .

(٦١) المصدر : ( ص ١٥٥ ) .

(٦٢) المصدر : ( ص ١٦٨ ) .

(٦٣) المصدر .

التنظيم الرسالي منذ عهد الأئمة الأطهار (ع) وتتمتع بكفائته العالية ، بالرغم من ان تخلف الأمة قد سبَّب قدراً من التوقف فيه ، وعدم التسارع إلى التطور في بعض جوانبه .. .

ولان عهد الإمام العسكري قد تميَّز بتكريس هذه القيادة للطائفة ، ولان هذه القيادة لا تزال حتى اليوم تتصدى لشؤون الطائفة الدنيوية والأخروية ، فمن المناسب ان نتحدث قليلاً عن واقع المرجعية وأبعادها بكلمات :

أولاً : لأن المرجعية نظام إلهي وتكمن قوة تنفيذ أوامرها من فطرة الإنسان ، ووجدانه وروح التقوى في ذاته . فان هذا النظام يكون منسجماً مع سائر الأحكام الشرعية التي تنفذ هي الأخرى بروح التقوى .

ان السياسة في الإسلام — كما المجتمع والشؤون الشخصية — محراب عبادة . ومعراج المؤمن إلى الله . فمن اجل الله يطيع المؤمن ولي امره وفي سبيل الله ينبعث إلى القتال ضد اعداءه وابتغاءً لمرضاة الله ينضوي تحت راية الحركة الدينية وتنفيذ اوامرها . واتباعاً لأمر الله تراه يخالف الطاغوت .. ويتمرد ضد سلطة ظالمة ، ويبني كياناً سياسياً بديلاً . .

ومن هنا فان كلمة التقوى وليست حمية الجاهلية وعصبيتها الضيقة ، تضحى محور المجتمع الإسلامي ، وقاعدة انطلاقه ، وآصرة الشد بين اركانه .. هكذا نقرأ في كتاب ربنا سبحانه :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (الفتح/٢٦)

وفرق كبير بين حمية الجاهلية وكلمة التقوى — إن الحمية التي يسميها ابن خلدون العصبية ويجعلها سبباً للملك ومحوراً للمدينة — انها ، تنبعث من قيم مادية ، وتبعث إلى الصراع والتناحر ، ولا تتناسب والأحكام الإلهية ذات القيم الإنسانية النقية عن شوائب الشرك والحقد والتحزب .

من هنا قال ربنا سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء/٥٩)

وهكذا تصبح طاعة اولي الأمر ، امتداداً لطاعة الله والرسول ، بل تصبح تجسداً لهما ، ووسيلة إليهما . فانى يمكن طاعة الله ورسوله من دون طاعة تلك القيادة التي امر الله بها !

ثانيا : لان اساس بناء المرجعية ، التقوى ، لا الحمية ، فإنَّ هذا الكيان يتجاوز الأرض والدم واللغة ، وسائر الفوارق المادية التي تفصل بين الناس ، ويُنشأ المجتمع الإسلامي النقي ، الذي يقوم على أساس طاعة الإمام الحق ( ولي امر المسلمين ) ويكون جسراً بين سائر الأمم . ووسيلة لتقاربهم ، ومحوراً لتجميعهم ، وبالتالي يُصبح المؤمنون بالشريعة ، فوق حواجز العرق والإقليم والمصلحة . شاهدين على الناس بالحق . قوّامين بينهم بالقسط ، كما قال ربنا سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة/١٤٣)

ان الحظيرة القُدسية التي تدعونا إليها رسالات السماء ، تجمع الأسود والأبيض ، الفقير والغني ، العرب

والعجم ، البعيد والقريب ، تجمعهم تحت ظل التوحيد ، وفي منزل صدق ، وعلى مائدة الرحمن ، وما المرجعية الرشيدة إلاّ اطاراً لهذا الجمع المبارك والوفد الميمون !

وإذا كانت رسالات الله عبر العصور تبشر البشر بمملكة الله في الأرض ، حيث يسود الحب والعدل والاحسان . فان التجمع المرجعي الحق صورة لتلك المملكة الموعودة . ترعاها عناية الرب سبحانه .

ثالثاً : ولأن محور التجمع في ظل المرجعية الرشيدة هو التقوى التي قال عنها ربنا سبحانه :

﴿ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّـهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحُجُرات/١٣)

لذلك ، فان الكفاءة والامامة هما الوسيلة الوحيدة لصعود الأفراد . لا الغنى والنسب والعرق والمحسوبيات ..

وهكذا تصبح الكفاءة والأمانة قصب السبق الذي يتنافس عليهما ابناء المجتمع فتعلو بذلك هممهم وتطلعاتهم ويحلق المجتمع عالياً في سماء المجد والعظمة . لان الكفاءة والأمانة هما كجناحي طائر لأي مجتمع متقدم يخفقان بالسعادة والفلاح .

## وكلمة أخيرة :

أن الله سبحانه قد اتم حجته البالغة على عباده بهذه المرجعية الرشيدة ولكنه لم يكرههم عليها ، كما لم يكرههم على سائر المبادىء والأحكام . والناس يسعدون بقدر قربهم من هذا النموذج الأسمى . اما إذا ابتعدوا عنه فقد تمت الحجة عليهم !

الفصل الرابع

# كلمات من نور

كلمات النبي وأهل بيته تجليات تنعكس من أنفسهم الزاكية بعد ان تشرق عليها شمس القرآن الكريم . فهي نور من نور الله ، وهدى من هدى الله . تطمئن إليه النفوس المضطربة .. وتستروح على شواطئها الآمنة ، سفن المساكين بعد رحلة مضنية في امواج الشك والتردد ، وفيما يلي نقرا معاً كلمات النور التي خلّدها التاريخ من اقوال الإمام (ع) .

١ – في وصيته الرشيدة إلى شيعته يحدد الإمام العسكري (ع) المنهج الذي ينبغي عليهم ان يتبعوه في تلك الظروف الصعبة .

يقول الإمام :

" اوصيكم بتقوى الله ، والورع في دينكم ، والإجتهاد لله وصدق الحديث ، واداء الأمانة إلى من ائتمنكم من برّ او فاجر ، وطول السجود ، وحسن الجوار ، فبهذا جاء محمد (ص) صلّوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم[٦٤] وادّوا حقوقهم فان الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق في حديثه وادّى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل ، هذا شيعي فيسرّني ذلك . اتقوا الله وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً ، جرّوا إلينا كل مودة ، وادفعوا عنا كل قبيح ، فانه ما قيل من حسن فنحن اهله ، وما قيل من سوء فما نحن كذلك . لنا حق في كتاب الله ، وقرابة من رسول الله ، وتطهير من الله لا يدعيه احد غيرنا إلاّ كذّاب . اكثروا ذكر الله وذكر الموت وتلاوة القرآن والصلاة على النبي (ص) فان الصلاة على رسول الله عشر حسنات . احفظوا ما وصيّتكم به ، واستودعكم الله ، واقرا عليكم السلام "[٦٥] .

٢ – ايمان الناس بالقيادة الشاهدة ، عليهم الحاضرة بينهم ، اشدّ صعوبةً على انفسهم ، من ايمانهم بمن مضى من بينهم ، لانهم إذا آمنوا بالإمام الشاهد الحاضر ، تطلب منهم اتباعه وطاعته والتسليم لأمره وما أصعب الطاعة ، والتسليم ، وبالذات إذا اختلفت الرؤى وتناقضت المصالح ، ومن هنا كثرت حالات الوقف عند كثير من ابناء الطائفة كلما مضى إمام ، وقام إمام مقامه ، وكثير ما كان الوقف من قبل الوكلاء الذين تجمعت عندهم اموال الحقوق ، ولعب باهوائهم ريح الرئاسة وشهوة السلطة .

وقد لحق الإمام العسكري الكثير من الأذى بسبب هؤلاء ، وربما اكثر من الماضين من ائمة الهدى ،

---

(٦٤) المصدر : ( ص ٣٧٢ ) .

(٦٥) المصدر : ( ص ٣٧٢ ) .

كما يظهر من حديث روي عنه يقول فيه :

" ما مُنيَ أحد من آبائي بمثل ما منيت به من شك هذه العصابة فيَّ " .

ولعل مرد هذا الشك ، كان الشك في استمرار الامامة ، لذلك قال الإمام في رد هذا الشك :

" فان كان هذا الأمر أمراً اعتقدتموه ودنتم به إلى وقت ( يبدو انه كان يعني أمر الامامة ) ثم ينقطع ، فللشك موضع ، وان كان متصلاً ما اتصلت أمور الله ، فما معنى هذا الشك "[٦٦] .

وفي كتاب كريم يرسله الإمام إلى واحد من أصحابه الثقاة ، والذي كانت بينه وبين الإمام مراسلات كثيرة ، واسمه إسحاق بن إسماعيل النيسابوري ، نقرأ احتجاج الإمام على الأمامة ، ومدى اهميتها ، تعالوا نتأمل في هذه الرسالة .

" سترنا الله وإياك بستره وتولاّك في جميع امورك بصنعه ، فهمت كتابك برحمك الله ونحن بحمد الله ونعمته ، أهل بيت نرق ً على أوليائنا ونسرُّ بتتابع احسان الله إليهم وفضله لديهم ، ونعتدُّ بكل نعمة ينعمها الله تبارك وتعالى عليهم ، فاتم الله عليك يا إسحاق وعلى من كان مثلك – ممن قد رحمه الله وبصّره بصيرتك – نعمته . وقدر تمام نعمته ، دخول الجنة . وليس من نعمة ، وان جل امرها وعظم خطرها ، الا والحمد لله تقدّست اسماؤه عليها ، مؤدٍ شكرها ، وانا أقول : الحمد لله افضل ما حمده حامد إلى ابد الأبد بما منّ الله عليك من رحمته ونجّاك من الهلكة ، وسهّل سبيلك على العقبة . وأيم الله انها لعقبة كؤود ، شديد أمرها ، صعب مسلكها ، عظيم بلاؤها ، قديم في الزّبر الأولى ذكرها . ولقد كانت منكم في أيام الماضي (ع) إلى ان مضى لسبيله وفي أيامي هذه ، أمور كنتم فيها عندي غير محمودي الراي ولا مسدّدي التوفيق .

فاعلم يقيناً يا إسحاق انه من خرج من هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى واضل سبيلاً .

يا إسحاق ليس تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، وذلك قول الله في محكم كتابه حكاية عن الظالم إذ يقول : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (طه/١٢٥-١٢٦) . واي آية اعظم من حجة الله على خلقه وأمينه في بلاده وشهيده على عباده من بعد من سلف من آبائه الأولين النبيين وآبائه الآخرين الوصيين ( عليهم أجمعين السلام ورحمة الله وبركاته ) . فاين يتاه بكم واين تذهبون كالانعام على وجوهكم ، عن الحق تصدفون ، وبالباطل تؤمنون ، وبنعمة الله تكفرون ، أو تكونون ممن يؤمن ببعض الكتاب ، ويكفر ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم ومن غيركم إلاّ خزي في الحياة الدنيا وطول عذاب في الآخرة الباقية ، وذلك والله الخزي العظيم . ان الله بمنّه ورحمته لما فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليكم بل رحمة منه – لا إله إلاّ هو – عليكم ليميز الخبيث من الطيب وليبتلي ما في صدوركم وليمحّص ما في

---

(٦٦) بحار الأنوار : ( ج ٧٥ ، ص ٣٧٢ ) .

قلوبكم ، لتسابقوا إلى رحمة الله ولتتفاضل منازلكم في جنته ، ففرض عليكم الحج والعمرة وإقام الصلاة وايتاء الزكاة والصوم والولاية وجعل لكم باباً تستفتحون به أبواب الفرائض مفتاحاً إلى سبيله ، لولا محمد (ص) والأوصياء من ولده لكنتم حيارى كالبهائم لا تعرفون فرضاً من الفرائض وهل تدخل مدينة الا من بابها ، فلما منَّ عليكم باقامة الأولياء بعد نبيكم ، قال الله في كتابه ، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣) ففرض عليكم لأوليائه حقوقاً أمركم بادائها ليحلّ لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم ومآكلكم ومشاربكم ، قال ، ﴿ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (الشورى/٢٣) واعلموا انّ من يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، لا إله إلاّ هو . ولقد طالت المخاطبة فيما هو لكم وعليكم "[٦٧] .

## قد صعدنا ذرى الحقائق :

٣ – لم يفتخر الأئمة (ع) بمنصب دنيوي ، او ثروة وشهرة . انما كان فخرهم بحب الله ، والإنتساب إلى رسوله .. وبالعلم والتقوى . وفيما يلي رائعة منسوبة إلى الإمام العسكري وجدوها بخطه الكريم على ظهر كتاب جاء فيها ،

" قد صعدنا ذرى الحقائق باقدام النبوة والولاية ، ونوّرنا السبع الطرائق بأعلام الفتوة ، فنحن ليوث الوغى ، وغيوث الندى ، وفينا السيف والقلم في العاجل ، ولواء الحمد والعلم في لآجل ، وأسباطنا خلفاء الدين ، وحلفاء اليقين ، ومصابيح الأمم ، ومفاتيح الكرم ، فالكليم أُلبس حلّة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء ، وروح القدس في جنان الصاقورة ، ذاق من حدائقنا الباكورة ، وشيعتنا الفئة الناجية ، والفرقة الزّاكية ، صاروا لنا ردءاً وصوناً ، وعلى الظلمة إلباً وعوناً ، وسينفجر لهم ينابيع الحيوان بعد لظى النيران "[٦٨] .

## حكم للحياة :

خير الدروس تلك التي يستفيد منها الإنسان في حياته وقد افاض ائمة الهدى المزيد من التعاليم الحياتية لو استوعبناها ، لكنا اسعد الناس في الدنيا واقربهم إلى رضوان الله في الآخرة . وفيما يلي نتامل بعض كلمات الإمام العسكري (ع) في هذا الحقل الهام ،

" ادفع المسألة ما وجدت التحمل يمكنك ، فان لكل يوم رزقاً جديداً . واعلم ان الإلحاح في المطالب يسلب البهاء ويورث التعب والعناء ، فاصبر حتى يفتح الله لك باباً يسهل الدخول فيه فما اقرب الصنيع من الملهوف ، والأمن من الهارب المخوف ، فربما كانت الغير نوع من ادب الله ، والحظوظ مراتب ، فلا تعجل على ثمرة لم تدرك ، وانما تنالها في اوانها ، واعلم ان المدبر لك اعلم بالوقت الذي يصلح حالك فيه ، فثق بخيرته في جميع أمورك يصلح حالك ، ولا تعجل بحوائجك قبل وقتها ، فيضيق قلبك وصدرك

---

(٦٧) المصدر : ( ص ٣٧٤ - ٣٧٦ ) .

(٦٨) المصدر : ( ص ٣٧٨ ) .

ويغشاك القنوط ، واعلم ان للسخاء مقداراً ، فان زاد عليه فهو سرف ، وان للحزم مقداراً فان زاد عليه فهو تهور ، واحذر كل ذكي ساكن الطرف ، ولو عقل أهل الدنيا خربت " [69] .

" خير اخوانك من نسي ذنبك وذكر احسانك إليه " .

" أضعف الأعداء كيداً من اظهر عداوته " .

" حسن الصورة جمال ظاهر ، وحسن العقل جمال باطن " .

" اولى الناس بالمحبة منهم من أمّلوه " .

" من آنس بالله استوحش الناس ، وعلامة الانس بالله الوحشة من الناس " .

" جعلت الخبائث في بيت والكذب مفاتيحها " .

" إذا نشطت القلوب فأودعوها ، وإذا نفرت فودّعوها " .

" اللحاق بمن ترجو خير من المقام مع من لا تأمن شره " .

" الجهل خصم ، والحلم حكم ، ولم يعرف راحة القلوب من لم يجرّعه الحلم غصص الصبر والغيظ " .

" من ركب ظهر الباطل نزل به دار الندامة " .

" المقادير الغالبة لا تدفع بالمغالبة ، والأرزاق المكتوبة لا تنال بالشره ، ولا تدفع بالامساك عنها " .

" نائل الكريم يحببك إليه ويقربك منه ، ونائل اللئيم يباعدك منه ويبغضك إليه " .

" من كان الورع سجيته ، والكرم طبيعته ، والحلم خلّته كثر صديقه ، والثناء عليه ، وانتصر من اعدائه بحسن الثناء عليه " .

" السهر ألذّ للمنام والجوع ازيد في طيب الطعام " . ( رغّب به (ع) على صوم النهار وقيام الليل) " [70] .

" المؤمن بركة على المؤمن وحجة على الكافر " .

" قلب الأحمق في فمه وفم الحكيم في قلبه " .

" لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض " .

" من تعدّى في طهوره كان كناقضه " .

" ما ترك الحقّ عزيزٌ إلاّ ذلّ ولا اخذ به ذليل إلاّ عزّ " .

" صديق الجاهل تعب " .

" خصلتان ليس فوقهما شيء ، الايمان بالله ونفع الاخوان " .

" جراة الولد على والده في صغره تدعو إلى العقوق في كبره " .

" ليس من الأدب اظهار الفرح عند المحزون " .

" خير من الحياة ما إذا فقدته بغضت الحياة ، وشر من الموت ما إذا نزل بك أحببت الموت " .

---

(٦٩) المصدر : ( ص ٣٧٨ ٣٧٩ ) .

(٧٠) المصدر : ( ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ) .

" رياضة الجاهل وردّ المعتاد عن عادته كالمعجز " .

" التواضع نعمة لا يحسد عليها " .

" لا تكرم الرجل بما يشقّ عليه " .

" من وعظ اخاه سراً فقد زانه . ومن وعظه علانية فقد شانه " .

" ما من بلية إلاّ ولله فيها نعمة تحيط بها " .

" ما اقبح بالمؤمن ان تكون له رغبة تذلّه " [71] .

## مواعظ إلهية :

٥ – وقال (ع) :

" اورع الناس من وقف عند الشبهة ، اعبد الناس من اقام على الفرائض ،ازهد الناس من ترك الحرام ، اشد الناس اجتهاداً من ترك الذنوب " .

" انكم في آجال منقوصة وايام معدودة ، والموت ياتي بغتة ، من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة ، لكل زارع ما زرع ، لا يسبق بطيء بحظه ، ولا يدرك حريص ما لم يقدّر له ، من اعطى خيراً فالله اعطاه ، ومن وقي شراً فالله وقاه " .

وجاء في رسالته الكريمة إلى الفقيه المشهور بابن بابويه جاء فيها :

" اما بعد اوصيك يا شيخي ، ومعتمدي ، وفقيهي – ابا الحسن علي بن الحسين القمي ، وفقك الله لمرضاته وجعل من صلبك اولاداً صالحين برحمته .

بتقوى الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، فانه لا تقبل الصلاة من مانعي الزكاة .

واوصيك بمغفرة الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، ومواساة الاخوان ، والسعي في حوائجهم في العسر واليسر ، والحلم عن الجهل ، والتفقه في الدين ، والترتيب في الأمور والتعهد للقرآن ، وحسن الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال الله عزّ وجلّ ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عظيماً ﴾ (النساء/١١٤) واجتناب الفواحش كلها . وعليك بصلاة الليل – ثلاث مرات – ومن استخف بصلاة الليل فليس منا .

فاعمل بوصيتي ، وامر شيعتي حتى يحملوا عليه ، وعليك بانتظار الفرج ، فان النبي (ص) قال : " افضل اعمال امتي انتظار الفرج " . ولا يزال شيعتنا في حزن حتى يظهر ولدي الذي بشر به النبي (ص) انه يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

فاصبر يا شيخي ، وامر جميع شيعتي بالصبر ، ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الاعراف/١٢٨)

---

(٧١) المصدر : ( ص ٣٧٤ ) وقد حذفنا من المصدر كلمة ( وقال ) التي تكررت عند كل كلمة

والسلام عليك وعلى جميع شيعتنا ورحمة الله وبركاته وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير [72] .

## الدعاء : برنامج التحدي :

٦ — وكانت الأدعية المأثورة عن أهل بيت الوحي (ع) ، تعتبر دائماً برنامج التحدي ضد كل الوان الفساد الثقافي والإجتماعي والسياسي .. أو ليس الدعاء يقرب القلب من الرب ، ويعرج بروح المؤمن إلى آفاق معرفة الله . والإنسان كلما ازداد معرفة بالله ، ازداد ايمانا به وازداد — بالتالي — التزاماً بالشرائع الإسلامية ، والتي من أبرز مصاديقها الثورة ضد الطغاة والإستقامة والصبر في مواجهتهم . وعدم التسليم لوسائل التطويع عندهم من الترغيب والترهيب والتضليل . .

وكانت كلمات الدعاء عند أهل البيت والتي توارثوها عن رسول الله (ص) كاغنى كنز واثمن ركاز ، كانت دائرة معارف إلهية فيها آيات الحكمة ومناهج التربية وبصائر في السياسة ، ورؤى في الثقافة . .

والدعاء الذي علمه الإمام الحسن العسكري للقميين ، والذي انتشر بينهم كمنشور سياسي ، ووثيقة جهادية ، وبرنامج حركي ، ونهج رسالي في تلك المرحلة الحساسة . هذا الدعاء يعتبر اليوم من كنوز معارف أهل البيت ، ويجدر بنا ان نتعاهده ليل نهار حتى نزداد معرفة ويقيناً وصلابةً وهدى ..

دعنا نرتل كلمات هذا الدعاء معاً ونتامل فيها :

" الحمد لله شكراً لنعمائه ، واستدعاءً لمزيده ، واستجلاباً لرزقه ، واستخلاصاً له ، وبه دون غيره ، وعياذاً من كفرانه والالحاد في عظمته وكبريائه ، حمد من يعلم ان ما به من نعمائه فمن عند ربه ، ، وما مسه من عقوبته فبسوء جناية يده ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وذريعة المؤمنين إلى رحمته ، وآله الطاهرين ، ولاة امره .

اللهم ، انك ندبت إلى فضلك ، وامرت بدعائك ، وضمنت الأجابة لعبادك ، ولم تخيب من فزع إليك برغبته ، وقصد إليك بحاجته ، ولم ترجع يداً طالبة صفرا من عطائك ، ولا خائبة من نحل هباتك ، واي راحل رحل إليك فلم يجدك قريباً ، ووافد وفد عليك فاقطعته عوائق الرد جودك . بل أي محتف ، لم يمهه فيض جودك ، واي مستنبط لمزيدك دون استماحه سجال عطيتك .

اللهم ، وقد قصدت إليك برغبتي ، وقرعت باب فضلك يد مسالتي ، وناجاك بخشوع الاستكانة قلبي ، ووجدتك خير شفيع لي إليك ، وقد علمت ما يحدث من طلبتي قبل ان يخطر بفكري ، أو يقع في خلدي ، فصل اللهم دعائي إياك باجابتي ، واشفع مسالتي بنجح طلبتي .

اللهم ، وقد شملنا زيغ الفتن ، وستولت علينا غشوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصغار ، وحكم علينا غير المامونين في دينك ، وابتز أمورنا معادن الأبن ممن عطل حكمك ، وسعي في اتلاف عبادك ، وافساد

---

(٧٢) حياة الإمام الحسن العسكري : ( ص ٨٠ – ٨١ ) .

بلادك ، اللهم وقد عاد فيئنا دولة بعد القسمة ، وامارتنا غلبة بعد المشورة ، وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة ، فاشتريت الملاهي والمعارف بسهم اليتيم والأرملة ، وحكم في ابشار المؤمنين أهل الذمة ، وولي القيام بامورهم فاسق كل قبيلة ، فلا ذائد يذودهم عن هلكة ، ولا راع ينظر إليهم بعين الرحمة ، ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحري من مسغبة ، فهم أولوا ضرع بدار مضيعة ، واسراء مسكنة ، وخلفاء كآبة وذلة [٧٣] .

اللهم ، وقد استحصد زرع الباطل ، وبلغ نهايته واستحكم عوده ، واستجمع طريده وخذرف وليده وبسق فرعه ، وضرب بجرانه .

اللهم ، فاتح له من الحق حاصده ، تصدع قائمه ، وتهشم سوقه وتجب سنامه ، وتجدع مراغمه ليستخفي الباطل بقبح صورته ، ويظهر الحق بحسن حليته .

اللهم ، ولا تدع للجور دعامة إلاّ قصمتها ، ولا جنة إلاّ هتكتها ، ولا كلمة مجتمعة إلاّ فرقتها ، ولا سرية ثقل الا خففتها ، ولا قائمة علو إلاّ حطتها ، ولا رافعة علم إلاّ نكستها ، ولا خضراً إلاّ ابرتها .

اللهم ، فكور شمسه ، وحط نوره واطمس ذكره وارم بالحق راسه ، وفض جيوشه ، وارعب قلوب اهله .

اللهم ، ولا تدع منه بقية إلاّ افنيت ، ولا بنية إلا سويت ، ولا حلقة إلاّ قصمت ، ولا سلاحاً إلاّ اكللت ، ولا حداً ولا كراعاً إلاّ اجتحت ولا حاملة علم إلاّ نكست .

اللهم ، وارنا انصاره عباديد بعد الألفة ، وشتى بعد اجتماع الكلمة ، ومقنعي الرؤوس بعد الظهور على الأمة .

واسفر لنا عن نهار العدل ، وأرناه سرمداً لا ظلمة فيه ، ونوراً لا شوب معه ، واهطل علينا ناشئته ، وانزل علينا بركته وادل له ممن ناواه وانصره على من عاداه .

أللهم ، واظهر الحق ، واصبح به في غسق الظلم ، وبهم الحيرة .

اللهم ، واحيي به القلوب الميتة ، واجمع به الأهواء المتفرقة والاراء المختلفة ، واقم به الحدود المعطلة . والأحكام المهملة ، واشبع به الخماص الساغبة ، وارح به الأبدان اللاغبة المتعبة ، كما الهجتنا بذكره ، واخطرت ببالنا دعاءك ، ووفقتنا للدعاء إليه ، وحياشة اهل الغفلة عنه ، واسكنت في قلوبنا محبته ، والطمع فيه ، وحسن الظن به لإقامة مراسيمه .

اللهم ، فات لنا منه على احسن يقين ، يا محقق الظنون الحسنة ، ويا مصدق الأمال المبطئة ، اللهم واكذب المتالين عليك فيه ، واخلف به ظنون القانطين من رحمتك والأيسين منه .

اللهم ، اجعلنا سبباً من اسبابه ، وعلماً من اعلامه ومعقلاً من معاقله ، وانضر وجوهنا بتحليته ، وأكرمنا بنصرته ، واجعل نيتنا خيراً تظهرنا لنا به ، ولا تشمت بنا حاسدي النعم ، والمتربصين بنا حلول الندم،

---

(٧٣) يبين الإمام في هذا المقطع الحالة المزرية التي بلغتها الأمة ، وأسباب الفساد فيها

ونزول المثل ، فقد ترى يا رب براءة خلو ساحتنا ، وخلو ذرعنا من الاضمار لهم على احنة ، والتمني لهم وقوع جائحة وماتنازل من تحصينهم بالعافية ، وما اخبالنا من انتهاز الفرصة ، وطلب الوثوب بنا عند الغفلة [٧٤] .

اللهم ، وقد عرفتنا من انفسنا ، وبصرتنا من عيوبنا خلالاً نخشى ان تقعد بنا عن اشتهار اجابتك ، وانت المتفضل على غير المستحقين ، والمبتدئ بالاحسان على السائلين ، فات لنا من امرنا على حسب كرمك وجودك وفضلك ، وامتنانك انك تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد انا إليك راغبون ، ومن جميع ذنوبنا تائبون ..

اللهم ، والداعي إليك ، والقائم بالقسط من عبادك ، الفقير إلى رحمتك ، المحتاج إلى معونتك على طاعتك ، إذ ابتدأته بنعمتك والبسته اثواب كرامتك ، والقيت عليه محبة طاعتك ، وثبت وطئته في القلوب من محبتك ، ووفقته للقيام بما اغمض فيه أهل زمانه من أمرك ، وجعلته مفزعاً لمظلوم عبادك ، وناصراً لمن لا يجد غيرك ، ومجدداً لما عطل من احكام كتابك ، ومشيداً لما دثر من أعلام دينك ، وسنن نبيك عليه وآله سلامك ، وصلواتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، فاجعله اللهم في حصانة من باس المعتدين ، واشرق به القلوب المختلفة من بغاة الدين وبلغ به افضل ما بلغت به القائمين بقسطك من اتباع النبيين ، اللهم واذلل به من لم تسهم له في الرجوع إلى محبتك ، ومن نصب له ، العداوة ، وارم بحجرك الدافع من اراد التاليب على دينك بإذلاله وتشتيت امره ، واغضب لمن لا ترة له ، ولا طائلة ، وعادي الأقربين والأبعدين منا عليه ، لا مناً منه عليك [٧٥] .

اللهم ، فكما نصب نفسه غرضاً فيك للأبعدين ، وجاد ببذل مهجته لك في الذب عن المؤمنين ، ورد شر بغاة المرتدين المريبين حتى اخفى ما كان جهر به من المعاصي ، وابدى ما كان نبذه العلماء وراء ظهورهم مما اخذت ميثاقهم على ان يبينوه للناس ولا يكتموه ، ودعا إلى افرادك بالطاعة ، والا يجعل لك شريكاً من خلقك يعلو امره على أمرك ، مع ما يتجرعه فيك من مرارات الغيظ الجارحة بحواسي القلوب ، وما يعتوره من الغموم ، ويفزع عليه من احداث الخطوب ، ويشرق به من الغصص التي لا تبتلعها الحلوق ، ولا تحنو عليها الضلوع ، من نظرة إلى امر من أمرك ، ولا تناله يده بتغييره ، ورده إلى محبتك، فاشدد اللهم ازره بنصرك ، واطل باعه في ما قصر عنه ، من اطراد الراتعين في حماك ، وزده في قوته بسطة من تاييدك ، ولا توحشنا من انسه ، ولا تخترمه دون امله من الصلاح الفاشي في أهل ملته ، والعدل الظاهر في امته . . .

اللهم ، وشرف بما استقبل به من القيام بامرك ليرى موقف الحساب مقامه ، وسر نبيك محمد صلواتك عليه وآله برؤيته ومن تبعه على دعوته ، واجزل على ما رايته قائماً به من امرك ثوابه ، وابن قرب دنوه منك

---

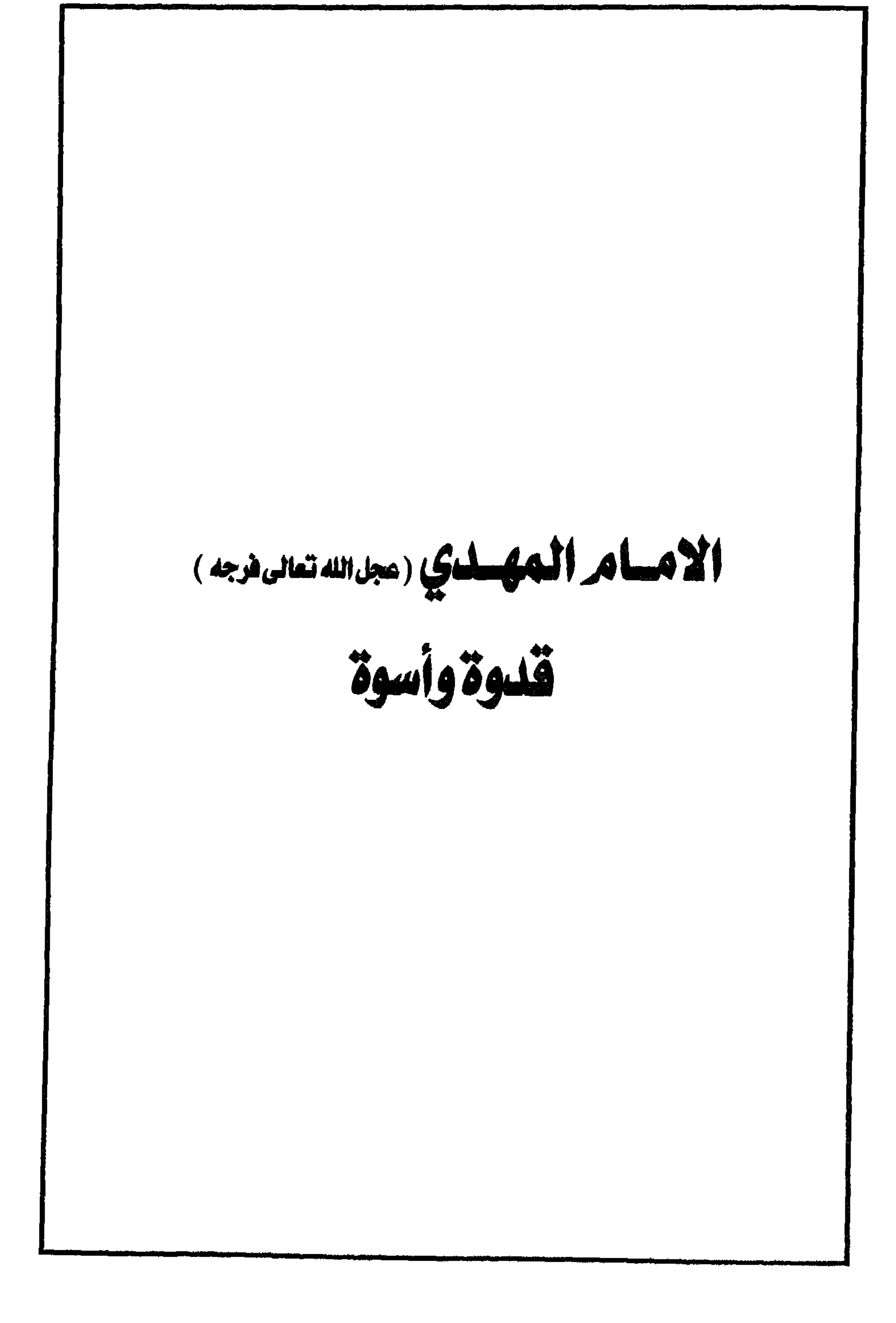
(٧٤) تأمل كيف يسمي هذا الدعاء في نفوس المؤمنين التطلع إلى جهاد الطاغوت والمبادرة بمقاومته .

(٧٥) يربي هذا المقطع من الدعاء المؤمنين على الالتفاف حول القيادة الرشيدة والطاعة التامة لها .

في حياته ، وارحم استكانتنا واستخذاعنا لمن كنا نقمعه به إذا فقدتنا وجهه ، وبسط أيدي من كنا نبسط أيدينا عليه لنرده عن معصيته ، وافترقنا بعد الإلفة والإجتماع تحت ظل كنفك ، وتلهفنا عند الغوث محل ما اقعدتنا عنه من نصرته ، واجعله اللهم في امن مما يشفق عليه منه ، ورد عنه من سهام المكائد ما يوجهه اهل الشنآن إليه وإلى شركائه في امره ، ومعاونيه على طاعة ربه الذين جعلتهم سلاحه وحصنه ، ومفزعه وانسه ، الذين سلوا عن الأهل والأولاد ، وجفوا الوطن ، وعطلوا الوتير من المهاد ، ورفضوا تجارتهم ، واضسرّوا بمعايشهم وفقدوا في أنديتهم بغير غيبة عن مصيرهم ، وخالطوا البعيد ممن عاضدهم على امرهم ، وقلوا القريب ممن صدّ عن وجهتهم فانتلفوا بعد التدابر والتقاطع في دهرهم ، وقطعوا الأسباب المتصلة بعاجل حطام الدنيا ، فاجعلهم اللهم في امن من حرزك وظل كنفك ، ورد عنهم باس من قصد إليهم بالعداوة من عبادك ، واجزل لهم على دعوتهم من كفايتك ومعونتك وامدهم بتاييدك ونصرك ، وازهق بحقهم باطل من اراد إطفاء نورك ، اللهم واملأ بهم كل افق من الأفاق وقطر من الأقطار قسطاً وعدلاً ، ومرحمة وفضلاً ، واشكرهم على حسب كرمك وجودك ، وما مننت به على القائمين بالقسط من عبادك ، وادخرت لهم من ثوابك ما يرفع لهم به الدرجات . إنك تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد ... "[76] .

---

(٧٦) مهج الدعوات : ( ص ٦٣ ٦٧ ) .



# الامـام المهـدي (عجل الله تعالى فرجه)

# قدوة وأسوة

# تمهيد

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله الهداة الميامين ، وعلى أصحابه المنتجبين وعلى عباد الله الصالحين .

لم تكن المشاكل الفلسفية ترفاً فكرياً ، او اسرافاً في المثالية ، بل ان اغلبها تمس صميم واقع البشر لأنها تحاول معرفة العلاقة السليمة بين الإنسان وخالقه . وبينه وبين الكون المحيط به .

واولئك الذين حاولوا تجريد الفلسفة عن هذا البحث الهام ، افقدوها مبرر وجودها وحكمة انتشارها بين الناس واهتمامهم بها .

والحديث عن الإمام الغائب " حجة الله على خلقه " والسبب الموصل بين الله والإنسان ، وحبل الله المتين ، يهدف – فيما يهدف – الكشف عن جوانب هامة من هذه الصلة المباشرة بين خالق السماوات والأرض وبين الإنسان !! .

إن تتجسد هذه الصلة في إنسان كامل لا يختلف في بشريته عن غيره ، إلّا انه حجة الله ، الذي تجلت فيه رسالات الله ، وصاغته بشراً كاملاً ، ليكون قدوةً وإماماً .

ولأن اخترعت البشرية التائهة ابطالاً باسم الجندي المجهول وفي صورة ( سوبرمان ) وأبطال وهميين ، فان يد العناية الإلهية صاغت إنساناً من لحم ودم ولكنه كان رمز كل فضيلة ، ودليل كل سمو ، وليكون حجة الله على الإنسان لكي لا يبرر تقاعسه عن بلوغ المقام المحمود بضعفه البشري .

وها نحن في رحاب هذا الإمام العظيم ، واني ارجو من أولئك الذين لا يؤمنون به ان يفكروا في الأمر من جديد لئلا يمنعوا عن انفسهم خيراً كثيراً .

والكتاب الذي بين ايدينا ، مساهمة بسيطة جداً في هذا المضمار . وكنت قد الفته قبل حوالي عشرين عاماً . ولقد جددت النظر في بعض فصوله واقدمه اليوم للقراء عسى الله ان ينفعني به يوم الحساب .

## الفصل الاول

# الاصل الكريم

### من هو الإمام المهدي ؟

### والده (ع) :

الإمام الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب – عليهم جميعاً صلوات الله – .

### أمّه (ع) :

وصيفة تركية انحدرت من سلالة طيبة تتصل باوصياء عيسى ابن مريم (ع) واسمها نرجس او (صيقل) وكانت قد اسلمت وهي في بلادها بسبب رؤيا شاهدتها ، وعندما زحفت طلائع الجيش الإسلامي على بلادها سلمت لهم ليأتي بها القدر إلى بيت الإمام الحسن العسكري (ع) وتصبح والدة حجة الله .

### ميلاده (ع) :

في ليلة النصف من شعبان من عام ( ٢٥٥ ) للهجرة وفي مدينة سامراء عاصمة الخلافة في عهد المعتصم العباسي وُلد الإمام الحجة (ع) .

وكان لولادته شواهد دلت على ما قدّر الله لهذا المولود السعيد من اثر على حياة البشرية .

دعنا نستمع إلى السيدة حكيمة بنت الإمام محمد بن علي الجواد وعمة الإمام الحسن تقص علينا عن ولادة الحجة قالت : " بعث إليّ ابو محمد الحسن بن علي (ع) فقال : يا حكيمة احعلي افطارك عندنا هذه الليلة – فانها ليلة النصف من شعبان فان الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجة – وهو حجته على ارضه .

قالت فقلت له : ومن امه ؟

قال لي : نرجس .

قلت له : جعلت فداك والله ما بها من أثر .

فقال : هو ما أقول لك .

قالت : فجئت فلما سلمت وحلست جاءت – نرجس – تنزع خفي وقالت لي يا سيدني ، وسيدة اهلي ، كيف أمسيت ؟ فقلت : بل أنت سيدني وسيدة اهلي ، فانكرت قولي – وقالت : ما هذا يا عمة ! ( قالت ) فقلت لها : " ان الله تعالى سيهب لك في ليلتنا هذه غلاماً سيداً في الدنيا والاخرة " .

قالت : فخجلت واستحيت ، فلما ان فرغت من صلاة العشاء الآخرة – افطرت واخذت مضجعي فرقدتُ ، فلما ان كان في جوف الليل قمت إلى الصلاة ففرغتُ من صلاتي وهي نائمة ليس بها حادثة – ثم جلست معقبة ثم اضطجعت ثم انتبهتُ فزعة وهي راقدة ، ثم قامتْ فصلت ، ونامت ، قالت حكيمة : فخرجتُ اتفقد الفجر فإذا انا بالفجر الأول كذنب السرحان وهي نائمة فدخلني الشك – فصاح بي أبو محمد (ع) من المجلس ، فقال لي : " لا تعجلي يا عمة ! فهناك الأمر قد قرب " ، قالت : فجلستُ وقرأتُ الم السجدة ويس . فبينما انا كذلك انتبهتْ فزعة فوثبت إليها فقلت اسم الله عليك ، ثم قلت لها اتحسين شيئاً ؟ قالت نعم يا عمة – فقلت لها اجمعي نفسك واجمعي قلبك فهو ما قلت لك . فاخذتني فترة [1] واخذتها فطرة [2] ، وانتبهت بحس سيدي فكشفت عنها ، فإذا اني به (ع) ساجداً يتلقى الأرض بمساجده ، فضممته (ع) ، فإذا انا به نظيف منظف – فصاح بي أبو محمد (ع) هلمي إليّ ابني يا عمة – فجئت به إليه – فوضع يديه تحت اليته وظهره ووضع قدميه في صدره ثم ادلى لسانه في فيه – وامرَّ يده على عينيه ومفاصله " [3] .

وبعدما ولد – اجرى له والده الإمام الحسن (ع) مراسيم الولادة بما يلي تفصيله .

تصدق عنه – عشرة آلاف رطل خبزاً وعشرة آلاف رطل لحماً – وعقّ عنه – بذبح ثلاثمائة شاة – بعثها حية من يومه إلى بني هاشم والشيعة . ثم بعث إلى الخاصة من اصحابه يخبرهم بولادته وانه الوصي من بعده ويامرهم بكتمان ذلك عن كل احد فقد اثر عن محمد بن الحسن بن إسحاق القمي قال : لما ولد الخلف الصالح (ع) ورد من مولانا ابي محمد الحسن بن علي (ع) إلى جدي احمد بن إسحاق كتاب وإذا فيه مكتوب بخط يده الذي كان يرد به التوقيعات عليه :

" ولد المولود فليكن عندك مستوراً وعند جميع الناس مكتوماً ، فإنا لم نظهر عليه إلاّ الأقرب لقرابته والمولى لولايته . احببنا اعلامك ليسرك الله كما سرّنا والسلام " [4] .

وروي عن إبراهيم صاحب الإمام الحسن العسكري (ع) انه قال :

وجّه إليّ مولاي ابو محمد باربعة اكباش وكتب إلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

" هذه عن ا بني محمد المهدي وكل هنيئاً واطعم من وجدت من شيعتنا " [5] .

---

(١) أي استول عليّ التراخي .

(٢) فطرة : أي الولادة .

(٣) كمال الدين : ( ج ٢ ، ص ٩٩ – ١٣٨ – ١٠٨ ) .

(٤) كمال الدين : ( ج ٢ ، ص ٩٩ – ١٣٨ – ١٠٨ ) .

(٥) بحار الأنوار : ( ج ٥١ ، ص ٢ – ٣ ) .

## كتمان أمر الإمام :

وهكذا تمت ولادة الإمام الذي بقي محاطاً بستار كثيف من الكتمان بسبب الظروف السياسية المعاصرة . ولم يبرز الإمام العسكري (ع) امر نجله إلاّ لخواص اصحابه ، فقد جاء في الحديث المأثور عن كتاب الغيبة ، عن جماعة من أصحاب الإمام انهم قالوا :

" اجتمعنا إلى ابي محمد الحسن بن علي (ع) نسأله عن الحجة من بعده وفي مجلسه (ع) أربعون رجلاً فقام إليه عثمان بن سعيد بن العمر العمري فقال له : يابن رسول الله (ص) أريد ان اسالك عن امر انت اعلم به مني . فقال له : " اجلسْ يا عثمان فقام مغضباً ليخرج ، فقال : لا يخرجن احد ، فلم يخرج منا احد إلى ان كان بعد ساعة فصاح (ع) بعثمان ، فقام على قدميه فقال : اخبركم بما جئتم . قالوا : نعم يابن رسول الله (ص) قال : جئتم تسالوني عن الحجة من بعدي قالوا : نعم ، فإذا غلام كانه قطع قمر اشبه الناس بابي محمد (ع) فقال : هو إمامكم من بعدي ، وخليفتي عليكم اطيعوه ، ولا تتفرقوا من بعدي فتهلكوا في اديانكم . الا وانكم لا ترونه من بعد يومكم هذا حتى يتم له عمر ، فاقبلوا من عثمان ما يقول وانتهوا إلى امره واقبلوا قوله فهو خليفة إمامكم والأمر إليه " .

## كيف بدأ عهد إمامة الحجة ؟

وكعادة الخلفاء العباسيين إذا وجدوا فرصة لقتل أولياء الله بادروا بدس السم إليهم .

اغتال المعتصم العباسي الإمام الحسن العسكري (ع) بالسم ، فاخذ يفتش عن نجله ليقضي عليه ويقطع دابر الإمامة الإسلامية في زعمه . فارسل إلى بيت الإمام ليحتجز ما فيه ومن فيه .

دعنا نستمع خبر ذلك عن لسان احمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان إبن وزير المعتصم الذي قال :

" لما اعتل الإمام الحسن العسكري (ع) بعث إليّ ابي ان ابن الرضا قد اعتلّ فركب من ساعته إلى دار الخلافة ثم رجع مستعجلاً مع خمسة نفر من خدام ( أمير المؤمنين ) كلهم من ثقاته وخاصته منهم نحرير — وامرهم بلزوم دار الحسن بن علي ، وتعرّف خبره وحاله ، وبعث إلى نفر من المتطببين فامرهم بالاختلاف إليه وتعاهده صباحاً ومساءً .

فلما كان بعد ذلك بيومين جاءه من اخبره انه ضعف فركب حتى بكر إليه ، فامر المتطببين بلزومه ، وبعث إلى قاضي القضاة فاحضره مجلسه ، وامره ان يختار من اصحابه عشرة ممن يوثق به في دينه وأمانته وورعه فاحضرهم فبعث بهم إلى دار الحسن (ع) وامرهم بلزومه ليلاً ونهاراً .

فلم يزالوا هناك حتى توفي (ع) لأيام مضت من شهر ربيع الأول من سنة ستين ومائتين ، فصارت ( سرّ من رأى ) ضجة واحدة — مات ابن الرضا — .

وبعث السلطان إلى داره من يفتشها ويفتش حجرها ، وختم على جميع ما فيه وطلبوا اثر ولَده ، وجاؤوا بنساء يعرفن بالحمل فدخلن على جواريه فنظرن إليهن فذكر بعضهن ان هناك جارية بها حمل ، فامرنها فجعلت في حجرة وكّل بها نحرير الخادم واصحابه ونسوة معهم " .

ثم قال : " ولم يزل الذي وكلوا بحفظ الجارية التي توهموا عليها الحمل ملازمين لها سنتين وأكثر حتى تبين لهم بطلان الحمل فقسم ميراثه بين أمه وأخيه جعفر وادعت أمه وصيته وثبت ذلك عند القاضي .

والسلطان على ذلك يطلب اثر ولده " .

ثم ذكر قصة مناوءة جعفر على الوصايا حتى قال : " وخرجنا – والأمر على تلك الحال – والسلطان يطلب اثر ولد الحسن بن علي (ع) حتى اليوم "[٦] .

وهكذا حاولت السلطة الجاهلية المستكبرة في الأرض ان تقتلع جذور الإمامة ، وتقضي على الحركة الرسالية الأصيلة .. فلم تفلح لان يد الله فوق أيديهم .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة/٣٢)

## الله أعلم حيث يجعل رسالته :

وكان للإمام الحجة عمٌ يدعى بجعفر زعم ان له حق الإمامة من بعد اخيه الحسن العسكري (ع) ، فاخذ يدعو الناس إلى نفسه ، بل ويتوسل إلى السلطات الظالمة ليستمد منها الدعم دون ان يعلم ان مبرر استمرار خط الإمامة هو مقاومة هذه السلطات ، وقيادة الجماهير المؤمنة ضد فسادها وانحرافها .

أما جعفر ابن الإمام علي الهادي (ع) فانه كان يفقد المؤهلات الكافية للإمامة ولانه كان يعرف ان الطائفة لا تعترف به ، فقد جاء إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان – وهو وزير الخليفة العباسي – يسعى من أجل دعم مركزه .

ابن الوزير يروي قصة ذلك فيما يلي :

" فجاء جعفر – بعد قسمة الميراث – إلى ابي وقال له : اجعل لي مرتبة ابي وأوصل إليّ في كل سنة عشرين الف دينار مسلمة .

فزبره أبي وقال له : يا أحمق ! ان السلطان اعزه الله (!) جرّد سيفه وسوطه في الذين زعموا ان أباك وأخاك أئمة ، يردوهم عند ذلك فلم يقدر عليه ، ولم يتهيأ له صرفهم عن هذا القول فيهما ، فان كنت عند شيعة ابيك وأخيك إماماً فلا حاجة بك إلى السلطان يرتبك مراتبهما ولا غير السلطان ، وان لم تكن عندهم بهذه المنزلة . لم تنلها بنا " .

وما لبث جعفر ان تراجع عن هذه الدعوة الكاذبة . وعاد إلى رشده في التسليم لإمامة الحجة (ع) ، ولذلك سمي عند الطائفة بجعفر التواب بعد ان كان يسمى بجعفر الكذاب .

## الغيبة الصغرى :

بعد ان بيّن الأئمة الهداة ( عليهم الصلاة والسلام ) عبر قرنين ونصف من عمر الرسالة بعد الرسول (ص) معالم الدين . وبعد ان احتمل خيرة ابناء الأمة علم الأنبياء (ع) عبر اوصيائهم المعصومين ،

---

(٦) كمال الدين : ( ج ١ ، ص ١٢٥ ) .

وترسخت جذور المعرفة الإلهية في نفوس الألوف . وبعد أن تهيا التيار الرسالي للنهوض باعباء الثورة ضد الظلم والطغيان ، والوقوف امام الإنحرافات الأساسية في الدين .

بعد كل ذلك قدر الله الغيبة الصغرى لولي الله الأعظم ، الحجّة بن الحسن (ع) التي امتدت من عام (٢٦٠ ) إلى عام ( ٣٢٩) أقام الإمام خلالها جسراً من الوكلاء بينه وبين ابناء الطائفة .

ونوّاب الإمام هم :

(١) ابو عمرو عثمان بن سعيد الذي كان وكيلاً للإمام الحسن العسكري (ع) . وبعد وفاته أصبح نائباً للإمام الحجة ( عجل الله فرجه ) .

(٢) وبعد وفاته عام ( ٢٦٦) نصب الإمام الحجة ابنه أبا جعفر محمد بن عثمان ليصبح نائباً للإمام خلال خمسين عاماً .

(٣) أما النائب الذي استخلفه محمد بن عثمان فقد كان حسين بن روح ومنذ عام ( ٣٠٤) وعبر اثنين وعشرين عاماً كان مرجعاً عاماً للطائفة من قبل الإمام الحجة (ع) .

(٤) وبعد أن لبى حسين بن روح نداء ربه ، عين الإمام أبا الحسن علي بن محمد السمري نائباً عنه ، وبقي في منصبه ثلاث سنوات ، ولما اقترب من أجله سئل عمّن ينوبه فأخبر بانتهاء الغيبة الصغرى بوفاته .

وفي سني الغيبة الصغرى كان يمارس فقهاء الإسلام الأربعة العظام دور القيادة نيابة عن الإمام — ولعلها كانت كافية لتربية الأمة على اسس اختيار قادتها من بين أقرب الفقهاء إلى مثال النواب الأربعة في عصر الغيبة الكبرى — حيث كان من المفروض ان تستقل الأمة بانتخاب قادتها من الفقهاء العدول الراسخين في علم أهل البيت ، والزاهدين في درجات الدنيا ، والمجسّدين لتعاليم الرسالة .

ولعل حكمة ذلك كانت تدرج الصلة الإلهية من الوحي إلى الوصاية والنيابة الخاصة ثم النيابة العامة ، فلقد كان عصر النبي الأعظم (ص) عصر الوحي الذي كان شاهداً في كل قضية ، وبعد ان اكمل تبليغ الرسالة عهد إلى الأئمة الهدة امر تفسير المتشابه من آيات القرآن ، اما المحكم فكان على الناس انفسهم الرجوع إليه مباشرة ، وهذه خطوة متقدمة في مسيرة التعامل مع الوحي .

وفي عصر الوصاية تفقه الكثير من المسلمين العلماء حتى ارجع الأئمة إلى بعضهم امر الفتيا ، وبعد ذلك جاء عصر النيابة الخاصة حيث كان على المسلمين مراجعة الإمام الحجة من خلال نوابه وليس بصورة مباشرة كما كان في عصر الوصاية .

اما الآن وفي عصر النيابة العامة فأن على المسلمين ان يراجعوا الفقهاء العدول الذين يتعرفون على صلاحيتهم وفق المقاييس العامة التي بيّنها لهم الأئمة .

وبالرغم من ان صلة حجة الله بأولياء الله مستمرة بصورة او باخرى الا ان ذلك لا يدخل ضمن اطار الأحكام الظاهرية حيث لا يمكن لأحد ان يدعي انه النائب الخاص للإمام ، بل لا يمكنه ان يدعي ارتباطه

المباشر بالإمام ، فإذا فعل ذلك فان على المسلمين ان يكذبوه راساً . ولولا هذا التدرج لكانت الأمة تُصاب بكارثة حقيقية .

## شمائل وصفات الإمام :

لقد تم وصف الإمام بدقة من قبل النبي (ص) والأئمة الهداة ، ولعله كان لحكمة بالغة هي ردع كل من تسول له نفسه بادعاء المهدوية ، بعد ان اصبحت قضية ظهور الإمام المهدي (ع) في آخر الزمان من ضرورات الدين ، وبما انه من المستحيل ان تجتمع كل تلك الصفات التي ذكرتها النصوص الإسلامية في شخص مدعٍ للمهدوية مما تكشف كذبه للناس .

(١) قال النبي (ص) :

" المهدي منّي ، أجلى الجبهة ، اقنى الأنف ، المهدي من ولدي وجهه كالقمر الدرّي ، عينه مستديرة ، اللون لون عربي ، والجسم إسرائيلي ، وجهه كالدينار ، اسنانه كالمنشار وسيفه كحريق النار " .

(٢) وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) :

" المهدي اقبل اجعد ، هو صاحب الوجه الأحمر والجبين الأزهر ، صاحب الشامة والعلامة ، العالم الغيور ، المعلم المخبر بالآثار ، هو اوسعكم كهفاً ، واكثركم علماً واوصلكم رحماً ، يومئ للطير فيسقط على يده ، ويغرس قضيباً في الأرض فيخضر ويورق " .

(٣) وقال الإمام الحسين (ع) :

" تعرفون المهدي بسكينة ووقار ، ومعرفته الحلال والحرام ، وبحاجة الناس إليه ولا يحتاج إلى أحد " .

(٤) وقال الإمام الباقر (ع) :

" وهو درّي المقلتين ، شثن الكفين ، معطوف الركبتين ، مدمج البطن ، بظهره شامتان ، شامة على لون جلده وشامة على شبه شامة النبي ، مقرون الحاجبين مسترخهما ، ظاهر العينين من سهر الليل والتبتل والعبادة ، دري المقلتين ، بوجهه اثر ، واسع الصدر ، مسترسل المنكبين عظيم مشاشتهما " .

(٥) وقال الإمام الصادق (ع) :

" حسن الوجه ، ادم ، اسمر ، مشرب بحمرة ، ازج ، ابلج ادعج ، اعين ، اشم الأنف ، اقنى ، أجلى ، وهو خاشع كخشوع الزجاجة ، هيوب ، قريب إلى الناس والنفوس ، عذب المنطق ، حسن الصورة ، أحمس الساقين مخدشهما ، هو قوي في بدنه ، إذا صاح بالجبال تدكدكت صخورها ، لا يضع يده على عبد إلاّ صار قلبه كزبر الحديد ، ليس بالطويل الشامخ ، ولا بالقصير اللازق ، بل مربوع القامة ، مدور الهامة ، واسع الصدر ، صلت الجبين ، مقرون الحاجبين ، على خده الأيمن خال كانه فتات مسك على رضراضة العنبر " .

(٦) قال الإمام الرضا (ع) :

" هو شبيهي وشبيه موسى بن عمران ، عليه جيوب النور ، تتوقد بشعاع القدس ، موصوف باعتدال

الخلق ، ونضارة اللون ، يشبه رسول الله في الخلق ، علامته ان يكون شيخ السن ، شاب المنظر حتى ان الناظر ليحسبه ابن أربعين سنة أو دونها ، وان من علامته الا يهرم بمرور الأيام والليالى عليه حتى يأتي أجله "[٧] .

(٧) نقلنا نصوص الروايات هذه من كتاب يوم الخلاص لمؤلفه كامل سليمان (ص ٥١ - ٥٥)

الفصل الثاني

# الإمـام الحجـة .. الأمـل المنتظـر

## انتظار الفرج أو الأمل الثائـر :

هنالك سنن إلهية تجري على اساسها حياة المجتمعات كالسنن الإلهية التي تتقلب فيها حياة الأفراد .

ومن أبرز هذه السنن انتصار الحق ودحر الباطل .

﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (الاسراء/٨١) .

إن سفينة الحياة ترسو بالتالي على شاطئ رحمة الله ، لان رحمته قد سبقت غضبه ، ولان الله انما خلق الناس ليرحمهم ، وسبحانه الذي لا يؤاخذ اهل الأرض بالوان العذاب .

يقول ربنا سبحانه وهو يذكرنا بهذه السنة التي لو تاملنا في تاريخ البشر ، وفي ظواهر الحياة لرأينا آثارها بوضوح تام :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة/٣٣)

فما دامت السماوات والأرض قد خلقت بالحق ، وعلى اساس الحق فان سلطان الحق وحاكميته وسيادته سوف يكون متوافقاً مع مسيرة الكون ، ونتيجة تكامل حوادثه بإذن الله .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الانبياء/١٠٥)

ان هذه الحقيقة التي اكدت عليها رسالات الله ليست محدودة بقوم ، ولا محصورة بوراثة الصالحين بقطعة محدودة من الأرض ، بل هي بيان لسنة إلهية عامة تتحقق في ثورات الصالحين ضد الطغاة ، وتتحقق بصورة تامة في وراثة الصالحين لكل الأرض ، والدليل على ذلك :

اولاً : ان الأرض جاءت محلاة بالألف واللام مما يدل على ان المراد بها كل الأرض .

ثانياً : ان تاكيد القرآن على ان هذه حقيقة مكتوبة في أكثر من كتاب سماوي لا يدعنا نشك في انها تشير إلى سنّة إلهية يسوق الله احداث الحياة وفقها حتى تتحقق بصورة كلية .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص/٥-٦)

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الاعراف/١٢٨)

إن تجارب البشرية قد دلت على ان المسيرة الطبيعية للنظم الحاكمة في الأرض لن تصل بها إلى تلك

التطلعات السامية التي انطوت عليها نفوس البشر من تحقيق مدينة فاضلة تسودها العدالة ، ويحكم في ارجائها الحق بلا شريك .

إذن كيف ومتى يتحقق هذا الطموح الفطري المشروع .. هل يمكن ان يتكامل البشر بصورة عادية إلى ان يبلغ هذا المستوف الأرفع ؟!

ان ترسانات الأسلحة الذرية والكيمياوية ، ومؤامرات المستكبرين ضد مستضعفي الأرض ، وتقهقر البشرية الواضح في ميادين الفضيلة والهدى ، وتدهورها المرعب إلى حضيض الفساد والاعتداء لدليل واحد وواضح على ان السبيل الوحيد إلى تحقيق اهداف الإنسان هي رحمة الله التي اخرجت الإنسان من الظلمات إلى النور .

وتلك الرحمة إنما هي في ظهور الحجة الأعظم — بقية الله الإمام الثاني عشر من اهل بيت خاتم الانبياء ، وقدوة الصديقين عليهم جميعاً صلوات الله — والإيمان بهذه الحقيقة الصادقة يبعث في قلوب المؤمنين شعلة خالدة من الأمل ذلك الأمل الذي يعتبر وقود الإنسان في مسيرته التكاملية .

ذلك الامل الإلهي الذي يختلف عن الأمنية بفارق السعي الذي هو شرط ضروري لتحقيق الأمل الإلهي .. بينما الأمنية تبرير للكسل والتقاعس .

ذلك الأمل الذي ينتشل المجاهدين من ظلام الياس الذي يبعثه الشيطان في نفوسهم باستغلال ظروف الإرهاب والقلق والعجز المادي .

ذلك الأمل الذي ينعكس على نظرات الفرد ومواقفه ، فتصبغ بصبغة التفاؤل الإيجابي ، ويطارد روع التشاؤم والشك والسلبية والإنهزامية التي تسعى اجهزة الطاغوت ووساوس الجبت ان تبثها في روح العاملين ، وربما لهذه الحكمة جاء في الحديث النبوي الشريف :

" افضل اعمال امتي إنتظار الفرج " .

## المهدي ( ع ) في النصوص الدينية :

ان ظهور عزير (ع) وعودة عيسى (ع) ورجعة بهرام في الديانات اليهودية والمسيحية والمجوسية سوف يتحقق جميعاً بظهور خاتم الأوصياء المهديين الإمام الحجة ( عجل الله فرجه ) .

وان تفسير خمسين آية قرآنية ، وعشرات الأحاديث المأثورة عن النبي (ص) ومئات النصوص المروية عن آل البيت يتم بظهور الحجة ( عجل الله فرجه ) .

لقد تواترت اكثر من ستمائة وسبع وخمسين حديثاً في المهدي (ع) [8] .

وقد رواها اعظم اصحاب النبي (ص) ، وقد الف حول ظهور المهدي ( عجل الله فرجه ) ، علماء اهل السنّة اكثر من مائة واربع واربعين كتاباً [9] .

---

(٨) تجد تفصيلاً لهذه الأحاديث في كتاب البحار : ( ج ٥١ ٥٣ ) وفي كتاب " منتخب الأثر " (ص ٣١ ٦٠) .

(٩) تجد أسمائهم في كتاب " الإمام المهدي " : ( ص ٢٩٩ ٣١٨ ) .

وادعى تواتر الحديث كثير من علماء المسلمين من مختلف المذاهب ، ولسنا بحاجة إلى ان نناقش الديانات السماوية في شخص المهدي لأننا لا نملك معهم ارضية مشتركة للحديث بل لابد أن نناقش النظرية القائلة بان المهدي سيولد في آخر الزمان ثم يظهر ، ونظن ان عقدة المسالة تتمثل في قضية طول العمر التي تبقى مشكلة نفسية أمام الإيمان بحياة الإمام . إذاً ، إسمحوا لنا ببحث قضية طول العمر أولاً ، قبل مناقشة هذه النظرية .

## قضية طول العمـر :

ان ربنا سبحانه بمنّه القديم ورحمته . الواسعة شاء ان يتم الحجة على عباده بان بعث إليهم رسله دون ان يترك الأرض من دون حجة قائمة .

وامدّ الله في عمر خاتم الأوصياء إذ لا نبي بعد محمد (ص) لكي يبقى السبب المتصل بين الأرض والسماء ، فإذا انقطع الوحي فلا تنقطع الصلة الغيبية عبر ولي من أولياء الله .

وقدرة الله التي نفذت في كل شيء والتي خلق بها السماوات والأرض لا تعجزه سبحانه عن تطويل عمر الإنسان .

ونحن بصفتنا مسلمين نعتقد بان الله امدّ في عمر نوح (ع) ٩٥٠ عاماً بل اكثر ، وان عيسى وإدريس والعبد الصالح ( خضر) احياء فكيف لا نؤمن بالعمر الطويل الذي عمّره الإمام الحجة (عجل الله فرجه) .

ولكن دعنا نذكر فيما يلي نظر العلم الحديث في امكانية طول عمر الإنسان ، لعلمنا ان امام بعض الناس مشكلة نفسية لا تدعهم يؤمنون بالإمام الغائب : —

(١) جاء في مجلة الهلال — الجزء الخامس من السنة الثامنة والثلاثين ( ص ٦٠٧ مارس ١٩٣٠ ) — تحت عنوان ، كم يعيش الإنسان ؟ ما يلي[١٠] ،

يعتقد بعض العامة وبعض الخاصة حتى من الأطباء ان مدى عمر الإنسان سبعون سنة على المتوسط — كما جاء في التوراة — وقل ان يجاوز ذلك ، وقد وقف رئيس مدرسة طبية ذات يوم خطيباً في تلاميذه فقال ، ان الأدلة الباثولوجية تدل دلالة على ان انسجة الجسم تبلى بعد مرور — زمان ما — وأن هناك حداً محدوداً لعمر الإنسان .

فإذا صح قول هذا المدبر فان الأسباب الكثيرة التي تنشا منها دورة العمر هي ثابتة غير متغيرة — دون متناول العلم — ولنفترض ان منطقة ( قنال بناما ) المشهورة بالأمراض الكثيرة قُطِعَتْ عن سائر العالم ، وكنا نحن فيها نجهل احوال الحياة والموت في العالم — الذي وراءها — لكنا نقول : ان كثرة الوفيات في هذه المنطقة وقصر العمر امور معينة بحكم الطبيعة ، وان التحكم فيها دون متناول العلم ، فالفرق بين الأمرين هو في الشخص لا في النوع ، فان جهلنا لأسباب بعض الأمراض هو الذي يحول دون تقليل

---

(١٠) أوردنا قصته من كتاب " منتخب الأثر " ( ص ٧٧ ) .

الوفيات وإطالة العمر – في العالم – ودورة العمر كما نسميها متغيرة قابلة لتأثير العلم فيها ، والذي يعارضني في ذلك أسئله ، أي دورة من أدوار العلم هي ثابتة ؟

دورة العمر في الهند أم في نيوزلندا ؟ أم في أمريكا أم في منطقة القتال ؟ وأي الحِرَف نحترفها نقول عنها إن دورة العمر فيها – ثابتة طبيعية – أجرفة الفلكي التي تكون الوفيات فيها من ١٥ إلى ٤٠ سنة تحت المتوسط ؟ أم المحاماة التي تكون الوفيات فيها من ٥ سنوات إلى ١٥ سنة فوق المتوسط ؟ أم تنظيف الشبابيك التي تكون الوفيات فيها من ٤٠ إلى ٦٠ سنة فوق المتوسط ؟ هذه أمثلة على الفرق بين الوفيات في اتوسط الوفيات بين بعض الحرف على ما فيها من احصاءات بعض شركات التامين .

وهناك أدلة كثيرة على ان ادوار الحياة بين الأحياء ومنها الإنسان تغيرت تغيراً عظيماً بالوسائل الصناعية، وان ادوار الحياة – في بعض الأحياء – تزيد كثيراً على ماللإنسان . فلماذا تعيش السلحفاة مائتي سنة والإنسان سبعين سنة ؟ ولماذا تعيش الخلايا الداخلية في الاحياء اربعمائة سنة وفي الانسان اقل ؟

وقد يقال جواباً عن هذا السؤال :

ان الإنسان يدفع بذلك عن عيشته الحضارية الراقية وتركيبه الراقي ، فالشجرة المشار إليها – تمكث في بقعة واحدة – فتظهر فيها جميلة ، ولكن اليس بين الرجال والنساء من لا يصنع أكثر مما تصنع الشجرة، وينال اجراً على ذلك !

وتجارب المختبرات البيولوجية – ذات مغزى كبير – فقد استطاع بعض العلماء إستنبات بعض الدعاميص – الضفدع الصغير – من اجسادها قبل اوان خروجها بتغيير مقدار الأوكسجين – في الوسط الموجودة فيه – وهذا بمثابة تغيير جوهري في دورة حياة الدعاميص .

وكذلك تمكن آخرون من اطالة عمر ذبابة الأثمار (٩٠٠) ضعف عمرها الطبيعي بحمايتها من السم والعدوى وتخفيض حرارة الوسط الذي تعيش فيه .

وتمكن كارل بتجاربه من ابقاء الخلايا في قلب جنين دجاجة حياً مدة سبع عشرة سنة بصيانته عن بعض العوامل في المحيط الذي وضع فيه .

وإذا نظرنا إلى العوامل المتسلطة على دورة حياة الإنسان ، وجدنا انه إذا اخذنا شيئاً من المادة المعروفة باسم ( الرانث ) والمستخرجة من غدة درقية عليلة ، امكننا اعادتها إلى حالتها الطبيعية بحقنها بخلاصة غدة صحيحة ، وكثيراً ما انقذ الشخص المشرف على الموت بحقنة بخلاصة الكبد على اثر اشتداد اصابته بانيميا خبيثة وموته بها لا يختلف بمبدئه عن الموت بالشيخوخة ، ويعاد المصاب بالسكر إلى حالته الطبيعية بحقنة بخلاصة البنكرياس .

وامتدت يد العلماء إلى أصل الجينات – وقد كان يظن انه لا يمكن العبث بها – فتمكنوا من تغيير جنس الضفادع والطيور من الذكور والإناث والعكس ، ولم يُجرب ذلك بعد في الإنسان ، ولكن مادام هذا المبدأ يؤيد في الحيوان فلا يمنع تأييده في الإنسان الا جهلنا لأشياء لابد ان تبدو لنا في المستقبل .

(٢) وقال الأستاذ ( فورد نوف ) : قد عملت إلى الآن ( ٦٠٠ ) عملية ناجحة وأقول الآن عن اقتناع : انه لا ينصرم القرن حتى يمكن تجديد قوى الشيوخ ، وإزالة غبار السنين عن وجوههم كثيرة الغضون والأسارير — وأجنابهم المحدودبة الهزيلة — ويمكن أيضاً تأخير الشيخوخة ومضاعفة العمر الذي هو الآن سبعين سنة على الغالب ، وسيبقى الدماغ والقلب صحيحين إلى الآخر — وقد يمكن تغيير الصفات والشخصيات والعادات بهذه الطريقة ، ونقل الجرائم وتخلق العبقريات ، وتفرغ الشخصيات في قوالب على حسب الطلب [١١] .

(٣) العلماء الموثوق بعلمهم يقولون :

ان جل الأنسجة الرئيسية من جسم الحيوان تقبل البقاء إلى مالا نهاية له ، وانه في الإمكان ان يبقى الإنسان حياً الوفاً من السنين إذا لم تعرض عليه عوارض تصرم حبل حياته ، وقولهم هذا ليس مجرد ظن ، بل هو نتيجة علمية مؤيدة بالامتحان [١٢] .

فقد تمكن أحد الجراحين من قطع جزء من حيوان وابقائه حياً أكثر من السنين التي يحياها ذلك الحيوان عادة . أي صارت حياة ذلك الجزء مرتبطة بالغذاء الذي يقدم لها بعد السنين التي يحياها ، فصار في الامكان ان يعيش إلى الأبد مادام الغذاء اللازم موفوراً له .

وهذا الجراح هو ( الكسيس كارل ) من المشتغلين في معهد ( روكفلر نيويورك ) وقد امتحن ذلك في قطعة من جنين الدجاج فبقيت تلك القطعة حية نامية اكثر من ثمان سنوات ، وهو وغيره امتحنا قطعاً من اعضاء جسم الإنسان — من اعضائه وقلبه وجلده وكليته — فكانت تبقى حية نامية مادام الغذاء اللازم موفوراً لها حتى قال الأستاذ ( ديمند وبرل ) من اساتذة جامعة جونز هو بكنز :

" ان كل الأجزاء الخلوية الرئيسية من جسم الإنسان قد ثبت : اما ان خلودها بالقوة صار أمراً مثبتاً بالامتحان او مرجحاً ترجيحاً تاماً لطول ما عاشته حتى الآن " .

إلى ان قال الدكتور كارل : شرع في التحارب المذكورة في شهر يناير سنة ١٩١٢ م ، ولقي عقبات كثيرة في سبيله فتغلب عليها هو ومساعدوه ، فثبت له :

اولاً : ان هذه الأجزاء الخلوية تبقى حية مالم يعرض لها عارض يميتها ، اما من قلة الغذاء أو من دخول بعض الميكروبات .

ثانيا : ان لا تأثير للزمن — اي انها لا تشيخ وتضعف بمرور الزمن ، بل لا يبدو عليها اقل اثر للشيخوخة، بل تنمو وتتكاثر — هذه السنة — كما كانت تنمو وتتكاثر في السنة الماضية وما قبلها من السنين ، وتدل الظواهر على انها ستبقى حية نامية مادام الباحثون صابرين على مراقبتها ، وتقديم الغذاء الكافي لها ، فشيخوخة الاحياء ليست سبباً ، بل هي نتيجة .

---

(١١) تفسير الجواهر : ( ج ٢٢٤ ) عن محلة كل شيء . أنظر المصدر المتقدم : ( ص ١٧٩ ) .

(١٢) نفس المصدر .

لكن لماذا يموت الإنسان ولماذا نرى سنينه محدودة – لا تتجاوز المائة الا نادراً جداً – وغايتها العادية سبعون او ثمانون ؟

الجواب :

ان اعضاء جسم الإنسان كثيرة ومختلفة ، وهي مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا محكماً حتى ان حياة بعضها تتوقف على حياة البعض الآخر ، فإذا ضعف بعضها ومات لسبب من الأسباب مات بموته سائر الأعضاء . ناهيك بفتك الأمراض الميكروبية المختلفة ، وهذا مما يجعل متوسط العمر اقل جداً من السبعين والثمانين . لا سيما ان كثيرين يموتون اطفالاً ، وغاية ما ثبت الآن من التجارب المذكورة ، ان الإنسان لا يموت لان عمره كذا من السنين – سبعين أو ثمانين او مائة او اكثر – بل لان العوارض تنتاب بعض الأجزاء فتتلفها ولارتباط اعضائه بعضها ببعض تموت كلها ، فإذا استطاع العلم ان يزيل بعض العوارض او يمنع فعلها لم يبقَ مانع استمرار الحياة مئات من السنين ، كما يحيا بعض انواع الأشجار ، وقلّ ما تنتظر العلوم الطبيعية والوسائل الصحية هذه الغاية القصوى ، ولكن لايبعد ان نهايتها تضاعف متوسط العمر او يزيد ضعفين او ثلاثة[١٣] .

(٤) واكد تقرير نشرته الشركة الوطنية الجيوغرافية :

" ان الإنسان يستطيع ان يعيش (١٤٠٠) سنة إذا ما خدر مثل بعض الحيوانات طيلة فصل الشتاء "[١٤] .

وهكذا ياتي قولنا بامكان طول العمر مدة من الزمن بعيدة – مؤيداً – بالتجارب الحديثة . فهل نجد من الشك أي مانع عن قبول ذلك إذا عرفت ان الله يريد ان يبقيه كذلك ، وإذا اراد شيئاً وفرَ له اسبابه الطبيعية .

قال الإمام الرضا (ع) :

" ابى الله إلا ان يجري الأمور بأسبابها " .

## الدين وطول العمر :

هنا نبحث في الموضوع من جانب ديني بحت ، ان من يعتقد بالدين من اليهود والنصارى والمسلمين، يؤمن بأن قدرة الله شاملة لكل الأمور ومنها امداد عمر رجل – يلزم ان يموت في السبعين – فيزديه الفاً، مثلاً .

وإن الاعتقاد بذلك ثابت لهم فعلاً ، حيث انهم لا يزالون يقبلون مبدئياً حياة كثيرين ممن تقدم تاريخ ميلادهم عن الإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) مثل : خضر ، إدريس ، عيسى (ع) . كما يعتقدون انهم سوف يبقون أحياء في المستقبل ايضاً ، وكذلك تدل كتبهم الدينية على امتداد حياة أمة من الناس مدة طويلة في الماضي السحيق ، مثال آدم ، الذي عاش في معتقد اليهود ٩٢٠ سنة جاء في التوراة ما هذا

---

(١٣) المصدر السابق عن مجلة المقتطف العدد الثالث السنة التاسعة والخمسين .

(١٤) الإمام المهدي . ( ص ١٦٤ )

نصه : " فكان كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة سنة وثلاثين سنة ومات " .

سفر التكوين – الاصحاح الخامس – الآية /٥

وشيث الذي عاش على ما في التوراة ( ٩١٢ عاماً ) حسب ما جاء في النص :

" فكانت كل ايام شيث تسعمائة واثني عشرة سنة ومات ..." .

سفر التكوين – الاصحاح التاسع – الاية / ٨

واما نوح فقد عاش عندهم ٩٥٠ سنة . جاء في التوراة :

" فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات ..." .

سفر التكوين – الاصحاح التاسع – الاية / ٢٩

اما المسلمون فإنهم يعتقدون بحياة عيسى وخضر والإلياس .

وان سرد هذه الحقائق تكفينا عن ذكر اسماء المعمرين بعدما ثبت ان طول العمر ممكن عقلاً وواقع فعلاً .

## هل الإمام المهدي حي ؟

لقد سبق القول ان المذاهب الإسلامية تتفق تقريباً على قضية المصلح القائم بامر الله – آخر الدهر – وانه ينتمي إلى رسول الله (ص) ، وانه ابن فاطمة ، وقد طفحت كتبهم باحاديث بلغت التواتر في اثبات ذلك . كما انه قد الف كثير منهم كتباً تبحث عن الموضوع بصورة مسهبة – نعم لا ننكر ان عدة منهم كثيرة شذت عنهم – وقالت : حيث كانت الأحاديث تحتوي على بعض الغرائب فانها لم تقبل التصديق ، ولكن الاحاديث التي تتضمن قضية المهدي ليست اكثر غرابة مما تضمنت أخبار الأمم السابقة ، والمعاجز التي رافقت حياتهم ، والآيات التي ظهرت على أيديهم .

وهناك نقطة اختلفت المذاهب الإسلامية فيها ولابد من مناقشتها في هذا المجال ، وهي :

هل ان الإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) حيّ فعلاً أم انه سيولد بعدئذ ؟ قبل ان نذهب بعيداً في البحث يجب ان نذكر : انه لم يمتنع اي المذاهب الإسلامية عن الإعتراف بوجود الإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) ، وتاويل النصوص التي وردت بشان ذلك إلّا بسبب واحد هو : استغراب وجوده حياً منذ سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ١٤٠٥ هـ ، وقد سبقت مناقشة ذلك في ضوء التجارب الحديثة والمعتقدات الدينية ، فلم يبق هناك ما يدعوهم إلى الانكار إلّا انهم قد يقولون ما هو الدليل القاطع على ذلك ؟

الجواب :

ان هناك ادله كثيرة على حياة الإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) وفيما يلي بيان بعضها :

١ – فاقت احاديث النبي (ص) الواردة بشأن الأئمة الاثنا عشر – حد التواتر – واجمعت الامة على صحتها وثقة رواتها ، ونذكر فيما يلي بعضاً منها :

(١) عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي (ص) يقول :

" يكـون مـن بعدي إثنا عشر اميراً ..." . فقال كلمـة لـم اسمعها ، فقال ابي : انـه قـال : " كلهـم مـن قريش " [15] .

(٢) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله ) :

" يكـون من بعدي إثنا عشر اميراً ..." . ثم تكلم بشئ لم افهمه فسالت الذي يليني ، فقال : قـال : ".. كلهم من قريش " .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح [16] .

(٣) قال : دخلت مع ابي على النبي (ص) فسمعته يقول :

" إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة .." .

قال : وتكلم بكلام خفي عليّ . فقلت لأبي : ما قال ؟ قال : " .. كلهم من قريش " [17] .

(٤) قال سمعت رسول الله (ص) يقول :

" لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة – فكبر الناس وضجوا – ..." .

ثم قال : كلمة خفيت ، قلت لأبي : يا ابه ما قال ؟ قال : " .. كلهم من قريش " [18] .

(٥) قال سمعت النبي (ص) يقول :

" يكون لهذه الأمة اثنا عشر خليفة " [19] .

فإذا اضفنا الحديث الصحيح لدى الفريقين والصريح على انهم من قريش مع تلك الأخبار التي بينت مكارم اهل البيت ، وانهم كالنجوم يحفظون اهل الأرض ويهدونهم ، ثم إذا اضفنا إليها جميعاً تلك الأحاديث التي تبين انه سوف ينتهي من بعدهم الأمر ، وانه سوف يكونون في الأرض ما بقي فيها اثنان . عرفنا ان المهدي يلزم ان يكون منهم ، ويكون مهديهم آخرهم . اضف إلى ذلك الأحاديث التي وردت عن النبي (ص) تقول : " ان آخر هؤلاء الاثني عشر يكون قائم الأمة ومهديها " .

إذا كان ذلك عرفنا : ان الإمام موجود فعلا لانه الثاني عشر من الائمة (عليهم السلام ) . وقد كان حادي عشرهم هو الإمام الحسن العسكري (ع) ولم يخلف باجماع المورخين الاّ ولداً واحداً كما في الأخبار هو الإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) فلابد ان يكون حياً .

---

(١٥) صحيح البخاري - الجزء الرابع - كتاب الأحكام : ( ص ١٧٥ ) طبعة مصر ١٣٥٥ هـ

(١٦) صحيح الترمذي الجزء الثاني باب ما جاء في الخلفاء . ( ص ٤٥ ) طبعة بومباي ١٣٤٢ هـ .

(١٧) صحيح مسلم - كتاب الامارة -- باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش : ( ص ١٩١ ، ج ٢ ، ق ١ ) طبعة مصر ١٣٤٨ هـ

(١٨) صحيح أبي داود : ( ج ٢) كتاب المهدي : ( ص ٢٠٧ ) طبعة مصر المطبعة التازية

(١٩) مسند أحمد وقد أخرج مع هذا الحديث ، رواية اخرى عن جابر من أربعة وثلاثين طريقاً .

ب – لقد سبق انه لابد ان تكون الحجة دائمة للخلق كصلة تربطهم بربهم ، فإذا ثبت ذلك ثبتت حياة الإمام ووجوده فعلاً داعياً للخلق ، ولا يستلزم غيابه عدم فائدة إذ انه بطبيعة صلته الغيبية بالله القادر العليم يستطيع ان يحقق ما يراه صالحاً بطريقة غير مباشرة ، وإذا كان الله قادراً على اعطاء الملائكة المقربين قوى قاهرة ، وتخويلهم بعد ذلك صلاحيات كبيرة فانه سيكون قادراً على اعطاء مثل ذلك للنبي او وصي النبي كالإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) .

وإذا كانت سنة الله قد جرت في الخلق ان يجعل لكل شيء سبباً ، وابتْ ان تجري الأمور إلاّ باسبابها ، فما المانع عن قبول فكرة جعل بشر صالح مطيع لله سبباً لطائفة من الأمور ولو بصورة غيبية ؟ كما نقول في الإمام الحجة ( عجل الله فرجه ) .

ومن هنا نعرف ان الإيمان بالإمام الغائب ( عجل الله فرجه ) جزء رئيس من الإيمان بالغيب ككل . وانه لا يستطيع أحد ان يبعض ايمانه فيسلم بالغيب ويستنكر تاييد الإمام الحجة ( عجل الله فرجه ) بالغيب ، او يؤمن بتاييد الملائكة للرسول ثم يكفر بامكانية تاييد الإمام الغائب للصالحين .

ومن جهة اخرى هناك جوانب اخرى للإمام نذكر منها ما يلي :

## المهدي الحجة الشاهد :

ان الإمام الحجة ( عجل الله فرجه ) شاهد بإذن الله على الناس ، ومعرفة المؤمنين بهذه الحقيقة تجعلهم يسارعون في الخيرات ، ويجتهدون للاقتداء بسيدهم وجعل حياتهم نسخة من حياة سيدهم وولي امرهم .

وبما ان الحجة (ع) إمام حي ، وان القيادة الحقيقية له ، وانه ينوبه في ذلك من يكون اقرب إليه وأحسن اقتداء بهديه ، فإنه يصبح كالميزان في انتخاب القيادة ن بل وفي فرز الخط الإلهي الذي ينتمي إليه الصالحون عن الخطوط المتفرقة التي لا تستقيم على هذا الايمان .

## الإمام الحجة في كتب الإديان :

بالرغم من تطاول يد التحريف على الكتب السماوية الموجودة حالياً فانه يوجد فيها بعض الحقائق ان لم تكن لتفيد لاثبات الواقع بذاتها ، فانها تفيد للاحتجاج على من يعتقد بها ، وفيما يلي نذكر نصوصاً من كتب الأديان عن الإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) .

(١) " الصديقون يرثون الأرض إلى الأبد " .

المزمور السابع والثلاثون – كتاب المزامير

كما قد تضّمن ايضاً تفاصيل كثيرة عن الأوضاع في آخر الزمان مما يؤيد ما في أحاديث المسلمين ، ثم يقول : " اما الأشرار فيبادون جميعاً – عقب الأشرار ينقطع – " .

(٢) " ويل للأمة الخاطئة – الشعب الثقيل الاثم – نسل فاعلي الشر اولاد المفسدين تركوا الرب .." .

" .. ارضكم تاكلها غرباً قدامكم وهي خربة كانقلاب الغرباء ، وبعد ذلك تدعين مدينة العدل ، القرية

الأميـنـة " .

كتاب اشعيا — الاصحاح الأول

(٣) " فيرفع راية الأمم من بعيد ، ويصفر لهم من اقصى الأرض . فإذا هم بالعجلة يأتون ليس فيهم رازح ولا عاثر " .

الاصحاح الخامس

(٤) " إلى ان تصير المدن خربة بلا ساكن ، والبيوت ، بلا إنسان ، وتخرب الأرض وتقفر ويبعد الأرض الإنسان ، ويكثر الخراب في وسط الأرض ، وان يبقى فيها عشر بعد ، فيعود ويصير للخراب ، ولكن كالبطمة والبلوطة التي — وان قطعت — فلها ساق يكون ساقه زرعاً مقدساً ".

الاصحاح السادس — من كتاب اشعيا

(٥) " يقيم إله السماء مملكة لن تنقرض ابداً ، وملكها لا يترك لشعب آخر ، وتسحق وتفني كلّ هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد " .

ثم يقول : " .. طوبى لمن انتظر " .

كتاب حجار — الاصحاح الثاني

(٥) " قال رب الجنود . هي مرة بعد قليل ازلزل السماوات والارض والبحر واليابسة ، وازلزل كل الأمم ، ويأتي بعدها كل الأمم تملأ هذا البيت " .

كتاب حجار — الاصحاج الثاني

(٦) " ويكون في كل الأرض يقول الرب ، ان ثلثين يقطعان ويموتان ، والثلث يبقى فيها ، وادخل الثلث في النار ، وامحصهم كمحص الفضة ، وامتحنهم امتحان الذهب ، هو يدعو باسمي وانا اجيبه اقول هو شعبي وهو يقول الرب إلهي " [٢٠] .

كتاب زكريا — الاصحاح الثالث عشر

(٧) " ان يسوع — هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي إليكم كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء " [٢١] .

كتاب اعمال الرسل — العهد الجديد — الاصحاح الاول

(٨) " وان مضيت واعددت لكم مكاناً آتي ايضاً " .

إنجيل يوحنا — الاصحاح الرابع عشر

(٩) " لانه بعد قليل جداً سيأتي الآتي ولا يبطئ " .

الاصحاح العاشر من الرسالة التي كانت إلى العبرانيين

---

(٢٠) لقد جاء في كثير من احاديث آل البيت عليهم السلام ان ثلثي أهل الأرض يموتون ويبقى الثلث الآخر فيمحص تمحيصاً .

(٢١) لقد استفاضت أخبارنا الدينية - برجوع عيسى (ع) معه - تماماً كما يذكره هذا الكتاب .

(١٠) " ثبت للقضاء على كرسيه وهو يقتضي للمسكونة بالعدل ليالي الشعوب بالإستقامة " .

المزمور التاسع من مزامير داود

ثم يقول ، " وانما الذي عندكم تمسكوا به إلى ان ياتي من يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية ، فساعطيه سلطاناً على الأمم فيرعاها بقضيب من حديد ، كما تكسر آنية من خزف ، واعطيه كوكب الصبح من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس " .

(١١) " اما ذلك اليوم ، وتلك الساعة فلا يعلم بها احد " .

إنجيل متّى – الاصحاح الرابع والعشرون

ولا اعلق على هذه المقتطفات من كتب العهدين لانها تطابق بشئ من الإختلاف ما جاء في الأحاديث الصحيحة من علامات الظهور وسمات دولة الحق .

واما المجوس فانهم ايضاً يعتقدون برجوع إنسان باسم ( بهرام ) الذي لا يختلف معناه عن المهدي شيئاً .

والبراهمة ايضاً يعتقدون بظهور ( كرشنا ) على ما يدعون . إلاّ ان هناك ادلة كثيرة على بعث انبياء وصلحاء مع الإمام المهدي ( عجل الله فرجه ) ليروا الحق ظاهراً على الأرض كلها . ولعل بهرام وكرشنا كانا صالحين ممن لا نعرف اسمهم .

ان ظهور الإمام يعتبر عند الأئمة الطاهرين (ع) القيامة الصغرى ، حيث يبعث من كل امة شهيداً .

## الفصل الثالث

# علامات الظهور

في هذا الفصل نتحدث عن بعض من العلامات التي سوف تتحقق قبل ظهور الإمام . وقد سبق في الفصل السابق الحديث عن بعضها من شمول الفساد والظلم جميع ارجاء الأرض ، واشاعة الفحشاء والبغي فيها وتغيرات سماوية وقحط شديد ، وحروب ضارية تلتهم ثلثي اهل الأرض ، وظهور ما يدعى (الدجال) يدعو إلى الباطل ويتهافت الخلق إليه ، واخيراً ادعاء البعض انه المصلح الأكبر ، ثم فشله في تحقيق ما يدعيه ونعتمد في هذه العلامات على النصوص المأثورة الصادرة عن مهابط الوحي .

(١) عن الرسول (ص) انه قال :

" منا مهدي هذه الأمة . إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً وتظاهرت الفتن ، وتقطعت السبل واغار بعضهم على بعض ، فلا كبير يرحم صغيراً ، ولا صغير يوقر كبيراً ، فيبعث الله عند ذلك مهدينا التاسع من صلب الحسين (ع) يفتح حصون الضلالة ، وقلوباً غفلاً ، يقوم في الدين في آخر الزمان كما قمت به في اول الزمان . يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً " .

(٢) قال ايضاً – ضمن حديث طويل – حدثه علياً (ع) :

" ثم نودي بنداء يسمع من البعد كما يسمع من القرب يكون رحمة على المؤمنين وعذاباً على الكافرين. قلت : ما لذلك النداء ؟ قال (ص) : " ثلاثة اصوات في رجب اولها : الا لعنة الله على الظالمين ، والثاني: ازفت الآزفة والثالث : يرون بدناً بارزاً مع قرن الشمس . الا ان الله قد بعث فلاناً [٢٢] ، حتى لينسبه إلى علي . فيه هلاك الظالمين ، فعند ذلك يأتي الفرج " قلت : يا رسول الله ! فكم يكون بعدي من الائمة . قال (ص) : بعد الحسين تسعة والتاسع قائمهم " .

(٣) وفي حديث آخر عن الرسول (ص) . فقلت : إلهي وسيدي متى يكون ذلك ؟

فاوحى الله عزّ وجلّ : " يكون ذلك إذا رفع العلم وظهر الجهل ، وكثر القراء ، وقل العمل ، وكثر القتل وقل الفقهاء الهادون ، وكثر فقهاء الضلالة والخونة ، وكثر الشعراء ، واتخذ امتك قبورهم مساجد [٢٣] ،

---

(٢٢) أي " الامام المنتظر ( عجل الله فرجه ) " منتسباً إلى آبائه المعصومين ( ع ) .

(٢٣) كناية عن عبادة الاشخاص شركاً بالله .. وليس من ذلك التقرب إلى الله بقبور الصالحين التي جرت عليه سنة الإسلام والمسلمين منذ أول يوم ، ويعني الحديث عن حلية المصاحف وزخرفة المساجد : اكتفاء المسلمين في ذلك اليوم بالمظاهر دون العمل بالحقائق .

وحليت المصاحف ، وزخرفت المساجد ، وكثر الجور والفساد ، وظهر المكر ، وامر امتك به ، ونهى عن المعروف ، واكتفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وصار الأمراء كفرة وأولياؤهم فجرة ، وأعوانهم ظلمة ، وذوو الراي منهم فسقة ، وعند ذلك ثلاثة ، خسف بالمشرق ، خسف بالغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وخراب بالبصرة على يد رجل من ذريتك يتبعه الزنوج ، وخروج رجل من ولد الحسين بن علي (ع) وظهور الدجال يخرج من المشرق من سجستان وظهور السفياني " .

(٤) وقال (ع) في حديث :

" إحفَظْ .. فإن علامة ذلك – أي ظهور الإمام (ع) – إذا امات الناس الصلاة ، واضاعوا الامانة ، واستحلوا الكذب ، واكلوا الربا ، وأخذوا الرشا ، وشيدوا البنيان وباعوا الدين بالدنيا ، واستعملوا السفهاء ، وشاوروا النساء ، وقطعوا الأرحام ، واتبعوا الأهواء ، واستخفوا بالدماء ..".

" .. كان الحلم ضعفاً والظلم فخراً ، كان الأمراء فجرة والوزراء ظلمة ، والعرفاء خونة والقراء فسقة ، وظهرت شهادة الزور ، واستعلى الفجور ، وقول البهتان والإثم والطغيان ، وحليت المصاحف ، وزخرفت المساجد ، وطولت المنائر واكرم الأشرار وازدحمت الصفوف ، واختلفت الأهواء ونقضت العقود ، واقترب الموعود ، وشارك النساء ازواجهن في التجارة حرصاً على الدنيا ، وعلت اصوات الفساق ، واستمع منهم ، وكان زعيم القوم ارذلهم ، واتقي الفاجر مخافة شره ، وصدق الكاذب وائتمن الخائن واتخذت المعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، وركب ذوات الفروج السروج ، وتشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء ، وشهد الشاهد من غير ان يستشهد ، وشهد الآخر قضاء لذمام بغير حق عرفه وتفقه لغير الدين ، وآثروا عمل الدنيا على الآخرة ، ولبسوا جلود الظان على قلوب الذئاب ، وقلوبهم انتن من الجيف فعند ذلك الوحي الوحي . العجل العجل . خير المساكن يومئذ بيت المقدس . ليأتي على الناس زمان يتمنى أحدهم إنه من سكانه " .

(٥) وقال (ع) :

" إن لخروجه عشرة علامات ، اولها : تخريق الرايات في ازقة الكوفة ، وتعطيل المساجد ، وانقطاع الحاج ، وخسف وقذف بخراسان ، وطلوع الكوكب المذنب ، واقتراب النجوم ، وهرج ومرج ، وقتل ونهب . فتلك عشر علامات ، من العلامة إلى العلامة عجب ، فإذا تمت العلامات قام قائمنا " .

(٦) قال الإمام الحسين (ع) :

" إذا رأيتم منار نادى من المشرق ثلاثة أيام أو سبعة فتوقعوا فرج اهل محمد (ص) إن شاء الله .. ينادي منار من السماء باسم المهدي فيسمع من المشرق والمغرب حتى لا يبقى راقد الا استيقظ ، ولا قائم الا قعد ، ولا قاعد إلا قام على رجله فزعاً ، فرحم الله من سمع ذلك الصوت فأجاب ، فان صوت الأول صوت جبرائيل ، الروح الأمين " .

(٧) وفي حديث عن رسول الله (ص) انه قال :

" اي والذي نفسي بيده يا سلمان ؛ ان عندها يؤتى بشيء من المشرق وشيء من المغرب ، فالويل لضعفاء امتي منهم ، والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يتجافون عن سيء جثتهم جثة الآدمين وقلوبهم قلوب الشياطين ..".

ثم قال : " .. فلم يلبث إلا قليلاً حتى تخور الأرض خورة فلا يظن كل قوم إلاّ انها حادثة في ناحيتهم ، فيمكثون في ملتهم فتلقي لهم الارض افلاذ كبدها . قال : ذهباً وفضةً ، ثم اومئ بيده إلى الأساطين فقال: مثل هذا ، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة ، فهذا معنى قوله : ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (مُحَمَّدْ/١٨) [٢٤] .

(٨) عن ابي جعفر محمد بن علي (ع) انه قال :

" لا يظهر المهدي (ع) إلاّ على خوف شديد وزلزال وفتنه تصيب الناس ، وطاعون قبل ذلك ، وسيف قاطع بين العرب ، واختلاف شديد بين الناس ، وتشتت في دينهم وتغير في حالهم ، يتمنى المتمني الموت صباحاً ومساءً من عظم ما يرى من تكالب الناس واكل بعضهم بعضا ، فخروجه إذا خرج يكون عند الياس والقنوط من ان يُرى فرجاً ، فيا طوبى لمن ادركه وكان من انصاره والويل كل الويل لمن خالفه وخالف أمره " [٢٥] .

(٩) عن ابي عبد الله الصادق (ع) انه قال :

" خمس قبل قيام القائم (ع) : اليماني والسفياني ، والمنادي ينادي من السماء ، وخسف بالبيداء ، وقتل نفس زكية ، وقال : ليس بين قائم آل محمد وقتل النفس الزكية إلاّ خمسة عشر يوماً " [٢٦] .

وقال في حديث آخر : " تنكسف الشمس لخمس مضين من شهر رمضان ، قبل قيام القائم (ع) " [٢٧] .

هذا وهناك علامات اخرى كثيرة نكتفي عنها بما سبقت من المشابهة بينها وبين ما قلنا .

وعنه (ع) انه قال : " ستخلو كوفة من المؤمنين ويازر عنها العلم كما تازر الحية في جحرها ثم يظهر العلم ببلدة يقال لها قم ، وتصير معدناً للعلم والفضل حتى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدين حتى المخدرات في الحجال وذلك لا يكون إلا عند قرب ظهور قائمنا فيجعل الله ( قم ) واهلها قائمين مقام الحجة ولولا ذلك لساخت الأرض باهلها ، ولم يبق في الارض حجة يفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب فيتم حجة الله على الخلق حتى لا يبقى احد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم ، ثم يظهر القائم ، ويصير سبباً لنقمة الله ولسخطه على العباد لأن الله لا ينتقم من العباد إلاّ بعد إنكارهم حجته " [٢٨] .

---

(٢٤) منتخب الأثر . ( ص ٤٣٤ ) .

(٢٥) منتخب الأثر : ( ص ٤٣٤ ) .

(٢٦) منتخب الأثر : ( ص ٣٤٩ ) .

(٢٧) منتخب الأثر : ( ص ٤٤١ ) .

(٢٨) منتخب الأثر عن البحار ( ص ٤٤٣ )

## الفصل الرابع

# من روائع الإمـام

### (١) أنت كنفـي :

" .. لا إله إلاّ الله حقاً حقاً ، لا إله إلاّ الله صدقاً صدقاً . لا إله إلاّ الله تعبداً ورقاً .

اللهم معز كل مؤمن وحيد ، ومذل كل جبار عنيد ، انت كنفي حين تعييني المذاهب ، وتضيق عليّ الأرض بما رحبت .

اللهم خلقتني وكنت غنياً عن خلقي ، ولولا نصرك إياي لكنت من المغلوبين ، يا منشر الرحمة من مواضعها ، ومخرج البركات من معادنها ويا من خصّ من نفسه بشموخ الرفعة ، فاولياؤه بعزه يتعززون ، يا من وضعت له الملوك نير المذلة على أعناقهم فهم من سطوته خائفون ، اسالك باسمك الذي فطرت به خلقك فكل لك مذعنون ، اسالك ان تصلي على محمد وعلى آل محمد ، وان تنجز لي امري وتعجل لي الفرج ، وتكفيني وتعافيني وتقضي حوائجي ،الساعة الساعة ،الليلة الليلة ، انك على كل شيء قدير "[٢٩] .

### (٢) المحمدة لك :

" اللهم ان اطعتك فالمحمدة لك ، وان عصيتك فالحجة لك . منك الروح ومنك الفرج ، سبحان من انعم وشكر ، سبحان من قدر وغفر ، اللهم ان كنت قد عصيتك فاني قد اطعتك في احب الأشياء إليك وهو الايمان بك ، لم اتخذ لك ولداً ولم ادع لك شريكاً ، مناً منك به عليّ . لا مناً مني به عليك ، وقد عصيتك يا إلهي على غير وجه المكابرة ، ولا الخروج عن عبوديتك ، ولا الجحود لربوبيتك ، ولكن اطعت هواي وازلني الشيطان ، فلك الحجة عليّ والبيان "[٣٠] .

### (٣) عظم البـلاء :

" إلهي عظم البلاء وبرح الخفاء وانكشف الغطاء وانقطع الرجاء ، وضاقت الأرض ومنعت السماء ، وانت المستعان وإليك المشتكى وعليك المعول في الشدة والرخاء "[٣١] .

### (٤) اللهم ارزقنـا :

" اللهم ارزقنا توفيق الطاعة ، وبعد المعصية وصدق النية ، وعرفان الحرمة ، واكرمنا بالهدى والاستقامة

---

(٢٩) إمام المهدي : ( ص ٢٣٦ ) ومن دعائه (ع) - للحاجة -.

(٣٠) الإمام المهدي : ( ص ٢٤٠ - ٢٤٥ ) .

(٣١) الإمام المهدي · ( ص ٢٤٠ - ٢٤٥ ) .

وسدد السنتنا بالصواب والحكمة ، واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة ، وطهّر بطوننا من الحرام والشبهة ، واكفف أيدينا عن الظلم والسرقة ن واغضض ابصارنا عن الفجور والخيانة واسدد اسماعنا عن اللغو والغيبة ، وتفضل على علمائنا بالزهد والنصيحة ، وعلى المتعلمين بالجهد والرغبة ، وعلى المستمعين بالاتباع والموعظة ، وعلى مرضى المسلمين بالشفاء والراحة ، وعلى موتاهم بالرأفة والرحمة ، وعلى مشايخنا بالوقار والسكينة ، وعلى الشباب بالانابة والتوبة ، وعلى النساء بالحياء والعفة ، وعلى الأغنياء بالتواضع والسعة ، وعلى الفقراء بالصبر والقناعة ، وعلى الغزاة بالنصر والغلبة ، وعلى الأسراء بالخلاص والراحة ، وعلى الأمراء بالعدل والشفقة ، وعلى الرعية بالإنصاف وحسن السيرة ، وبارك للحجاج والزوار في الزاد والنفقة ، واقض ما اوجبت عليهم من الحج والعمرة ، بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين " [٣٢] .

## (٥) شرطتَ عليهم الزهد :

" اللهم لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في اوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد ان شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقربتهم وقدمت لهم الذكر العلي والثناء الجليّ واهبطت عليهم ملائكتك وكرمتهم بوحيك ورفدتهم بعلمك وجعلتهم الذريعة إليك والوسيلة إلى رضوانك فبعض اسكنته جنتك إلى ان اخرجته منها ، وبعض حملته في فلكك ونجيته ومن آمن معه من الهلكة برحمتك ، وبعض اتخذته لنفسك خليلاً وسالك لسان صدق في الآخرين فاجبته وجعلت ذلك علياً ، وبعض كلمته من شجرة تكليماً وجعلت له من اخيه ردءاً ووزيراً وبعض اولدته من غير اب وآتيته البينات وايدته بروح القدس وكلاً شرعت له شريعة ونهجت له منهاجاً وتخيّرت له اوصياء مستحفظاً بعد مستحفظٍ . من مدة إلى مدة إقامة لدينك وحجة على عبادك ، ولئلا يزول الحق عن مقره ، ويغلب الباطل على اهله ، ولئلا يقول احد لولا ارسلت إلينا رسولاً منذراً ، واقمت لنا علماً هادياً فنتبع اياتك من قبل ان نذل ونخزى " [٣٣] .

## (٦) المنتجب في الميثاق :

" اللهم صلّ على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وحجة رب العالمين ، المنتجب في الميثاق المصطفى في الظلال ، المطهر من كل آفة ، البرئ من كل عيب ، المؤمل للنجاة ، المرتجى للشفاعة ، المفوض إليه دين الله . اللهم شرفّ بنيانه وعظّمْ برهانه وافلجْ حجته ، وارفع درجته واضئ نوره وبيض وجهه واعطه الفضل والفضيلة والمنزلة والوسيلة ، والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والأخرون " [٣٤] .

---

(٣٢) الإمام المهدي : ( ٢٤٦ ) في بلد الأمين ( ٥٢١ ) .

(٣٣) تحفة الزائر في آداب زيارته (ع) .

(٣٤) تحفة الزائر في آداب زيارته (ع) .

## (٧) أفتتح الثناء بحمدك :

" اللهم إنّي أفتتح الثناء بحمدك وأنت مسدد للصواب بمنّك وأيقنت أنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة .

اللهم أذنت لي في دعائك ومسألتك فاسمع يا سميع مدحتي وأجب يا رحيم دعوتي وأقل يا غفور عثرتي ..

الحمد لله مالك الملك مجري الفلك مسخر الرياح فالق الإصباح ديّان الدين رب العالمين الحمد لله على حلمه بعد علمه والحمد لله على عفوه بعد قدرته والحمد لله على طول اناته في غضبه وهو قادر على ما يريد ، الحمد لله خالق الخلق ، باسط الرزق فالق الاصباح ذي الجلال والاكرام والفضل والانعام الذي بعُد فلا يرى وقرب فشهد النجوى تبارك وتعالى ..

الحمد لله الذي يؤمن الخائفين وينجي الصالحين ويرفع المستضعفين ويضع المستكبرين ويهلك ملوكاً ويستخلف آخرين ، والحمد لله قاصم الجبارين مبير الظالمين مدرك الهاربين نكال الظالمين صريخ المستصرخين موضع حاجات الطالبين معتمد المؤمنين .

اللهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمه تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة .

اللهم ما عرفتنا من الحق فحمّلناه وما قصرنا عنه فبلغناه .

اللهم إنّا نشكوا إليك فقد نبينا صلواتك عليه وآله وغيبة ولينا وكثرة عدونا وقلة عددنا وشدّة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا فصل على محمد وآله واعنا على ذلك بفتح منك تعجّله وبضر تكشفه ونصر تعزه وسلطان حق تظهره ورحمة منك تجللناها وعافية منك تلبسناها برحمتك يا أرحم الراحمين " [٣٥] .

## كلمة أخيرة :

منذ ألف ومائة وخمسين عاماً — أي منذ ولادته (ع) في عام ( ٢٥٥ ) وحتى هذه السنة الهجرية (١٤٠٥)، يتقلب سيدنا المهدي ( عجل الله فرجه ) في الساجدين يسهر الليالي تهجداً لله ، ويطوي الأيام عبادة وتسليماً لرب العالمين .

وينتظر ساعة النصر حين يأذن الله له بالفرج ويدعو الله كما يدعوا المؤمنون ربهم بالفرج القريب ، ويمارس — بالتالي — أفضل أعمال أمة محمد (ص) وهو انتظار الفرج .

يا له من وجه كريم عند الله . دعنا — إذاً — نقدمه بين يدي حاجاتنا ونتوسل به إلى ربنا كي يكشف هذه الغمة عن أمتنا المعذبة .

دعنا نذكره عند اشتداد الكرب ، ونقسم على ربنا بعبده الصالح المدخّر لنصرة عباده المستضعفين لكي يكشف الله عنا العذاب .

دعنا ندعو الله ونحمده أن يعجل بطلعته البهيّة وأن يجعلنا من أنصاره وأعوانه آمين رب العالمين .

---

(٣٥) مفاتيح الجنان : ( ص ١٨١ - ١٨٢ ) .

# الفهـــــرس

## الإمام الحسن (ع) قدوة واسوة



## الإمام الحسين (ع) قدوة واسوة



## الإمام السجاد (ع) قدوة واسوة



## الامام الباقر (ع) قدوة واسوة



## الامام الصادق (ع) قدوة واسوة

## الإمام الكاظم (ع) قدوة وأسوة



## الإمام الرضا (ع) قدوة واسوة



## الإمام الجواد (ع) قدوة واسوة



## الإمام الهادي (ع) قدوة واسوة

## الإمام العسكري (ع) قدوة واسوة

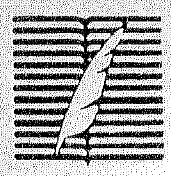


## الإمام المهدي (عج) قدوة وأسوة

... اربع عشرة قدوة واسوة إلهية شهداء على درب الإيمان معالم في طريق الجنة اعلاماً للهدى هل تجد لهم في الخلق نظيرا؟ واورثوا الأمة من بعدهم ـ إلى جانب كنوز العلم ـ تلك السيرة الوضيئة التي لاتزال تدعونا إلى الفضيلة والهدى.

مسيرة اعلام الهدى تعطينا ـ ابداً ـ عزماً راسخاً لاقتحام المستقبل و اكتشاف المزيد من امكانات الانسان الكبيرة وبالذات الآفاق الروحية التي لاتحد.

واليوم حيث استطاع الانسان بفضل نعمة المعرفة والتقنية، ان يتقدم خطوات واسعة نحو تسخير الطبيعة، ازدادت حاجته إلى الاخلاق لكبح جماح فرس العلم برسن الفضيلة الّا يقتحم بنا وديان الدمار..



دار البقيع للطباعة والنشر

العنوان: جمهورية ايران الاسلامية - صندوق البريد - ١٤١٥٥/٦٥٧٧